@ketab_n
Follow Me
30.3.2016

ليون تولستوي

الأعمال الادبية الكاملة

٦

# الحرب والسلم

توفيق

٣

ترجمة
صيّاح الجهيم

ليون تولستوي

الأعمال الأدبيّة الكاملة

٦

# الحرب والسلم

-٣-

ترجمة

صيّاح الجهيم

منشورات وزارة الثقافة والارشـاد القومي

دمشق – ١٩٨١

@ketab_n @4_readers

@ketab_n
@4_readers

## العنوان الاصلي للكتــاب

**La guerre et la Paix**

**Livre troisième**

**1961 . Editions Rencontre Lausanne**

@ketab_n @4_readers

# الكتاب الثالث



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الجزء الاول

كل ما هو مطبوع في هذا الكتاب
بحرف أسود فقد ورد في الاصل
الروسي باللغة الفرنسية .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الأوّل

منذ أواخر عام ١٨١١ شرعت اوروبا الغربية في تجهيز قواتها تجهيزا كثيفا وفي حشدها وتركيزها ، وفي عام ١٨١٢ اخذت هذه القوات ، ملايين الرجال ( ومن ضمنهم الذين كانوا يقومون بنقل الجيش وتموينه) تزحف من الغرب الى الشرق متجهة الى الحدود الروسية التي كانت القوات الروسية تسير اليها كذلك منذ عام ١٨١١ • وفي ١٢ حزيران [1] عبرت قوات اوروبا الغربية الحدود الروسية وبدأت الحرب ، أي انه قد حدث حدث مخالف للعقل ومناقض للطبيعة البشرية • ذلك أن ملايين البشر ارتكبوا بعضهم تجاه بعض عددا لايحصى من ضروب الاثم والغش والخيانة والسرقة والاحتيال وترويج النقد الزائف والنهب والحرق والقتل ، عددا تعجز جميع سجلات محاكم العالم عن ان تجمع مثله في قرون كاملة • لكن الذين ارتكبوا هذه الجرائم لم يكونوا يعدّونها جرائم آنذاك •

فما الذي دعا الى هذا الحدث العجيب ؟ ماأسبابه ؟ يؤكد المؤرخون تأكيدا ساذجا ان الاسباب هي : الاهانة التي لحقت بدوق اولدنبرج ،

(١) « في ١٢ حزيران » أي في ٢٤ حزيران حسب التقويم الغريغوري . ولابد من الملاحظة ان جميع التواريخ التي يعطيها تولستوي ، حسب التقويم الروسي ، تتاخر اثني عشر يوما .



@ketab_n @4_readers

خرق الحصار القاري ، نزوع نابليون الى السيطرة ، عناد الاسكندر ، أخطاء الدبلوماسيين ، الخ .

وبناء على ذلك فقد كان يكفي ، حتى لاتقع الحرب ، أن يعكف ماترنيخ أو روميا نتزيف او تاليران ، فيما بين حفلتين ، على تدبيج مذكرة بارعة الاسلوب محكمة الصنع ، أو أن يكتب نابليون الى الاسكندر : **« سيدي الاخ ، اوافق على ان اعيد الى الدوق اولدنبرج دوقيته » .**

نحن نفهم ان تكون الاشياء قد بدت على هذا النحو بالنسبة الى الناس آنذاك . ونفهم ان يعزو نابليون الحرب الى دسائس انكلترا (كما قال في جزيرة القديسة هيلانة)،وأن يردّ اعضاء البرلمان الانكليزي هذه الحرب الى نزوع نابليون الى السيطرة ؛ وان يردها دوق اولدنبرج الى العنف الذي كان ضحية له ، وان يردها التجار الى الحصار القاري الذي قاد اوروبا الى الافلاس ، وان يردها الجنود والقادة القدماء الى ضرورة استخدامهم ، وان يردها المنادون بالشرعية الى ضرورة اعادة المبادىء الشرعية الخيّرة ، وان يردها الدبلوماسيون الى أن التحالف المعقود سنة ١٨٠٩ بين روسيا والنمسا لم يخف ببراعة كافية عن نابليون والى الصياغة الرديئة التي صيغت بها المذكرة رقم ١٧٨ . نحن نفهم ان يتعلل الناس آنذاك بهذه الاسباب وبأسباب كثيرة اخرى تبعا لتعدد وجهات النظر ؛ أما بالنسبة الينا ، نحن الاجيال التي جاءت من بعد ، ونحن ننظر الى ذلك الحادث الجلل بكل اتساعه واهميته ونتحرى معناه البسيط الرهيب ، فان هذه الاسباب تبدو غير كافية . لسنا نفهم كيف يمكن ان يقتل ملايين المسيحيين بعضهم بعضا وان يعذب بعضهم بعضا لان نابليون كان متعطشا الى السلطة ولان الاسكندر كان عنيدا ، ولان



@ketab_n @4_readers

سياسة انكلترا كانت ملتوية ماكرة، ولان دوق اولدنبرج قد أهين. لسنا نفهم الصلة التي يمكن ان تكون بين هذه الظروف وجرائم القتل والعنف ؛ لسنا ندرك كيف أمكن لاهانة لحقت بدوق أن تدفع الاف البشر الآتين من أطراف اوروبا الغربية الى قتل ونكب سكان مقاطعتي سمولنسك وموسكو والى ان يلاقوا القتل على ايدي هؤلاء السكان .

بالنسبة الينا ، نحن الاجيال التي جاءت من بعد ، ونحن لسنا بمؤرخين لتضللنا اهواء البحث والاستقصاء ، ومن ثم فنحن نستطيع ان ننظر مليا في الحدث دون ان تغشي الحجب عقولنا ، بالنسبة الينا ، تبدو هذه الاسباب عديدة لاحصر لها . وكلما أمعنّا في البحث عنها تبين لنا أنها اكثر عددا مما كنا نظن ، وبدا كل منها ، اذا نظرنا اليه بمعزل عن غيره من الاسباب او ضمن زمرة منها ، صحيحا في ذاته وباطلا في الوقت نفسه بسبب تفاهته ازاء عظم الحدث ، وبسبب عجزه وقصوره عن ابتعاث مثل ذلك الحدث ( اذا لم تتدخل الاسباب الاخرى المتوافقة معه ) . ان رغبة أي عريف فرنسي في العودة الى الجيش او رفضه لهذه العودة يبدو سببا صحيحا ومقبولا ، شأنه شأن رفض نابليون الانسحاب الى ماوراء الفستول واعادة دوقية اولدنبرغ : فلو ان هذا العريف رفض العودة الى الخدمة العسكرية ، ورفض ثان وثالث والاف الجنود هذه العودة لما بقي في جيش نابليون مايكفي من الرجال ولما أمكن للحرب أن تقع .

لو أن نابليون لم يوجس خيفة من طلب الانسحاب الى ماوراء الفستول ولم يأمر جنده بالتقدم لما وقعت الحرب ؛ ولكن لو أن جميع العرفاء رفضوا العودة الى الجيش لما امكن للحرب ان تقع ايضا .وكذلك



@ketab_n @4_readers

فان الحرب كانت ستكون مستحيلة لولا دسائس انكلترا ، ولولا دوق اولدنبرج ، ولولا الاهانة التي احس بها الاسكندر ، ولولا الحكم المطلق في روسيا ، ولولا الثورة الفرنسية ، ولولا حكم الادارة والامبراطورية التي تلته في فرنسا ، ولولا كل ما أدّى الى الثورة الفرنسية ، وهلم جرا . وبدون أي من هذه الاسباب ماكان يمكن ان يقع شيء . ومن ثم فان جميع هذه الاسباب والافا غيرها قد تلاقت وتضافرت لخلق الحدث ، وليس بينها سبب قادر على صنع ذلك الحدث وحده دون غيره من الاسباب ، وانما حدث الحدث لانه كان لابد له ان يحدث . كان لابد لملايين الرجال الذين فقدوا رشدهم واضاعوا صوابهم وطرحوا كل العواطف الانسانية ان يسيروا من الغرب الى الشرق وان يقتلوا امثالهم من البشر كما سارت قبل بضعة قرون جماعات من الرجال ، من الشرق الى الغرب ليقتلوا أيضا أمثالهم هناك .

ان أفعال نابليون والاسكندر اللذين كان يبدو أن حدوث الحدث أو عدم حدوثه منوط بكلمة منهما ، لم تكن اكثر حرية من افعال الجندي البسيط الذي قادته القرعة او قاده التجنيد الى ميدان المعركة . ولايمكن ان يكون الامر غير ذلك ؛ فلكي تتم مشيئة نابليون والاسكندر ، ( وهما في الظاهر ، المالكان لزمام الحدث ) كان لابد من تضافر مالايحصى من الظروف التي لايمكن ان يقع الحدث بدون أي منها . كان لابد من ان يقبل ملايين الرجال الذين تتركز في ايديهم القوة الفعلية ــ الجنود الذين كانوا يطلقون النار وينقلون المؤن والمدافع ــ تحقيق مشيئة هذين الرجلين الضعيفين والمنعزلين وان يدفعهم الى ذلك عدد لاحصر له من الاسباب المتنوعة والمركبة .



@ketab_n @4_readers

لا مفر من الحتمية في التاريخ لتفسير الحوادث اللاعقلانية ( أي الحوادث التي لا نفهم معناها ) • وكلما جهدنا في تفسيرها منطقيا بدت لنا أكثر بعدا عن العقل وأكثر استعصاء على الفهم •

كل امرىء يعيش لذاته ، ويمارس حريته ليصل الى أهداف خاصة، ويحس بكل كيانه انه قادر أو غير قادر على اتمام هذا الفعل أو ذاك ، ولكن ما ان يتمه في لحظة معينة من الزمان حتى يغدو فعلا لا رجوع عنه وحتى يغدو ملكا للتاريخ ، وحينذاك يكف عن أن يكون فعلا حرا ويتخذ دلالة متقدمة عليه ومحددة من قبل •

وفي حياة كل امرىء وجهان : الحياة الفردية التي تزداد حريتها بمقدار ما تكون منافعها مجردة غير مشخصة ، والحياة الابتدائية الجماعية التي يخضع فيها الانسان خضوعا محتما للقوانين المفروضة عليه •

ان الانسان يعيش لذاته عن وعي ، لكنه يشارك عن غير وعي في السعي وراء الاهداف التاريخية ، أهداف الانسانية جمعاء • الفعل المنجز التام فعل لا سبيل الى الرجوع عنه ، وهو بتوافقه في الزمن مع آلاف الافعال المنجزة التامة على أيدي أناس آخرين ، يكتسب قيمة تاريخية • وكلما علت منزلة الانسان في السلم الاجتماعي تعاظم عدد الناس الذين يرتبطون به ، وكلما كان سلطانه على الناس أكبر غدا طابع الحتمية والتحديد المسبق في كل فعل من أفعاله أوضح وأبين •

« قلب الملك في يد الرب »[١]

الملك عبد التاريخ •

---

(١) من أمثال سليمان . ويقول نص التوراة اليوناني بالضبط : « قلب الملك في يد الرب ، مثل مجرى ماء ، يقوده حيث يشاء » ( ٢١ ـ ١ ) .



@ketab_n @4_readers

ان التاريخ ، أي حياة الانسانية اللاواعية ، المشتركة ، الجماعية ، يستخدم كل لحظة من حياة الملوك أداة لاتمام مقاصده .

مع أن نابليون ، في هذه الفترة من سنة ١٨١٢ ، كان قانعا أكثر من أي وقت مضى أن اراقة دم الشعوب أو منع اراقته رهن" به ( كما قال له الاسكندر في رسالته الاخيرة ) ، الا أنه لم يكن قط أشد خضوعا لهذه القوانين المحتمة التي كانت تجبره ( في حين كان يعتقد أنه يعمل على هواه ) على اتمام ما لم يكن بد من تمامه للعمل العام المشترك ، للتاريخ .

أخذ رجال الغرب يزحفون نحو رجال الشرق ليقتتلوا وليذبّح بعضهم بعضا . وبموجب قانون تلاقي الاسباب وتضافرها فقد ظهرت آلاف الاسباب الصغيرة لهذه الحركة وهذه الحرب وتوافقت مع ذلك الحدث : المطاعن على خرق الحصار القاري ، اهانة دوق أولدنبرج ، دخول الجيش الى بروسيا بقصد تأمين السلام المسلح ( كذلك كان يعتقد نابليون ) ، حب نابليون للحرب ، وهو حب توافق مع استعدادات شعبه ، جاذبية الاستعدادات الضخمة والنفقات التي جرّتها وضرورة تأمين المنافع والمغانم اللازمة لتغطية تلك النفقات ، وأمجاد درسدن المثْملة[1] ، والمحادثات الدبلوماسية التي حدتها الرغبة الصادقة في السلام كما يرى المعاصرون ، لكنها لم تعْدُ أن جرحت كبرياء المتفاوضين ، وملايين الاسباب الاخرى التي أسهمت في اتمام الحدث وتلاقت معه .

عندما تنضج التفاحة وتسقط ، فلماذا تسقط ؟ ألأن ثقلها جرها

(١) في أواخر ايار سنة ١٨١٢ ، سبق نابليون الجيش وقصد الى درسدن حيث احتفى به امبراطور النمسا وملكا بروسيا والساكس ومجمع الامراء التابعين لهم .



@ketab_n @4_readers

الى الارض ، ألأن سويقها جف ، ألأن الشمس أحرقتها ، ألأنها كانت مفرطة الثقل ، ألأن الريح هزتها ، أم لأن الصبي الجالس تحت الشجرة اشتهى آن يأكلها ؟

ليس في ذلك كله ما يعد سببا حقيقيا لسقوط التفاحة . وليس هاهنا سوى توافق بين الشروط الملائمة لاكتمال الحدث الحيوي ، العضوي ، الابتدائي . وعالم النبات الذي يزعم أن التفاحة سقطت نتيجة لتحلل النسيج الخلوي أو لاسباب أخرى مشابهة ، محق كالطفل الذي يزعم أنها سقطت لانه اشتهى أن يأكلها ولان الله استجاب لدعائه . ومن يزعم أن نابليون زحف على موسكو لانه كان يريد ذلك وأنه لقي الخسران والدمار لان الاسكندر كان يريد ذلك ، محق ومخطيء معا كمن يزعم أن جبلا يزن آلاف الاطنان ومثقوبا من قاعدته قد انهار نتيجة لآخر ضربة معول ضربها آخر العمال . ففي الاحداث التاريخية ليس الرجال العظام المزعومون سوى بطاقات تهب الحدث اسمه ، ولا صلة لهم بهذا الحدث ، شأنهم شأن البطاقات ذاتها .

ان كل فعل من أفعالهم يبدو لهم صادرا عن ارادة حرة ما هو الا فعل غير ارادي بالمعنى التاريخي ، وهو مرتبط بمسيرة التاريخ العامة ، محدد منذ الازل .



@ketab_n @4_readers

## الفصل الثّاني

في ٢٩ أيار غادر نابليون درسدن حيث قضى ثلاثة أسابيع ، تحيط به حاشية من الامراء والدوقات والملوك بل لقد كان فيها امبراطور . وقبل رحيله أثنى على الامراء والملوك والامبراطور الذين استحقوا ثناءه ، وعنف الملوك والامراء الذين لم يكن راضيا عنهم ، وأهدى امبراطورة النمسا درره وماساته الخاصة ، أي تلك التي انتزعها من ملوك آخرين ، وترك الامبراطورة ماري لويز بعد أن ضمها بحنان بين ذراعيه ، مغتمة ، كما يقول مؤرخه[1] ، لفراق يبدو أن ماري لويز هذه ، وكانت تُعتبر زوجة له مع أنه ترك زوجته الشرعية في باريس ، لا تملك القوة على احتماله . ومع أن الدبلوماسيين لم يساورهم الشك في امكان المحافظة على السلام وأنهم بذلوا وسعهم بحماسة من أجل ذلك ، ومع أن الامبراطور نابليون وجّه رسالة شخصية للامبراطور الاسكندر يدعوه فيها « سيدي الاخ » ، ويؤكد له « صادقا » أنه لا يريد الحرب وأنه لن يكف عن حبه وتقديره له ، الا أنه كان ماضيا في طريقه الى الجيش ، وكان يصدر ، عند كل مرحلة ، أوامره التي تهدف الى تسريع حركة الجند من الغرب الى الشرق . كان يسلك الطريق الكبرى ، طريق بوزن ، ثورن ، دانتزيغ وكينسبرج ، في عربة تجرها ستة جياد ويحيط بها خدمه ومرافقوه وحرسه . وفي كل من هذه المدن كان آلاف الاشخاص يستقبلونه بحماسة يشوبها الرعب .

---

(1) مؤرخه هو « ادولف تيير » ، وهو سياسي وكاتب ( ١٧٩٧ - ١٨٧٧ ) . كتب : « تاريخ القنصلية والامبراطورية » في ١٩ مجلدا ، فرغ منه في ١٨٥٥ . وقد استقى تولستوي الكثير منه .



@ketab_n @4_readers

كان الجيش يتقدم من الغرب الى الشرق وكانت العربة ذات الجياد الستة التي تبدل عند كل مرحلة تحمل نابليون الى الوجهة نفسها • وفي ١٠ حزيران أدرك نابليون الجيش وقضى الليل في قلب غابة « ويلكو ويسكي »[1] في ملكية كونت بولوني حيث أعدت من أجله شقة خاصة•

وفي اليوم التالي تجاوز نابليون الجيش وبلغ بعربته نهر النييمين ، وهناك ارتدى بذلة عسكرية بولونية وتفقد ضفاف النهر ليعثر على معبر صالح لعبور القوات •

وحين رأى نابليون في الجانب الآخر من النهو القوزاق والسهوب[2] المترامية الاطراف التي تقع في وسطها موسكو ، المدينة المقدسة ، عاصمة هذه الامبراطورية الشبيهة بامبراطورية السكيتيين التي اجتاحها الاسكندر الاكبر ، أمر جيشه بالتقدم ، مثيرا بذلك الدهشة العامة ومُستهينا بجميع الاعتبارات الستراتيجية والدبلوماسية • وفي اليوم التالي ، عبر الجند نهر النييمين •

في الصباح الباكر من يوم ١٢ حزيران خرج نابليون من خيمته التي نُصبت في هذا اليوم على منحدر وعر من ضفة النهر اليسرى وراقب بمنظاره أمواج الجند وهي تتدفق من غابة ويلكو ويسكي لتنتشر على الجسور الثلاثة المقامة على النهر • وكان الجنود يعلمون أن الامبراطور حاضر هاهنا ، فكانوا يبحثون عنه بأبصارهم ، حتى

---

(١) قرية على الضفة اليسرى للنييمين ، في مقاطعة سواكلي تابعة لدوقية فارسوفيا الكبرى .

(٢) تهكم واضح من المؤلف ، اذ ليس بين النييمين وموسكو سهوب وانما هناك غابات كثيفة وحقول محروثة .



@ketab_n @4_readers

اذا اكتشفوا شخصه على رابية من الارض ، أمام الخيمة ، بعيدا عن حاشيته ، بمعطفه وقبعته الصغيرة، رموا قلنسواتهم في الفضاءوصاحوا : « عاش الامبراطور ! » وكانت جموعهم لاتني تتدفق بعضها وراء بعض خارج الغابة الهائلة التي ضمتهم وأخفتهم حتى هذه الساعة ، ثم تتشعب لتقطع الجسور الثلاثة الى الضفة الاخرى .

**ـ سيكون تقدمنا مؤكدا هذه المرة . اوه ! اذا تصدّى للامور بذاته حميت المعركة ... ها هو ذا ... عاش الامبراطور ! ... ها نحن اولاء في سهوب آسيا ! ... البلد مكرب على كل حال . الى اللقاء يابوشيه ، سأحتفظ لك بأجمل قصر في موسكو . الى اللقاء ! وحظا سعيدا ... هل رأيته ، الامبراطور ؟ عاش الامبراطور ... رطور ! .. لو عينوني حاكما للهند فسأجعلك ، يا جيرار ، وزيرا لكشمير ، هذا مقرر . عاش الامبراطور ! عاش ! عاش ! عاش ! وهؤلاء القوزاق الاوغاد ، ما أسرعهم في الجري ! عاش الامبراطور ! ها هو ذا ! هل رأيته ؟ رأيته مرتين كما أراك . العريف الصغير ! ... رأيته يمنح أحد الجنود القدماء وساما .. عاش الامبراطور ! ...**

كذلك كان يتحدث الشبان والكهول من الجنود ، وهم أناس من مختلف الطباع والاوضاع الاجتماعية . كانت وجوه هؤلاء الرجال جميعا تعكس نفس الفرح ببداية المعركةالتي طال انتظارهم لها ،وتعكس نفس الحماسة ونفس الاخلاص للرجل ذي المعطف الرمادي ، الواقف على الرابية .

في ١٣ حزيران حُمل الى نابليون جواد عربي أصيل ، فاعتلى صهوته ومضى عدوا الى أحد جسور نهر النييمين وقد أصمّته الهتافات الحماسية التي لعله لم يكن يحتملها الا لانه كان من المتعذر منع



@ketab_n @4_readers

هؤلاء الرجال من التعبير بهذه الصرخات عن الحب الذي يكنّونه له ؛ لكن هذه الهتافات التي كانت ترافقه أينما ذهب كانت عبئا عليه لانها كانت تصرفه عن المشاغل العسكرية التي استحوذت عليه منذ أن لحق بالجيش • وعبر النهر على جسر كان يهتز ، ثم انعطف فجأة الى الشمال وعدا بجواده صوب « كوفنو »[1] يسبقه القناصة من الحرس الفرسان الذين كانوا يشقون له طريقا خلال الجند، وقد استخفهم الفرح وأثملتهم السعادة • ولما وصل الى ضفة « فيليا » العريضة ، توقف قرب فوج من الفرسان البولونيين كان يقيم هناك •

هتف البولونيون بالحماسة ذاتها وقد انفضّت صفوفهم وتدافعوا لرؤيته : عاش الامبراطور ! وتفقد نابليون النهر وترجل وجلس على جذع شجرة بجنب الماء • واشار اشارة فحمل اليه منظار مقرب ، وأسنده على ظهر غلام بادر الى ذلك، وقد غمرته السعادة ، وتفحص الجهة الاخرى من النهر • وقال شيئا ، من غير ان يرفع رأسه ، فاذا باثنين من مرافقيه ينطلقان على جواديهما نحو الفرسان البولونيين •

وعندما بلغهم أحدُ المرافقين تساءل الجنود في صفوفهم :

— ما الامر ؟ ماذا قال ؟

لقد امر بالبحث عن مَعبر وبعبور النهر الى الضفة الاخرى • وسأل عقيد الفرسان — وهو شيخ حسن المنظر . محمر الوجه . كان يتلعثم من الانفعال — سأل المرافق : ان كان من المسموح له ولفرسانه عبور النهر سباحة على مرأى من الامبراطور ، وهو ظاهر الخوف من

---

(1) كوفنو مدينة في ليتوانيا على فيليا الذي يصب في النييمين . وكانت واقعة آنذاك في الاراضي الروسية .



@ketab_n @4_readers

الرفض . كمثل صبي يطلب الاذن بامتطاء صهوة جواد • فأجاب المرافق ان الامبراطور لن يستاء . دون شك من هذه الحميّة المفرطة •

وما أن قال ذلك حتى هتف ذلك الضابط المُشَوْربُ القديم ، وهو يستل سيفه وقد بدا عليه الفرح وبرقت عيناه : عاش الامبراطور ! ثم أمر الفرسان أن يتبعوه وهمز حصانه وانطلق الى النهر عدوا • وعند حافة النهر حث بعنف جواده الذي أبدى شيئا من الحِران واندفع الى الماء متجها نحو وسط النهر حيث كان التيار سريعا • فلحق به مئات الفرسان عدوا • وفي منتصف ذلك التيار السريع استولى البرد والخوف عليهم • وأخذ بعضهم يتشبث ببعض وهم يتهاووْن عن خيولهم • فغرقت بعض الجياد كما كان بعض الرجال يغرقون ايضا ، وكان آخرون يسعون جهدهم لبلوغ الضفة الاخرى . ومع ان المعبر كان على نصف فرسخ منهم الا انهم كانوا مزهوّين بأن يسبحوا وان يغرقوا تحت بصر الرجل الجالس على جذع شجرة والذي لم يكن يتطلع الى ما كانوا يفعلونه • وعندما عاد المرافق وانتهز اللحظة المناسبة ليلفت نظر الامبراطور الى اخلاص البولونيين لشخصه ، نهض الرجل القصير ذو المعطف الرمادي ودعا « بيرتييه »[1] وراح يتمشى معه الى جانب الماء مصدرا اوامره وملقيا نظرة ممتعضة على اولئك الفرسان الذين كانوا يغرقون وكانوا يصرفونه عن اهتمامه •

كانت قناعته بأن حضوره في جميع انحاء العالم ، من افريقيا

---

(١) بيرتييه ( ١٧٥٣ - ١٨١٥ ) رئيس اركان نابليون . مارشال فرنسا . وامير واغرام ونوشاتيل .



@ketab_n @4_readers

الى سهوب موسكو يُحدث الاثر نفسه ويثير في الرجال جنون التضحية ، كانت قناعته هذه غير جديدة عليه • فأمر بحصانه وعاد الى مقره •

غرق في النهر مايقربُ من اربعين فارسا رغم القوارب التي أُرسلت لنجدتهم • وقد ارتد معظمهم الى الشاطيء • أما العقيد وبعض الرجال الاخرين فانهم بلغوا الضفة الاخرى وخرجوا بمشقة من الماء • وما ان وضعوا أقدامهم على الارض بثيابهم التي تَرْشحُ ماء حتى هتفوا ، وهم ينظرون بحماسة الى الموضع الذي وقف فيه نابليون ثم غادره ، : « عاش الامبراطور ! » وأحسوا في هذه اللحظة أنهم سعداء •

وفي المساء ، فيما بين أمرين ، أحدهما للتعجيل بارسال العملات الروسية المزيفة بغية ادخالها الى روسيا ، والثاني لاعدام سكسوني قبض معه على رسالة تحتوي على اشارات الى تحركات الجيش الفرنسي ، أصدر نابليون أمرا ثالثا يمنح العقيد البولوني الذي ألقى بنفسه في النهر من غير داع جوقة الشرف التي أنشأها هو نفسه • « ان شاء أن يهلكهم أفقدهم رُشدَهم »[١] •

---

(١) الفكرة لاورو بيلوس : ان شاء جوبيتير ان يهلكهم افقدهم صوابهم قبل كل شيء •



@ketab_n @4_readers

# الفصل الثالث

في هذه الاثناء كان امبراطور روسيا يقيم في « فيلنا » منذ أكثر من شهر ، يستعرض قواته ويشهد مناوراتها . لم يكن قد أُعِدَّ شيء للحرب التي كان جميع الناس يتوقعونها ، والتي من اجل التحضير لها غادر الامبراطور « بطرسبرج » ولم يكن هناك خطة عامة للعمليات . كما ازداد التردد بشأن اختيار خطة بين جميع الخطط المقترحة بعد ان قضى الامبراطور شهرا في مقر القيادة العامة . كان لكل جيش من الجيوش الثلاثة قائده العام ، الا انه لم تكن هناك قيادة موحدة ولم يكن الامبراطور ليضطلع بالاعباء الملقاة على عاتقه .

كان كلما طال مقامه في فيلنا قلّ الاستعداد للحرب التي أعيا انتظارُها ، وكانت جميع جهود بطانته تبدو أنها لاتهدف الا الى حمله على نسيان الحرب الآتية وعلى قضاء الوقت قضاء ممتعا سارا .

وبعد العديد من الحفلات الراقصة والمآدب التي أقامها الاشراف البولونيون ورجال الحاشية والامبراطور نفسه ، عَرضت لاحد الجنرالات من المرافقين العسكَريين البولونيين ، في شهر حزيران ، فكرةُ اقامة مأدبة عشاء وحفلة راقصة على شرف الامبراطور باسم زملائه . وقد لقيت الفكرة هوى في النفوس وقبولا من الامبراطور . فافتتح المرافقون العسكريون من الجنرالات عملية الاكتتاب . ودُعيت أقرب النساء الى نفس الامبراطور لكي تقوم بمهمة ربة المنزل . وقد قدم الكونت « بينيغسين[1] » الذي كانت له املاكه في مقاطعة

(1) تولستوي يسبق التاريخ هنا لان بينيغسين لم ينل لقب كونت الا في ١٨١٢ .



@ketab_n @4_readers

فيلنا[٢] ، منزله الريفي في « زاكرت » لهذا الاحتفال ، وتقرر ان تجري فيه ، في ١٣ حزيران ، الحفلة الراقصة ومأدبة العشاء والنزهة على الماء والالعاب النارية .

ففي نفس اليوم الذي أصدر فيه نابليون أمره بعبور نهر النيمين والذي اجتازت فيه طلائعه الحدود الروسية بعد أن دحرت القوزاق ، كان الاسكندر يقضي سهرته في منزل « بينيغسن » ، الريفي ، في الحفلة الراقصة التي أقامها له الجنرالات ، مرافقوه العسكريون .

كان الاحتفال بهيجا متألقا ، وكان العارفون يقولون انهم لم يروا قط مثل هذا العدد من النساء الجميلات مجتمعات معا . وكانت الكونتيسة « بيزوخوف » التي تبعت الامبراطور من بطرسبرج الى « فيلنا » بين سيدات روسيات أخريات ، حاضرة فبزّت بجمالها الروسي النموذجي السيدات البولونيات الناعمات المرهفات . وقد لفتت اليها الانظار وكرمها الامبراطور باحدى الرقصات .

كان بوريس دروبتسكوي هناك ايضا ، فتى عزبا ، كما كان يقول ، وذلك لانه ترك زوجته في موسكو ، ومع انه لم يكن مرافقا عسكريا جنرالا الا انه شارك بمبلغ كبير في الاكتتاب لهذه الحفلة . لقد غدا الآن رجلا غنيا قطع شوطا بعيدا على طريق المجد ، ولم يعد يبحث عمن يدعمه ، لكنه كان يتعامل مع أعلى أقرانه منصبا تعامل الند للند .

في منتصف الليل كان الرقص مايزال مستمرا . وقد دعت هيلين بنفسها « بوريس » الى رقصة « المازوركا » ، حين لم تجد مُراقصا

---

(٢) فيلنا مدينة رئيسية من مدن ليتوانيا ، واقعة على فيليا . ألحقت بروسيا في ١٧٩٥.



@ketab_n @4_readers

جديرا بها . فكانا يشكلان الزوج الثالث . وكان بوريس يتحدث عن اصدقائهما القدامى وهو يُلقي نظرات غير مبالية على كتفي هيلين العاريتين البضتين اللتين كانتا تنبعثان من ثوبها الشفاف الداكن المطرز بالذهب ، وكان في الوقت نفسه لايفتأ يلاحظ الامبراطور الذي كان في القاعة نفسها ، من غير أن يعلم أحد بذلك بل من غير ان يعلم هو نفسه بذلك . لم يكن الامبراطور يرقص ، وكان واقفا قرب أحد الابواب يستوقف هذا تارة ويستوقف ذاك تارة اخرى بكلمة من كلماته الحلوة اللطيفة التي كان وحده يُحسنها .

وعند بداية المازوركا شاهد بوريس المرافق العسكري الجنرال بالاشيف[1] ، وهو أحد الخلصاء المقربين الى الامبراطور ، يدنو من سيده الذي كان يُحدث احدى السيدات البولونيات ويقف قريبا منه قربا لاتسمح به الآداب المرسومة . وبعد أن تبادل الامبراطور والسيدة بعض الكلمات ألقى نظرة مستفهمة على بالاشيف وأدرك أنه ما كان يفعل ذلك لولا بعض الاسباب الجدية . فودع محدثته باشارة من رأسه ثم التفت اليه .

وما ان بدأ بالاشيف كلامه حتى ارتسمت الدهشة على وجه الامبراطور . فأمسك بذراعه واجتاز القاعة معه دون ان يلتفت الى الناس الذين كانوا يتنحون ليفسحوا له الطريق . ولاحظ بوريس وجه « آراكتشيف » متأثرا منفعلا في اللحظة التي غادر فيها الامبراطور القاعة ومعه « بالاشيف » . ومالبث ان خرج من بين جمهور المدعوين،

---

(١) بالاشيف ( ١٧٧٠ - ١٨٣٧ ) حاكم بطرسبورج بين ( ١٨٠٩ - ١٨١٠ ) ، وعضو مجلس الدولة بين ١٨١٠ - ١٨٣٤ .



@ketab_n @4_readers

وهو يلقي على الامبراطور نظرات من طرف خفي وينفخ من خلال أنفه الاحمر ، وكأنما كان ينتظر ان يوجّه اليه الكلام • ( وأدرك بوريس أن آراكتشيف كان حاسدا لبالاشيف ومستاء من أن نبأً واضح الاهمية قد حمله انسان غيره ) •

لكن الامبراطور وبالاشيف مرا دون ان يلمحاه وخرجا الى الحديقة المضاءة • فتبعهما آراكتشيف ، وهو يشد بيده على سيفه ويلقي حوله نظرات مهتاجة غاضبة ، ووقف منهما على عشرين خطوة •

وكان بوريس ، أثناء رقصة المازوركا ، لايني يتعذب وهو يتساءل عما عسى ان يكون ذلك النبأ الذي حمله بالاشيف ، وكيف يمكنه ان يطّلع عليه قبل غيره •

وفي اللحظة التي كان عليه ان يختار مُراقصة له ، همس لهيلين أنه ينوي دعوة الكونتيسة بوتوكا التي خرجت الى الشرفة ، كما كان يظن ، ثم انسل على الارض الخشبية الى باب الحديقة ووقف لدى رؤيته الامبراطور الذي كان يصعد درجات الشرفة وبصحبته بالاشيف• وكان الامبراطور وبالاشيف يتجهان الى مدخل القاعة • وبمنتهى السرعة ألصق بوريس نفسه باطار الباب ، كأنما لم يُتحْ له أن يتنحى عن الطريق ، ووقف وِقْفة الاحترام ثم انحنى اجلالا •

كان الامبراطور يُنهي حديثه بالكلمات التالية ، وقد بدا عليه الانفعال كمن تلقى اهانة شخصية :

« الدخول الى روسيا دون اعلان الحرب ! لن اعقد صلحا مادام على أرضي عدو واحد مسلح » • وأحس بوريس ان الامبراطور كان يلفظ هذه الكلمات بشيء من الرضى : كان مرتاحا الى الشكل الذي



@ketab_n @4_readers

صاغ فيه فكرته وممتعضا من أن بوريس قد سمعه . فأردف قائلا وهو يقطب حاجبيه :

ــ « ينبغي ألا يعلم أحد شيئا مما قلتُ ! » . فأدرك بوريس أنه هو المقصود بهذه الكلمات . فخفض بصره وحنى رأسه انحناءة خفيفة، ثم رجع الامبراطور الى القاعة ولبث نحو نصف ساعة في الحفلة الراقصة .

كان بوريس أول من علم ان القوات الفرنسية عبرت النييمين ، وهكذا أُتيح له ان يُظهر لبعض الشخصيات الرفيعة أنه عالم بكثير من الاشياء التي تخفى على غيره ، الامر الذي كان يزيد من قيمته في نظرهم .

زاد من المفاجأة التي أثارها النبأ المباغت عن عبور الفرنسيين للنييمين أنه جاء بعد شهر من الانتظار الفارغ وفي غمرة حفلة راقصة ! وكان الامبراطور قد وجد في اللحظة الاولى ، وتحت وطأة السخط والعار ، الصيغة التي اصبحت شهيرة فيما بعد والتي أعجبته هو نفسه وعبرت عن مشاعره تعبيرا تاما . وبعد عودته من الحفلة الراقصة أرسل في الساعة الثانية صباحا رسولا يستدعي أمين سره « شيشكوف » وكلفه ان يحرر أمرا يوميا الى القطعات وأمرا امبراطوريا الى الفيلد مارشال الامير سالتيخوف[1] ، حرص فيهما صراحة على ابراز الكلمات التي أكد فيها الامبراطور أنه لن يعقد صلحا مابقي على الارض الروسية فرنسي مسلح واحد .

وفي اليوم التالي أُرسلت الرسالة التالية الى نابليون :

---

(١) سالتيخوف . ( ١٧٣٦ ــ ١٨١٦ ) . رئيس مجلس الوزراء في ١٨١٢ .



@ketab_n @4_readers

سيدي الاخ : علمت البارحة انه رغم وفائي بالعهود التي التزمت بها حيال جلالتكم ، فان قطعاتكم عبرت حدود روسيا ، وقد تلقيت في هذه اللحظة مذكرة من بطرسبرج يعلن فيها الكونت لوريستون ، كسبب لهذا الاعتداء ، ان جلالتكم اعتبرتم انفسكم في حالة حرب معي منذ ان طلب الامير كوراكين اوراق اعتماده . ان الدوافع التي بنى عليها الدوق « دوباسانو » رفضه لتسليمها له ما كانت لتحملني على الظن ان هذا المسعى سيتخذ ذريعة للاعتداء . والواقع ان هذا السفير لم يكن مخولا لما فعل ، كما صرح هو نفسه بذلك ، وما أن أبلغت بما جرى حتى أعلمته مقدار استنكاري وأمرته أن يبقى على رأس عمله . واذا لم يكن في نية جلالتكم سفك دم شعبينا بسبب خلاف من هذا النوع ، واذا وافقتم على سحب قواتكم من الاراضي الروسية اعتبرت ما حدث كأنه لم يكن وغدت التسوية ممكنة . أما في الحالة المعاكسة ، يا صاحب الجلالة ، فسوف أجد نفسي مرغما على صد هجوم لم يدع اليه داع من قبلنا . ومازال الامر منوطا بجلالتكم لتجنيب الانسانية ويلات حرب جديدة .

« التوقيع : الاسكندر .. »

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل الرابع

في ١٣ حزيران ، في الساعة الثانية صباحا ، استدعى الامبراطور « بالاشيف » ، وبعد أن قرأ عليه رسالته الى نابليون ، عهد اليه بحملها وتسليمها شخصيا الى امبراطور فرنسا • وكرر عليه مرة اخرى ، وهو يصرفه ، أنه لن يعقد صلحا مابقي على الارض الروسية عدو مسلح واحد ، وأمره ان يردد هذه الكلمات بعينها على مسامع نابليون • ولم يثبت الامبراطور هذه الكلمات في رسالته لانه أحس ، بحسه المرهف الفطري ، أنها لاتتفق مع محاولته الاخيرة للتصالح ، لكنه أصر أن ينقلها بالاشيف شفهيا •

سار بالاشيف في ليلة ١٣ — ١٤ حزيران ، يصحبه نافخ بوق وقوزاقيان ، ووصل عند الفجر الى قرية « ريكونتي » حيث الطلائع الفرنسية ، على هذه الضفة من نهر النيمين • فأوقفه حراس الخيالة الفرنسيين •

وصاح به ، وهو يقترب ، ضابط صف من الخيالة الفرنسيين يلبس بزة من القطيفة الحمراء وقلنسوة ذات زغب ، صاح يأمره بالوقوف • فلم يمتثل بالاشيف على الفور لكنه استمر يسير بتؤدة •

اعترض ضابط الصف بالاشيف بحصانه ، مقطب الحاجبين



@ketab_n @4_readers

مدمدما بالشتائم ، واستل سيفه وانتهر الجنرال الروسي بفظاظة وهو يسأله ان كان أصم فلم يسمع ما قيل له • فعرّفه بالاشيف بنفسه • عند ذاك ارسل ضابط الصف جنديا للبحث عن احد الضباط •

وراح ضابط الصف يتحدث مع رفاقه عن شؤونهم . دون ان يُعير بالاشيف اهتمامه . دون ان ينظر الى الجنرال الروسي •

ونظرا لصلات بالاشيف الوثيقة بالسلطة العليا وبالدولة ، ونظرا للحديث الذي جرى بينه وبين الامبراطور قبل ثلاث ساعات ، ولكونه تعوّد التكريم بحكم منصبه : فقد أصيب بالحيرة حين رأى هنا ، على الارض الروسية هذا العداء ، وحين عومل ، بخاصة ، على يد القوة الغاشمة معاملة خالية من أي احترام •

أخذت الشمس تشق ستار السحب ، كان الهواء باردا نديا • ومن القرية كان قطيع من الماشية يمضي الى المروج • وكانت القبّرات تنبعث من الحقول مزغردة . الواحدة تلو الاخرى ، كالفقاعات على سطح الماء • كان بالاشيف يُنقّل بصره حوله ، وهو ينتظر قدوم الضابط الذي ذهب الجندي يبحث عنه في القرية • وكان القوازاقيان ونافخ البوق يبادلون الفرسان الفرنسيين ، بين الفينة والفينة ، النظرات بصمت •

وصل الى القرية عقيد الفرسان الفرنسيين الذي كان يبدو عليه أنه قد نهض للتوّ من فراشه ، على جواد اشهب ، حسن المنظر ، تام الخلقة ، يرافقه اثنان من رجاله • وكانت هيئة الضابط والجنديين وخيولهم تنمّ على الانشراح والاناقة •



@ketab_n @4_readers

كان ذلك في مطلع العمليات اذ القوات ماتزال حسنة الحال وكأنها في استعراض عسكري زمن السلم ، مع ضرب من الاناقة التي يَغْلب عليها الطابع الحربي ومع ذلك اللون من البهجة والقوة والعزم التي ترافق الشروع في الحرب .

كان العقيد يجد مشقة في حَبْس تثاؤبه ، لكنه أظهر لباقة وأنسا وبدا عليه أنه أدرك خطر المهمة التي يحملها بالاشيف . فاجتاز معه خط المخافر الامامية واكد له أنه سيقابل الامبراطور ، بناء على رغبته، في أقرب وقت من غير شك . وذلك لان مقر قيادته يقع ، على مايعتقد، في الاماكن المجاورة .

مروا بقرية « ريكونتي » وسط مفارز الفرسان الفرنسيين ، والحراس والجنود الذين كانوا يحيون عقيدهم وينظرون باستغراب الى البزة الروسية . ثم خرجوا من القرية . وقال العقيد :

ان قائد الفرقة الذي سيستقبل بالاشيف وسيوصله الى غايته ، على كيلومترين من هذا المكان .

كانت الشمس قد أشرقت وأخذت تلتمع التماعا بهيجا على الخضرة الزاهية .

وما ان تجاوزوا نزلا ، في أعلى السفح ، حتى شاهدوا كوكبة من الفرسان مقبلة عليهم من السفح الآخر ، وعلى رأسها فارس يمتطي جوادا اسود تلمع عدته تحت أشعة الشمس ، وكان رجلا مديد القامة ، مشتملا بدثار احمر ، ذا قبعة يزينها ريش ، وقد تدلى شعره الاسود خصلا على كتفيه وامتدت رجلاه الطويلتان الى الامام على عادة الفرنسيين في ركوب الخيل . أقبل هذا الرجل على بالاشيف عدوا ،



@ketab_n @4_readers

وكان ريش قبعته وجواهره وشرائطه الذهبية تتلألأ وتبرق في شمس حزيران .

كان بالاشيف على خطوات من هذا الفارس الذي يصطنع الابهة ويتكلف الاثارة بأساوره وعقوده وريشه وبريق ذهبه ، عندما همس اليه العقيد الفرنسي « اولنر » بكل احترام : « ملك نابولي »[1] . والواقع أن هذا الفارس كان « مورا » الذي صار يدعى الآن ملك نابولي . ومع أنه لم يكن مفهوما ، على الاطلاق ، كيف كان « مورا » ملكا لنابولي ، الا أنه كان يُدعى بهذا الاسم ، وكان هو نفسه قانعا بأنه ذلك الملك ، فزادته هذه القناعة هيبة ووقارا عن ذي قبل . لقد كان متأكدا من ذلك أشد التأكد ، حتى انه عندما هتف بعض الايطاليين، عشية سفره ، بينما كان يتنزه هو وزوجته في شوارع نابولي : « عاش الملك ! » التفت الى زوجته قائلا ، وعلى وجهه ابتسامة حزينة : **« يا للمساكين ، انهم لا يعلمون أني سأرحل عنهم غدا . »** .

لكنه مع قناعته التامة بأنه كان ملك نابولي ومع رأفته برعيته الا أنه قد عاد الى عمله المعهود ببهجة وفرح منذ أن أن تلقى أمرا، فيهذه الايام الاخيرة . بالعودة الى الخدمة ، ولا سيما بعد مقابلته نابليون في « دانتزيج » اذ قال صهره المبجل : « اني جعلتك ملكا لتحكم على طريقتي ، لا على طريقتك » ، عاد الى عمله وهو أشبه ما يكون بالحصان الذي أُحسنت تغذيته ولم يثقله شحمه ، فاستخفه النشاط حين أحس أنه مربوط بعربته وجرى معنقا على دروب بولونيا وقد امتلأ مرحا وانبساطا ، دون أن يعلم هو نفسه أين يذهب ولماذا .

---

**(١) « ملك نابولي » : في سنة ١٨٠٨ جعل نابليون من صهره « مورا » ملكا على نابولي ، بعد أن طرد منها فرعا من آل بوربون .**



@ketab_n @4_readers

ولما رأى الجنرالَ الروسي رد الى الوراء رأسه ذا الشعر الطويل الجعد، بحركة ملكية مهيبة، ونظر الى العقيد الفرنسي نظرة مستفهمة. فذكر العقيد لجلالته بكل احترام صفة بالاشيف الذي لم يكن يحسن النطق باسمه.

حل الملك الصعوبة التي عرضت للعقيد فقال:

ـ دو بالماشيف!

ثم أضاف بحركة تنمّ على تنازله الملكي:

**ـ يسعدني ان اتعرف اليك، ايها الجنرال.**

وما أن راح الملك يتكلم بصوت مرتفع وبسرعة، حتى فارقته في الحال، هيبته الملكية، وعاد، من غير أن يفطن لذلك، الى بساطته البيتية، وهي لهجته التي عُرف بها. ثم وضع يده على غارب جواد بالاشيف وقال كمن يأسف لوضع ليس من شأنه الحكم عليه:

**ـ كل شيء صائر الى الحرب، على مايبدو، أيها الجنرال.**

فأجاب بالاشيف، مشددا على لقب «يا صاحب الجلالة»، لغاية في نفسه، وهو تشديد لابد منه عندما نخاطب شخصا ما يزال هذا اللقب جديدا عليه:

**ـ ياصاحب الجلالة، ان مولاي الامبراطور لا يريد الحرب، كما ترون جلالتكم.**

كان وجه «مورا» يشرق بالرضى الابله وهو يصغي الى السيد «دوبا لاشوف». لكن للملك مستلزماته: لقد كان يحس أن عليه التحدث الى مبعوث الاسكندر في شؤون السياسة، بصفته ملكا وحليفا. فترجل وأمسك بذراع بالاشيف وسار به خطوات بعيدا عن حاشيته



@ketab_n @4_readers

التي كانت تنتظره باحترام . ثم تمشى معه جيئة وذهابا وهو يجهد في أن يتكلم بتعاظم . ومما قاله له أن نابليون أحس بالاهانة عندما طلب اليه سحب قواته من بروسيا ، ولا سيما منذ أن جرحت كرامة فرنسا من جراء نشر هذا المطلب واعلانه على الملأ . فأجاب بالاشيف بأنه ليس في هذا المطلب ما يجرح لأن ...

وهنا قاطعه مورا :

ـ واذن فأنت تقدر أن المحرض ليس الامبراطور الاسكندر ؟

قال مورا ذلك وهو يبتسم ابتسامة تفيض بالسذاجة الغبية .

وشرح « بالاشيف » لماذا كان يعتقد أن نابليون هو المحرض على الحرب .

فقاطعه « مورا » مرة أخرى وقال له بلهجة شبيهة باللهجة التي يتحادث بها الخدم الحريصون على أن يظلوا أصحابا متصافين رغم خصومات أسيادهم :

**ـ يا عزيزي الجنرال ، اني أتمنى من كل قلبي أن يتصالح الامبراطوران وأن تنتهي الحرب التي بدأت بالرغم مني ، في أسرع وقت ممكن .**

وسأله عن أحوال الدوق الاكبر وعن صحته وذكر اللحظات الحلوة التي قضياها معا في نابولي[1] . ثم انتصب فجأة بمهابة ، وكأنما عاد اليه شعوره بكرامته الملكية ، ووقف وقفته عند تتويجه وقال وهو يحرك يده اليمنى :

---

(1) أرسل الدوق الاكبر قسطنطين الى نابولي ليحضر تتويج مورا سنة ١٨٠٨ .



@ketab_n @4_readers

**ـ تستطيع الانصراف اذا شئت ، ايها الجنرال . اتمنى لك النجاح في مهمتك .**

ولحق بحاشيته التي كانت تنتظره بكل احترام ، والريح تلاعب دثاره الاحمر المطرز وريش قبعته ، والشمس تتلألأ على جواهره .

تابع بالاشيف طريقه معتقدا أنه لن يلبث طويلا حتى يمثل بين يدي الامبراطور بالذات ، كما زعم مورا . ولكن بدلا من أن يقابل نابليون كما كان يتوقع فقد أوقفه مرة أخرى حراس احدى قطعات المدفعية التابعة للمارشال « دافو » في الموقع التالي على نحو ما جرى له في خط المخافر الامامية وقاده مساعد من مساعدي آمر القطعة بعد أن أخطِر الى القرية لمقابلة المارشال دافو[1] .

---

(1) المرشال دافو ( ١٧٧٠ ـ ١٨٢٣ ) من افضل قادة نابليون . دوق اويرستاد وامير ايكمول منذ ١٨٠٩ .



@ketab_n @4_readers

# الفصل الخامس

وكان « دافو » عند نابليون مثل آراكتشيف عند الاسكندر . وهو وان لم يكن جبانا ، الا أنه كان شديد الاندفاع مثله ، قاسيا وعاجزا عن اظهار اخلاصه الا عن طريق القوة .

ان هؤلاء الرجال ضروريون ، في جهاز الدولة ، كضرورة الذئاب في الطبيعة . وهم يوجدون ويبرزون ويستمرون أبدا ، مهما بدا غريبا وجودهم ومهما بدت عصية على الفهم دالتهم على رئيس الدولة . هذه الضرورة وحدها يمكن أن تفسر كيف أن شخصا مثل آراكتشيف ، هذا الشخص القاسي الذي كان ينتزع بيديه شارب الواحد من جنوده والذي كان عاجزا عن مواجهة الخطر بسبب ضعفه العصبي ، كيف أن هذا الرجل العاري من الثقافة والتهذيب استطاع أن يحافظ على نفوذه وسلطانه بجنب طبيعة الاسكندر النبيلة ، الشهمة ، الرقيقة .

وجد بالاشيف دافو جالسا على برميل في مستودع للحبوب ، في بيت قروي ، ومنهمكا في الكتابة ( كان يدقق في بعض الحسابات ) ، والى جانبه يقف مساعده العسكري . وقد كان من الممكن أن يجد المارشال دافو مسكنا أفضل لكنه كان من أولئك الناس الذين يرتضون لانفسهم أشد ظروف الحياة مشقة وذلك لكي يحق لهم أن يكونوا متجهمين . وللسبب نفسه نراهم أبدا نهبا للمشاغل الملحة العاجلة .



@ketab_n @4_readers

كان تعبير وجهه يقول : « كيف يفكر المرء في مسرات الحياة اذا كان جالسا على برميل في مستودع حقير ــ كما ترى ــ منكبا على عمله » • اللذة الكبرى والحاجة الاساسية لهؤلاء الناس ــ اذا لقوا الذين انخرطوا في معترك الحياة ــ ان يرموا بوجوههم فعاليتهم الدائبة الكالحة• هذه اللذة هي التي أحسها دافو عندما أدخل اليه بالاشيف • فقد استغرق في عمله استغراقا اكبر عند دخول الجنرال الروسي ، وبعد أن ألقى نظرة من خلال نظارتيه على وجه بالاشيف الذي أنعشته الصبيحة البديعة وأحاديثه مع « مورا » ، لم يكلف نفسه النهوض بل انه لم يبد أية حركة ، لكنه زاد من تقطيب حاجبيه وابتسم ابتسامة خبيثة •

ولما لاحظ « دافو » الاثر السيء الذي تركه هذا الاستقبال في نفس بالاشيف، رفع رأسه وسأله ببرودة عما يريده• ولم يستطع بالاشيف ان يعزو هذا الضرب من الاستقبال الا الى جهل دافو بشخصه من حيث هو مساعد عسكري للامبراطور وممثل له • فبادر الى تعريفه بنفسه وبالغرض من مهمته • على أن دافو بعد أن أصغى اليه ازداد قسوة وفظاظة ، على عكس ما كان يتوقع بالاشيف •

وسأله :

ــ **اين رسالتك ؟ هاتها وسأرسلها الى الامبراطور •**

فقال بالاشيف له : انه أمر بتسليمها الى الامبراطور بالذات •

قال دافو :

ــ أوامر أمبراطوركم صالحة في جيشكم ، لا هنا • وعليك أن تعمل هنا بما يشار عليك أن تعمله •



@ketab_n @4_readers

وكأنما أراد دافو أن يشعر الجنرال الروسي بخضوعه للقوة الغاشمة ، فأرسل مرافقه العسكري يستدعي الضابط المناوب •

أخرج بالاشيف الظرف الذي يحتوي على رسالة الامبراطور ووضعه على الطاولة ( كانت الطاولة عبارة عن باب ملقى على برميلين ، وما تزال مفصلاته تتدلى منه ) • وتناول دافو الظرف وقرأ العنوان •

قال بالاشيف :

ـ أنت حر تماما في أن تبدي أولا تبدي لي دلائل الاحترام ، لكن اسمح لي أن ألفت انتباهك الى أن لي الشرف أن أكون أحد المرافقين العسكريين لصاحب الجلالة ••

حدجه دافو بنظرة دون أن يقول شيئا وسرّه سرورا واضحا أن يتبين شيئا من الاضطراب والارتباك على قسمات بالاشيف •

وقال له :

ـ ستعامل بالاحترام الذي يليق بك •

ووضع الظرف في جيبه وغادر المستودع •

وبعد برهة دخل مرافق المارشال السيد « دوكاستري » ومضى به الى الغرفة المعدة له •

تناول بالاشيف طعام العشاء في هذا اليوم مع المارشال، في المستودع، على اللوح الخشبي الموضوع فوق البرميلين •

وفي اليوم التالي ذهب دافو مبكرا بعد ان دعا بالاشيف وأوعز اليه ان يظل حيث هو ، وأن ينتقل مع المتاع ان صدرت الاوامر بذلك وألا يكلّم انسانا سوى السيد « دوكاستري » •



@ketab_n @4_readers

بعد أربعة أيام من الوحدة والسأم والشعور بالتبعية والعجز ، وهو شعور زاد من حدته أنه تلا جوّ السلطة الذي كان فيه بالاشيف قبل فترة وجيزة ، وبعد أن قطع بعض المراحل مع متاع المارشال ومع القطعات الفرنسية التي كانت تحتل المنطقة بأسرها ، أُعيد الى « فيلنا » التي أصبحت في أيدي الفرنسيين ، عن طريق الحاجز نفسه الذي خرج منه قبل أربعة ايام .

وفي اليوم التالي جاء أحد حجاب الامبراطور ليبلغه أن الامبراطور وافق على مقابلته .

قبل أربعة أيام كان حراس فوج « بريوبراجنسكي » يقومون بحراسة المنزل الذي اقتيد بالاشيف اليه ، أما الان فكان هناك راميان فرنسيان ببزة زرقاء مقوّرة على الصدر وقبعة ذات زغب ، وحرس من الفرسان والرماحين ، وحاشية متألقة من المرافقين العسكريين والغلمان والجنرالات ، كانوا ينتظرون ، خروج نابليون عند درج المدخل ، متحلّقين حول جواده والمملوك « رستم » . كان نابليون يستقبل بالاشيف في المنزل نفسه الذي أرسله منه الاسكندر في مهمة .

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل السادس

مع أن بالاشيف قد تعوّد سخاء البلاطات ، الا انه دهش لما في بلاط نابليون من ترف وبذخ .

أدخله الكونت « دو تورين »[1] الى قاعة استقبال رحبة كان ينتظر فيها كثير من الجنرالات والحجاب والاشراف البولونيين الذين رأى بالاشيف عددا كبيرا منهم في بلاط امبراطور روسيا . وأعلن « دوروك » أن الامبراطور نابليون سيستقبل الجنرال الروسي قبل نزهته .

وبعد لحظات من الانتظار ظهر الحاجب المناوب وانحنى بأدب أمام بالاشيف ودعاه الى ان يتبعه .

دخل بالاشيف الى قاعة صغيرة يُفضي أحد أبوابها الى مكتب العمل ، وهو المكتب الذي عهد اليه فيه امبراطور روسيا بمهمته . وانتظر بضع دقائق . ثم سُمِعَ وقع خطوات مُستعجلة خلف الباب . وما لبث الباب أن انفتح بشدة على مصراعيه ، وخيّم الصمت ، وتناهى وقع خطوات أخرى ، خطوات ثابتة واثقة ، آتية من المكتب : انه نابليون . كان قد فرغ من ارتداء ملابسه لركوب جواده . كانت بزّته الزرقاء تنفتح على صدرة بيضاء تغطي بطنه المدوّر ، وكان بنطال من

---

(۱) هذا الكونت من سلالة القائد العظيم « دو تورين » . وكان يخدم في بلاط نابليون .



@ketab_n @4_readers

الجلد الابيض يلف فخذيه الربلتين ، وغطت ساقيه القصيرتين جزمة من جزمات الفرسان . وكان واضحا أن شعره القصير قد مُشط قبل حين ، لكن خصلة منه كانت ساقطة على منتصف جبينه العريض . وكان عنقه الابيض الغليظ الذي يفوح بعطر ماء الكولونيا يُباين أشدّ التباين طوق بذلته الاسود . أما وجهه الممتلىء ، المحتفظ بشبابه ، ذو الذقن البارزة ، فكان ينمّ على ملاحة باشة حفيّة فيها جلال الملوك .

تقدّم بعجلة وهو ينتفض مع كل خطوة ، وقد ردّ رأسه الى الوراء ردّاً خفيفا . وكان لشخصه القصير المتثاقل ، بكتفيه العريضتين السمينتين ، وبطنه وصدره اللذين برزا الى الامام بالرغم منه ، ذلك المظهرُ المهيب الرغيد ، مظهر أبناء الاربعين الذين ألفوا حياة الدعة والرخاء . وفضلا عن ذلك فقد كان يبدو ، هذا اليوم ، كأحسن ما يكون أنساً وبشاشة .

ردّ بحركة من رأسه على تحية بالاشيف العميقة المفعمة بالاحترام، وأخذ يحدثه على الفور ، وهو يتجه اليه ، شأن الرجل الذي ليس لديه لحظة واحدة يضيعها سدىً ، والذي لا يكلف نفسه تهيئة ما سيقوله . لانه واثق من أنه سيقول أبداً ما ينبغي أن يقوله وعلى أكمل وجه :

ــ مرحبا يا جنرال ! تلقيت رسالة الامبراطور الاسكندر التي حملتها ، وأنا سعيد برؤيتك .

نظر الى وجه بالاشيف بعينيه الكبيرتين ثم ما لبث أن رفعهما عنه.

كان من الواضح أن شخصية بالاشيف لا تعنيه في شيء وأن ما



@ketab_n @4_readers

يدور في نفسه هو وحده مرضع اهتمامه . لا أهمية لكل ما هو خارجي وذلك لان كل شيء في العالم منوط بمشيئته وحدها .

وأردف قائلا :

ــ انني لا أرغب في الحرب ، ولم أرغب بهـا قط . لكنني قد أرغمت عليها ارغاما . وحتى الآن ( وشدد على لفظة الآن ) أنا على استعداد لقبول كل الايضاحات التي يمكن أن تقدمها لي .

ثم عرض بوضوح وايجاز أسباب استيائه من الحكومة الروسية.

لقد اقتنع بالاشيف قناعة جازمة ، من لهجته المعتدلة والودية ، بأنه يرغب في السلم وبأن في نيته الشروع في المحادثات .

بدأ بالاشيف كلامه الذي هيأه منذ زمن طويل قائلا :

ــ مولاي ! ان سيدي الامبراطور ...

عندما قاطعه نابليون بعد أن فرغ من حديثه بنظرة مستفهمة ، ان عيني الامبراطور المحدقتين فيه أربكتاه ، وبدا على نابليون كأنه يقول، وهو يتفحص ببسمة خفية بزة بالاشيف وسيفه ، : « أنت مضطرب فهدىء من روعك » . وتمالك بالاشيف نفسه وبدأ بالكلام . فقال ان الامبراطور الاسكندر لم يرفي طلب « كوراكين »[1] لأوراق اعتماده سببا كافيا للحرب ، وأن كوراكين قد تصرف من تلقاء نفسه دون موافقة مليكه ، وأن الامبراطور الاسكندر لم يرغب في الحرب ، وأنه لم يقم أية علاقات مع انكلترا .

---

(١) ان الامير كوراكين ( ١٧٥٢ ــ ١٨١٨ ) الذي كان سفيرا في باريس منذ ١٨٠٨ ، لما لم يتلق جوابا على الانذار الروسي القاضي ألا يعبر الجيش الاعظم نهر الايلب طلب أوراق اعتماده ، الامر الذي عده نابليون قطيعة نهائية .



@ketab_n @4_readers

وهمس نابليوز :

ـ لم يقم « بعد » تلك العلاقات ...

وكأنما كان نابليون يخشى أن ينجرف وراء عواطفه فقطب حاجبيه وأومأ برأسه ايماءة خفيفة لينبه بالاشيف الى أن بامكانه متابعة حديثه .

وبعد أن عرض بالاشيف كل ما كُلف أن يقوله أكد أن الامبراطور الاسكندر يرغب في السلم ، لكنه لن يشرع في المحادثات الا على شرط أن ... وهنا تردد : لقد تذكر الكلمات التي لم يثبتها الامبراطور في رسالته وحرص على أن يضمنها أمره الملكي الموجه الى ساليتكوف ، والتي أمر بالاشيف بنقلها الى نابليون . تذكر هذه الكلمات : « ما بقي على الارض الروسية عدو مسلح واحد » ، لكن شعورا معقدا عقل لسانه فلم يستطع التفوه بها بالرغم من رغبته في ذلك . فتردد وقال : على شرط أن تنسحب القطعات الفرنسية الى ماوراء « النييمين » .

لاحظ نابليون اضطراب بالاشيف عند تلفظه بهذه الجملة الاخيرة، فاختلج وجهه وسرت في ربلة ساقه اليسرى رعدة منتظمة . ودون أن يتحرك من موضعه ، استأنف الكلام بصوت أعلى وأعجل من ذي قبل. وقد لاحظ بالاشيف بالرغم منه ، بعد أن خفض بصره غير مرة أثناء الحديث التالي ، أن ارتجاف ربلة نابليون اليسرى ، يتزايد كلما رفع صوتـه .

بدأ نابليون كلامه قائلا :

ـ لست أقل رغبة في السلم من الامبراطور الاسكندر . ألم أبذل وسعي منذ ثمانية عشر شهرا للحصول عليه ؟ وها قد مضى ثمانية عشر شهرا وأنا انتظر الايضاحات .



@ketab_n @4_readers

وأضاف ، وهو يقطب حاجبيه ويحرك يده البيضاء السمينة حركة قوية مستفهمة :

ـ لكن ما عسى أن يكون المطلوب مني للشروع في المحادثات ؟

قال بالاشيف :

ـ انسحاب القطعات الى ماوراء النييمين يا مولاي .

وردد نابليون وهو ينظر في عيني بالاشيف :

ـ الى ماوراء النييمين؟ أنتم تريدون الآن اذن أن انسحب الى ما وراء النييمن ، الى ماوراء النييمين فقط ؟

فحنى بالاشيف رأسه بكل احترام .

انهم لا يطالبون الآن بغير الانسحاب الى ما وراء النييمن ، بدلا من الجلاء عن بوميرانيا الذي كانوا يطالبون به قبل أربعة أشهر . استدار نابليون بعجلة وأخذ يذرع الغرفة .

ـ أنت تقول : انني مطالب بالانسحاب الى ما وراء النييمين لافتتاح المحادثات الا أنه كان يُطلب مني أيضا فبل شهرين التراجع الى ماوراء « الاودر »و « الفستول » ، ورغم ذلك ، فأنتم توافقون على الشروع في المحادثات .

مشى بصمت من طرف الغرفة الى طرفها الآخر ثم وقف مرة أخرى أمام بالاشيف . وبدا وجهه كأنما قد تحجر في تعبير صارم ، وكانت ساقه اليسرى تزيد من ارتجافها . كان نابليون يعرف هذه الخاصة في نفسه وكان يقول فيما بعد :

« إن ارتعاش ربلتي اليسرى علامة كبرى عندي » .



@ketab_n @4_readers

قال فيما يشبه الصراخ الذي أثار دهشته هو نفسه :

ـ ان عروضاً من مثل الجلاء عن « الاودر » والفستول يمكن أن تقدم الى أمير « باد » لا اليّ • ولو أعطيمتوني بطرسبرج وموسكو لما قبلت بهذه الشروط • تقولون : انني بدأت الحرب ؟ لكن من الذي لحق بالجيش قبل الآخر ؟ الامبراطور الاسكندر لا أنا • انكم تعرضون عليّ أن أفاوض في حين أنني أنفقت الملايين وأنكم تحالفتم مع انكلترا وأن وضعكم سيء • ثم تعرضون عليّ المفاوضة ! ما الغاية من تحالفكم مع انكلترا ؟ وماذا أعطاكم هذا التحالف ؟

كان يتكلم باستعجال ، وكان جليا أن كلامه لا يهدف الى ابراز مزايا عقد الصلح والبحث عن امكاناته ، بل الى اثبات كامل حقه وقوته والى التدليل على عيوب الاسكندر وأخطائه •

لقد كان الغرض من مطلع حديثه أن يبرز ميزات وضعه وأن يظهر مع ذلك قبوله بافتتاح المفاوضات • لكنه كان كلما مضى في كلامه غدا أقل تحكما فيما يقول • كان واضحا أشد الوضوح أن الغرض الوحيد من كلامه الآن هو أن يرفع من نفسه وأن يغض من الاسكندر ، أي أن يفعل بالضبط ما كان يُعرض عنه في بداية المقابلة •

قـال :

ـ يقال : انكم عقدتم صلحا مع الاتراك[1] ؟

فأومأ بالاشيف برأسه اياءة الموافقة وبدأ كلامه :

ـ عقد الصلح •••

---

(١) عقد الجنرال كوتوزوف هذا الصلح في أيار عام ١٨١٢ . واطلق هذا الصلح يد ٥٥... جندي . ونالت فيه روسيا بلاد الصرب .



@ketab_n @4_readers

لكن نابليون لم يدع له الكلام • كان واضحا أنه يحس بالحاجة الى أن يتحدث وحده ، فتابع كلامه بتلك البلاغة وذلك الهياج العاتي ، وهما صفتان ينزع اليهما أولئك الذين أفسدتهم الحياة بنعمائها :

ــ نعم ، انني أعلم أنكم عقدتم الصلح مع الاتراك دون أن تحصلوا على «مولدافيا» وعلى «فالاشيا» • وكنت سأعطي امبراطوركم هاتين المقاطعتين كما أعطيته فنلندا • نعم لقد كنت وعدت الامبراطور الاسكندر بهاتين المقاطعتين ، وكنت انوي أن أعطيهما اياه ، أما الآن فلن يحصل على هاتين المقاطعتين الجميلتين • كان بامكانه أن يضمهما الى امبراطوريته وان يمد الحدود الروسية من خليج بوتني الى مصب الدانوب •

وتابع نابليون كلامه ، وقد ازداد حدة واخذ يتمشى في الغرفة ويردد كلمة كلمة ماقاله للاسكندر ذاته في « تيلسيت » :

ان كاترين العظيمة لم يكن بوسعها ان تفعل خيرا من ذلك • **لقد كان سينال ذلك كله بسبب من صداقتي • آه ! ما كان اجمله ملكا ، ماكان اجمله ملكا !**

كرر ذلك مرارا ثم توقف واخرج من جيبه مسعطا من ذهب وتناول بنهم تنشيقة منه واردف قائلا :

**« يا للملك الجميل الذي كان يمكن ان يكون للامبراطور الاسكندر ! »** •

ثم نظر بعطف الى بالاشيف الذي لم يكد يهتم بابداء ملاحظته حتى بادر نابليون مرة اخرى الى مقاطعته قائلا ، وهو يهز كتفيه كمن اصابته حيرة :

ــ ماالذي كان يمكن ان يتمناه او يبتغيه فلا يجده بقربي ؟ لقد آثر ،



@ketab_n @4_readers

على عكس ذلك ، ان يلم حوله اعدائي ، وأيهم ؟ جاء بأمثال ستين [1] و « آرمفيلد »[2] و « بينغسين »[3] و « وتنزنجيرود » . أما ستين فهو خائن طرد من بلده ، واما آرمفيلد فهو فاسق متآمر ، وأما « وتنزنجيرود » فهو فرنسي فر الى خدمة العدو ، وأما « بينيغسين » فهو أقرب الى الروح العسكرية منهم الا انه عاجز لم يستطع ان يفعل شيئا في سنة ١٨٠٧ ولابد انه سيثير في نفس الامبراطور الاسكندر ذكريات رهيبة ...

وتابع نابليون كلامه الذي قصر عن مسايرة الحجج التي كانت تنهال عليه لكي يثبت له حقه وقوته ( وهما شيء واحد في نظره ) :

ـ وليتهم كانوا اهلا لشيء ، اذن لامكن استخدامهم ، لكن اني يكون ذلك وهم لا يصلحون لا للحرب ولا السلم ! وقد يبدوأن « باركلي»[5] أقدرهم ، الا اني لا ارى ذلك حين انظر الى ردود فعله الاولى . وماذا يفعلون ، ماذا يفعل هؤلاء الاتباع ؟ أن «بفويل»[4] يقترح، و «آرمفيلد»

---

(١) ستين ( ١٧٥٧ ـ ١٨٣١ ) سياسي بارز حقق في بروسيا بعد ١٨٠٧ اصلاحات ليبيرالية مهمة . ابعد من بروسيا بناء على امر نابليون فاصبح عدوا ضاريا له .

(٢) آرمفيلد : ( ١٧٥٧ ـ ١٨١٤ ) ولد في فنلندا ، حاكم سويدي لهذه المقاطعة منذ ١٨٠٥ ، انحاز الى الروس ونال لقب كونت . واصبح رئيسا لمجلس شؤون فنلندا وصديقا للاسكندر .

(٣) بينيغسين : ( ١٧٤٥ ـ ١٨٢٦ ) ، من مواليد هانوفر ، خدم روسيا منذ ١٧٣٧ واصبح رئيسا للاركان العامة منذ ١٨١٢ ، ونال لقب كونت سنة ١٨١٣ .

(٤) بفويل : ( ١٧٧٩ ـ ١٨٦٦ ) جنرال بروسي ، من مخططي المدرسة الحربية القديمة . خدم في روسيا من ١٨١٢ الى ١٨١٤ . رئيس وزراء بروسيا في سنة ١٨٤٨ .

(٥) باركلي دي تولي : ( ١٧٦١ ـ ١٨١٨ ) ولد في ريغا ، جنرال روسي منذ ١٧٩٩ ، حاكم فنلندا العام في ١٨٠٨ ، وزير الحرب منذ ١٨١٠ ، قائد الجيش الاول في ١٨١٢ ، فيلد مارشال عام ١٨١٤ .



@ketab_n @4_readers

يناقش ، و « بينيغسين » يبحث ويتفحص ، اما « باركلي » فهو لايعزم على امر حين يدعى الى العمل فيفوته الوقت . « باغراتيون » وحده رجل حروب .

انه غبي لكن له خبرة وبديهة وعزيمة ... وما الدور الذي يلعبه امبراطوركم الشاب بين هذه النفاية من الناس ؟ انهم يعرضونه للخطر ثم يحمّلونه تبعة مايجري .

وختم نابليون حديثه بهذه الكلمات التي قذف بها وكأنها تحدّ في وجه الامبراطور ، وكان يعلم الى اي حد يتمنى الامبراطور الاسكندر لو يكون قائدا حربيا :

**ـ على الملك الا يقود جيشه الا اذا كان جنرالا .**

فالحرب دائرة منذ ثمانية ايام ولم تستطيعوا الدفاع عن « فيلنا » . لقد شطرتم شطرين وطردتم من المقاطعات البولونية . ان جيشكم يتذمر

قال بالاشيف وقد أعياه ان يستوعب ماقيل له وشق عليه ان يتابع بريق هذا السيل من الالفاظ .

ـ على العكس ، ياسيدي ، ان الجند يتحرقون شوقا الى ...
فقاطعه نابليون :

ـ أعرف كل شيء ، أعرف كل شيء . اعرف عدد كتائبكم بالدقة التي أعرف بها عدد كتائبي . ليس لديكم مائتا الف رجل ، اما انا فلدي ثلاثة أضعاف مالديكم .

وأضاف قائلا :

ـ يمينا ان لدي خمسمائة وثلاثين الف رجل على هذه الضفة من



@ketab_n @4_readers

الفستول ــ ناسيا ان يمينه لم يعد لها اية قيمة ــ • ولن يستطيع الاتراك مساعدتكم : انهم لايصلحون لشيء ، وقد دللوا على ذلك حين عقدوا صلحا معكم • أما السويديون فقد قدر لهم ان يحكمهم ملوك مجانين• كان ملكهم مجنونا [١] فبدلوه واتخذوا ملكا آخر هو «برنادوت» [٢] الذي مالبث أن أضاع رشده ، لان المجنون وحده قادر ، حين يكون سويديا ، على ان يعقد تحالفا مع روسيا • وابتسم نابليون ابتسامة خبيثة وتنشق مرة اخرى شيئا من السعوط •

كان « بالاشيف » ، عند كل جملة من جمل نابليون ، يريدويستطيع أن يبدي اعتراضا ؛ كان يهم أبدا بالكلام ، لكن نابليون لم يكن ليتيح له ذلك • أراد بالاشيف ان يقول ، بصدد جنون السويديين ، أن السويد تغدو جزيرة حين تحمي روسيا ظهرها ؛ الا ان نابليون اطلق صيحةهادرة من التعجب خنقت صوت بالاشيف • لقد كان في تلك الحالة من الهيجان التي يشعر المرء فيها بالحاجة الى الكلام ، والى مزيد من الكلام ، ليثبت لنفسه فقط أنه على حق • وغدا موقف بالاشيف صعبا شائكا : كان يخشى ، بصفته سفيرا ، ان يعرّض كرامته للخطر ان لم يُبد اعتراضه؛ إما بصفته رجلا فقد انكمشت نفسه وتشنجت امام هذا الغضب الذي استبد بنابليون من دون داع • كان يعلم ان مايقوله نابليون في هذه اللحظة عديم الاهمية ، وانه سيخجل منه حين يعود اليه هدوءه • وظل

---

(١) هو ملك السويد شارل الثالث عشر ( ١٨٠٩ ــ ١٨١٨ ) الذي تبنى في سنة ١٨١٠ المارشال الفرنسي برنادوت وجعله وريثا للعرش . انشأ في سنة ١٨١١ وساما باسمه لكبار الماسونيين .

(٢) جان برنادوت ( ١٧٣٦ ــ ١٨٤٤ ) خصم نابليون ، اعلن الحرب عليه في سنة ١٨١٣ . اصبح ملك السويد باسم شارل الرابع عشر .



@ketab_n @4_readers

بالاشيف جامدا ، مطرقا ، ناظرا الى ساقي نابليون الضخمتين وهما تضطربان ، جاهدا في أن يتحاشى نظرته .

وتابع نابليون كلامه :

ــ وماذا يهمني من حلفائكم ؟ أنا أيضا لي حلفائي ، البولونيون : انهم ثمانون الفا ، وهم يقاتلون كالاسود . وعما قريب سيصلون الى مائتي الف .

ولعله ازداد غضبا ، وهو يقول هذه الكلمات ، لشعوره بأنه يكذب ولانه راى بالاشيف في وضعه المستسلم ذاته ، يقف امامه بصمت ، فاذا به يستدير على نفسه ويقترب منه حتى يلاصقه ويصرخ وهو يحرك يديه البيضاوين حركات عنيفة سريعة :

اعلموا أنكم ان اثرتم « بروسيا » علي فسأمحوها من خريطة اوروبا ــ قال ذلك ووجهه شاحب متشنج من الغضب ، وقد ضرب احدى يديه الصغيرتين بالاخرى ضربا شديدا ــ نعم ، سألقي بكم الى ماوراء « الدفينا » ، الى ماوراء « الدينبر » ، وسأقيم في وجهكم ذلك السد الذي تركته اوروبا ينهار لانها كانت مجرمة أشد الجرم ، عمياء أشد العمى . نعم ، هذا ماينتظركم، وهذا ماستكسبونه بابتعادكم عني.

ثم خطا بضع خطوات بصمت ، وكتفاه السمينتان تنتفضانانتفاضا. وأعاد الى جيب صدرته مسعطه ثم اخرجه وحمله مرات الى انفه ووقف ازاء بالاشيف ولزم الصمت بضع لحظات ونظر في عينيه نظرة استهزاء وقال بصوت هادىء :

**ــ ومع ذلك،ما كان اجمل الملك الذي كان بوسع سيدك ان يحصل عليه !**



@ketab_n @4_readers

واذ أحس بالاشيف ان عليه ان يرد على نابليون قال : ان الاشياء لاتبدو ، من الجانب الروسي ، بمثل هذا المظهر القاتم • وظل نابليون صامتا ينظر اليه باستهزاء ، وكأنه لايصغي اليه • وقال بالاشيف : ان الناس في روسيا يتوقعون من الحرب أفضل النتائج • فأومأ نابليون برأسه ايماءة تنم على التنازل وكأنما اراد ان يقول : ان واجبك هو الذي يملي عليك هذا الكلام ، لكنك لاتؤمن بشيء مما تقول ، اعرف ذلك • لقد أقنعتك •

وعندما فرغ بالاشيف من كلامه ، أخرج نابليون مسعطه مرة اخرى وتنشق منه ، وضرب الارض بقدمه ضربتين ، وهما اشارة منه لخدمه ، ففتح الباب ودخل حاجب فقدم له ، وهو منحن باحترام ، قبعته وقفازيه ، وقدم له آخر منديله • واستدار نابليون نحو بالاشيف دون ان ينظر اليهما وقال وهو يتناول قبعته :

ـ بلّغْ الامبراطور الاسكندر باسمي أن اخلاصي له باق كما كان من قبل : انني اعرف مزاياه الرفيعة حق المعرفة واقدرها اعظم تقدير • لست **استبقيك اكثر من ذلك ، ايها الجنرال ، وسوف تتسلم رسالتي الى الامبراطور •**

واتجه نابليون بسرعة الى الباب فهرع كل من كان في قاعة الاستقبال الى الدرج •



@ketab_n @4_readers

# الفصل السابع

كان بالاشيف قانعا ، بعد كل ماقاله له نابليون ، بعد انفجار غضبه وبعد الكلمات الاخيرة التي ألقاها بجفاف : **« لست استبقيك اكثر من ذلك ، ايها الجنرال ، وسوف تتسلم رسالتي »** ، كان قانعا أن نابليون لن يعزف عن رؤيته فحسب ، بل انه سيتحاشاه ، وهو السفير المهان ، لاسيما انه كان شاهدا على فورة غضبه التي لاتليق به . لكن دهشته كانت عظيمة عندما دُعي في اليوم نفسه ، بواسطة « دوروك » ، الى مائدة الامبراطور .

وقد حضر ذلك العشاء « بيسيير » و « كولنكور » و «بيرتييه».

استقبل نابليون بالاشيف باشا ، متلطفا . ولم يبدُ عليه أي تحرج أو أسف لانفجاره في الصباح ، بل انه ، على العكس من ذلك ، بذل وسعه ليُدخل الارتياح الى نفس بالاشيف . وكان واضحا أن نابليون قانع منذ زمن بعيد أنه لايمكن أن يخطيء وأن كل ما يصنعه حسن في عينه ، لا لأن ذلك يتفق مع مفهوم الخير والشر وانما لانه كان يصنعه هو بنفسه .

كان الامبراطور جذلا عند عودته من نزهته على حصانه في

---

(١) بيسيير : ( ١٧٦٦ ـ ١٨١٢ ) جنرال ممتاز من جنرالات الفرسان ، مارشال فرنسا ، دوق ايستريا ، قائد الحرس في سنة ١٨١٢ ، قتل في معركة لوتزن .



@ketab_n @4_readers

« فيلنا » حيث استقبلته الجماهير ورافقته بحماسة . كانت جميع النوافذ ، على طريقه ، مزدانة بالسجاد والاعلام وبأحرف اسمه الاولى وكانت النساء البولونيات يحيينه وهن يلوحن بمناديلهن .

وعلى المائدة أجلس بالاشيف الى جانبه ، ولم يعامله بلطف فحسب ، بل عامله وكأنه من عداد أفراد حاشيته او من عداد اولئك الذين يؤيدون مشاريعه ويبتهجون بانتصاراته . وقاده الحديث ، فيما تحدث ، الى الكلام على موسكو ، وسأل بالاشيف عن العاصمة الروسية ، لا كما يستعلم المسافر الطُلَعة عن المكان الذي ينوي زيارته فحسب بل كالقانع أن بالاشيف ، بصفته روسيا ، سيرتاح الى حب الاستطلاع هذا . سأله :

ــ ما عدد سكان موسكو وما عدد بيوتها ؟ أصحيح أنها تسمى موسكو المقدسة ؟
كم كنيسة فيها ؟

وعندما أجابه أن فيها اكثر من مائتي كنيسة ، قال :

ــ ولم هذه الكمية من الكنائس ؟

فرد بالاشيف :

ــ ان الروس شديدو التقى .

قال نابليون وهو يسأل بعينيه موافقة « كولنكور » :

ــ على كل حال ، ان كثرة الاديرة والكنائس خاصة من خواص الشعب المتأخر .



@ketab_n @4_readers

فأجاز بالاشيف لنفسه بأدب واحترام الا يشارك امبراطور فرنسا رأيـه ، وقال :

ـ لكل بلد عاداته وأخلاقه •

فقال نابليون :

ـ اكن ، لم يبق في أي مكان من اوروبا ما يشبه هذا •

قال بالاشيف :

ـ عفوا ، يا صاحب الجلالة ، فهناك ، غير روسيا ، اسبانيا التي تكثر فيها الكنائس والاديرة كما تكثر في روسيا •

وقد لقي هذا الجواب الذي يلمّح الى هزيمة الفرنسيين الحديثة العهد في اسبانيا،تقديرا عاليا في بلاط الامبراطور الاسكندر بعد أن رواه بالاشيف بنفسه ، الا انه لم يلق قبولا على مائدة نابليون ومر من غير أن يفطن له احـد •

وكان واضحا ، من خـلال وجوه السادة المارشالات ، السادرة الحائرة ، أنهم يتساءلون : أين النكهة في الجواب الذي شددت عليـه لهجة بالاشيف• وكان يقرأ على قسماتهم: « وحتى لو كان في الجواب تلميح فاننا لم نفهمه او انه ليس من الفكاهة في شيء » • لم يلـق الجواب قبولا حتى ان نابليون لم يأبه له وسأل بالاشيف بسذاجـة عن المدن التي يمر بها أقصر الطرق الى موسكو • فأجاب بالاشيف الذي كان يقظا محترسا طوال الغداء بقوله : **كمـا ان كل طريق تفضي الى روما فكذلك تفضي كل طريق الى موسكو** ، وان الطرق كثيرة وان



@ketab_n @4_readers

بينها الطريق الذي يمر ببولتافا[1] والذي اختاره شارل الثاني عشر ؛ واحمر وجهه فرحا بالرغم منه لانه وقع على مثل هذا الجواب الموفق. لكنه لم يكد ينتهي من ذكر اسم « بولتافا » حتى انطلق « كولنكور » في الكلام على سوء الطريق بين بطرسبورج وموسكو وأخذ يستعرض ذكرياته في بطرسبورج .

وبعد الغداء ، دعاه نابليون الى مكتبه لتناول القهوة ، وهوالمكتب الذي كـ ناقبل أربعة أيام مكتبا للاسكندر . جلس نابليون وأشار الى بالاشيف ، وهو يُحرك قهوته في فنجان من خزف « سيفر » ، ان يجلس بجانبه .

ان ضربا من الحالة النفسية التي تتلو الطعام تُهيءُ المرء ، أكثر من أي سبب حقيقي آخر ، لانْ يشعر بالرضى عن نفسه وألاّ يرى ، حيثما تطلع ، غير الاصدقاء . لقد كان نابليون في تلك الحالة بعينها . كان يُخيَّل اليه انه محاط بالناس الذين يعبدونه . كان قانعا بأن بالاشيف ، بعد أن تناول الطعام على مائدته ، صديق له ، معجب به . فالتفت اليه ، وعلى وجهه ابتسامة رقيقة فيها شيء من السخرية ، وقال :

— ها هنا الغرفة التي كان يشغلها الامبراطور الاسكندر ، على ماقيل لي .

غريب هذا ، أليس كذلك ، ياجنرال ؟

لم يبدُ على نابليون أي شك في أن هذه الملاحظة قد لاتسر محدثه باعتبارها دليلا على تفوقه هو ، تفوق نابليون على الاسكندر .

---

(1) في سنة ١٧٠٩ اختار ملك السويد شارل الثاني عشر هذا الطريق الجنوبي للسير الى موسكو لكنه هزم عند بولتافا .



@ketab_n @4_readers

ولم يستطع بالاشيف أن يجيب على ذلك فحنى رأسه بصمت .

وتابع نابليون كلامه دون أن تفارقه تلك الابتسامة الساخرة المليئة بالثقة :

ـ نعم ، في هذه الغرفة ، ومنذ أربعة أيام ، كان يجتمع « ونتز نجيرود » و « ستين » للتشاور . ان ما لا استطيع فهمه هو أن الامبراطور الاسكندر قد ضم اليه جميع أعدائي الشخصيين . اني لا أفهم ... ذلك . ألم يخطر بباله انني يمكن أن أفعل مثل مافعل ؟

سأل بالاشيف هذا السؤال فأسلمته هذه الذكرى الى ما يشبه الغضب الذي اصابه صباحا ، وكان مايزال متوهجا فيه .

قال وهو ينهض ويدفع بيده فنجانه :

ـ ليعلمْ .. أنني أفعل ذلك . سأطرد من لمأانيا كل أقربائه آل « ورتنبرغ » و « باد » و « فايمار »[1] ... نعم سأطردهم . فليهيء لهم ملجأ في روسيا .

حنى بالاشيف رأسه ودل بهيئته على أنه كان يرغب في الانصراف وأنه لم يكن يصغي الا لانه لا يستطيع أن يفعل غير ذلك .

ولم يلاحظ نابليون ذلك ، كان يتحدث الى بالاشيف لا بوصفه سميرا لعدوه بل بوصفه رجلا يفيض اخلاصا له ويبتهج باذلال سيده القديم :

ـ ولمَ تولى الامبراطور الاسكندر قيادة جيوشه ؟ ما جدوى

---

(1) أم الاسكندر الاول كانت اميرة ورتنبرج بالولادة ، وزوجته اليزابيت اميرة باد بالولادة ، واخته ماريا بافلوفنا تزوجت منذ ١٨٠٤ الدوق الاكبر لساكس فايمار .



@ketab_n @4_readers

ذلك ؟ الحرب مهنتي ، أما مهنته فهي أن يحكم لا أن يقود القطعات • لمَ اضطلع بهذه المسؤوليـة ؟

تناول نابليون مسعطه مرة اخرى ، وخطا في الغرفة بضع خطوات بصمت ، ثم اقترب فجأة من بالاشيف ومد يده بحركة واثقة ، عجلى ، بسيطة ، وكأنما كان يقوم بعمل عظيم الشأن يلاطف به بالاشيف ، مد يده الى وجه الجنرال الروسي ابن الاربعين وشد أذنه شدا خفيفا وهو يفترّ باسمـا •

**« ان يشد الامبراطور اذن انسان » تعتبر ، في فرنسا ، الشرف الاعظم والحظوة القصوى •**

وقـال :

**مالك ، لا تقول شيئا ، ايها المعجب بالامبراطور الاسكندر ويا صفيّـه ؟**

قال ذلك وكأنما كان يجد من السخف ان يكون المرء صفيا لغيره ومعجبا بغيره ، هو نابليون •• وأضاف وهو يحني رأسه انحناءة خفيفة ردا على تحية بالاشيف :

ـ هل الجياد جاهزة للجنرال ، أعطوه جيادي فطريقه طويلة ••

كانت الرسالة التي حملها بالاشيف آخر رسالة يوجهها نابليون الى الاسكندر • وقـد نقلت جميع تفاصيل المقابلة الى الامبراطور الاسكندر ، وبدأت الحرب •



@ketab_n @4_readers

# الفصل الثامن

سافر الامير « آندره » الى بطرسبرج ، بعد اللقاء بينه وبين بطرس في موسكو ، لقضاء بعض الاعمال ، كما قال لاهله ، والحقيقة أنه ذهب للقاء الامير أناتول كوراجين ، وكان آندره يرى أنه لابد من مواجهته . واستعلم عن كوراجين فور وصوله فلم يجده في بطرسبرج. وكان « بطرس » قد أخطر أخا زوجته أن الامير « آندره » يلاحقه . وسرعان ماحصل أناتول كوراجين من وزير الحربية على تعيينه فيجيش مولدافيا [1] ، فانتقل الى هناك . قابل الامير آندره أثناء اقامته في بطرسبرج « كوتوزوف » جنراله القديم الذي كان حفيا به ، فعرض عليه أن يصحبه الى مولدافيا حيث عيّن قائدا عاما للجيش فيها . وقبل آندره بالعرض وذهب الى تركيا بصفته ملحقا بالاركان العامة .

كان « آندره » يرى من غير المناسب ان يكتب لكوراجين كي يدعوه الى المبارزة . وكان يقدر ان ذلك يسيء الى سمعة الكونتيسة « روستوف » ، ولهذا كان يسعى الى لقائه شخصيا لعله يجد ذريعة جديدة للمبارزة . لكنه لم يستطع أن يلقى كوراجين الذي رجع الى روسيا بعد وصول الامير « آندره » بقليل . لقد شعر الامير آندره

---

(١) منذ ١٨٠٨ احتل الجيش الروسي الذي كان يحارب الترك المقاطعتين الرومانيتين الخاضعتين للسلطان وهما مولدافيا وفالاكيا . ولذلك يذكر تولستوي « تركيا » ايضـــا .



@ketab_n @4_readers

في هذا البلد الجديد وفي ظروف الحياة الجديدة بارتياح أكبر • فمنذ خيانة خطيبته التي طعنته طعنة كان ألمها أشد لانه كان يخفيه بعناية عن الناس جميعا ، غدت شروط الحياة التي كان سعيدا فيها شاقة عليه ، وأشق" منها أيضا الحرية والاستقلال اللذان كانا لايقدران بثمن من قبل • لقد كف عن الاستسلام لتلك الافكار التي خطرت له لاول مرة في ميدان القتال في « اوسترلتس » والتي كان يحب أن يبسطها أمام بطرس والتي عَمرت وحدته في « بوغوتشاروفو » ثم في سويسرا وروما ، بل انه كان يخشى ذكرى هذه الافكار التي فتحت له آفاقا مضيئة لانهاية لها • ان ما كان يعنيه الان هو المسائل العملية المباشرة التي لاعلاقة لها بمشاغله القديمة والتي كان يتشبث بها بحرص يشتد مع تلاشي تلك المشاغل القديمة • فكأن قبة السماء اللانهائية التي كانت تمتد فوقه من قبل قد تحولت الى قبة منخفضة ، محدودة تسحقه ، قبة كان كل شيء فيها واضحا جليا ، الا انه لم يكن فيها شيء مما هو خالد او مما هومحفوف بالاسرار والخفايا •

وكانت الخدمة في الجيش ، بين جميع ألوان النشاط التي تعرض له ، أشدها بساطة ، وكان يجيدها فوق غيرها • كان يقوم بمهامه ، بصفته جنرالا مساعدا عسكريا في اركان كوتوزوف ، بحماسة ومثابرة، مدهشا كوتوزوف بميله الى العمل وبدقته•وحين لم يجد « كوراجين » في تركيا رأى من غير الضروري ملاحقته وتقصي أرثه في روسيا ؛ لكنه كان يُدرك ايضا أنه بالرغم من الزمن الذي يمر ، وبالرغم من الازدراء الذي يُحس به نحوه ، وبالرغم من جميع الاسباب التي تدعوه الى الترفع عن مبارزته ، فانه لايستطيع إنْ لقيه ، أن يمتنع عن تحديه ودعوته الى المبارزة ، كما لايستطيع الجائع الغرثان أن يمنع نفسه من



@ketab_n @4_readers

الارتماء على الطعام . وكان شعوره بأن الاهانة لم يُثأرْ لها ، وبأن غضبه الذي مازال حبيسا يُثقل قلبه ، كان هذا الشعور يسمم الهدوء المصطنع الذي أحاط به نفسه ، في تركيا بفضل نشاطه المحموم المائل الى الطموح والزهو .

وفي سنة ١٨١٢ ، عندما وصل نبأُ الحرب ضد نابليون الى بوخارست[١] ( وكان كوتوزوف فيها منذ سنتين يقضي أيامه ولياليه مع خليلته الفالاكية ) ، طلب الامير آندره نقله الى جيش الغرب . فقبل كوتوزوف طلبه راضيا ، ـ وكان يرى في نشاط بولكونسكي ما يُشبه المأخذ على الحياة العاطلة الخاملة التي يحياها ، ـ وعهد اليه بمهمة لدى « باركلي دي تولى » .

قبل أن يلتحق الامير آندره بالجيش الذي كان ، في شهر أيار ، في معسكر « دريسا »[٢] ، مرّ بليسيا خوري ، وهي من أملاك أبيه ، وكانت على طريقه، لانها لاتبعد سوى ثلاثة فراسخ عن طريق سمولنسك الكبرى . لقد حدث في حياته كثير من التقلبات خلال هذه السنوات الثلاث الاخيرة ، ففكر في كثير من الاشياء ، وعاش ورأى كثيرا منها ( زار الغرب والشرق ) حتى انه دهش أشد الدهشة حين رأى كل شيء على حاله ، في أدنى التفاصيل ، وحين رأى مجرى الحياة ذاته . وعندما سار في الممر واجتا زالبوابة الحجرية كان كأنما يلجُ الى قصر مسحور

(١) بوخارست عاصمة فالاكيا . ويسمى سكانها الفالاكيون .

(٢) دريسا : مدينة صغيرة على دفينا ، بين دفنسك و بولوتسك . وفيها بني في سنة ١٨٧٤ معسكر هائل محصن كان على الجيش الروسي ان يدافع منه عن نفسه في وجه نابليون . لكن هذه الخطة التي وضعها « بفويل » كان لابد من التخلي عنها بسبب ضغط الفرنسيين جنوبا على سمولنسك .



@ketab_n @4_readers

نائم • كان يسود البيت الوقار ذاته ، والنظافة ذاتها ، والصمت ذاته ؛ كان الاثـاث هو هو ، والجدران هي هي ، والاصـوات هي هي ، والروائح هي هي ، والوجوه الوجلة هي هي وان كبرت قليلا • مازالت الاميرة ماريا الفتاة الخجلة الخالية من الجمال، التي تكبر في ظل الخوف والعذاب النفسي الدائم ، قاضية أفضـل سني حياتها من دون فائدة ولابهجة • وما زالت الآنسة « بوربين » المغناجَ ، الراضية عن ذاتها ، الممتلئة بالآمال السعيدة ، المستمتعة بكل لحظة من حياتها •

وكان « ديسال » ، المربي الذي جاء به من سويسرا ، يرتدي معطفا روسي التفصيل ويخاطب الخدم بلهجة روسية رديئة ، لكنه مازال ذلك المربي المحدود الذكاء ، المتعلم ، الفاضل والمدعي •

كان التبدل الجسدي الوحيد الذي لوحظ على الامير العجوز غياب احدى الاسنان من زاوية فمه ؛ كان الشيخ من الناحية النفسية هو هو وان اشتد نزقه وتزايد تشككه ازاء ما يجري في العالـم • كان نيقولا الصغير وحده هو الذي كبر وتغير وتميزت قسماته ؛ كان شعره الداكن جعدا ، وكان اذا تبسم أو ضحك انحسرت شفته العليا عن فمه الجميل فأشبه بذلك الاميرة الصغيرة الراحلة كل الشبه ، من غير أن يعلم هو بذلك • كان نيقولا وحده هو الذي لايخضع ، في هذا القصر المسحور ، النائم ، لقانون الثبات والاستقرار • لكن مع أن كل شيء ، في الظاهر ، ظل على حاله ، الا ان العلاقات الحميمة بين جميـع الاشخاص تغيرت منذ أن غاب عنهم الامير آندره • كان سكان المنزل منقسمين الى معسكرين متباعدين متعاديين لايجتمعان الآن الا بسبب حضوره ، ولايغيران نمط حياتهما المعتاد الا من أجله • والى أحـد



@ketab_n @4_readers

المعسكرين ينتمي الامير الشيخ والآنسة « بوريين » والمهندس ، والى المعسكر الثاني تنتمي الاميرة ماريا ، وديسال ونيقولا الصغير وجميع المربيات والخادمات .

كان الجميع يتناولون الطعام معا ، أثناء اقامة الامير آندره في ليسيا خوري ، لكنهم كانوا جميعا يضيقون بذلك . وكان الامير آندره يحس انه ضيف وانهم يقبلون بهذا الاستثناء من أجله ، وأن حضوره يزعج الجميع . أحس بذلك بالرغم منه ، أثناء الغداء ، في اليوم الاول، فظل صامتا ؛ ولما رأى الامير الشيخ انقباضه التزم الصمت الكالح أيضا وسرعان ما انسحب الى غرفته بعد الطعام . وعندما دخل عليه الامير آندره ، في المساء ليراه ، بذل وسعه في أن يخرجه من صمته وركوده ، فحدثه عن حملة الكونت الشاب « كامنسكي »[1] واذا بالامير الشيخ يأخذ في الكلام على الاميرة ماريا لائما لها على تعلقها بالخرافات وعلى كرهها للآنسة « بوريين » التي كانت وحدها ، في اعتقاده ، المخلصة له بصدق .

كان الامير الشيخ يقول : انه ان كان مريضا فالذنب ذنب ماريا التي كانت تعذبه وتستثيره عامدة ؛ وانها كانت تفسد الامير الصغير نيقولا بتدليلها وبأحاديثها البلهاء . وكان الامير الشيخ يعلم علم اليقين انه هو الذي كان يعذب ابنته التي غدت حياتها جدّ شاقة ؛ لكنه كان يعلم ايضا أنه لا يستطيع أن يمتنع عن تعذيبها وانها كانت تستحق ذلك . وكان يقول في نفسه : « لمَ لايحدثني الامير آندره

---

(1) كامنسكي ( ١٧٧٨ - ١٨١١ ) ابن الفيلد مارشال كامنسكي ، عين في ١٨١٠ قائدا لجيش مولدافيا فاحرز نجاحا عظيما ، لكنه اصيب بمرض فمات شابا .



@ketab_n @4_readers

عن أخته وهو يرى ذلك ؟ أيظنني فاسقا او شيخا غبيا أبْعَد ابنته من غير داع وقرّب منــه الفرنسية ؟ انه لا يعرف ، ينبغي ان اوضح لــه الامر ، ينبغي أن يفهمني . » ثم شرع يعرض الدواعي التي من أجلها لم يعد بوسعه ان يحتمل من ابنته طباعها المنكرة .

قال الامير آندره دون أن ينظر الى ابيه ( كان يلومه لاول مرة في حياتــه ) :

ــ ما كنت أحب الكلام على ذلك ، ولكن ان كنت تسألني رأيي فسأقول لك بصراحة رأيي في ذلك كله . اذا كان بينك وبين « ماشا »[1] سوء تفاهم وخلاف فلست أستطيع أن احملها المسؤولية في أية حال من الاحوال : اني أعلم مبلغَ حبها واحترامها لك .

وتابــع كلامه وقد اهتاج ، لانه كان مهيّأ للاهتياج منذ بعض الزمن :

ــ مادمت تسألني رأيي فاني لا استطيــع أن أقول سوى شيء واحد : ان كان هناك سوء تفاهم فالذنب ذنب هذه المرأة التافهة التي لايحق لها ان تكون رفيقة لاختي .

نظر الشيخ ، باديء الامــر ، الــى ابنــه محدّقا فيه ، كاشفــا بابتسامته التي حمل نفسه عليها حملا ، عن غياب احدى أسنانه ، وهو شيء لم يألفه بعد الامير آندره ، ثم قــال :

ــ مَنْ الرفيقة التي عنيتَ يا عزيزي ؟ قــل لي ؟ لقد ناقشتم ذلك من قبل ! أليس كذلك ؟

---

(١) ماشا تصغير ماريا .



@ketab_n @4_readers

قال آندره بلهجة مغتاظة قاسية :

ـ ماكنت أريد أن أحكم على أحد ، يا أبي ، لكنك أنت أثرت هذا الحديث ، ولقد قلت وسأقول ابدا : ان الذنب لايقع على الاميرة ماريا وانما ••• يقع على هذه الفرنسية •

قال الشيخ بصوت خفيض ، صوت بدا للامير آندره مرتبكا •

ـ آه ! لقد حكمت ! •• لقد حكمت •••

ثم وثب فجأة وصرخ :

ـ اخرج من هنا ! اخرج من هنا ! ولاتعودنَّ الى هذا المكان ابـدا ! ••

أراد الامير آندره أن يسافر ، لكن الاميرة ماريا توسلت اليه ان يمكث يوما آخر • وفي هذا اليوم لم ير أباه الذي لم يخرج ولـم يدعْ أحدا يدخل اليه ماعدا الآنسة بوريين وتيخون ، والذي سأل غير مرة ان كان ابنه قد انصرف • وفي اليوم التالي ، ذهب الامير آندره ، قبل رحيله ، لرؤية ابنه • وجلس الطفل القوي الذي يشبه شعره الجعد شعر أمه ، في حضن ابيه • فأخذ الامير آندره يقص عليه حكاية « ذي اللحية الزرقاء » ، لكنه أخذ يفكر قبل أن ينهي حكايته • لم يكن يفكر بهذا الصبي الحلو ، بابنه الذي يجلسه في حضنه ، بل بنفسه • كان يبحث في أعماقه بارتياع ، عن الندم لانه اغضب أباه أو عن الاسف لفراقـه فلا يجدهما ( وهذه اول مرة في حياته يختلف فيها مع ابيه ) • وأخطرُ من ذلك أنه كان يبحث في أعماقه أيضا عن حنانه القديم لابنه فلا يعثرُ عليه ، حنان أمل في أن يوقظه وهو يلاطفُ ابنه ويجلسه في حضنه •



@ketab_n @4_readers

كان الصبي يقول له : هيا ! أَنْهِ الحكاية . لكن الامير آندره أنزله من حضنه وخرج من الغرفة دون ان يجيب .

ذلك ان الامير آندره ما إنْ هجر مشاغله اليومية ، وما إن عاد بخاصة ، الى شروط حياته القديمة أيام كان سعيدا ، حتى أصابه القرف من الحياة قويا كما كان من قبل ، فتعجّل الهرب من هذه الذكريات وأسرع في البحث عن شغل يشغله .

سألته أخته :

ــ هل عزمت على الرحيل ، يا آندره ؟

فقال الامير آندره :

ــ أحمد الله على أنني استطيع الرحيل . وأنا شديد الاسف لانك لاتستطيعين أن تفعلي مثل ما أفعل .

هتفت الاميرة ماريا قائلة :

ــ لمَ تقول هذا ! لم تقول هذا وأنت ماض الى هذه الحرب الرهيبة وقد غدا شيخا طاعنا في السن ! قالت الآنسة بورين انه كان يَسْتعلم عنك ...

لم تكد تتطرق الى هذا الموضوع حتى ارتجفت شفتاها وانبجست الدموع من عينيها . فأدار الامير آندره ظهره وأخذ يذرع الغرفة . ثم قال بشيء من الحقد الذي أخاف أخته :

ــ آه ! يا الهي ! يا الهي ! عندما يفكر المرء بتلك الكائنات الحقيرة التي يمكن أن تكون سببا في شقاء الآخرين ... !

وفهمت أنه حين يتحدث عن الكائنات الحقيرة فهو لا يقصد فقط



@ketab_n @4_readers

الآنسة بوريين التي كانت سببا في شقائها ، بل انه يقصد أيضا الرجل الذي دمّر سعادته •

قالت وهي تلمس مرفقه وتنظر اليه بعينين كانتا تلتمعان من خلال الدمـــوع :

ـ آندره ، أتوسل اليك ، ولا أطلب منك الا شيئا واحدا :

انني أفهمك ( وخفضت بصرها ) • لاتظن أن الناس هـــم الذين يصنعون شقاء الناس الآخرين • الناس أدوات « بيديه » •

وألقت من فوق رأس الامـــير آندره بنظرة من تلك النظرات الواثقة التي نلقيها على مكان نعلم أننا سنعثر فيه على صورة ، وتابعت قولهـــا :

ـ « هو » الذي يرســـل الالـــم ، لا الناس • الناس أدوات « بيديه » وهم غير مذنبين • واذا اعتقدت أن أحد الناس أذنب معك فانس واصفح • ليس لنا الحق في أن نعاقب • ولسوف تدرك سعادة الصفـــح •

قال آندره :

ـ لو كنت امرأة لفعلت ذلك ، يا ماري • فتلك مزيّة المرأة • أما الرجل فلا ينبغي له ولا يستطيع أن ينسى ويصفح •

ومع أنه لم يفكر ، حتى هذه اللحظة ، بكوراجين ، الا ان حقده الموتور ثار فجأة في قلبه • وقال في نفسه : « اذا كانت الاميرة ماريا ذاتها تحثني على الصفح ، فذلك يعني أنه كان ينبغي لي أن أعاقبـــه منذ مزن طويل » • ومن غير أن يردّ على اخته ، فكر في لحظة الغضب المثيرة التي سيقابل فيها كوراجين الذي كان يعلم أنه في الجيش •



@ketab_n @4_readers

توسلت الاميرة ماريا الى أخيها أن يمكث يوما آخر ، وقالت له انها تعلم مبلغ التعاسة التي ستصيب أباهما لو أن آندره سافر دون ان يصالحه ، لكن الامير آندره أجابها بأنه قد يعود قريبا من الجيش ، وأنه لن يتوانى عن مراسلة أبيه ، وأنه كلما أطال بقاءه الآن ازداد الامر سوءا وتفاقم الخلاف بينهما .

كانت آخر الكلمات التي سمعها من أخته وهي تودعه :

ـ وداعا يا آندره ! تذكّرة أن المصائب تأتي من الله ، وأن البشر غير مذنبين البتة .

قال الامير آندره في نفسه وهو يغادر ممر « ليسيا خوري » : « لابد أن تكون الامور كذلك ! ستظل هذه المخلوقة المسكينة البريئة فريسة لشيخ رجع الى صباه . انه يحس بنفسه مذنبا لكنه لا يستطيع أن يغير نفسه . أما ابني الصغير فهو يكبر ، سعيدا بالحياة التي سيغدو فيها كالآخرين مخدوعا أو خادعا . انني ذاهب الى الجيش ، لماذا ؟ لست أدري . وأنا أرغب في لقاء رجل أحتقره لأتيح له أن يقتلني أو أن يستهزىء بي ! » .

لقد كانت عناصر حياته قديما هي نفسها ، ولكنها كانت اذ ذاك تأتلف على حين أنها تتفكك وتتحلل اليوم . الصور العارية من المعنى والتي لا رابط بينها ، هي وحدها التي كانت تعرض لفكره الواحدة بعد الاخرى .



@ketab_n @4_readers

# الفصل التاسع

وصل الامير آندره الى مقر القيادة العامة في نهاية شهر حزيران • وكانت قطعات الجيش الاول، حيث كان يقيم الامبراطور، تشغل معسكر « دريسا » المحصن ؛ وكانت قطعات الجيش الثاني تتراجع وهي تجهد في الالتحاق بالجيش الاول الذي يفصله عنها ، على ما كان يقال ، قوات فرنسية ضخمة • كان الناس جميعا مستائين من سير العمليات العام ؛ ولكن لم يكن أحد يفكر في خطر غزو المقاطعات الروسية ، ولم يكن أحد يقدّر أنه يمكن نقل الحرب الى ما وراء المقاطعات البولونية في الغرب •

وجد الامير آندره « باركلي دي تولي » الذي ألحق به ، معسكرا على ضفاف « الدريسا » • ولما لم تكن في جوار المعسكر أية قرية أو ناحية لها شأنها ، فان ذلك العدد الجم من الجنرالات ورجال الحاشية الذين كانوا في الجيش ، كانوا يحتلون ، في دائرة قطرها عشر فراسخ ، أجمل المنازل في القرى الواقعة على ضفتي النهر • وكان « باركلي دي تولي » يقيم على أربع فراسخ من الامبراطور • ولقد استقبل « بولكونسكي » بجفاف وبرودة وقال بلهجته الالمانية : انه سيرجع الى الامبراطور بشأن تعيينه وأنه سيكون ، في هذه الاثناء ، ملحقا بأركانه •

أما أناتول كوراجين الذي كان آندره يأمل أن يلقاه في الجيش



@ketab_n @4_readers

فلم يكن هنا ، وانما كان في بطرسبرج ؛ فسرّه هذا النبأ • وما أن وجد نفسه في قلب العمليات الهائلة الجارية حتى أقبل عليها وفرح لان التفكير في كوراجين لن يصرفه عنها الى بعض الوقت • وفي الايام الاربعة الاولى التي لم يستدعه فيها أحد ، طاف بالمعسكر المحصن وكوّن لنفسه فكرة دقيقة عنه بفضل معلوماته الخاصة وأحاديثه مع الرجال المختصين • لكن مسألة ما اذا كان لهذا المعسكر مزية أم لا ظلت بدون حل • لقد أقنعته تجربته للحرب أن المخططات التي درست خير دراسة تكاد تكون عديمة الاهمية ( كما رأى ذلك في اوسترلتس ) ، وأن كل شيء منوط بالطريقة التي تتّقى بها ضربات العدو المفاجئة الطارئة ، ان كل شيء منوط بادارة العمليات وبسالة القادة • وتوضيحا للمسألة الاخيرة سعى الامير آندره ، مستخدما وضعه وعلاقاته ، أن يتغلغل الى خصائص قيادة الجيش والشخصيات والجماعات التي تشارك فيها ، وانتهى الى الصورة التالية:

عندما كان الامبراطور ما يزال في فيلنا ، كانت قواتنا مقسمة الى ثلاثة أقسام : الجيش الاول بقيادة « باركلي دي تولي » والجيش الثاني بقيادة « باغراتسيون » ، والجيش الثالث بقيادة « تورماسوف »[1] • وكان الامبراطور مع الجيش الاول ، ولكنه لم يكن معه بصفته قائدا عاما • وكانت الاوامر العامة تنص على أنه لن يمارس القيادة وأنه سيكون موجودا في الجيش فقط • وفضلا عن ذلك ، فانه لم تكن له هيئة اركان القائد العام وانما كان هناك هيئة أركان المقر الامبراطوري•

---

(١) تورماسوف ( ١٧٥٢ ـ ١٨١٩ ) جنرال تميز في جميع الحروب منذ ١٩٧١ . كان قائد الجيش الثالث في جنوبي روسيا ، حل محل كوتوزوف في كانون الاول من عام ١٨١٢ . منح لقب كونت سنة ١٨١٥م.



@ketab_n @4_readers

كان يساعده قائد الاركان الامبراطورية الجنرال الامير «فولكونسكي»[1]، وجنرالات ، ومساعدون عسكريون ، ودبلوماسيون ، وعدد كبير من الاجانب ، الا أنه لم تكن هناك هيئة أركان للجيش . وكان الى جنبه فوق ذلك ، وبدون وظائف خاصة ، وزير الحرب السابق «اراكتشيف»، والكونت « بينيغسين » أقدم الجنرالات رتبة ، وولي العهد « قسطنطين بافلوفيتش » ، والمستشار الكونت « رومياتسيف » ، والوزير البروسي السابق « ستين » ، والجنرال السويدي « آرمفيلد » ، والواضع الرئيسي لخطة المعركة « بفويل » ،والجنرال المساعد العسكري واللاجيء السرديني « بولوكشي »[2] ، و « لزوجين »[3] وكثيرون غيرهم . ومع أنه لم تكن لهذه الشخصيات وظائف رسمية ، الا أنها كانت تمارس تأثيرا بسبب مكانتها ؛ وغالبا ما كان قائد القطعة والقائد العام نفسه يجهلان بأية صفة كان « بينيغسين » أو « الدوق الاكبر »[4] ، أو « آراكتشيف » ، أو « فولكونسكي » يطلبون هذا الشيء أو ذاك ، ويشيرون بهذا الشيء أو ذاك ، كما كانا يجهلان ان كان الامر الذي نقل على شكل نصيحة يصدر عنهم أم عن الامبراطور ، وان كان يجب تنفيذه أم لا . لكن ذلك لم يكن سوى الظاهر ؛ أما الدلالة الحقيقية

---

(١) فولكونسكي هو عم والدة ليون تولستوي ( ١٧٧٦ - ١٨٥٢ ) .

(٢) بولوكشي : المركيز بولوكشي ( ١٧٧٩ - ١٨٤٩ ) من مواليد سردينيا . خدم فرنسا في سنة ١٨٠٦ ، وخدم روسيا منذ ١٨٠٧ . رئيس اركان الجيش الاول في سنة ١٨١٢، والحاكم العام لمقاطعات البلطيق ( ١٨٢١ - ١٨٢٩ ) . عاد الى ايطاليا وشغل مناصب رفيعة .

(٣) ولزوجين ( ١٧٧٣ - ١٨٤٥ ) ضابط بروسي ، التحق بخدمة روسيا منذ ١٨٠٧ وعاد الى الجيش البروسي في عام ١٨١٥ .

(٤) الدوق الاكبر هو اخو الامبراطور .



@ketab_n @4_readers

لوجود الامبراطور وكل هذه الشخصيات ، من وجهة نظر البلاط ، ( الجميع يغدون بحضور الامبراطور حاشية ممالقة له • ) ، فلم تكن تغيب عن أحد • كانت الدلالة هي التالية : ان الامبراطور لم يحمل لقب « قائد عام » ، لكنه كان يدير كل الجيوش ، وكان الاشخاص الذين يحيطون به معاونين له • كان « اراكتشيف » الحارس الامين للنظام ومرافق الامبراطور العسكري ؛ وكان يبدو على « بينيغسن » ، وهو ملاّك في مقاطعة « فيلنا » ، أنه يقوم بواجبات الضيافة في بلده ، الا أنه ، في الواقع ، كان جنرالا ممتازا نافعا بما يسديه من نصائح ، جاهزا ليحل محل « باركلي » ؛ وكان الدوق الاكبر هنا لان تلك كانت رغبته ؛ وكان الوزير السابق « ستين » هنا ، لانه كان سديد الرأي ، ولأن الامبراطور الاسكندر كان يقدر مزاياه الشخصية تقديرا عاليا • وكان « آرمفيلد » عدوا لدودا لنابليون ، وجنرالا واثقا من نفسه مما كان يدفع الاسكندر دائما الى احترامه • وكان « بولوكشي » هنا لانه كان جريئا وقويا في أحاديثه•وكان المساعدون العسكريون من الجنرالات هنا لانهم كانوا يرافقون الامبراطور أينما ذهب ؛ وأخيرا وعلى وجه الخصوص ، كان « بفويل » هنا لانه واضع خطة المعركة ضد نابليون ، ولانه كان يدير جميع العمليات بعد أن أقنع الاسكندر بجودة هذه الخطة • وكان « ولزوجين » الى جانبه يترجم الى شكل أقرب منالا أفكار « بفويل » هذا المنظّر ، هذا الرجل الصارم والشديد الثقة بنفسه حتى انه كان يجهر بالاحتقار الكلي للآخرين •

وفيما عدا الشخصيات المذكورة ، الروسية والاجنبية ، ( ولا سيما الشخصيات الاجنبية التي كانت تقترح كل يوم أفكارا جديدة غير متوقعة ، بجسارة لا يملكها الا أولئك الذين يمارسون نشاطا في وسط


@ketab_n @4_readers

غير وسطهم ) ، كان هناك عـدد كبير من الاشخاص الثانويين الذين كانوا في الجيش لان رؤساءهم كانوا فيه •

بين جميع الافكار والآراء التي كانت تبرز الى النور في هذا العالم العريض المضطرب والبراق المتعجرف ، تبين الامير آندره أقساما متميزة واضحة المعالم للاتجاهات والافرقة • ويضم الفريق الاول « بفويل » وأنصاره من المنظرين المقتنعين بوجود علم للحرب يتضمن قوانينهـا الثابتة ، قوانين الحركة المائلة ، قوانين التغطية الخ ••• وكان «بفويل» وأتباعه يقولون بوجوب الانسحاب الى داخـل البلاد وفقا للقوانين الصارمة التي تفرضها نظرية الحرب المزعومة ، وكانوا لا يرون في خرق هذه النظرية سوى علامة من علامات البربرية والجهل أو سوء النية • والى هـذا الفريق كان ينتمي الامراء الالمـان ، و « ولزوجـين » و « وتتزنجيرود » ، وآخرون من الالمان خاصة •

وكان الفريق الثاني على النقيض من الاول ؛ كما هي الحال دائما حين يستدعي التطرف تطرفا آخر يقابله • والى هذا الفريق كان ينتمي أولئك الذين كانوا يطالبون ، منـذ « فيلنا » ، بالهجوم في بولونيا والانعتاق من أية خطة موضوعة سلفا •

كان هؤلاء يمثلون الروح القومية فضلا عن كونهم ممثلي الجرأة في العمل ، وهو ما جعلهم ينفردون برأيهم ولا يقبلون بغيره رأيا في النقاش • كانوا روسا : « باغراتيون » و « ايرمولوف » الذي أخذ صيته يذيع ، وآخرون • وكانوا يرددون كلمة شهيرة لايرمولوف الذي طلب من الامبراطور حظوة واحدة ، وهي أن يرقّع الى ألماني • كان رجال هذا الفريق يقولون ، وهم يستعرضون ذكرى سوفوروف ، :



@ketab_n @4_readers

انه لا يجب أن نفكر وأن نغرز الدبابيس في الخرائط ، وانما يجب أن نحارب العدو وأن نقهره وأن نمنعه من دخول روسيا وأن نحول دون هبوط الروح المعنوية في الجيش .

والى الفريق الثالث الذي كان يوحي الى الامبراطور بأكبر قدر من الثقة ، كان ينتمي رجال من الحاشية يؤيدون التوفيق بين الاتجاهين. وكان هؤلاء ، ومعظمهم مدنيون ومن بينهم « آراكتشيف » ، يرون ويقولون ما يقوله ، على العموم ، أولئك الذين لا يملكون قناعات لكنهم يرغبون في أن يظهروا بمظهر من يملكها . كانوا يزعمون أن الحرب ، ولا سيما ضد عدو عبقري مثل بونابرت ( صاروا يسمونه بونابرت مرة أخرى ) تتطلب ، من غير شك ، تفكيرا عميقا وعلما عظيما ، – وعلى هذا الاساس ، كان « بفويل » عبقريا – ؛ لكنهم كانوا مضطرين الى الاقرار ، في الوقت نفسه ، بأن المنظرين ضيقو الفكر ، في الغالب ، ولذلك فمن الواجب ألا نثق بهم ثقة مطلقة ، وأن نصغي الى ما كان يقوله خصوم « بفويل » ، الى ما كان يقوله الرجال العمليون ، المجربون وأن نعمل على ايجاد الحل الوسط بين الطرفين . لقد توصلوا الى ضرورة ابقاء معسكر « دريسا » وفقا لخطة «بفويل»، مع تعديل حركات الجيشين الآخرين . كان أنصار هذا الفريق يعتقدون أن هذا الحل هو أفضل الحلول ، مع أنه لا يمكن بلوغ أي من الاهداف المرجوة بهذه الطريقة .

أما تيار الرأي الرابع فكان أبرز ممثليه الدوق الاكبر ولي العهد الذي لم يكن بوسعه أن ينسى خيبته في « اوسترلتس » ، حيث تقدم على رأس الحرس وكأنه في استعراض عسكري ، بخوذته وسترته



@ketab_n @4_readers

القصيرة ، مقدرا أنه سيسحق الفرنسيين ببسالته ، وحين وجد نفسه ، على حين غرة ، في الخط الاول ، لم يتمكن من الافلات والنجاة ، في غمرة البلبلة العامة ، الا بعد لأي . كان لرجال هذا الفريق فيما يطلقون من أحكام فضل الصدق وعيوبه . كانوا يخشون نابليون ويرون فيه القوة ويرون في أنفسهم الضعف ، وكانوا يعلنون ذلك على الملأ . كانوا يرددون : « لن يحمل الينا ذلك كله سوى الكارثة والعار والهزيمة ! لقد تخلينا عن « فيلنا » ، وتخلينا عن « فيتيبسك » ، وسوف تتخلى أيضا عن « دريسا » . الشيء الوحيد الذي بقي علينا أن نفعله هو أن نعقد الصلح بأسرع وقت ممكن مادمنا لم نطرد من بطرسبرغ ! » .

وكان هذا الرأي الشائع في أوساط الجيش العليا يجد دعما له في بطرسبرج ولدى المستشار « روميا نتزيف » الذي كان يرغب في الصلح أيضا لاسباب أخرى ، لاسباب تتعلق بمصلحة الدولة .

خامسا ، كان هناك أنصار « باركلي دي تولي » ، باعتباره وزيرا للحرب وقائدا عاما لا باعتباره رجلا عاديا . كانوا يقولون : « مهما تكن عيوبه ( هكذا كانوا يبدؤون كلامهم دائما ) فهو رجل شريف جدي ، وليس عندنا من هو أفضل منه . امنحوه السلطة الحقيقية ، لان الحرب لا يمكن أن تدار بنجاح من غير وحدة القيادة ، وسيريكم ما بمقدوره أن يفعله ، كما أراكم ذلك في فنلندا من قبل . واذا كان جيشنا منظما ، واذا كان قويا ، واذا كان قد استطاع أن ينسحب الى « دريسا » دون أن تلحق به الهزيمة ، فالفضل في ذلك لباركلي وحده . واذا ما استبدلنا به الآن « بينغسن » خسرنا كل شيء ، ذلك أن « بينيغسن » دلل على عجزه سنة ١٨٠٧ » .



@ketab_n @4_readers

وكانت الجماعة السادسة ، من أنصار « بينيغسن » ، على العكس من ذلك ، تصر على أنه ليس هناك من هو أعظم قـدرة وخبرة من « بينيغسن » ، وأنه ، بالرغم مما جرى ، لا بد من الرجوع اليه • وكانوا يحتجون بأن انسحابنا الى « دريسا » كان أشد الهزائم خزيا ، كما كان سلسلة متصلة من الاخطاء • وكانوا يقولون : « كلما تعددت الاخطاء كان ذلك أجدى ، اذ سرعان ما ندرك ، على الاقل ، أن الامر لا يمكن أن يستمر على هذا النحو • ان ما نحتاج اليه ليس رجلا عاديا مثل « باركلي » وانما نحتاج الى رجل مثل « بينيغسن » أثبت قيمته وقدراته في سنة ١٨٠٧ وشهد له نابوليون ذاته ، والى قائـد يسلم الناس بقيادته راضين طائعين ؛ ومثل هذا الرجل القائد لا يمكن أن يكون سوى « بينيغسن » •

وكان الفريق السابع يتألف من أناس نجدهم دائما في بطانـة الملوك ، ولا سيما الملوك الشباب • وكانوا كثرا ، بنوع خاص ، حول الملك الاسكندر ؛ وهم من الجنرالات والمساعدين العسكريين الذين أخلصوا أعظم الاخلاص للرجل الذي كانوا يعبدونه فيه بصدق وتجرد، كما كان يعبده روستوف في سنة ١٨٠٥ ، أكثر من اخلاصهم للملك • وكانوا ينسبون اليه جميع الفضائل ، بل جميع المزايا الانسانية •

كان هؤلاء الاشخاص يعجبون بتواضع الامبراطور الذي كان يرفض قيادةالجيوش، لكنهم كانوا يلومونهعلى هذا الافراط فيالتواضع، ولم يكونوا يرغبون الا في شيء واحد ، ولم يكونوا يلحون الا على شيء واحد ، وهو أن ينبذ مليكهم المحبوب افراطه في سوء ظنه بنفسه، وأن يعلن توليه لقيادة الجيش وأن ينشيء الى جانبـه هيئة لأركان



@ketab_n @4_readers

القيادة العامة وأن يستشير عند الحاجة المنظرين والعمليين المجربين ، وأن يقود بنفسه جنده الى المعركة ، فمثل هذه القيادة هي التي ستلهب حماستهم •

وكانت الجماعة الثامنة ، وهي أكثر الجماعات عددا ونسبتها الى غيرها كنسبة تسع وتسعين الى واحـد ، تتألف من أناس لا يريدون السلم ولا يريدون الحرب ، لا يريدون الزحف الى الامام كما لا يريدون معسكر « دريسا » المحصن أو غـيره ، لا يريدون « باركلي » ولا الامبراطور ، ولا « بفويل » ، ولا « بينيغسن » ، ولا يشتهون الا شيئا واحدا جوهريا دون غيره من الاشياء : وهو أكبر قدر من المنافع والملذات لأنفسهم • ففي هذا المستنقع العكر من الدسائس التي كانت تتلاقى وتتشابك في مقر الامبراطور غدا ممكنا النجـاح في كثير من الاشياء التي لا يجوز التفكير فيها في أوقات أخرى • فهذا واحد يعتنق اليوم نظرات « بفويل » ، حرصا منه على مركز مربح ، ويعتنق غدا نظرات خصمه ، ويؤكد بعد غد أن ليس له رأي في الموضوع الفلاني ، ولا هم له سوى التنصل من المسؤولية وارضاء الامبراطور • وهذا ثانٍ تحدوه الرغبة في تأمين منافعه فيسترعي انتباه الامبراطورة بما يثيره من ضجة حول ما كان الامبراطور قد لمح اليه بالامس ، ويناقش، ويصرخ في المجلس وهو يضرب صدره ، ويدعو معارضيه الى المبارزة ، مظهرا استعداده لان يضحي بنفسه في سبيل المصلحة العامة • وهذا ثالث يلتمس بوقاحة ، بين جلستين وفي غياب أعدائه ، عونا ماديا لقاء خدماته المخلصة ، وهو يعلم أن ليس هناك متسع من الوقت لرفض طلبه • وهذا رابع ، يبدو أبدا مرهقا بالعمل كلما وقعت عليـه عين



@ketab_n @4_readers

الامبراطور . وهذا خامس ، يدلل ، بغية بلوغ هدف طالما اشتهاه ، هو دعوة ملكية ، يدلل بعناد على صحة أو خطأ رأي شاع حديثا ، مستخدما لذلك الحجج التي تتفاوت روعة وصحة .

كان كل أولئك الناس يطاردون المال والاوسمة والمناصب ، ولا يلتفتون الا الى اتجاه الرعاية الامبراطورية ؛ كانت جماعة الزنابير هذه، اذا أحست ميل تلك الرعاية الى جهة من الجهات اندفعت اليها اندفاعا كان يصعب معه على الامبراطور أن يحولها عنها الى غيرها . وفي غمرة ترجح الوضع وجسامة الخطر الداهم الذي كان يسبغ على كل شيء طابعا خاصا من القلق ، ووسط هذه الزوبعة من الدسائس والانانيات والصراعات بين الآراء والمشاعر المتعارضة ، وبين جميع تلك الشخصيات المتعددة الجنسيات ، كانت هذه الجماعة ، وهي تفوق غيرها عددا وتتكون من أناس انهمكوا في مصالحهم الشخصية ، لا تفتأ تعقد الوضع وتزيده غموضا ولبسا . كانت هذه الجماعة من الزنابير تطير ، أيا كانت المسألة المثارة وقبل أن تنتهي من الجعجعة في الموضوع السابق ، الى موضوع جديد وتغطي بطنينها على الاصوات الصادقة التي كانت تسهم في النقاش .

في اللحظة التي وصل فيها الامير « آندره » الى الجيش ، كانت هذه الجماعات قد انتجت فريقا تاسعا بدأ يتجلى . وكان من أناس تقدموا في السن ، وأوتوا العقل ، وتمرسوا بأعمال الدولة ، وعرفوا ، من غير أن يشاركوا في أي من الآراء المتناقضة ، كيف يفحصون موضوعيا كل ما يجري في المقر الامبراطوري وكيف يبحثون عن الوسائل التي تضع حدا للتردد والحيرة واللبس والضعف .



@ketab_n @4_readers

كان هؤلاء يقولون ويرون أن السوء آتٍ قبل كل شيء من وجود الامبراطور وحاشيته العسكرية في الجيش ؛ وأن ما حمل الى الجيش من تقلبٍ ملتبس واتفاقي في العلاقات ، يناسب البلاط لكنه شؤم على الجيش ؛ وأن على الامبراطور أن يحكم لا أن يقود الجند ؛ وأن المخرج الوحيد من هذا الوضع هو رحيل الملك وحاشيته ؛ وأن وجوده وحده يشل خمسين ألف رجل لا بد منهم لتأمين حمايته الشخصية ؛ وأن أسوأ قائد عام ، ان كان مستقلا ، خير من أفضل قائد مقيد بوجود الامبراطور وسلطته .

في الوقت الذي كان الامير آندره يقيم فيه في « دريسا » بدون وظيفة محددة ، توجه الوزير شيشكوف[1] ، وهو واحد من أبرز ممثلي هذا الفريق ، الى الامبراطور برسالة وقعها « بالاشيف » و « آراكتشيف » معه . وقد استغل ، في هذه الرسالة ، الإذن الذي منحه إياه الامبراطور بمناقشة سير العمليات العام ، واقترح عليه باحترام أن يغادر الجيش ، متذرعا بوجوب إلهاب حماسة سكان العاصمة للحرب .

إن مهمة اثارة حماسة الشعب للحرب والنداء الذي يجب توجيهه اليه للدفاع عن الوطن ، هذه الحماسة القومية ( في الحدود التي أثارها وجود الامبراطور في موسكو ) التي كانت العامل الرئيسي في انتصار روسيا ، مهمة عُرضت على الامبراطور وقبل بها الامبراطور على أنها ذريعة لمغادرته الجيش .

---

(١) شيشكوف : ( ١٧٥٤ ـ ١٨٤١ ) اميرال واديب محافظ ، مؤلف بيانات طنانة . كان وزيرا للتعليم العام من سنة ١٨٢٤ الى سنة ١٨٢٨ .



@ketab_n @4_readers

# الفصل العاشر

لم تكن هـذه الرساله قد سلمت الى الامبراطور عندمـا أنبأ « باركلي » « بولكونسكي » ذات يوم ، أثناء الغداء ، أن الامبراطور يرغب في رؤيته ليسأله عن تركيا ، وأن عليه أن يمثل بين يديه في اليوم نفسه ، في الساعة السادسة بعد الظهر ، في مقر « بينيغسن » .

في هذا اليوم علم مقر الامبراطور بتحرك جديد لنابليون ، وهو تحرك يمكن أن يغدو خطرا على الجيش ؛ ثم تبين فيما بعد أن النبأ كاذب . وفي صباح هذا اليوم دلل العقيد « ميشو »[1] للامبراطور ، وهو يطوف معه بتحصينات « دريسا » ، أن هـذا المعسكر المخندق الذي بناه « بفويل » والذي اعتبر حتى الآن عملا رائعـا من أعمال التكتيك يهدف الى ضياع نابليون ، ان هذا المعسكر سخف مناف للعقل وأنه سيكون سببا في ضياع الجيش الروسي .

وصل الامير آندره الى مقر الجنرال « بينيغسن » الذي كان يشغل مسكنا ريفيا صغيرا على ضفة النهر ذاتها . فلم يجد « بينيغسن » ولا الامبراطور ؛ لكن « تشيرنيشوف »[2] ، وهو أحـد مساعدي

---

(١) ميشو : الكونت ميشو ( ١٧٧١ ـ ١٨٤١ ) ولد في سالوا ، والتحق بخدمة روسيا منذ ١٨٠٥ ، عين مساعدا عسكريا جنرالا للاسكندر الاول بين ١٨١٢ ـ ١٨١٥ .

(٢) تشيرنيشوف : الكونت تشيرنيشوف ( ١٧٨٥ ـ ١٨٥٧ ) ضابط في فرسان الحرس ، مساعد عسكري للامبراطور ، ارسل في سنة ١٨١١ بمهمة الى نابليون ، ثم اصبح جنرالا ووزيرا للحرب من ١٨٣٢ الى ١٨٥٥ ، ثم اميرا من اصحاب السمو منذ ١٨٣٩ .



@ketab_n @4_readers

الامبراطور العسكريين ، استقبل بولكونسكي وأنبأه أن جلالة الأمبراطور خرج ، وبصحبته الجنرال « بينيغسن » والكونت « بولوكشي » ، كي يتفقد تحصينات « دريسا » ، للمرة الثانية هذا اليوم ، وهي تحصينات أخذ الشك يساور النفوس في جدواها .

كان تشيرنيشوف يقرأ رواية فرنسية قرب النافذة ، في الغرفة الاولى التي ربما كانت قاعة للرقص من قبل : فما زال فيها أرغن تكدست فوقه الطنافس ؛ وفي زاوية منها وضع سرير مرافق « بينيغسن » العسكري . وكان هذا المرافق مرتميا على سريره المطوي يغفو ، وقد بدا منهكا من جراء وليمة أو من جراء العمل . وكان في القاعة بابان ، الباب المقابل ويفضي الى قاعة الاستقبال القديمة ، والباب الأيمن ويفضي الى مكتب العمل . وكانت تصل من الباب الاول أصوات تتكلم الالمانية ، وتتكلم الفرنسية بين الحين والحين . كان يعقد هنا ، في قاعة الاستقبال القديمة بناء على رغبة الامبراطور ، اجتماع لبعض الشخصيات ، ــ ولم يكن يسمى مجلسا حربيا لان الامبراطور لا يحب التحديد الدقيق ــ ، التي كان الامبراطور يريد معرفة رأيها ، في الصعوبات الراهنة . لم يكن مجلسا حربيا وانما كان اجتماعا لبعض الشخصيات المختارة والمدعوة الى توضيح بعض المسائل للامبراطور شخصيا . وكان يدعى الى هذا الاجتماع : الجنرال السويدي آرمفيلد ، والمساعد العسكري الجنرال « ولزوجين » ، و «ونتزنجيرود» الذي كان نابليون يدعوه أحد الرعايا الفرنسيين الفارين الى العدو ، و « ميشو » ، وتول[1] والكونت سيتن الذي لم يكن عسكريا قط ،

(1) تول جنرال في اركان الجيش الاول في سنة ١٨١٢ .



@ketab_n @4_readers

وأخيرا « بفويل » ذاته الذي كان المحرك الرئيسي للقضية كلها ، كما قيل للامير آندره . وقد أتيح للامير آندره أن يتفحصه جيداً ، لان « بفويل » وصل بعده بقليل ، وقبل أن يدخل الى القاعة ، توقف برهة ليحدث « تشيرنيشوف » .

ومع أن الامير آندره لم ير بفويل من قبل ، فقد خيل اليه ، للوهلة الاولى ، أنه يعرفه . كان يرتدي بزة جنرال روسي أسيء تفصيلها فغاصت رقبته فيها حتى بدا كالمتنكر . وكان فيه شيء من « ويروذر » و « ماك » و « وشميث » وغيرهم من الجنرالات المنظرين الالمان الذين تسنى له أن يلقاهم في سنة ١٨٠٥ ؛ لكنه كان أكثرهم نموذجية . اذ لم ير الامير آندره قط المانيا يجمع الى هذا الحد السمات المميزة للمنظرين الالمان الآخرين .

كان « بفويل » رجلا قصيرا شديد النحول لكنه كان متماسك البنيان ، وكان كأنما صنع على عجل ، بحوضه العريض وبلوحيه الناتئتين . وكان وجهه متغضنا وعيناه غائرتين . وكان شعره من الامام وعلى الصدغين مسرحا بضربات عجلى من الفرشاة ، أما من الخلف فكان منفوشا في خصلات شعثاء . دخل ، وهو يلقى من حوله ، نظرات قلقة غاضبة ، كأنما كان كل شيء يخيفه في القاعة الفسيحة التي يلج اليها . التفت الى « تشيرنيشوف » ، وهو يشد على سيفه بحركة خرقاء ، وسأله بالالمانية : أين الامبراطور . وكان واضحا أنه يتعجل عبور الحجرات ، والانتهاء من التحيات والمجاملات ، والإكباب على عمله خلف خريطته حيث يحس أنه في مكانه المناسب . وهز رأسه بسرعة ردا على ما كان يقوله « تشيرنيشوف » ، وابتسم ساخرا وهو



@ketab_n @4_readers

يوضح له أن الامبراطور خرج يتفقد التحصينات التي بناهـا هو ، « بفويل » وفقا لنظريته . وغمغم بينه وبين نفسه بالالمانية ، بصوت خشن خفيض ، صوت الالمان الواثقين من أنفسهم . « غبي . » ... أو « سحقا للتاريخ » ... أو « ستزداد الامور سوءا » ... ولم يسمع الامير آندره جيدا ما قالـه ، وأراد أن يمضي ، لكـن « تشيرنيشوف » قدمه لبفويل مشيرا الى أنه قادم من تركيـا حيث انتهت الحرب نهاية موفقة . فرماه « بفويل » بنظرة خاطفة تجاوزته الى ما وراءه وقال ، وهو يضحك : « لا بد أنها كانت حربا تكتيكية رائعة » . ثم دخل الى الغرفة التي كانت تنبعث منها الاصوات وهو يضحك ضحكة استخفاف .

كان جليا أن « بفويل » الذي كان دائم الاستعداد للسخريـة الحادة ، قد اغتاظ اليوم الى حد بعيد حين علم أن الامبراطور وصحبه قد أباحوا لأنفسهم تفقد حصنه والحكم عليه دون وجوده . لقـد أتاحت هذه المقابلة القصيرة وحدها للامير آندره أن يكوّن لنفسه ، بفضل ذكرياته عن « اوستريلتس » ، فكرة واضحة عن هذه الشخصية. كان « بفويل » واحدا من أولئك الرجال الواثقين بأنفسهم ثقة لا تتبدل ولا تتحول ، الى حد الاستشهاد ، مما لا نرى مثله الا لدى الالمان ، وذلك لان الالمان وحدهم يقيمون ثقتهم بأنفسهم على الفكرة المجردة ، على العلم ، أي على ما يزعمون من معرفة الحقيقة المطلقة . الفرنسي واثق من نفسه لاعتقاده أنه يفتن ، بجسمه وبفكره ، الرجال والنساء على السواء ، فتنة لا سبيل الى مقاومتها . والانجليزي واثق من نفسه لانه مواطن في دولة هي أفضل الدول تنظيما ، لانه ، بوصفه انكليزيا ،



@ketab_n @4_readers

يعلم دائما ما ينبغي أن يفعله ، ولانه يعي أن ما يفعله ، بوصفه ذاك ، هو ، بلا جدال ، خير ما يفعل . والايطالي واثق من نفسه لانه انفعالي ولانه ينسى بسهولة نفسه والآخرين . والروسي واثق من نفسه لانه لا يعلم شيئا ولا يريد أن يعلم شيئا ، ولانه لا يعتقد أن من الممكن معرفة شيء من الاشياء معرفة كلية . ثقة الالماني أسوأ أنواع الثقة جميعا وأشدها لصوقا بصاحبها ، وأبغضها الى النفس ، لان الالماني يتخيل أنه يعرف الحقيقة ، أي العلم الذي ابتكره هو نفسه فعده حقيقة مطلقة . كذلك كان « بفويل » ، بوضوح . كان يملك علما هو نظرية الحركة المائلة التي استنبطها من تاريخ حروب « فريديريك الاكبر » ، أما ما سوى ذلك من تاريخ الحروب الحديثة فكان يبدو له منافيا للعقل ؛ كانت تلك الحروب ، في نظره ، معارك تسودها الفوضى وترتكب فيها الاخطاء من كل جانب حتى انها لم تكن تستحق أن تسمى حروبا ؛ انها لم تكن تتفق والنظرية ، ولا يمكن أن تكون موضوعا للعلم .

كان بفويل ، سنة ١٨٠٦ ، أحد واضعي خطة الحملة التي انتهت الى « ايينا » والى « اويرستاد »[١] ؛ لكنه لم يكن يرى في نتيجة الحرب أدنى دليل على خطأ نظريته . بل ان مخالفة هذه النظرية كانت، في نظره ، السبب الوحيد للهزيمة ؛ وكان يقول ، وهو يتهكم ذلك التهكم الفرح الخاص به ، : « لقد كنت أقول ان كل شيء سينتهي الى الدمار » . كان بفويل واحدا من أولئك المنظرين المفتتنين بنظريتهم افتتانا ينسون معه الهدف منها ، أي تطبيقها العملي ؛ وكان يكره ،

(١) ايينا واويرستاد معركتان انتصر فيهما نابليون على البروسيين في سنة ١٨٠٧ .



@ketab_n @4_readers

حبا بالنظرية ، كل تطبيق عملي ، ويهزأ به • بل انه كان يغتبط بالفشل، لان الفشل الذي مرده الى خرق النظرية في التطبيق العملي كان يثبت له صحة نظريته فقط •

تبادل مع الامير آندره و « تشيرنيشوف » بضع كلمات عن الحرب بلهجة الرجل الذي يعرف سلفا أن الامور ستسوء والذي لا يجد بأسا في ذلك • ان خصلات الشعر الواقفة على قذاله ، والصدغين اللذين سرح شعرهما على عجل ، كل ذلك كان يدل أبلغ دلالة على ما تقـدم •

ودخل الغرفة الاخرى التي سرعان ما وافت منها نبرات زاجرة بصوت « بفويل » الخفيض •

* * *



@ketab_n @4_readers

## الفصل الحادي عشر

لم يكد الامير آندره برفع بصره عن « بفويل» حتى دخل الكونت « بينيغسن » مسرعا ، وبعد أن رد باشارة من رأسه على تحيـة بولكونسكي مضى الى مكتبه رأسا وهو يلقي بتعليماته على مساعده العسكري . كان الامبراطور يسير في اثره ؛ وقد سارع « بينيغسن » فسـبقه ليتخـذ بعض الترتيبـات وليتمكن من اسـتقباله . خرج « تشيرنيشوف » والامير آندره الى درج المدخل . كان الامبراطور يترجل عن حصانه بادي التعب . وكان المركيز « بولوكشي » يقول له شيئا ما . كان الامبراطور يصغي ، ورأسه مائل الى اليسار والاستياء على وجهه ، الى بولوكشي الذي كان يتكلم بحرارة بالغة . وخطـا الامبراطور خطوات الى الامام ، وكأنه يرغب في أن يقطع الحديث ، لكن الايطالي ، الذي تضرج وجهه ، وبلغ به الهياج أقصاه ، ونسي آداب السلوك ، تبعه واستمر في كلامه :

- اما ذاك الذي اشار بهذا المعسكر ، معسكر دريسـا . . .

قال هذا في حين كان الامبراطور يصعد الدرج ويتفحص ، بعـد أن لمح الامير آندره ، هذا الوجه الجديد .

وتابع بولوكشي كلامه بعزم الرجل المستعد لكل شيء والعاجز عن كبح جماح نفسه :



@ketab_n @4_readers

**ـ اما ذاك الذي اشار بمعسكر دريسا ، يا مولاي فلا اجد له سوى احد خيارين الدار الصفراء(١) او المشنقة .**

فقاطعه الامبراطور وبدا عليه أنه لم يسمع كلامه ، حين تعرف على « بولكونسكي » وقال له برفق :

يسرني أن أراك . اذهب الى غرفة الاجتماع وانتظرني هناك .

ودخل الامبراطور الى المكتب . ثم تبعه الامير «بطرس ميخائيلوفتش فولكونسكي » والبارون « ستين » وأغلق الباب خلفهما . أما الامير آندره فاستغل اذن الامبراطور وتبع « بولوكشي » الذي عرفه في تركيا ، الى القاعة التي يعقد فيها اجتماع المجلس .

كان الامير « بطرس ميخائيلوفتش فولكونسكي » يقوم بوظيفة رئيس أركان للامبراطور . فخرج من المكتب ومعه خرائط نشرهـا على طاولة القاعة ، وعرض على المجتمعين المسائل التي كان يرغب أن يعرف رأيهم فيها . وكان قد وصل نبأ في الليل ( ثم كـذّب النبأ فيما بعد ) أن الفرنسيين يلتفون على معسكر « دريسا » .

كان الجنرال « آرمفيلد » أول المتكلمين فاقترح ، تجنبا للمصاعب الراهنة ، أن يحتل الجيش موضعا جديدا كل الجدة ، وهو اقتراح لم يكن ينتظره أحد ولا يمكن تبريره ( الا برغبته في أن يظهر أنه ، هو أيضا ، قادر على ابداء الرأي ) موضعا بعيدا عن طرق بطرسبرج وموسكو يتجمع فيه الجيش وينتظر العدو . وكان واضحا أن « آرمفيلد » قـد تخيل هذه الخطة منذ زمن طويل ، وأنه كان يعرضها الآن ، لا ليجيب عن الاسئلة المطروحة ، وهي أسئلة لم يجب عنها على كل حال ، بل انه

---

**(١) الدار الصفراء : مصح المجانين في روسيا . سميت كذلك لانها مطلية باللون الاصفر .**



@ketab_n @4_readers

كان ينتهز الفرصة للتعريف بها . كان اقتراحه واحدا من الاقتراحات التي لا تحصى ، جديرا بأن يكون صالحا كغيره اذا كنا نجهل الطابع الذي ستتخذه الحرب . وقد هاجمه بعضهم ودافع عنه آخرون . وانتقد الكولونيل الشاب « تول » بحدة ما بعدها حدة ، مشروع الجنرال السويدي ، وأخرج من جيبه ، أثناء المناقشة ، دفترا مملوءا بالملاحظات المدونة واستأذنهم في قراءته . فاقترح ، في بيان مسهب ، خطة أخرى للحرب تناقض كليا خطة « آرمفيلد » وخطة « بفويل » على السواء . وفند « بولوكشي » آراء « تول » ، واقترح خطة للتعرض والهجوم يمكنها وحدها انقاذنا من ذلك التردد ومن هذا الفخ ( كذلك كان يرى معسكر « دريسا » ) . واكتفى « بفويل » بأن تأفف مشمئزا وبأن لوى وجهه مظهرا بذلك أنه لن ينزل أبدا الى نقاش مثل هـذه الحماقات . وعندما سأله الامير « فولكونسكي » الذي يدير المناقشات ، رأيه ، اقتصر على القول :

ـ لم تسألني رأيي ؟ لقد اقترح الجنرال « آرمفيلد » موضعا ممتازا بمؤخراته المكشوفة ! أو يمكنكم أن تختاروا الهجوم الذي اقترحه هذا السيد الايطالي ، وهو رائع ، أو الانسحاب ، وهو أيضا رائع ! فلم تسألني ؟ أنتم أعرف بالأمر مني . وعندما قطب « فولكونسكي » حاجبيه ونبهه الى انه يطلب رأيه باسم الامبراطور ، نهض « بفويل » وانتعش فجأة وبدأ كلامه قائلا :

ـ لقد أفسدوا كل شيء وشوشوا كل شيء . كانوا جميعا يزعمون أنهم أعلم مني ، وها أنا ذا الآن أدعى لابداء الرأي . كيف نصلح الاشياء ؟ لا سبيل الى اصلاح شيء . يجب تطبيق المبادىء التي عرضتها بدقة . أين الصعوبة ؟ حماقات .



@ketab_n @4_readers

قال ذلك وهو يضرب على الطاولة بأصابعه النحيلة . ثم اقترب من الطاولة واخذ يتكلم بسرعة ، وهو يحدد باصبعه الجافة المواقع على الخريطة ، مدللا على أنه ليس من احتمال يمكن أن يقلل من قيمة معسكر دريسا ، وأن كل شيء قد وُضع في الحسبان وأن العدو ان باشر حقا في حركة الالتفاف فسوف يباد حتما .

ألقى عليه « بولوكشي » الذي لم يكن يعرف الالمانية أسئلة بالفرنسية فبادر « ولزوجين » الى نجدة سيده الذي لم يكن يحسن الفرنسية وترجم له أقواله وكان يجد مشقة كبيرة في متابعة « بفويل » وهو يؤكد بطلاقة ان كل ماوقع وكل مايمكن ان يقع قد احتاطت له خطته ووضع في الحسبان ، وانه اذا كانت الصعوبات تعترض الان فمرد ذلك الى ان الخطة لم تنفذ تنفيذا دقيقا . وكان لايكف عن ضحكة الساخر ، واخيرا ترك البرهنة باستخفاف ، شأنه شأن الرياضي الذي يكف عن التحقق من صحة مسألة محلولة بوسائل شتى . فناب عنه « ولزوجين » واستمر يشرح أفكاره بالفرنسية ، وهو يقول له بين الحين والحين ، بالالمانية : « اليس كذلك ياصاحب السعادة » ؟

وكان بفويل يصرخ به ساخطا ، كمن يطلق النار على جماعته في غمرة القتال :

ـ بلى ، بلى ، وما الحاجة الى هذا الشرح ؟

كان « بولوكشي » و « ميشو » يهاجمان معا « ولزوجين » بالفرنسية ؛ و « آرمفيلد » يخاطب « بفويل » بالالمانية ، و « تول » يشرح ذلك كله للامير « فولكو نسكي » بالروسية . أما الامير آندره فكان يصغي ويراقب بصمت .



@ketab_n @4_readers

بين الشخصيات ، كان « بفويل » بحدته وتصميمه وثقته المغالية بنفسه ، هو الذي اجتذب اليه « آندره » دون غيره . كان واضحا انه هو الوحيد الذي لايرغب في شيء لنفسه ، بين الحاضرين ، ولايشعر بحقد على احد ، ولايريد الا امرا واحدا : تنفيذ خطته التي وضعت بحسب نظرية كلفه اعدادها سنوات من العمل . كان مضحكا ، وكانت سخريته كريهة ، لكن امانته المتزمتة لافكاره كانت تحمل على الاحترام العفوي له . وفضلا عن ذلك فان اقوال الاخرين جميعا ، فيما عدااقوال « بفويل » ، كانت تتسم بسمة مشتركة لم تظهر في المجلس الحربي سنة ١٨٠٥ ، هي : الذعر الشديد الذي تثيره فيهم عبقرية نابليون ؛ وهو ، وان كان مكتوما ، الا ان كل اعتراض من اعتراضاتهم كان ينم عليه . كانوا يسلمون بان نابليون قادر على كل شيء ، وكانوا يتوقعون انبعاثه من كل الجهات دفعة واحدة ، وكانوا يستخدمون اسمه ليلغي بعضهم ما اقترحه الاخرون ؛ الا بفويل الذي كان ينظر اليه على انه بربري ، شأنه شأن خصوم نظريته . وعلاوة على الاحترام ، كان « بفويل » يوحي الى « آندره » بشيء من الرثاء له . فمن خلال اللهجة التي كان افراد الحاشية يخاطبونه بها ، ومن خلال ما استجاز « بولوكشي » قوله للامبراطور ، ومن خلال ضرب من العنف اليائس لدى « بفويل » ذاته ، على وجه الخصوص ، من خلال ذلك كله كان جليا ان الاخرين يعلمون وشك سقوطه وانه ، هو نفسه ، عالم بذلك . وبالرغم من ثقته بنفسه ومن سخريته الخشنة ، فقد كان يدعو الى الرثاء بشعره المملس على الصدغين وبخصلاته الشعثاء على القذال . لقد امتلأ اسى وهو يرى الفرصة الوحيدة للتحقق من نظريته على مستوى عظيم ولاثبات صحتها



@ketab_n @4_readers

للعالم اجمع، تفلت منه ، وان أخفى ذلك الاسى خلف ستار من السخط الاحتقار .

امتد الجدال طويلا ، وكان كلما طال حميت نار المناقشات وانتهى بها الامر الى الصياح والى تناول الاشخاص ، وتعذر استخلاص النتائج العامة مما يقال . ولم يملك الامير آندره ، وهو يصغي الى هذه المناقشات بلغات شتى ، والى هذه الفرضيات والخطط والردود والصرخات ، الا ان يدهش لما كانوا يقولونه جميعا . ذلك ان الفكرة التي طالما راودته ، خلال نشاطه العسكري ، وهي انه لا يوجد ولايمكن ان يوجد علم حربي وانه لايمكن من ثم ، ان يوجد مايسمى « بالعبقرية العسكرية » ، تلك الفكرة قد تجلت الان لعينيه ساطعة سطوع الحقيقة. اين النظرية والعلم في قضية لاتعرف شروطها وظروفها ولا يمكن تحديدها ولا تحديد القوى الفعالة فيها ؟

لم يستطع احد قط ولايستطيع احد ان يعرف ما الوضع الذي سيكون عليه ، غدا ، جيشنا وجيش العدو ، كما لايستطيع احد ان يقدر قيمة هذه المفرزة او تلك . وكما نجد ، احيانا ، بدلا من الجبان الذي يصرخ في الخطوط الاولى :« لقد حوصرنا » ثم يفر هاربا ، الرجل المرح الشجاع الذي يصرخ صرخة الحرب « هوراه » ، فكذلك رب مفرزة من خمسة الاف رجل تساوي ثلاثين الف رجل كما جرى في « شوينغرابن » ، وقد يهرب خمسون الف رجل احيانا امام ثمانية الاف رجل كما جرى في « اوسترليتس » . أي علم يمكن أن يكون في قضية، شأنها شأن كل مشكلة عملية ، لاسبيل الى التنبؤ بشيء منها ، وكل شيء فيها منوط بما لايحصى من الشروط التي تتجلى اهميتها في لحظة لايعرف احد متى تجيء ؟



@ketab_n @4_readers

ان « آرمفيلد » يزعم ان جيشنا قد شطر ، ويؤكد « بولوكشي » اننا وضعنا الجيش الفرنسي بين نارين ، ويذهب « ميشو » الى أن عيب معسكر « دريسا » في أن الساقية وراءه ، ويرى « بفويل » ان ها هنا مصدر قوته . ويقترح « تول » خطة ، فيقترح « آرمفيلد » خطة اخرى؛ كل الخطط صالحة وكلها سيئة ، ولايمكن ان تظهر محاسنها الا في اللحظة التي يتم فيها الحدث . لم يتحدث الناس جميعا عن العبقرية العسكرية ؟ وهل يكون عبقريا من يحسن اختيار الوقت المناسب للامر بتوزيع البسكويت الى اليمين والى الشمال؟ألم يُدع العسكريون عباقرة الا لانهم ازدانوا بالبريق وبالسلطة ، ولان جمهور الانذال يتملق الاقوياء فينسب اليهم خصائص العبقرية خطأ . الامر على العكس من ذلك تماما ، فقد كان خير الجنرالات الذين عرفتهم اغبياء او شاردي الذهن .

وفي مقدمتهم « باغرايتون » الذي شهد له نابليون . ونابليون ذاته ! اني لاذكر وجهه ، وجه المدعي ، المجدود ، في ساحة القتال في « اوسترلتس » . القائد الممتاز لايحتاج الى العبقرية ولا الى صفات خاصة ، بل ينبغي له ، على نقيض ذلك ، ان يتجرد من ارفع صفات الانسان وافضلها ، اي الحب والشعر والحنان والشك الفلسفي . ينبغي ان يكون محدودا ، قانعا قناعة وطيدة باهمية مايفعل ( والا اصابه الجزع ) وحينذاك فقط يغدو قائدا باسلا .

ومعاذ الله ان يكون انسانيا ، وان يحب احدا ، وان يرأف بأحد ، وان يفكر بماهو عادل وبماهو جائر ! ومن السهل ان نفهم لم صيغت نظرية العبقرية من اجلهم في كل زمان ، ذلك لانهم يملكون القوة .



@ketab_n @4_readers

وفضل الانتصار لايعود اليهم ، لكنه يعود الى الجندي الذي يصرخ في الصفوف : « لقد هلكنا » أو « هوراه » ! في الصف وحده انما يستطيع المرء ان يخدم وهو على يقين بأنه نافع » .

كذلك كان يفكر الامير آندره وهو يصغي الى هذه المناقشات ، ولم يثب الى نفسه الا عندما ناداه « بولوكشي » والناس ينصرفون .

في اليوم التالي ، واثناء العرض ، سأل الامبراطور الامير آندره : اين يحب ان يعين ، وسقط الامير آندره في نظر البلاط نهائيـا عندما استأذن الامبراطور ان يخدم في الجيش ولم يطلب ان يُلحق بجلالته .

*

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل الثاني عشر

تلقى « روستوف » ، قبل بدء العمليات الحربية ، رسالة من ذويه ينبئونه فيها بايجاز أن « ناتاشا » مريضة وأنها فسخت خطبتها مع الامير آندره ( وعللوا له هذا الفسخ برفض ناتاشا ) ، ويطلبون اليه مرة أخرى أن يقدم استقالته وأن يعود الى المنزل . وعندما قرأ « نيقولا » هذه الرسالة لم يخطر بباله أن يطلب اجازته أو أن يقدم استقالته ، وانما كتب لاهله أنه حزين أشد الحزن لمرض « ناتاشا » ولفسخ خطبتها مع خطيبها ، وأنه سيبذل وسعه لينزل عند رغبتهم . وكتب لصونيا على حدة :

« يا صديقة روحي المعبودة . ان الشرف وحده هو الذي يمنعني من العودة الى البيت . ففي هذه اللحظة ، في عشية البدء بالمعركة ، أجد من العار علي ، لا أمام زملائي فحسب بل أمام نفسي أيضا ، أن أوثر سعادتي على واجبي وعلى حب الوطن . لكن هذا هو آخر فراق لنا . ثقي أنه اذا ما انتهت الحرب وبقيت على قيد الحياة ودام حبك لي فسوف أترك كل شيء على الفور ، وسوف أطير اليك لاضمك الى صدري المضطرم بالشوق ضما لافراق بعده . »

والواقع ان الدخول في المعركة هو الذي حال بين روستوف وبين العودة والزواج من صونيا ، كما وعد بذلك من قبل . ان خريف « اوترادنوي » وما فيه من نزهات الصيد ، والشتاء وما فيه من اعياد



@ketab_n @4_readers

الميلاد ، وحب صونيا ،كل ذلك فتح له آفاقا من الافراح الهادئة التي تقوم عليها حياة الاشراف في الريف ، وهي أفراح كان يجهلها من قبل وغدت تجتذبه الآن اليها . كان يقول في نفسه : « زوجة رائعة ، وأطفال ، وفصيلة حسنة من كلاب الصيد ، وعشرة أزواج أو اثنا عشر زوجا من الكلاب السلوقية الجريئة ، وادارة الاراضي ، والجيران ، وبعض الوظائف التي يختارني اليها أقراني ... ذلك ما يناسبني دون غيره . » لكن المعارك بدأت الآن وينبغي له أن يبقى ، في كتيبته . وبما أنه لابد من ذلك ، فقد كان « نيقولا روستوف » ، بطبعه ، راضيا كل الرضى عن الحياة التي يحياها في الجيش والتي استطاع أن يجعلها بهيجة .

عندما عاد « نيقولا » من اجازته استقبله رفاقه بفرح ، وكان قد أرسل بمهمة تزويد الفوج بالخيل ، وعاد من روسيا الصغرى بجياد رائعة أدخلت البهجة الى نفسه ودفعت رؤساءه الى تهنئته . وأثناء غيابه رقي الى رتبة نقيب ، وعندما وضعت الكتيبة على أهبة الحرب وعززت ملاكاتها ألحق مرة أخرى بكوكبته القديمة .

بدأت الحرب ونقل الفوج الى بولونيا[1] وضوعفت المرتبات ، ووصل اليه ضباط جدد ورجال جدد وجياد جدد ، وساده ذلك التحفز الفرح الذي يرافق بداية الحرب ، وكان « روستوف » مدركا لميزات وضعه في الفوج ، فأخلد الى مباهج الخدمة وعكف على واجباتها بكل كيانه ، وهو يعلم ، مع ذلك ، أنه سيترك تلك الخدمة ان عاجلا وان آجلا .

(١) اي الى لتوانيا التي كانت جزءا من بولونيا قبل ١٧٩٥ والتي كان معظم ملاكها من البولونيين .



@ketab_n @4_readers

كانت القطعات قد أخلت « فيلنا » لاسباب شتى معقدة ، سياسية وتكتيكية . وكانت كل خطوة الى الوراء ترافق ، في هيئة الاركان العامة ، بجملة معقدة من المصالح والترتيبات والاهواء . أما بالنسبة الى فرسان « بافلوغراد » فكان هذا التراجع في قلب الصيف ، مع وجود ما يكفي من المؤن ، عبارة عن رحلة ممتعة . لم يكن الخوف والقلق والدسيسة تجد سبيلا لها الا الى هيئة الاركان العامة ، أما الجند في الجيش فلم يكونوا يسألون الى أين يمضون ولماذا . واذا كانوا يأسفون للانسحاب فذلك لهجرانهم مسكنا ألفوه ، أو لفراقهم احدى الحسناوات البولونيات . واذا ما قدر لاحدهم أن يحدث نفسه بأن الامور أخذت تسوء فقد كان يسعى جهده ، كما يليق بكل عسكري صالح ، انيصطنع المرح وأن ينصرف عن التفكير في الوضع العام الى الاهتمام بعمله المباشر. كانوا يعسكرون ، أول الامر ، في ضواحي « فيلنا » فرحين ، يتعرفون الى النبلاء البولونيين الريفيين ، وينتظرون الاستعراضات التي يحضرها الامبراطور أو القادة الكبار الآخرون . ثم جاءهم الامر بالتراجع الى « سوينسياني »[1] وبإتلاف المؤن التي لا يمكن نقلها . وقد حمل الفرسان معهم ذكرى « سوينسياني » أو « معسكر السكر » كما سماها الجيش بأسره ، لان الاهلين شكوا كثيرا من الجند الذين استغلوا الامر بالتموين المحلي فصادروا الخيل والعربات والطنافس ، علاوة على المؤن ، من قصور الاشراف البولونيين ، وكان « روستوف » يذكر « سونيساني » لانه أوقف الرقيب الاول ، في يوم وصوله الى هذه الناحية ، ولانه لم يستطع السيطرة على فوجه الذي فقد وعيه من السكر

(١) - مدينة صغيرة في مقاطعة « فيلنا » على طريق دفيلنا ـ بطرسبرك .



@ketab_n @4_readers

بعد أن نهب ، على غير علم من قائده ، خمسة براميل من الجعة المعتقة . ومن « سوينساني » تراجع الجند شيئا فشيئا حتى وصلوا الى «دريسا» واقتربوا ، هذه المرة من الحدود الروسية .

في الثالث عشر من تموز اشترك فرسان « بافلوغراد » لاول مرة في معركة لها شأنها .

وفي ليلة الثاني عشر من حزيران ، عشية القتال ، هبت عاصفة شديدة مصحوبة بالمطر والبرد ، من تلك العواصف التي تميز بها صيف ١٨١٢ .

كانت كوكبتان من فوج « بافلوغراد » تخيمان في حقل شيلم اضطجعت سنابله تماما من وطء الماشية والخيل . كان المطر يهطل مدرارا ، وكان روستوف يأوي ، ومعه ضابط شاب في رعايته ، يدعى « ايلين » ، الى خص بني على عجل . ودلف الى هذا الخص ضابط من فوجه ، طويل الشاربين ، داهمه المطر وهو عائد من الاركان ، وقال له :

ـ وصلت للتو من الاركان ، يأيها الكونت . هل سمعت بمأثرة « رايفسكي » ؟

وروى له تفاصيل معركة « سالتانوفكا »[1] .

---

(1) قرية على الضفة اليمنى للدنيبر ، جنوبي موهيليف ، وفيها تصدى الفيلق السابع الذي يقوده الجنرال رايفسكي ، في ٢٢ تموز ، للفرنسيين الذين يقودهم دافو ، كي يتيح للجيش الثاني الذي يقوده باغراتيون ان يعبر الدنيبر وان ينسحب الى سمولنسك . وقد هاجم رايفسكي الفرنسيين بالحراب على راس فوجه يحيط به ابناه الكسندر وعمره ستة عشر عاما ، ونيكولا وعمره احد عشر عاما ، وهما ملازمان في المشاة : وكان رايفسكي ( ١٧٧١ ـ ١٨٢٩ ) عسكريا ، مقداما ، تميز في جميع الحروب حتى سنة ١٨١٤ ، وقد رفض لقب كونت الذي منحه اياه الامبراطور. اما ابنته ماريا التي تزوجت من الامير سيرج فولكونسكي ، وهو احد متمردي تشرين ، فقد لحقت بزوجها الى سيبيريا سنة ١٨٢٦ .



@ketab_n @4_readers

كان روستوف يدخن غليونه ، وقد أدخل عنقه في ردائه بعد ان تسرب ماء المطر الى جسمه ، يصغي باذن شاردة ، ملقيا ، بين الحين والحين ، نظرة على الشاب « ايلين » الذي كان يلز نفسه به . كان هذا الضابط فتى في السادسة عشرة وصل حديثا الى الفوج ، وهو الآن بالنسبة الى « نيقولا » مثلما كان « نيقولا » بالنسبة الى « دينيسوف » قبل سبع سنوات . كان « ايلين » يسعى الى محاكاته في كل شيء ، وكان يحبه كما تحب المرأة .

كان الضابط ذو الشاربين الطويلين ، « زدنسكي »[1] يروي متشدقا أن سد « سالتانوفكا » غدا « تيرموبيل » روسيا، وان الجنرال « رايفسكي » قام هناك بمأثرة مجيدة باهرة جديرة بالعصور القديمة. لقد تقدم على السد مع ولديه ، تحت وابل من نار العدو ، وباشر الهجوم وهما الى جنبه . كان روستوف يصغي الى هذه الحكاية ولا يقول شيئا يؤيد به حماسة « زدنسكي » ، بل انه كان يبدو خجلا مما يروى له ، وان لم يكن بنيته الاعتراض عليه . فمنذ معارك « اوسترليتس سنة ١٨٠٧ ، كان يعلم بتجربته الشخصية ان الناس يكذبون دائما وهم يروون الاعمال الحربية ، كما كذب هو نفسه ؛ وفضلا عن ذلك ، فقد كان له من التجربة ما يكفيه ليعلم أن كل شيء في الحرب يجري على نحو يختلف عما نتخيله وعما نرويه . ولذلك لم يكن يستسيغ قصة « زدنسكي » ، ولا « زدنسكي » ذاته الذي كان ينحني كعادته ، بشاربيه الطويلين ، حتى يلامس وجه محدثه ويضايقه في خصه الصغير. كان « روستوف » ينظر اليه بصمت ويقول في نفسه : « أولا لابد أن

(١) زدنسكي : اسم ابتكره المؤلف ، له وقع الاسماء البولونية .



@ketab_n @4_readers

يكون على السد المهاجم بلبلة وزحمة عظيمتان، وحتى لو تقدم رايفسكي مع ولديه ، فان ذلك لا يمكن أن يترك أثرا الا في الاشخاص الذين يحيطون به مباشرة ، أما الآخرون فلم يكن بوسعهم أن يروا كيف يتقدم ومع من يتقدم • بل ان الذين رأوه لم يتحمسوا كثيرا لما رأوا ، اذ ما أهمية مشاعر « رايفسكي » الابوية الرقيقة عندهم ، في حين تتعرض حياتهم للخطر؟ ثم ان مصير الوطن لا يتوقف على سد «سالتانوفكا» البتة ، سواء تم الاستيلاء عليه أم لا ، كما كانت الحال في « تيرموبيل» على حد زعمهم • فما جدوى تلك التضحية اذن ؟ ولم يقحم ولديه في هذه الحرب ؟ كنت سآبى أن أدفع اليها بأخي « بيتيا » ، بل كنت سأسعى الى وضع هذا الفتى « ايلين » ، وهو لا يمت الي بصلة لكنه فتى شهم، بمأمن منها •

كذلك كان يفكر « روستوف » وهو يصغي الى « زدنسكي » • لكنه لم يعرب عن شيء من أفكاره : كانت تجربته الطويلة تمنعه من ذلك • لقد كان يعلم أن هذه القصة تسهم في تمجيد جيوشنا وأن من الواجب عليه التظاهر بتصديقها • وهو ما فعله •

قال « إيلين » الذي رأى أن كلام « زدنسكي » لا يبسط « روستوف » : ــ لا يمكن للمرء أن يطيق ذلك • كل شيء تبلل حتى جوربي وقميصي • وأنا أجلس على بركة ماء • سأذهب للبحث عن ملجأ آخر • أعتقد أن المطر قد خفّ • وخرج « ايلين » ثم خرج « زدنسكي » بدوره •

وبعد خمس دقائق رجع « ايلين » وهو يركض ويتخبط في الوحل :



@ketab_n @4_readers

ـ هوراه ! « روستوف » ، هيا ، أسرع . وجدتها ! هناك نزل على مائتي خطوة منا ، ورفاقنا فيه . نستطيع ، على الاقل ، أن نجفف فيه ثيابنا . و « ماريا هنريخوفنا » فيه أيضا .

كانت « ماريا هنريخوفنا » زوجة طبيب الفوج ؛ وكانت فتاة ألمانية جميلة تزوجها في بولونيا . وكان يستصحبها معه اينما ذهب الفوج ، اما لانه لم يستطع أن يفعل غير ذلك ، واما لانه لم يشأ أن يفارقها ، في الفترة الاولى التي تلت زواجه . وقد غدت غيرته غرضا لتنادر ضباط الفرسان .

رمى « روستوف » معطفه على كتفيه ونادى « لافروشكا » لكي يتبعه مع بعض متاعه ، وذهب بصحبة « ايلين » منزلقا في الوحل ها هنا ، مخبصا في مستنقعات الماء هناك ، تحت المطر الذي أخذ يسكن ، وفي ظلمة المساء التي كانت تخددها أحيانا ومضات البروق البعيدة . قالا :

ـ « روستوف » ، أين أنت ؟

ـ هنا . أرأيت هذا البرق !

* * *



@ketab_n @4_readers

## الفصل الثالث عشر

كان في النزل خمسة أو ستة ضباط ، وكانت تقف أمامه عربة الطبيب . وكانت « ماريا هنريخوفنا » ، وهي ألمانية قصيرة شقراء ممتلئة ، تتصدر ، في قميص النوم وقبعته ، مقعدا عريضا ، وزوجها نائم خلفها . دخل « روستوف » و « ايلين » فاستقبلتهما ضحكات وهتافات فرحة . قال روستوف ضاحكا :

ـ عجبا ! يبدو عليكم أنكم تجدون ما تلهون به .

فأجابه الآخرون :

ـ ولم لم تأت ، أنت أيضا ، قبل الآن ؟

ـ ما أسوأ حالكما ! انكما ترشحان ماء ! فلا تغمرا صالتنا به .

ـ ولا توسخا فستان « ماريا هنريخوفنا » !

وأسرع « روستوف » و « ايلين » للبحث عن ركن صغير يبدلان فيه ثيابهما دون أن يخدشا حياء « ماريا هنريخوفنا » . وأرادا أن يدخلا الى خلوة صغيرة خلف الحاجز . لكن ضباطا ثلاثة كانوا يملؤونها بأسرها ، ويلعبون بالورق على ضوء شمعة واحدة موضوعة على صندوق فارغ ، ويرفضون أن يتنازلوا عنها بأي ثمن . عند ذاك أعارتهما « ماريا هنريخوفنا » جبة لها تقوم مقام الستار ، وخلف هذا



@ketab_n @4_readers

الستار استطاع « روستوف » و « ايلين » ، بمساعدة « لافروشكا » الذي حمل ثيابهما ، أن يستبدلا بثيابهما المبللة ثيابا جافة •

أشعلت النار في المدفأة المخربة ؛ وجيء بلوح من الخشب وركز على سرجين ، وفرش بلبادة ، وأحضر السماور ونصف زجاجة من الروم ، وطلب الى « ماريا هنريخوفنا » أن تقوم بدور المضيفة ، والتف الجميع حولها • فعرض عليها أحدهم منديلا نظيفا تمسح به يديها الصغيرتين الفاتنتين ، وطرح آخر رداءه تحت قدميها ليقيهما شر الرطوبة ، وسد ثالث النافذة بمعطفه ليجنب رفاقه تيارات الهواء ؛ وعمد رابع الى طرد الذباب عن وجه زوجها لكيلا يستقيظ •

قالت له « ماريا هنريخوفنا » وهي تبتسم ابتسامة تنم على الحياء والسعادة :

ـ دعه مستغرقا في نومه بعد ليلته البيضاء •

فأجابها الضابط :

ـ هذا غير ممكن ، يا « ماريا هنريخوفنا » ، فلا بد من العناية بالدكتور • ومن يدري ، فلربما ترأف بي غدا وهو يقطع يدي أو رجلي •

لم يكن هناك سوى ثلاثة أقداح ؛ وكان الماء وسخا بحيث يتعذر على المرء أن يتبين ان كان الشاي ثقيلا أم لا ، ولم يكن السماور يتسع الا لستة أقداح • لكنهم وجدوا لذة أكبر وهم يتناولون أقداحهم ، كل بدوره وبحسب القدم ، من يدي « ماريا هنريخوفنا » الصغيرتين الممتلئتين بأظفارهما القصيرة التي لم تكن نظيفة تماما • كان جميع



@ketab_n @4_readers

الضباط يبدون مغرمين بها حقا ، هـذا المساء . وحتى الذين كانوا يلعبون بالورق خلف الحاجز جذبهم هذا الاقبال العام عليها ، فبادروا الى ترك اللعب وانضموا الى الآخرين حول السماور . وحـين رأت « ماريا هنريخوفنا » نفسها محاطة بهذه الشبيبة اللامعة الكيسة أشرقت بالسعادة على الرغم من الجهد الذي بذلته لاخفاء ذلك ، وبالرغم من الذعر الجلي الذي كانت تبعثه كل حركة من حركات زوجها النائم خلفها.

لم يكن هناك سوى ملعقة واحـدة ؛ كان السكر كثيرا لكن تذويبه كان متعسرا ، لذلك تقرر أن تحرك السكر في قدح كل منهم بالدور . وعندما تناول روستوف قدحه ، صب فوقه شيئا من الروم ورجا « ماريا هنريخوفنا » أن تحركه له .

قالت له « ماريا هنريخوفنا » ، والابتسامة لا تفارق وجههـا ، وكأن كل مـا يمكن أن تقوله أو يقولـه الآخرون باعث على أعظم التسلية ، وكأن له فوق ذلك معنى خفيا :

ـ لكنك تتناوله من غير سكر ؟

ـ لا يهمني السكر ، وكل ما أريده أن تحركي لي الشاي بيدك الحـلوة .

وافقت « ماريا هنريخوفنا » وراحت تبحث عن الملعقة التي أخذها أحد الضباط .

قال روستوف :

ـ حركيه باصبعك ، يا « ماريا هنريخوفنا » ، فذلك أحلى .

قالت وقد تضرجت من السرور :



@ketab_n @4_readers

ـ انه ساخن !

وأمسك « ايلين » بدلو الماء وصب فيه قطرات من الروم ودنا من « ماريا هنريخوفنا » ورجاها أن تحركه باصبعها ، قائلا لها :

ـ هذه هي كأسي . غطي فيها اصبعك وسأشربها كلها .

وعندما فرغ السماور ، تناول « روستوف » ورق اللعب وعرض عليهم أن يلعبوا لعبة « الملوك » مع « ماريا هنريخوفنا » . واقترعوا ليعرفوا قرينها في اللعبة . واقترح « روستوف » ، كقاعدة للعب ، أن يكون من حق من يصبح ملكا تقبيل يد « ماريا هنريخوفنا » ، وأن على « التابع » اعداد سماور جديد للطبيب عندما يستقيظ .

وسأل « ايلين » :

ـ واذا كانت « ماريا هنريخوفنا » هي « الملك » ؟

ـ انها ملكة من قبل اللعب ! وأوامرها هي القانون .

ما كاد اللعب يبدأ حتى برز رأس الطبيب الاشعث من خلف « ماريا هنريخوفنا » . لقد كان مستيقظا منذ زمن طويل ، يصيخ السمع ، وكان واضحا أنه لا يجد ما يبعث على البهجة والمرح في كل ما يقال وما يفعل . كان وجهه حزينا مربدا . لم يحيّ الضباط وحك رأسه وسألهم الخروج لانهم كانوا يسدون عليه الطريق . وما أن انصرف حتى أغرب الضباط في ضحك صاخب ، على حين تضرجت « ماريا هنريخوفنا » الى حدود البكاء ، وهو ما جعلها أعظم فتنة في نظر الضباط . وعندما عاد الطبيب قال لزوجته ( التي فقدت ابتسامتها المشرقة وتطلعت الى زوجها بقلق وهي تنتظر حكمه ) : ان المطر انقطع وانه لا بد من قضاء الليل في العربة والا نهب كل ما فيها .



@ketab_n @4_readers

قال « روستوف » :

ـ لا حاجـة بك الى ذلك ، يا دكتور ، وسأرسل جنديا ••• أو اثنين !

وقال « ايلين » •

ـ وسأقوم أنا نفسي بالحراسة !

قال الطبيب :

ـ لا ، ياسادة ، أنتم نمتم ، أما أنا فلم تغمض لي عين منذ ليلتين•

ثم جلس ، وهو متجهم الوجه ، قرب زوجته بانتظار نهاية اللعبة •

أحس الضباط ، لدى رؤية وجهه المتجهم ، وهو ينظر الى امرأته شزرا ، بمزيد من البهجة ، ولم يتمالك كثير منهم عن الضحك ، وهو ضحك كانوا يبادرون الى البحث عن ذرائع مقبولة له • وعندما ذهب الطبيب مصطحبا زوجته واستقر في العربة ، اضطجع الضباط في النزل متدثرين بمعاطفهم المبللة ؛ لكنهم لبثوا زمنا طويلا من دون أن يناموا ، مستذكرين ، تارة ، قلق الطبيب ومرح زوجته ، وخارجين ، تارة أخرى، الى عتبة الدرج ليرووا بعضهم لبعض ما كان يجري في العربة • حاول « روستوف » مرارا أن ينام ، مغطيا رأسه بمعطفه ، لكنه كان ينصرف في كل مرة عن هذا النوم بما يلقى من ملاحظات جديدة ، فاذا بالاحاديث تستأنف واذا بالضحكات الفرحة الطفولية تنفجر مرة أخرى بدون داع •



@ketab_n @4_readers

# الفصل الرابع عشر

في نحو الساعة الثالثة صباحا ، لم يكن أحد قد نام بعد ، عندما جاء الرقيب يحمل أمرا بالتوجه الى « اوستروفنا » .

حزم الضباط امتعتهم على عجل ، وهم يتحدثون ويضحكون ؛ وأشعل السماور مرة أخرى بعد أن مليء بالماء الوسخ . لكن « روستوف » ذهب ليلتحق بكوكبته دون أن ينتظر الشاي . كان الصبح قد انبلج والمطر قد انقطع ؛ وأخذت الغيوم تنكشف . وكان الجو رطبا باردا ولا سيما بهذه الثياب التي لم تجف بعد . وعندما خرج « روستوف » و « ايلين » من النزل ، ألقيا نظرة ، في ضوء الفجر ، على عربة الطبيب بغطائها الجلدي الملتمع من المطر ؛ فرأيا ساقي الطبيب تبرزان من تحت الوزرة ، ولمحا ، في داخل العربة ، على الوسادة ، قبعة المرأة ، وسمعا تنفس انسان مستغرق في النوم .

قال « روستوف » لايلين الذي كان يصحبه :

ـ انها لطيفة حقا !

فأجاب « ايلين » بكل ما في سنواته الست عشرة من جد :

ـ يا لها من امرأة فاتنة !

وبعد نصف ساعة ، كانت الكوكبة مصطفة على الطريق . وعند



@ketab_n @4_readers

الايعــاز : « الى السرج » ، رسم الجنود علامــة الصليب وامتطوا خيولهم . اتخذ روستوف مكانه على رأس الكوكبة وأوعز : « الى الامام سر ! » فتحرك الفرسان في صفوف رباعية ، وسط اصطفاق الحوافر في الوحل وقعقعة السيوف وهمس الاحاديث ، على الطريق العريضة المحفوفة بأشجار البتولة ، في إثر المشاة وسرية من سريات المدفعيــة .

كانت الريح تكسح بكل سرعتهــا غيوما متمزقة ذات زرقــة بنفسجية ، وغيوما حمراء في الشرق ؛ وأخذ ضوء النهار يمد جناحيه فبانت بوضوح تلك الاعشاب القصيرة المتجعدة التي تنبت في الطرقات المعترضة ، وقد بللها المطر ؛ وتمايلت في الريح أغصان البتولة الحانية التي تبللت هي أيضا وساقطت قطرات صافية ، مائلة ، وتميزت شيئا فشيئا وجوه الجنود . كان روستوف ، ومعه ايلين الذي لم يكن يفارقه ، يسير في الجانب المنخفض من الطريق ، بين صفين من أشجار البتولة .

كان روستوف يبيح لنفسه أن يركب ، في الريف ، حصانا قوزاقيا، لا حصانا نظاميا . ولما كان هاويا للخيل وخبيرا بها ، فقد حصل على حصان أشقر من « الدون » ، يجمع بين الجموح والقوة ولا يسمح لأي حصان آخر أن يسبقه . وكان ركوبه يُشعر روستوف بمتعــة حقيقية . كان يفكر بحصانه ، وبالصبح المنبلج ، وبزوجة الطبيب ؛ أما بالخطر الداهم فلم يفكر قط .

كان روستوف ، قديما ، يحس بالخوف قبل المعركة ؛ أما الآن فهو لا يشعر بأدنى تخوف ؛ لا لأنه ألف نار الحرب ( لا يمكن للمرء أن يألف الخطر ) ، بل لانه تعلم كيف يسيطر على نفسه . لقد تعود أن



@ketab_n @4_readers

يفكر ، وهو ذاهب الى القتال ، بكل شيء الا بما كان ينبغي أن يعنى به دون غيره : بالخطر الذي ينتظره • لم يوفق الى ذلك ، في البداية ، بالرغم من الجهود التي بذلها ، وبالرغم من تقريعه لنفسه ورميها بالجبن ؛ الا أن ذلك قد حدث على نحو طبيعي ، مع مر السنين • كان يتقدم الآن الى جانب « ايلين » منتزعا من حين الى آخر ورقة من أوراق الشجر وقعت تحت يده ، ملامسا بقدمه خاصرة جواده ، مادا غليونه المنطفيء الى الفارس الذي يتبعه ، دون أن يلتفت اليه ، وهو هاديء النفس غير مكترث لشيء ، وكأنما كان في نزهة • كان يؤلمه أن يرى القلق على وجه « ايلين » الذي كان يكثر من الكلام ؛ فلقد كان يعرف بالتجربة هذا الانتظار الممض للخوف وللموت ، وهو انتظار غدا الفتى فريسة له ، وكان يعلم أن لا علاج لذلك سوى الزمن •

ما كادت الشمس تظهر من وراء الغيوم حتى هدأت الريح ، وكأنها لم تجرؤ أن تعكر صفو صبيحة الصيف البديعة هذه التي تلت العاصفة• كانت قطرات من الماء ما تزال تسقط ، ولكن عموديا ، ثم سكن كل شيء • كانت الشمس قد طلعت تماما ؛ بدت في الأفق واختفت خلف سحابة طويلة وضيقة حجبتها • وعادت الى الظهور بعد لحظات ، وهي أشد سطوعا ، فوق السحابة التي مزقت حواشيها • واستضاء كل شيء وراح يلتمع • ثم دوى المدفع بعيدا وكأنما يرد على هذا الفيض من الضياء •

لم يتسنّ لروستوف أن يقدر المسافة التي تفصله عن هذه الطلقات



@ketab_n @4_readers

النارية حتى وصل المساعد العسكري للكونت «اوسترمان تولستوي»[1] وهو يجري على جواده من جهة « فيتبيسك » ، حاملا الامر بالسير خببا على الطريق •

سبقت الكوكبة قطعة المشاة وسرية المدفعية اللتين كانتا تغذان السير أيضا ، وهبطت سفحا ، وبعد أن اجتازت قرية هجرها أهلها صعدت سفحا آخر ؛ وتغطت الجياد بالزبد وتوهجت بالحمرة وجوه الرجـال •

أمر رئيس المفرزة وهو في المقدمة :

ـ قف ، تراصف ! نصف دائرة الى اليمين ، سيرا عاديا الى لامام ، سر !

عند ذاك سار الفرسان بمحاذاة مقدمة القطعات نحو الجناح الايسر وتمركزوا خلف فرساننا الرماحين المتمركزين في الخط الاول • والى اليمين كان المشاة متجمعين في رتل متراص :

كان هؤلاء هم الاحتيـاط ؛ ومن فوقهم ، على مرتفع ، برزت مدافعنا ، على الافق ، في الهواء الشفاف ، وتحت أشعة الصباح الساطعة المائلة • والى الامام ، فيما وراء الوادي ، كانت ترى أرتال العـدو ومدافعه • أما في الوادي فكانت مخافرنا الامامية مشتبكة مع العدو

(١) الكونت اوسترمان تولستوي ، ابن جنرال منحدر من الفرع الثاني لآل تولستوي ، ورث سنة ١٧٩٦ لقب امه واسم عائلتها « اوسترمان » ، اللذي انطفا . وكان جنرالا شجاعا قاد فرقة سنة ١٨١٢ وتميز في معركة « كولم » سنة ١٨١٣ حيث قطعت احدى القذائف يده . اقام سنة ١٨١٦ قرب جينيف ، بعد ان اشمأز من الرجعية في روسيا ، ومات هناك ، وكان قد قام بعدة رحلات الى الشرق مع الشاب المختص بشؤون بيزنطه « فالمير » الذي كان امين سره .



@ketab_n @4_readers

تتبادل واياه طلقات نارية خفيفة •

امتلأ « روستوف » فرحا بهذه الاصوات التي لم يسمعها منذ زمن طويل ، وكأنه أمام أبهج أنغام الموسيقى • « تراب ـتا ـ تا ـ تاب » ! كانت الطلقات تدوي فجأة ، منفردة حينا ، وفي سلسلة متتالية سريعة حينا آخر • كان كل شيء يصمت ، ثم كان يسمع مرة أخرى ما يشبه انفجار المفرقعات التي مشى عليها أحد الناس •

ظل الفرسان في أماكنهم قرابة ساعة • ثم ارتفع قصف المدفعية • ومر الكونت « اوسترمان » مع تبعه خلف الكوكبة ، وتوقف ليكلم قائد الفوج ، ثم ابتعد باتجاه المدافع على المرتفع •

وبعد انصرافه بقليل أُمر الفرسان الرماحة باتخاذ وضعية الهجوم • ورص المشاة صفوفهم ليسمحوا للخيالة بالمرور • وتحرك الفرسان في ارتعاش شهب الرماح ، وهبطوا المنحدر خببا ، للقاء الخيالة الفرنسيين الذين ظهروا عند سفح الجبل ، الى اليسار منه •

وما ان وصل الرماحة الى نهاية المنحدر حتى تلقى الفرسان أمرا بالتوجه الى المرتفع لتغطية بطارية المدفعية • وبينما كانوا يحلون محل الرماحة انطلقت من الخطوط ، من بعيـد ، رصاصات طائشة مرت وهي تصفر •

أثار فرح « روستوف » هذا الصوت الذي لم يسمعه منذ زمن طويل ، أكثر مما أثارته الطلقات النارية الاولى • فانتصب على حصانه وراح يتفحص ساحـة القتال التي انكشفت من المرتفع ، وكان بكل جوارحه مع الرماحة • وحمل الرماحة على الفرسان الفرنسيين وتلاحم الفريقان تحت الدخان ، وبعد خمس دقائق ارتد الرماحة الى الوراء ، لا الى نقطة انطلاقهم ، بل الى اليسار منها • وبين الرماحـة بلونهم البرتقالي على خيولهم الشقراء ، كانت ترى جماعة متراصة من الفرسان الفرنسيين الزرق على خيولهم الشهباء •



@ketab_n @4_readers

# الفصل الخامس عشر

رأى « روستوف » ، بعين الصياد الثاقبة ، قبل غيره هؤلاء الفرسان الفرنسيين الزرق يلاحقون خيالتنا • كان الخيالة يقتربون ثم يقتربون في جماعات مشتتة ، يتعقبهم الفرسان الفرنسيون • وكان من الممكن رؤية هؤلاء الرجال الذين بدوا ، من المرتفع ، جد صغار ، وهم يتصاولون ويتصادمون ويحركون أيديهم وسيوفهم •

كان « روستوف » يراقب ما يجري أمامه وكأنه في رحلة صيد • وأحس بغريزته أنه لو انقض في هـذه اللحظة ، هو وفرسانه ، على الفرسان الفرنسيين اذن لما صمد هؤلاء لهم • لكن كان ينبغي عليه أن يفعل ذلك على الفور ، في هذه اللحظة ذاتها ، والا فات الأوان • وألقى نظرة حواليه • كان النقيب الذي بجنبه لا يرفع بصره عن الخيالة تحتهم• فقال له روستوف :

ـ يا « أندريه سيفاستبانيتش » ، في وسعنا أن ندحرهم •••

فأجابه هذا :

ـ سيكون ذلك رائعا ! قسما •••

همز « روستوف » جواده ، دون أن يستمع الى مزيد من كلامه ، ومضى الى مقدمة الكوكبة ، وما كاد يأمر بالتحرك حتى راحت الكوكبة التي أحست احساسه تندفع بأسرها في اثره • لم يكن « روستوف »



@ketab_n @4_readers

يعلم كيف فعل ذلك ولم فعل ذلك . لقد أقدم على ذلك كله بلا ترو ، وبلا نظر الى العواقب . رأى الفرسان الفرنسيين على مقربة ، يعدون متفرقين ، فعلم أنهم لن يصمدوا ، وأن المسألة مسألة لحظة لن تعود ان هو فوّتها . كان أزيز الرصاص وفرقعته يحفزانه ، وكان جواده يتفلت الى الانطلاق ، فلم يستطع المقاومة . اذ ذاك همز جواده وصرخ آمرا بالهجوم ، وعندما سمع طرق حوافر كوكبته التي كانت منتشرة وراءه هبط المنحدر خببا ، ميمما شطر الفرسان الفرنسيين . وما أن بلغت الخيل أدنى السفح حتى انتقلت من الخبب الى العدو بالرغم منها ، ممعنة في السرعة كلما دنت من خيالتنا ومن الفرسان الفرنسيين الذين كانوا يطاردونهم . كان الفرسان الفرنسيون قريبين جدا . فمَن كان منهم في المقدمة لوى عنانه لدى رؤية فرساننا ، بينما توقف الآخرون . وانتاب « روستوف » الشعور الذي كان ينتابه وهو يجري ليقطع الطريق على الذئب ، فأرخى لجواده « الدوني » العنان وعدا في خط عمودي الى صفوف الفرسان الفرنسيين المتفرقة . وتوقف رماح ، وارتمى آخر على الارض كيلا تدوسه الخيل ، وانخرط في الفرسان فرس بغير فارس . كان الفرسان الفرنسيون جميعا قد لووا أعنتهم وولوا مدبرين . فاختار « روستوف » فارسا منهم على فرس أشهب واندفع في اثره . واعترضت سبيله شجيرة فتخطاها جواده الاصيل بوثبة منه ، ثم تبين ، وهو يستوي بمشقة على حصانه ، أنه على وشك اللحاق بالعدو الذي اختاره . كان هذا الفرنسي ، وهو ضابط كما تدل بزته ، يعدو منحنيا على حصانه الاشهب الذي كان يضربه بصفيحة سيفه . وبعد لحظة صدم حصان « روستوف » بلبانه مؤخرة حصان الضابط الفرنسي وكاد يرميه أرضا ، وفي تلك اللحظة بعينها استل



@ketab_n @4_readers

« روستوف » سيفه ، دون أن يعلم لم فعل ذلك ، وأهوى بـه على الفرنسي .

وفي الحال ، فارقته حماسته . سقط الضابط الفرنسي مـن جراء الهزة والخوف قبل ان يسقط من جراء ضربة السيف التي حزت عضده حزا خفيفا . وكبح « روستوف » حصانه وتطلع الى عدوه ليرى من ذا الذي صرعه . كان الضابط الفرنسي ينط على الارض لان احدى رجليه علقت في الركاب . ونظر الى « روستوف » من تحت الى فوق مروعا ، وقد تقبض وجهه واخذ يطرف بعينيه ، وكأنه يرقب وقع الضربة الثانية . لم يكن وجهه المربد الملطخ بالوحل ، الفتي ، بشعره الاشقر وبغمازته في ذقنه ، وبعينيه الزرقاوين الصافيتين ، وجه عدو في ساحـة القتال ، لكنه كان وجها عاديا ، مألوفا ، مما نراه كل يوم . وقبل ان يقرر « روستوف » ماالذي يجب ان يفعله به صاح الضابط الفرنسي : « اني استسلم » . كان يجهد عبثا كي يخلص رجله من الركاب ، دون ان يرفع عينيه الزرقاوين المذعورتين عن روستوف . علـى ان بعض الفرسان بادروا اليه وفكوا رجله وساعدوه على امتطاء جواده . كان فرساننا يناوشون الاعداء ، من كل جانب : كان أحد هؤلاء الاعداء جريحا ، دامي الوجه لكنه يأبى ان يسلم حصانه ؛ وكان آخر يطوق أحد الفرسان بذراعيه وهو يردفه خلفه ؛ وكان ثالث يمتطي جواده مستندا الى احد فرساننا . اقبل المشاة الفرنسيون يطلقون النار وهم يجرون . فانثنى فرساننا على عجل ومعهم اسراهم . وتبعهم «روستوف» منقبض القلب من احساس غريب بالضيق . لقد تجلى له شيء مبهـم ومشوش ، شيء لم يجد الى ادراكه سبيلا ، على اثر أسر هذا الضابط وعلى اثر الضربة التي وجهها اليه .



@ketab_n @4_readers

ومالبث ان جاء الكونت « اوسترمان تولستوي » للقاء الفرسان فهنأ « روستوف » وشكره وقال له انه سينقل نبأ عمله الباسل الى اسماع الامبراطور وانه سيقترح اسمه لوسام صليب « سان جورج »٠ وعندما استدعي «روستوف» من قبل الكونت «اوسترمان تولستوي» تذكر انه انطلق الى الهجوم دون ان يتلقى امرا بذلك ، واعتقد جازما ان رئيسه يطلبه ليعاقبه على قلة انضباطه ٠ فكان ينبغي له ، من ثم ؛ أن يحدث له اطراء « اوسترمان » ووعده بالمكافأة مفاجأة اعظم سرورا: الا ان ذلك الاحساس المؤلم المبهم ظل يعتصر قلبه ٠ وتساءل وهو يغادر الجنرال : « ماالذي يعذبني ؟ ايلين ؟ لا ، انه سليم معافى ٠ هل اتيت امرا مخجلا ؟ لا ، ليس الامر كذلك » ٠ كان شيء غير ذلك يعذبه وكأنه الندم ٠ « نعم ، نعم ، انه هـذا الضابط الفرنسي ذو الغمازة ٠ واني لاذكر ان ذراعي توقفت عندما رفعتها » ٠

شاهد « روستوف » الاسـرى الذين كانوا يُقتادون ، وسار في اثرهم ليرى اسيره الفرنسي ذا الغمازة في ذقنه ٠ كان الفرنسي في بزته الغريبة ، يمتطي حصان احد الفرسان الروس ويلقي حوله نظرات قلقة ٠ ولم يكن جرحه في ذراعه ذا بال ٠ وتبسم لروستوف على كره ، وحياه بيده ٠ كان روستوف يحس ابدا بالضيق وبالخجل من شيء ما ٠

لقد لاحظ اصدقاؤه طوال هذا اليوم واليوم التالي انه لم يكن ، على وجه الدقة ، مغموما او غاضبا ، وانما كان شديد الوجوم والتفكر والانطواء ٠ كان يشرب فلا يستسيغ الشراب ٠ وكان يتوخى الوحدة ويفكر في شيء ما ٠

كان روستوف يفكر دائما في عمله العسكري الباهر الذي عاد عليه،



@ketab_n @4_readers

من غير ان يتوقع ذلك ، بوسام صليب « سان جورج ، واكسبه شهرة الباسل المقدام ، فيجد فيه شيئا لم يتوصل الى فهمه . لقد كان يقول في نفسه : « واذن فهم يخافون اكثر مما نخاف ! اهـذا هـو مايسمى البطولة ! وهل فعلت ذلك ، في الحقيقة ، من اجل الوطن ؟ وما ذنبه ، بغمازته وبعينيه الزرقاوين ؟ كم خاف ! كان يظن اني سأقتلـه ! ولـم اقتله؟ لقد ارتجفت يدي . ومع ذلك فقد منحوني صليب «سان جورج». لست افهم شيئا من ذلك ، البتة .

وبينما كان « نيقولا » يردد في نفسه هذه الاسئلة من غير ان يصل الى فهم واضح لما كان يقض مضجعه ، كانت عجلة الحظ تدور ، كما يقع غالبا ، لمصلحته . فقد برز اسمه بعد معركة « اوستروفنا » ، وعين قائد كوكبة ، وكان رؤساؤه اذا احتاجوا الى ضابط شجاع عهـدوا اليه بشتى المهمات .

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل السادس عشر

عندما علمت الكونتيسة بمرض « ناتاشا » وصلت الى موسكو ومعها « بيتيا » وجميع ذويها ، مع انها لم تتعاف جيدا ومع انها ماتزال ضعيفة . ثم غادرت اسرة روستوف برمتها منزل « ماريا دميتريفنا » لتقيم نهائيا في قصرها .

كان مرض « ناتاشا » من الشدة بحيث استبعد ، لحسن حظها وحظ اهلها ، التفكير فيما كان سببا لهذا المرض اي سلوكها وفسخ خطبتها . لقد بلغ بها المرض مبلغا لايجوز معه التساؤل عن الحدود التي ينبغي لومها فيها عما جرى ، في حين انها اعرضت عن الطعام والنوم واسرع اليها الهزال واخذت تسعل ، وان الاطباء لمّحوا الى الخطر الذي يتهدد حياتها . لم يبق مجال للتفكير الا في العناية بها . كان الاطباء يزورونها منفردين او مجتمعين للتشاور ، ويتكلمون كثيرا بالفرنسية والالمانية واللاتينية ، وينتقد بعضهم بعضا ، ويصفون ماشاؤوا من العلاجات لجميع الامراض التي يعرفونها ؛ ولم يخطر ببال احد منهم انه ليس بوسعهم معرفة المرض الذي تشكو منه ، كما انه ليس بوسعهم معرفة اي من الامراض التي تنتاب البشر ، لان لكل انسان خصائصه المميزة ، ومرضه الخاص به ، وهو مرض معقد ، يجهله الطب ، مرض لايصيب الرئة والكبد والجلد والقلب والاعصاب ... الخ كالامراض



@ketab_n @4_readers

المصنفة في الكلية ، لكنه يقوم على مالا يحصى من ضروب التآلف بين الآفات التي تصيب هذه الاعضاء . هذه الفكرة البسيطة لم تكن لتخطر ببال الاطباء ( كما لايخطر ببال الساحر ان يكف عن افعاله السحرية )، لان علة وجودهم هو العلاج ماداموا يقبضون عليه مالا ، ومن اجله نذروا اجمل سني حياتهم . لكن هذه الفكرة لم تكن ، على الخصوص، تخطر لهم لايمانهم بأنهم نافعون نفعا لاجدال فيه . والحق انهم كانوا كذلك بالنسبة الى أسرة « روستوف » ، لا لانهم حملوها على تجرع عقاقير مضرة في اكثرها ( كان ضررها طفيفا لان الجرعات كانت خفيفة)؛ بل انهم كانوا نافعين ، لابد منهم ، ولا مفر منهم ( ولهذا السبب سيظل هناك أبدا مدعو التطبيب ، والمجبرون ، ومعالجو المرض بالمرض نفسه) لانهم كانوا يشبعون حاجة نفسية لدى المريضة ولدى محبيها . كانوا يشبعون تلك الحاجة الابدية الى الامل في تخفيف الالام ، تلك الحاجة الى العطف والرعاية التي يحس بها الانسان عندما يتألم . كانوايشبعون تلك الحاجة التي نجدها لدى الطفل في شكلها البدائي، حاجتهالى ان يحك الموضع الذي يتألم منه . فلا يكاد الطفل يصاب بأذى حتىيسارع الى الارتماء بين ذراعي امه او مربيته لتقبل ولتحك له موضع الالم ، اذ ذاك يشعر على الفور ان الوجع قد سكن . ولا يتصور الطفل أن أناسا اقوى منه واعقل يعجزون عن امتلاك الدواء القادر على تسكين وجعه . ان امله بسكون الوجع ، والعطف الذي تبديه امه وهي تدلك موضع التورم يخففان من وطأة آلامه . كان الاطباء نافعين لناتاشا من حيث انهم يعانقون موضع الالم أو « الواوا » ويدلكونه مؤكدين انه سيزول على الفور اذا ذهب الحوذي الى صيدلية « الاربات »ليشتري بروبل وسبعين كوبيكا مساحيق واقراصا في علبة جميلة ، واذا تناولت



@ketab_n @4_readers

من هـذه المساحيق مقدارا معينا مذابا في الماء المغلي ، مرة كل ساعتين، لا اكثر ولا اقل .

ماذا كانت ستفعل « صونيا » وسيفعل الكونت والكونتيسة، وكيف كانوا سيطيقون البقاء مكتوفي الايدي ، لو لم يكن عليهم أن يعطوا « ناتاشا » ، في ساعات محددة ، الاقراص والاشربة الساخنة ومرق الدجاج وكل وصفات الاطباء التي كان التقيد بها شغلهم وسلواهم ؟ كيف كان يمكن للكونت أن يتحمل مرض ابنته العزيزة لولا علمه أن هذا المرض كان يكلفه آلاف الروبلات وأنه سيدفع آلافا غيرها طائعا راضيا لكي تشفى ؛ ولولا علمه أنها ان لم تشف فلن يحجم عن انفاق آلاف الروبلات أيضا ، ولن يتردد في اصطحابها الى الخارج وعرضها على أساطين الطب ؛ ولو لم يتح له أن يروي بالتفصيل أن « ميتيفييه » و « فيلر » لم يفقها شيئا ، على حين كان « فريز » أعظم فهما منهما ، وأن « مودروف »[1] شخص المرض خيرا منه ؟ ماذا كانت الكونتيسة ستفعل لو لم يتح لها أن تخاصم ، بين الحين والحين ، ابنتها التي لم تكن تراعي وصفات الطبيب مراعاةدقيقة . كانت تقول لها بغضب ينسيها حزنهـا :

ــ لن تشفي أبدا اذا لم تصغي الى الطبيب واذا لم تتناولي الدواء في الوقت المحدد . لا يجوز المزاح في الوقت الذي يمكن للمرض أن يتحول فيه الى ذات الرئـة .

كانت تجد عزاء كبيرا وهي تنطق بهذه الكلمة التي لم تكن تفهمها

(١) هذه الاسماء الاربعة اسماء اطباء موسكوفيين ، الاول فرنسي والثاني والثالث المانيان ، والرابع روسي .



@ketab_n @4_readers

لاهي ولاغيرها • وماذا كانت ستفعل « صونيا » لو لم تكن ترتاح الى ما تحدث به نفسها من أنها قضت ثلاث ليال ، في الايام الاولى ، دون أن تخلع ثيابها لكي تشرف على تنفيذ تعليمات الطبيب بحذافيرها ، وانها ، الى الآن ، لا تكاد تذوق طعم النوم الا لماما ، وذلك كيلا تفوتها الساعة التي تعطي فيها المريضة الاقراص ، تلك الاقراص الطفيفة الاذى والموجودة في العلبة المذهبة الصغيرة • وحتى ناتاشا نفسها التي زعمت ، عبثا ، أنه ما من علاج قادر على شفائها وأن كل ذلك ليس سوى حماقات ، كانت تلتذ برؤية مايبذل لها من تضحيات ، وبوجوب تناول العلاج في ساعة محددة ، بل انها كانت تجد لذة ، وهي تتهاون بتعليمات الاطباء ، في أن تظهر للملأ أنها لاتؤمن بالعلاج وأنها لاتحرص على الحياة •

كان الطبيب يزورها كل يوم ، فيجس نبضها ، وينظر الى لسانها ، ويمازحها ، من غير أن يلقي بالا الى وجهها الذي نهكه المرض • ولكن عندما كان ينتقل الى الغرفة المجاورة كانت الكونتيسة تلحق به على عجل ، فيصطنع الجد ويهز رأسه مفكرا ويقول : انه يعوّل بالرغم من الخطر الماثل ، على تأثير الدواء الاخير ، وانه لابد من الانتظار والتريث ، وأن مرضها ، على الارجح ، نفسي لكن •••

وكانت الكونتيسة تدس بيده ، خلسة ، قطعة ذهبية وتعود الى جنب المريضة وهي أهدأ نفسا •

أما أعراض مرضها فهي أنها كانت تأكل قليلا وتنام قليلا وتسعل وأنها كانت خاملة دائما • وكان الاطباء يقولون انه لا يجوز ترك المريضة بدون عناية ، ولذلك استبقوها في جو المدينة الخانق • ولم تذهب أسرة « روستوف » الى الريف في صيف ١٨١٢ •



@ketab_n @4_readers

وعلى الرغم من كثرة الاقراص والقطرات والمساحيق التي ابتلعتها « ناتاشا » ، والتي كانت معبأة في قماقم وعلب صنعت منها السيدة « شوس »[1] ، وهي هاوية لهذا الضرب من الاشياء ، مجموعة كبيرة ، ورغم حرمانها من الحياة التي تعودتها في الهواء الطلق ، فقد كانت الغلبة للشباب : ذلك أن حزن « ناتاشا » كان يتغطى بطبقة من الانفعالات الجديدة ، فخففت شدته ، وأُلقي به شيئا فشيئا في أحضان الماضي ، وأخذت « ناتاشا » تتعافى جسديا .

(1) السيدة « شوس » مربية المانية لدى آل روستوف .



@ketab_n @4_readers

## الفصل السابع عشر

غدت « ناتاشا » أهدأ نفسا لكنها لم تغد أكثر مرحا . فهي لم تكن تتحاشى فقط جميع مناسبات الفرح الخارجيـــة : كالحفلات الراقصة والنزهات والحفلات الموسيقية والمسرح ، بل انها لم تكن تضحك قط الا ترقرقت الدموع من خلال ضحكتها . ولم تكن تستطيع الغناء أيضا. فما أن تبدأ بالضحك أو تحاول الغناء ، بينها وبين نفسها ، حتى تخنقها الدموع : دموع الندم ، دموع مسفوحة على الماضي الذي مضى ولن يعود ؛ دموع الغيظ لانها هدرت حياتها الصاعدة الفتية التي كان يمكن أن تكون حافلة بالسعادة . كان الضحك والغناء ، على الخصوص ، يبدوان لها تدنيسا لحزنها . ثم انها أعرضت عن الدلال والغنج من غير أن يشق ذلك عليها . كانت تزعم وتحس أنها لاتأبه للرجال كما لاتأبه للمهرج « نستاسيا ايفانوفنا » . كان صوت ضميرها يحرم عليها كل ألوان الفرح . وشتان بين حياتها الآن وحياتها قديما ، تلك الحيـــاة الخالية من الهموم المليئة بالآمال . وكانت الذكرى التي تعاودها ، في معظم الاحيان ، والتي تؤلمها أشد الالم ، ذكرى أشهر الخريف والصيد والعم وأعياد الميلاد التي قضتها مع « نيقولا » في « اوتدرادنوي » . وكم كانت تعطي من أجل أن ترجع ولو يوما واحدا من تلك الايام! لكنها مضت ولاسبيل الى ارجاعها . ولم يخطىء حدسها حين حدثها أن هذه



@ketab_n @4_readers

الحالة من الحرية ومن الاستعداد لجميع الافراح لن تعود أبدا . لكن ، كان يجب أن تعيش .

كانت تستمد بعض العزاء من تلك الفكرة وهي أنها ليست خيرا من الآخرين كما ظنت قديما . بل انها أسوأ ، أسوأ من الناس جميعا . لكن هذا العزاء لم يكن كافيا . كانت تعلم ذلك وتتساءل : « وبعد » ؟ . الحق أنه لم يكن هناك من شيء بعد الذي جرى . فلم تكن الحياة تخبىء لها أي فرح ، وكانت الايام تمضي . وكانت ناتاشا تبذل وسعها فقط لكي لا تثقل على أحد ، ولا تضايق أحدا ، ولا تطلب شيئا لنفسها . كانت تعرض عن ذويها ولاتحس بالراحة الا مع أخيها « بيتيا » . وكانت تؤثر صحبته على صحبة الآخرين جميعا ؛ وكانت تضحك أحيانا عندما تخلو اليه ، ولم تكن تغادر البيت تقريبا وكانت لا تحب أن ترى سوى بطرس فيمن يأتون زائرين . فلم يكن بمقدور أحد أن يبدي ما أبداه الكونت « بيزوخوف » من حنان ورقة ومن جد ، في آن معا . كانت « ناتاشا » تحس احساسا غريزيا بهذا الحنان ، ولذلك سرت سرورا عظيما برفقته دون أن تعترف بجميله . اذ خيل اليها أن ما يأتيه بطرس من خير انما يصدر عنه دون جهد ولا عناء . وبدا لها أنه لا فضل لبطرس حين يحسن الى الناس جميعا لانه قد طبع على الاحسان طبعا . وكانت « ناتاشا » تلاحظ أحيانا شيئا من الاضطراب والارتباك عليه في حضرتها ، ولاسيما حين يخاف أن يثير الحديث بعض ذكرياتها المؤلمة . كانت تلاحظ ذلك وتعزوه الى طيب قلبه والى خجله الذي كان ، في اعتقادها ، هو نفسه مع الناس جميعا . ومنذ تلك الكلمات التي أفلتت منه ، في لحظة من لحظاتها العسيرة ، عندما ترك نفسه على سجيتها وقال لها :



@ketab_n @4_readers

انه لو كان حرا لسألها يدها وحبها جاثيا على ركبتيه ، لم يعد الى الحديث عن عواطفه ، وكان جليا ، بالنسبة اليها ، أن هذه الكلمات التي شدت من عزيمتها آنذاك قد قيلت كما تقال جميع الكلمات الفارغة لترضية طفل يبكي ـ لا لان بطرس متزوج ، بل لان « ناتاشا » أحست احساسا قويا بالحواجز النفسية بينهما ، وهي حواجز لم تحس بها مع «كوراجين»، ولانه لم يخطر ببالها أن علاقاتهما يمكن أن تؤدي الى الحب من قبلها أو من قبله خاصة ، بل ولا الى تلك الصداقة الرقيقة ، الشاعرية ، التي قد تقوم بين الرجل والمرأة من غير تحفظ والتي تعرف أمثلة كثيرة منها •

في نهاية صوم القديس بطرس ، جاءت الى موسكو « أجرافينا ايفانوفنا بيلوف » ، وهي جارة أسرة روستوف في « اوترادنوي » ، لزيارة الاماكن المقدسة الموسكوفية • وعرضت على « ناتاشا » أن تعترف وتتناول معها ، فطارت فرحا بهذا العرض • وبالرغم من أن الاطباء حظروا على « ناتاشا » الخروج مبكرة فقد أصرت على القيام بتلك الواجبات الدينية ، لا على طريقة ذويها الذين يقتصرون على ثلاث صلوات في البيت ، بل على طريقة « اغرافينا ايفانوفنا » التي لا تفوّت صلاة واحدة من صلوات الليل واالسحر والنهار خلال أسبوع كامل •

سرت أمها بهـذه الحماسة ، لقد أمّلت من أعماق قلبها ، بعـد فشل العلاج الطبي ، أن تكون الصلاة اجدى عليها من الادوية فنزلت عند رغبة ابنتها وعهدت بها الى السيدة « بيلوف » ، في شيء من القلق ، مخفية ذلك عن الطبيب • كانت « اغرافينا ايفانوفنـا » تأتي لتوقظ « ناتاشا » في الساعة الثالثة صباحا ، فتجدها ، في معظم الاحيان مستيقظة خوفا من أن تفوتها الصلاة • وما أن تسوي زينتها على عجل وترتدي



@ketab_n @4_readers

على نحو متواضع ، أدنى أثوابها جمالا ، ولفاعا قديما حتى تخرج الى الشوارع الموحشة التي ينيرها ضوء الفجر الشاحب ، مرتعشة من برد الليل . وبناء على نصيحة « اغرافينا إيفانوفنا » ، لم تكن « ناتاشا » تذهب الى كنيستها المعهودة بل الى كنيسة كان كاهنها يعيش ، على حد قول السيدة « بيلوف » حياة متقشفة فاضلة . لم يكن يرتاد الكنيسة الا القليل من المصلين ، كانت « ناتاشا » والسيدة « بيلوف » تجلسان في مكانهما المعتاد ، أمام أيقونة العذراء ، الى يسار الجوقة ، فيستولي عليها احساس لم تعرفه من قبل ، احساس من الضعة أمام ماهو عظيم وما لا سبيل الى بلوغه ، حين تصغي ، في هذه الساعة غير المعتادة ، الى الصلاة التي تجهد في متابعتها وتفهّمها ، وهي تحدق في وجه العذراء المسودّ الذي تضيئه الشموع المشعلة أمامه وضوء الصباح المنساب من النافذة . فاذا فهمتها اختلطت صلاتها بعواطفها الصميمية في ظلالها وشياتها الخاصة ، واذا لم تفهمها أحست بفرح أعظم وهي تحدث نفسها بأن الرغبة في فهم كل شيء ضرب من الكبرياء ، وأنه لا يمكن فهم كل شيء ، وأنه ينبغي لنافقط أن نؤمن وأن نسلم أمرنا لله الذي كانت تحس، في هذه اللحظات، أنه مالك نفسها . كانت ترسم اشارة للصليب وتنحني خاشعة ، وعندما تعجز عن الفهم تكتفي ، وقد هالتها خستها ، بالتوسل الى الله أن يغفر لها كل شيء وأن يرأف بها . أما الدعوات التي كانت تؤثر أن تسترسل فيها فكانت دعوات الندم .

وعند عودتها الى البيت ، في ساعة مبكرة جدا ، حين تخلو الشوارع الا من البنائين الذاهبين الى عملهم ، ومن الخادمات اللائي يكنسن قدام المنازل ، وحين يكون الناس نياما في بيوتهم ، كانت « ناتاشا » تحس



@ketab_n @4_readers

احساسا لم تعهده من قبل ، احساسا حملها على الاعتقاد بامكان النهوض من عثرتها ، وبحياة جديدة نقية ملؤها السعادة •

كبر هذا الشعور يوما بعد يوم طوال الاسبوع الذي عاشت فيه هذا اللون من الحياة • وبدت فرحتها بالتناول ، أو بالتواصل مع الله كما كان يحلو لاجرافينا ايفانوفنا أن تقول بحماسةوهي تتلاعب بالالفاظ، عظيمة الى الحد الذي خيل اليها معه أنها لن تتمكن من البقاء الى ذلك الاحد السعيد •

ثم جاء اليوم السعيد ، وعندما عادت « ناتاشا » من التناول في ذلك الاحد الذي لن تنساه ، بثوب الموصلي الابيض ، أحست ، لاول مرة بالسكينة تشيع في نفسها وبأن الحياة التي تنتظرها لم تعد عبئا عليها •

فحص الطبيب الذي جاء في هذا اليوم « ناتاشا » وأمرها بأن تستمر في تناول المسحوق الذي وصفه قبل خمسة عشر يوما • فقال لها وقد بدا عليه أن وجدانه المسلكي مرتاح للنجاح الذي أحرزه :

ـ يجب حتما أن تستمر في تناوله صبحا ومساء • لكن ، بدقة أكبر أرجوك •

وأضاف مداعبا وهو يقبض على القطعة الذهبية في راحته :

ـ لا تخافي ، أيتها الكونتيسة ، فعما قليل ستعود الى غنائها ومرحها • لقد أفادها العلاج الاخير كثيرا ، كثيرا جدا ، فتحسن وجهها •

ولكي تتفادي الشؤم وتطرد النحس بصقت الكونتيسة وهي تنظر الى أظفارها ثم عادت الى القاعة باشة •



@ketab_n @4_readers

# الفصل الثامن عشر

في مطلع تموز ، إنتشرت في موسكو شائعات مثيرة للقلق المتزايد عن سير العمليات . فتحدث الناس عن نداء الامبراطور للشعب وعن قدومه من الجيش . ولما لم يتلقَ احد حتى الحادي عشر من تموز بيانا اواعلانا فقد راجت شائعات مبالغ فيها بهذا الصدد وبصدد وضع روسيا . كان يقال ان الامبراطور ترك الجيش لان الجيش في خطر ، وكان يقال ان سمولنسك سقطت ، وان لدى نابليون مليون رجل ، وان المعجزة وحدها قادرة على انقاذ روسيا .

وفي يوم السبت الحادي عشر من تموز ، وصل البيان ، لكنه لم يكن مطبوعا بعد ؛ وكان بطرس يزور في هذا اليوم اسرة « روستوف » فوعد ان يأتي الى الغداء في اليوم التالي ، يوم الاحد ، وان يحمل معه البيان والاعلان اللذين سيحصل عليهما من الكونت «روستوبتشين» .

في هذا الاحد ذهب آل روستوف ، على عادتهم ، الى الصلاة في كنيسة « رازو موفسكي » الخاصة . كان النهار قائظا . ومنذ الساعة العاشرة ، عندما نزلوا من العربة أمام الكنيسة ، كان الهواء اللافح ، وصرخات الحمالين ، وثياب الجمهور الفاتحة ، واشجار الشارع المغبرة، ونغمات الموسيقى ، والسراويل البيضاء التي ترتديها كتيبة تقوم بتبديل الحرس ، وهدير العربات على البلاط ، وحرارة الشمس الساطعة ، كان



@ketab_n @4_readers

كل ذلك يبعث على الشعور بالفتور والرضى بما كُتب وبالخيبة وهو شعور يحس به المرء احساسا عاتيا في مثل هذا النهار الحار من صيف المدينة • كان اشراف موسكو بأسرهم • ومعارف آل روستوف جميعا، متجمعين في كنيسة « رازوموفسكي » ( كثير من الاغنياء الذين اعتادوا ان يذهبوا الى املاكهم ظلوا هذه السنة في المدينة ، انتظارا لما قد يحدث ) • وبينما كانت « ناتاشا » تتبع ، الى جانب أمها ، خادما بثيابه الرسمية يفسح الطريق لهما ، سمعت شابا يتحدث عنها الى اخر في همس مسموع بعيد عن التحفظ :

ــ هذه هي الانسة روستوف التي •••

ــ ما اكثر نحولها ، الا انها جميلة !

وسمعت أو ظنت انها سمعت اسمي «كوراجين» و «بولكونسكي» • وعلى كل حال ، كان هذا الشعور ملازما لها • كان يخيل اليها دائما ان الناس اذا رأوها لم يفكروا بغير ماوقع لها • كانت تسير بثوبها الحريري الخبازي الموشى بتخريمة سوداء ، منقبضة الصدر ، كعادتها عندما تكون بين الناس ، كما تمشي النساء العارفات ، مشية فيها من الهدوء والجلال بقدر مافي اعماق قلبها من الاحساس بالشقاء والخجل •

كانت تعلم انها جميلة ، ولم تكن مخطئة • ولكنها لاتبتهج بجمالها الان كما كانت تبتهج به من قبل • بل ان هذا هو الذي كان يعذبها دون غيره في هذه الاونة الاخيرة ، ولاسيما في مثل هذا اليوم القائظ ،الساطع من أيام الصيف في المدينة • كانت تقول في نفسها وهي تتذكر انها جاءت الى هذا المكان في الاحد السابق : « ها هو ذا احد آخر يمر ، اسبوع آخر يمر، والحياة ماتزال كما كانتوهي لاتعد حياة ــ ، وظروفالحياة



@ketab_n @4_readers

ماتزال كما كانت ، وكان العيش فيها سائغا من قبل • انني جميلة وشابة، وقد اصبحت خيرة ، كنت سيئة من قبل اما الان فأنا خيرة ، انني اعلم ذلك ، واعلم ان افضل السنوات تمر هباء منثورا لاينتفع بها احد » •
وجلست قرب امها وحيت براسها بعض معارفها القريبين منها • ثم تفحصت ، بحكم العادة ، زينة النساء وانتقدت لباس امرأة قريبة منها وطريقتها النابية السريعة في رسم اشارات الصليب ، وفكرت بغيظ مرة أخرى في ان الناس كانوا يدينونها مثلما كانت تدينهم هي ايضا ، وفجأة سمعت كلمات القداس فهالتها خستها وهالها انها فقدت نقاءها القديم مرة اخرى •

كان بين الحاضرين شيخ قصير وقور الطلعة ، حسن الهندام ،يحتفل بالقداس احتفالا عليه تلك السكينة المهيبة التي تدخل الامن والسمو الى نفوس المؤمنين • ثم أُغلقت ابواب المحراب واسدل الستار ببطء ، ووافى من الداخل صوت خافت خفي فامتلأ قلب ناتاشا بالدموع التي لم تعرف لها سببا وهزتها الانفعالات الفرحة • وابتهلت : « علّمْني ماالذي ينبغي ان افعله ، ماذا افعل بحياتي ، وكيف اصلح نفسي الى الابد ، الى الابد ! »

تقدم الشماس الى المنبر ورفع بابهامه المنفرجة شعره الطويل من تحت جبته وحرك يده لرسم اشارة الصليب واخذ يرتل بصوت عال ومهيب كلمات القداس : « بسلام من الرب نطلب » وفكرت «ناتاشا»: « لنُصلِّ جميعنا ، من دون تمييز بين الطبقات ، من دون كراهية ، بل متحدين في الحب الاخوي » [1] •

---

(١) ان كلمة « مير » تعني في الروسية « السلام » و « العالم » . ولذلك فعندما قال الشماس « بسلام من الرب نطلب » فهمت ناتاشا : « في كل العالم » •



@ketab_n @4_readers

« من أجل السلام في الاعالي ومن أجل خلاص نفوسنا »وتضرعت « ناتاشا » : « من اجل عالم الملائكة وارواح الكائنات غير المادية التي تعيش فوقنا » •

وعندما صلى الكاهن من أجل الجيوش تذكرت اخاها و «دينيسوف» وعندما صلى من اجل المسافرين في البر والبحر تذكرت الامير آندره ، وصلت له ، ودعت الله ان يغفر لها اساءتها له• وعندماصلى من أجل الذين يجبوننا صلت من اجل ذويها ، من اجل امها وابيها و « صونيا » ، وقد أدركت لاول مرة اخطاءها تجاههم واحست بقوة الحب الذي تكنه لهم• وعندما صلى من اجل الذين يبغضوننا فتشت عن اعدائها لكي تصلي من اجلهم • وعدت من بين الاعداء دائني ابيها والمتعاملين معه، وتذكرت، وهي تفكر بالاعداء وبمن يبغضوننا ، « آناتول » الذي اساء اليها كثيرا وصلت له بفرح • كما تصلي للعدو ، مع انه ليس ممن يكرهها • كانت، أثناء الصلاة وحدها ، تحس بالشجاعة في ان تستعيد بهدوء وبرباطة جأش ذكرى الامير اندره و « كوراجين » ؛ وكانت عواطفها ازاءهما آنذاك تمحي امام خشيتها لله وعبادتها له • وعندما صلى للعائلة الامبراطورية وللمجمع الكنسي المقدس رسمت اشارة الصليبوانحنت بورع بالغ وقالت في نفسها • انها وان لم تفهم ما المجمع المقدس فانها لايمكن ان تشك فيه وانها تحبه على كل حال وتصلي من اجله •

وعندما انتهت الصلاة وضع الشماس صدارته الكهنونية وقال : « لنسلم نفوسنا وحياتنا للمسيح الهنا » •

ورددت « ناتاشا » في اعماق قلبها : « لنسلم نفوسنا لله • رباه ، انني اسلم نفسي لمشيئتك • لست اريد شيئا ولا اشتهي شيئا ؛ علمني ما الذي ينبغي ان افعله وكيف استخدم ارادتي !



@ketab_n @4_readers

خذني بيديك ، خذني ! » .

قالت ذلك ، وفي نفسها حرقة ، ودون ان ترسم اشارة الصليب ، مسبلة ذراعيها النحيفتين وكأنما كانت تنتظر ان تمسك بها قوة خفية فتخلصها من ذاتها ، من اسفها ورغباتها وندمها واما لها وعيوبها .

واثناء القداس ، ألقت الكونتيسة ، بالرغم منها ، نظرات على وجه ابنتها المستغرق في تأمله ، ذي العينين البراقتين ، وابتهلت الى الله ان يكون في عونها .

وفجأة ، وفي وسط القداس ، حمل خادم الكنيسة مقعدا صغيرا ، وهو المقعد الذي تقرأ عنده الصلوات ركوعا في عيد العنصرة ، ووضعه امام ابواب المذبح ، خلافا لمألوف القداس اليومي الذي تعرفه «ناتاشا» جيدا . وخرج الكاهن ، وعلى راسه قلنسوة من المخمل البنفسجي ، فسوى شعره وجثا على ركبتيه بمشقة . واحتذى به المصلون ونظر بعضهم الى بعض في دهشة . كانت تلك هي الصلاة التي ارسلها المجمع المقدس ، من اجل خلاص روسيا التي غزاها العدو .

بدأ الكاهن صلاته بصوت واضح متواضع ، خال من التكلف ، صوت لايملكه الا الكهنة السلافيون ، ولا قِبَل للقلوب الروسية بمقاومة تأثيره :

« أيها الرب ، القادر على كل شيء ، يا إله خلاصنا ! الق اليوم نظرة برحمتك وكرمك على عبيدك المتواضعين وأصغ الينا بحب ، احمنا وتحنن علينا . ان العدو الذي يعيث فسادا في أرضك والذي يريد أن يدمر العالم قد هب لمحاربتنا ، ان هؤلاء الكفرة تجمعوا ليبيدوا ملكك، وليخربوا قدسك المخلصة ، روسيا حبيبتك ، وليدنسوا معابدك ،



@ketab_n @4_readers

وليقلبوا مذابحك ، وليحقروا مقدساتك . الى متى ، أيها السيد ، الى متى ينتصر الخطاة ؟ الى متى يستخدمون قوتهم الغاشمة ؟

أيها الرب القادر على كل شيء ! اصغ لصلواتنا : اسند بقوتك مليكنا العظيم ، الورع ، الامبراطور « الاسكندر بافلوفتش » ؛ تذكر استقامته ووداعته ، عاملنا بمثل ما يعاملنا به من حلم ورفق ، نحن شعبك الحبيب . بارك قراراته ومشاريعه ومبادراته ؛ ودعم ملكه بيمينك القادرة على كل شيء وامنحه النصر على عدوه كما منحت الانبياء من قبل . احم جيوشه وضع القوس النحاسي في أيدي الذين يحاربون باسمك وحصنهم بقوتك من أجل القتال . احمل سلاحك وترسك وأنجدنا لكي يحل العار والهزيمة بالذين يريدون بنا الشر ، وليكونوا أمام جيوشك المخلصة كالغبار أمام الريح ، وليخزهم ملاكك القوي وليطاردهم ؛ لتحط بهم الحبائل من غير أن يتوهموا ذاك ، وليقعوا في الاشراك التي نصبوها ؛ ليسقطوا بين أقدام خدامك ولتدسهم جيوشنا . أيها الرب ! أنت خلاص الكبير والصغير . انت الاله ، والانسان عاجز قدامك .

يا إله آبائنا ! اذكر كرمك ونعمتك الابديين ، لا تطردنا من وجهك ولا تعرض عنا بسبب دناءتنا وتجاوز عن آثامنا وخطايانا بعظيم رحمتك وآلائك . هبنا قلبا نقيا وجدد في صدرنا روح الاستقامة ؛ قونا جميعا في الايمان بك ، ثبتنا بالرجاء ، ألهمنا المحبة الحقة فيما بيننا ، سلحنا بالاجماع للدفاع المشروع عن الميراث الذي منحتنا اياه ، نحن وآباءنا ، ولا يرتفعن صولجان الكفار في مقر المصطفين .

أيها الرب إلهنا الذي نؤمن به ونرجوه ، لا تخيب رجاءنا لرحمتك ، وأنزل علينا آية من آياتك لكي يراها الذين يكرهوننا ، نحن وعقيدتنا

الارثوذكسية ، ولكي يغشاهم الخزي والهلاك ؛ ولتعلم جميع الامم أنك الرب وأننا شعبك . أظهر نعمتك علينا وامنحنا خلاصك ؛ فرّح قلب عبيدك بنعمتك ، اضرب أعداءنا وألق بهم بين أقدام المؤمنين بك . لانك أنت الملجأ والعون والنصر للذين وضعوا رجاءهم فيك ، نمجّد الآب والابن والروح القدس الآن وكل أوان والى دهر الداهرين ، آمين » .

ان الحال التي كانت عليها ناتاشا حينذاك والتي كانت نفسها فيها متفتحة لكل شيء أتاحت لهذه الصلاة أن تهزها هزا عميقا . كانت تصغي الى كل كلمة من كلمات الكاهن وتصلي بحنان وورع امتلأ بهما قلبها ؛ لكنها لم تكن تدرك ما الذي تطلبه الى الله في صلاتها . لقد شاركت بكل جوارحها في الصلاة من أجل أن يهبنا الله روح الاستقامة، ومن أجل تثبيت قلوبنا بالايمان والرجاء والهامها المحبة . الا انه لم يكن بوسعها أن تصلي من أجل هلاك أعدائنا ، لانها كانت ترغب ، قبل لحظات ، في المزيد منهم لكي تحبهم وتصلي لهم ؛ ولم يكن بوسعها الشك في صحة الصلاة التي صلاها الناس ركوعا . كانت تحس في نفسها برهبة مقدسة راعشة أمام العقاب الذي ينزل بالناس جزاء ما اقترفوا من ذنوب ، ولاسيما أمام ذنوبها هي ، وتطلب الى الله ان يغفر للجميع ولها ، وان يهب الجميع ويهبها الطمأنينة والسعادة في هذه الحياة . وخيل اليها أن الله كان يسمع دعاءها .



@ketab_n @4_readers

# الفصل التاسع عشر

منذ اليوم الذي تأمل فيه بطرس ذلك المذنّب في السماء ، اذ هو عائد من منزل آل « روستوف » وكان مايزال واقعا تحت تأثير نظرة « ناتاشا » المتنة ، وشعر بشيء جديد ينفتح أمامه ، انزاحت عنه تلك المشكلة التي طالما أرّقته : وهي أن كل مافي الارض باطل وعبث •

ان هذا السؤال الرهيب : « لماذا ؟ ماجدوى ذلك ؟ » الذي كان [illegible] في كل من مشاغله ، قد أخلى مكانه الان ، لا لسؤال آخر [illegible] لجواب عن السؤال ، بل لصورتها « هي » • وسواء اكان يصغى الى حديث مبتذل أم كان يحدثه هو نفسه ، وسواء أكان يقرأ عن دناءة أو حماقة أم كان يعلم بهما ، فان شيئا من ذلك لم يكن يهوله كسابق عهده • صار لايتساءل : لماذا يضطرب الناس عندما يكون كل شيء قصيرا ، محفوفا بالشك ، لكنه كان يستعيد صورتها كما رآها في آخر مرة فتتلاشى شكوكه ، لا لانها تجيب عن السؤال المطروح عليه ، بل لان صورتها كانت تنقله مباشرة الى تلك المنطقة المضيئة من الحياة الروحية التي لايمكن ان يكون فيها عادل ومذنب ، منطقة الجمال والحب اللذين من أجلهما تستحق الحياة ان نحياها • ومهما تكن الخسة التي كان يلقاها في الحياة فانه كان يقول في نفسه :

ماذا يهمني من ان يسرق فلان الدولة والقيصر وان يغدق عليه



@ketab_n @4_readers

القيصر والدولة الامجاد ؛ لقد ابتسمت لي امس ورجتني ان اعود ، وأنا أحبها ، ولن يعرف ذلك أحد أبدا .

ظل بطرس يرتاد الحفلات العامة ويكثر من الشراب ويحيا حياته العاطلة المنحلة ، ذلك أنه كان عليه ان يقضي البقية الباقية من وقته ، بعد الساعات التي يقضيها عند آل « روستوف » ، وان عاداته وعلاقاته التي أنشأها في موسكو كانت تسوقه سوقا الى هذا اللون من الحياة .

ولكن عندما أخذت انباء الحرب ، في الاونة الاخيرة ، تنذر بالخطر المتزايد ، وعندما لم يبق لدى ناتاشا التي اخذت صحتها تتحسن ، مايثير ذلك الشعور بالشفقة المفعمة بالرعاية ، استولى عليه قلق متزايد لم يجد الى فهمه سبيلا . كان يحس ان هذه الحياة لا يمكن ان تستمر وان كارثة خليقة بأن تقلب حياته قلبا تقترب ، وكان يسعى الى اكتشاف اماراتها بفارغ الصبر . وقد اطلعه احد اخوته الماسونيين على النبوءة التالية المتعلقة بنابليون ، والمأخوذة من رؤيا يوحنا اللاهوتي .

جاء في الاصحاح الثالث عشر من الرؤيا ، الآية الثامنة عشرة : « هنا الحكمة . من له فهم فليحسب عدد الوحش [1] فانه عدد انسان . وعدده ستمائة وستة وستون » .

وجاء في الاصحاح نفسه ، االاية الخامسة : « واعطي فما يتكلم بعظائم وتجاديف واعطي سلطانا ان يفعل اثنين واربعين شهرا » .

فلو صنّفنا الابجدية الفرنسية على أساس حساب الجمل حيث تكون الاحرف العشرة الاولى موازية للاحاد والاحرف العشرة الثانية

(1) كانت بعض الحلقات الروسية تعتبر ان نابليون هو وحش الرؤيا اللاهوتية وانه هو المسيح الدجال .



@ketab_n @4_readers

موازية للعشرات[1] ، ثم كتبنا بالارقام وفق هذه الابجديـة ، كلمتي : الامبراطور نابليون ، لوجدنا ان مجموع هذه الاعداد يساوي ٦٦٦ ؛ ومن ثم ، فان نابليون هو الوحش الذي تنبأت به الرؤيا . وفضلا عن ذلك ، فلو كتبنا ، بحسب هذه الابجدية ، كلمة « اثنين واربعين » وهي الميعاد الذي عين للوحش كي « يتكلم بعظائم وتجاديف » لكان مجموع الارقام ايضا مساويا ٦٦٦ ، ومن هنا ينتج ان نهاية سلطـان نابليـون ستكون في سنة ١٨١٢ وهي السنة التي يبلغ فيهـا امبراطـور فرنسا اثنين واربعين سنة . لقد ادهشت هذه النبوءة بطرس كثيرا ، وغالبـا ماكان يتساءل عمن يستطيع ان يضع حدا لسلطان الوحش اي نابليون، وكان يحاول ان يجد جوابا للسؤال الذي يشغله بواسطة تمثيل الاحرف بأرقام وحسابها . وكتب أولا : الامبراطور الاسكندر ؟ ثـم : الامة الروسية ؟ وجمع الاحرف ، لكن المجموع كان اكبر من ٦٦٦ أو أقل . وكتب ذات مرة ، وهو منهمك في هذه الحسابات ، اسمه : الكونت بطرس بيزوخوف ؛ فكان المجموع أيضا بعيدا عن الرقم المطلوب .وبدل بعض الاحرف فوضع حرف « ز » محل حرف « س » واضاف علامـة الاضافة ، ثم أضاف «ال» التعريف،لكنه لم يحصل على النتيجة المرجوة. وخطر بباله حينئذ انه اذا كان جواب السؤال في اسمه فيجب ان تذكر جنسيته . وكتب : « الروسي بيزوخوف » ، وعندما جمع الارقام حصل

---

[1] والجدول هو التالي :

| a | b | c | d | e | f | g | h | i | k | l | m | n | o | p | q | r |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ١ | ٢ | ٣ | ٤ | ٥ | ٦ | ٧ | ٨ | ٩ | ١٠ | ٢٠ | ٣٠ | ٤٠ | ٥٠ | ٦٠ | ٧٠ | ٨٠ |

| s | t | n | v | w | x | y | z |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ٩٠ | ١٠٠ | ١١٠ | ١٢٠ | ١٣٠ | ١٤٠ | ١٥٠ | ١٦٠ |



@ketab_n @4_readers

على ٦٧١ • أي بفرق ٥ ، وهذا الرقم ٥ يمثل حرفا لينا هو حرف (E) وهو الحرف الذي حذف في كلمة الامبراطور منعا لالتقاء الساكنين • وعندما حذفه تجوزا حصل على الجواب المطلوب : «الروسي بيزوخوف» يساوي ٦٦٦ • وهزه هذا الاكتشاف • كيف يرتبط هو بهذا الحدث الكبير الذي تنبأت به الرؤيا ، وبأي رباط يرتبط ، لقد كان يجهل ذلك• لكنه لم يشك قط في وجود هذا الرباط • ان حبه للانسة «روستوف»، والمسيح الدجال ، وغزو نابليون ، والمذنب ، والرقم ٦٦٦ ، والامبراطور نابليون ، والروسي بيزوخوف ، كل ذلك سينضج وسينفجر ذات يوم وسينتزعه من هذا العالم المسحور الخسيس : عالم العادات المسكوفية الذي احس انه حبيس فيه ليقوده الى امتحان مجيد وسعادة عظيمة •

في ليلة الاحد الذي تليت فيه الصلاة ، كان بطرس قد وعد أسرة « روستوف » ان يحمل اليهم من عند الكونت « روستوبتشين » الذي يعرفه معرفة حسنة النداء الى روسيا وآخر أنباء الحرب • وفي الصباح مر على الكونت فوجد عنده ناقلا للبريد وصل لتوه من الجيش•

كان هذا الناقل من الراقصين المواظبين على حضور الحفلات الراقصة في موسكو وممن يعرفهم « بطرس » •

قال ناقل البريد :

ـ هلا خففت عني من حملي ، ارجوك • فلدي كيس مملوء بالرسائل للاقارب •

كان بين الرسائل رسالة من « نيكولا روستوف » لابيه ، فأخذها بطرس • ثم ان الكونت « روستوبتشين » اعطاه نداء الامبراطور



@ketab_n @4_readers

لموسكو الذي طبع حديثا واخر الاوامر اليومية في الجيش واخر بيان له • وبينما كان يتصفح الاوامر اليومية رأى في احدى اللوائح التي تضم اسماء القتلى والجرحى والجوائز الممنوحة ، اسم « نيكولا روستوف » الحائز على وسام « سان جورج » من الدرجة الرابعة للبسالة التي ابداها في معركة «اوستروفنا» ، واسم آندره بولكونسكي الذي عين آمرا لاحد افواج القناصة • ومع ان بطرس لم يشأ ان يذكر اسرة روستوف باسم « بولكونسكي » الا انه لم يستطع ان يمتنع عن ابلاغهم النبأ المفرح ، نبأ الوسام الذي مُنحه ابنهم ، فحمل اليهم الرسالة والامر اليومي تاركا في البيت النداء والاعلان والاوامر اليومية الاخرى، على أمل ان يحملها معه وقت الغداء •

ان حديثه مع الكونت « روستوبتشين » ، ومابدا عليه من انهماك وجد، ولقاءه مع ناقل البريد الذي تحدث بغير اكتراث، عن سوء الاحوال في الجيش ، وعن شائعة اكتشاف الجواسيس في موسكو ، وعن ورقة تناقلها الناس مفادها ان نابليون وعد بان يكون قبل الخريف في العاصمتين الروسيتين ، وعن وصول الامبراطور قبل الموعد بيوم ، كل ذلك ابتعث بقوة في نفس بطرس هذا الانفعال وهذا الترقب اللذين لم يفارقاه منذ ظهور المذنب ، ومنذ بداية الحرب خاصة •

كانت فكرة الانخراط في الجيش تراوده منذ زمن بعيد ، وكان خليقا ان يفعل ذلك لولا ان منعه منه انتسابه الى المحفل الماسوني الذي اقسم يمين الولاء له والذي كان يبشر بالسلم الدائم وبالغاء الحروب ، ولولا خجله من ان يفعل مثلما فعل كثير من الموسكوفيين الذين ارتدوا الزي العسكري وأخذوا يمجدون الوطنية •على ان السبب



@ketab_n @4_readers

الرئيسي الذي كان يحول بينه وبين الالتحاق بالجيش كان يكمن في تلك الفكرة الغامضة وهي انه هو « الروسي بيزوخوف » الذي يمثل عدد الوحش ٦٦٦ ، وان مشاركته في العمل الاكبر الذي سيضع حدا لسلطان الوحش « المتلفظ بعظائم وتجاديف » قد تقررت منذ الازل ، وان عليه لا يباشر شيئا بل ان ينتظر ماقدر له ان يتم .



@ketab_n @4_readers

# الفصل العشرون

كانت أسرة « روستوف » تستقبل على مائدتها كعهادتها في كل أحد ، بعض الاصدقاء الخلص •

وصل بطرس مبكرا ، ليلقى أفراد الاسرة وحدهم •

لقد ضخم كثيرا منذ سنة ، وكان سيبدو هائلا ، منكرا ، لو لم يكن طويلا ، ، قويا ، عريض المنكبين الى الحد الذي أتاح له أن يتحمل سمنته بيسر •

صعد السلم ، وهو يلهث ويدمدم بشيء بينه وبين نفسه • ولم يكن حوذيه يسأل ان كان عليه ان ينتظر • لانه كان يعلم أن الكونت يظل الى منتصف الليل عندما يكون في زيارة أسرة « روستوف » • هرع الخدم فرحين ليساعدوه على خلع معطفه وليأخذوا منه عصاه وقبعته ، وكان يتركهما في البهو ، كما يفعل في النادي •

كانت « ناتاشا » أول من رآى في بيت آل روستوف • بل انه سمعها وهو يخلع معطفه في البهو قبل أن يراها • كانت تتدرب على الغناء في قاعة الرقص • وكان يعلم انها انقطعت عنه منذ مرضها ، ولذلك فقد أحدث رنين صوتها في نفسه مفاجأة سارة• فتح الباب برفق ورأى « ناتاشا » بثوبها الخبازي الذي ارتدته في الصلاة تروح وتجيء وهي تغني • كانت تدير ظهرها فلما استدارت بغتة وشاهدت وجهه الضخم المدهوش احمرت خجلا واسرعت اليه قائلة :



@ketab_n @4_readers

ـ اني أحاول أن أعود الى الغناء

وأضافت كالمعتذرة :

ـ والغناء مشغلة نقضي بها الوقت ، على كل حال •

ـ أنت على حق

وتابعت كلامها بتلك الحيوية القديمة التي لم يرها فيها منذ زمن طويل :

ـ كم أنا مسرورة بمجيئك ! أنا جد سعيدة اليوم ! لقد نال « نيكولا » وسام « سان جورج » وأنا فخورة به •

ـ أعلم ذلك • فأنا أرسلت اليكم الامر اليومي • لكني لا أحب أن أزعجك •

قال ذلك واتجه الى قاعة الاستقبال •

قالت وهي تحمرّ خجلا وتنظر اليه مستفهمة دون أن ترفع بصرها عنه :

ـ كونت ، أمخطئة أنا اذ اغني؟

ـ كلا •• ولم تخطئين ؟ على العكس ••• لكن لِمَ تسألينني عن ذلك ؟

فأجابت « ناتاشا » بحرارة :

ـ لست أدري ، لكني لا أحب أن أفعل مالا يعجبك • اني أثق بك ثقة مطلقة • أنت لاتعلم مدى أهميتك عندي وأهمية كل مافعلته من أجلي ! ( كانت تتكلم بسرعة ولم تلاحظ أن بطرس احمرّ خجلا



@ketab_n @4_readers

لهذه الكلمات ) . رأيت في اللائحة نفسها اسمه أيضا ، « بولكونسكي » ( ولفظت هذا الاسم بعجلة وبصوت خفيض ) في روسيا ، وقد عاد الـى الخدمـة .

ثم سألته بحرارة وعجلة خشية أن تخونها قواها :

ـ ما رأيك ؟ هل يصفح عني ذات يوم ؟ وهل يظل حاقدا ؟ مارأيك في ذلك ؟ ما رأيك ؟ .

قال بطرس :

ـ رأيي...أنك لم تفعلي مايستوجب صفحه..ولو كنت مكانه...

وبسبب من تداعي الذكريات انتقل على الفور الى الفترة التي قال لها فيها وهو يواسيها : انه لو لم يكن على ماهو عليه ، ولو كان خير الناس ، ولو كان حرا ، اذن لطلب يدها جاثيا ، فاستولى عليه نفس الشعور بالشفقة والحنان والحب واندفعت الى شفتيه الكلمات نفسها . لكنها لم تمهله كي يقولها .

قالت وهي تصر على لفظة « أنت » :

ـ نعم ، أنت ... أنت ... أنت شيء آخر . فأنا لا أعرف شخصا خيرا منك ولا أكرم منك ، ولن يوجد مثل هذا الشخص . ولو لم تكن بقربي آنذاك ، ولولا أنك بقربي الآن لما علمت ما عسى أن يحلّ بي ، لأن ...

وطفرت الدموع فجأة من عينيها ، وأشاحت بوجهها وخبّأته بدفتر الموسيقا ، ثم عادت الى الغناء والتمشي في الغرفة .

في هذه اللحظة أقبل « بيتيا » من قاعة الاستقبال مسرعا .



@ketab_n @4_readers

كان « بيتيا » قد أصبح فتى جميلا في الخامسة عشرة من عمره ، متورّد الخدين ، ذا شفتين غليظتين حمراوين ، شبيها بأخته ناتاشا • كان يستعد لدخول الجامعة لكنه قرر سرا ، منذ فترة هو وصديقه « اوبولنسكي » أن ينخرطا في سلك الفرسان •

أسرع « بيتيا » الى سميه ليحدثه عن قضيته •

كان قد طلب اليه أن يسأل له ان كان مقبولا في سلاح الفرسان •

وتابع بطرس طريقه دون أن يصغي الى « بيتيا » • فجذبه هذا من ذراعه منبّها له وقال :

ـ قل لي ، بالله عليك ، أين أصبحت قضيتي ، يا « بطرس كيريليتيش » • فأنت أملي الوحيد •

ـ آه ، نعم ! قضيتك ! الفرسان ! سأسعى لك في ذلك ،سأسعى في ذلك اليوم •

وسأله الكونت الشيخ :

ـ هل البيان معك ؟ لقد ذهبت الكونتيسة الى الصلاه في كنيسة آل « رازوموفسكي » واستمعت الى الصلاة الجديدة • وهي ترىانها بالغة الجمال •

ـ وأجاب بطرس

ـ نعم ، البيان معي ، سيصل الامبراطور غدا ••• وسيُعقد اجتماع غير عادي للنبلاء • ويجري الحديث عن تجنيد عشرة فيالالف في الواقع ، أهنئك •

ـ نعم ، نعم ، الحمد لله ! والحرب ، ما أنباؤها ؟



@ketab_n @4_readers

أجاب بطرس :

ـ يبدو أننا تراجعنا أيضا الى « سمولنسك » •

قال الكونت :

ـ يا الهي ، يا الهي ! وأين البيان ؟

ـ الاعلان ! آه نعم !

وفتّش بطرس في جيوبه فلم يجد الاوراق • وقبّل يد الكونتيسة التي دخلت آنذاك ، وهو يتابع جس جيوبه ، والقى حواليه نظرات قلقة ، وكأنه ينتظر « ناتاشا » التي كفّت عن الغناء ولم تظهر في القاعة • وقال :

ـ في الحق ، انني لا أعرف ماذا جرى لتلك الاوراق •

قالت الكونتيسة :

ـ هذا دأبه ، انه يُضيع دائما كل شيء •

دخلت « ناتاشا » ، وعلى وجهها أمارات الرقة والانفعال ،وجلست وهي تنظر الى بطرس دون ان تقول شيئا • ومنذ ان دخلت تهللت أسارير بطرس الذي كان مقطبا ، ونظر اليها مرات وهو يتابع بحثه عن الاوراق •

ـ سأذهب للبحث عنها • فلا بد أنني نسيتها في البيت • حقا ••

ـ لكنك ستتأخر عن موعد الغداء •

ـ آه ! نسيت ان الحوذيّ انصرف !

لكن سونيا التي ذهبت لتفتش عن الاوراق في البهو وجدتها في



@ketab_n @4_readers

قبعة بطرس حيث كان قد دسها بعناية تحت بطانتها • أراد بطرس أن يبدأ بقراءتها فقال له الكونت الذي بدا عليه أنه يتوقع متعة عظيمة مـن قراءتها :

ـ لا ، دع قراءتها الى ما بعد الغداء •

وأثناء الغداء الذي شربوا فيه الشمبانيا على شرف فارس «سان جورج » الجديد ، روى « شنشين » أنباء المدينة ، ومرض الاميرة الجيورجيـّة العجوز واختفاء « ميتيفييه » وقصة الماني جيء بـه الى « روستوبتشين » باعتبـاره جاسوسا ( هـذا ما رواه روستوبتشين نفسه ) ثم اطلق روستوبتشين سراحه قائلا للجمهور : انه ليس جاسوسا بل انه لا يعدو أن يكون عجوزا ألمانيا أحمق •

قال الكونت :

انهم جادون في القبض عليهم ، وطالما قلت للكونتيسة الا تتكلم الفرنسية • فليس هذا اوان الكلام بالفرنسية •

فقال شنشين :

ـ اتعلمون أن الامير « جوليـنسين » عيـّن مدرسا يدرسـّه اللغة الروسية •**أصبح الكلام بالفرنسية في الشوارع مَدْعاة للخطر •**

قال الكونت الشيخ لبطرس •

ـ وانت ، أيها الكونت بطرس كيريليتش[1] ، لابد لك من امتطاء جوادك عندما يؤخذ المتطوعون ؟

---

(١) بطرس كيريليتيش : صيغة مختصرة وشائعة بدلا من كيريلوفتش .



@ketab_n @4_readers

كان بطرس مستغرقا في صمته وتفكيره طوال الغداء • فلما سمع هذه الكلمات نظر الى الكونت ، وكأنه لم يفهم سؤاله ، وقال :

ــ نعم ، نعم ، الذهاب الى الحرب ، كلا ! سأكون محاربا هزيلا ! كل شيء ، على أية حال ، غريب ، شديد الغرابة ، ولست أفقه شيئا بعد مما يجري • لست أدري ، فأنا قليل الميل الى الامور العسكرية ، ولكن لا يستطيع أحد ان يضمن شيئا في مثل هذه الايام •

بعد الغداء استلقى الكونت على أريكة ، ورجا ، بلهجة رصينة « سونيا » المعروفة بأنها قارئة ممتازة ، أن تقرأ النداء •

أخذت سونيا تقرؤه بصوتها النحيف قراءة مسأنية :

« الى موسكو ، عاصمتنا الاولى •

لقد اجتاز العدو الحدود الروسية بقوات ضخمة • انه يأتي ليدمّر وطننا الغالي •• »

كان الكونت يصغي ، مغمض العينين ، متنهدا عند بعض المقاطع •

وكانت ناتاشا تجلس جلسة معتدلة وتلقي نظرة متفحصة على أبيها تارة وعلى بطرس تارة اخرى •

وكان بطرس يحسّ بنظرتها مستقرة عليه فيسعى ألا يلتفت اليها • وكانت الكونتيسة تهزّ رأسها استنكارا واستياء عند العبارات المفخّمة من البيان • ذلك انها رأت في كل كلمة من كلماتها تأكيدا لبعد المخاطر التي تهدد ابنها عن الانتهاء • أما « شنشين » فقد افترّ فمه عن بسمة ساخرة ، وكأنما كان يتهيأ للهزء بطريقة « سونيا » في القراءة ، عند أول فرصة تؤاتيه وبما سيقوله الكونت ، بل وبالنداء ذاته ، ان لم يجد ذريعة اخرى أدعى الى هزئه •



@ketab_n @4_readers

وبعد أن تلت « سونيا » المقاطع المتعلّقة بالاخطار التي تهدّد روسيا ، وبالآمال التي يبنيها الامبراطور على موسكو ، ولا سيما على نبلائها الامجاد ، قرأت الكلمات الاخيرة ، وفي صوتها ارتجاف مردّه قبل كل شيء الى طريقة اصغاء الحاضرين :

« لن نلبث طويلا حتى نكون في وسط شعبنا ، في هذه العاصمة أو في أماكن أخرى من الامبراطورية ، للتشاور ولقيادة جيوشنا ، سواء منها تلك التي تسدّ الطريق اليوم في وجه العدو أم تلك التي سوف تشكّل لسحقه أينما ظهر . فليعدْ عليه الشر الذي يبغي أن يلقينا فيه ولتمجّد اوروبا المعتقة من العبودية اسم روسيا » .

هتف الكونت وهو يفتح عينيه المبللتين بالدموع ويقطّع كلامه بنخيره ، وكأنما كان يستنشق شيئا من الملح :

ـ هذا كلام في غاية الروعة ! ما على الامبراطور الا أن يأمر ، ولسوف نضحّي بكل شيء غير آسفين عليه .

وثبت « ناتاشا » وسارعت الى والدها دون أن تتيح لشنشين القاء نكتته التي كان قد اعدّها حول وطنية الكونت :

ـ ما ألطفك يا والدي !

وألقت على بطرس نظرة جديدة تفيض بذلك الدلال العفوي الذي كان يعود اليها كلما عاد اليها نشاطها .

قال « شنشين » :

ـ انها لفتاة وطنية حقا !

فأجابته « ناتاشا » وقد قرصتها هذه الكلمة :



@ketab_n @4_readers

ـ لا ، ليس الامر كذلك ، .. انك تضحك دائما ، وأنا لم أكن أمـزح ...

واستأنف الكونت كلامه :

لامجال للمزاح ! ليأمر وسوف نهبّ جميعا ... فنحـن لسـنا بألمان خاملين ...

وتدخل بطرس قائلا :

ـ هل لاحظتم أنه قد قيل في البيان : « للتشاور » .

ـ الواقع انه مهما يكن الموضوع ....

في تلك اللحظة دنا « بيتيا » الذي لم ينتبه له أحد من ابيه وقال ، وقد احمرّ وجهه ، بصوت متقلب ، خشن حينا وحاد حينا اخر .

ـ والآن ، يا أبي ، أعلن جازما ، لك ولامي ايضا ، أشئتما أم أبيتما ، أعلن أنه ينبغي عليكما ان تدعاني اتطوع لانني لا أستطيع ... هذا ما أردت أن أقوله ..

رفعت الكونتيسة عينيها الى السماء مروّعة، وضمت يديهاوالتفتت الى زوجها مغضبة وقالت :

ـ هذه هي الطامة الكبرى !

لكن الكونت كبت انفعاله على الفور ، وقال :

ـ كفى ،كفى . يا لك من محارب ! دعك من هذه الحماقات : فعليك ان تتم دراستك .

ـ انها ليست بحماقات ، يا أبي . ان « فيديا اوبولنسكي » أصغر



@ketab_n @4_readers

مني وسيذهب أيضا ، وأنا على كل حال ، لا أستطيع العمل الآن ..
وهنا توقف « بيتيا » واحمرّ خجلا الى الحد الذي تلألأت فيه قطرات من العرق على وجهه ، لكنه مالبث أن أنهى جملته :

ـ الآن والوطن في خطر .

ـ كفى ، كفى ، ان تلك الا حماقات .

ـ لكنك انت نفسك قلت : اننا سنضحي بكل شيء .

فصرخ الكونت به وهو يلقي نظرة على زوجته التي كانت تحدق في ابنها وقد شحب وجهها :

ـ بيتيا ! قلت لك : اسكتْ .

ـ وأناأقول لك..وبطرس كيريلوفتش «سيقول لكذلكأيضا»...

ـ أكرر لك أن هذه حماقات ، يريد أن يصبح جنديا وهو مايزال يرضع ! كفى ، قلت لك : كفى !

واتجه الكونت الى الباب حاملا الاوراق ليقرأها ، من غ يرشك ، في مكتبه قبل استراحته ، وقال لبطرس :

ـ يا بطرس كيريلوفتش تعال ندخّن ...

كان بطرس مضطربا ، حائرا : ذلك ان عينـــي ناتاشـــا المتألقتين الملتمعتين ببريق غير مألوف ، مافتئتا تلتفتان اليه وتنطقان بما هو أعظم مـــن المودة .

ـ آن لي أن أعود الى البيت ..

قال الكونت بسذاجة وهو يشير الى ناتاشا .



@ketab_n @4_readers

ـ كيف تعود الى البيت ، لكنك كنت تنوي قضاء السهرة معنا ... لقد قلّت زياراتك في الآونة الاخيرة . وهذه ... انها لاتبتهج الا اذا كنـت هنا ...

فردّ بطرس بعجلة :

ـ نعم ، لكنني كنت قد نسيت .. لابد من العودة .. فالاعمال..

قال الكونت وهو يخرج :

ـ حسنا ! الى اللقاء .

وسألته « ناتاشا » وهي تنظر في عينيه نظرة تحدٍ :

ـ لمَ تذهب ؟ لمَ اضطربت ؟ لمَ ؟

أراد بطرس أن يقول : « لانني أحبك ! » لكنه لم يقلها ، واحمر حتى أصول شعره وخفض بصره وقال :

ـ لأن من الافضل ألا أتردد عليكم كثيرا .. لان .. لا ، كل مافي الامر أن لديّ أعمالا ..

وبدأت « ناتاشا » كلامها بحزم :

لماذا ؟ قل لي : لماذا ...

الا انها صمتت فجأة . ونظر كل منهما الى الآخر وقد استبد بهما الرعب والضيق . وحاول بطرس ان يبتسم لكنه لم يتمكن من ذلك ، عكست ابتسامته الالم ، فقبّل يدها ومضى دون أن يقول شيئا .

لقد قرر بطرس ألا يزور آل روستوف بعد الآن .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الحادي والعشرون

بعد أن لقي « بيتيا » ذلك الرفض القاطع انزوى في غرفته وبكى بكاء حارا . فلما جاء لتناول الشاي واجما ، متجهما ، محمرّ العينين ، تظاهر الجميع بأنهم لم يلاحظوا شيئا .

وصل الامبراطور في اليوم التالي . واستأذن الكثير من خدم آل « روستوف » في الذهاب لمشاهدته أثناء مروره . في هذا الصباح أنفق « بيتيا » وقتا طويلا على ارتداء ملابسه ومشط شعره وتسوية ياقته كما يفعل الكبار . كان ، أمام المرآة ، يقطّب حاجبيه ،ويحرّك يديه، ويهز كتفيه . وأخيرا لبس قبعته وخرج من باب الخدم وهو يسعى ألا يلمحه أحد . لقد صمّم على أن يذهب رأسا الى مقر الامبراطور وأن يشرح بدون مواربة لاحد الحجّاب ( كان يعلم أن الامبراطور محاط دائما بالحجّاب ) أنه بالرغم من صغر سنه ، يرغب في خدمة وطنه، وأن الشباب لايمكن أن يحول دون الاخلاص ، وأنه مستعد .. كان « بيتيا » قد اعدّ وهو يتهيأ للخروج ، كثيرا من الجمل البليغة التي سيقولها للحاجب .

كان واثقا من نجاح خطوته لدى الامبراطور وذلك بسبب صغر سنه بالذات ( كان يتخيّل دهشة الناس من جرّاء ذلك ) . الا انه كان يتكلّف مظهر الرجل الكهل بتسويته ياقته وبقبعته وتسريحه لشعره



@ketab_n @4_readers

وبمشيته المتئدة الوقورة • لكنه كان ، كلما سار تلهى بمرأى الجماهير المتوافدة الى الكرملين من كل صوب ، وتخلّى عن الاتزان والبطء الخليقين بالرجال الناضجين • وعندما اقترب من الكرملين كان لابد له من الاحتراز كيلا يرمي به الجمهور ، فباعد بين مرفقيه كمن عزم على التهديد • لكن الجمهور الذي كان يجهل النوايا الوطنية التي دفعته الى « الكرملين » ألجأه ، عند باب الثالوث[1] ، الى الجدار ، بالرغم مما وطّد العزم عليه ، وشدّه اليه شدا اضطره الى الوقوف حتى يفسح الطريق لصف من العربات يمر مخلّفا هديرا رددت القبة أصداءه • وكان بجنبه امرأة من الشعب وخادم وتاجران وجندي متقاعد • وبعد وقفة عند الباب ، أراد « بيتيا » أن يستأنف سيره قبل الآخرين ، ودون أن ينتظر مرور العربات جميعا ، فأخذ يستخدم مرفقيه بعنف ، لكن المرأة التي بدأ بها صرخت به غاضبة :

ـ ما لك ! مالك تدفع الناس أيها السيد الصغير ، ألا ترى الجميع ينتظرون ؟ هلا كففت عن محاولتك !

وقال الخادم :

ـ اذا كان الامر كذلك فكل واحد يستطيع أن يفعل فعلك •

واستخدم مرفقيه هو أيضا فحشر « بيتيا » في زاوية نتنة من زوايا الباب •

مسح « بيتيا » العرق الذي سال على وجهه ، وأصلح ياقته المرتخية التي عني بتسويتها في البيت على نحو ما يفعل الكبار •

---

(١) باب في برج غربي الكريملين ، يفضي الى الاربات •



@ketab_n @4_readers

أحسّ أن مظهره لم يعد لائقا ، وخشي ألا يُسمح له بالمثول بين يدي الامبراطور اذا شاهده الحجّاب في هذه الحالـة • وكان مـن المستحيل عليه ، في هذه الزحمة ، أن يسوّي زينته وأن يغيّر مكانه • ولمح جنرالا من معارف أسرته ، فأراد أن يطلب معونته ، لكنه رأى أن ذلك مخالف لكرامته ، كرامة الرجل • وعندما مرّت العربات جميعا انهال الحشد الى الامام وحمل معه « بيتيا » الى الساحة التي اكتظّت بالبشر • كان الناس في كل مكان : في الساحة والشرفات والسطوح • وما أن ألفى « بيتيا » نفسه واقفا هنا حتى سمع بوضوح قرع الاجراس الذي غمر الكرملين ، وضوضاء الجمهور الفرحة •

خفّت الزحمة في الساحة فترة من الزمن ، ثم اذا بالرؤوس تنحسر فجأة واذا بالناس يتدافعون الى الامام مرة أخرى ، واذا ببيتيا يُضغط بينهم ضغطا حتى ليتعذّر عليه التنفس ، واذا بالجميع يهتفون : « هورا هورا ! هور ! » وتطاول « بيتيا » على أطراف أصابعه ، دافعا هـذا ، قارصا ذاك من جيرانه ، لكنه لم يستطع أن يرى شيئا سوى الجمهور من حولـــه •

كانت الوجوه تعكس الرقة نفسها والحماسة نفسها • وكانـت بجنب « بيتيا » بائعة تنتحب وتردد وهي تكفكف باصابها الـدموع التي تنسكب من عينيها :

ــ يا أبانا ، يا ملاكنا ، ياأبانا !

والجموع تهتف من كل صوب : « هورا ! » •

وبعد لحظة من التوقف اندفعت الجماهير الى الامام مرة اخرى •



@ketab_n @4_readers

واندفع بيتيا معها دون أن يعلم ماذا يفعل ، شادا على اسنانه ، فائر العينين ، معملا مرفقيه ، وهو يصرخ : هورا ! وكأنما كان مستعدا ، في هذه اللحظة لان يقتل نفسه ويقتل الاخرين معه ، والى جانبه وجوه مسعورة أيضا تندفع مثله صارخة : « هورا ! » •

قال « بيتيا » في نفسه :

ــ واذن فهذا هو الامبراطور ! كلا ، ليس بوسعي أن اسلمه طلبي شخصيا ، سيكون ذلك في منتهى التهور ! » ومع ذلك فقد ظل يشق طريقه الى الامام كالمجنون ، وخلف ظهور الرجال امامه لمح كلمح البرق ممرا مفروشا بالجوخ الاحمر ، وسط رقعة فارغة ، لكن الجمهور في هذه اللحظة ارتد الى الوراء ( كانت الشرطة تدفع الذين جاوزوا الحد في اقترابهم من الموكب ، وكان الامبراطور متجها من قصره الى كنيسة الصعود ) ، وتلقى بيتيا ضربة شديدة في جنبه وأطبق الناس عليه اطباقا حتى غامت عيناه فجأة وفقد وعيه • وعندما ثاب الى نفسه رأى شماسا بجبته الزرقاء الرثة وبغديرة شعره الساقطة على قذاله التي وخطها الشيب ، يسنده بيد تحت ابطه ويحميه باليد الاخرى من ضغط الجمهور وهو يقول :

ــ لقد دهكتم الفتى ! مهلا ••• لقد دهكتموه ، لقد دهكتموه !

دخل الامبراطور الكنيسة ، وسكنت ضوضاء الجمهور ، ومضى الشماس ببيتيا ، وهو ممتقع اللون ، حصير النفس ، الى الموضع الذي نصب فيه « ملك المدافع »[1] • ورق له بعضهم ، ثم ما لبث أن التم

---

(١) ملك المدافع مدفع ضخم عيار ٨٩ سم ، صنعه في موسكو آندره تشيكوف سنة ١٥٨٦؛ لم يستعمل وكان موضوعا عند اسفل برج اجراس ايفان الاكبر في الكريملين .



@ketab_n @4_readers

الناس من حوله وراحوا يتدافعون • وبادر أقربهم منه الى حل أزرار سترته ، واجلاسه على قاعدة المدفع ، وسب الذين دهكوه •

وقال بعضهم :

ــ كيف يستطيع مثله أن يبقى حيث كان ، هل يتصور العقل هذا ! أيقتلون الناس ! أترى ، لقد غاض الدم من وجهه ، هذا الفتى اللطيف • سرعان ما استرد « بيتيا » قواه ، وعادت اليه نضارته وزال عنه ألمه • وبفضل هذا الحادث المزعج استطاع أن يحتل مكانا على المدفع حيث كان يأمل أن يشاهد منه الامبراطور عند عودته • لقد كف عن التفكير في تقديم طلبه • فحسبه سعادة أن يتمكن من رؤية الامبراطور !

أثناء القداس في كنيسة الصعود ، وهو قداس تُليت فيه صلاةالشكر بمناسبة وصول الامبراطور وعقْد الصلح مع الاتراك ، انقشع الجمهور، وشوهد بائعو الشراب والحلوى والقنبز الذي كان « بيتيا » مشغوفا به ، وتبودلت الاحاديث المبتذلة • كانت احدى البائعات تُري شالها الممزق وتزعم أنه كلفها غاليا ، وكانت بائعة أخرى تؤكد أن جميع الاقمشة الحريرية باهظة الثمن • وكان الشماس الذي أنقذ « بيتيا » يُعرّف أحد الموظفين بالشخصيات التي تَخدم القداس مع « غبطته » • وكرر مرات كلمة « حَبْريّ » التي لم يفهمها « بيتيا » • وكان هناك برجوازيان شابان يمازحان خادمتين تقضمان بندقا • كانت كل هذه الاحاديث ، ولاسيما الدعاباتَ بين الشابين والفتاتين ، وهي دعابات جديرة أن تجتذب مَنْ كان في سن بيتيا ، كان كل ذلك لا يَستأثر باهتمامه الان • لقد جثم على المدفع وهو موله القلب ، مشغول اللب بالامبراطور وبالحب الذي يحمله له • كان الاحساس بالالم وبالخوف



@ketab_n @4_readers

الذي انتابه في الزحمة يتلاقى وحماسته فيعزز فيه الشعور بمهابة هذه اللحظـــة .

وفجأة دوّت طلقات مدفع آتيـــة من الارصفة ( كانت الطلقات احتفالا بالصلح مع الاتراك ) فاندفع الجمهور اليها من فوره ليتفرج عليها . وأراد « بيتيا » أن يركض أيضـــا لكن الشماس الذي تولى حمايته منعه من ذلك . كان المدفع مايزال يدوي عندما خرج من الكنيسة ضباط وجنرالات وحجاب على عجل ، ثم خرج آخرون وهم أقـــل استعجالا ؛ وانحسرت الرؤوس مرة أخرى وارتد الى الساحة الذين جروا لرؤية المدافع . وأخيرا برز اربعة اشخاص ببزاتهم وأوسمتهم عند عتبة الكنيسة فهتف الجمهور مرة اخرى : « هورا ! هورا ! »

سأل « بيتيا » جيرانه بصوت مفعم بالدمع :

ـ أيهم هو ؟ ايهم ؟

فلم يجبه أحد . كان الناس من نشوتهم في شغل شاغل عنه . واختار « بيتيا » شخصا من الاشخاص الاربعة لم يميّزه جيدا من خلال دموع الفرح التي صعدت الى عينيه وركز عليه حماسته مع أنه لم يكن هو الامبراطور ، وأطلق صرخـــة « هورا » مجنونـــة ، وصمم أن يصبح جنديا ابتداء من الغد ، مهما يكن الثمن .

جرى الجمهور وراء الامبراطور ورافقه الى القصر ثم أخذ يتفرق. مضى الوقت وبيتيا لم يأكل شيئا ، والعرق يتصبب من جبينه ، لكنه أبى أن ينصرف ولبث أمام القصر مع الجمهور الذي قلت كثافته وان ظل وفير العدد ، في حين كان الامبراطور يتناول طعامه ، لبث محدّقا في النوافذ ، منتظرا حدوث شيء ما ، حاسدا اولئك المدعوين الى المائدة



@ketab_n @4_readers

الامبراطورية من اصحاب المقامات العالية حسده للخدم الذين كان يراهم من النوافذ •

قال « فالوييف [١] » أثناء الطعام ، وهو يلقي نظرة الى الخارج :

ـ مازال الجمهور يأمل أن يرى جلالتك •

ما ان فرغ الامبراطور من الطعام حتى نهض وهو ينهي قطعة من البسكويت ومضى الى الشرفة • فاندفع اليها الجمهور الذي كان « بيتيا » من عداده •

ـ ياملاكنا ، يا أبانا ! هورا ! يا أبانا !

هكذا كان يصرخ الجمهور و « بيتيا » فيه • وبكت النساء مرة أخرى من الفرح كما بكى بعض الرجال الذين يغلب عليهم الانفعال ، ومن بينهم « بيتيا » • وتنكسر قطعة كبيرة من البسكويت في يد الامبراطور وتسقط من الشرفة الى الارض • فيهرع اليها حوذي كان أقرب الناس منها ويلتقطها • ويرتمي الناس عليه • ويشاهد الامبراطور ذلك فيحمل صحنا من البسكويت ويلقي به من أعلى الشرفة • وتحتقن عينا « بيتيا » بالدم ويستثيره الخطر المحدق فينقض على البسكويت• لم يكن يعلم لماذا ، لكنه كان بحاجة الى قطعة من هذه القطع الواقعة من يد القيصر ، وقد آلى على نفسه ألا يتراجع • ألقى « بيتيا » بنفسه الى الامام فرمى الى الارض بامرأة عجوز كانت تحاول التقاط قطعة منها • لكن العجوز استمرت على محاولتها مع أنها مطروحة ارضا •

---

(١) فالوييف : ( ١٧٤٣-١٨١٤ ) عالم اثري ورئيس مباني الكريملين وحاجب امبراطودي •



@ketab_n @4_readers

( كانت تحاول عبثا التقاط قطعة ) • ودفع « بيتيا » ذراعها بضربة من ركبته ، واستولى على قطعة البسكويت وصرخ بصوت أجش ، وكأنما خاف أن يفوته الوقت : « هورا » !

انصرف الامبراطور وتفرق الناس جميعا هذه المرة •

وانبعثت من كل صوب أصوات تقول بفرح :

ــ لقد نصحت بوجوب الانتظار ، وكنتُ على حق •

بالرغم من السعادة التي غمرت « بيتيا » فقد أحس بالحزن لعودته الى البيت ولعلمه أن فرح النهار انقضى • ولم يمض ، من الكريملين ، الى البيت رأسا ، لكنه مر ببيت صديقه « اوبولنسكي » الذي كان في الخامسة عشرة ، وكان ايضا مزمعا على الانخراط في الجيش• وعندما وصل الى البيت أعلن لاهله بحزم انه انْ لم يَدَعوه وشأنه فسوف يهرب • وفي اليوم التالي ذهب الكونت « ايليا آندرييتش » ، مع أنه لم يسلّم بمشيئة ابنه كل التسليم ، ليستعلم عن امكان تعيينه في مكان ما دون أن يعرضه للخطر كثيرا •



@ketab_n @4_readers

## الفصل الثاني والعشرون

في صباح اليوم التالي ، الخامس عشر من تموز ، كان يقف أمام قصر « سلوبودسكي » عدد لا يحصى من العربات .

كانت القاعات غاصة بالناس . في القاعة الاولى اجتمع النبلاء ببزاتهم الرسمية ، وفي الثانية اجتمع التجار الملتحون بقفطاناتهم الزرقاء وعليها أوسمتهم . كانت قاعة النبلاء تعج بالحركة وبالضوضاء . وعلى طاولة كبيرة ، تحت صورة الامبراطور ، جلس أعظم الشخصيات شأنا على مقاعد عالية المساند ، لكن الباقين كانوا يروحون ويجيئون في القاعة .

كان جميع النبلاء ، وهم أنفسهم الذين كان بطرس يراهم كل يوم في النادي تارة وفي منازلهم تارة أخرى ، يرتدون اللباس الرسمي من عهد كاترين أو من عهد بول ، أو يرتدون البزة الجديدة من عهد الكسندر ، أو يرتدون بزة النبلاء العادية[1] . كانت هذه الوحدة في اللباس الرسمي تضفي طابعا غريبا عجيبا على هذه الوجوه الطاعنة في السن أو الشابة ، هذه الوجوه المتنوعة والمألوفة . وكان الشيوخ ، بخاصة ، مثارا للدهشة : كانوا قصيري النظر ، دردا ، صلعا ، منتفخين بالشحم الاصفر أو متغضنين مهزولين ، وكانوا يظلون جالسين في أماكنهم ،

(1) كان معظم النبلاء من الملاك ، الضباط المتقاعدين يلبسون بزاتهم القديمة ، اما الذين لم يخدموا في الجيش فقد كان يحق لهم أن يلبسوا لباسا خاصا في المناسبات الرسمية.



@ketab_n @4_readers

فاذا أرادوا التمشي أو التحدث توخوا رفقة من هم أصغر منهم سنا • كانت الوجوه هنا ، كما كانت في الساحة التي وجد عليها « بيتيا » ، مذهلة بما تعبر عنه من هموم متناقضة : فمن خلال ذلك الانتظار المشترك لامر جلل برزت الهموم اليومية الصغيرة ، كلعبة الباصرة ، والطباخ « بيتروشكا » ، وصحة « زينايدا دميتريفنا » الخ ••• كان بطرس في القاعة ، وقد حزم نفسه منذ الصباح الباكر ببزة النبلاء التي ضاقت عليه أشد الضيق • كان منفعلا : فهذا الاجتماع غير العادي للنبلاء وللتجار ولمختلف الفئات والطبقات أيقظ فيه فيضا من الافكار أهملت منذ زمن بعيد ، لكنها ظلت راسخة في فكره ، وهي تدور حول « العقد الاجتماعي » والثورة الفرنسية • وكانت كلمات « البيان » التي استوقفته والتي تقول ان الامبراطور قادم الى العاصمة ليشاور شعبه ، تعزز شعوره ذاك • واذ كان يقدر أن أمرا عظيما يوشك أن يقع في هذا الاتجاه ، أمرا انتظره منذ زمن بعيد ، فانه كان يروح ويجيء ويراقب ويصيخ السمع للاحاديث ، فلا يجد حوله من صدى للافكار التي تشغله •

قريء بيان الامبراطور فأثار الحماسة ، ثم تكونت الجماعات مرة أخرى واستؤنفت الاحاديث • فسمع بطرس ، فضلا عن الموضوعات المعتادة ، نقاشا حول المكان الذي يجب أن يحتله مارشالات طبقة النبلاء عند دخول الامبراطور ، وحول الموعد الذي ينبغي أن تقام فيه الحفلة الراقصة على شرفه ، وحول أنسب الطرق للاجتماع : باسم المقاطعة أم باسم الاقليم الخ • ، لكن ما ان تتطرق الاحاديث الى الحرب والى



@ketab_n @4_readers

الغرض الذي من أجلـه اجتمع هؤلاء الاشراف حتى تغدو مترددة ، غامضة . كان الحاضرون يؤثرون الاصغاء على الكلام .

في احدى القاعات شاهد بطرس رجلا وسيم الطلعة ، طاعنا في السن، رجولي المظهر ، في بزة ضابط بحري متقاعد ، يتحدث في جماعة من الحاضرين ، فدنا منه وأصاخ السمع . وكان الكونت «ايليا آندرئتش» بقفطان حاكم المقاطعة القديم يتمشى باشا وسط الجمهور الذي يعرف أفراده جميعا ، فدنا هو أيضا وأخذ يصغي ، وعلى وجهه ابتسامة رقيقة ، كما كان يصغي دائما ، هازا رأسه للموافقة على كلام الخطيب . كان البحار يخوض في أحاديث بالغة الجرأة ؛ وكان ذلك واضحا مما تنطق به وجوه مستمعيه ومن أن بعضهم ، وكان بطرس يعلم أن هؤلاء أشد الناس انقيادا وهدوءا ، انصرفوا مستنكرين أو تصدوا له مناقضين . وشق بطرس طريقه الى قلب الجماعة وتبين أن المتحدث ليبيرالي ولكن في اتجاه آخر غير اتجاهه . كان البحار يتكلم بصوت جهير ، رخيم كأصوات النبلاء ، يلثغ لثغا مليحا ويختطف الأحرف الساكنة ، صوت رجل ماجن تعود اصدار الاوامر :

ـ وماذا يهمنا ان عرض نبلاء سمولنسك المتطوعين على الامبراطور ؟ أمن حقهم أن يسنوا لنا القوانين ؟ واذا رأى نبلاء مقاطعـة موسكو الجزيلو الاحترام أن من الضروري ابداء اخلاصهم للامبراطور فانهم يستطيعون ذلك بوسائل أخرى . وهل نسينا متطوعي ١٨٠٧ ! كانت سبيلا الى اثراء أبناء الكهنة[1] والنشالين .

---

(١) أبناء الكهنة : أي صغار الموظفين ومعظمهم من أبناء الكهنة .



@ketab_n @4_readers

ابتسم الكونت ايليا آندرئتش ابتسامة عذبة وهز رأسه موافقا .

ـ هل أفادت البلاد من المتطوعين ؟ كلا ! لقد خربوا أراضينا . التجنيد أفضل من ذلك ... والا فلن يعودوا الينا جنودا أو فلاحين بل رجالا متهتكين . النبلاء مستعدون لبذل دمهم ؛ سوف نمضي الى القتال حتى آخر رجل وسنأخذ معنا مجندين جددا .

وأضاف الخطيب بحماسة :

ـ ما على الامبراطور الا أن يدعونا ولسوف نموت جميعا من أجله.

ابتلع « ايليا آندرئتش » ريقه من السرور ، ولكز بطرس بمرفقه ، لكن بطرس كان يرغب في الكلام أيضا . تقدم بطرس في حركة نزقة ، وهو لا يعلم بعد ما سيقوله . ولم يكد يفتح فمه حتى أوقفه شيخ من مجلس الشيوخ أدرد تام الدرد ، ذكي الملامح ، غاضب الوجه ، كان يقف على مقربة من الخطيب ، وقال بصوت خفيض ، متميز ، وكأنه صوت من تعود ادارة المناقشات :

ـ أقدر ، يا سيدي ، أننا لم ندع الى هذا المكان لنناقش أيهما أجدى على البلاد في الظروف الراهنة : التجنيد أم التطوع . وانما دعينا استجابة للنداء الذي شرفنا به جلالة الامبراطور . أما تقرير ما هو أجدى ، التجنيد أم التطوع فنحن ندعه للسلطة العليا ... وجد بطرس فجأة مخرجا لتحفزه . فانتابه الغضب على هذا الشيخ الذي يريد أن يدخل على مداولات النبلاء هذه النظرات الشرعية ، الضيقة . تقدم الى الامام وقاطعه . لم يكن يعلم ما سيقول ، لكنه أخذ يتكلم بحدة وبلغة روسية كتبية تتخللها عبارات فرنسية .



@ketab_n @4_readers

بدأ قائلا :

ــ معذرة ، يا صاحب السعادة ، ( كان يعرف جيدا هذا الشيخ الا أنه رأى من الضروري أن يخاطبه هنا باللهجة الرسمية ) ، مع أنني لا أوافق السيد ( تردد بطرس ، كان يريد أن يقول : السيد الجزيل الاحترام الذي سبقني الى ابداء رأيه ) السيد ... الذي ليس لي شرف معرفته ، الا أنني أقدر أن الطبقة النبيلة لم تدع فقط لاظهار تعاطفها وحماستها ، بل وأيضا لبحث التدابير التي يمكن اتخاذها لنجدة الوطن .

وتابع كلامه وقد ازداد حماسة :

ــ أقدر أن الامبراطور نفسه سيمتعض ان لم يجد فينا سوى ملاكين للفلاحين الذين نقدمهم له ... للجنود أو للحم المدفع ... ان لم يجد فينا ... مجلسا استشاريا ...

ابتعد عن الجماعة أشخاص كثيرون وهم يرون ابتسامة الشيخ المزدرية ويسمعون كلام بطرس الذي لا يتحرج من شيء ؛ « ايليا آندرئتش » وحده ارتاح الى كلامه ، كما ارتاح الى كلام البحار ، والى كلام الشيخ ، وكما يرتاح ، على العموم ، الى كل من يسمعه .

وتابع بطرس :

ــ أقدر أنه ينبغي لنا ، قبل مناقشة هذه المسائل ، أن نطلب الى الامبراطور ، أن نرجو جلالته بكل احترام ، اطلاعنا على عدد قواتنا ، ووضع جيوشنا ، وعندئذ ...

لكن بطرس لم يتمكن من اتمام كلامه ، لانه هوجم من جهات ثلاث معا .



@ketab_n @4_readers

وكان أشد خصومه تحاملا عليه هاويا من هواة « الباصرة » يعرفه بطرس منذ زمن بعيد ويعرف اخلاصه له ، هو « ستيبان ستيبانوفتش أدراكسين »[1] • كان يرتدي بزته الرسمية ، ولهذا السبب أو لغيره رآه بطرس رجلا آخر ، مختلفا كل الاختلاف • صرخ بـه « ستيبان ستيبانوفتش » ، وقد تقلصت قسمات وجهه من غضب الشيخوخة :

ــ دعني أقل لك ، قبل كل شيء ، أنه لا حق لنا في طلب ذلك من الامبراطور ، وحتى لو كان للطبقة النبيلة الروسية هـذا الحق فليس بوسع الامبراطور أن يجيبنا • ذلك أن حركات الجيوش تابعة لحركات جيوش العدو ، وعددها ينقص ويزيد •••

وارتفع صوت آخر مقاطعا « أدراكسين » ، صوت رجل ربعة ، في الاربعين من عمره ، كان بطرس يلقاه عند الفجر قديما ، وكان يعلم أنه غشاش في اللعب ، لقد تبدل هو أيضا شخصا آخر من جراء بزته • أقبل على بطرس قائلا له :

ــ على كل حال ، ليس الوقت وقت نقاش ، وانما يجب العمل : فالحرب على أرضنا ، والعدو يتقـدم ليدمر روسيا ، وليدنس قبور أجدادنا ، وليقتاد نساءنا وأطفالنا •

ثم ضرب صدره بيده ، وصرخ وقد جحظت عيناه المحتقنتان بالدم : سوف نهب جميعا ، وسنمضي جميعا الى آخر رجل فينا ، من أجـل أبينا القيصر •

---

(١) شخصية خيالية جعل المؤلف اسمها مشابها لاسم ابراكسين •



@ketab_n @4_readers

وانبعث من الجمهور بعض الاصوات المؤيدة •

ـ نحن روس مستعدون لبذل الدم في سبيل الدفاع عن العقيدة والعرش والوطن • أما الترهات فلندعهـا جانبا اذا كنا أبناء للوطن جديرين به • ولسوف نري أوروبا كيف تهب روسيا من أجل الذود عن روسيا •

أراد بطرس أن يرد عليه ، لكنه لم يستطع أن يفوه بكلمة • لقد أحس أن كلماته ستكون ، بغض النظر عن الفكرة التي تعبر عنها ، أدنى تأثيرا من كلمات هذا النبيل المتحمس •

كان « آندرئتش » خلف الجماعة يؤيد الخطيب ؛ وكان بعضهم يلتفت اليه في نهاية الجمل ويقول بغطرسة :

ـ أصبت ، أصبت ! رائع !

أراد بطرس أن يقول : انه مستعد للتضحيات بالمال وبالرجال ، مستعد للتضحية بنفسه ، لكن علاج موقف ما يقتضينا معرفته ؛ ولم يقل شيئا من ذلك • كان الاكثرون يتحدثون ويصرخون معا الى الحد الذي عجز معه « ايليا آندرئتش » عن تأييد الجميع برأسه • وكان الجمع يعظم ، ثم يتفرق ، ثم يلتئم شمله ، ثم يتجه كله في آخر الامر الى المائدة الكبرى في القاعة الرئيسية ، وهو يعج بأصوات المتحدثين والصارخين • لم يكن بطرس عاجزا عن القـاء كلمة فحسب ، بل ان الناس قاطعوه بفظاظة وصدوه بغلظة وأعرضوا عنه كما يعرضون عن العدو المشترك • لا لأنهم استاؤوا من كلامه ، فقد نسوه بعد أن تتابع المتكلمون بعده ، بل لان هياج الجمهور بحاجة الى غرض محسوس يجسد حبه وكرهه •



@ketab_n @4_readers

وكان بطرس قد غدا غرضا لكرهه . لقد تكلم خطباء عديدون بعد النبيل المتحمس ، تكلموا على وتيرة واحدة ، فأجاد الكثير منهم وكان كلامهم بليغا أصيلا . وقال مدير « الرسول الروسي » ، « غلنكا »[1] (الذي عرفه الجمهور وهتف له : « الكاتب ، الكاتب » ) . انه يجب أن ندفع الجحيم بالجحيم ، وانه رأى طفلا يبتسم على ضوء البروق وقصف الرعود ، لكننا لن نكون ذلك الطفل .

فردد الناس في الصفوف الخلفية مستحسنين :

ــ نعم ، نعم ، على قصف الرعود .

اقترب الجمهور من المائدة الكبرى التي جلس حولها ذوو المراتب العليا ، ببزاتهم الموشحة بالاوسمة ، وهم من أبناء السبعين شيب ، صلع ، يعرفهم بطرس لانه رآهم في بيوتهم بين مهرجيهم أو في النادي يلعبون بالباصرة . اقترب الجمهور من المائدة دون أن يكف عن لغوه . وكان الخطباء يتكلمون واحدا اثر واحد أو اثنين معاً في بعض الاحيان ؛ وقد لزهم الجمهور الضاغط الى مساند الكراسي . وكان الذين يقفون في الخلف يسجلون ما لم يقله الخطيب ليبادروا الى قوله بدورهم . وآخرون يعصرون رؤوسهم ، في هذه الحرارة وهذه الزحمة ، بحثا عن فكرة جديدة يسرعون الى اذاعتها . أما ذوو المراتب الذين يعرفهم بطرس فكانوا يلقون بنظراتهم الى هذا تارة ، والى ذاك تارة أخرى ؛

---

(1) « غلنكا » كاتب اسس في سنة ١٨٠٨ مجلة الرسول الروسي ذات النزعة القومية التي لقيت نجاحا كبيرا واستمرت حتى سنة ١٨٢٤ . ثم استؤنفت في سنة ١٨٥٨ عندما انشأ ميشيل كاتوف مجلة بهذا الاسم وبنفس الاتجاه .



@ketab_n @4_readers

ووجوه معظمهم لا تعبر الا عن الشعور بالحرارة • على أن بطرس أحس بالانفعال ، واجتاحته تلك الرغبة العامة في اظهار أن لا شيء يسكنه الوقوف في وجهنا . تلك الرغبة التي كانت تنعكس في رنين الاصوات وتعبير الوجوه أكثر مما تنعكس في معنى الكلام • لم يكن ينكر أفكاره لكنه أحس احساما مبهما بذنبه وأراد أن يبرىء نفسه . فصرخ وهو يحاول أن يغطي بصوته على الاصوات الاخرى :

ـ كل ما قلته هو أن بذل التضحيات سيكون أيسر علينا اذا عرفنا ما نحتاج اليه •

التفت اليه شيخ قصير ملاصق له ، لكنه ما لبث أن شغل عنه بصرخات التعجب التي علت في الجانب الآخر من المائدة •

صرخ أحدهم :

ـ نعم ، ستهجر موسكو ! ستكون هي الفادية !

وصرخ آخر :

ـ انه عدو الجنس البشري ! دعوني أتكلم ••• لقد سحقتموني يا سادة !•••



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الثالث والعشرون

في هذه اللحظة ، دخل الكونت « روستوبتشين » مرتديا بزة الجنرال ، متقلدا الوشاح الاكبر ، ناتيء الذقن ، حاد النظرات ، حاثا خطاه حتى وصل الى وسط الجمهور الذي أفسح له المكان فقال :

ـ سيصل بعد قليل جلالة الامبراطور ، وأنا آت من القصر . وأظن أنه لا مجال للنقاش كثيرا ، في الوضع الذي نحن فيه . لقد شرفنا الامبراطور بأن جمعنا كما جمع التجار . سوف تسيل الملايين من هناك ( وأشار الى قاعة التجار ) ، أما نحن فدورنا يقوم على تقديم المتطوعين وعلى عدم مراعاة أنفسنا ... هذا أقل ما نستطيع فعله !

تشاور أصحاب الرتب الجالسون حول المائدة فيما بينهم . وجرى ذلك كله بصوت خافت أشد الخفوت . وقد بدا محزنا سماع أصوات الشيوخ هذه وهي تقول الواحد تلو الآخر ، بعد تلك الضوضاء ، : « أنا موافق » أو تقول بصيغة أخرى : « وأنا أيضا من الرأي ذاته » ، الخ ...

تلقى المقرر أمرا بتحرير قرار نبلاء موسكو ، ومداره أن الموسكوفيين يتبرعون ، على غرار أشراف « سمولنسك » ، بعشرة رجال في الالف[1] مع التجهيز الكامل . ونهض الاعيان وكأنما استراحوا

---

(١) اي عشرة مجندين لكل الف قن .



@ketab_n @4_readers

من عنائهم ، ودفعوا مقاعدهم بصخب ، وانتشروا في القاعــة لتحريك أرجلهم ، ممسكين بالبعض من أذرعهم نيشرعوا في الحديث .

وفجأة صرخ بعضهم في القاعـات : الامبراطور ! الامبراطور !.
فهرع الجميع الى المدخل .

سار الامبراطور الى القاعة على طول ممر عريض يحيط به الاشراف من جانبيه . وكانت الوجوه جميعا تعكس ضربا من الفضول المصطبغ بالاجلال والتخوف . كان بطرس بعيدا ولم يتمكن من سماع خطبــة الامبراطور . وكل ما فهمه أنه كان يتحدث عن الخطر المحدق بالوطن وعن الآمال التي يبنيها على نبلاء موسكو . ورد عليه صوت منهيا اليه القرار الذي اتخذ قبل حين .

فقال الامبراطور بصوت متهدج : أيها السـادة !

فسرت في الجمهور رعشة ، ثم سكن كل شيء وسمع بطرس بجلاء صوت الامبراطور ، صوتا انسانيا عذبا منفعلا يقول :

ــ لم أشك قط في نخوة الطبقة الروسية النبيلة . لكنها فاقت توقعي ، هذا اليوم . أشكركم باسم الوطن . أيها السادة ، لنعمل ، فالوقت ثمين ... »

صمت الامبراطور فأقبل الجمهور عليه وعلت ، من كل جانب ، الهتافات الحماسية .

وارتفع من الصفوف الخلفية صوت « ايليا آندرئتش » ، وهو ينتحب ، هــذا مع انه لم يسمع شيئا ، وان كان يفهم كل شيء على طريقته :



@ketab_n @4_readers

ــ نعم ، أثمن شيء ... كلام القيصر .

ومن قاعة النبلاء انتقل الامبراطور الى قاعة التجار . ولبث فيها ما يقرب من عشر دقائق . ورآه بطرس يخرج منها بعد عشر دقائق مختلطا بالآخرين ، ودموع الحنان في عينيه . وقد علم فيما بعد أنه لم يكد يبدأ خطابه في التجار حتى انبجست الدموع من عينيه وأنهاه بصوت متهدج . كان يصحبه تاجران ، عندما رآه بطرس . وعرف بطرس أحدهما ، وهو ملتزم كبير للدولة . أما الآخر ذو الوجه المهزول الشاحب واللحية الدقيقة فكان العمدة . كان كلاهما يبكي : اغرورقت عينا المهزول بالدمع ، وراح الآخر ينتحب كالطفل وهو لا يفتأ يردد :

ــ خذ حياتنا وأموالنا ، يا صاحب الجلالة .

لم يشعر بطرس في هذه اللحظة الا بالرغبة في أن يظهر أن لا شيء يقف في طريقه وأنه مستعد للتضحية بكل شيء . ولام نفسه على خطابه ذي الميول الدستورية : فراح يبحث عن الفرصة لاصلاح ذلك الخطأ . وعندما علم أن الكونت « مامونوف » قدم فوجا ، أعلن ، من فوره ، للكونت « روستوبتشين » أنه يقدم ألف رجل ويتكفل بنفقتهم .

لم يستطع « روستوف » العجوز أن يحبس دموعه وهو يقص على امرأته ما جرى ، وما لبث أن أذعن لالحاح « بيتيا » ، وذهب بنفسه ليسجله في عداد المتطوعين .

---

(١) الكونت ماتيوديمتري مامونوف ( ١٧٨٨ ــ ١٨٦٣ ) الابن الوحيد لاحدى محظيات كاترين الثانية ، كان عظيم الثروة . وكان نائبا في مجلس الشيوخ ، تطوع سنة ١٨١٢ ورفع الى رتبة جنرال وعين قائدا لفوج من افواج الخيالة جهزه على نفقته .



@ketab_n @4_readers

انصرف الامبراطور ، في اليوم التالي . وخلع جميع النبلاء المدعوين بزاتهم الرسمية ، وعادوا الى ما كانوا عليه في بيوتهم وفي النوادي ، وأصدروا أوامرهم الى وكلائهم بصدد المتطوعين ، وهم يتأففون ، وقد أخذتهم الدهشة من كل ما فعلوه .



@ketab_n @4_readers

# الجزء الثاني



@ketab_n
@4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الأول

شن نابليون الحرب على روسيا لانه لم يكن بوسعه ألا يذهب الى « درسدن » ، وألا يثمل بخمرة المجد ، وألا يرتدي البزة البولونية ، وألا ينقاد لاغراء صبيحة من حزيران ، ولانه لم يستطع أن يكبح جماح غضبه بحضور « كوراجين » ، ثم بحضور « بالاشيف » .

وكان الاسكندر يرفض جميع أنواع المفاوضات لانه اعتبر نفسه قد أهين شخصيا . وكان « باركلي دي تولي » يسعى جهده في قيادة الجيش أحسن قيادة ليؤدي واجبه وليبلغ شهرة القائد العظيم . واندفع « روستوف » الى مهاجمة الفرنسيين لانه لم يستطع أن يقاوم شهوة الجري في الارض المكشوفة . وهكذا فعل من لا يحصى عددهم من الافراد الذين شاركوا في هذه الحرب ، على حسب استعداداتهم الشخصية ، وعاداتهم ، وشروط حياتهم ، ومآربهم . كانوا يخافون ، ويختالون ، ويفرحون ، ويسخطون ، ويتفكرون ، وهم يظنون أنهم يعلمون ما يفعلون وأنهم يفعلونه لانفسهم ، في حين أنهم كانوا أدوات غير واعية في يد التاريخ ، وأنهم كانوا ينجزون عملا حجب عنهم معناه ، وأدركنا نحن هذا المعنى الآن . ذلك هو المصير الثابت الدائم لجميع الرجال الفاعلين . وكلما عظم شأن هؤلاء الرجال في السلم البشري تناقصت حريتهم .



@ketab_n @4_readers

ان ممثلي أحداث ١٨١٢ تركوا خشبة المسرح منذ زمن بعيد ، واختفت مصالحهم الشخصية من غير أن تخلّف وراءها أثرا ، وبقيت ماثلة أمامنا النتائج التاريخية وحدها لتلك الحقبة من الزمن .

ولنسلّم بأنه كان ينبغي لهؤلاء الرجال من اوروبا أن يوغلوا في قلب روسيا ، بإمرة نابليون ، وأن يهلكوا فيها فان سلوك المقاتلين في هذه الحرب ، وهو سلوك طائش ، متناقض ، وحشي ، يغدو مفهوما لدينا .

ان العناية الالهية أكرهت هؤلاء الرجال جميعا على أن يسهموا وهم يلاحقون الاهداف الشخصية ، في خلق نتيجة واحدة ، عظيمة ، لم تخطر ببال أحد منهم .(لا نابليون، ولا الاسكندر، ولا أي من" من المحاربين) .

نحن نرى بوضوح ، اليوم ، ما الذي أدى في سنة ١٨١٢ الى دمار الجيش الفرنسي . فلن يجادل أحد" في أن السبب كان ، من جهة أولى ، الدخول الشديد التأخر ، الى قلب روسيا دون استعداد لمعركة الشتاء ، ومن جهة ثانية ، الطابع الذي اكتسته الحربُ من جزاء حرق المدن وما أثار ذلك لدى الشعب الروسي من حقد على العدو . لكن أحدا لم يكن يتوقع آنذاك أن هذا السبب وحده ( وهو ما يبدو بديهيا اليوم ) كفيل بتدمير جيش من ثماني مائة الف رجل ، خير جيش في العالم يقوده أعظمُ قائد في العالم ، في وجه جيش أضعف منه مرتين ، لا خبرة له ، يقوده قادة" لا خبرة لهم أيضا ؛ ولم يقتصر الامر على أن أحدا لم يكن يتوقع ذلك ، بل ان كل شيء كان يجري ، في الجانب الروسي ، للحيلولة دون ما يمكنه وحده انقاذ روسيا ، وكانت كل الجهود ، في الجانب الفرنسي ، تتجه ، بالرغم من تجربة نابليون وعبقريته العسكرية المزعومة ، الى بلوغ



@ketab_n @4_readers

موسكو في نهاية الصيف ، أي الى الاقدام بالضبط على ما سوف يؤدي الى دمار الفرنسيين .

يطيب للمؤلفين الفرنسين ، في مؤلفاتهم التاريخية عن ١٨١٢ ، أن يبرهنوا على أن نابليون أحس بخطر امتداد خطوطه ، وأنه كان يسعى الى القتال ، وان قادته أشاروا عليه بالتوقف عند « سمولنسك » . وهم يحتجون بحجج أخرى مشابهة ترمي الى اثبات ذلك الاحساس بالخطر ؛ بينما يطيب للمؤلفين الروس أن يتحدثوا عن وجود خطة حربية بارعة ، منذ بداية الحرب ، قوامها اجتذاب الفرنسيين الى قلب روسيا ، وينسبون هذه الخطة الى « بفويل » تارة والى أحد الفرنسيين تارة أخرى ، وينسبها بعضهم الى « تول » ، وربما نسبها بعضهم الى الامبراطور الاسكندر نفسه ، مستندين في ذلك الى المذكرات والمشاريع والرسائل التي تتضمن ، في الواقع ، اشارات الى تلك الخطة الحربية . لكن هذه الاشارات الى توقع ما قد حدث ، سواء أكان ذلك من الجانب الروسي أم من الجانب الفرنسي ، لا يعتد بها اليوم الا لان الاحداث برهنت على صحتها . ولو أن الحدث لم يحدث لنسيت هذه الاشارات كما نسيت ، اليوم ، آلاف الاشارات والفرضيات الرائجة آنذاك والتي اتضح بطلانها ( وأصبحت من ثم نسياً منسيا ) . ان نتيجة الحدث الجاري تفسح المجال لكثير من الفرضيات حتى اننا لا نعدم أناساً يؤكدون لنا في كل مرة، ومهما تكن النتيجة: « لقد تنبأنا بهذا من قبل »، ناسين تماماً أن بين هذه الفرضيات التي يتقدمون بها والتي لا حصر لها، عدداً يناقضها تماماً .

ان شعور نابليون بالخطر الناجم عن امتداد خط القتال . ثم خطة



@ketab_n @4_readers

أستدراج العدو الى قلب روسيا ، من الجانب الروسي ، فرضيتان تنتميان ، من غير شك ، الى تلك الفرضيات الآنفة الذكر ، ولابد للمؤرخين من أن يحرّفوا الاحداث اذا أرادوا أن يعزوا هذه الاعتبارات لنابليون وقادته ، وهذه الخطط للقادة العسكريين الروس . ذلك أن جميع الاحداث تناقض هذه الفرضيات بجلاء . فالروس لم يمتنعوا ، طوال الحرب ، عن اجتذاب الفرنسيين الى داخل البلاد فحسب ، بل انهم بذلوا وسعهم لايقافهم منذ دخولهم ؛ ونابليون لم يكن مطمئناً الى امتداد خط القتال فحسب ، بل انه كان يبتهج بكل خطوة يخطوها الى الامام كما يبتهج بالنصر ، ويسعى الى القتال بتراخٍ ، على عكس حملاته السابقة تماماً .

لقد شُطرت جيوشُنا منذ بداية الحرب ، وكان جمعُها هو الهدف الوحيد الذي نرمي اليه ، على حين أن التراجع واستدراج العدو الى أعماق البلاد لا يفيدُهما اتصالُ الجيوش في شيء . وكان الامبراطور في الجيش ليشجعه على الدفاع عن كل شبر من الارض الروسية ، لا ليشجعه على التراجع . ويُنظّم معسكر « دريسا » الكبير وفق خطة « بفويل » لكي لا يفكر أحدٌ بالتقهقر الى ما وراءه . ويوجه الامبراطور اللوم الى القادة على كل خطوة يخطونها الى الوراء . ولم يدر بخلده امكان احراق موسكو بل ولا امكان التخلي عن « سمولنسك » ؛ وعندما تتصل الجيوش بعضها ببعض يسخط لرؤية « سمولنسك » تسقط في أيدي العدو وتُحرق من غير أن تدور تحت جدرانها معركةٌ شاملة .

كذلك كان يفكر الامبراطور ، لكن القادة العسكريين الروس



@ketab_n @4_readers

والشعب الروسي بأسره كانوا أشد سخطاً على فكرة تقهقر جيوشنا الى داخل البلاد .

توغل نابليون الى داخل البلاد ، بعد أن شطر جيوشنا ، وفوّت فرصاً كثيرة للقتال . وفي شهر آب بلغ « سمولنسك » ولم يكن له من همّ سوى التقدم الى الامام ، مع أن هذا الزحف كان ، كما نرى اليوم ، وبالاً عليه . وتثبتُ الوقائع بجلاء أن نابليون لم يكن يتوقع الخطر من زحفه على موسكو وأن الاسكندر والقادة العسكريين لم يكونوا يفكرون في استدراج نابليون وانما كانوا يقصدون الى عكس ذلك . فاستدراج نابليون الى داخل البلاد لم يتم وفقا لخطة مرسومة ( ما من أحد ظن ذلك ممكناً ) لكنه تم من جراء عمل مجموعة بالغة التعقيد من الدسائس والمصالح والرغبات التي حملها الرجال المشاركون في هذه الحرب ، ممن لم يكونوا يتنبؤون بما سوف يقع ، بما سوف يكون السبيل الوحيد لخلاص روسيا . لقد جرى كل شيء مصادفةً واتفاقاً . ذلك أن جيوشنا شُطرت في بداية المعركة وجهدْنا نحن في جمْعها بغية الشروع في المعركة واحتواء تقدم العدو ، وفي أثناء هذه المحاولة جررنا الفرنسيين الى « سمولنسك » ونحن نتحاشى قتال عدو أقوى بكثير منا ، ونتراجع بالرغم منا على زاوية حادة . بل ليس يكفي أن نقول : اننا نتراجع على زاوية حادة لان الفرنسيين تقدموا بين الجيشين فغدت الزاوية أشد حدة وأمعنا في التقهقر لان « باركلي دي تولي » هذا الالماني الذي لم يكن الشعب راضياً عنه قد كان « باغراتيون » قائد الجيش الثاني ( وهو مرؤوسه ) يكرهه ويحاول جهده تأخير الاتصال به لكي لا يضع نفسه تحت إمرته . لقد تأخر « باغراتيون » طويلا عن القيام بحركة



@ketab_n @4_readers

الاتصال ( مع أنها الهدف الرئيسي للقيادة بأسرها ) لما خيل اليه من أنه يعرض جيشه للخطر بهذه الحركة وأن من الاجدى عليه أن يزيد من تراجعه الى اليسار والى الجنوب وهو يزعج جناح العدو ومؤخراته، وأن يستكمل ملاكاته في اكرانيا . ومع ذلك فنحن نشعر أنه اختلق ذلك لانه لا يريد أن يضع نفسه تحت إمرة الالماني « باركلي » الذي يكرهه والذي هو أحدث رتبة منه .

ويجيء الامبراطور الى الجيش ليحثه على القتال ، لكن وجوده نفسه وتردده وكثرة المستشارين والخطط المطروحة ، كل ذلك يلاشي القوة الهجومية في الجيش الاول ويحمله على الانسحاب .

ثم توضع الخطة التي تقضي بأن يتوقف الجيش في معسكر « دريسا » ؛ ولكن اذا بـ « بولوكشي » الذي يطمع في القيادة العليا يؤثر ، بما له من قوة ، في الامبراطور ، واذا بخطة « بفويل » تهجر ويعهد بكل شيء الى « باركلي » . على أن « باركلي » لا يوحي بالثقة، فيجري الحد من سلطانه .

واذن فالجيوش مجزأة ، ولا وحدة في القيادة ، و « باركلي » معدوم الشعبية ؛ ولكن عن هذا التشوش ، وعن ذلك التجزؤ ، وعن عدم شعبية القائد العام الالماني ، ينجم ، من جهة ، التردد في خوض المعركة ثم رفض خوضها ( وهي معركة لم يكن بالامكان تفاديها لو أن الجيوش كانت مجتمعة ولو أن القائد العام كان غير « باركلي » ) ، وينجم عنه من جهة ثانية ، سخط متزايد على الغرباء وتنامي الشعور القومي .



@ketab_n @4_readers

واخيرا يترك الامبراطور الجيش ، ويُبرر ذهابه بذريعة واحدة ملائمة دون غيرها ؛ وهي ضرورة اذكاء حماسة العاصمتين لحرب قومية. فيضاعف رحيل الامبراطور قوى الجيش الروسي ثلاث مرات .

ترك الامبراطور الجيش لكي لا يُعيق حرية عمل القائد العام وأمل أن تتخذ تدابير أشد حزماً ؛ لكن وضع قيادة الجيوش استمر على تعقده وضعفه . ولبث في الجيش « بينيغسن » والدوق الاكبر وطائفة من الجنرالات المساعدين العسكريين ليراقبوا القائد العام وليحفزوا طاقته على العمل ؛ لكن « باركلي » أحس بأن حريته تضاءلت أمام مراقبة « عيون الامبراطور » فضاعف من حذره وراح يتحاشى المعركة .

لزم « باركلي » جانب الحذر . وأطلق ولي العهد كلمة خيانة وأصر على المعركة الشاملة . ويُضخم « لوبوميرسكي » و « براينكي » و « ولوكي »[1] تلك الشائعة التي مفادها ان « باركلي » يتخلص من الجنرالات المساعدين العسكريين البولونيين ويبعث بهم الى بطرسبرج ، بحجة ارسال الوثائق الرسمية الى الامبراطور ؛ ويدخل في صراع مكشوف ضد بينيغسن والدوق الاكبر .

وأخيرا يلتقي الجيشان في « سمولنسك » . بالرغم من اشمئزاز « باغراتيون » .

ويصل « باغراتيون » الى منزل « باركلي » في عربة . فيلاقيه « باركلي » مرتديا وشاحه ويقدم اليه تقريره باعتباره أقدم منه رتبة .

---

(١) لوبوميرسكي ، براينكي ، وكولي ؛ من كبار النبلاء البولونيين الذين كانوا في خدمة الاسكندر الاول بصفة جنرالات مرافقين عسكريين .



@ketab_n @4_readers

لكن « باغراتسيون » تهزه الاريحية فيضع نفسه بالرغم من قدمه تحت إمرة باركلي ؛ ثم لا يلبث الخلاف أن يتفاقم بينهما . وبناءً على أمر الامبراطور ، يرسل « باغراتسيون » تقاريره مباشرة اليه . ويكتب لـ « آراكتشيف » : « أنا آسف" ازاء الامبراطور ؛ فلست استطيع الاتفاق والوزير « باركلي » . انقلني ، بحق السماء ، الى حيث تشاء ، ولو الى قيادة فوج . ان مركز القيادة العامة مملوء" بالالمان الى الحد الذي يصعب معه على الروسي أن يعيش فيه ؛ كما أنه لا جدوى من بقائه فيه . كنت اتصور أنني أخدم الامبراطور والوطن حقا ، ولكن تبيّن لي ، بعد انعام النظر ، انني أخدم « باركلي » . أعترف لك انني لا أريد ذلك . » . ثم ان جماعة « برانيكي » و « ونتزنجيرود » وآخرين تسمم العلاقات بين القادة وتراخى وحدة القياة أكثر من أي وقت مضى . ويقوم الاستعداد لمهاجمة الفرنسيين أمام « سمولنسك » . فيرسل جنرال" لتفتيش المواقع . ويذهب هذا الجنرال الذي يكره « باركلي » الى منزل أحد الاصدقاء من قادة الفرق ؛ ويعود ، بعد أن يقضي النهار عنده ، لنقد ساحة المعركة التي لم يرها ، نقطة نقطة .

وفي الحين الذي نتخاصم فيه ويكيد بعضنا لبعض بصدد ساحة القتال المقبلة ، وفي الوقت الذي نبحث فيه عن الفرنسيين ونخطىء في تحديد مواقعهم ، يصطدم الفرنسيون بفرقة « نيفيروسكي »(١) ويتقدمون الى جدران « سمولنسك » ذاتها .

---

(١) ديمتري نيفيروسكي ( ١١٧١ - ١٨٢١ ) جنرال ، كان يقود فرقة المشاة السابعة والعشرين التي صمدت امام الفرنسيين اثناء قتال كراسنوي ، امام سمولنسك .



@ketab_n @4_readers

لم يكن بدٌ من خوض معركةٍ ليست في الحسبان ، أمام سمولنسك، لانقاذ خطوط المواصلات • وتدور المعركة فيسقط آلاف القتلى من الجانبين •

ويترك الروس « سمولنسك » خلافا لارادة الامبراطور والشعب بأسره • وتحرق « سمولنسك » على أيدي سكانها أنفسهم الذين خدعهم حاكمهم ، ويذهب هؤلاء المنكوبون الذين غدوا مثالاً يحتذيه الروس الآخرون ، الى موسكو ، وهم لا يفكرون الا في خسائرهم ، وقد تأججت في نفوسهم نار الحقد على العدو • ويتابع نابليون تقدمه وتتقهقر نحن ، ويبلغ نابليون ما سوف يؤدي الى هزيمته •



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الثاني

استدعى الامير « نيكولا اندريتيش » الاميرة ماريا ، غداة رحيل ابنه وقال لها :

ـ حسنا ! أنت الآن مسرورة ؟ افسدت مابيني وبين ابني ، فهل انت مسرورة ؟ هذا كل ماكنت تبغينه ! هل سررت ؟ .. ان ذلك يشق علي ... أنا عجوز وضعيف ، وهذا هو ماكنت تبغينه . افرحي اذن ، افرحي ...

بعد ذلك لم تر الاميرة ماريا اباها طوال الاسبوع . كان مريضا ولم يكن يخرج من مكتبه .

ولشد مادهشت الاميرة ماريا عندما رأت ان اباها لم يكن يقبل بدخول الآنسة « بوريين » عليه أثناء مرضه . كان « تيخون » وحده هو الذي يعنى به .

في مدى ثمانية أيام ، عاو الامير الى الظهور ، واستأنف حياته القديمة ، وبدا جم النشاط بصدد البناء وغرس الاشجار ، وتبدل كليا مع الآنسة « بوريين » . وكان شكله ولهجته الباردة التي يصطنعها مع ابنته كأنما يقولان : « أرأيت ، لقد لفقت كل شيء ، ووشيت بي الى الامير آندره حول علاقاتي بهذه الفرنسية فأفسدت مابيني وبينه ، وهاانت ذي ترين انني لست بحاجة اليك ولا الى الفرنسية » .



@ketab_n @4_readers

كانت الاميرة ماريا تقضي نصف نهارها قرب « نيكولا » الصغير وتشرف على دروسه ، وتعطيه دروسا في اللغة الروسية والموسيقا وتتحدث مع « ديسال » ؛ اما النصف الثاني فتقضيه في القراءة ، ومع مربيتها العجوز ، ومع « رجال الله » الذين يأتون لرؤيتها أحيانا من مدخل الخدم .

أما رأي الاميرة ماريا بالحرب فكان كرأي جميع النساء . كانت قلقة على أخيها الذي كان هناك ، وكانت تستفظع ، من غير فهم ، وحشية البشر التي دفعتهم الى ان يقتل بعضهم بعضا ؛ لكنها لم تكن تدرك اهمية هذه الحرب التي بدت لها كغيرها من الحروب السابقة . لم تكن تدركها مع ان « ديسال » محدثها المعتاد الذي كان يتابع بشغف سير العمليات حاول ان يشرح لها وجهات نظره ، ومع ان « رجال الله » الذين كانوا يزورونها تحدثوا بخوف ، وكل على طريقته ، عن الشائعات الشعبية وعن غزو المسيح الدجال، ومع ان «جوليا» التي غدت الاميرة«دروبتسكوي» والتي استأنفت مراسلتها من موسكو كتبت اليها رسائل وطنية . كانت جوليا تقول لها في احد رسائلها :

« اكتب اليك ، ياصديقتي ، باللغة الروسية لانني اشعره بالكره لجميع الفرنسيين وللغتهم التي لا اطيق سماعها بعد الآن ... نحن في موسكو نطير حماسة لامبراطورنا المعبود .

« ان زوجي المسكين يقاسي المشقات والجوع في أنزال اليهود ؛ لكن الانباء التي بلغتني تزيد من اشتعال حماستي » .

« لابد انك سمعت بمأثرة « رايفسكي » البطولية وهو يعانق ولديه ويقول : « نموت معا ولا نذل » . والواقع ان العدو كان اقوى منا مرتين،



@ketab_n @4_readers

ولم نذل . اننا نمضي وقتنا كيفما اتفق لنا ، وكما تتطلب الظروف . وتلازمني الاميرة « آلينا » و « صوفيا » أياما بكاملها فنتحدث كأرامل لازواج أحياء ، أحاديث رائعة ونحن نشتغل في صنع نسالات الضماد ، ونحن مشتاقات اليك ... الخ » .

كان السبب الرئيسي الذي حال دون فهم الاميرة ماريا لاهمية الحرب هو ان الامير الشيخ لم يتطرق الى الحرب بكلمة ، متغافلا عنها ، هازئا، على المائدة ، من « ديسال » الذي يتحدث عنها . كانت لهجة الامير هادئة واثقة ، الى الحد الذي جعل ماريا تثق به دون ان تطرح عليه أسئلة .

بدا الامير الشيخ ، طوال شهر تموز ، في غاية النشاط والحيوية . فأمر بغرس حديقة جديدة وبناء ملحق جديد للخدم . لكن شيئا واحدا أقلق الاميرة « ماريا » : ذلك انه كان قليل النوم وانه تخلى عما اعتاده من نوم في مكتبه ، فكان يبدل في كل ليلة منامه . كان ينصب سرير الميدان في الرواق ، تارة ، وكان تارة أخرى ، ينام على أريكة ، او على مقعد من طراز « فولتير » ، في ثيابه ، والفتى « بيتروشا » يقرأ له بدلا من الآنسة « بورين » . وربما قضى الليل أحيانا في غرفة الطعام .

في الاول من آب، وصلت من الامير آندره رسالة ثانية. وفي الرسالة الاولى التي وصلت بعد فترة قصيرة من رحيله ، التمس بخضوع صفح أبيه عما بدر منه ورجاه ان يعود الى سابق حبه له . فأجابه الامير الشيخ برسالة ملؤها الحب ، ومنذ ذلك الوقت أبعد الآنسة الفرنسية عنه . اما الرسالة الثانية التي كتبها الامير آندره من ضواحي «فيتبسك» بعد احتلال الفرنسيين لهذه المدينة ، فتحتوي على وصف موجز للمعركة مع مخطط مرسوم في الرسالة نفسها ، كما تحتوي على بعض الملاحظات



@ketab_n @4_readers

حول تطور العمليات المقبل • وقد صور الامير آندره لابيه مساويء البقاء على مقربة من مسرح الحرب ، على خط تحركات القطعات نفسه ، واشار عليه بالانتقال الى موسكو •

اثناء الغداء ، في هذا اليوم ، تذكر الامير الشيخ هذه الرسالة عندما انبأهم « ديسال » أن « فيتيبسك » أصبحت في أيدي الفرنسيين ، على مايبدو ، وقال للاميرة ماريا :

ـ تلقيت رسالة من الامير آندره ، ألم تقرئيها ؟

أجابت الاميرة مذعورة :

ـ لا ، ياابي •

وكيف يمكنها أن تقرأ رسالة تجهل وصولها ذاته •

قال الامير وهو يبتسم ابتسامة استخفاف غدت عادة له عندما يتطرق الى هذا الموضوع :

ـ انه يتحدث عن هذه الحرب •

فقال « ديسال » :

ـ لابد ان يكون ذلك شائقا جدا • ففي مقدور الامير ان يعلم •••

وقالت الانسة « بوريين » :

ـ آه ! نعم ، شائق جدا •

فقال لها الامير الشيخ :

ـ ائتيني بها فهي على الطاولة الصغيرة تحت المثقلة • فوثبت الانسة على قدميها بفرح •

ثم صرخ وقد تجهم وجهه :



@ketab_n @4_readers

ـ آه ! كلا ٠ اذهب انت يا « ميشيل ايفانتش »

نهض « ميشيل ايفانتش » وذهب الى مكتب العمل ٠ لكنه لم يكد يخرج حتى رمى الامير الشيخ بفوطته ، وهو ينظر حوله نظرات قلقة ، وذهب بنفسه :

ـ هؤلاء الناس لايحسنون شيئا ، وقد يفسدون كل شيء

أثناء غيابه تبادل الجميع النظرات بصمت ٠ ثم عاد الامير بخطى سريعة يصحبه « ميشيل ايفانيتش » ، ومعه الرسالة والمخطط اللذان وضعهما بجانبه ، دون أن يسمح لاحد بقراءتهما أثناء الغداء ٠

ولما انتقلوا الى قاعة الاستقبال سلم الرسالة الى الاميرة ماريا ،وطلب اليها ، وهو ينشر امامه مخطط البناء الجديد الذي حدق فيه ، أن تقرأ بصوت عال ٠ وبعد ان قرأت الرسالة القت الاميرة ماريا على ابيها نظرة مستفهمة ٠ كان يتفحص المخطط ، وكان واضحا انه مستغرق في تأملاته٠

واباح « ديسال » لنفسه ان يسأل :

ـ مارأيك في هذا كله ، أيها الامير ؟

أجاب الامير ، دون ان يرفع بصره عن المخطط ، وكأنما كان يستيقظ من نومه على مضض :

ـ أنا ؟ أنا ؟ ٠٠٠

ـ قد يقترب مسرح العمليات منا اقترابا شديدا ٠٠٠

فقال الامير :

ـ ها ! ها ! ها ! مسرح العمليات ! لقد قلت دائما واعيد القول ان مسرح العمليات هو « بولونيا » وان العدو لن يتجاوز « النييمين » ٠

نظر « ديسال » بدهشة الى الامير الذي كان يتحدث عن «النييمين»،



@ketab_n @4_readers

في حين ان العدو بلغ « الدنيبر » ؛ لكن الاميرة ماريا التي نسيت موقع « النيمين » الجغرافي رأت أن أباها على حق .

وأضاف الامير وقد خطرت بباله حملة ١٨٠٧ التي بدت له حديثة العهد :

ــ سيغرقون في مستنقعات بولونيا أثناء ذوبان الثلوج. وهم وحدهم عمي عن ذلك . كان على « بينيغسن » ان يدخل الى بروسيا قبل ذلك ، اذن لاتخذت الاشياء وجها آخر ...

فاعترض « ديسال » بوجل :

ــ لكن الرسالة تتحدث ، ايها الامير ، عن « فيتيبسك »

قال الامير وهو ممتعض :

ــ آه ! الرسالة ؟ نعم ...

اكفهر وجهه فجأة وصمت لحظة واضاف :

ــ نعم ، لقد كتب ان الفرنسيين كسروا ، قرب أي نهر كان ذلك ؟

خفض « ديسال » بصره وقال بصوت خفيض :

ــ لم يذكر الامير شيئا بهذا الصدد .

ــ حقا ؟ لكني لااستطيع اختراع ذلك كله .

ران الصمت . ثم استأنف الامير كلامه على حين غرة وهو يرفع رأسه ويشير الى المخطط :

ــ نعم ، نعم ... قل لي يا « ميشيل ايفانيتش » كيف ستعدل هذا ....

دنا « ميشيل ايفانيتش » منه . وبعد ان حدثه الامير عن مخطط البناء الجديد حدج الاميرة « ماريا » و « ديسال » بنظرة سريعة غاضبة وانصرف الى غرفته .



@ketab_n @4_readers

رأت الاميرة ماريا مافي نظرة « ديسال » الى أبيها من ضيق ودهشة، ولاحظت صمت ابيها ، وذهلت اذ شاهدت اباها ينسى رسالة ابنه على المائدة ، لكنها لم تكن تخاف ان تكلم « ديسال » وان تسأله عن سبب ارتباكه وصمته فحسب ، بل انها كانت تخاف التفكير ذاته في ذلك ايضا .

وفي المساء ، جاء « ميشيل ايفانيتش » الى غرفة الاميرة ماريا يسألها من قبل الامير ، عن رسالة الامير آندره المنسية في قاعة الاستقبال . فأعطته اياها ، واجازت لنفسها ان تسأله، مهما بدا سؤالها كريها، عما كان يفعله ابوها .

فأجابها « ميشيل ايفانيتش » وعلى وجهه ابتسامة سخرية مغشاة بالاحترام شحب لها وجه الاميرة ماريا :

ــ انه يعذب نفسه كعادته . فهو يحمل نفسه هموما ثقالا بسبب المبنى الجديد .

واضاف « ميشيل ايفانيتش » وهو يغض من صوته :

لقد قرأ قليلا ولاريب انه مشغول الآن بوصيته في مكتبه . (من المشاغل المفضلة التي انكب عليها الامير منذ زمن تكديس الاوراق التي يريد تركها بعد موته والني يسميها وصيته ) .

وسألت الاميرة ماريا :

ــ وهل ينوي أن يرسل « ألباتيتش »(١) الى سمولنسك ؟

ــ بالتأكيد ، فهو ينتظر منذ زمن طويل .

---

(١) الباتيتش : ابن الباب ( صورة مشوهة للاسم اليوناني اوباتوس ) ، عندما يخاطب الفلاحون فانهم يدعون باسم العائلة فقط .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصلُ الثّالِث

عندما عاد « ميشيل ايفاينتش » بالرسالة ، كان الامير جالسا الى مكتبه المفتوح ، ونظارتاه على انفه ، وعاكس النور امام عينيه وعلى الشموع ، مسكا بالاوراق بعيدا عن عينيه في حركة عليها شيء من المهابة . كان يقرأ هذه الاوراق ( او الملاحظات كما سماها ) التي ينبغي ايصالها الى الامبراطور بعد موته .

وحين دخل عليه « ميشيل ايفانيتش » ، كانت عيناه مبللتين بالدمع على ذكرى الزمان الذي كتب فيه مايقرؤه الآن .

فأخذ الرسالة منه ودسها في جيبه ورتب أوراقه واستدعى « الباتيتش » الذي كان ينتظر منذ زمن طويل .

كان قد سجل على ورقة ماينبغي ان يشتريه من « سمولنسك » ، فأخذ يلقي أوامره الى « ألباتيتش » الذي كان ينتظره قرب الباب ، وهو يروح ويجيء في الغرفة :

— اشتر لي قبل كل شيء ورقا للرسائل ، اتسمع ، ثماني رزم من هذه العينة . مذهبة الاطراف ... مطابقة لهذه العينة بالذات ، وطلاء وشمعا للختم ، حسب قائمة « ميشيل ايفانيتش » .

ثم خطا خطوات في الغرفة ونظر نظرة خاطفة الى مذكرته وقال :

— وسلم بنفسك الى الحاكم رسالتي هذه بشأن التجنيد .



@ketab_n @4_readers

ولابد من اقفال لابواب المبنى الجديد ، من النوع الذي اخترعه هو بالذات ، ولابد من محمفظة خاصة تودع فيها الوصية •

دامت أوامره قرابة ساعتين • ولم يدع « الباتيتش » يذهب • ثم جلس واخذ يفكر واغمض عينيه وغفا • واتى « الباتيتش » حركة،فقال له الامير :

ـ حسنا ! انصرف ، انصرف ، سأدعوك ان احتجت الى شيء •

خرج « الباتيتش » ، وعاد الامير الى مكتبه والقى عليه نظرة سريعة ومر بيده على اوراقه ، واغلق الباب ، وجلس الى الطاولة ليكتب الى الحاكم •

عندما نهض بعد ان ختم الرسالة بالشمع ، كان الوقت متأخرا ، وكان النعاس يرنق في عينيه ، لكنه كان يعلم انه لايستطيع النوم ، وان اشد الافكار سوادا هي التي تلم به في سريره • فدعا اليه « تيخون » وجاب الغرف معه ليدله على المكان الذي ينصب فيه سريره لهذه الليلة • كان يتفحص بعناية كل زاوية •

لم يعجبه مكان من الامكنة • لكن اسوأها كان المقعد الذي يستلقي عليه في مكتبه • كان هذا المقعد يخيفه ، بسبب الافكار المقلقة التي انتابته عليه ، ولاريب • لم يرتح الى أي مكان • بيد ان افضل ماوقع عليه ركن صغير وراء المعزف لم ينم فيه من قبل •

حمل « تيخوف » السرير بمساعدة احد الخدم واخذ يركزه هناك• فصرخ الامير :

ـ لاتضعه هكذا ، لاتضعه هكذا ؟



@ketab_n @4_readers

وابعد السرير عن الزاوية قليلا ثم قربه منها •

ثم حدث الامير نفسه وتيخوف يخلع عنه ملابسه :

« ايه ! فرغت أخيرا ، من كل شيء • وسوف استريح الآن » •

تقبض وجه الامير غيظا من الجهد الذي اقتضاه نزع القفطان والسراويل ، وخلع ملابسه وتهالك على السرير ، وبدا مستغرقا في تأملاته وهو ينظر بازدراء الى ساقيه الصفراوين المعروقتين• لم يكن يفكر لكنه كان مترددا امام الجهد الذي ينبغي ان يبذله لرفع ساقيه وللاستلقاء على السرير • وكان يحدث نفسه وهو يزم شفتيه :«اوه ! ماصعب هذا ! أوه ! ليت هذه الآلام تنتهي قريبا ، وليتكم تتركونني امضي ! » • ثم بذل ذلك الجهد بعد عشرين الف مرة واستلقى على فراشه • لكنه لم يكد يضطجع حتى اخذ السرير يهتز تحته بانتظام من الامام الى الخلف ، وكأنه كان يتنفس بجهد وهو يدفعه • كان ذلك يقع له كل ليلة تقريبا • وعاد ففتح عينيه اللتين أغمضهما لحظة •

وهمهم وكأنه يثور على أحد الناس ازاءه :

ـ لا سبيل الى الراحة ، أيها الملاعين ! نعم ، نعم ، ان هناك شيئا مهما ، شيئا مهما جدا احتفظت به لهذه الليلة في سريري • الاقفال ؟ كلا ، فهذه تكلمت عنها • انه شيء" وقع في قاعة الاستقبال • لقد روت الاميرة ماريا حماقات ، وكان « ديسال » ، هذا الغبي ، يتحدث عن شيء ما • في جيبي شيء" لا أذكر ما هو •

ـ تيشكا[1] ! عمّ تكلمنا على المائدة ؟

ـ عن الامير « ميشيل » •••

وضرب الامير الطاولة بيده :

(١) تيشكا : تصغير تيخون ، للتحقير .



@ketab_n @4_readers

ــ اسكت ، اسكت • نعم ، عرفت ، انها رسالة الامير آندره • قرأتها الاميرة ماريا ، وقال « ديسال » شيئا بشأن « فيتبسك » • سأقرؤها الآن •

وأمر بالرسالة وبتقريب المنضدة وعليها كأس من عصير الليمون وشمعة حلزونية ، ثم وضع نظارتيه وأخذ يقرأ • حينذاك فقط ، أدرك ، في سكون الليل ، وهو يقرأ الرسالة على الضوء الضعيف الذي كان يبعثه عاكس أخضر ، أدرك ، للحظة من الزمن ، مدى أهمية هذه الرسالة •

« الفرنسيون بلغوا « فيتبسك » ، ويمكن أن يصلوا الى « سمولنسك » بعد اربع مراحل ؛ ولعلهم فيها الآن » •

ــ تيشكا ! ــ هب تيخون واقفاً ــ لا ، لا داعي لذلك ، لا داعي !••

وضع الرسالة تحت الشمعدان وأغمض عينيه • فتراءى له الدانوب في ظهيرة مشرقة ، والقصب ، والمعسكر الروسي ، وتراءى لنفسه جنرالاً فتى ، نضر الوجه ، رشيق الحركة ، مرح النفس ، غض الاهاب ، يدخل الى خيمة « بوتمكين » المزينة • فاستولى عليه شعور لاذع من الغيرة ازاء محظي الامبراطورة ، شعور عارم كشعوره آنذاك • وتذكر جميع الكلمات التي تبادلاها أثناء هذه المقابلة الاولى • ورأى أمامه امرأة قصيرة ، بدينة ، سمينة الوجه ، صفراء اللون ــ أمنا الامبراطورة ــ رأى ابتسامتها ، وسمع كلماتها الحلوة التي قالتها ، وهي تستقبله لاول مرة ، وتذكر الوجه نفسه في النعش ونزاعه مع « زوبوف »(۱) أمام هذا النعش حول حق تقبيل يدها •

« آه ! ليتني أعود الى ذلك الزمن ، وليت كل ما هو موجود الآن يمحي بأقصى سرعة ؛ ليدعوني وشأني ! » •

(۱) ربما كان هذا النزاع مع آخر محظي للامبراطورة الكونت افلاطون زوبوف ( ۱۷٦۷ ــ ۱۸۲۲ ) •



@ketab_n @4_readers

# الفصل الرابع

تقع «ليسييه خوري» ملك الامير «نيكولا اندريتش بولكونسكي» على ستين فرسخا وراء سمولنسك وعلى ثلاثة فراسخ عن طريق موسكو .

وفي المساء نفسه الذي أصدر فيه الامير تعليماته الى « ألباتيتش » طلب « ديسال » مقابلة الاميرة وقال لها : بما أن صحة الامير غير حسنة وأنه لم يتخذ أي تدبير أمني ، في حين أن الاقامة في « ليسييه خوري » لا تخلو من الخطر على حسب ما يظهر في رسالة الامير آندره ، فهو يُشير عليها بكل احترام أن تبعث مع « الباتيتش » برسالة الى حاكم المقاطعة في « سمولنسك » ترجوه فيها أن يُطلعها على حقيقة الوضع ، وأن يُخبرها الى أيّ حد كانت « ليسييه خوري » معرّضة للخطر . وكتب « ديسال » الرسالة التي وقعتها وعهدت بها الى « ألباتيتش » مع أمر تسليمها الى الحاكم يداً بيد ، والعودة بأسرع ما يمكن ، في حالة الخطر .

بعد أن تلقى « ألباتيتش » هذه التعليمات مضى ، وفي صحبته بطانته التي جاءت لوداعه ، وعلى رأسه قبعة من فرو القندس الابيض « هدية من الامير »،وفي يده عصا كالتي يحملها سيده ، واتخذ له مكانا في عربةصغيرة ذات غطاء جلدي تجرها ثلاثة جياد مُحكمة الخلق .

عُلق الجرسُ الصغير وغُطيت الجلاجل بالورق . وكان الامير



@ketab_n @4_readers

لا يسمح لاحد باستعمالها في « ليسييه خوري » ؛ لكن « ألباتيتش » كان يحب سماع الجلاجل في رحلاته الطويلة . وجاءت بطانته : الكاتب والمحاسب وطاهية الامير وطاهية الخدم وامرأتان عجوزان وصبي والسائقون وبعض الخدم ، جاءت بطانته هذه تتمنى له سفرا ميمونا .

وضعت ابنته على المسند والمقعد وسائد من ريش مغطاة بالنسيج الهندي . ودست أخت زوجه العجوز رزمة صغيرة خِفْيَة . وساعده أحد الخدم على الصعود وهو يسنده تحت ذراعيه .

قال « ألباتيتش » وهو ينفخ ، ويصطنع اللهجة السريعة التي يتكلم بها الامير الشيخ :

ــ ايه ! ايه ! من أُهبة العجائز ! العجائز ! العجائز !

واستقر في العربة . وبعد أن أعطى آخر تعليماته بصدد الاعمال ، حسر عن رأسه الاصلع ، ورسم اشارة الصليب ثلاث مرات ، متخليا عن تقليد سيده هذه المرة .

صاحت به امرأته ملمحة الى الشائعات التي تتردد حول الحرب والعدو :

ــ اذا ما حدث شيء ... فارجع يا « اياكوف ألباتيتش » . اشفقِ علينا ، بجاه الله .

غمغم « ألباتيتش » بينه وبين نفسه : « الله ، من هؤلاء العجائز ! من أهبة العجائز ! » .

وهو يتأمل ما حوله من الشيلم الذي اصفرّ ها هنا ، ومن الشوفان الملتف الاخضر ها هناك ، ومن الحقول السوداء التي بُدِيء بفلاحتها .



@ketab_n @4_readers

كان معجباً بهذا النمو البديع لقمح الربيع ، وكان يتفحص حقول الشيلم التي حُصد بعضها ، ويفكر بالبذار والحصاد ، ويتساءل ان كان لم ينس شيئا من أوامر الامير .

بعد أن أطعم الخيل مرتين أثناء الطريق ، وصل الى المدينة في مساء الرابع من آب .

وقد صادف في طريقه قوافل وقطعات وتجاوزها . وعندما دنا من « سمولنسك » سمع طلقات نارية بعيدة ، لكنه لم يُلق اليها بالاً . على أن أكثر ما أدهشه هو أنه رأى ، على مشارف المدينة ، حقلاً بديعا من الشوفان يحصده جنود" خيموا عنده ، ولاشك انهم سيتخذونه علفاً لخيولهم : أدهشه هذا الامر لكنه ما لبث أن نسيه حين أخذ يفكر بما يتعيّن عليه أن يفعله .

كان كل ما يعني « ألباتيتش » من الحياة محصورا ، منذ ثلاثين عاما ، بارادة الاميرة وحدها . فلم يكن يخرج من هذه الدائرة . أما ما لا يتعلق بتنفيذ أوامر سيده فلم يكن بعيدا عن اهتمامه فحسب بل انه لم يكن موجودا بالنسبة اليه .

حين وصل « ألباتيتش » الى سمولنسك في مساء الرابع من آب ، نزل عند الضفة الاخرى من الدنيبر ، بضاحية « غاتشا » ، في نَزل يديره بواب" قديم هو « فيرابونتوف » تعود أن ينزل عنده منذ ثلاثين عاما . كان « فيرابونتوف » قد اشترى قبل اثني عشر عاما ، بناءً على مشورة « ألباتيتش » ، غابةً من الامير ، واتجر بها حتى أصبح يملك الآن بيتاً ونَزلاً ومخزنا للطحين . كان رجلاً ضخم الجثة ، محمّر الوجه ، في



@ketab_n @4_readers

الاربعين من عمره ، أسود الشعر ، غليظ الشفتين ، ذا أنف كبير منتفخ وحدبتين فوق حاجبيه الاسودين المقطبين ، وبطن عظيم •

كان يقف أمام دكانــه المطلة على الشارع ، بصدرة من القماش الهندي • فلما شاهد « ألباتيتش » أقبل عليه قائلاً :

ــ أهلاً بك يا « اياكوف ألباتيتش » • الناسُ يتركون المدينة ، وأنت قادمٌ اليها •

فسأله « ألباتيتش » :

ــ ولمَ يتركون المدينة ؟

ــ هذا ما أسأل عنه أنا نفسي • الناسُ حمقٌ • انهم يخافون الفرنسيين •

فرد « ألباتيتش » :

ــ حكايات عجائز ! حكايات عجائز !

ــ وهذا هو رأيي ، يا « اياكوف ألباتيتش » • انني أقول : مادام الامرُ بمنعهم من الدخول قد صدر فليس هناك ما يبعث على الخوف • ثم ان الناس يطلبون ثلاث روبلات أجرة العربــة الواحــدة ، ناسٌ لا وجدان لهم !

كان « اياكوف ألباتيتش » يصغي باتنباه • ثم طلب سماوراً وعلفا لخيله ، وبعد أن شرب الشاي أوى الى فراشه •

ظلت القطعات تمر في الشارع ، أمام النزل ، طوال الليل • وفي اليوم التالي ارتدى « ألباتيتش » معطفه الرسمي الذي لم يكن يلبسه الا في المدينة ومضى لانهاء أعماله • كانت الصبيحة مشمسة ، ولم تأت



@ketab_n @4_readers

الساعة الثامنة حتى غدا الجو حاراً . وقال في نفسه : ما أحسن هذا اليوم للحصاد . ومن وراء المدينة ترامت الى الاسماع ، منذ الصباح الباكر ، أصوات التراشق بالبنادق .

بدءاً من الساعة الثامنة انضمت اصوات المدافع الى طلقات البنادق. وامتلأت الشوارع بالجنود والناس المسرعين . لكن العربات ظلت تجري، كعادتها ، وظل التجار على أبواب دكاكينهم ، وظلت الصلوات تتلى في الكنائس . وقد ذهب « ألباتيتش » الى الدكاكين ، والادارات العامة ، والبريد ، والى دار الحاكم فوجد الناس جميعا يتحدثون فيها عن الجيش ، وعن العدو الذي يهاجم المدينة ، ووجدهم يتساءلون عما يجب عمله ، وكانوا جميعا يجهدون في أن يدخلوا الامن والطمأنينة بعضهم الى قلوب بعض .

ألفى « ألباتيتش » أمام دار الحاكم كثيرا من الناس ، وقوزاقاً ، وعربة الحاكم . ولقي على الدرج سيدين يعرف أحدهما . كان هذا رئيساً قديما لشرطة المقاطعة ، وكان يتكلم بحماسة نارية :

— لم يعد الامر مزاحاً . والامر محمول" لمن كان وحده . اذا كان للمرء رأس واحد فهو لا يبكي سوى مرة واحدة عندما تلمّ به المصائب ، أما اذا كانت له عائلة من ثلاثة عشر شخصاً ، واذا كانت له أملاك" ... هل رأى الناس مثل هؤلاء القادة !... لقد أفضى سوء تدبيرهم الى هلاكنا جميعاً . آه ...! لو كان الامر بيدي لشنقتهم عن بكرة أبيهم ، هؤلاء اللصوص الاشقياء ... قال له رفيقه :

— مالك ، هلا هدأت .



@ketab_n @4_readers

فرد عليه قائدُ الشرطة القديم :

ــ وماذا يضيرني لو سمعوا ! لسنا كلاباً ، على كل حال .

وعندما التفت شاهد « ألباتيتش » .

ــ آه ! « اياكوف ألباتيتش » ، ماذا جئت تفعل هنا ؟

فأجاب « ألباتيتش » وهو يشمخ بأنفه ويدخل يده من خلال فتحة المعطف ، وذلك ماكان يفعله دائما عندما يتكلم عن سيده :

ــ انني ذاهب الى الحاكم بأمر من سموه ... لقد تفضل فكلفني الاستعلام عن الوضع .

فصرخ به النبيل الريفي :

ــ طيب ! استعلم عن الوضع اذن ! لقد رتبوا شؤونهم بحيث لم تبق عربات ، لم يبق شيء !...

وأضاف وهو يشير الى الجهة التي تنبعث منها أصوات الانفجارات:

ــ هاهو ذا الوضع ، هل تسمع ؟

وكرر قائلا وهو يهبط الدرج :

ــ لقــد أفضى سوء تدبيرهم الى هلاكنا جميعا ... اللصوص الاشقياء !

هز « ألباتيتش » رأسه وصعد الدرج ، وفي غرفة الانتظار كـان التجار والنساء والموظفون يتبادلون النظرات بصمت . ثم فتح باب المكتب فنهض الجميع وتقدموا . وخرج منه موظف على عجل ، وقال شيئا لاحد التجار ، ونادى موظفا ضخما يحمل وساما حول عنقه كـي يتبعه وعاد فاختفى خلف الباب متواريا عن الانظار المتجهة اليه متملصا



@ketab_n @4_readers

من الاسئلة جميعا • تقدم « ألباتيتس » ، وعندما ظهر الموظف مرةأخرى خاطبه ، وهو يمد له الرسالتين ، وقد أدخل يده في معطفه المزرر •

ـ الى سيادة البارون « آش » من قبل الجنرال الاعلى[1] الامير بولكونسكي •

قال ذلك بلهجة رسمية ، مهيبة ، حملت الموظف على أن يلتفت اليه وان يتناول الرسالتين • وبعد لحظات استقبل الحاكم « ألباتيتش » وأعلن له بسرعة :

ـ أبلغْ الامير والاميرة أنني لم اطلعْ على شيء ، وأنني تصرفت بمقتضى الاوامر العليا •

وناوله ورقة وقال :

ـ خذْ هذه • على كل حال ، بما أن الامير عليل ، فأنا انصحه بالسفر الى موسكو • وها أناذا ذاهب اليها من فوري • قل له •••

لكن الحاكم لم يتم كلامه ، اذ اقتحم الغرفة ضابط يتصبب عرقا ، مغطى بالغبار وكلمه بالفرنسية • فارتسم الذعر على ملامح الحاكم • وقال لالباتيتش وهو يصرفه باشارة من رأسه :

ـ اذهب

وراح يسائل الضابط •

عندما خرج « ألباتيتش » من مكتب الحاكم اتجهت اليه نظرات متعطشة ملأى بالخوف والجزع • فأسرع بالعودة الى النزل وهو يصيخ السمع الى الانفجارات التي غدت أقرب وأشد • كان مضمون الورقة التي سلمه اياها الحاكم كما يلي :

---

(1) الجنرال الاعلى : لقب فخري كان بعض الجنرالات ينالونه في القرن الثامن عشر ويحتفظون به بعد تقاعدهم .



@ketab_n @4_readers

« أؤكد لك أن مدينة سمولنسك لاتتعرض لادنى خطر ، وليس محتملا أن يتهددها مثل ذلك الخطر . ان الامير « باغراتيون » من جهة ، وأنا ، من جهة أخرى ، نزحف لنحقق الاتصال أمام سمولنسك ، في الثاني والعشرين من هذا الشهر . وسوف يدافع الجيشان بكل قواهما عن مواطنيهم في المقاطعة الموكلة اليك الى أن تبعد جهودهما الاعداء من الوطن ، أو يسقط آخر جندي في الصفوف الباسلة . أنت ترى اذن أن لك ملء الحق في طمأنة سكان سمولنسك ، ذلك أنه عندما يدافع عنهم جيشان بهذه البسالة ، فيمكنهم أن يثقوا بالنصر » . ( أمر يومي من « باركلي » الى حاكم سمولنسك المدني ، البارون « آش » ، ١٨١٢ . )

كان الاهلون يطوفون الشوارع قلقين .

وكانت العربات المحملة بالاواني والكراسي والخزائن الصغيرة تخرج دون انقطاع من أفنية البيوت وتدلف الى الشوارع . وأمام البيت المجاور لنزل « فيرابونتوف » كان هناك أيضا عربات ، وكانت النسوة يُعولن وهن يودعن بعضهن بعضا . وراح كلب صغير ينبح بين قوائم الخيول المقرونة .

دخل « ألباتيتش » الى فِناء النزل بخطى أسرع من عادته واتجه رأساً الى السقيفة التي أودع فيها خيله وعربته . كان الحوذي نائما ، فأيقظه ليجهز العربة ودخل الى المنزل . وتراءى الى سمعه من غرفة أصحاب النزل ، نشيج طفل ، ونحيب امرأة يمزق القلب ، وصرخات فيرابونتوف الهائجة الجشاء . كانت الطاهية تضطرب في الممر كالدجاجة المذعورة عندما دخل « ألباتيتش » .



@ketab_n @4_readers

ـ لقد قتلها ، لقد قتل السيدة ! ... لَكمْ ضربها وجرها على الارض ! ...

سألها « ألباتيتش » :

ولمَ ذلك ؟

طلبت اليه الذهاب . انها امرأة ، ومن السهل أن تفهم طلبها ! قالت له : خذني ولا تدعني أموت مع صغاري ؛ لقد رحل الناس جميعا فماذا ننتظر ؟ عند ذاك بدأ يضربها ... لكمْ ضربها وجرها !

هز « ألباتيتش » رأسه كأنه يوافق على هذه الكلمات ، واتجه ، وهو يأبى أن يسمع المزيد ، الى الباب المواجه ، باب غرفة أصحاب النزل ، حيث ترك مشترياته .

في هذه اللحظة صرخت امرأة نحيلة شاحبة وهي تفلت من الغرفة وتهرع الى الدرج المؤدي الى الفناء ، وعلى ذراعها ابنها ، وقد كاد يسقط شالها عن رأسها :

ـ مجرم ، سفاك .

وخرج « فيرابونتوف » بدوره ، فلما رأى « ألباتيتش » سوى صدرته وشعره وتثاءَب ولحق به الى الغرفة ، وسأله :

ـ ماذا : أتنوي الرحيل ؟

ودون أن يجيبه « ألباتيتش » وأن ينظر اليه ، سأله عن الحساب .

ـ لن نختلف على ذلك ! واذن فقد ذهبت الى الحاكم ؟ ماذا تَقَرّر ؟

رد « ألباتيتش » بأن الحاكم لم يقل له شيئا ، على الاطلاق .



@ketab_n @4_readers

قال « فيرابونتوف » :

ــ كيف يمكن نقل متاع كمتاعي ؟ انهم يطلبون سبعة روبلات ، أجرة العربة الى « دوروجوبوج » وحدها . أؤكد لك انهم ناس لا وجدان لهم !

ثم أضاف قائلا :

ــ أما « سيليفانوف » فكانت صفقته رابحة : لقد باع طحينه الى الجيش ، يوم الخميس ، كل كيس بتسعة روبلات . ألا تريد أن تتناول الشاي ؟

وبينما كان الحوذي يُعد العربة ، تناول الرجلان الشاي وهما يتحدثان عن سعر القمح وعن الغلة وعن الوقت المناسب للحصاد .

ولاحظ « فيرابونتوف » الذي نهض بعد أن أفرغ ثلاثة أقداح من الشاي :

ــ كأنما عاد الهدوء . ربما كانت الغلبة لرجالنا . لقد قيل لنا : انهم لن يسمحوا للعدو بالدخول . نحن اذن ، أقوى ... يبدو أن « ماتفي ايفانيتش بلاتوف » القى بهم منذ أمد قريب في « المارينا [1] » ، وغرق في يوم واحد مايقرب من ثمانية عشر ألفا .

لمّ « الباتيتش » مشترياته ، وسلمها الى الحوذي ، ثم دفع الى صاحب النزل حسابه . ومن البوابة وافى صوت عجلات العربة الصغيرة التي كانت تخرج ، ووقع الحوافر ورنين الجلاجل .

كانت الوقت عصرا ، فجانب من الشارع غارق في الظلمة وجانب

---

(١) بلاتوف : جنرال قوزاق الدون . والمارينا نهر صغير يصب في الدنيبير .



@ketab_n @4_readers

تنيره الشمس على نحو باهر • ألقى « الباتيتش » نظـرة من النافذة ويمّم شطر الباب • واذا بصفير غريب يُسمع فجأة من بعيد وبصوت شيء يسقط ، ثم دوى بعدهما قصف مدفعي متصل هز الزجاج •

خرج « الباتيتش » الى الشارع ؛ مرّ رجلان وهما يركضان باتجاه الجسر • كان يُسمع من كل صوب صفير القذائف ورجها ، وانفجار القنابل الساقطة في المدينة • لكن هذه الاصوات لم تكن شيئا مذكورا، ولم تكد تلفت انتباه الاهلين ، بجنب القصف المدفعي الذي كان يدوي في ضواحي المدينة • كان هذا هو القصف الذي باشره نابليون على سمولنسك ، منذ الساعة الخامسة ، بمائة وخمسين مدفعا • ولم يدرك الاهلون ، للوهلة الاولى ، جليّة الأمر •

لم يثر صوت القنابل والقذائف المتساقطة سوى الفضول ، بادىء ذي بدء • فزوجة « فيرابونتوف » التي لم تكف عن النحيب ، حتى هذه اللحظـة ، سكتت وذهبت الى البوابة ، وابنها على ذراعها ، لتتطلع بصمت الى المارة ولتصيخ السمع الى اصوات القذائف •

وانضم اليها الطاهية وصاحب الحانوت • كانوا جميعا يحاولون ، بفضول فرح ، مشاهدة القذائف التي تمر فوق رؤوسهم • وظهر بعض الرجال في زاوية الشارع وهم يتحادثون بحرارة • قال أحدهم :

ـ ما أشدّ قوتها ! طار السقف والسطح مزقا •

وقال آخر :

ـ لقد فلحت الارض فلحا كما يفعل الخنزير بخطمه •

وأضاف ضاحكا :



@ketab_n @4_readers

ـ عجيبة ، انها تشد من عزيمة المرء ! من حسن الحظ أنك قفزت جانبا ، والا لسحقتك سحقا •

سأل الناس هؤلاء الرجال عما يجري• فوقف هؤلاء ورووا لهم ان قذيفة سقطت على منزل قريب منهم • على أن القذائف ظلت تمر فوق رؤوسهم : كرات المدافع بصفيرها السريع الكالح والقنابل بصفيرها الخفيف الرخيم ، لكنها لـم تكن تسقط في الامكنة القريبـة • كان « الباتيتش » يصعد الى العربة ، وصاحب النزل يقف على عتبة الباب•

وصرخ هذا مخاطبا الطاهية ذات التنورة الحمراء التي اقتربت من زاوية الشارع لتسمع ما يقال ، وقد شمرت كميها وخطرت بمرفقيها العارين :

ـ علام تتفرجين ؟

فقالت :

ـ ان مايجري مذهل !

لكنها حين سمعت صوت معلمها رجعت أدراجها وهي تشد تنورتها المشمرة •

وانطلق صفير من شيء قريب هذه المرة ، وكما يهوي عصفور من عل ، انبعث بريق في وسط الشارع ، ودوى انفجار ، وتغطى كل شيء بالدخان •

صرخ صاحب النزل وهو يهرع نحو الطاهية :

ـ ماذا فعل ، الآثم ؟

وفي اللحظة نفسها علت صرخات النساء المعولات من جهات شتى ،



@ketab_n @4_readers

وأخذ طفل مذعور يبكي ، واحتشد الناس حول الطاهية ، صامتين شاحبين • وكان انينها وصيحات توجعها تطغى على الاصوات الاخرى :

ـ اوه ، اوه ، اوه ! أصحابي ! يا أصحابي الطيبين ! لاتدعوني أموت ! يا حماماتي البيضاء ! •••

في غضون خمس دقائق لم يبق أحد في الشارع • ونقلت الطاهية التي كسر وركها بشظية قذيفة الى مطبخها • ولجأ « الباتيتش » وسائقه وزوجة « فيرابونتوف » واولادها والحارس الى القبو وراحوا يصيخون السمع • ولم ينقطع لحظة واحدة قصف المدافع وصفير القذائف وتأوهات الطاهية المثيرة للشفقة التي طغت على الاصوات جميعا • وكانت زوجة صاحب النزل تهدهد ابنها وتهدئه تارة ، وتارة أخرى تسأل جميع النازلين الى القبو عن زوجها الذي بقي في الشارع • قال لها الحانوتي أنه لحق بالجمهور الى الكنيسة حيث شرع في رفع أيقونة « سمولنسك » العجائبية[1] •

سكن القصف المدفعي ، عند الغسق • فخرج « ألباتيتش » من القبو ووقف على عتبة الباب • واظلمت السماء من الدخان بعد أن كانت صافية • ومن خلال هذا الدخان ، أرسل الهلال من كبد السماء خيوطا من الضوء الغريب • وبعد قعقعة المدافع الرهيبة ، بدت المدينة كأنما يلفها صمت لاتعكره سوى ضوضاء مخنوقة منتشرة في كل مكان من خطوات الناس وتأوهاتهم وصرخاتهم البعيدة ومن طقطقة الحرائق • وتوقف أنين الطاهية • وصعدت فوق الحرائق أعمدة سوداء من الدخان

---

(١) ايقونة كبيرة لمريم العذراء كانت تحفظ في كنيسة سمولنسك منذ القرن الرابع عشر وتعتبر عجائبية .



@ketab_n @4_readers

وامتدت على جانبيها • وفي الشارع كان الجنود ، ببزاتهم المتباينة ، يسيرون أو يركضون في كل الاتجاهات ، لافي صفوف منتظمة ، بل كما يدب النمل الذي خُربّت قريته • ودلف بعضهم الى فناء نزل « فيرابوتتوف » على مرأى من « ألباتيتش » • سار « ألباتيتش » الى البوابة الخارجية • واذا بفوج يندافع ويُسرع ويزحم الشارع ، وهو يتراجع • فقال له ضابط حين شاهده :

امض ، امض ، فسوف تُخلى المدينة •

ثم نظر الضابط الى الجنود وهو يصرخ :

ـ سأعلمكم كيف تدخلون الافنية !

عاد « ألباتيتش » الى النزل ودعا الحوذي وأمره أن يستعد للرحيل • ثم خرج في أثرهما جميع من في النزل • فلما رأت النسوة دخان الحرائق وألسنة اللهب التي أمكن رؤيتها في الغسق أخذن ينحنْ، وكن من قبل صامتات • وجاوبهن من أطراف الشارع نواح كأنه صدى لنواحهن • وفي ظل الافريز ، كان « ألباتيتش » يساعد حوذيّه ، بيديه المرتجفتين ، على تخليص الاعنة والمقاود التي تداخلت ، بعضها من بعض •

بينما كانت العربة تعبر البوابة لمح في دكان « فيرابوتتوف » المفتوحة حوالي عشرة جنود يملؤون أكياسهم بالطحين وبزر دوار الشمس • وفي هذه اللحظة بالذات دخل « فيرابوتتوف » عائدا من الشارع • فلما رأى الجنود أراد أن يصرخ ، لكنه توقف فجأة وأمسك شعره بيديه وانفجر في ضحك مملوء بالنحيب • وصاح بهم ، وهو يَحْتل الاكياس بنفسه ويرميها في الشارع :



@ketab_n @4_readers

ـ خذوا كل شيء ، يا شباب ! لا تدعوا شيئا لهؤلاء الشياطين !

ففر بعض الجنود خوفا ، وظل بعضهم الاخر يملؤون أكياسهم •

وحين رأى « فيرابونتوف » « ألباتيتش » التفت اليه وصاح :

لقد قُضي على روسيا ! قضي عليها ! سأحرق كل شيء بنفسي ، قضي عليها ! •••

واندفع مسرعا الى الفناء •

كان الجنود يتدفقون أمواجا متصلة في الشارع الذي سدوه بأكمله حتى أن ألباتيتش عجز عن المرور واضطر الى الانتظار ، كما أن زوجة « فيرابونتوف » كانت تنتظر أيضا هي وأطفالها ، في عربة ، كي يتسنى لها المرور •

خيم الليل • وفي السماء المنجمة ، كان الهلال يلتمع ، بين الحين والحين ، خلال ستار من الدخان • وعند منحدر « الدنيبير » اضطرت عربتا « ألباتيتش » وزوجة صاحب النزل الى التوقف ، وكانتا تجريان ببطء وسط صف من العربات والجنود • وغير بعيد عن المفترق الذي توقفتا فيه ، كانت النار تشتعل في أحد البيوت وفي دكاكين على شارع هناك • وقد أشرف الحريق على نهايته • فكانت النار تخبو وتتلاشى في الدخان الاسود تارة ، وتارة أخرى تنطلق على حين بغتة ، حزمة من لهب يضيء وجوه الذين يزدحمون عند المفترق بوضوح غريب • ونزل « ألباتيتش » من عربته ، فلما أيقن أنه لن يتاح له المرور في الحال مال الى الشارع ليرى الحريق عن قرب • كان الجنود يروحون ويجيئون بغير انقطاع أمام الجمر ، ورأى « الباتيتش » اثنين منهم يساعدهم رجل



@ketab_n @4_readers

ذو معطف مقصب يجرّون الى فناء مجاور ، عبر الشارع ، جسورا خشبية محترقة ، ورأى آخرين يحملون أغمارا من القش •

دنا « ألباتيتش » من جمهور عظيم احتشد أمام مستودع عال اجتاحه الحريق • كانت الجدران نهبا للنيران ، وقد انهار الجدار الخلفي ، وتداعى السقف الخشبي ، والتهبت الجسور الخشبية • كان الجمهور ينتظر ، على مايبدو ، اللحظة التي ينهار فيها السقف • وذلك ما كان ينتظره « ألباتيتش » •

وفجأة ، صاح به صوت معروف :

ــ « الباتيتش » !

فرد « ألباتيتش » وقد عرف ، من فوره ، صوت الامير الشاب :

ــ يا الهي ، سعادتك !

كان الامير آندره ، خلف الجمهور ، ينظر اليه وهو يتدثر بردائه ، ويمتطي حصانا أسود • سأل « ألباتيتش » :

ــ ماذا تفعل هنا ؟

فأجاب « ألباتيتش » وقد انفجر باكيا :

ــ يا صاحب السعادة ••• ، يا صاحب السعادة ••• ، هل هُزمنا حقـا ؟

وكرر الامير آندره :

ــ ماذا تفعل هنـا ؟

هبت النار فأضاءت وجه سيده الشاب،ذلك الوجه الشاحب المنهوك•



@ketab_n @4_readers

وقص عليه « ألباتيتش » كيف أُرسل الى « سمولنسك » وكيف تعسر عليه الرجوع • ثم كرر سؤاله :

وهل هزمنا حقا ، يا صاحب السعادة ؟

أخرج الامير آندره دفترا صغيرا ، دون أن يجيبه ، وكتب فوق ركبته المرفوعة ، كلمات بالقلم الرصاصي على ورقة انتزعها • كتب ما يلي لاخته : « سوف تُخلى سمولنسك • وسوف يحتل العدو « ليسييه خوري » في مدى ثمانية أيام • اذهبوا من فوركم الى موسكو • أخبريني فور رحيلكم برسالة الى « اوسفياج » •

وبعد أن سلم الرقعة الى « ألباتيتش » أصدر اليه تعليماته شفهيا بشأن سفر الامير والاميرة وابنه ومربيه ، وبشأن الجواب الذي يجب أن يُرسل اليه مباشرة • ولم يكد يُنهي كلامه حتى أقبل نحوه ضابط ركن ، على حصانه ووراءه تبعه ، وصرخ بلهجة ألمانية وبصوت ألفه الامير آندره :

ــ أنت عقيد ؟ المنازل تُحرق بحضورك ، ولاتحرك ساكنا ؟ مامعنى هذا ؟ ستتحمل تبعة ذلك •

هكذا صرخ « بيرج » الذي غدا نائب رئيس أركان الجناح الايسر في مدفعية الجيش الاول ، وهو مركز لطيف مرموق ، على حد قوله •

نظر اليه الامير آندره واستمر ، دون أن يرد عليه ، على حديثه مع « الباتيتش » •

ــ قل لهم اذن أنني انتظر الجواب في العاشر من هذا الشهر ، واذا لم أتلق في هذا التاريخ رسالة تشعرني بأن كل من في « ليسييه خوري»



@ketab_n @4_readers

قد سافر ، فسوف أُضطَر الى ان اترك كل شيء والى ان اذهب بنفسي الى « ليسييه خوري » •

قال « بيرج » وكأنما أراد أن يُبرّئ نفسه بعد أن عرف الامير آنـدره :

ــ اذا كنت أتكلم على هذا النحو ، أيها الامير ، فذلك لان عليّ أن أنفذ الاوامر ، أن انفذها بحذافيرها ••• أرجو المعذرة •

سُمع صوت تقصّف وسط اللهب • وهدأت النار لحظة ، وانطلقت من السقف أعمدة الدخان الاسود • ثم علا صوت تقصّف أشد وانهارت كتلة ضخمة من المستودع •

وهدرت الجماهير : « هو ــ هو ــ هو » ، محيّية بذلك انهيار سقف المستودع الذي انبعثت منه رائحة الخبز المحروق • وهب اللهب وأضاء الوجوه المنهوكة التي تفيض بفرح جماعة متحلّقين حول جمر الموقد •

صاح الرجل ذو المعطف الصوفي الغليظ ، وهو يرفع يـده الى الفضاء :

ــ عظيم ! انه يلتهب برمته ! رائع ، يا شباب !

قالت أصوات :

ــ هذا مالك المستودع ذاته •

قال الامير آندره لألباتيتش :

ــ فهمت ؟ كرّرْ لهم ما قلت لك وكما قلته لك •

وهمز حصانه وتوارى في الشارع دون أن يرد بكلمة على « بيرج » الذي كان يقف بجنبه صامتا •



@ketab_n @4_readers

# الفصل الخامس

بعد « سمولنسك » ظلت القوات تتراجع ، والعدو يلحق بها . وفي العاشر من آب مرّ الفوج الذي يقوده الامير آندره على الطريق الكبرى أمام الطريق التي تفضي الى « ليسييه خوري » . كان الجفاف والحرارة مستمرين منذ اكثر من ثلاثة أسابيع . وكانت الغيوم البيضاء كقطعان الغنم تجري في السماء كل يوم ، وتغطي الشمس بين الحين والآخر ، لكنها كانت تتبدد في المساء ، فتغيب الشمس في ضباب أحمر تشوبه سمرة . كان ندى الليل الوفير وحده هو الذي يندي الارض . وقد احترق القمح القائم وتساقط حبّه ، وجفّت المستنقعات وجأرت الدواب من الجوع حين لم تجد ما تغتذي به في المروج المتكلسة من جراء الشمس . كانت الندواة تلم بالغابات في الليل وحده، وتستمر ما استمرت قطرات الندى . أما على الطريق ، على الطريق الكبرى التي يسلكها الجند ، فلم يكن هناك نداوة ، حتى في الليل وحتى أثناء عبور الغابات . ذلك أن الندى كان يتبدد في غبار الطريق الرملي ،المثار الى عمق نصف قدم . فمنذ الفجر ، تبدأ الحركة .وتسير القوافل والمدفعية بلا ضجيج ، اذ تغوص المدافع حتى قبّتها ، ويغوص المشاة حتى كعابهم ، في هذا الغبار الملتهب ، الرخو ، الخانق الذي لم يكن يبرد في الليل . كان بعضه مما تثيره الاقدام والعجلات ، وكان البعض الآخر يعلو على شكل سحابة فوق القطعات وينفذ الى العيون



@ketab_n @4_readers

والشعور والآذان والانوف ولاسيما الى رئات الرجال والخيل . كانت السحابة تعلو كلما ارتفعت الشمس ، ومن خلال هذا الغبار الدقيق المحرق ، كان من الممكن للمرء أن يرى بالعين المجردة الشمس التي لا تغطيها أية غيمة والتي كانت تبدو مثل كرة أرجوانية ضخمة . كان الناس يختنقون في هذا الجو الساكن الذي لا ريح فيه ويسيرون وقد غطّوا أفواههم وأنوفهم بمناديلهم . فاذا مروا بالقرى تراكضوا الى الآبار ، وتقاتلوا على الماء ، واستنزفوا ماءها حتى وحلها .

كان الامير آندره يقود فوجا ، وكانت ادارة ذلك الفوج ، وراحة رجاله وضرورة تلقي الاوامر واصدارها تستأثر به . وقد ترك فيه حريق سمولنسك والتخلّي عنها أثرا لا يمحى . وأنساه حزنه شعور جديد من الغضب الحاقد على العدو . كان يستفرغ جهده في سبيل فوجه وكان يفيض أنسا ورفقا ازاء جنوده وضباطه . فكانوايسمّونه « أميرنا » ويفخرون به ويحبّونه . لكنه لم يكن رفيقا واسع الصدر الا مع رجال فوجه ، مع تيموخين والآخرين ، وهم ناس جدد كل الجدة عليه ، ينتسبون الى وسط آخر ، ولا يمكنهم أن يعرفوا ماضيه أو يفهموه ، أما اذا لقي أحد زملائه القدماء ، من جماعة الاركان تنمّر من فوره وغدا فظّا ساخرا ، مستخفا . كان ينفر من كل ما يربطه بذكريات الماضي ، ولذلك كان همه الوحيد ، في علاقاته بوسطه القديم ألا يجور على أحد وأن يؤدي واجبه .

في الحقيقة ، كان كل شيء يبدو ، في نظر آندره مظلما ، ولا سيما منذ التخلي عن « سمولنسك » ( التي كان يمكن ويجب الدفاع عنها ، برأيه ) ، ومنذ أن اضطر أبوه المريض الى اللجوء الى موسكو ، وترك



@ketab_n @4_readers

« ليسييه خوري » التي أحبها كثيرا وبناها وعمرها ، هدفا للنهب والسلب ؛ على أن انشغاله بفوجه كان يمكن أن يحوّله عن التفكير في هذه المشاغل العامة . وفي العاشر من آب وصل الرتل الذي فوجه جزء منه ، الى حذاء « ليسييه خوري » . وكان الامير قد تلقى قبل يومين نبأ رحيل ابيه وابنه واخته الى موسكو . ومع أنه لم يكن لديه ما يفعله في « ليسييه خوري » ، فقد عزم على المرور بها تلبية لرغبة كامنة فيه وهي أن ينكأ جراحه القديمة .

أمر بحصان فأُسرج ، ومن المرحلة التي توقف فيها الفوج ، مضى الى أملاك أبيه التي ولد فيها وقضى فيها طفولته . وعندما سار بحذاء المستنقع حيث كانت النسوة من قبل يخبطن غسيلهن ويقلّبنه في الماء وهن يثرثرن ، شاهد أنه لم يكن هناك أحد وأن الرمث الصغير الذي انفصل عن الشاطىء ، والذي غاص نصفه في الماء ، مازال عائما في وسط المستنقع . اقترب من بيت الحارس ، ولم ير أحدا قرب البوابة الحجرية الكبيرة ، وكان الباب مفتوحا . وقد طلع العشب في ممرات الحديقة ، وكانت العجول والخيل ترعى في الحديقة المصنوعة على الطراز الانكليزي . اتجه نحو البيوت الزجاجية : كان الزجاج محطّما وكانت الاشجار المغروسة في صناديق ، مقلوبة أو جافة . ونادى البستاني « تاراس » فلم يجبه أحد . طاف بالبيوت الزجاجية حتى انتهى الى المصطبة فرأى أن السقيفة الخشبية مدمّرة ، وأن الذين أرادوا قطف الخوخ نزعوا الاغصان بخوخها . وكان فلاح شيخ ( طالما رآه آندره في طفولته قرب البوابة ) جالسا على المقعد الاخضر يحيك جوربا

كان الشيخ أصم فلم يشعر باقترابه . وكان يجلس على المقعد الذي كان الامير الشيخ يحب أن يجلس عليه وقد علّق كبّة خيوط على غصن مكسر من شجرة منغولية جافة .



@ketab_n @4_readers

اقترب الامير آندره من المنزل • كانت بعض أشجار الزيزفون في الحديقة القديمة قد قطعت ، وكانت هناك فرس بلقاء تسرح مع مهرها أمام البيت بالذات ، بين شجيرات الورد • وقد سمّرت المصاريع بالمسامير الا نافذة واحدة ظلت مفتوحة • واندفع صبيّ الى المنزل لدى رؤية الامير آندره •

بقي « ألباتيتش » وحده في « ليسييه خوري » بعد أن رحّل عائلته ، كان في البيت يطالع « حياة القديسين » ، فلما علم بوصول الامير آندره خرج وهو يزرّر ثيابه ودنا منه بسرعة ، ونظارتاه على أنفه ، وانفجر باكيا وهو يقبّل ركبتيه دون أن يقول شيئا •

ثم أشاح بوجهه وقد نقم على نفسه ضعفها ، وشرح له الوضع : لقد نقلت كل الاشياء الثمينة الى « بوغوتشاروفو » • كما نقل مايقرب من مائتين وخمسين كنتالا من القمح ، أما الكلأ وقمح الربيع ، ذلك المحصول النادر المثيل ، على حد قوله ، فاستولت عليه وحصدته القطعات وهو أخضر • ونكب الفلاحون فنزح بعضهم الى « بوغو تشاروفو » ، ومكث هنا قلة قليلة •

سأله الامير آندره دون أن يتيح له انهاء كلامه :

ــ متى ذهب والدي واختي ؟

قصد آندره ذهابهما الى موسكو ، وظن « ألباتيتش » أنه يسأل عن ذهابهما الى « بوغو تشاروفو » فأجاب بأنهما ذهبا في السابع من الشهر وأفاض في الحديث عن الاعمال وطلب تعليماته • وسأله :

ــ هل ينبغي تسليم الشوفان للقطعات مقابل ايصال ؟ بقي لدينا ألف ومائتا كنتال •



@ketab_n @4_readers

وفكّر الامير آندره : « بماذا أجيبه » ؟ وهو ينظر الى صلعة الشيخ الملتمعة في الشمس ويقرأ في وجهه انه يدرك عدم مناسبة هذه الاسئلة لمقتضى الحال وأنه انما يطرحها لكي يخنق حزنه . قال الامير آندره :

ـ نعم ، افعل ذلك .

وقال « الباتيتش » :

ـ اذا كنت لاحظت الفوضى في الحديقه فذلك لانه كان من المتعذّر الحيلولة دونها ، ذلك أن ثلاثة افواج قضت الليل هنا ، ومعظمهم من الفرسان . وقد سجلت رتبة القائد واسمه لاتقدم بالشكوى .

سأله الامير آندره :

ـ وأنت ، ماذا ستفعل ؟ أتنوي البقاء هنا ان جاء العدو ؟

أقبل « ألباتيتش » عليه بوجهه ، ونظر اليه ، ورفع فجأة يده الى السماء بحركة مهيبة وقال :

ـ انه مخلّصي ، فلتكن مشيئته !

تقدم من الامير آندره على الارض المعشبة جماعة من الفلاحين والخدم ، حاسري الرؤوس .

قال الامير آندره لالباتيتش وهو يميل اليه :

ـ الوداع ! اذهب أنت أيضا واحمل كل ما تستطيع حمله وقل لهؤلاء الناس أن يذهبوا الى أملاكنا في « ريازان » أو في ضواحي موسكو .

ألصق « الباتيتش » نفسه بساق الامير آندره وطفق ينتحب ،



@ketab_n @4_readers

فنحّاه الامير آندره برفق ثم أرسل حصانه عدوا ونزل الممر .

على المصطبة أمام البيوت الزجاجية ، كان الشيخ يعالج جوربه المثبت فوق قالب ، غير مكترث بما يجري حوله كذبابة على وجه ميت عزيز . واصطدمت بالامير آندره فتاتان كانتا تركضان وقد رفعتا تنورتيهما اللتين ملأتاهما بالخوخ من أشجار البيوت الزجاجية . فلما رأتا الامير الشاب أمسكت كبراهما وهي مذعورة ، بيد الصغرى واختبأتا خلف شجرة بتولة دون أن تلمّا الخوخ الفج الذي تدحرج على الارض .

لوى الامير آندره رأسه بسرعة كيلا يريهماأنه شاهدهما . وأخذته الشفقة على تلك الفتاة الجميلة المذعورة . كان يخشى أن ينظر اليها لكنه كان ، في الوقت نفسه ، يرغب في ذلك رغبة جامحة . واستولى عليه شعور جديد ، شعور يشد من عزيمته ويُدخل الامن الى نفسه عندما أدرك ، وهو يرى هاتين الفتاتين ، وجود اهتمامات اخرى في الحياة غريبة كليا عن اهتماماته ، ومشروعة مثلها . كان واضحا أن هاتين الفتاتين شُغفتا بشيء واحد وهو أن تحملا هذا الخوخ الفج وأن تأكلاه من غير أن يقبض عليهما أحد ، وكان الامير آندره يتمنى معهما نجاح مشروعهما . فلم يتمالك من أن يُلقي عليهما نظرة أخرى . لقد تركتا مخبأهما اذ اعتقدتا أنهما بمنجى من الخطر ، وراحتازقزقان بصوتيهما النحيفين ، وكل منهما تمسك بطرف تنورتها ، وهما تركضان فرحتين مثوثبتين على عشب المرج ، بساقيهما الصغيرتين ، العاريتين اللتين لوحتهما الشمس .

تبرّد الامير آندره قليلا حين ترك غبار الطريق التي تسير عليها



@ketab_n @4_readers

القوات . لكنه عاد اليها غير بعيد عن « ليسييه خوري »،وأدرك فوجه الذي كان متوقفا قرب سدّ مستنقع صغير . كانت الساعة هي الثانية بعد الظهر ، والشمس كرة حمراء في الغبار ، تحرق الظهور من خلال الستر السوداء ، على نحو لايطاق ، والغبار باق على حاله ، يحوّم ساكنا فوق الجند الذين توقفوا وقد ضجّ بلغطهم المكان ، والريح ساكنة . وعندما حاذى الامير آندره السدّ أحس برائحـة الوحـل وبنداوة المستنقع . فاشتهى أن يغطس في الماء على ما في الماء من وسخ . وأدار رأسه الى المستنقع الذي وافت منه الصرخات والضحكات .بدا له هذا المستنقع الصغير المعكّر ، المغطّى بالطحلب ، كأنما ارتفعت مياهه الى نصفه وكأنما يريد ان يغمر السد ، وذلك لانه كان ممتلئا بأجساد الجنود العارية البيضاء . كان الجنود يتخبطون في الوحل وقد اصطبغت أيديهم ووجوههم وأعناقهم باللون الأحمر القرميـدي . ووسط الضحكات والصرخات كانت الاجساد البشرية العارية البيضاء تتخبط في هذه البركة الآسنة كالسمك المكوّم في مسقاة . كان هذا الاستحمام مشبعا بالبهجة ، وذلك ما أسبغ عليه حزنا خاصا .

هذا جندي شاب اشقر ، من الفوج الثالث ، على ربلة ساقة سير من جلد ، يعرفه الامير آندره ،قد تراجع وهو يرسم اشارة الصليب لكي يتحفز للوثب ويغطس . وذاك ضابط صف اسمر الوجه ، أشعث الشعر ، غارق في الماء الى وسطه، يهزّ جذعه القوي العضلات ،وينتفض فرحا وهو يصبّ الماء على رأسه بيديه السوداوين حتى المعصم.وكانت تسمع ضوضاء الاصطفاق ، والصرخات الحادة ، وصيحات التعجب .

على ضفاف المستنقع ، وفوق السد ، وفي المستنقع ، انتشرت هذه



@ketab_n @4_readers

الاجساد البيضاء ، السليمة القوية العضلات • وكان تيموخين الضابط ذو الانف الاحمر ، يجفّف جسده فوق السد ، بمنشفة ، فلما رأى الامير آندره ارتبك ، لكنه قال له :

ـ ان هذا نافع ، ليتك تجرّب يا صاحب السعادة !

قال الامير آندره مكشرا :

ـ الماء وسخ •

ـ سوف ننظفه لك على الفور •

وركض « تيموخين » ، وهو عار ، الى المستحمين يقول لهم :

ـ الامير يرغب في أن يستحم •

فهتفت أصوات كثيرة :

ـ أيّ أمير ؟ أميرنا ؟

وأقبلوا جميعا عليه حتى أنه وجد مشقة كبيرة في تهدئتهم •

وقرر أن يغتسل في العنبر •

قال في نفسه ، وهو ينظر الى جسمه العاري : « ذلك هو الجسد جسد الجندي ، « لحم المدفع » ، ولم يرتعد من البرد قدر ارتعاده من شعور الاشمئزاز والهول ، وهو شعور استولى عليه لدى رؤية هذه الاجساد المتخبطة في المستنقع الوحل ، واستعصى عليه فهمه •

في السابع من آب كتب الامير باغراتيون من معسكره في ميخايلوفكا على طريق سمولنسك ، ما يلي :

سيدي الكونت « الكسي اندريفتش »



@ketab_n @4_readers

( كان يكتب الى « آراكتشيف » لكنه كان يعلم أن الامبراطور سيقرأ رسالته،ولذلك كان يزن كل كلمة من كلماتها،جهد المستطاع ) .

« اعتقد ان الوزير(١) اعلمكم بالتخلي عن « سمولنسك » للعدو . وهو شيء مؤلم ومحزن . ان الجيش باسره مغتم لان اعظم مواقعنا شأنا ترك بلا ضرورة . ولقد الححت عليه الحاحا شديدا ، كما انني كتبت اليه بهذا الصدد ، لكن ذلك كله لم يثنه عن عزمه . انني اقسم لك بشرفي ان نابليون كان في جيب لم ير مثله قط ، وانه كان جديرا ان يخسر نصف جيشه قبل ان يتمكن من الاستيلاء على « سمولنسك » . ان قطعاتنا قاتلت وما تزال تقاتل قتالا منقطع النظير . فبخمسة عشر الف رجل اوقفت تقدّم العدو خلال اكثر من خمس وثلاثين ساعة وهزمته ، لكنه هو لم يشأ ان يصمد اكثر من اربع عشرة ساعة . ان ذلك لعار على جيشنا ووصمة لحقت به ، أما هو فيخيل الي أنه غير اهل للحياة . وحين يعلن ان الخسائر فادحة فكلامه غير صحيح ، ربما كانت اربعة آلاف رجل ، لا اكثر ، بل لعلها دون ذلك ، وحتى لو كانت عشرة آلاف رجل ، ما حيلتنا ؟ انها الحرب ! وفي المقابل تكبّد العدو خسائر لا تحصى ...

ما ضرّه لو ثبت يومين آخرين ؟ على الاقل ، كانوا سينصرفون من تلقاء أنفسهم لان ماءهم وماء خيلهم نفد ، لقد كان وعدني أنه لن يتراجع ولكن اذا به يرسل اليّ على حين غرة ، ترتيبا قتاليا ينبئني فيه انه سيرتحل في الليل . لا يمكن ان نخوض الحرب على هذا النحو ولن يطول بنا الامر حتى نأتي بالعدو الى موسكو .

راجت الشائعات عن أنكم تفكرون في الصلح . العياذ بالله من عقد الصلح ! أبعد كل تلك التضحيات وكل تلك التراجعات النكراء نعقد الصلح ! ستستعدون روسيا كلها عليكم ، وسيعدّ كل واحد منا ارتداء البزة العسكرية عارا . بما اننا وصلنا الى هذا الحد فينبغي ان نقاتل ما دامت روسيا قادرة على ذلك ، وما دام الرجال يقفون على اقدامهم...

يجب ان يكون هناك قائد واحد لا اثنان . ربما كان وزيركم صالحا

---

(١) الوزير هو قائد الجيش الاول ، وزير الحرب : باركلي دي تولي .



@ketab_n @4_readers

في وزارته ، اما من حيث هو قائد فانه ليس رديئا فحسب ، بل انـه ممقوت ، واليه انما عهدتم بمصير وطننا .. اني لافقد صوابي من الغيظ ، فاغفر لي جسارتي فيما اكتب . ان كل من يشير بعقد الصلح وبابقاء الوزير قائدا للجيش كاره لامبراطوره راغب في هلاكنا جميعا . اقول لكم الحقيقـة : شكلوا فرق المتطوعين . لان الوزير يصطحب ضيفه الى العاصمة بانسب الطرق اللائقة بمقامه . اما مساعده العسكري((ولزوجين)) فانه يوحي بشكوك جسيمة في الجيش بأسره . ويقال انه يخدم نابليون اكثر مما يخدمنا ، وهو الذي يشير على الوزير بكل ما يفعله . وأما انا فانني لا التزم باللطف والادب معه فحسب بل اني اطيعه كما يطيع العريف رئيسه ، مع اني اقدم منه . ان هذا مؤلم ولكنني اذعن حبا بوليّ نعمتي وبامبراطوري . انني آسف فقط لان امبراطورنا أوكل امر جيشنا المجيد الى مثل هؤلاء الناس . تصوَّر اننا خسرنا بانسحابنا ما يزيد على خمسة عشر الف رجل من الانهاك وفي المستشفيات ، ولو أننا تقدمنا لما وقع ذلك كله . قل لي ،بحق السماء ، ماذا ستقول روسيا ، أمنا ، وهي ترى الخوف يبلغ بنا هذا المبلغ ، وترانا تسلم هذا الوطن الخيّر المقدام الى الاوباش ، ونبعث في نفس كل مواطن الكره والعار ؟ لماذا نخاف وممن نخاف ؟ ليست خطيئتي ان كان الوزير مترددا ، جبانا ، مغفلا ، بليدا ، وان كان يجمع كل العيوب في ذاته . الجيش مجمع على البكاء وعلى لعنه بدون شفقه ..



@ketab_n @4_readers

# الفصل السادس

بين ما لا يحصى من أنماط الحياة ، يمكن أن نميّز تلك التي يغلب عيلها المضمون ، وتلك التي يغلب عليها الشكل . وفي عداد الانماط التي يغلب عليها الشكل نستطيع أن نضع الحياة في بطرسبرج ولاسيما حياة المنتديات فيها خلافا للحياة في الريف وفي المقاطعة وفي الاقليم وحتى في موسكو . ان تلك الحياة لاتتحول ولا تتغير .

فمنذ ١٨٠٥ ونحن نتصالح ونتخاصم مع « بونابرت » ، وننشيء الدساتير ونلغيها ، لكن منتدى « آنابافلوفنا » ومنتدى « هيلين »ظلاّ على ما كانا عليه بدقة، الاول قبل سبع سنين، والثاني قبل خمس سنين. ما انفك الناس يتحدثون بدهشة ، لدى « آنا بافلوفنا » عن نجاحات « بونابرت » ، ويرون في نجاحاته وفي محاباة ملوك اوروبا له مؤامرة غادرة ترمي فقط الى تكدير هذه الجماعة من البلاط التي كانت « آنا بافلوفنا» ممثّلة لهاوالىازعاجها. أمالدى«هيلين»التي كانرومياتنسيف يكرّمها بزياراته ويعتبرها امرأة موفورة الذكاء ، فكانوا يتحدثون في سنة ١٨١٢ كما كانوا يتحدثون في سنة ١٨٠٨ بالحماسة نفسها عنالامة العظيمة والرجل العظيم ، ويأسفون للقطيعة مع فرنسا ، وهي قطيعة يجب أن تنتهي بالصلح ، في رأي المترددين على هذا المنتدى .

في الآونة الاخيرة ، وبعد عودة الامبراطور من الجيش شهد هذان



@ketab_n @4_readers

المنتديان المتعارضان شيئا من الاضطراب وظهرت بينهما بعض البوادر العدائية ، لكن اتجاهيهما استمرا على حالهما . ففي مجلس « آنا بافلوفنا » لم يكن يقبل ، من الفرنسيين ، سوى عتاة المدافعين عن الشرعية ، وفيه كان يُشاد بالفكرة الوطنية التي مفادها أنه لاينبغي التردد على المسرح الفرنسي[1] الذي يكلف من النفقات ما يكفي فيلقا بأسره ، وفيه كانت تتتبع الاحداث العسكرية بنهم وتنشر أفضل الشائعات عن الجيش . أما في مجلس « هيلين » ،مجلس « روميانتسيف مجلس مناصري فرنسا ، فكانت تكذب الشائعات التي تتناقل وحشية العدو والحرب ، وتناقش جميع محاولات التصالح التي قام بها نابليون . كان اللوم ينصب هنا على الذين يُشيرون ، متسرعين، باجلاء البلاط ومؤسسات تعليم البنات الموضوعة تحت رعاية الامبراطورة الام ، الى « كازان » . وعلى وجه العموم ، لم تكن العمليات العسكرية تعتبر ، في منتدى « هيلين » ، سوى تظاهرة تافهة ستؤدي قريبا الى الصلح ، وكان رأي « بيبلين » الذي غدا في بطرسبرج من رواد هذا المنتدى ( من واجب كل رجل ذكي أن يشارك في هذا المنتدى ) ، ملزما ، ورأيه أن البارود لن يحسم المشكلة ، وانما يحسمها الذين خلقوها . وكان رواد هذا المنتدى يسخرون بكثير من البراعة، وبشيء من الحذر ، من حماسة موسكو التي بلغت انباؤها بطرسبرج عند عودة الامبراطور .

أما حلقة « آنا بافلوفنا » فكانت على العكس ، تعجب بهذه الحماسة وتتحدث عنها كما يتحدث باوتارك عن الاقدمين . وكان الامير « فاسيلي الذي مازال يشغل نفس المراكز الهامة ، صلة الوصل بين هاتين الجماعتين . فهو يذهب الى منتدى « صديقتي الطيبة »

---

(١) كانت هنالك فرقة مسرحية دائمة تتألف من ممثلين فرنسيين تعرض مسرحياتها في بطرسبرج حتى اثناء الحرب .



@ketab_n @4_readers

«آنا بافلوفنا»، كما يذهب الى منتدى ابنتي «الدبلوماسي»،وغالبا ماكان يخطىء في هذا التنقّل المستمر بين الفريقين ـ فيقول في منزل « هيلين » ما كان ينبغي أن يقوله في منزل « آنا بافلوفنا »،أو العكس.

بعد عودة الامبراطور بقليل ، حمل الامير فاسيلي ، في حديثه لدى « آنا بافلوفنا » عن الحرب ، على « باركلي دي تولي » ، وبدا حائرا فيمن سيُختار للقيادة العامة . وقد روى أحد المدعوين الذي أطلق عليه اسم : الرجل الفاضل ، أنه شاهد في اليوم نفسه « كوتوزوف » الذي انتخب قائدا للمتطوعين في بطرسبرج ، يترأس في ديوان المالية استقبال المتطوعين ، ومضى الى القول : ان « كوتوزوف » قد يكون الرجل المناسب لمتطلبات الوضع .

ابتسمت « آنا بافلوفنا » ابتسامة حزينة ولفتت نظره الى أن « كوتوزوف » لم يخلق سوى المتاعب للامبراطور .

فقاطعها الامير « فاسيلي » قائلا :

لقد قلت ذلك وكررته لمجلس النبلاء . فلم يصغ الي أحد . قلت ان انتخابه قائدا لجيش المتطوعين لا يطيب للامبراطور ، فلم يصغوا الي. وأضاف :

ـ انهم مولعون دائما بالنقد . وأمام من ؟ كل ذلك لاننا نريد أن نقلد حماسة الموسكوفيين الرعناء .

قال ذلك وقد اختلط عليه الامر لحظة ونسي أنه انما ينبغي ان يسخر من حماسة موسكو في منزل هيلين ، وأن يشيد بها في منزل « آنا بافلوفنا » . ثم استدرك من فوره :



@ketab_n @4_readers

ـ أمن المناسب أن يقيم الكونت « كوتوزوف » وهو أقدم الجنرالات الروس ، هناك ، فيذهب جهده ادراج الرياح ! أمن الجائز أن يكون القائد العام رجلا يعجز عن ركوب الجواد، وينام في المجلس، رجلا من أسوأ الناس أخلاقا ! لقد ترك سمعة حسنة في بوخارست ! انني لا أتحدث عن ميزاته كجنرال ، لكن أمن الجائز حقا ، في هذه اللحظة ، تعيين رجل عاجز وأعمى ، أعمى بكل بساطة ؟ جنرال أعمى، سيكون ذلك ظريفا! انه لايرى شيئا، أولى به أن يلعب لعبة الاستغماء... انه لايرى شيئا على الاطلاق !

ولم يعترض عليه أحد .

في الرابع والعشرين من تموز ، كان هذا الكلام مشروعا تماما ، لكن « كوتوزوف » مُنح في التاسع والعشرين من تموز لقب أمير . وذلك قد يعني الرغبة في التخلص منه ، وفي هذه الحالة يظل رأي الامير « فاسيلي » مشروعا ، مع أنه لم يتعجل في ابدائه . بيد ان لجنة مؤلفة من المارشال « سالتيكوف » و « آراكتشيف » و « فيازميتينوف » و « ليبوكين » و « كوتشوبي » ، اجتمعت ، في الثامن من آب للتشاور في أمر الحرب ، وانتهت الى أن الفشل ينبع من ازدواجية القيادة ، فاقترحت ، بعد مشاورة قصيرة ، تعيين « كوتوزوف » قائدا عاما ، مع علمها أن « كوتوزوف » لم يكن ذا حظوة لدى الامبراطور . وفي اليوم نفسه عيِّن « كوتوزوف » قائدا عاما للجيوش ولجميع المناطق التي تحتلها .

في التاسع من آب ، التقى الامير « فاسيلي » في منزل « آنا بافلوفنا» و « الرجل الفاضل » مرة أخرى . كان « الرجل الفاضل » الذي يطمع في منصب القيّم على مؤسسة للفتيات ، يغازل « آنا بافلوفنا » . دخل



@ketab_n @4_readers

الامير « فاسيلي » كما يدخل الرجل الظافر الذي تحققت رغباته ، وقال وهو يتنقّل في الحاضرين نظرات صارمة :

ــ هل علمتم بالنبأ العظيم ؟ أصبح الامير « كوتوزوف » مارشالا. انتهت الخلافات . وأنا جدّ مسرور لذلك ، جدّ سعيد . وأخيرا ، هوذا رجــل !

لم يتمالك « الرجل الفاضل » نفسه ، بالرغم من رغبته في الحصول على ذلك المركز ، من تذكير الامير « فاسيلي » بأن رأيه كان مختلفا من قبل ( كان ذلك خروجا منه على اللياقة ازاء الامير « فاسيلي » في منزل « آنا بافلوفنا » وازاء « آنا بافلوفنا » ذاتها التي استقبلت النبأ بفرح جم ، لكنه لم يتمالك نفسه . )

قال وهوَ يذكر الامير « فاسيلي » بكلماته نفسها :

ــ لكن يُقال انه أعمى ، يا سيدي الامير .

فأجابه الامير محتدا ، بصوته الخفيض ، وهو يسعل سعالا خفيفا يحسم به كل الصعوبات :

ــ دعك من ذلك ، فهو يرى مافيه الكفاية ، يرى مافيه الكفاية . وما يسرني بخاصة هو أن الامبراطور أطلق صلاحيته في الجيوش كلها وفي المنطقة بأسرها ، وهي صلاحية لم يظفر بها قائد قط .

وختم كلامه وهو يبتسم ابتسامة المنتصر .

ــ انه عاهل ثان مطلق الصلاحية .

فقالت « آنا بافلوفنا » :

ــ ان شاء الله ، ان شاء الله .



@ketab_n @4_readers

قال « الرجل الفاضل » الذي كان حديث العهد بعالم البلاط ، وراغبا في تملّق « آنا بافلوفنا » وهو يسوّغ رأيه القديم :

ـ يبدو أن الامبراطور لم يقلده هذه السلطة الا كارها . ويزعمون انه احمر خجلا عندما قيل له : « ان المليك والوطن يمنحانك هذا الشرف » ، كما تحمر فتاة قرئت عليها حكاية « جوكوندا [1] » .

فقالت « آنا بافلوفنا »

ـ لعله لادخل للقلب في ذلك .

هتف الامير « فاسيلي » بحرارة :

ـ اوه ! كلا ، كلا ! كلا هذا غير ممكن ، لان الامبراطور عرف كيف يُقدر فضله .

لم يعد بوسع الامير « فاسيلي » ان يتخلى عن « كوتوزوف » . وفي رأيه أن « كوتوزوف » لم يكن كاملا فحسب ، بل ان كل الناس كانوا يعبدونه .

قالت « آنا بافلوفنا » :

ـ عسى أن يتسلم الامير « كوتوزوف » السلطة بيده ، وألا يسمح « لاحد » بوضع العصي في العجلات .

فهم الامير « فاسيلي » على الفور من المقصود بقولها « أحد » وقال فيما يشبه الهمس :

ـ علمت من مصدر موثوق أن « كوتوزوف » اشترط ألا يكون ولي العهد[2] في الجيش . أتعلمون ماذا قال للامبراطور ؟ وكرر الامير

---

(1) حكاية غزلية من حكايات لافونتين بناها على موضوع ماخوذ من « رولان الهائج » لاريوست ( النشيد الثامن والعشرون ) .

(2) اخو الامبراطور .



@ketab_n @4_readers

« فاسيلي » الكلمات التي لعل « كوتوزوف » قالها للامبراطور : « ليس بوسعي معاقبته ان أساء ولا مكافأته ان أحسن » . ثم قال :

ـ أوه ! الامير « كوتوزوف » أعظم الناس ذكاء ، وأنا أعرفه منذ زمن طويل .

وعلق « الرجل الفاضل » الذي تنقصه لباقة أفراد الحاشية قائلا :

ـ ويقال أيضا ان صاحب السمو اشترط أيضا ألا يأتي الامبراطور نفسه الى الجيش .

وما كاد يفوه بهذه الكلمات حتى انصرف عنه الامير « فاسيلي » و « آنا بافلوفنا » ، وتبادلا نظرة استياء وهما يتأوهان من سذاجته .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل السابع

بينما كان ذلك كله يجري في موسكو ، كان الفرنسيون قد تجاوزوا « سمولنسك » وأخذوا يقتربون من موسكو . ان مؤرخ نابليون « تيير » يذهب ، ككل المؤرخين الآخرين ، بغية تبرئة بطله ، الى أن نابليون اجتذب بالرغم منه الى جدران موسكو . و « تيير » على حق كما أن جميع المؤرخين الذي يحاولون تفسير الحوادث التاريخية من خلال مشيئة رجل واحد على حق ؛ انه على حق كمثل المؤرخين الروس الذين يؤكدون أن نابليون استدرج الى موسكو ببراعة الجنرالات الروس . ونحن نجد هنا ، فضلا عن قانون الارتداد الى الماضي الذي يعرض الماضي كله وكأنه اعداد لحدث منجز تام ، تداخلا يخلط الاشياء بعضها ببعض . ان اللاعب الماهر الذي يخسر مباراة الشطرنج قانع بصدق أنه انما خسرها من جراء خطأ ارتكبه ، فهو يبحث عنه في بداية اللعبة ، ناسيا أنه ارتكب أخطاء أخرى أثناء اللعب ، وأن كلا من حركاته لم يكن كاملا . وهو لا يلاحظ الخطأ الذي استأثر باتنباهه الا لأن خصمه استفاد منه . فما بالك بلعبة الحرب التي تفوق لعبة الشطرنج تعقيدا والتي تجري في ظروف زمنية لا تدير فيها ارادة مفردة الآلات الصماء وانما ينبع كل شيء من تلاقي مالا يحصى من الارادات الفردية .

بعد « سمولنسك » سعى نابليون الى انشاب المعركة وراء « دوروجوبوج » ، أمام فيازما ، ثم أمام « تزاريفوزايميتشه » ؛ لكن



@ketab_n @4_readers

الروس لم يكن بمقدورهم خوض المعركة قبل « بورودينو » على بعد حوالي مائة واثني عشر فرسخا من موسكو ، من جراء ظروف لا حصر لها . وبعد « فيازما » أصدر نابليون تعليماته بالزحف مباشرة على موسكو .

موسكو ، العاصمة الآسيوية لهذه الامبراطورية العظيمة ، المدينة المقدسة لشعوب الاسكندر ، موسكو بكنائسها العديدة على شكل المعابد الصينية ! موسكو هذه كانت تراود أبدا خيال نابليون . كان يمتطي ، أثناء المرحلة بين « فيازما » و « تزاريفو زايميتشه » ، حصانا هجينا ، أبيض فيه كدرة يجري هملجة ، وكان يرافقه الحرس وموكب من الغلمان والمساعدين العسكريين . أما « بيرتييه » رئيس الاركان فقد تخلف ليستجوب روسياً أسره الفرسان . ثم أدرك نابليون خببا وبصحبته الترجمان « ليلورم ديدفيل » ، وأوقف حصانه وهو متهلل الاسارير .

فقال له نابليون :

ـ ما بك ؟

ـ ان قوزاقيا من فيلق « بلاتوف » يقول ان فيلق « بلاتوف » يعمل على الاتصال بمعظم الجيش ، وان « كوتوزوف » عين قائدا عاما . هو جد ذكي وثرثار !

ابتسم نابليون وأمر باعطاء هذا القوزاقي حصانا وباحضاره . لقد كان يرغب في محادثته شخصيا . فمضى عدد من المساعدين خببا ، وبعد ساعة ، دنا من نابليون « لافروشكا » القن الذي تخلى عنه «دينيسوف»



@ketab_n @4_readers

لروستوف ، وهو يرتدي سترة الخدم ، ويمتطي جوادا فرنسيا ، وعلى وجهه أمارات المكر والثمل والمرح . أمره نابليون أن يسير بجنبه وسأله:

ــ أنت قوزاقي ؟

ــ نعم ، يا صاحب النبالة ؟

**« تبسط القوزاقي في حديثه عن شؤون الحرب الدائرة الى اقصى درجات التبسط لجهله الشخصية التي كان يسير بجنبها ، ذلك ان بساطة نابليون لم يكن فيها ما يمكن ان يوحي الى هذا الخيال الشرقي بوجود ملك »** هذا ما قاله « تير » وهو يروي هذه الحادثة . والحقيقة أن « لافروشكا » الذي أخذت فيه الخمر ، البارحة ، وترك سيده بدون غداء قد جلد ثم أرسل الى القرية بحثا عن الدجاج فظل يتسكع فيها متلصصا حتى أسره الفرنسيون . كان واحدا من أولئك الخدم الاجلاف الوقحين الذين ذاقوا الامرين في حياتهم فرأوا من واجبهم أن يسلكوا في كل شيء سبيل الدناءة والخداع ؛ ووطنوا أنفسهم على خدمة أسيادهم في كل ما يطلبونه ، مستشفين بحذق نواياهم الخبيثة ولا سيما تلك التي يوحي بها الغرور والخسة .

ولما مثل « لافروشكا » بين يدي نابليون عرفه جيدا وبسهولة ولم ينفعل في شيء لكنه جهد من كل قلبه في أن يرضي أسياده الجدد .

كان يعلم حق العلم أنه أمام نابليون بلحمه ودمه ، لكن حضور نابليون لم يكن جديرا بأن يبعث الاضطراب في نفسه ، شأنه شأن حضور « روستوف » أو العريف المكلف بجلده ، اذ ليس للعريف ولا لنابليون من سلطان عليه .



@ketab_n @4_readers

أفرغ « لافروشكا » كل ما في جعبته مما يدور بين الخدم . وكان الكثير منه صحيحا . ولكن عندما سأله نابليون ان كان الروس يعتقدون أنهم سيغلبون « بونابرت » زوى بين حاجبيه وراح يفكر .

رأى في هذا السؤال فخا لطيفا ، كما يرى الناس من جبلته مثل هذا الفخ أينما كانوا ، فاكفهر وأخلد الى الصمت . ثم قال وهو يعمل فكره:

ــ أعني أنه اذا وقعت المعركة في القريب العاجل فسيكون الامر على ما يرام . أما اذا انقضت ثلاثة أيام ، وبعد هذا التاريخ فذلك يعني أن المعركة ستطول .

وترجم كلامه هذا لنابليون على النحو التالي : « **اذا نشبت المعركة قبل ثلاثة ايام فسوف يكسبها الفرنسيون ، اما اذا نشبت بعد ذلك فالله أعلم بما سيجري** » . ابتسم « ليلورم ديدفيل » عندما ترجم ذلك ، لكن نابليون لم يتسم ، مع أنه كان منبسط النفس ، وأمر أن تعاد هذه الكلمات على مسمعه .

أحس « لافروشكا » بذلك وأراد أن يسري عنه ، فقال وهو يتظاهر بأنه يجهل من هو :

ــ نحن نعلم أن لديكم « بونابرت » ، لقد هزم الناس جميعا ، أما معنا فسيكون الامر مختلفا ...

لم يعرف كيف ولا لماذا انسلت هذه الوطنية المتباهية الى كلماته . وترجمها المترجم مهملا آخرها ، فابتسم نابليون . قال « تيير » : « ان القوزاقي الشاب جعل محدثه العظيم يبتسم » . وبعد أن خطا نابليون بضع خطوات بصمت التفت الى « بيرتييه » وقال له انه يريد



@ketab_n @4_readers

ان يرى الاثر الذي سيحدثه في نفس « ابن الدون هذا » اعلامه أن الرجل الذي حادثه انما هو الامبراطور بذاته ، ذلك الامبراطور الذي نقش على الاهرامات اسمه المظفر الخالد .

نقل المترجم هذا النبأ اليه .

وفي الحال ، تصنع « لافروشكا » ، ( الذي فهم أن المراد احراجه وأن نابليون يعتقد أنه أدخل الرعب على قلبه ) ، ارضاء لسادته الجدد ، الدهشة والذهول ، وحملق فيه وتكلف تلك الهيئة التي يتخذها عادة حين يؤخذ ليجلد .

قال « تيير » : **« ما كاد المترجم يتكلم حتى اصيب القوزاقي بضرب من الانشداه ، فلم يتفوه بكلمة ، ومشى وعيناه معلقتان ابدا بهذا الفاتح الذي جاب اسمه سهوب روسيا ليبلغ مسامعه . لقد توقفت ثرثرته على حين غرة ليحل محلها شعور بالاعجاب الساذج الصامت . وبعد ان كافأه نابليون خلى سبيله كما يخلى سبيل عصفور اعيد الى الحقول التي شهدت مولده »** .

تابع نابليون طريقه ، وهو يحلم بموسكو هذه التي أسرت خياله ، على حين أخذ « العصفور الذي أعيد الى الحقول التي شهدت مولده » يعدو نحو المخافر الامامية وهو يتخيل أشياء لم تقع له ليرويها على زملائه . أما ما وقع له فعلا فكان يأنف من روايته لانه غير جدير ، في رأيه ، بأن يروى . التحق بالقوزاق وسأل عن فوجه التابع لقطعات « بلاتوف » ، وفي المساء ، لقي سيده « نيكولا روستوف » الذي كان يعسكر في « ايانكوفو » ممتطيا صهوة جواده ليقوم مع « ايلين » بنزهة في القرى المجاورة . فأمر باعطاء « لافروشكا » جوادا آخر وأخذه معه .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الثامن

لم تكن الاميرة « ماريا » في موسكو وفي منجى من الخطر كما كان يعتقد الامير آندره .

عند عودة « ألباتيتش » من « سمولنسك » بدا الامير الشيخ كأنما استفاق فجأة من حلم . فأمر بتجنيد المتطوعين في القرى وبتسليحهم ، وكتب للقائد العام يعلمه بعزمه على البقاء في « ليسييه خوري » وعلى الدفاع عن نفسه الى آخر نفس ، ويترك له أمر اتخاذ التدابير من أجل حماية الاملاك التي سيؤسر أو يقتل فيها أحد أقدم الجنرالات الروس ؛ ثم أنبأ خاصته بأنه باق في مكانه .

لكن الامير ، مع بقائه في « ليسييه خوري » دبر ترحيل الاميرة و « ديسال » والامير الصغير الى «بوغو تشاروفو» ومنها الى موسكو. بيد أن الاميرة «ماريا» خوّفها من أبيها هذا النشاط المحموم الذيأعقب خموله الحديث العهد فأبت أن تتركه وحده ، واستجازت أن تعصي أمره لاول مرة في حياتها . رفضت أن ترحل وكان عليها أن تتعرض لعاصفة هوجاء من غضب الامير . ذكرها بسيئاتها القديمة التي رماها بها ظلما وتجنيا ، وألصق بها شتى التهم ، قال لها انه تحمل فوق طاقته ، وانها أفسدت ما بينه وبين ابنه ، وأنها تظن به ظن السوء ، وأن همها الوحيد تسميم حياته ، وطردها من مكتبه قائلا لها : ان ذهابها



@ketab_n @4_readers

وبقاءها سيان عنده . وأضاف أنه لن يبالي بها بعد الآن ، وأخطرها بعدم الظهور أمامه أبدا . ولقد خفف من ألم الاميرة ماريا أنه لم يرغمها على الرحيل بالقوة وأنه اقتصر على منعها من الظهور أمامه . كانت تعلم أن ذلك دليل على سرور أبيها ، في أعماقه ، من بقائها في البيت .

في اليوم التالي لرحيل « نيكولا الصغير » ارتدى الامير الشيخ ثيابه الرسمية وتهيأ للذهاب الى مقر القائد العام . كانت العربة معدة ، ورأته الاميرة « ماريا » خارجا ببزته وأوسمته ، سالكا طريق الحديقة ليستعرض الفلاحين والخدم المسلحين . كانت تصيخ السمع وهي جالسة قرب النافذة ، الى صوته الآتي من الحديقة . وفجأة أطل بعض الخدم من الممر راكضين والذعر على وجوههم .

اندفعت « ماري » من على درج المدخل الى الطريق بين شجيرات الورد حتى بلغت الممر . واذا بجمهور من المتطوعين والخدم يقبلون عليها ، ووسط هذا الجمهور كان الشيخ القصير يجر جرا من تحت ذراعيه وهو في بزته المزدانة بالاوسمة . جرت الاميرة ماريا نحوه ، ولم تستطع أن تتبين ، في التماع الضوء الذي كان يلقي بقعا صغيرة مدورة من خلال ظل أغصان الزيزفون ، تغير ملامحه . الشيء الوحيد الذي رأته هو أن ملامح القسوة والحزم القديمة تحولت الى ملامح خوف وتواضع . ولدى رؤيته ابنته ، حرك شفتيه العاجزتين وبعث بأصوات مبحوحة . لم يكن من الممكن معرفة ما يريد أن يقوله ، فحمل من وسطه ونقل الى مكتبه ووضع على تلك الاريكة التي كان يخافها كثيرا منذ بعض الوقت .



@ketab_n @4_readers

فصده الطبيب الذي استدعي في الليل وأعلن أن الامير أصيب بالشلل في جنبه الايمن .

غدت الاقامة في « ليسييه خوري » مدعاة لخطر أشد ، وفي اليوم التالي نقل الامير الى « بوغو تشاروفو » وصحبه الطبيب .

فلما وصلوا اليها كان « ديسال » والامير الصغير « نيكولا » قد سافرا الى موسكو .

قضى الامير الشيخ المشلول ثلاثة أسابيع[1] في « بوغو تشاروفو » في المنزل الذي بناه حديثا الامير آندره ، وهو على حاله لا يتقدم ولا يتأخر . كان فاقد الوعي ، مسجى كالجثة المشوهة ، لا يكف عن الغمغمة وهو يحرك حاجبيه وشفتيه ، وكان من المتعذر معرفة ما اذا كان يعي شيئا مما حوله أم لا . الشيء المؤكد هو أنه كان يتألم ويشعر بالحاجة الى أن يقول شيئا لم يقله بعد . أما ما هو هذا الشيء فلم يفلح أحد في فهمه : أهو نزوة جديدة من مريض يهذي ، أله علاقة بالاحداث الجارية أو بشؤون الاسرة ؟

كان الطبيب يقول : ان القلق الذي يبديه لا يعني شيئا ، وأن له أسبابا جسدية خالصة ؛ لكن الاميرة ماريا كانت تعتقد ( ومما أيد اعتقادها أن قلقه كان يزداد أبدا بحضورها ) أنه يريد أن يقول لها شيئا . كان يتألم بدون ريب ، جسديا ونفسيا .

لم يكن هناك من أمل في شفائه ، وكان نقله متعذرا . « وماذا نفعل

---

(1) خطا غريب من تولستوي الذي يشير بوضوح في النص الى أن الامير الشيخ وقع مريضا في ليسييه خوري في ٦ آب ومات في ١٥ من الشهر نفسه .



@ketab_n @4_readers

لو مات في الطريق ؟ أليس من الافضل أن ينتهي كل شيء ، أن ينتهي كل شيء تماما » . هكذا كانت تحدث الاميرة ماريا نفسها أحيانا . كانت تراقبه ليل نهار ، ولا يكاد يغمض لها جفن ، وكانت تفعل ذلك غالبا ، وهو شيء رهيب ، لا على أمل أن تشهد تحسنا ، بل متمنية أن تكتشف أمارات النهاية القريبة .

كان هذا الشعور قائما في نفسها مهما بدا لها الاعتراف به غريبا منكرا . وأرهب من ذلك أن جميع رغباتها وآمالها الشخصية الغافية ، المنسية ، استيقظت فيها منذ مرض أبيها ( ولعلها استيقظت قبل ذلك ، عندما بقيت معه في انتظار شيء ما ). ان الفكرة التي لم تخطر ببالها منذ سنوات ، فكرة الحيـاة الحرة المنعتقة من سطوة أبيها ، بل وامكان الحب والسعادة الزوجية ، أخذت تستبد بخيالها وكأنها اغواء الشيطان. وغدت معرفة الطريقة التي ستنظم بها حياتها الآن ، « بعد وقوع ذلك الامر » ، مسألة تراود فكرها أبدا ، مهما فعلت لابعادها . كان ذلك من اغواء الشيطان ، وكانت الاميرة ماريا تعلم ذلك ، وتعلم أن الصلاة هي السلاح الوحيد « ضده » . وتحاول أن تصلي ، وتتخذ وضع الصلاة ، وتحدق في الايقونات ، وتتلو كلمات الصلاة ، لكنها تعجز عن الصلاة . أحست أن عالما آخر يتلقفها ، عالم الفعل ، عالما شاقا حرا مناقضا كل المناقضة للعالم النفسي الذي ظلت حبيسته حتى هذه اللحظة والذي كانت الصلاة خير ملاذ فيه . لم يعد بمقدورها أن تصلي ولا أن تبكي ، واجتاحتها الحياة اجتياحا .

غدا البقاء في « بوغو تشاروفو » مدعاة للخطر . فأينما توجه المرء



@ketab_n @4_readers

سمع الناس يتحدثون عن اقتراب الفرنسيين • وقد نهب لصوصهم الاملاك في قرية على بعد أربعة أميال •

أصر الطبيب على ضرورة نقل المريض بعيدا ؛ وأرسل أمير الاشراف الى الاميرة ماريا موظفا ليحملها على السفر بأسرع ما يمكن ؛ وجاء قائد الشرطة بذاته يلح عليها في ذلك قائلا ان الفرنسيين على أربعين فرسخا ، وأن نداءاتهم تتناقل في القرى ، وأنها ان لم تسافر مع أبيها قبل الخامس عشر فلن يتحمل تبعة شيء •

قررت الاميرة أن تسافر في الخامس عشر • وشغلت طوال هذا اليوم بالاستعدادات والاوامر التي تصدرها لان الجميع كانوا يتوجهون اليها بالسؤال • وقضت ليلة ١٤ ــ ١٥ ، كعادتها ، دون أن تخلع ثيابها ، في غرفة مجاورة لغرفة الامير الشيخ • واستيقظت عدة مرات وسمعت أباها يئن ويغمغم ، وسمعت صرير السرير وخطى « تيخوف » والطبيب اللذين كانا يغيران وضعيته في الفراش • وذهبت عدة مرات الى الباب تصيخ السمع ، وبدا لها أنه يئن في هذه الليلة ويضطرب فوق عادته • لم تستطع أن تنام ، ودنت من الباب غير مرة وهي تتنصت وترغب في الدخول من غير أن تجرؤ على ذلك • ومع أنه كان عاجزا عن الكلام الا أنها كانت ترى وتعلم الى أي حد يسوؤه ما تبديه من قلق بشأنه • لقد لاحظت أنه يبادر الى الاشاحة بوجهه عنها كلما لقي نظرتها التي لم تكن تملك نفسها أحيانا من القائها عليه بلجاجة • كانت تعلم أن زيارتها له ، في الليل ، في هذه الساعة غير المألوفة ، ستثير غضبه •

لم تشعر قط بمثل هذا الغم وبمثل هذا الخوف من أن تفقده •



@ketab_n @4_readers

كانت تستعرض حياتها كلها معه فتجد في كل كلمة من كلماته وفي كل حركة من حركاته دليلا على حبه لها • وبين الحين والحين كانت تنسل في ثنايا هذه الذكريات اغواءات الشيطان ، فتفكر فيما سيكون بعد موته ، وكيف ستنتظم حياتها الجديدة الحرة • لكنها كانت تطرد هذه الافكار باشمئزاز • وعند الصباح هدأ أبوها فنامت •

استيقظت متأخرة • فكشف لها الصدق الذي يرافق اليقظة فجأة عما كان يشغلها أكثر من غيره أثناء مرض والدها • استيقظت وذهبت تتنصت على بابه ، فلما سمت أناته قالت لنفسها وهي تتنهد : لم يتغير شيء • ثم هتفت وقد اشمأزت من ذاتها :

ـ لكن ماذا يمكن أن يقع ؟ بماذا كنت أرغب ؟ أأرغب في موته ؟

ارتدت ثيابها وسوت زينتها وتلت صلاتها وخرجت الى درج المدخل • وهناك وقفت العربات التي لم تقرن بخيولها بعد والتي كانت تحمل بالمتاع •

كان الصباح حارا ، مغبرا • بقيت الاميرة ماريا لحظة على درج المدخل وقد ملأها الهول من انحطاطها الاخلاقي وحاولت أن تستعيد روعها قبل أن تذهب لرؤيته •

هبط الطبيب الدرج وأقبل عليها قائلا :

تحسنت حاله قليلا اليوم • كنت أبحث عنك • من الممكن فهم ما يقول نوعا ما ، فهو أصحى ذهنا • تعالي ، انه يطلبك •••

عند سماع هذا النبأ ، خفق قلب ماري بشدة حتى انها شحبت واضطرت أن تستند الى الباب كي لا تقع • أن تراه وتحدثه وتواجه



@ketab_n @4_readers

نظرته الآن ونفسها ملأى بهذه الاغواءات الرهيبة المجرمة ، كان ذلك يخيفها ويسبب لها فرحا مؤلما .

وكرر الطبيب : تعالي .

دخلت الاميرة ماريا الى غرفة أبيها ودنت من السرير . كان مضطجعا على ظهره وقد رفع نصفه الاعلى عن الفراش ، واستلقت على الغطاء يداه الخشيبتان بعروقهما البنفسجية الكثيرة العقد ، وشخصت عينه اليسرى الى أمامه وزاغت عينه اليمنى ، وتجمد حاجباه وشفتاه . كان ناحلا ، صغيرا ، مثيرا للشفقة . بدا وجهه كأنما جف وذاب ، وقسماته كأنما دقت ونحفت . دنت منه الاميرة ماريا وقبلت يده . فشد بيده اليسرى على يدها ليفهمها أنه كان ينتظرها منذ أمد بعيد ، وهز يدها فتقلص حاجباه وشفتاه بشيء من الغضب .

كانت تنظر اليه وهي خائفة ، محاولة أن تستشف ما يريده منها . وعندما غيرت وضعها بحيث يراها بعينه اليسرى هدأ قليلا دون أن يرفع بصره عنها . ثم اضطربت شفتاه وتحرك لسانه ، وأخذ يتكلم ، وهو ينظر اليها نظرة وجلة مستعطفة ، وبه خوف ظاهر من أن لا تفهم ما يقول .

نظرت اليه الاميرة ماريا مركزة كل انتباهها . وقد حملتها المجهودات المضحكة التي بذلها ليحرك لسانه على أن تغض بصرها ، ولم تحبس زفراتها التي تصاعدت الى حِنجرتها الا بعد لأي . قال شيئا وكرر الالفاظ نفسها عدة مرات ، فلم تفهم الاميرة ماريا شيئا . وبذلت وسعها لتحزر ما يقول ورددت مستفهمة الالفاظ التي ظنت أنها فهمتها .

ردد مرات : آ آ ... مه .. مه . كان من المتعذر فهم هذه الالفاظ .



@ketab_n @4_readers

ظن الطبيب أنه فهم وسأله : « هل الامــيرة خائفة ؟ » • فنفى ذلك باشارة من رأسه وكرر الشيء نفسه عدة مرات •

وتنبأت الاميرة ماريا بما يقصد فقالت :

ــ ان روحه تتألم •

فوافق على ذلك غمغمة وأمسك بيدها وشدها على مواضع مختلفة من صدره وكأنما يبحث عن مكانها الحقيقي • ثم استقام له النطق على نحو أيسر وأوضح ولا سيما بعد أن وثق من فهمها له عندما قال :

ــ كل أفكاري ! من أجلك ••• أفكاري •••

أسندت الاميرة ماريا رأسها على يد أبيها محاولة أن تخفي نحيبها ودموعها •

مر بيده على شعرها وقال :

ــ ناديتك طوال الليل •••

فأجابته من خلال عبراتها :

ــ ليتني عرفت ••• ما كنت أجرؤ على الدخول •

فشد على يدها :

ــ أما كنت تنامين ؟

ــ لا ، ما كنت أنام •

قالت ذلك وأرفقته باشارة نفي من رأسها • لقد غدت تحاول أن تقلد أباها بالرغم منها فتتحدث بالاشارات دون الكلام الصريح ، وكأنما كانت هي أيضا تحرك لسانها بصعوبة •



@ketab_n @4_readers

ـ ولم لم تأتي ، يا روحي الغالية ...؟

لم تستطع الاميرة ماريا أن تتبين ان كان قد قال : يا روحي الغالية ، أو : يا صديقتي الغالية ، لكنها تبينت أنه قال حقا كلمة تنم على الحنان والحب ، كلمة لم يقل لها مثلها من قبل . وقالت في نفسها : « وأنا التي تمنّت موته ، نعم ، تمنت موته ! » .

صمت أبوها لحظة ثم قال :

شكرا لك ... يا بنتي ، يا صديقتي ... مغفـرة ... شكرا ... مغفرة ... شكرا !...

وانسابت الدموع من مآقيه ثم قال فجأة :

ـ استدعي « اندريوشا »[1] .

وعندما طلب هذا الطلب ارتسم على وجهه شيء من الطفولة والحياء والوجل . وكأنما كان يعلم أن مايطلبه لا معنى له . ذلك ما شعرت به الاميرة ماريا ، على الاقل . فأجابته :

ـ تلقيت رسالة منه .

فنظر اليها بدهشة وحياء :

ـ وأين هو اذن ؟

ـ انه في الجيش ، يا والدي ، في سمولنسك .

لزم الصمت طويلا ، وعيناه مغمضتان ؛ ثم أومأ برأسه موافقا ، وكأنه بايماءته يبدد شكوكه الخاصة ويؤكد أنه فهم كل شيء وتذكر

---

(١) اندريوشا : تصغير آندره للتحبب .



@ketab_n @4_readers

كل شيء • وفتح عينيه وقال بصوت خافت واضح :
ـ لقد قضي على روسيا ! لقد قضوا عليها !

وأجهش بالبكاء وفاضت دموعه • ولم تتمالك الاميرة ماريا نفسها فراحت تبكي أيضا وهي تنظر الى وجهه •

عاد فأغمض عينيه ، وهدأ نحيبه • وأشار الى عينيه بيده ، ففهم « تيخون » رغبته وجفف دموعه •

ثم عاد وفتح عينيه وقال شيئا لم يفهمه أحد سوى « تيخون » • حاولت الاميرة ماريا أن تؤول كلامه بالاتجاه الذي تحدث فيه قبل قليل• ظنت حينا أنه يتحدث عن روسيا ، وظنت حينا آخر أنه يتحدث عن الامير آندره ، أو عنها ، أو عن حفيده ، أو عن موته • ولذلك لم تستطع أن تحزر شيئا الى أن قال :
ـ ارتدي ثوبك الابيض ، انني أحبه •

وعندما أدركت الاميرة ماريا قصده ازداد نحيبها ، فأخذها الطبيب بيدها وقادها الى الشرفة وناشدها الهدوء والتأهب للسفر • ولما خرجت الاميرة ماريا رجع الامير الى الكلام على ابنه وعلى الحرب والامبراطور، وقطب حاجبيه بغضب ، ورفع صوته الاجش ، ولم يلبث أن أصيب بنوبته الثانية والاخيرة •

بقيت الاميرة ماريا في الشرفة ، وقد صحت السماء وسطعت الشمس وغدا الجو حارا • لم يكن بوسعها أن تفهم شيئا ، أو أن تفكر في شيء ، أو أن تحس بشيء سوى حبها الجياش لأبيها ، هذا الحب التي بدا لها أنها كانت تجهله حتى هذه اللحظة • ثم مضت الى الحديقة وانحدرت



@ketab_n @4_readers

الى المستنقع وهي تنتحب ، على طول الممرات الحديثة المحفوفة بأشجار الزيزفون التي غرسها الامير « آندره » •

كانت تهمس بينها وبين نفسها ، وهي تجتاز الحديقة بخطى حثيثة ، وتضغط بيدها صدرها الذي كانت تنطلق منه زفرات متشنجة :

ـ نعم ••• اني ••• اني ••• تمنيت موته ! نعم ، تمنيت أن ينتهي كل شيء بأقصى سرعة ••• كنت أشتهي أن أخلد الى الراحة •• وماذا سيحل بي الآن ؟ ما جدوى الراحة بعد موته !

بعد أن طافت بالحديقة عادت الى البيت فشاهدت الآنسة «بورين» مقبلة عليها ( مكثت الآنسة « بورين » في « بوغو تشاروفو » وأبت أن ترحل ) ومعها شخص غريب هو نقيب أشراف المقاطعة الذي جاء بذاته يحث الاميرة على الرحيل • أصغت اليه الاميرة ماريا من غير أن تفهم شيئا ، ودعته الى البيت وقدمت له الغداء وجلست معه • ثم اعتذرت وذهبت الى غرفة الامير الشيخ • خرج الطبيب منها بادي الهم وأنبأها أنها لا تستطيع الدخول :

ـ امضي ، يا أميرة ، امضي ، امضي !

عادت الاميرة ماريا الى الحديقة ، وجلست على العشب ، قرب المستنقع ، في موضع منخفض لا يراها فيه أحد • لم تكن تعلم كم مكثت هناك • وأخرجتها من حالتها خطى حثيثة لامرأة في الطريق • فنهضت ورأت « دونياشا » وصيفتها التي هرعت للبحث عنها فلما رأت سيدتها وقفت مرعوبة • وقالت لها بصوت متهدج :

ـ تفضلي ، يا أميرة ••• ان الامير •••



@ketab_n @4_readers

فقالت الاميرة بعجلة دون أن تتيح لها اتمام جملتها :
ـ أنا ذاهبة ، أنا ذاهبة .

وركضت الى البيت متحاشية نظر « دونياشا » .

قال لها نقيب الاشراف وهو يلاقيها الى باب المدخل :
ـ مشيئة الله تتم ، فأعدي نفسك لكل شيء ، أيتها الاميرة .

فصرخت بغضب :
ـ دعني ، هذا غير صحيح . وأراد الطبيب أن يوقفها فدفعته وركضت الى الباب : « لم يوقفني هؤلاء الناس بوجوههم المرعوبة ؟ لست بحاجة الى أحد ! وماذا يفعلون هنا ؟ » . فتحت الباب فامتلأت رعبا من ضياء النهار المتوهج الذي غمر الغرفة بعد أن كانت نصف مظلمة . كانت في الغرفة مربيتها العجوز ونساء أخر . فتنحين عن السرير كي تمر . كان مضطجعا أبدا في الوضع نفسه ؛ لكن رصانة وجهه أوقفت الاميرة ماريا عند عتبة الباب .

قالت في نفسها : « كلا ، انه لم يمت ، هذا غير ممكن ! » ؛ ودنت منه وتغلبت على الخوف الذي تملكها فوضعت شفتيها على خده . لكنها ما لبثت أن تراجعت ، من فورها ، وتبدد الحنان الذي كانت تحس به نحوه وحل محله شعور بالهول ازاء ما تراه أمامها . « لقد قضى ! لقد قضى ، وهنا ، في الموضع الذي كان فيه ، شيء غريب ، معاد ، وسر رهيب يملؤنا رعبا ويصدنا صدا ! » ثم أخفت رأسها بيديها وتهاوت بين ذراعي الطبيب الذي سندها .

غسلت النساء ، بحضور « تيخون » والطبيب ، ذاك الذي كان



@ketab_n @4_readers

الامير الشيخ ، وربطن منديلا تحت ذقنه ليظل الفك مطبقا ، وربطن بمنديل آخر ساقيه المتباعدتين، ثم ألبسته بزته المزدانة بالاوسمة وسجين على الطاولة الجثمان الصغير المهزول . الله أدرى بمن عني بذلك كله ومتى عني به ، لكن كل شيء بدا وكأنما يتم من تلقاء ذاته . وفي الليل اضيئت الشموع حول النعش المغطى ببساط الرحمة ، وتثرت على الارض أغصان العرعر ، ودست تحت رأس الميت المعروف صلاة مطبوعة[1] ، وراح المرتل يتلو المزامير في زاوية من الغرفة .

وكما تتوثب الجياد وتتجمع وتحمحم حول جواد ميت ، كذلك كان الجمهور يزدحم في القاعة حول النعش وفيهم الاقرباء والغرباء ونقيب الاشراف والقيم الاميري ونساء قرويات ، وكلهم شاخص العينين ، ممتلىء ذعرا ، يرسم اشارة الصليب وينحني ويقبل يد الامير الشيخ الباردة المتصلبة .

(١) الصلاة المطبوعة ورقة تحتوي صلاة تطوى وتوضع على جبين الميت او تحت راسه في النعش المفتوح .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل التاسع

كانت « بوغو تشاروفو » ، قبل أن يقيم فيها الامير آندره ، ملكا أهمله أصحابه • كان فلاحوهـا مختلفين كل الاختـلاف عن فلاحي « ليسييه خوري » ، وكانوا يتميزون عنهم بلغتهم وثيابهم وعاداتهم • وكانوا يدعون : جماعات السهوب • وكان الامير الشيخ معجبا بجلدهم على العمل حين يأتون الى « ليسييه خوري » للمساعدة في الحصاد أو لحفر المستنقعات والحفر ، لكنه لم يكن يحبهم بسبب توحشهم •

ولم تلطف أخلاقهم اقامة الامير آندره الاخيرة في «بوغو تشاروفو» ولا تجديداته : المستشفيات والمدارس وتخفيف الإتاوة ، بل انها فاقمت من سمات طبعهم هذا الذي وصفه الامير الشيخ بالتوحش • وكانت تشيع بينهم أبدا شائعات مبهمة تقول انهم سيحولون الى قوزاق أو انهم سيحملون على اعتناق دين آخر ، وكانوا يتحدثون تارة عن أمر القيصر ، وعن اليمين الذي أقسموه للامبراطور « بول » سنة ١٧٩٧ ( الذي تعهد فيه الاسياد ، على حد زعمهم ، بتحرير الاقنان لكنهم حرموهم هذا الحق ) ، وتارة عن مجيء بيير الثالث[١] ، في غضون

(١) ان المنكود الحظ بيير الثالث ( ١٧٦١ ـ ١٧٦٢ ) قد ترك ذكرى حسنة بين الفلاحين والمؤمنين القدامى الذين منحهم بعض الحريات ؛ ولذلك فان زعيم ثورة ١٧٧٣ ايفان بوغاتشوف أوهم الناس بانه بيير الثالث الذي نجا من القتل .



@ketab_n @4_readers

سبع سنين ؛ وفي عهده سيغدو جميع الناس أحرارا وسيغدو كلّ شيء بسيطا بحيث لا يقع شيء بعد ذلك . وكانت أنباء الحرب وبونابرت وغزوه تختلط عندهم بمفاهيم غامضة عن المسيح الدجال وعن نهاية العالم وعن الحرية المطلقة .

في ضواحي « بوغوتشاروفو » قرى كبيرة تملكها الدولة أو يملكها الافراد ، ويسكنها فلاحون يدفعون الإتاوة . كان الملاكون المقيمون في هذه المنطقة قلّة قليلة ؛ وكان الفلاحون والخدم الذين يعرفون القراءة قلّة قليلة أيضا ، وكانت تيارات الحياة الشعبية الروسية التي يكتنفها الخفاء والتي يستعصي فهم أسبابها ومعانيها على المعاصرين أظهر وأقوى هنا منها في أي مكان آخر . وهكذا ، حدثت بينهم ، قبل عشرين سنة ، حركة هجرة الى أنهار مياهها دافئة[1] . لقد باع مئات الفلاحين ، ومن بينهم فلاحو « بوغاتشوروفو » ماشيتهم فجأة ، ونزحوا مع عائلاتهم الى مكان ما في الجنوب الشرقي . وكما تطير الطيور المهاجرة الى ما وراء البحار ، يمّم هؤلاء الناس مع زوجاتهم وأولادهم شطر مناطق لم يطأها انسان بينهم من قبل ، معتقين انفسهم بأموالهم ، او لائذين بالفرار ، متجهين في قوافل ، أو على الاقدام ، أو في عربات الى هناك ، الى المياه الدافئة . وعوقب كثير منهم ، ونفوا الى سيبيريا ، ومات كثير منهم جوعا وبردا في الطريق ، ورجع كثير منهم بملء اختيارهم ، وهدأت الحركة من تلقاء ذاتها كما وُلدت ، دون سبب ظاهر . لكن التيارات الكامنة لم تنضب عند هؤلاء الناس ،

---

(1) ظهرت حركة المهاجرة هذه ، وهي حركة غير منتظمة اتجهت الى آسيا الوسطى ، في اواخر القرن الثامن عشر .



@ketab_n @4_readers

بل انها كانت تتخذ قوة جديدة ستتجلى في شكل غريب ، مفاجيء ، شكل بسيط ، طبيعي وقوي ، في الوقت نفسه . والذين كانوا ، في سنة ١٨١٢ ، على اتصال وثيق بالشعب أحسوا احساسا عميقا بما يعتمل فيه من تيارات كامنة مستعدة للظهور .

عندما وصل « ألباتيتش » الى « بوغوتشاروفو » ، قبل وفاة الامير الشيخ بزمن قليل ، شهد شيئا من الحركة والاضطراب بين الفلاحين ولاحظ انهم كانوا ، كما يقال ، على صلة بالفرنسيين ، وأنهم يتلقون منهم بعض الاوراق التي يتداولونها ، وانهم يمكثون في أماكنهم ، على عكس ما كان يجري في منطقة « ليسييه خوري » حيث كان الاهلون ينزحون من دائرة قطرها ستون فرسخا الى منطقة السهوب ، تاركين قراهم نهبا للقوزاق . وعلم من بعض الخدم المخلصين أن شخصا يدعى « كارب » ، وهو فلاح واسع النفوذ في الناحية قاد حديثا قافلة من العربات التي صادرتها السلطات ، قد عاد وراح يذيع نبأ مفاده أن القوزاق ينهبون القرى التي يهجرها أهلها ، في حين أن الفرنسيين لا يمسون شيئا منها . وعلم أن فلاحا آخر حمل البارحة من بلدة « فيسلوخوفو » التي يحتلها الفرنسيون نداءً من الجنرال الفرنسي يعلن فيه للاهلين انه لن يصيبهم سوء" وانهم ان بقوا في أماكنهم فسيدفع لهم ثمن ما يؤخذ منهم . وتأييدا لذلك حمل معه من « فيسلوخوفو » ورقة بمائة روبل ( لم يكن يعلم أنها مزيفة ) استلفها ثمنا لعلفه .

وأهم من ذلك كله أن « ألباتيتش » علم بانعقاد مجلس الناحية في صبيحة اليوم نفسه الذي أصدر أمره فيه الى قيم الاملاك باعداد العربات من أجل نقل متاع الاميرة ، وفي هذا المجلس تقرر التريث وعدم الانصياع



@ketab_n @4_readers

للامر • على أن الوقت كان يمر • ففي ١٥ آب ، يوم موت الأمير ، ألح نقيب الاشراف على الاميرة ماريا أن ترحل في اليوم نفسه لان الوضع أصبح ينذر بالخطر • وقال : انه لن يكون مسؤولاً عن شيء بعد ١٦ آب • وسافر في المساء ، لكنه وعد بأن يعود في اليوم التالي ليحضر الدفن • بيد أنه لم يعد لانه تلقى نبأ تقدم مفاجيء من جانب الفرنسيين ولم يجد من الوقت الا ما يكفي لنقل عائلته ولنقل أثمن المتاع من ممتلكاته •

منذ ثلاثين سنة وادارة « بوغوتشاروفو » بين يدي القيّم « درون » الذي كان الامير الشيخ يدعوه « درونوشكا » •

كان واحدا من أولئك الفلاحين الاشداء جسديا ونفسيا ، من أولئك الفلاحين الذين اذا كبروا تركوا لحاهم على طبيعتها وظلوا كذلك دون ان يتبدل فيهم شيء حتى الستين أو السبعين ، دون ان تبيض لهم شعرة أو يسقط لهم سن ، منتصبي القامة ، أصلاب العود في الستين كما كانوا في الثلاثين •

بعد زمن قليل من الهجرة الى المياه الدافئة ، وهي الهجرة التي شارك فيها كغيره من الناس ، عيّن درون قيّما أميريا على « بوغوتشاروفو » وقام بمهماته خير قيام • كان الفلاحون يخافونه أكثر مما يخافون سيدهم • وكان الاسياد والامير الشيخ والامير الشاب والوكيل يقدرونه ويسمونه ، على سبيل الدعابة ، وزيرا • لم ير ، طوال هذه المدة ، ثملاً قط ولا مريضا قط ؛ ولم تبدر منه أدنى بادرة تنم على التعب ، لا في أعقاب الليالي البيضاء ولا بعد العمل المضني ، ومع جهله بالقراءة فانه لم يخطيء قط في حساباته المالية ولا في عدد أكياس الطحين التي كان



@ketab_n @4_readers

يبيعها بكميات ضخمة ، ولا في عدد حزم القمح التي ينتجها كل هكتار من حقول « بوغوتشاروفو » .

ان « درون » هذا هو الذي استقدمه « ألباتيتش » عندما وصل من « ليسييه خوري » المخربة يوم مأتم الامير ، وأمره باعداد اثني عشر جوادا لعربات الاميرة وثماني عشرة عربة لنقل المتاع الذي سيحمل من « بوغوتشاروفو » . ومع أن الفلاحين كانوا يدفعون الإتاوة، الا أن هذا الامر ما كان يمكن أن يواجه صعوبة ، لان « بوغوتشاروفو » كانت تعد مائتي بيت وكان الاهلون ميسورين . لكن القيّم « درون » خفض بصره عند تلقي الامر . وسمى له « ألباتيتش » بعض الفلاحين الذين يعرفهم والذين يمكن أن يقودوا العربات .

أجاب « درون » بأن جياد هؤلاء الفلاحين غائبة . فسمى لـه « ألباتيتش » فلاحين آخرين . فرد عليه « درون » بأن هؤلاء أيضا لا يملكون جيادا : لقد زعم أن بعض الجياد صودر ، وأن بعضها التهبت حوافرها ، وأن البعض الآخر هلك بسبب عدم وجود العلف . وذهب الى أنه ليس بالامكان توفير الجياد لعربات الركاب ، بله عربات النقل .

نظر اليه « ألباتيتش » بامعان وقطب حاجبيه . واذا كان « درون » قيّما نموذجيا فقد كان « ألباتيتش » وكيلا نموذجيا جديرا بادارة أملاك الامير منذ عشرين عاما . كان قادرا ، الى أعلى حد ، على أن يفهم بحدسه حاجات الناس الذين يتعامل معهم وغرائزهم ، ولذلك كان وكيلا ممتازا . ان نظرة خاطفة ألقاها على « درون » كشفت له ، على الفور ، أن أجوبته لا تعكس أفكاره الخاصة لكنها تعكس العقلية العامة لناحية



@ketab_n @4_readers

« بوغوتشاروفو » ، العقلية التي خضع القيم لتأثيرها . لكنه كان يعلم ، في الوقت نفسه ، أن « درون » الذي أثرى والذي كرهه الفلاحون ، لابد له من أن يتردد بين معسكرين ، معسكر الاسياد ومعسكر الفلاحين. وقرأ « ألباتيتش » هذا التردد في نظرته فتقدم نحوه مقطب الجبين ، وقال له :

ـ اصغ الي جيدا ، يا « درون » ، ولا ترو لي سخافاتك . ان سعادة الامير « آندريه نيكوليتش » أمرني شخصيا بترحيل الناس جميعا وبألا أدع أحدا بين يدي العدو . وهناك أيضا أمر من القيصر بهذا الشأن . ومن يبق فهو خائن للقيصر . أتسمع ؟

أجاب « درون » دون أن يرفع بصره :

ـ انني أسمع .

لم يرض « ألباتيتش » عن هذا الجواب فقال وهو يهز رأسه :

ـ يا « درون » ، ستسوء الامور !

قال « درون » بحزن :

ـ كما تشاء !

وردد « ألباتيتش » وهو يسحب يده من فتحة ردائه ويصوبها بحركة مهيبة الى الارض ، عند قدمي « درون » :

ـ يا « درون » ، دعك من هذا ! اني لا أكشف مافي نفسك فحسب ، بل اني أرى الى عمق ثلاثة أقدام تحتك .

اضطرب « درون » ورمى « ألباتيتش » بنظرة عجلى ثم خفض بصره مرة أخرى .



@ketab_n @4_readers

ـ دعك من هذه الحماقات ، وقل للناس أن يستعدوا للرحيل الى موسكو وأن يأتوا غدا صباحا بالعربات لنقل متاع الاميرة • وأنت لا تذهب الى الاجتماع • أتسمع ؟

ارتمى « درون » فجأة عند قدميه :

يا « اياكوف ألباتيتش » ، اعفني من عملي ! خذ المفاتيح واعفني ، بالله عليك !

قال « ألباتيتش » بقسوة :

ـ دعك من هذا ! اني أرى على عمق ثلاثة أقدام تحتك •

ولقد كرر هذه الجملة لعلمه أن حذقه في تربية النحل ، وكفاءته في شؤون البذار ، وكونه استطاع ، خلال عشرين عاما ، ارضاء الامير الشيخ ، لعلمه أن كل ذلك أكسبه لقب ساحر وأن الناس ينسبون الى السحرة القدرة على أن يروا الى عمق ثلاثة أقدام تحت قدمي الرجل •

نهض « درون » وأراد أن يقول شيئا ، لكن « ألباتيتش » لم يترك له مجال الكلام وقال :

ـ ماذا يدور في رأسك ؟ ماذا ؟••• وبم تفكر ؟ قل لي ؟

فأجاب « درون » :

ـ ماذا بوسعي أن أفعل بهؤلاء الناس ؟ انهم هائجون • وعبثا قلت لهم •••

ـ قلت لهم ••• أكانوا يشربون ؟

ـ انهم هائجون ، يا « اياكوف ألباتيتش » ، وقد بدؤوا بالبرميل الثاني •



@ketab_n @4_readers

ـ أصغ اذن • سأذهب أنا الى قائد الشرطة ، وقل لهم أنت أن ينصرفوا عما هم فيه وأن يحضروا العربات •

أجابه درون :

ـ أنا رهن أوامرك •

لم يصر « ألباتيتش » أكثر من ذلك • لقد علمته قيادة الناس أن خير وسيلة لانصياعهم هي الا نضع طاعتهم موضع الشك • وعندما لقي ذلك الانصياع في جوابه قنع به ، مع يقينه ان العربات لن تقدم دون تدخل القوة المسلحة •

والحقيقة أن المساء جاء ولم تأت العربات • وجرى في القرية اجتماع جديد ، أمام دكان الخمور ، تقرر فيه أخذ الخيول الى الغابات وعدم اعطاء العربات • لم يقل « ألباتيتش » شيئا من ذلك للاميرة ، وانزل امتعته الشخصية من العربات التي جاء بها من « ليسييه خوري » ، وأمر أن تربط جياده بعربات الامير ، ثم ذهب بنفسه الى مقابلة السلطات•



@ketab_n @4_readers

# الفصل العاشر

اعتكفت الاميرة ماريا في غرفتها ، بعد دفن ابيها ، وابت ان تستقبل أحدا . وطرقت خادمة بابها لتقول لها ان « الباتيتش » ينتظر اوامرها للرحيل . ( كان ذلك قبل حديثه مع « درون » ) . فاستوت الاميرة على أريكتها التي كانت مستلقية عليها ، واجابت عبر الباب المغلق بأنها لاتفكر بالرحيل وانها تطلب ان يدعوها وشأنها .

كانت نوافذ حجرتها تطل على المغرب . وكانت مستلقية على الاريكة ووجهها الى الجدار ، ويداها تعبثان بأزرار الوسادة الجلدية ؛ لم تكن ترى سوى هذه الوسادة ، وقد تركزت افكارها المشوشة على شيء واحد : كانت تفكر في حتمية الموت وفي انحطاطها الاخلاقي الذي جهلته حتى هذا الزمن والذي انكشف لها بعد مرض ابيها . ارادت ان تصلي فلم تجرؤ ، لم تجرؤ ان تتوجه الى الله وهي في مثل هذه الحالة النفسية. وبقيت زمنا طويلا على هذا النحو .

كانت الشمس تهبط في الجانب الاخر من البيت ، ومن النافذة المفتوحة اضاءت اشعتها المائلة الحجرة وجزءا من الوسادة الجلدية التي كانت تنظر اليها . واذا بمجرى افكارها ينقطع ، واذا بها تنهض بحركة آلية ، وتسوي شعرها ، وتقترب من النافذة ، وتستنشق ، بالرغم منها ، نسيم المساء العليل ، وتقول في نفسها :



@ketab_n @4_readers

« نعم ، تستطيعين الان ان تتأملي المساء على هواك ! لقد قضى ، ولن يزعجك أحد بعد الان » . وتهالكت على كرسي ، ووضعت رأسها على متكأ النافذة .

ناداها من الحديقة شخص بصوت رقيق ، عذب وقبل راسها . فالتفتت واذا بالانسة « بوريين » في ثوب أسود واسع الاكمام . لقد اقتربت برفق من الاميرة ماريا ، وقبلتها وهي تتنهد ، ومالبثت ان انهمرت دموعها . حدجتها الاميرة ماريا بنظرة ، وعادت الى ذهنها نزاعاتهما القديمة وغيرتها منها . وتذكرت ايضا كم تبدل الامير ازاءها في الاونة الاخيرة ، وكيف انه لم يطق رؤيتها وخلصت الى ان ماأضمرته في اعماق نفسها من لوم للانسة بوريين كان ظالما جدا ، وفكرت في نفسها : « وهل لي انا ، وقد تمنيت موت أبي ، أن أدين الاخرين » ؟

تمثل لها بقوة وضع الانسة « بوريين » تابعة لها مجبرة على العيش عند الاخرين ، مهملة منذ زمن ، فأخذتها الشفقة والقت عليها نظرة مستفهمة مفعمة بالرقة ومدت لها يدها . فأخذت الانسة « بوريين » تبكي وقبلت يدها وتحدثت عن المصاب الذي نزل بالاميرة والذي تشاركها فيه . قالت لها ان عزاءها الوحيد عن حزنها هو ان تسمح لها الاميرة بمشاركتها هذا الحزن . وقالت ان جميع الخلافات القديمة يجب ان تزول امام هذا الالم العظيم ، وانها تشعر ببراءتها ازاء الناس جميعا ، وانه كان يرى من فوق حنانها وعرفانها بالجميل . كانت الاميرة تصغي اليها دون ان تعي ماتقول ، لكنها كانت تلقي عليها نظرة ، بين الحين والحين ، وتستمع الى رنين صوتها .

استأنفت الانسة « بوريين » كلامها بعد صمت قصير :



@ketab_n @4_readers

ــ ان موقفك رهيب مرتين ، أيتها الاميرة العزيزة • وأنا أفهم أنك لم تستطيعي ولاتستطيعين الان التفكير بنفسك ؛ لكن الحب الذي احمله لك يرغمني على أن انوب عنك في ذلك ••• هل رأيت « الباتيتش » ؟ وهل حدثك عن الرحيل ؟

لم تجب الاميرة ماريا • لم تكن تدرك من الذي سيسافر ، والى اين سيسافر • « هل يمكن الان الشروع في شيء او التفكير في شيء ؟ أليست جميع الاشياء سواء » ؟

وقالت الانسة « بوريين » :

ــ اتعلمين ، ياماريا العزيزة ، اننا في خطر ، وان الفرنسيين يحيطون بنا ؟ فمن الخطر ان نسافر الان • ولو سافرنا فأكبر الظن اننا سنقع اسرى بين يدي العدو ، والله اعلم •••

نظرت الاميرة ماريا الى رفيقتها دون ان تفهم ماقالته لها • وقالت :

ــ آه ! ليت الناس يعلمون كيف استوت لدي الاشياء جميعها الان• والحق انني لااحب ان افارقه في اية حال من الاحوال ••• لقد قال لي « الباتيتش » شيئا عن الرحيل ••• تدبري الامر معه ، فأنا لا استطيع شيئا ولا اريد شيئا •

ــ لقد حدثته في ذلك • وهو يأمل ان تتمكن من السفر غدا ؛ لكني اعتقد ان من الافضل لنا ان نبقى هنا • فسيكون فظيعا ، وارجو ان توافقيني على ذلك ايتها الاميرة العزيزة ، ان نقع بين ايدي الجنود او الفلاحين المتمردين • واخرجت الانسة « بوريين » من حقيبة يدها نداء ( على ورق غير ورق الوثائق الروسية ) من الجنرال الفرنسي « رامو »



@ketab_n @4_readers

يدعو فيه الاهلين الى عدم مغادرة بيوتهم ، مؤكدا أن السلطات الفرنسية ستوليهم الحماية اللازمة ، ومدته الى الاميرة وقالت لها :

ــ اعتقد ان من الافضل لنا الاتصال بهذا الجنرال ، وانا واثقة من انه سيبدي لك ماتستحقينه من اكرام •

قرأت الاميرة ماريا النداء فتشنج وجهها من زفرات لا دموع فيها • وسألتها :

ــ ومن اين لك هذا ؟

فاجابت الانسة « بوريين » وقد تضرج وجهها خجلا :

ــ لابد انهم عرفوا من اسمي انني فرنسية •

ابتعدت الاميرة ماريا عن النافذة والورقة بيدها ، ومضت ، وهي شاحبة ، الى مكتب عمل الامير آندره ، وقالت :

ــ يا « دونياشا » ، ادعي لي « الباتيتش أو درون » أو أي أحد !

واضافت عندما سمعت صوت الانسة « بوريين » :

ــ وقولي لاميلي كارلوفنا [1] ألا تدخل علي •

وقالت في نفسها وقد امتلأت رعبا من فكرة امكان وقوعها بين ايدي الفرنسيين : يجب أن نسافر ! يجب أن نسافر بأسرع ما يمكن ! بأسرع مايمكن !

« لو عرف الامير آندره انها في قبضة الفرنسيين ! لو عرف انها ، وهي ابنة الامير « نيكولا اندريفيتش بولكونسكي » ، ترجو الجنرال «رامو»

(1) اي الآنسة بوريين ، سُميت كذلك نسبة الى ابيها شارل .



@ketab_n @4_readers

ان يرعاها ، وانها تنعم بنعمه ! » كانت هذه الفكرة تملؤها هولا وتنزل بها رعدة ، وتحملها على الخجل ، وتثير فيها الغضب والكبرياء اللذين لم تعرفهما من قبل • تجلى لها الان مافي وضعها من ايلام ومن اذلال ، على الخصوص • « سيحل الفرنسيون في هذا البيت ، وسيشغل الجنرال « رامو » مكتب عمل الامير « آندره » ، وسوف يتسلى بقراءة رسائله واوراقه ، وستقوم الانسة « بورين » بواجبات الضيافة ، وسوف يتصدقون علي بغرفة صغيرة ، وسوف يدنس الجنود قبر ابي الذي لم يجف ترابه بعد لكي ينتزعوا منه أوسمته، وسوف يقصون علي انتصاراتهم على الروس ، وسوف يواسونني في حزني مواساة مرائية ؟ ••• » هذا ماكانت تفكر فيه الآنسة « ماريا » ، ولم تكن هذه الافكار من عند نفسها بقدر ماكانت افكار أبيها التي احست انه ينبغي لها التزامها • لم يكن يهمها ، شخصيا ، اين تكون ولا ماقد يقع لها ؛ لكنها كانت تشعر بأنها تمثل اباها الراحل واخاها الامير آندره • لقد اعتنقت ، بالرغم منها، أفكارهما ومشاعرهما ، ورأت من واجبها ان تقول وتفعل ماكانا سيقولانه ويفعلانه في هذه اللحظة •

دخلت مكتب عمل الامير ، وجهدت في ان تتشبع بافكاره ، وراحت تفكر في وضعها •

لقد برزت امامها متطلبات الحياة التي ظنت انها زالت منذ موت ابيها بقوة جديدة لم تعهدها من قبل ، واستحوذت عليها كليا •

كانت تذرع الغرفة وهي منفعلة ، محمرة الوجه ، طالبة بين الحين والاخر « الباتيتش » او « ميشيل ايفانوفيتش » او « تيخوف » او « درون » • ولم تستطع « دويناشا » ولا المربية العجوز ولا الخادمات



@ketab_n @4_readers

ان يقلن لها شيئا يؤكد او ينفي مزاعم الانسة « بوريين » . كان الباتيتش غائبا لانه ذهب لمقابلة السلطات . ولم يستطع المهندس « ميشيل ايفانوفتش » الذي مثل امامها والنوم يغشي عينيه ، ان يقول لها شيئا . لقد أجاب بابتسامته الموافقة التي اصطنعها طوال خمسةعشر عاما ليجيب الامير الشيخ دون ان يعبر عن رايه ، اجاب عن اسئلة الاميرة « ماريا » بما لايمكن للمرء ان يستخلص منه شيئا محددا . فلما دعي بدوره الخادم العجوز « تيخوف » ذو الوجه الناحل الذي تحمل قسماته المشدودة آثار حزن لاسبيل الى شفائه ، أجاب عن أسئلتها جميعا بقوله : « أنا رهن اوامرك » ، وكان يجد مشقة في كبح نحيبه عندما ينظر اليها .

واخيرا دخل القيم « درون » ، وبعد ان حياها وبالغ في التحية جمد عند اطار الباب .

خطت الاميرة ماريا خطوات في الغرفة ووقفت امامه ، ثم قالت ، وهي واثقة من انها تحدث صديقا ، من انها تحدث « درونشكا » ذاته ، ذاك الذي كان يحمل اليها من رحلته السنوية الى معرض « نيجني » حلوى خاصة يمدها لها وهو يبتسم :

ـ يا « درونشكا » ، بعد المصاب الذي حل بنا ...

ثم سكتت وقد خذلتها قواها عن متابعة كلامها .

فرد وهو يتنهد :

ـ نحن بين يدي الله ، يفعل بنا مايشاء .

قالت بعد صمت قصير :

ـ يا « درونشكا » ، ان « الباتيتش » غائب ، وليس هناك من اتوجه اليه بالخطاب .

يبدو انني لا استطيع الرحيل . هل هذا صحيح ؟



@ketab_n @4_readers

قال درون :

ــ ولم لاتستطيعين الرحيل ، ياصاحبة السعادة ، بل الرحيل ممكن.

ــ قيل لي ان السفر يعرض للخطر بسبب العدو . انا لااستطيع شيئا ، يا عزيزي ، ولاافقه شيئا ، وليس بجانبي احد . لابد من أن اسافر هذه الليلة او غدا في الصباح الباكر .

صمت « درون » وهو يختلس النظر اليها ، وقال :

ــ ليس لدينا جياد . وقد قلت ذلك لاياكوف الباتيتش .

قالت الاميرة :

ــ ولم ذاك ؟

قال درون :

ــ كل ذلك من نقمة الله علينا . فمن الخيول الموجودة ماصودر على يد القوات ومنها ماهلك. انها لسنة بائسة ! ليس لدينا مانأكله نحن أنفسنا فضلا عن اطعام الخيل . فهناك من لم يطعم شيئا منذ ثلاثة ايام . لم يبق شيء ، والفلاحون معدمون !

اصغت اليه الاميرة ماريا بانتباه ثم سألته :

ــ الفلاحون معدمون ؟ أليس لديهم حنطة ؟

ــ انهم يموتون جوعا ... فكيف تريدين ان يقدموا العربات ...

ــ ولم لم تذكر شيئا عن ذلك ، يا « درون » ؟ اليس في وسعنا مد يد المعونة اليهم ؟ سأفعل كل مااستطيع ...

في هذه اللحظة التي كان يتآكلها فيها حزن عميق ، استغربت الاميرة ان يكون هناك اغنياء وفقراء ، والا يفكر الاغنياء في مد يد المعونة الى الفقراء . وكانت قد سمعت ، على نحو غامض ، بالحنطة التي تدخر للسادة والتي تعطى احيانا للفلاحين . وكانت تعلم ان اخاها واباها ماكانا



@ketab_n @4_readers

ليرفضا مساعدتهم ، لكنها كانت تخشى ألا تجد الكلمات المناسبة للأمر بتوزيع تلك الحنطة . وسرها أن تجد ذريعة لبذل رعايتها ، وهي ذريعة لم تكن تتحرج أن تنسى حزنها من أجلها . فسألت درون عن تفاصيل حاجات الفلاحين وعن مدخرات « بوغوتشاروفو » :

ـ لدينا حنطة ، حنطة أخي ، أليس كذلك ؟

أجاب « درون » بفخر :

ـ حنطة « السادة » لم تمسسها يد ، ذلك أن الامير لم يأمرنا ببيعها .

قالت الاميرة ماريا .

ـ أعطها للفلاحين ، اعطهم كل ما يحتاجون اليه ، اني آذن لك باسم أخي .

فلم يجب « درون » بشيء وأرسل تنهدا عميقا .

ـ وزعها عليهم ان كانت تكفيهم . وزع كل شيء . آمرك بذلك باسم أخي ، وقل لهم أن مالنا هو لهم ، وأننا لن ندخر شيئا في سبيل مساعدتهم . أنبئهم بذلك كله .

كان «درون» يحدق في الاميرة ماريا وهي تتكلم . وقال :

ـ اعفني ، ياأميرة ، بالله عليك . مري أن تسترد المفاتيح مني لقد خدمت ثلاثا وعشرين سنة ولم أسىء في شيء ، اعفني ، بحق السماء ..

لم تفهم الاميرة ماريا ماذا يريد منها ومم يريد أن تعفيه . فأجابته أنها لم ترتب في اخلاصه قط وأنها مستعدة أن تفعل كل شيء من أجله ومن أجل الفلاحين .



@ketab_n @4_readers

# الفصل الحادي عشر

بعد ساعة جاءت « دويناشا » لتقول للاميرة ان « درون » عاد ، وان الفلاحين تجمعوا ، بناء على امرها ، قرب مخزن الحبوب وانهم يرغبون في الكلام اليها .

قالت الاميرة ماريا :

لكني لم استدعهم ، وانما قلت لدرون ان يوزع الحنطة عليهم .

قالت دونياشا :

ــ اطرديهم ، بالله عليك ، ياأميرة ، ولاتذهبي لمقابلتهم . انما ذلك كله خدعة . سوف يرجع « اياكوف ألباتيتش » وسوف نسافر ... لكن لاتذهبي ...

فسألتها الاميرة مدهوشة :

ــ أية خدعة يمكن ان تكون في الامر ؟

ــ انني اعلم ماأقول ، استمعي الي ، بالله عليك ، واسألي المربية . يقولون انهم لايوافقون على الذهاب كما امرت .

قالت الاميرة ماريا :

ــ أنت مخطئة ، فأنا لم آمرهم بالذهاب قط ... ادعي لي « درون » .

أيد « درون » اقوال « دويناشا » : لقد جاء الفلاحون بناء على أمر الاميرة .



@ketab_n @4_readers

فأجابت هذه :

ــ لكني لم أطلب اليهم المجيء . لاريب انك لم تحسن التعبير . كل ماقلته لك هو ان توزع عليهم الحنطة .

تنهد « درون » دون ان يجيب ، ثم قال :

ــ سينصرفون اذا ماامرت بانصرافهم .

ــ كلا ، كلا ، سأذهب لاراهم .

خرجت الاميرة ماريا الى درج المدخل بالرغم من توسلات «دونياشا» والمربية العجوز ، وتبعها « درون » و « دونياشا » والمربية العجوز و « ميشيل ايفانوفتش » .

قالت الاميرة في نفسها وهي تدنو عند الغسق من الجمهور الذي تجمع في المرعى قرب مخزن الحبوب : « انهم يظنون ، بلاريب ، اني امنحهم القمح بشرط ان يبقوا ، واني سأذهب واتركهم لمشيئة الفرنسيين . سأعدهم بجراية شهرية وبمأوى في املاكنا بضواحي موسكو ، وانا واثقة من ان آندره لوكان مكاني لفعل اكثر مما فعلت » .

تراص الجمهور واضطرب وحسرت الرؤوس على عجل . دنت منهم الاميرة ماريا بحيوية ، خافضة عينيها ، متعثرة بثيابها ، وقد شخصت اليها كثير من العيون ، عيون الشباب وعيون الشيوخ ، واتجهت اليها كثير من الاوجه حتى انها لم تميز وجها واحدا بينها وحتى انها لم تعلم ماذا تفعل حين رأت نفسها مضطرة الى مخاطبة الجميع دفعة واحدة . لكن شعورها بأنها تمثل اباها واخاها منحها القوة فبدأت خطبتها بشجاعة . قالت وقد رفعت بصرها واحست قلبها يدق دقا سريعا وعنيفا :



@ketab_n @4_readers

ـ انا جد مسرورة من مجيئكم • لقد قال لي « درون » ان الحرب خربت بيوتكم • المصيبة مشتركة ولن ادخر وسعا في سبيل معونتكم • سوف ارحل لان في البقاء هنا خطرا علي ••• ولان العدو قريب ••• لان ••• اني اعطيكم كل شيء ، ياأصدقائي ، وارجوكم ان تأخذوا كل شيء ، خذوا حنطتنا كيلا تذوقوا العازة • واذا قيل لكم انني اهبكم الحنطة لكي تبقوا هنا فلاتصدقوا • بل اني اطلب اليكم ان تذهبوا مع كل ماتملكونه الى أملاكنا في ضواحي موسكو ، وهنا سآخذ كل شيء على عاتقي ، وانا اعدكم الا يصيبكم العوز هناك وان يقدم لكم المأوى والطعام • توقفت الاميرة • ولم يسمع من الجمهور سوى التنهدات • ثم استأنفت كلامها :

ـ اني لاافعل ذلك باسمي ، بل باسم المرحوم ابي الذي كان سيدا صالحا لكم ، وباسم اخي وباسم ابنه •

وتوقفت ثانية ، فلم يقطع الصمت احد • ثم قالت وهي تتفحص الوجوه امامها :

ـ ان مصيبتنا مشتركة سوف تتقاسم كل شيء مناصفة ، فكل ماهو لي هو لكم •

كانت جميع العيون شاخصة اليها، حاملة معنى واحدا لم تدرك كنهه• أكان فضولا او اخلاصا او عرفانا او خوفا او حذرا • كان واحدا على جميع الوجوه •

قال صوت من الصفوف الاخيرة :

ـ نحن جد مسرورين من أفضالك ، انما لا يليق بنا أخذ حنطة السادة • وسألته الاميرة :



@ketab_n @4_readers

ولمَ ذاك ؟

فلم يجبها أحد ، ولاحظت الاميرة ماريا أن أبصارهم لا تلبث أن تنكس كلما واجهت نظرتها . وسألتهم ثانية :

ــ ولمَ لا تريدون أخذها ؟

أخذ الصمت يضايقها ، وحاولت أن تتصيد احدى النظرات . سألت شيخا كان يقف امامها مستندا الى عصاه . فقالت وهي تنظر في عينيه :

ــ لمَ لا تقول شيئا ؟ تكلم ان كنت تعتقد انكم بحاجة الى شيء آخر . سأفعل ما تطلبون .

وكأنما استاء الشيخ مما قالته فأطرق رأسه وقال :

ــ ولمَ نقبل ، لسنا بحاجة الى الحنطة .

وانبعثت من جهات شتى في الجمهور أصوات تقول :

ــ تطلبين منا أن نترك كل شيء . لن نقبل بهذا . لن نعطي موافقتنا. اننا نرثي لك ، لكننا لا نوافق . اذهبي وحدك ...

وعاد الى الوجوه مرة أخرى ذلك التعبير نفسه ، لكنه لم يكن فضولا أو عرفانا بل انه كان عزما عدوانيا .

قالت الاميرة ماريا وعلى وجهها ابتسامة حزينة :

لا ريب انكم لم تحسنوا فهمي . لم لا تريدون أن تذهبوا . اني أعدكم بالمأوى والغذاء . والعدو هنا سيخرب بيوتكم ...

لكن أصوات الجمهور غطت على صوتها :

ــ لن تحصلي على موافقتنا ، ليخرب بيوتنا ! لن نقبل حنطتك ، لن تحصلي على موافقتنا !



@ketab_n @4_readers

حاولت الاميرة ماريا أن تلتقي احدى النظرات في ذلك الجمهور فلم تجد نظرة متجهة اليها ، لقد تحاشتها العيون جميعا ، فأحست بضعف شديد •

علت من الجمهور أصوات تقول :

ـ أرأيتم نصائحها ، هي تريد أن تتبعها في عبوديتنا ! ندع بيوتنا تخرب ونقبل بالعبودية ! صدقت ! سأعطيكم حنطة !

خفضت الاميرة ماريا رأسها وخرجت من الجماعة وعادت الى بيتها • وبعد أن كررت لدرون أنها بحاجة الى الخيل كي تسافر في اليوم التالي، أوت الى غرفتها وبقيت وحدها مع أفكارها •



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الثاني عشر

ظلت الاميرة ماريا زمنا طويلا ، في هذه الليلة ، جالسة الى نافذتها المفتوحة تصيخ السمع الى ضجيج أصوات الفلاحين المتصاعد من القرية ، وان لم تفكر فيهم . كانت تحس انها لن تجد سبيلا الى فهمهم، بالرغم مما تبذله من جهد . لم تكن تفكر الا في شيء واحد ، في حزنها الذي غدا الآن ، بعد الهتها عنه هموم الحاضر ، جزءا من الماضي بالنسبة اليها . تستطيع الآن أن تتذكر وتبكي وتصلي . سكنت الريح مع غروب الشمس . وكان الليل هادئا نديا وسكتت الاصوات شيئا فشيئا نحو منتصف الليل ، وصاح ديك ، وطلع البدر فوق اشجار الزيزفون ، وعلا ضباب رطب مائل الى البياض وخيم الصمت على القرية وعلى البيت .

استرجعت صور الماضي القريب ، واحدة بعد الاخرى : مرض أبيها ولحظاته الاخيرة . وكانت تقف عندها الآن بفرح كئيب الا الاخيرة منها ، وهي لحظة الموت ، فكانت تدفعها عنها مرتاعة ، لانها لم تكن تجرؤ على تأملها حتى في خيالها ، في هذه الساعة من الليل ، التي تلفها السكينة وتكتنفها الاسرار . وكانت هذه الصور تمثل لها بكثير من الوضوح والتفاصيل خيّل اليها معها أنها حقيقية ، وانها تعرض الماضي حينا والحاضر أو المستقبل حينا آخر .



@ketab_n @4_readers

استرجعت بشدة تلك اللحظة التي صرعته فيها النوبة القلبية : لقد كانوا يعودون به من حديقة « ليسييه خوري » وهم يجرونه من تحت ذراعيه ، وهو يغمغم شيئا بلسانه العاجز ، ويقطب حاجبيه الابيضين وينظر اليها بخجل وقلق .

وحدثت نفسها قائلة : « منذ ذلك الحين ، كان يريد أن يقول لي ما قاله يوم موته . لقد كان دائما يردد في فكره ما قاله لي . » وحينذاك عادت اليها بجميع تفاصيلها ذكرى ليلة « ليسييه خوري » ، الليلة التي سبقت النوبة ، عندما توجست مكروها فبقيت بجنبه ، وهي كارهة . لم تستطع النوم آنذاك ، فنزلت على أطراف أصابعها ، ودنت من باب حديقة الشتاء حيث كان يقضي تلك الليلة ، وأصغت الى صوته . كان يحدث « تيخون » بصوت متعب عن القرم ، وعن الليالي الدافئة ، وعن الامبراطورة . كان من الواضح أنه يشتهي الكلام . وأخذت تفكر الآن كما فكرت آنذاك : « لمَ لمْ يدعوني اليه ؟ لمَ لمْ يسمح لي أن أجلس مكان تيخون » ؟ لن يقول لاحد بعد الآن كل ما كان يدور في نفسه . لن تعود أبدا ، لا بالنسبة الي ولا بالنسبة اليه ، تلك اللحظة التي كان سيقول فيها كل ما يريد أن يقوله ، والتي كنت ساستمع اليه فيها وسأفهمه أنا ، بدلا من « تيخون » . لمَ لمْ أدخل آنذاك ؟ فلربما قال في تلك اللحظة ما قاله يوم مماته . وحتى عندما كان يحدث« تيخون» استفسر عني مرتين . كان يشتهي أن يراني ، وكنت هنا ، خلف الباب . كان يشعر بالحزن ويتألم من أن يحدث « تيخون » الذي لم يكن يفهمه. أذكر انه حدثه عن « ليز » كما لو كانت حية : نسي أنها ميتة ، وذكره « تيخون » بذلك فصرخ به : « يا غبي ! » . كان يتألم . سمعته من خلال الباب يتأوه ، وهو يتمدد على سريره ، ويصرخ : « يا الهي ! »



@ketab_n @4_readers

لمَ لمْ أدخل آنذاك ؟ ما الذي كان سيفعله بي ؟ بمَ كنت سأجازف ؟ لعله كان سيهدأ منذ تلك اللحظة ويقول لي تلك الكلمة . ولفظت الاميرة ماريا بصوت عال تلك الكلمة الحنونة التي قالها لها يوم موته : « يا روحي الغالية » ، وكررتها ، وانفجرت باكية تسكب الدموع التي تعزي القلب . كانت ترى الآن وجهه أمامها . لا هذا الوجه الذي عرفته ورأته دائما عن بعد ، بل هذا الوجه الخجل ، الضعيف الذي تأملته لاول مرة ، عن قرب ، بكل تجاعيده وتقاطيعه عندما انحنت على فمه لتحسن سماع ما كان يقوله .

وكررت : « يا روحي الغالية » . وتساءلت فجأة : « بم كان يفكر عندما قال هذه الكلمة ؟ وبم يفكر الآن ؟ وجوابا عن هذا السؤال رأته أمامها وعلى وجهه تلك المعاني التي رأتها عليه وهو في النعش محاطا بمنديل أبيض . واستولت عليها الآن مرة أخرى تلك الرهبة التي كانت قد أصابتها عندما تبينت بعد أن لمسته أنه لم يكن هو نفسه ، بل ان ما كان أمامها شيء تحيط به الاسرار ، شيء منفر . أرادت أن تفكر في شيء آخر ، أرادت أن تصلي ، فلم تقو على شيء . كانت تحدق في ضوء القمر وفي الظلال ، وتنتظر ، في كل لحظة ، ظهور وجه الميت ، وتحس كأنها مقيدة بالصمت الذي خيم على البيت .

وهمست :

ـ دونياشا !

ثم صرخت بصوت مذعور :

ـ دونياشا !

وانتزعت ذاتها من الصمت واندفعت الى غرفة الخادمات ، نحو المربية والنساء اللائي هرعن اليها .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الثالث عشر

في ١٧ آب ذهب « روستوف » و « ايلين » وبصحبتهما « لافروشكا » الـذي عاد لتوه من الاسر وأحد الخيالة ، في نزهة من مخيمهم فـي « ايانكوفو » على خمسة عشر فرسخا من « بوغوتشاروفو » لتجريب الحصان الذي اشتراه ايلين وللبحث عن العلف في القرى •

كانت « بوغوتشاروفو » ، منذ ثلاثة أيام ، بين الجيشين المتعادين ، وكان يمكن ان تحتلها بسهولة مؤخرة الجيش الروسي أو طليعة الجيش الفرنسي • ولذلك اراد « روستوف » ، بوصفه رئيس كوكبة يقظ ، ان يستولي قبل الفرنسيين على ماقد تبقّى من الارزاق •

كان « روستوف » و « ايلين » منبسطين أشد انبساط • وكانا ، وهما في طريقهما الى هذا الملك الاميري الذي أملا ان يجدا فيه خدما كثـيرا بينهم فتيات جميلات ، يسألان « لافروشكا » عـن نابليـون ويضحكان من حكاياته ، او يجريان لتجريب حصان « ايلين » •

ولم يخطر ببال « روستوف » أن الاملاك التي يقصد اليها تخص « بولكونسكي » الذي كان خطيب أخته •

أطلق هو و « ايلين » جواديهما للمرة الاخيرة أمام « بوغاتشاروفو » ، وسبق «روستوف» « ايلين » ودخل شارع القرية قبله عدوا •

قال « ايلين » وهو محمر الوجه :



@ketab_n @4_readers

ـ كان دور ابنك في الذهاب الى الجندية ، لكنك أجلت ابنك الضخم وأرسلت ابني « فانكا » ليأكل في القصعة ! سنموت جميعا !

ـ ولمَ سنموت جميعا ؟

قال « درون » :

ـ لن أفارق الناحية .

ـ طبعا ، لقد استطعت أن تملأ بطنك جيدا !...

كان الشيخان الطويلان يتحدثان من ناحيتهما . وما ان اقترب « روستوف » من الجمهور وبرفقته « ايلين » و « لافروشكا » و « ألباتيتش » ، حتى تقدم « كارب » مبتسما ابتسامة خفيفة ، ويداه في حزامه ، على حين التجأ « درون » الى الصفوف الخلفية وتراص الجمهور .

صرخ « روستوف » وهو يقترب بخطى سريعة :

ـ ايه ! أيكم القيّم ؟

فسأله « كارب » :

ـ القيم ؟ وماذا تريد منه ؟

لكنه لم يكد يتم كلامه حتى طارت قبعته في الهواء وترنح رأسه بفعل ضربة عنيفة .

وصرخ « روستوف » بصوت جهوري :

ـ انزعوا قبعاتكم ، أيها الخونة .

ثم زعق بأعلى صوته :

ـ أين القيّم الاميري ؟



@ketab_n @4_readers

أجاب « ايلين » وهو يضحك :

ـ فرنسيون ، وهذا هو نابليون بعينه !

قال ذلك وأشار الى « لافروشكا » .

وسأل الفلاح أيضا :

ـ أنتم روس اذن ؟

وسأله فلاح آخر ، قصير ، وهو يدنو منه :

ـ وهل معكم قوة ؟

فأجاب روستوف :

ـ لاشك ، لاشك . لكن لم تجمعتم هنا ؟ هل اليوم يوم عيد ؟

أجاب الفلاح وهو ينأى :

ـ لقد اجتمع الشيوخ لبحث شؤون الناحية .

في هذه اللحظة ، ظهر على الطريق التي تفضي الى بيت الامير ، امرأتان ورجل بقبعة بيضاء يتجهون الى الضابطين .

قال « ايلين » لدى مرأى « دونياشا » التي أقبلت عليه بخطى ثابتة :

ـ ذات الثوب الوردي لي ، فاياك أن تختطفها مني !

قال لافروشكا وهو يغمز بعينه :

ـ سوف ننالها !

سألها « ايلين » مبتسما :

ـ ماذا تريدين ، يا حسنائي ؟

ـ الاميرة تسأل عن فوجكم وأسمائكم .



@ketab_n @4_readers

ـ هـذا الكونت « روستوف » قائد الكوكبة ، وأنا خادمك المتواضع •

كان العجوز الثمل يغني اغنيته وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة سعيدة عندما رأى « ايلين » يخاطب الخادمة • ووصل « ألباتيتش » في أثر « دونياشا » ، ودنا من « روستوف » حاسرا عن رأسه من بعد ، وقال بشيء من الاحترام الذي يشوبه الازدراء لشباب هذا الضابط ، وقد أدخل يده في صدرته :

ـ أأجرؤ على ازعاجك ، يا صاحب النبل • ان سيـدتي ، ابنـة الجنرال القائد الامير « ڤيكولا اندريفيتش بولكونسكي » المتوفى في الخامس عشر من هذا الشهر ، ترجوك أن تتكرم بالمجيء لانها تجد نفسها في ضيقةٍ بسبب جهل هؤلاء الناس •••

وأشار بيده الى الفلاحين ، ثم أضاف وعلى وجهه ابتسامة حزينة ، وهو يشير الى الفلاحين اللذين كانا يدوران ، في الخلف ، حوله كما تدور النّعرُ حول الخيل :

ـ هل تسمحان بالتنحي قليلا ، فليس من المناسب ، بحضور هؤلاء •••

قال الفلاحان وهما يبتسمان بفرح :

ـ آه !••• ألباتيتش ••• آه ! اياكوف ألباتيتيش !••• رائع ! سامحنا ، بالله عليك • رائع !

قال « اياكوف ألباتيتش » بلهجة رصينة وهو يشير بيده الطليقة الى الشيخين :

ـ ما لم يكن ذلك مسليا لسعادتك •



@ketab_n @4_readers

قال « روستوف » وهو يبتعد :

ـ كلا ، تلك تسلية هزيلة .

ثم سأله :

ـ ما الامر ؟

ـ اني أسمح لنفسي أن أخبر سعادتك بأن الفلاحين الافظاظ هنا لا يريدون أن يدعوا سيدتي تترك هذا المكان . وهم يهددون بحل الخيول ، حتى ان كل شيء محزوم منذ الصباح لكن الاميرة لا تستطيع لرحيل .

هتف « روستوف » :

ـ هذا غير ممكن !

فكرر « ألباتيتش » :

ـ لي الشرف أن أخبرك بالحقيقة الخالصة .

ترجل « روستوف » وسلم جواده لتابعه ، واتجه الى البيت بصحبة « ألباتيتش » الذي سأله عن تفصيلات القضية . والواقع أن عرض الاميرة للقمح ، واستفسارها « درون » وجمعية الفلاحين ، كل ذلك أفسد الاشياء الى الحد الذي دفع « درون » الى اعادة مفاتيحه نهائيا والانضمام الى الفلاحين وعدم الاستجابة لدعوات « ألباتيتش » . وعندما أمرت الاميرة ، في الصباح ، بربط الخيل استعدادا للرحيل ، تجمع الفلاحون في جمهور غفير قرب مخزن الحبوب وارسلوا من يقول انهم لن يدعوها تذهب وأن هناك أمرا بعدم الرحيل وأنهم سيحلون الخيل . وذهب « ألباتيتش » ليردهم الى جادة الحق ، لكنهم أجابوه ( كان « كارب » أكثر من تكلم ، لان « درون » اختفى بين الجمهور



@ketab_n @4_readers

ولم يظهر ) بأنهم لن يسمحوا للاميرة بالذهاب ، وان هناك أوامر بهذا الصدد ، ما عليها الا أن تبقى وسوف يخدمونها كسابق عهدهم وسوف يطيعونها في كل شيء ..

في اللحظة التي كان فيها « روستوف » و « ايلين » يعدوان على الطريق ، أصدرت الاميرة « ماريا » التي أصمت أذنيها عن سماع ملامة « ألباتيتش » والمربية والخادمات ، أمرها بربط الخيل وبالتهيؤ للسفر ، لكن الحوذيين ولوا هاربين ، لدى رؤية الخيالة الذين ظنوهم فرنسيين ، وعلا بكاءُ النساء في البيت .

وعندما اجتاز « روستوف » الرواق هتفت بعض الاصوات الرقيقة :

ـ أيها السيد الكريم ! يا منقذنا ! الله هو الذي أرسلك !

كانت الاميرة « ماريا » التي أحست بالحيرة والعجز ، في قاعة الاستقبال عندما أُدخل « روستوف » . لم تكن تعرف من هو ، ولا لمَ كان هناك ، ولا ما سوف يقع . وعندما تبينت من خلال وجهه الروسي ومشيته والكلمات الاولى التي قالها أنه رجلٌ من عالمها ، ألقت عليه نظرة مستأنية ومشرقة ، وخاطبته بصوت متهدج ، راجف من الانفعال . رأى « روستوف » ، على الفور ، شيئا من الخيال الروائي في هـذا اللقاء . « فتاةٌ لا حامي لها ، يرهقها الحزن ، وحيدةٌ تحت رحمة الفلاحين الافظاظ المتمردين ! أي قدر غريب قادني الى هذا المكان ! وما أعذب وأنبل قسماتها وتعبيرها ! » كذلك كان يفكر وهو ينظر اليها ويصغي الى قصتها التي روتها على استحياء .

وعندما بلغت في قصتها قولها ان ذلك كله جرى غداة دفن أبيها ، ارتعش صوتها وأشاحت بوجهها ، ثم خشيت أن يحمل « روستوف »



@ketab_n @4_readers

كلماتها على محمل الرغبة في اثارة عطفه ، فنظرت اليه نظرة مستفهمة خائفة • اغرورقت عينا « روستوف » بالدموع ، ولاحظت الاميرة « ماريا » ذلك ، فرمته بنظرة ملؤها العرفان بالجميل ، نظرة مشرقة تنسي ما في وجهها من بعد عن الجمال •

قال « روستوف » وهو ينهض :

ـ ليس بوسعي ، أيتها الاميرة ، ان أعرب عن مدى سعادتي لمروري من هنا مصادفة ولاستطاعتي أن أضع نفسي تحت تصرفك • اذهبي ، وأنا كفيل لك بشرفي أن أحدا لن يجرؤ على ازعاجك ، لو سمحت لي بمرافقتك •

ثم انحنى باحترام كما ينحني المرء أمام الاميرات الخالصات النسب، واتجه الى الباب •

كان « روستوف » ، بهذا الاكرام لها ، كأنما يريد أن يظهر أنه يأبى استغلال بؤسها ليفرض وجوده عليها ، مع أنه كان سيكون سعيدا لو ازداد بها معرفة •

أدركت الاميرة ذلك ووقع منها موقعا حسنا ، فقالت له بالفرنسية :

ـ أنا جد" ، جد" شاكرة لك جميلك ، لكني أرجو ألا يكون ذلك كله سوى سوء تفاهم لا نجد فيه مذنبا •

وانهمرت دموعها فقالت :

ـ معذرة •

قطب « روستوف » حاجبيه وحياها تحية ثانية عميقة وخرج •



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

## الفصل الرابع عشر

ماذا!أهي لطيفة؟أما فتاتي ذات الثوب الوردي فهي فاتنة: يا عزيزي، واسمها « دونياشا » ...

لكن « ايلين » صمت لدى مرأى وجه « روستوف » . أدرك أن بطله وقائده في حالة ذهنية مختلفة .

رشقه « روستوف » بنظرة غضبى واتجه ، دون أن يجيبه ، الى القرية ، بخطى سريعة ، وقال بينه وبين نفسه :

ـ هؤلاء الاوغاد ، سيذوقون الامرين ، وسيرون ما قدرتي .

وجد « ألباتيتش » الذي أوسع خطاه كي لا يركض ، مشقة في اللحاق به . وعندما أدركه سأله :

ـ ما القرار الذي أمرتم باتخاذه ؟

وقف « روستوف » وضم قبضتيه وتقدم نحو « ألباتيتش » مهددا وصرخ به :

ـ القرار ؟ أي قرار ؟ أيها العجوز الخرف ! أليس لك عينان ترى بهما ؟ أجب ؟ يتمرد القرويون ولا تستطيع أن تردهم عن غيهم ؟ لست سوى خائن . أنا أعرفكم جميعا ، وسأسلخ جلودكم ... وكأنما خشي أن يبدد ما اختزنه من غضب ، فترك « ألباتيتش » مكانه وتابع طريقه مسرعا . وأغضى « ألباتيتش » على الاهانة فتبعه وهو يوسع الخطا



@ketab_n
@4_readers

وجعل يعرض عليه ملاحظاته . قال : ان الفلاحين ممعنون في عنادهم ، وأنه لمن الطيش أن يتصدى المرء لهم الآن بدون مساندة القوة المسلحة، وأنه قد يكون من الافضل استدعاؤها قبل كل شيء .

ـ سأريهم القوة المسلحة ... سأعلّمهم ...

هذا ما كان يردده « نيكولا » دون أن يعلم ما يقول ، مختنقا بغضب جنوني ، حيواني ، وبالحاجة الى أن يصبه صباً . وسار آليا الى الجمهور بخطوات سريعة ، حازمة ، وهو لا يعلم ما سيفعل . وكلما اقترب أحس « ألباتيتش » بأن فعلته الطائشة يمكن أن تعود بنتيجة حسنة . وأحس الفلاحون بذلك أيضا وهم يرون مشيته السريعة ووجهه المصمم ، المتشنج .

عندما دخل الخيالة الى القرية وذهب « روستوف » لرؤية الاميرة ، أصيب الجمهور بشيء من الذعر ووقعت فيه خلافات . قال بعضهم : ان القادمين الجدد روس وأنهم قد يغتاظون من أننا لم ندع الاميرة تذهب . وكان « درون » من هذا الرأي ، لكنه ما ان أعلنه حتى انبرى له « كارب » وفلاحون آخرون . صرخ به « كارب » :

ـ من كم سنة وأنت تمتص دم الناحية ؟ لافرق عندك ! ستطلع مالك المدفون وتهرب به ، وماذا يهمك ان خربت بيوتنا ؟

وصرخ به آخر :

ـ لقد أُمرنا بالنظام وبألا يتحرك أحد . ينبغي ألا يؤخذ شيء مما هنا ، هذا كل شيء .

وصاح شيخ قصير مهاجما « درون » أيضا :



@ketab_n @4_readers

ـ لقد سبقتني •

فأجاب « روستوف » وهو يربت بيده جواده « الدوني » الذي علاه الزبد :

ـ أنا سباق دائما ، في الارض المنبسطة وفي هذه الارض •

قال « لافروشكا » :

ـ وأنا كنت قديرا أن اسبقك ، يا صاحب السيادة ، على جوادي الفرنسي الاصيل ـ وكان يسمي كذلك فرسه الصالحة للجر ـ ، لكنني لم أشأ أن أخجلك •

اقتربوا من مخزن للحبوب تجمع أمامه جمهور غفير من الفلاحين •

حسر بعضهم عن رؤوسهم واكتفى الآخرون بالنظر الى القادمين •
اقترب من الضابطين عجوزان طويلان تجعد وجهاهما وخف شعر لحيتهما، خرجا من الخمارة وهما يبتسمان ويترنحان ويدندنان لحنا ناشزا •

قال « روستوف » وهو يضحك :

يا لهما من مستهترين ! أفي القرية علف ؟

قال ايلين :

ـ وما أشد الشبه بينهما •••

كان أحد العجوزين يغني ، وعلى وجهه ابتسامة الغبطة :

ـ يا ما ••• أحيلى ••• الل •• قاء •••

شق الجمهور فلاح وتقدم من « روستوف » وسأل :

ـ من أنتم ؟



@ketab_n @4_readers

وبادرت بعض الأصوات المذعنة هنا وهناك الى القول ، في حين حسرت الرؤوس :

ـ أين القيّم ، انه يريد القيّم ... يا « درون زاكاريتش » ، انه يدعوك .

وقال كار ب:

ـ نحن لاحق لنا في التمرد ، وانما نراعي الانظمة .

وفي اللحظة نفسها تكلمت عدة أصوات ، من الخلف ، معا :

ـ اننا نفعل ما يقرره الشيوخ ، هناك سلطات كثيرة مثلك ...

زمجر « روستوف » بصوت جنوني منكر ، وهو يشد « كارب » من ياقته :

ـ أتناقشون ؟... هذا عصيان !... أيها اللصوص والخونة ! أوثقوه ، أوثقوه !

هـذا ، مع أنه لم يكن هناك مـن يوثقه سوى « لافروشكا » و « ألباتيتش » .

واسرع « لافروشكا » وأمسك بيديه من الخلف ، وصرخ :

ـ هل ينبغي أن ندعو رفاقنا من تحت ؟

وأشار « ألباتيتش » الى اثنين من الفلاحين باسميهما لكي يشدا وثاق « كارب » ، فخرجا من الجمهور بخضوع ونزعا نطاقيهما .

ثم صرخ « روستوف » :

أين القيّم ؟

خرج « درون » من الجمهور شاحب الوجه ، متجهما .



@ketab_n @4_readers

فصاح به « روستوف » :

أنت القيّم ؟ أوثقه يا « لافروشكا » .

وكأن تنفيذ أمره لا يمكن أن يجد عائقا أيضا . وبالفعل فان فلاحين آخرين عمدا الى شد وثاق درون الذي ساعدهما ففك حزامه ومده لهما.

قال « روستوف » للفلاحين :

ـ أما أنتم جميعا فاصغوا الي : امضوا بسرعة ، هيا الى بيوتكم ، ولا أسمعن لأحد صوتا .

راحت بعض الاصوات تنحي باللائمة بعضها على بعض وتقول :

ـ لم نأت شرا ، الا ما كان عن غباء . كان الامر مزحة ... قلت لكم ان ذلك مخالف للنظام ...

تدخل « ألباتيتش » وقد استعاد سلطانه :

ـ نبهتكم على ذلك من قبل ، هذا عملٌ غير صالح ، يا شباب !

أجابته أصوات :

ـ كنا أغبياء ، يا « اياكوف ألباتيتش » .

وما لبث الجمهور أن تفرق وانتشر في القرية .

اقتيد الفلاحان الموثقان الى دار الامير وتبعهما الشيخان الثملان .

قال أحد الشيخين لكارب :

ـ ايه ! يعجبني شكلك ! أيجوز أن نخاطب الاسياد هكذا ! ماذا دهاك ؟

وأيدّه الآخر :

ـ انه غبي ، غبيٌ حقا !



@ketab_n @4_readers

بعد ساعتين كانت العربات تقف في الفناء ، وكان الفلاحون ينقلون اليها بنشاط متاع سادتهم ويرتبونها فيها ، وكان « درون » ، بعد أن أطلق سراحه من الحجرة الضيقة التي حبس فيها ، بناءً على طلب الاميرة، يلقي عليهم أوامره .

قال فلاحٌ مديدُ القامة ، مدور الوجه ، ابتسم وهو يتناول علبة من يد احدى الوصيفات :

ـ لا تضعها هكذا ! ان لها ثمنها ، ولا يجوز أن نرمي بها كيفما اتفق ، أو أن نحشوها تحت الحبل ، فهذا يُتلفها أ لا أحبّ ذلك ! يجب ان يكون العمل شريفا ، وبحسب النظام . هكذا ، ضعها تحت الحصير وغطها بالقش ، رائع !

قال آخر وهو ينقل مكتبة الامير آندره :

ما أكثر الكتب فيها ! لا تعلق بي ! ما أثقلها ، يا شباب ، تلك الكتب الرهيبة !

قال الفلاح الطويل ، المدور الوجه وهو يشير اشارة العارف الى المعاجم الضخمة :

ـ الذين كتبوا هذه الكتب ما كانوا يتسكعون !

لم يشأ « روستوف » أن يفرض نفسه على الاميرة ، فلم يرجع ليراها ، لكنه بقي في القرية حتى سفرها . فلما تحركت العربات ، ركب جواده وصحبها الى الطريق التي تحتلها قواتنا على اثني عشر فرسخا من « بوغوتشاروفو » . فلما وصلوا الى نزل « ايانكوفو » استأذنها باحترام وأجاز لنفسه أن يقبل يدها لاول مرة .



@ketab_n @4_readers

أجاب الاميرة ماريا التي كانت تشكره على انقاذه لها ( كما كانت تقول ) وقد احمر خجلا :

ـ لقد أخجلتني ، أي دركي بمقدوره أن يفعل ما فعلت .

وأضاف ، وقد تضايق وحاول أن يغير الحديث :

ـ لو لم يكن علينا سوى محاربة الفلاحين لما تركنا العدو يتقدم الى هذا الحد . على أنني سعيد أن أتيحت لي فرصة التعرف اليك . وداعا يا أميرة ، أتمنى لك السعادة والعزاء ، وأتمنى أيضا أن ألقاك في مناسبات أسعد . اذا شئت ألا تخجليني فلا تشكريني ، أرجوك .

لكن الاميرة ، ان لم تشكره بالكلام ، فقد شكرته بتعابير وجهها التي كانت تشع عرفانا وحنانا . لم يكن بوسعها أن تصدق أنها لا تدين له بالشكر . وكانت لا تشك ، على العكس من ذلك ، بأنها كانت ستكون ، لولاه ، ضحية الفلاحين المتمردين أو الفرنسيين ، وبأنه تعرض، من أجل انقاذها لاوضح المخاطر وأرهبها ؛ هـذا الى جانب أنه رجل ذو نفس رفيعة نبيلة ، استطاع أن يفهم وضعها وحزنها . وكانت صورة عينيه اللتين تفيضان طيبة ونبلا واللتين اغرورقتا بالدموع عندما راحت تبكي وهي تتحدث عن مصيبتها لا تفارق ذهنها .

أحست الاميرة ماريا فجأة ، عندما ودعها وظلت وحدها ، أن عينيها تفيضان بالدمع ، ولم تكن هذه المرة هي المرة الاولى التي يطرح فيها هذا السؤال الغريب عليها : هل تحبه ، يا ترى ؟

أثناء سفر الاميرة الى موسكو ، ومع أن وضعها لا يحمل على الابتهاج ، لاحظت « دونياشا » التي كانت تصحبها في عربتها ، غير مرة ، أنها كانت تخرج رأسها من باب العربة وتبتسم ابتسامة تنم على السعادة والكآبة معا .



@ketab_n @4_readers

وتساءلت الاميرة ماريا : « وحتى لو أحببته » •

ومهما يكن الخجل الذي أحست به لدى اعترافها لنفسها بأنها تحب رجلا قبل أن يحبها ، ولعله لن يحبها أبدا ، فقد كانت تتعزى بأنه لن لن يطلع على هذا الحب أبدا ، وانها لا ترتكب خطيئة ان أحبت بصمت الى آخر أيامها ذاك الذي سيكون أول حب وآخر حب لها •

وبين الفينة والفينة ، كانت نظراته وكلماته وبوادر عطفه التي أبداها لها في حزنها ، تعود الى ذاكرتها ، فتبدو لها السعادة غير مستحيلة • وفي هذه الاثناء كانت « دونياشا » تلاحظ أنها تنظر من باب العربة وهي تبتسم •

فكرت في نفسها : « كان لابد أن يأتي الى « بوغوتشاروفو » ، وفي تلك اللحظة بالذات ! وكان لابد لاخته أن تتخلى عن العهد الذي قطعته على نفسها لآندره ! » • ورأت في ذلك كله يد العناية الالهية •

أما « روستوف » فقد كانت الذكرى التي حملها عن الاميرة ماريا ذكرى حلوة جدا • فاذا فكر فيها أحس انه اكثر بهجة ، واذا مازحه زملاؤه الذي علموا بمغامرته في « بوغوتشاروفو » قائلين : انه ذهب للبحث عن العلف فوقع على واحدة من أغنى الوريثات في روسيا ، غضب • وانما كان يغضب لان فكرة الزواج بالاميرة ماريا الوادعة ، العذبة ، التي تملك ثروة ضخمة قد خطرت بباله ، غير مرة ، بالرغم منه • لم يكن ، شخصيا ، يتمنى زوجة أفضل : فهذا الزواج يسعد الكونتيسة والدته ويصلح شؤون والده ، بل انه يسعد ــ وكان « نيكولا » يحس بذلك ــ الاميرة ماريا •

و « سونيا » ؟ والعهد المقطوع ؟ من أجل ذلك كان « روستوف » يغضب عندما يضايقه زملاؤه بشأن الاميرة ماريا •



@ketab_n @4_readers

# الفصل الخامس عشر

عندما تولى « كوتوزوف » قيادة الجيوش تذكر الامير آندره واستدعاه الى مقر القيادة العامة .

وصل الامير آندره الى « تساريفو ــ زليتشه » في نفس اليوم الذي كان يستعرض فيه « كوتوزوف القطعات اول استعراض . وتوقف في القرية قرب بيت الكاهن الذي كانت تقف امامه عربة القائد العام ، وجلس على المقعد قرب البوابة ينتظر «صاحب الرفعة» ، كما صار الناس يسمون « كوتوزوف » . ومن الارض التي تقع خلف القرية كانت تصل احيانا أنغام موسيقى عسكرية ، وأحيانا أخرى هدير ما لا يحصى من الاصوات الهاتفة « هورا » ترحيبا بالقائد الاعلى . وعلى عشر خطوات من الامير آندره استغل الخادمان والتابع ورئيس الخدم غياب الامير ليتمتعوا بالطقس الجميل . وجاء عقيد من الخيالة له شاربان وعارضان طويلان اسمر ، قصير ، واوقف جواده امام البوابة ، والقى نظرة على الامير آندره وسأل ان كان صاحب الرفعة يقيم هنا ، وان كان سيعود بعد حين .

أجاب الامير آندره بأنه ليس من أركان صاحب الرفعة وانه وصل قبل قليل . فخاطب الفارس احد الخادمين الانيقين فأجابه هذا بضرب من التعالي الذي يصطنعه خدم القادة وهم يكلمون الضباط :

ــ صاحب الرفعة[1] ؟ سيكون هنا بين لحظة واخرى . ماالذي تريده منه ؟

---

(1) صاحب الرفعة هو الجنرال كوتوزوف الذي كان كونتا منذ ١٨١١ ومنح لقب أمير في ٢٩ تموز ١٨١٢ ، واصبح يتمتع بلقب « اسفيتلوست » اي ما يمكن ترجمته الى العربية بصاحب الرفعة او السمو .



@ketab_n @4_readers

ابتسم العقيد وترجل وعهد بجواده الى خادم واقترب من « بولكونسكي » وحياه تحية خفيفة . ففسح له « بولكونسكي » في المقعد . وجلس الاخر قربه . وسأله :

ـ وانت أيضا ، تنتظر القائد العام ؟ يبدو أنه يستقبل جميع الناس . الحمد لله ؛ كنا في مصيبة ونحن مع اكلة النقانق ! لم يطلب «ايرمولوف» ترفيعه الى « الماني » لسبب زهيد ! نرجو ان يتمكن الروس الان من ان يقولوا كلمتهم . والا افسدوا كل شيء ! ماكانوا يعرفون سوى التراجع، التراجع دائما . هل خضت القتال ؟

أجاب الامير آندره :

ـ لقد سرني انني لم اشارك في هذا التراجع فحسب بل وايضا انني فقدت فيه ، فضلا عن املاكي وبيت طفولتي ، كل ماكان عزيزا علي ... والدي الذي مات حزنا . انا من المقاطعة ، من « سمولنسك » .

ـ آه ؟ ... أنت الامير « بولكونسكي» ؟ يسرني ان اتعرف اليك. أنا العقيد « دينيسوف » المعروف باسم « فاسكا » . لقد سمعت عنك.

قال ذلك وشد على يد الامير آندره وتفحص وجهه بعناية تنم على المحبة القلبية ، واضاف ، بعد صمت ، بلهجة متوددة :

ـ ها هي ذي اذن تلك الحرب السكيتية . كل مافيها على مايرام؛ الا على الذين يدفعون تكاليفها ! انت الامير « آندره بولكونسكي » اذن ؟

وهز راسه وكرر وهو يشد على يده مرة اخرى ويبتسم ابتسامة حزينة :

ـ يسعدني ، ايها الامير ، يسعدني ان اتعرف اليك .



@ketab_n @4_readers

كان الامير آندره يعرف « دينيسوف » من خلال ماحدثته «ناتاشا» عن اول طالبيها • قادته هذه الذكرى الرقيقة والشاقة الى تلك المشاعر المؤلمة التي لم يفكر فيها منذ زمن طويل ، وان كانت ماثلة في نفسه • لقد عاش ، في الاونة الاخيرة ، حوادث اخرى كثيرة وخطيرة ، من مثل التخلي عن « سمولنسك » ، وزيارته « ليسييه خوري » ، ونبأ موت أبيه ، حوادث منعت تلك الذكريات من ان تستولي على فكره ، منذ زمن بعيد ، فلما عادت تلك الذكريات لم تهزه بمثل سابق عهدها من العنف • اما بالنسبة الى « دينيسوف » فان اسم « بولكونسكي » ايقظ أيضا ذكريات ماض بعيد وشاعري ، وذلك عندما باح ، بعد العشاء وبعد اغنية « ناتاشا » ، وهو لايعلم كيف، بحبه لتلك الفتاة البالغة خمسة عشر عاما • وابتسم لهذه الذكريات القديمة ولحبه « ناتاشا » ، ثم مالبث ان عاد الى الهم الوحيد الذي كان يشغله بشغف دون غيره • كان همه خطة لمعركة تخيلها عندما كان ، أثناء الانسحاب ، في المراكز الامامية • وقد عرضها على « باركلي دي تولي » ، وهو ينوي الآن عرضها على « كوتوزوف » • وتنطلق الخطة من الفكرة التالية وهي ان خط عمليات الفرنسيين مفرط الامتداد وانه يجب العمل ضد مواصلاتهم ، بدلا من مواجهتهم بسد الطريق عليهم ، او مع هذه المواجهة • وشرع يعرض تلك الخطة للامير آندره :

ــ لايمكنهم المحافظة على كل هذا الخط • مستحيل ، وانا آخذ خرقه على عاتقي ؛ اعطني خمسمائة رجل ولسوف اقطعه ، هذا مؤكد ! الاسلوب الوحيد الصالح هو حرب الانصار •

نهض « دينيسوف » وشرح خطته لبولكونسكي وهو يلوح بيديه• واثناء كلامه ، كانت هتافات الجيش التي غدت اشد تنافرا واتساعا



@ketab_n @4_readers

واختلاطا بالموسيقا والاغاني ، تصل من مكان العرض • ثم سمع وقع الحوافر والصرخات في القرية •

صاح قوزاقي قرب البوابة :

ـ لقد وصل ، ها هو ذا !

اقترب « بولكونسكي » و « دينيسوف » من البوابة التي كانت تقف امامها جماعة من الجنود ( حرس الشرف ) وشاهدا « كوتوزوف » قادما على جواد كميت ، تصحبه حاشية كبيرة من الجنرالات • وكان « باركلي » بجنبه تقريبا ، وخلفهم ومن حولهم جمهور من الضباط كانوا يجرون وهم يهتفون « هورا » !

تقدم المساعدون العسكريون ودخلوا الى الفناء • وكان « كوتوزوف » يهمز بشيء من نفاد الصبر ، جواده الذي ناء بحمله واخذ يهملج هملجة • كان يحني راسه بلا انقطاع ، ويرفع يده الى عمرته البيضاء « وهي عمرة يضعها الحرس الفرسان ، حاشيتها حمراء ولا مقدمة واقية لها » • وعندما صار بحذاء حرس الشرف المؤلف من رماة اشداء يحمل معظمهم اوسمة ، أمعن النظر فيهم ، وهم يقدمون السلاح ، نظر القائد الثاقب ، ثم التفت الى جمهور الجنرالات والضباط المحيطين به • وفجأة اصطبغ وجهه بتعبير ماكر ، فهز كتفيه هزة تنم على الحيرة ، وقال:

ـ أبمثل هؤلاء الفتيان الاشداء تراجعنا ومازلنا نتراجع !

واضاف وهو يسوق جواده الى البوابة مارا امام الامير آندره و « دينيسوف » :

ـ هيا ! الى اللقاء ، ياجنرال •

وارتفعت من خلفه الهتافات : « هورا ! هورا ! هورا ! » •



@ketab_n @4_readers

راى الامير آندره ان « كوتوزوف » غدا ، منذ آخر مرة شاهده فيها ، اضخم ، واكثر ترهلا ، غدا غارقا في شحمه . لكن عينه البيضاء وندبته التي يعرفها جيدا ، ومظاهر التعب على وجهه وشخصه ، بقيت على ماكانت عليه . كان لابسا سترة طويلة ، متقلدا سوطا علق بسير جلدي رقيق ، متهالكا على جواده الصغير ، السلس القياد ، متهاديا عليه بثقل ، صافرا بنفسه صفيرا رفيقا ، وهو يدخل الى الفناء . وكان وجهه يعكس الرضى ، رضى رجل ينوي ان يستريح بعد سخرة . سحب قدمه اليسرى من الركاب ،ورفع بمشقة ساقه من فوق السرج ، مرنحا جسده، ومكشرا من جراء الجهد الذي بذله ليتكىء على ركبته ، وتهاوى ، وهو يئن ، بين ايدي القوزاق والمساعدين العسكريين الذين اخذوا يسندونه.

انتصب ، وسرح حوله عينيه المكسرتين ، ونظر الى الامير آندره الذي لم يعرفه ، على مايظهر ، واتجه بمشيته الغائصة ، الى درج المدخل. ثم القى نظرة ثانية ، على الامير آندره وهو يصفر بنفسه . كان لابد له من بضع ثوان ( كما هي الحال غالبا ، لدى الشيوخ ) لكي يضع اسما لهذا الوجه . وقال بصوت مجهد وهو يلتفت :

— آه ، مرحبا ياامير ، مرحبا ياعزيزي ، تعال ...

وصعد بخطى ثقيلة درجات المدخل التي كانت تصر تحت وطأة ثقله. فك ازراره وجلس على مقعد صغير فوق سطح الدرج .

— وكيف حال ابيك ؟

قال آندره باقتضاب :

— تلقيت البارحة نبأ وفاته .

تطلع اليه « كوتوزوف » بعينين مروعتين ، محملقتين ، ثم نزع عمرته،



@ketab_n @4_readers

ورسم اشارة الصليب : « تغمده الله برحمته ! ولتتم مشيئة الله فينا جميعا ! » وأطلق زفرة من أعماق صدره وصمت لحظة ، واستأنف قائلا « كنت احبه واحترمه ، وانا معك من كل قلبي » • وضم الامير آندره وشده الى صدره السمين وظل زمنا طويلا هكذا • فلما ارخاه رأى الامير آندره شفتيه الرخوتين ترتعشان وعينيه تغرورقان بالدموع •تنهد واستند بيديه الى المقعد لكي ينهض • وقال : « تعال ، تعال الى غرفتي لكي نتحدث ••• » •

غير ان « دينيسوف » الذي لايحس بالرهبة امام القادة كما لايحسها امام الاعداء ، صعد ، في تلك اللحظة ، درج المدخل بخطا ثابتة وهو يرن مهمازيه ، على كره من المساعدين العسكريين الذين حاولوا ايقافه، عند اسفل الدرج ، بصوت خافت وغاضب • نظر اليه « كوتوزوف » الذي مازالت يداه متكئتين على المقعد، نظرة استياء • عرف «دينيسوف بنفسه واعلن انه ينقل الى سموه قضية شديدة الاهمية من أجل مصلحة الوطن • حدجه « كوتوزوف » بنظرة متعبة ، وشبك يديه على بطنه بحركة مغتاظة ، وردد : « من اجل مصلحة الوطن ؟ هيا ، ماالامر ؟ تكلم» احمر وجه « دينيسوف » كما يحمر وجه الفتاة ( ان رؤية وجهه المسن ، ذي الشاربين ، وجه المدمن وهو يحمر لتحدث انطباعا غريبا ) وجعل يعرض بجرأة خطته لقطع خط عمليات العدو بين « سمولنسك » و « فيازما » • لقد قطن في هذه المنطقة وهو يعرفها جيدا • كانت خطته تبدو حسنة بلا مراء ، ولاسيما بقوة الاقناع التي وضعها في كلماته • اما « كوتوزوف » فكان ينظر عند قدميه ويلقي بين الحين والحين نظرة خاطفة الى فناء البيت المجاور ، وكانما كان يتوقع ان يطلع منه مايكدر •



@ketab_n @4_readers

وبالفعل ، فان جنرالا خرج من البيت الذي كان ينظر اليه ، اثناء عرض « دينيسوف » لخطته ، وتحت ذراعه محفظة •

قال « كوتوزوف » وهو يقاطع « دينيسوف » :

ــ كيف ؟ هل انتهيت من استعدادك ؟

قال الجنرال :

ــ نعم ، ياصاحب السمو •

هز « كوتوزوف » رأسه وكأنه يريد أن يقول : « كيف يفلح رجل واحد في صنع ذلك كله » • ثم عاد فأعار « دينيسوف » أذنا صاغية •

قال « دينيسوف » :

ــ أعدك بشرفي ، شرف الضابط الروسي ، ان اقطع مواصلات نابليون •

قاطعه « كوتوزوف » قائلا :

ــ ماالقرابة بينك وبين « كيريل اندريفيتش دينيسوف » ، المعتمد العام ؟

ــ هو عمي ، ياصاحب السمو •

قال « كوتوزوف » بابتهاج :

ــ أوه ! لقد كنا أصدقاء • حسنا ، حسنا ، ياعزيزي ، ابق هنا في الاركان ، وسوف نتحدث عن ذلك غدا • واذ أومأ اليه برأسه التفت الى « كونوفنتزين » ومد يده الى الاوراق التي حملها اليه •

قال الجنرال المناوب بصوت خال من الرضى :



@ketab_n @4_readers

ـ هل تتفضل بالدخول ، ياصاحب السمو • اذ لابد من النظر في بعض المخططات ومن توقيع بعض الاوراق •

وخرج من البيت مساعد عسكري واعلن ان كل شيء جاهز • لكن « كوتوزوف » لم يكن يشتهي الدخول قبل ان يتخلص من اعماله • وتقبض وجهه ••• وقال :

ـ لا ، ياعزيزي ، مر لي بطاولة ، وسأنظر في ذلك كله هنا •••

وقال للامير آندره :

ـ لاتذهب •

ظل الامير آندره على درج المدخل يتنصت الى مايقوله الجنرال المناوب •

أثناء التقرير ، سمع خلف باب المدخل همس امرأة وحفيف ثوب حريري • وعندما التفت الى تلك الناحية لمح ، عدة مرات ، خلف الباب، امرأة جميلة ، قوية البنية ، غضة الاهاب ، في ثوب وردي وخمار من الحرير الخبازي ، تحمل بيدها طبقا وكأنها تنتظر القائد العام • أوضح مساعد « كوتوزوف » العسكري للامير آندره ، بصوت خفيض ، انها ربة المنزل ، زوجة الكاهن ، وهي تستعد لتقديم الخبز والملح لسمو صاحب الرفعة • لقد استقبل زوجها صاحب الرفعة في الكنيسة والصليب في يده ، وهي تريد ان تستقبله ، من جهتها ، في البيت ••• واضاف باسما : « انها جميلة جدا » •

عند هذه الكلمات ، ادار « كوتوزوف » راسه • كان يصغي الى تقرير الجنرال المناوب ( وموضوعه الرئيسي نقد موقع « تسارنفو ـ



@ketab_n @4_readers

زايميتشه » ) كما اصغى الى « دينيسوف » ، وكما اصغى ، قبل سبع سنوات ، الى المناقشات في مجلس « اوسترلتس » الحربي . الظاهرانه ماكان يصغي الا لان له اذنين ليس بوسعهما الا ان تصغيا ، رغم الصمام الذي يسد احداهما ، وكان واضحا ان لاشيء مما يقوله الجنرال المناوب يمكن ان يثير دهشته او اهتمامه ، بل انه كان يعرف مسبقا كل مايمكن ان يقال له ، فلا يصغي الى ذلك كله الا على سبيل الواجب ، كما يجب أن يصغي الى القداس في الكنيسة . كل ما قاله له « دينيسوف » خطير وذكي ، وما قاله الجنرال المناوب أشد خطرا وذكاء ، لكن من الواضح أن « كوتوزرف » كان يحتقر المعرفة والعقل جميعا ، وأنه كان يعلم أن شيئا آخر هوالذي سيحسم الامور، شيئا مستقلا عن المعرفة والعقل . كان الامير آندره يراقب باتنباه وجه القائد العام ، والمعاني الوحيدة التي قرأها فيه كانت معاني الضجر والفضول الذي أثاره همس تلك المرأة خلف الباب ، والرغبة في مراعاة اللياقة الاجتماعية . كان من الواضح أن « كوتوزرف » يحتقر العقل والمعرفة ، بل والعواطف الوطنية التي أبداها « دينيسوف » ، لكن هذا الاحتقار لم يكن يأتي من عقله ولا من عاطفته ولا من معرفته ( لانه لم يكن يسعى الى اظهارها ) ، وانما يأتي من شيء آخر .

يأتي من سنه ومن تجربته في الحياة . والتدبير الوحيد الذي اتخذه شخصيا على اثر هذا التقرير يتعلق بالنهب الذي تمارسه القطعات الروسية . لقد قدم له الجنرال المناوب ، بعد انتهائه من تلاوة تقريره ، امرا ليوقع عليه ، امرا يجعل قادة القطعات مسؤولين عن الاضرار التي يحدثها رجالهم ، اذا ماتقدم الملاك الذي حصد زرعه بطلب .



@ketab_n @4_readers

يحدثها رجالهم ، اذا ما تقدم الملاك الذي حصد زرعه بطلب •

صفر « كوتوزوف » صفيرا خفيفا وهز راسه وقال :

ـ الى الموقد ••• الى النار • اقول لك من مرة : ارم بهذه الامور الى النار • ليحصدوا الزرع وليحرقوا الخشب ماشاؤا • اني لاحرم ذلك ولا أبيحه ، لكني لا أستطيع أن آمر بعقاب الناس •

فتلك اعمال لامناص منها •• ولسنا نستطيع أن نصنع عجة من البيض دون كسر البيض •

ثم القى نظرة خاطفة اخرى على الورقة وختم كلامه وهو يهز راسه·
اوه ! يالهذه الدقة الالمانية !



@ketab_n @4_readers

# الفصل السادس عشر

قال « كوتوزوف » وهو يوقع آخر ورقة :
ـ حسنا ! هذا كل شيء ، الآن .

نهض بمشقه في حين امحت التجاعيد من عنقه الابيض الغليظ ، واتجه الى الباب وقد ازداد وجهه حبورا .

امسكت امرأة الكاهن ، وهي مضرجة الوجه ، بالطبق الذي لم تستطع تقديمه في الوقت المناسب ، بالرغم من استعداداتها الطويلة ، وقدمته لكوتوزوف بعد أن حيته تحية عميقة .

غضن « كوتوزوف » عينيه وتبسم وأمسك بذقنها وقال :
جمال رائع ! شكرا ياعزيزتي .

واخرج من جيبه قطعا ذهبية ووضعها على الطبق ، وقال وهو يمضي الى الغرفة المعدة له :
ـ كيف الحال ؟

وتبعته اليها زوجة الكاهن والابتسامة تحفر غمازتين على وجهها المتورد وجاء المساعد العسكري الى درج المدخل ليدعو الامير آندره الى الغداء . وبعد نصف ساعة جاء من يدعوه لمقابلة « كوتوزوف » . كان « كوتوزوف » مستلقيا على أريكة وهو ما يزال في سترته المحلولة الازرار ، وفي يده كتاب فرنسي أغلقة لدى دخول الامير آندره مشيرا



@ketab_n @4_readers

الى الصفحة بقطاعة الورق • كان الكتاب : « فرسان التم » لمدام دي جنليس كما قرأه الامير آندره على الغلاف •

قال « كوتوزوف » له :

ـ هيا ! اجلس اجلس هنا ، ولنتحدث • انه لامر محزن ، جد محزن • لكن تذكر ياصديقي ، أنني أب لك ، أب ثان •••

وقص عليه الامير آندره كل ما كان يعلمه عن اللحظات الاخيرةلابيه وعما رآه لدى مروره في « ليسبيه خوري » •

قال « كوتوزوف » فجأة بصوت منفعل ، ولاريب انه تمثل بوضوح حالة روسيا من خلال قصة الامير آندره :

ـ انظر ••• انظر الى أين اوصلونا !

وأضاف وهو غاضب :

ـ صبرا ، صبرا •

وكأنما كان زاهدا في متابعة هذا الحديث الذي هزه ، فقال :

ـ انما استدعيتك لا ستبقيك بجنبي •

أجابه الامير آندره :

ـ أشكر سموك •

ثم أضاف وعلى وجهه ابتسامة لمحها « كوتوزوف » :

ـ وأخشى ألا أكون صالحا للعمل في الاركان •

نظر اليه « كوتوزوف » نظرة مستفهمة ، فاستانف آندره قائلا :

ـ ثم انني الفت فوجي وتعلقت بضباطه ، كما ان الرجال يحبونني



@ketab_n @4_readers

ايضا ، فيما اعتقد . ولسوف آسف على فراقهم . فلئن رفضت شرف البقاء معكم ، اني لارجو ان تعتقد ...

ـ أنا آسف ، فقد احتاج اليك ، الحق معك ، الحق معك . لسنا بحاجة الى الرجال هنا . الناصحون كثر دائما لكن الرجال قلة . لو كان الناصحون يخدمون كما تخدم لما كانت الافواج على ماهي عليه . اني اذكرك منذ « اوسترليتس » ... اذكرك ، والعلم في يدك ....

احمر الامير آندره فرحا بهذه الذكرى . جذبه « كوتوزوف » من ذراعه وقدم له خده ، ورأى الامير آندره مرة أخرى ، الدموع في عيني الشيخ . ومع أنه كان يعلم أن كوتوزوف سخي الدمع وأنه يبدي عطفا خاصا ازاءه لانه يريد أن يظهر مشاركتنا له في مصابه ، الا أن هذا التذكير باوسترليتس ملأه سرورا ورضى .

ـ سر في طريقك والله معك . أنا واثق أنها طريق الشرف .

وصمت ثم قال :

ـ افتقدتك في « بوخارست » . كنت سأعهد اليك بمهمات ...

وغير الحديث فتحدث عن حملة تركيا وعن الصلح المعقود وقال :

ـ نعم ، لقد أوسعوني لوما على الحرب وعلى السلم ... بيد أن كل شيء جاء في وقته . كل شيء يأتي في أوانه عند من يحسن الانتظار .

وتابع حديثه وهو يعود الى ذلك الموضوع الذي بدا أنه يشغله :

ـ الناصحون هناك لم يكونوا أقل عددا مما هم هنا ... اوه ! الناصحون ، الناصحون ! لو كنا نصغي اليهم جميعا لكنا الآن في تركيا ، ولما كنا عقدنا الصلح أو أنهينا الحرب . يريدون منا أن نستعجل ، لكن



@ketab_n @4_readers

رب عجلة تهب ريثا • لو لم يمت كامنسكي لابيد • كان يلزمه ثلاثون ألف رجل للاستيلاء على الحصون • الاستيلاء على حصن ليس صعبا ، الصعب هو الانتصار في المعركة • ومن أجل ذلك ليس من الضروري الانقضاض أو الهجوم **مايلزم هو الصبر والزمن.** لقد حمل « كامنسكي » بجنوده على « روستشوف »[1] ، واحتللت أنا بهما ( الصبر والزمن ) حصونا أكثر منه ، وألجأت الترك الى أكل لحم الخيل • وسيأكل الفرنسيون منه أيضا ! صدقني سألجئهم الى أكل لحم الخيل !

قال ذلك بعد أن هز رأسه وانتعش وضرب صدره بيده ، وتلألأت الدموع في عينيه مرة ثانية •

قال الامير آندره :

ــ لكن لابد مع ذلك ، من قبول المعركة ؟

ــ لابد من ذلك اذا قبل الناس جميعا بها ، لا مفر منها ••• لكن صدقني ، يا عزيزي ، أن ليس أبسل من هذين : **الصبر والزمن** • هما اللذان يتغلبان على كل شيء ، أما الناصحون **فلا يفهمون الامور على هذا النحو ، وهذه هي المصيبة • بعضهم يريد ، وبعضهم لايريد •**

وسأل منتظرا الجواب :

ما العمل اذن ؟

ورده ، وقد التمعت عيناه بتعابير عميقة ذكية :

---

(١) في ٢٢ تموز سنة ١٨١٠ اراد الكونت الشاب نيكولا رامنسكي ان ياخذ بالانقضاض مدينة روستشوف المحصنة على الدانوب ، لكنه صُدَّ . ( انظر الى ما قيل عنه في الفصل الثامن من الجزء الاول ) .



@ketab_n @4_readers

نعم، ما العمل في رأيك ؟

ولما لم يجب الامير آندره ، استأنف كلامه :

سأنبئك بما ينبغي عمله ، وبما أعمله .

وقال ببطء متمهلا عند مقاطع الكلام :

« توقّفْ عند الشبهة » ، يا عزيزي .

وأضاف :

ــ حسنا ! الوداع ، يا صديقي ، تذكر أنني أشاركك مصابك من كل قلبي وأنني لست بالنسبة اليك صاحب رفعة ولا أميرا ولا قائدا عاما . انما أنا أب لك . واذا احتجت الى شيء فتعال الي مباشرة .

الوداع ، ياعزيزي .

وضمه مرة اخرى بين ذراعيه وعانقه . ولم يكد الامير آندره يخرج حتى « تنهد كوتوزوف » تنهد المرتاح، وتناول الرواية التي بدأ قراءتها : « فرسان التم » .

كيف حدث ذلك ولمَ حدث ، هـذا ما لن يستطع الامير آندره تفسيره ، لكنه عاد الى فوجه بعد حديثه مع « كوتوزوف » وهو مطمئن الى سير العمليات العام والى الشخص الذي عُهدت اليه تلك العمليات. لقـد كان يزداد ثقـة بأن كل شيء يسير سيرا حسنا كلما شاهد غياب العنصر الشخصي لدى هذا الشيخ الذي لم يحتفظ ، كما يبدو ، بغير العادات العاطفيـة وحدها ، والذي استبقى ، بدلا من العقل ( الذي يجمع الاحداث ويستخلص منها النتائج ) القدرة على تأمل سير الاحداث بكل هدوء وسكينة . وحدّث الامير آندره نفسه عنه : « انه لن يُدخل



@ketab_n @4_readers

شيئا شخصيا ، ولن يبتكر ، ولن يباشر شيئا ، لكنه سيصغي الى كل شيء ، وسيتذكر كل شيء ، وسيضع كل شيء في مكانه المناسب ، وهو لن يحول دون شيء نافع ، ولن يسمح بشيء ضار . انه يدرك ان هناك ماهو أعظم قوة وخطرا من ارادته ، وهو مجرى الاحداث الذي لامهرب منه . وهو يُحسن رؤية تلك الاحداث، ويُحسن ادراك مدى أهميتها ، والتخلي من اجل ذلك عن التدخل فيها ، والتنازل عن ارادته التي يوجهها الى شيء آخر . والناس يثقون به خاصة لانه روسي ، بالرغم من رواية « مدام دي جنليس » ومن الامثال الفرنسة ، لانصوته ارتجف وهو يقول : « انظر الى أين أوصلونا ! » ولانه بكى وهو يؤكد انه سيُلجئهم الى أكل لحم خيولهم » .

على هذا الشعور الذي شارك فيه الجميع مشاركة مبهمة على نحو من الانحاء قام ذلك القبول الاجماعي وتلك الموافقة العامة اللذان قاد اليهما الاختيار القومي لكوتوزوف قائدا عاما ، خلافا لاعتبارات البلاط.

* * *



@ketab_n @4_readers

## الفصل السابع عشر

سارت الحياة في موسكو بعد ذهاب الامبراطور ، سيرتها الاولى العادية حتى غدا من الصعب تذكر الحماسة والاندفاعة الوطنيتين في الايام الاخيرة ، وغدا من الصعب الاعتقاد بأن روسيا في خطر حقا ، وبأن اعضاء النادي الانكليزي من ابناء الوطن . الشيء الوحيد الذي كان يذكّر بهذه الحماسة الوطنية الحديثة العهد هو تغطيـة الهبات بالرجال وبالمال ، وهي هبات ما ان قدمت حتى اتخذت شكلا شرعيا ، رسميا وبدت أمرا لامفر منه .

عند اقتراب العدو ، لم ينظر الموسكوفيون الى وضعهم بقدر اكبر من الجد ، بل لقد غدوا ، على العكس ، أقل اكتراثا ،كما يقع دائمـا للذين يرون الخطر الجسيم يُحدق بهم . في هذه اللحظات يُسمع في النفس صوتان يتساويان قوة ؛ أحدهما يدعو دعوة حكيمة الى ادراك طبيعة الخطر والى التفكير في وسائل الخلاص منه ؛ والآخر يدعو دعوة أكثر حكمة قائلا : ان التفكير في الخطر شاق أبلغ المشقة ، مؤلم أشد الالم ، لانه ليس في مقدور الانسان التنبؤ بكل شيء والافلات من سير الاحداث ، وأن الاجدى عليه أن يدير ظهره للامور المنغصة مادامت لم تقع بعد ، وأن يفكر في ماهو سار دون غيره . والانسان ، في وحدته ، يطيع ، في الاغلب ، الصوت الاول ، وفي المجتمع ، يطيع على العكس ، الصوت الثاني .



@ketab_n @4_readers

كذلك كان الامر بالنسبة الى سكان موسكو . فلم يلهوا منذ زمن طويل كما لهو١ هذا العام .

ان اعلانات « روستوبتشين »[1] التي ترسم في اعلاها ، صورة حانة وصاحبها وبرجوازي موسكوفي صغيرهو « كاربوشكا تشيجرين» الذي « تطوع مع المتطوعين وأفرط في الشراب ، وسمع أن نابليون يريد أن يزحف على موسكو فغضب ونعت الفرنسيين بشتى الاوصاف ، وخرج من الحانة وألقى تحت اللافتة في الشعب المحتشد خطبة ، ان هذه الاعلانات كانت تقرأ وتشرح شأنها شأن المقطعات الشعريةالتي يصنعها « فاسيلي لفوفتش بوشكين » على قواف مسبقة[2] .

أما في النادي فكانوا يجتمعون لقراءةهذهالاعلانات فيالغرفة التي في الزاوية ، وكان بعضهم يحب الطريقة التي يسخر بها « كاربوشكا » من الفرنسيين حين يقول : « أن الملفوف ينفخهم والبرغل يفجرهم وعسر الهضم يخنقهم ، وأنهم جميعا أقزام ، وأن امرأة قوية بوسعها أن ترمي بضربة مذارة ثلاثة منهم في الهواء . » . وكان آخرون ينكرون هذا الاسلوب ويقولون : انه اسلوب سوقي سخيف . وكان يروى أن « روستوبتشين » طرد من موسكو الفرنسيين وجميع الاجانب ، وبينهم جواسيس وعملاء لنابليون ؛ وكان ذلك يروى ، بخاصة ، للاستشهاد بالكلمة البارعة التيعملها « روستوبتشين » وخاطبهم بها ساعة رحيلهم. فبينما كان الاجانب ينقلون الى « نيجني » بالقوارب ، قال لهم

---

(١) كان حاكم موسكو الكونت فيدور روستوبتشين يوجه الى سكان موسكو اعلانات مكتوبة باسلوب شعبي ، وذلك لكي يستثير وطنيتهم .

(٢) كان فاسيلي بوشكين ( ١٧٦٧ - ١٨٣٠ ) ، وهو عم الشاعر الكبير الكسندربوشكين معنيا بتاليف الاشعار الهازلة .



@ketab_n @4_readers

« روستوبتشين » : « عودوا الى انفسكم ، وادخلوا الى القارب ، ولاتجعلوا منه قاربا لربان الجحيم[1] » . وكانوا يروون ان جميع الادارات في موسكو قد أُخليت ، ويضيفون الى ذلك كلمة «شنشين» الذي قال : من أجل هذا وحده ، يجب أن تشكر موسكو نابليون . ويروون أن فوج « مامونوف » يكلفه ثمانمائة الف روبل ، وان « بيزوخوف » أنفق فوق ذلك على متطوعيه ، وأحلى من ذلك أن « بيزوخوف » نفسه سيرتدي البزة العسكرية وسيمتطي جواده على رأس فوجه ، وأنه لن يطلب أجرة ممن يأتون ليتأملوه .

قالت « جوليا دروبتسكوي » وهي تلمّ قبضة من النسالة (٢) وتضغطها بين أصابعها النحيفة المغطاة بالخواتم :

ـ انك لا تُعفي أحدا من لسانك .

كانت جوليا تنوي أن تسافر في اليوم التالي وقد أقامت سهرة وداع :

ـ « بيزوخوف » مضحك ، لكنه طيب جدا ، لطيف جدا . ما اللذة التي تجدها في أن تكون لاذعا ، على هذا النحو ؟

قال شاب في زي الجيش الشعبي ، كانت « جوليا » تدعوه : فارسي وكان سيرافقها الى « نيجني » :

ـ الغرامة عليك ! ـ

كان قد تقرر في منتدى « جوليا » وفي غيره من المنتديات في موسكو ،

---

(١) هذه الكلمات التي يقولها روستوبتشين بالفرنسية قد استشهد بها تاستيفان في «تاريخ الجالية الفرنسية في موسكو منذ بداياتها وحتى سنة ١٨١٢ » .

(٢) اخذت نساء المجتمع الراقي يمزقن الخرق ليصنعن منها نسالات من اجل الجرحى



@ketab_n @4_readers

ألا يتكلم أحد غير الروسية ، وكل من يغلط ويلفظ كلمة فرنسية يدفع غرامة لحساب لجنة الانقاذ •

وقال أحد الكتاب وكان حاضرا :

ـ وغرامة ثانية للتعبير الدخيل• فقولها : « ما اللذة التي تجدها ، تعبير غير روسي •

ـ قالت « جوليا » مخاطبة المتطوع دون أن تكترث لملاحظة الكاتب :

ـ انك لا تعفي أحدا من لسانك • أعترف بغلطي لاستعمال كلمة « لاذع » بالفرنسية ، وسوف ادفع الغرامة عنها ، وأنا مستعدة أن أدفع أيضا للذة التيأجدها في قول الحقيقة ؛ أما التعبير الدخيل فاني لااتحمل تبعته • اذ ليس لدي الوسائل الكافية ولا الوقت الكافي لان أضع مدرسا ، كما يفعل الامير « غوليتزين » وأن أتعلم الروسية • آه ! هاهوذا • عندما ••• ثم توقفت بعد أن كادت تذكر مثلا فرنسيا ، وقالت للمتطوع :

ـ كلا ، كلا ، لن تضبطني وأنا أتكلم الفرنسية بعد الآن •

وقالت ربة المنزل وهي تبتسم لبطرس ابتسامة لطيفة : عندما نذكر الشمس نرى أشعتها •

وأضافت وهي تكذب ذلك الكذب السهل الذي برعت فيه نساء المجتمع الراقيات :

ـ كنا نتحدث عنك ونقول : ان فوجك سيتفوق ، من دون شك ، على فوج « مامونوف » •



@ketab_n @4_readers

أجاب بطرس وهو يقبل يد ربة المنزل ويجلس بجنبها :

ـ آه ! لاتذكري لي هذا الفوج . لقد مللت من الكلام عليه !

قالت « جوليا » وهي تبادل المتطوع نظرة ساخرة .

ـ لاشك أنك ستقوده بنفسك .

لم يكن المتطوع « لاذعا » بحضرة بطرس ، وبدا عليه أنه يتساءل عن معنى ابتسامة « جوليا » . ذلك أن شخصية بطرس ، بالرغم من شروده وطيبة قلبه ، تقطع الخط على كل محاولة تهكم بحضرته .

رد بطرس وهو يضحك ويلف بنظرته شخصه الطويل الضخم :

ـ كلا ! سأكون دريئة يسهل على الفرنسيين اصابتها ، ثم انني أخشى الا أتمكن من امتطاء الجواد ...

وبعد أن تناولت « جوليا » الكثيرين لتجد موضوعا لحديثها ، تطرقت الى آل روستوف ، قالت :

ـ يبدو أن أحوالهم تسوء . والكونت لايحسن التدبير . لقد أراد آل « رازموفسكي » شراء قصرهم وممتلكاتهم قرب موسكو ، لكن القضية طالت . انه يطلب ثمنا باهظا .

قال أحدهم :

ـ كلا ، أعتقد أن البيع سيتم في هذه الايام . مع أنه من الجنون أن يشتري المرء شيئا في موسكو ، في الوقت الحاضر .

سألت « جوليا » :

ـ ولماذا ؟ أتظن أن موسكو في خطر حقا ؟

ـ ولمَ تسافرين اذن ؟



@ketab_n @4_readers

ـ أنا ؟ ياله من سؤال غريب ! اني أسافر لان ... لان كل الناس يسافرون ، ثـم انني لست « جان دارك » ولا محاربة من المحاربات الامازونيات .

ـ نعم ، بالتأكيد . أعطني أيضا خرقا أخرى .

وتابع المتطوع حديثه عن « آل روستوف » :

ـ ان أحسن التصرف استطاع دفع ديونه جميعا .

قالت « جوليا » بابتسامة ماكرة :

ـ انه شيخ طيب القلب ، لكنه « سيد » فقير . لمَ يبقون هنا كل هذا الوقت ؟ لقد كانوا ينوون العودة الى الريف منذ زمن طويل. أعتقد أن « ناتاليا » أبلـّت من مرضها .

قال بطرس :

ـ انهـم ينتظرون ابنهـم الاصغر الذي تطوع في فوج قوزاق « اوبولنسكي » وسافر الى « بيلاتسيركوف[1] » حيث يتم تشكيل الفوج ، وقد نقلوه الان الى فوجي وهم ينتظرونه بين يوم وآخر . كان الكونت يريد الذهاب منذ أمد بعيد ، لكن الكونتيسة تأبى مغادرة موسكو قبل وصول ابنها .

ـ رأيتهم أول أمس في منزل « أركاروف » . ازدادت « ناتالي » جمالا ، وغدت أمرح ، وغنـّت أغنية عاطفية . كيف تمرّ الاشياء بسهولة لدى بعض الناس !

---

(1) مدينة صغيرة جنوبي كييف ، وفيها الاملاك الفخمة التي تخص كونتات آل برانيكي والتي ورثوها عن الامير بوتمكين في سنة ١٧٩١ .



@ketab_n @4_readers

فسألها بطرس مستاء :

ـ ما الذي يمرّ بسهولة ؟

ابتسمت « جوليا » وقالت :

ـ أتعلم ، يا كونت ، أننا لانجد فرسانا مثلك الا في روايات « مدام سوزا » .

سألها بطرس وهو يحمرّ :

ـ أي فرسان ؟ لماذا ؟

ـ مالك ، أيها الكونت ! انها حكاية على لسان موسكو بأسرها . لعمري ، اني استغرب أمرك .

قال المتطوع :

ـ الغرامة ! الغرامة !

ـ حسنا ! فليكن . لم يعد بوسع الانسان أن يتكلم ؛ ان هذا لمما يضايق !

سألها بطرس متجهما ، وهو ينهض :

ـ ما الحكاية التي على لسان موسكو ؟

ـ دع عنك هذا ، أيها الكونت ، أنت أعلم بذلك !

ـ اني لا أعلم شيئا .

ـ أما أنا فأعلم أنك كنت مرتبطا بناتالي ، ومن ثمّ ... وكنت أنا ، مرتبطا بـ « فيرا » . « فيرا » الغالية !

قال بطرس باستياء :



@ketab_n @4_readers

ـ كلا ، ياسيدتي ، اني لـم أقم بدور الفارس الخادم للآنسة روستوف ، ولـم أضع قدمي في بيتها منذ شهور • لكني لا أفهـم القسوة •••

قالت « جوليا » وهي تبتسم وتحرك نسالتَها :

ـ الاعتذار اقرار •

ـ وأرادت أن تكون الكلمة الاخيرة لهـا ، فبادرت الى تغيير الحديث :

ـ أتعلم ما الذي بلغني اليـوم ؟ وصلت المسكينـة « ماري بولكونسكي » الى موسكو أمس • أتعلم أنها فقدت والدها ؟

قال بطرس :

ـ صحيح ! وأين هي ؟ أود كثيرا لو أراها !

ـ قضيت السهرة معها البارحة • وهي ذاهبة اليوم أو غدا مع ابن أخيها الى أملاكهم في ضواحي موسكو •

سألها بطرس :

ـ و ••• كيف حالها ؟

ـ لابأس ، انها حزينة • لكن ، أتعلم من الذي أنقذها ؟ نيكولا روستوف • وقصتها قصة طويلة • لقد حوصرت وأُريد قتلُها وجُرح رجالها ، فانقض « نيكولا » وأنقذها •••

قال المتطوع :

ـ وهذه قصة أخرى • فلا شك أن هذا النزوح العام يبدو كأنما صُنع لكي يتيح للعانسات أن يتزوجن • تزوجت « كاتيش » اولا ، وجاء الآن دور الآنسة « بولكونسكي » •

ـ **اتعلم أنني اظنها « مفرمة قليلا بذلك الشاب »** •

ـ الغرامة ! الغرامة ! الغرامة !

ـ لكن ، كيف نقول هذا بالروسية ؟



@ketab_n @4_readers

# الفصل الثامن عشر

عندما عاد بطرس الى بيته ، حمل اليه اعلانان من « روستوبتشين » وصلا في اليوم نفسه .

وكان أحدهما يقول : ان الكونت « روستوبتشين » لم يمنع الناس من مغادرة موسكو ، كما أشيع ، بل انه سيكون سعيدا أن يرى نساء الطبقة الراقية ونساء التجار يرحلن . « وهكذا سيقل الخوف وستقل الشائعات ، وأنا كفيل بحياتي ان الاثيم لن يبلغ موسكو » . هذا ما جاء في الاعلان . ولاول مرة ، اظهرت هذه الكلمات بوضوح لبطرس أن الفرنسيين سيبلغون موسكو . وكان الاعلان الاخر يقول : ان القيادة العامة كانت في «فيازما» ، وان الكونت «ويتجنستن»[1] هزم الفرنسيين ، ولكن بما أن السكان يرغبون في التسلح فان الاسلحة في مستودع الاسلحة بمتناول أيديهم : السيوف والمسدسات والبنادق ، وانهم يستطيعون الحصول عليها بأثمان زهيدة . وكانت لهجة الاعلانين أقل مرحا من أحاديث « تشيجيرين » . وقد حملا بطرس على التفكير . فمما لاشك فيه أن سحابة العاصفة الرهيبة التي كان يدعوها بكل

---

**(١) بيير دي ويتجنستن ( ١٧٦٨ - ١٨٤٢ ) جنرال ، تميز في حروب ١٨٠٥ - ١٨٠٧ ، أصبح في سنة ١٨١٢ قائدا للفيلق الاول الذي دافع ببسالة في بولوتسك عن طريق بطرسبرج في وجه الفرنسيين الذين كان يقودهم المارشال مارمون .**



@ketab_n @4_readers

جوارحه والتي كانت توحي اليه بالرهبة ، تلك السحابة كانت تقترب •

وسأل نفسه للمرة المائة : هل ينبغي أن اتطوع وألتحق بالجيش أو أنتظر ؟ وتناول عن الطاولة ورق لعب وأخذ « يُبصّر » به • قال في نفسه بعد أن خلط الورق ورفع عينيه الى السماء : اذا فتحتِ اللعبة فذلك يعني ••• ماذا يعني ؟ وقبل ان يقرر ماذا يعني سَمع صوت كبرى الاميرات خلف الباب تسأل ان كانت تستطيع الدخول •

قرر بطرس بينه وبين نفسه :

سيعني ذلك انني ينبغي أن التحق بالجيش •

وأضاف بصوت عال :

ــ ادخلي ، ادخلي •

( كبرى الاميرات التي لها جذع طويل ووجه متحجر ، هي وحدها التي بقيت في منزل بطرس ، فأختاها الصغيرتان تزوجتا )

قالت بصوت متأثر وبلهجة الملامة :

ــ اعذرني ، يابن عمي ، على مجيئي • لابد من اتخاذ قرار • ما الذي سيجري ؟ فالناس جميعا قد رحلوا والشعب يثور • فما الذي ننتظره اذن ؟

أجاب بطرس بتلك اللهجة المازحة التي اتخذها ازاءها ليخفي الضيق الذي سببه له دوره كمحسن اليها :

ــ أظن أن الامور على خير مايرام ، يا بنة عمي ، خلافا لما تقولين

ــ نعم ، كل شيء يسير سيرا حسنا ••• يا لها من فكرة مضحكة لقد روت لي قبل برهة « فارفارا ايفانوفنا » كيف يستبسل جندنا •



@ketab_n @4_readers

ويمكن القول : ان ذلك يكسبهم أعظم الشرف • والشعب يثور تماما ويخرج على الطاعة ، حتى ان خادمتي نفسها تغدو فظّة • واذا استمر ذلك فلن يلبثوا أن يعنفوا بنا • لايستطيع المرء ان يظهر خارج بيته • ثم ان الفرنسيين سيكونون هنا اليوم او غدا ، فما الذي ننتظره اذن ! لست أطلب منك الا شيئا واحدا ، يا بن عمي ، مُر بأخذي الى « بطرسبرج » ، مهما تكن قيمتي فلن أقبل بالعيش تحت سيطرة بونابرت

ــ مهلا ، يا بنة عمي ، من اين تستقين معلوماتك ؟ على العكس ••

ــ لن أرضخ لنابليونك • ليفعل الاخرون ما شاؤوا ••• اذا كنت لاتريد أن تفعل ما أطلبه منك •••

ــ بلى ، سأصدر أوامري على الفور •

بدا على الاميرة أنها اغتاظت لكونها لم تستطع أن تجد مأخذا على أحد • فجلست على الكرسي وهي تتمتم بشيء •

قال لها بطرس بعد أن أراها الاعلانين :

ــ المعلومات التي تنقل اليك خاطئة • كل شيء هادىء في المدينة ، وليس هناك أي خطر • لقد قرأت قبل هنيهة هذين الاعلانين •

والكونت يكتب ان العدو لن يبلغ موسكو ، وهو كفيل لذلك بحياته •

قالت الاميرة بغضب :

ــ آه من « كونتك » ! انه منافق ، أثيم « دفع بنفسه الشعب الى التمرد • ألم يقل في اعلاناته السخيفة : انه ينبغي جر الناس ــ مهما يكن شأنهم ــ من شعرهم الى المخفر • ( يا له من غباء ! ) ومن يقبض



@ketab_n @4_readers

على واحد فالشرف والمجد له • قالت لي « فارفارا ايفانوفنا » أنها كادت تُقتل لانها تكلمت بالفرنسية ••

قال بطرس وهو يعاود « التبصير » مرة اخرى :

ــ ليس ذلك بذي بال ••• وأنت تتأثرين بكل شيء أكثرممايبنغي •

ومع أن « التبصيرة » نجحت ، الا ان بطرس لم يسافر الى الجيش ومكث في موسكو التي هجرها أهلها ، منتظرا بذلك المزيج من القلق والتردد والخشية والفرح ذلك الشيء الرهيب •

في مساء اليوم التالي ، سافرت الاميرة ، وزاره وكيله العام الذي أنبأه بأنه اذا لم يبع احد املاكه فمن المتعذر الحصول على المال اللازم لتجهيز النوج • وأظهر له ، على وجه العموم ، أن هذه النزوات ستفضي الى دماره • لم يكن بوسع بطرس اخفاء ابتسامته وهو يصغي اليه ، وقال له :

ــ حسنا ! بعْ • ما العمل ، اني لا استطيع الرجوع عن كلامي الآن •

كان بطرس كلما تدهورت الاوضاع العامة وساءت احواله الشخصية ازداد فرحا وبدا له ان الكارثة التي ينتظرها غدت وشيكة• لم يبق في المدينة الآن أحد من معارفه • ومن بين الاصدقاء الحميمين الذين بقوا آل روستوف ، لكن بطرس كفّ عن الذهاب اليهم •

في ذلك اليوم ، قصد بطرس ، على سبيل التسلية ، الى قرية « فوروتنزوفو » ليتفرّج على المنطاد الذي بناه « ليبيك »[1] ، لكي

(1) فورونتزوفو قرية في جوار موسكو . اما ليبيك فهو مخترع هولندي اقترح على الحكومة الروسية بناء منطاد هائل لابادة الجيش الفرنسي ، ولم يطر هذا المنطاد البتة .



@ketab_n @4_readers

يُبيد العدو ، وعلى المنطاد التجريبي الذي سيطلق في اليوم التالي . لم يكن المنطاد جاهزا بعد ، لكن بطرس أُخبر أنه كان يُركّب بناء على أمر الامبراطور . وقد كتب الامبراطور بصدده الى روستوبتشين ما يلي :

« حالما يصبح « ليبيك » جاهزا ، شكّلْ له فريقا لسلّة المنطاد من الرجال الثقات الاذكياء ، وأرسل رسولا الى « كوتوزوف » يُخطره بذلك . فقد أطلعته على الامر .

« أرجوك أن توصي « ليبيك » بأن يتنبه للمكان الذي سينزل فيه للمرة الاولى ، كي لا يخطىء ويقع بين أيدي العدو . ولا بد له أن ينظّم حركاته مع القائد العام . »

رأى بطرس عند عودته من « فورونتزوفو » من ساحة المستنقع جمهورا بالقرب من عمود التشهير . فتوقف ونزل من العربة . كان الناس يحتشدون حول طبّاخ فرنسي عوقب لاتهامه بالتجسس . كان العقاب قد انتهى ، وكان الجلاّد يفك من منصبة التعذيب رجلا ضخما أشقر السالفين ، ذا سترة خضراء وجوربين أزرقين ، يئن شاكيا . وكان الى جنبه متّهم آخر ناحل شاحب ، وكان وجهاهما يدلان على أنهما فرنسيان . شقّ « بطرس » طريقا له خلال الجمهور بوجه مذعور متألم كوجه الفرنسي الناحل . وسأل :

ـ ماهذا ؟ من هذان ؟ ماذا صنعا ؟ .

لكن انتباه الجمهور ـ من الموظفين والبرجوازيين الصغار ، والتجار ، والفلاحين والنساء في معاطفهن الطويلة أو المبطنة بالفرو ـ كان منصبّا بلهفة على المشهد حتى ان احدا لم يجبه . ونهض



@ketab_n @4_readers

الرجل الضخم ، وهزّ كتفيه ، وقطّب حاجبيه ، وكأنما أراد أن يدلل على جلده فعمد الى لبس سترته دون أن يلقي نظرة حواليه ؛ لكن شفتيه ما لبثتا أن ارتعشتا ، وانفجر باكيا ، ناقما على نفسه ، كمايبكي الرجال من ذوي المزاج الدموي • وراح الناس يتحدثون بصوت عال، وخُيِّل الى بطرس أنهم يفعلون ذلك ليخنقوا في نفوسهم الشعور بالشفقة •

ـ هذا طباخ أحد الامراء ••

قال موظف صغير متغضن ، بجنب بطرس ، عندما رأى الفرنسي يبكـي :

ـ اذن يجب ان تعلم ، يا سيد ، أن المرق الروسي شديد الحموضة بالنسبة الى فرنسي •• انه يُضرس أسنانك •

وألقى حواليه نظرة كمن يتوقع أن تفعل نكتته فعلها • وانفجر بعضهم ضاحكا ، واستمر الاخرون في النظر بذعر الى الجلاد الذيكان ينزع ثياب المتهم الثاني •

نفخ بطرس من أنفه بقوة ، وتشنج وجهه ، واستدار فجأة ، وعاد الى عربته ، مغمغما بينه وبين نفسه وهو يمشي ليستقل عربته • وأثناء الطريق ، ارتعش غير مرة واستعجب بصوت قوي حمل الحوذي على ان يسأله :

ـ ماذا تقول ؟

صرخ به بطرس حين رآه يدلف الى الساحة •

ـ الى أين تذهب ؟



@ketab_n @4_readers

ـ فأجابه الحوذي :

ـ لقد قلت لي أن أذهب الى منزل الحاكم •

صاح بطرس وهو يسبّه ، الامر الذي قلما وقع له :

ـ يا غبي ! يا حيوان ! قلت لك أن ترجع الى البيت ، يا أبله !

وقال بينه وبين نفسه :

ـ ينبغي أن أسافر في هذا اليوم بالذات •

بعد أن رأى بطرس الفرنسي يعاني التعذيب ، ورأى الجمهور الذي احتشد حوله ، قرر نهائيا أنه لن يستطيع البقاء اكثر من ذلك في موسكو ، وأنه سيلتحق في اليوم نفسه بالجيش ، وخيّل اليه انه قال ذلك للحوذي ، أو أنه كان يجب على الحوذي أن يعلم بذلك دون أن ينبهه اليه •

ما ان وصل بطرس الى بيته حتى دعا حوذيه « ايفستافيفتش » الذي كان يعلم كل شيء ، ويعرف جميع الناس في موسكو ، وتعرفه موسكو بأسرها ، وأنبأه بأنه سيرحل في الليل ليلتحق بالجيش في « موجايسك » ، وأنه يريد أن ترسل الى هناك خيله الصالحة للركوب• بيد أنه لم يكن بالمستطاع عمل ذلك كله في اليوم نفسه ، ولذلك اضطر بطرس ان يؤجل رحيله ، بناء على مشورة « ايفستافيفتش » ،ليتسنى تجهيز خيول البدل •

في الرابع والعشرين صفا الجو ، وغادر بطرس موسكو بعد الغداء• وفي الليل بينما كان يبدل الخيول في « بيركوشكوفو » ، علم أنمعركة كبيرة دارت هذا المساء • وانبىء أن القصف المدفعي هزّ الارض حتى



@ketab_n @4_readers

في « بيركوشكوفو » . وسأل من المنتصر ، فلم يستطع أحد أن يجيبه ( كانت المعركة معركة « شيفاردينو »[1] ، في الرابع والعشرين ) . وعند الفجر ، كان بطرس يقترب من « موجايسك » .

كان الجند يحتلون جميع البيوت في « موجايسك » . ولم يجد مكانا في النزل الذي كان ينتظره فيه سائسه وحوذيه ، ذلك أن الضباط استولوا على جميع الغرف .

في « موجايسك » وما وراءها لم يكن يرى سوى الجند الذين يعسكرون أو يمرون . كان يرى حيثما تطلّع القوازق والمشاة والخيالة وعربات النقل والصناديق والمدافع . وكان يستعجل لكي يتقدم الى الامام ، وكلما ابتعد عن موسكو ، وكلما اوغل في هذا البحر من الجند أحسّ بتزايد قلقه واضطرابه وشعوره بذلك الحبور الذي لم يحسّه من قبل . كان شعورا يذكر بما أحسه في قصر « سلوبودسكي » أثناء اقامة الامبراطور ، شعورا بضرورة الاقدام على أمر ما والقيام بتضحية ما . كان يعلم الآن برضى أن كل ما يصنع سعادة الانسان : مسرات الحياة والثروة وحتى الحياة ذاتها ، كل ذلك ليس شيئا ، كل ذلك يسهل أن نرمي به عرض الفضاء تجاه شيء ما .. هذا الشيء لم يستطع أن يحدده ولم يكن يحاول ، على كل حال ، أن يتبين لمن ولماذا يجد فرحا خاصا في أن يضحي بكل شيء . لم يكن المهم عنده أن يعلم لماذا يريد أن يقوم بهذه التضحية بل كان المهم هو التضحية ذاتها التي توفر له شعورا جديدا من الحبور الشديد .

---

(١) شيفاردينو قرية جنوبي بورودينو اقيم فيها معقل استولى عليه الفرنسيون بالانقضاض قبل المعركة الحاسمة بليلة .



@ketab_n @4_readers

# الفصل التاسع عشر

في الرابع والعشرين كانت معركة معقل « شيفاردينو » . وفي الخامس والعشرين لم تطلق رصاصة من هذا الجانب او ذاك ، وفي السادس والعشرين دارت معركة « بورودينو » .

لم وكيف نشبت معركتا « شيفاردينو » و « بورودينو » وقبل بهما الطرفان ؟ لم نشبت معركة بورودينو ، على وجه الخصوص ؟ لم يكن لها من معنى لا بالنسبة الى الفرنسيين ولا بالنسبة الى الروس . كانت نتيجتها المباشرة التي سبقت غيرها من النتائج والتي كان لابد لها من أن تكون ، التعجيل بضياع موسكو ، بالنسبة الى الروس ، ( وهو أكثر ماكنا نخشاه ) ، والتعجيل بضياع الجيش الفرنسي بالنسبة الى الفرنسيين ( وهو أكثر ما كان يخشاه الفرنسيون أيضا ) . كانت هذه النتيجة واضحة أشد الوضوح آنذاك . ومع ذلك خاض نابليون المعركة وقبل « كوتوزوف » بها .

ولو أن قائدي الجيشين انقادا لصوت العقل ، لكان على نابليون أن يرى بجلاء أنه حين يتقدم خمسمائة ميل ويخوض معركة يُعرّض فيها ربع جيشه للدمار فانما يسير الى كارثة محققة ، وكان على كوتوزوف أن يرى بجلاء أيضا أنه حين يقبل بالمعركة ويتعرض لفقد ربع جيشه فانما يفقد موسكو من دون شك . كانت القضية ، بالنسبة الى



@ketab_n @4_readers

كوتوزوف ، بديهية رياضية كما انه من البديهي في لعبة الداما أن أخسر وأن يكون علي ، من ثم أن أكفّ عن اللعب اذا كنت أقل من خصمي ببيدق واذا تداولنا « الاكل » •

اذا كان لدى الخصم أربعة عشر ولدي اربعة عشر فأنا أضعف منه بثمن ، ولكن عندما أفقد ثلاثة عشر ويفقد مثلها فسيكون أقوى مني بثلاث مرات •

كانت النسبة بين قواتنا وقوات الفرنسيين قبل معركة«بورودينو» كنسبة خمسة الى ستة ، أما بعد المعركة فغدت كنسبة واحد الى اثنين ، اي مائة الف ضد مائة وعشرين قبل المعركة ، وخمسين ضد مائة بعد المعركة • ومع ذلك فان « كوتوزوف » ذلك الذكي المحنّك ، قد قبل بالمعركة ، ونابليون ذلك القائد العبقري ، كما يُدعى ، خاض معركة أفقدته ربع جيشه ومدت خطوط قتاله • فاذا قيل : لقد كان يعتقد أنه باحتلاله لموسكو ، سيضع حدا للحرب ، كما جرى بعد استيلائه على «فيينا» ، فان ادلة كثيرة تُبرهن على العكس • ويروي مؤرخو نابليون أنه منذ ، « سمولنسك » ، كان يعلم خطر امتداد خطوطه ويعلم أن احتلال موسكو لايضع حدا للقتال ، لانه كان يرى منذ « سمولنسك» في أي وضع كانت تُترك له المدن ، ولانه لم يكن يتلقى جوابا عن محاولاته المتكررة للشروع في المحادثات •

وحين يخوض نابليون معركة«بورودينو»ويقبل بها هو و«كوتوزوف» فانهما لم يكونا حرّين فيما عملا ، ولم يهتديا بهدي العقل • على ان المؤرخين يستدلون ، بعد فوات الحدث ، بأدلة معقدة بارعة ، مناسبة لذلك الحدث ، على تنبؤ القائدين وعبقرية هذين القائدين اللذين كانا ، بين الادوات اللاواعية للحوادث العالمية ، أشدها عبودية وأقلها حرية •



@ketab_n @4_readers

لقد ترك لنا الاقدمون • نماذج من القصائد البطولية التي يكون فيها الابطال مدار اهتمام التاريخ ، وليس بوسعنا حتى الآن أن نألف هذه الفكرة وهي أنه لا معنى لهذا المفهوم في عصرنا ، عصر الرجال •

وحول المسألة الثانية ، وهي كيف دارت معركة « بورودينو » ومعركة « شيفاردينو » التي سبقتها ، رأي دقيق ومعروف لكنه خاطىء تماما • جميع المؤرخين يصفون الاشياء على النحو التالي :

**« ان الجيش الروسي فتش ، اثناء انسحابه من « سمولنسك » ، عن امنع موقع من أجل معركة عامة ، ووجد ذلك الموقع في « بورودينو »• « لقد حصّن الروس سلفا هذا الموقع ، الى يسار الطريق ( من موسكو الى سمولنسك ) وعلى زاوية قائمة تقريبا مع هذا الطريق ، من « بورودينو » الى « اوتيتزا » ، في المكان نفسه الذي وقعت فيه المعركة •**

**وفي مقدمة هذا الموقع أقاموا ، لمراقبة العدو ، مركزا اماميا محصنا على معقل « شيفاردينو » • وفي الرابع والعشرين هاجم نابليون هذا المركز الامامي واستولى عليه ، وفي السادس والعشرين هاجم الجيش الروسي بأسره الذي اتخذ موقعه على سهل « بورودينو » • » •**

هذا ما تقوله المؤلفات التاريخية ، وكله غير صحيح ، وسيقتنع ببطلانه من شاء أن يتعمق المسألة •

فالروس لم يفتّشوا عن امنع موقع ، بل انهم ، على العكس ،تركوا خلفهم أثناء تراجعهم ، عددا من المراكز أفضل من « بورودينو » • ولم يتوقفوا عند أي منها : لان « كوتوزوف » لم يشأ أن يقبل بوضع لم يختره بنفسه ، ولان ضرورة خوض معركة قومية لم تكن تفرض ذاتها فرضا قويا ، ولان « ميلورادوفيتش » لم يكن هنا مع المتطوعين



@ketab_n @4_readers

ولاسباب كثيرة اخرى • الصحيح أن المواقع الاخرى كانت أمنع ، وان موقع « بورودينو » ( حيث جرت المعركة ) لم يكن أضعف فحسب بل انه لم يكن أفضل من أية نقطة أخرى في الامبراطورية الروسية يشار اليها عرضا بدبوس على الخريطة •

ولم يقتصر الروس على انهم لم يحصّنوا موقع « بورودينو » ، الى اليسار وبزاوية قائمة على الطريق ( أي في المكان الذي دارت فيه المعركة ) بل انهم لم يخطر ببالهم قط قبل الخامس والعشرين من آب أن معركة يمكن ان تنشب في هذا الموضع • والدليل على ذلك اولا انه لم يكن في الخامس والعشرين من تحصينات في هذا الموضع ، بل أن التي شُرع بها في الخامس والعشرين لم تنته في السادس والعشرين ؛ وثانيا ، موقع معقل « شيفاردينو » ذاته : فهذا المعقل المتقدم على الموقع الذي دارت فيه المعركة ، لم يكن له من معنى • لمَ حصّن اكثر من أية نقطة أخرى ؟ ولم بذل الروس قصاراهم للدفاع عنه في الرابع والعشرين الى ساعة متأخرة من الليل وخسروا ستة آلاف رجل ؟ كانت دورية من القوزاق كافية لمراقبة العدو • والدليل الثالث هو أن الموقع الذي جرت عليه المعركة لم يكن مُعّدا لذلك وأن « باركلي دي تولي» و « باغراتيون » كانا مقتنعين بأن معقل « شيفاردينو » يُشكّل الجناح الايسر من الموقع ، وأن « كوتوزوف » يدعوه في تقريره الذي حرره تحت وطأة الانفعال المتوهج بعد المعركة ، جناح الموقع الايسر • وفيما بعد فقط ، وفي التقارير التي حررت على مهل جرى ( وذلك ، من غير شك ، لتبرير أخطاء القيادة التي كان ينبغي أن تكون معصومة من الخطأ ) اختلافُ هذا الزعم الخاطىء الغريب وهو أن معقل « شيفاردينو » كان موقعا أماميا ( في حين أنه لم يكن سوى نقطة



@ketab_n @4_readers

محصنة من الجناح الايسر ) وأننا قبلنا بمعركة « بورودينو » في موقع محصن اخترناه مسبقا ، في حين أنها جرت في موضع غير محصّن لم يكن في الحسبان البتة .

ليس من شك في أن الامور جرت على النحو التالي : اختير موقع على نهر « كولوتشا » الذي يقطع الطريق الرئيسية بزاوية حادة لا بزاوية قائمة ، بحيث كان الجناح الايسر في « شيفاردينو » والايمن قرب قرية « نوفوي » ، والاوسط في « بورودينو » عند ملتقى نهري « كولوتشا » و « فوينا » . ومزايا هذا الموقع الذي يغطيه نهركولوتشا بالنسبة الى جيش يهدف الى ايقاف العدو الزاحف على طول الطريق من « سمولنسك » الى « موسكو » ، تتضح لكل من يفحص ساحة المعركة في « بورودينو » ، متناسيا كيف جرت تلك المعركة .

لم ير نابليون ( كما يزعم المؤرخون ) وهو يمضي في الرابع والعشرين الى « فالويفو » الموقع الرسي من « اوتيتزا » الى بورودينو، ( لم يره لانه لم يكن موجودا ) ولم ير المركز الامامي للجيش العدو ، لكنه انما اصطدم بالجناح الايسر للموقع الروسي ، بمعقل شيفاردينو وعبرَ بقواته نهر « كولوتشا » ، أثناء ملاحقته المؤخرة ، خلافا لتوقعات الروس . فأعاد الروس الذين حيل بينهم وبين خوض المعركة العامة جناحهم الايسر من الموقع الذي كانوا ينوون احتلاله الى موقع لم يكن في الحسبان ولم يكن محصنا .. لقد نقل نابليون ، بعبوره الى الضفة اليسرى لنهر « كولوتشا » على يسار الطريق ، المعركة المقبلة من اليمين الى الشمال « من جهة الروس » ، نقلها الى الارض الواقعة بين « اوتيتزا » ، سيمينوفسكوي ، و « بورودينو » ( وليس



@ketab_n @4_readers

لهذا الموضع من حيث هو موقع مزية يمتاز بها عن اي موضع آخر في روسيا ) • هاهنا دارت معركة السادس والعشرين •

ولو أن نابليون لم يسر الى « كولوتشا » في مساء الرابع والعشرين ولم يأمر بالهجوم على المعقل في المساء نفسه ، ولو أنه لم يقذف بهجومه في صباح اليوم التالي ، لما شكّ أحد في أن معقل « شيفاردينو » كان الجناح الايسر لموقعنا ، ولجرت المعركة كما كنا نتوقع • ولعلنا كنا في هذه الحالة سندافع بضراوة أشد عن معقل « شيفاردينو » جناحنا الايسر ، ونهاجم نابليون في الوسط واليمين ، وكانت المعركة العامة ستدور في الرابع والعشرين ، في الموقع الذي حُصّن وأعد لها • ولكن بما أن الهجوم على جناحنا الايسر وقع في المساء ، عقب انثناء مؤخرتنا ، أي بعد معركة « غريد نيفايا » مباشرة ، وبما أن القادة الروس لم يشاؤوا أو لم يستطيعوا أن يشرعوا في المعركة العامة مساء الرابع والعشرين،فقد ضاعت المرحلة الرئيسية من معركة «بورودينو» منذ الرابع والعشرين ، الامر الذي أدى بالضرورة الى هزيمة السادس والعشرين•

بعد فقدان معقل « شيفاردينو » ، ألفينا أنفسنا ، في صباح الخامس والعشرين محرومين من أي موقع في الجناح الايسر ومكرهين على ثني جناحنا الايسر وتحصينه بسرعة في أي موضع كان •

ولكن اذا كانت القطعات الروسية ، في السادس والعشرين ، غير محمية الا بتحصينات ضعيفة ناقصة ، فقد تفاقم سوء هذا الوضع أيضا، لان الجنرالات لم يحسبوا حسابا للامر الواقع ( فقدان الجناح الايسر موقعه وانتقال مجموع ساحة القتال المقبلة من اليمين الى اليسار ) فاحتفظوا بوضعهم الممتد طولا من قرية « نوفوي » الى « اوتيتزا » ،



@ketab_n @4_readers

مما أجبرهم ، والمعركة على أشدها ، أن يدفعوا بقطعاتهم من اليمين الى الشمال • وهكذا لم يستطع الروس أثناء المعركة أن يواجهوا مجموع الجيش الفرنسي الموجه الى جناحنا الايسر الا بقوى أضعف منه مرتين[1] ( كانت عمليات « بونيا توبسكي » ضد « اوتيتزا » وعمليات « اوفاروف » ضد جناح الفرنسيين الايمن معارك مستقلة عن سير المعركة العام • )

وهكذا اذن ، جرت معركة « بورودينو » على نحو مخالف للصورة التي تصوّر بها ( لاخفاء أخطاء جنرالاتنا ، الامر الذي قاد الى التقليل من امجاد الجيش والشعب الروسيين ) • لم تقع معركة « بورودينو » في موقع مختار ومحصن ، وبقوى أضعف قليلا في الجانب الروسي فحسب ، بل انها دارت في أرض مكشوفة غير محصنة تقريبا ، على اثر فقدان معقل « شيفاردينو » وبقوى اضعف مرتين من قوى الفرنسيين، أي في ظروف لايتعذر عليها فقط القتال عشر ساعات تجعل فيها المعركة مترجّحة ، بل يتعذر عليها الصمود ثلاث ساعات متواليات ، دون أن تصاب بهزيمة كلية •

(1) تولستوي يبالغ . ذلك ان نابليون لم يدفع الى بورودينو الا بمائة وثلاثين الف رجل ( من جيشه المؤلف من ٦٠٠٠٠٠ رجل ) . وكانت القوات الروسية تزيد على مائة الف رجل ، كما ذكر المؤلف في بداية هذا الفصل .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل العشرون

في صباح الخامس والعشرين ، غادر بطرس موجاييسك • وعند منحدر الشارع الوعر المتلوي المفضي الى خارج المدينة ، والمار أمام الكنيسة الواقعة على يمينه ، والتي كانت تقام فيها الصلاة ، وكانت أجراسها تقرع ، ترك عربته وترجل • ومن ورائه سار فوج من الخيالة يتقدمه المنشدون • وفي مواجهته ، راحت قافلة من جرحى معركة الامس تصعد المرتفع • وكان الفلاحون الذين يقودون عرباتهم وهم يوسعون الخيل صراخا وسياطا ، يَجْرون أبدا من جانب الى جانب آخر من الطريق • وكانت العربات التي تُقل كل منها ثلاثة جرحى أو أربعة من الجنود المضطجعين أو الجالسين ، تثبُ على الحجارة المرمية هنا وهناك لرصف للطريق على طول المرتفع الوعر • وكـان الجرحى يتشبثون بالقوائم ويتهزهزون ويتصادمون في العربات، وهم مغطون بأسمال رثة ، شاحبو الوجوه ، مزمومو الشفاه ، مقطبو الحواجب • وكانوا جميعا يتطلعون باستغراب صبياني الى قبعة بطرس البيضاء ولباسه الاخضر •

صرخ حوذي" طرس غاضبا بالرتل لكي يتنحى جانبا • لكن فوج الخيالة الذي كان ينزل المنحدر وهو يغني ، زحمَ عربته وقطع عليه الطريق • فوقف بطرس ولزم حافة الطريق المحفور في الهضبة • وكان المنفحدر يمنع الشمس من أن تصل الى الطريق المنخفضة ، فظلت باردة رطبة • ومن فوق رأس بطرس كانت الصبيحة صبيحة مشرقة من شهر



@ketab_n @4_readers

آب وكان رنين الاجراس ينتشر ببهجة • وقفت احدى عربات الجرحى على حافة الطريق قريبا من بطرس • وهرع سائقها بخفه الكتاني ، وهو يلهث فدس حجرا تحت العجلة الخلفية التي ذهب عنها طوقها وأصلح عدة فرسه •

وكان يتبع العربة أحد الجرحى ، وهو جندي مسن ، يده مربوطة الى عنقه ، فتعلق بها بيده السليمة ، ونظر الى بطرس وقال :

ــ قل لي ، أيها المواطن هل يتركوننا هنا أم ينقلوننا الى موسكو ؟

كان بطرس مستغرقا في أفكاره الى الحد الذي لم يسمع معه السؤال•وكان ينظر تارة الى فوج الخيالة الذي بلغ سوية قافلة الجرحى، وتارة أخرى الى العربة بجنبه التي جلس فيها جنديان واضطجع جندي ثالث • وكن أحد الجالسين مصابا في خده ، على مايبدو ، فلف رأسه بخرق بالية ، وتورم أحد خديه حتى صار بحجم رأس الطفل ، واعوج فمه وأنفه • وكان ينظر الى الكنيسة ويرسم اشارة الصليب • اما الجندي الثاني ، وهو فتى ، غر ، أشقر ، ممتقع اللون ، وكأنما ليس في وجهه النحيف قطرة دم ، فكان ينظر الى بطرس وقد تجمدت على شفتيه ابتسامة رقيقة • وكان الثالث مستلقيا على بطنه ولاسبيل الى رؤية وجهه • ومر المنشدون من فوج الخيالة أمام العربة وهم يغنون أغنية من أغاني الرقص :

آه ! لقد أصيب ••• رأس القنفذ[1] •• بعيدا عن مسقط رأسه••

وكان رنين الاجراس ينتشر في الاعالي وكأنه رجع الصدى وان كان على وتر آخر من الفرح • وكانت أشعة الشمس الدافئة تنصب ، في نوع آخر من الفرح أيضا ، على السفح الآخر من الهضبة • أما في

(١) اشارة الى رؤوس الجند الحليقة خلافا لرؤوس الفلاحين الطويلة الشعور .



@ketab_n @4_readers

أدنى الهضبة ، حيث كان بطرس ، قرب عربة الجرحى والفرس اللاهثة، فكان الجو رطبا ، معتما وحزينا •

نظر الجندي ذو الخد المتورم الى المنشدين غاضبا وقال لائما :

ـ اوه ! يا لهؤلاء الفتية الماجنين !

قال الجندي الذي يقف خلف العربة مخاطبا بطرس ، وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

ـ اننا لانرى الجنود وحدهم ، اليوم ، بل والفلاحين أيضا ! حتى الفلاحين يسحبونهم• يريدون أن يحاربوا بالشعب كله ، ليست موسكو شيئا قليلا • المهم أن ننتهي من ذلك بالمرة •

وبالرغم من غموض كلمات الجندي فقد فهم بطرس كل ما أراد أن يقوله وأومأ برأسه ايماءة الموافقة •

عادت الطريق سالكة ، فصعد بطرس بعربته ، من أسفل المنحدر ، وتابع طريقه •

كان يُنقّل بصره على جانبي الطريق ، باحثا عن وجوه يعرفها ، فلا يجد سوى عسكريين لا يعرفهم ، عسكريين من مختلف الاسلحة ينظرون بنفس الاستغراب الى قبعته البيضاء ولباسه الاخضر •

وبعد نحو من اربعة فراسخ التقى أول شخص يعرفه فاستفهمه الامور بفرح • كان من رؤساء أطباء الجيش وبرفقته طبيب شاب • وكانت عربته تسير في اتجاه معاكس لعربة « بطرس » • فلما عرف بطرس أمر القوزاقي الذي كان حوذيا له أن يقف ، وسأل بطرس :

ـ كونت أ ماذاتعمل هنا ، يا صاحب السعادة ؟



@ketab_n @4_readers

ـ الحقيقة ، أني اشتهيت النظر •••

ـ نعم ، نعم ، سيكون هناك الكثير مما يستحق النظر •••

نزل بطرس وأوضح له أنه ينوي حضور المعركة •

فأشار عليه الطبيب أن يتوجه مباشرة الى صاحب الرفعة • وقال وهو يبادل زميله النظر :

ـ لماذا تلقي بنفسك ، أثناء المعركة ، في مكان لايعلمه الا الله ، دون أن يعرفك أحد : في حين أن صاحب الرفعة يعرفك وسيستقبلك بالترحاب • هذا ماينبغي أن تفعله •

كان الطبيب بادي التعب والاستعجال •

قال بطرس :

ـ أتظن ••• أردت أن أسألك أيضا عن الموقع بالذات ، أين هو ؟

فأجاب الطبيب :

ـ الموقع؟ ليس هذا من اختصاصي • اذا ما تجاوزت «تاتارينوفو» فسوف ترى ؛ الحَفْرُ يجري على قدم وساق هناك • أصعد الأكمة : من هناك ترى •

ـ حقا ! ••• لو أنك •••

لكن الطبيب قاطعه واتجه الى عربته وقال :

ـ سأدلك على الطريق ، لكني أقسم لك أنني أختنق غيظا ( وأشار الى حنجرته ) ، وهأنذا أجري مسرعا الى قائد الوحـدة • أتعلـم ، يا كونت ، كيف تجري الامور عندنا ؟ ••• سنخوض المعركة غدا :



@ketab_n @4_readers

من مائة الف رجل ، يجب أن نعد ، على الاقل ، عشرين الف جريح ؛ وليس لدينا نقالات ولا أسرة ولا ممرضون ولا أطباء . صحيح أن لدينا عشرة آلاف عربة ، لكننا بحاجة أيضا الى أشياء أخرى ؛ وعلينا أن نتدبر الامر كمايحلولنا .

أذهلت بطرس هذه الفكرة الغريبة وهي أن بين هؤلاء الآلاف من الرجال الاحياء ، الاصحاء ، الشباب والكهول الذين كانوا يتطلعون الى قبعته باستغراب مسل ، عشرين ألفا كتب عليهم أن يلقوا الجراحات والموت المحقق ( ولعلهم هؤلاء الذين رآهم بالذات ) .

«لعلهم سيموتون غداً ، فلمَ يفكرون في غير الموت؟» وفجأة ، تمثل ، بفعل تداع للافكار غريب ، منحدر « موجايسك » والعربات المحملة بالجرحى ، وأصوات الاجراس ، وأشعة الشمس المائلة ، وأغنية الخيالة .

وحدث نفسه وهو يتابع طريقه الى « تاتارينوفو » :

« هؤلاء الفرسان الدين يمضون الى نار المعركة يلتقون الجرحى ، فلا يفكرون لحظة فيما ينتظرهم ، لكنهم يمرون ويغمزونهم بأعينهم . ان بين هؤلاء الناس ، عشرين ألفا كتب عليهم الموت ، ومع ذلك فقبعتي تدهشهم ! غريب ! » .

بالقرب من منزل أحد النبلاء على الجانب الايسر من الطريق ، وقفت العربات وعربات النقل وجمهور من الخدم والحراس . في هذا المنزل يقيم صاحب الرفعة . ولكنه كان غائبا عندما وصل بطرس . فقد كان هو ومعظم أفراد هيئة الاركان . يحضرون الصلاة .

وتابع بطرس طريقه نحو « غوركي » .



@ketab_n @4_readers

وبعد أن تسلّقت عربته سفحا ودلفت الى شارع القرية الصغير ، رأى لاول مرة ، فلاحين متطوعين بستراتهم البيضاء ، مع صليب على قبعاتهم ، يشتغلون الى يمين الطريق ، على أكمـة ضخمـة اجتاحتها الاعشاب ، وهم يضحكون ويتكلمون عاليا ، وقد امتلؤوا نشاطا ، وتصببوا عرقا .

كان بعضهم يحفر الخنادق بالرفوش ، وبعضهم ينقـل التراب في نقالات عليها ألواح ، ووقف آخرون من دون عمل يعملونه .

وفوق الاكمة ، وقف ضابطان يلقيان عليهم الاوامر . فلما رأى بطرس هؤلاء الفلاحين الذين بدا عليهم أن وضعهم الجديد يسليهم ، تذكر جرحى « موجايسك » وأدرك ما يعنيه الجندي الذي قال : « يريدون أن يحاربوا بالناس جميعـا » . ان منظر هؤلاء الفلاحين الملتحين، وهم يشتغلون في ساحة القتال ، بأحذيتهم الغريبة التي أربكتهم، وبقذالاتهم المتصببة عرقا ، وبياقاتهم المفتوحة أحيانا ، التي تكشف عن تراقي لوحتها الشمس ، دلّه دلالة أقوى من كل ما رأى وما سمع حتى الآن ، على جلال الساعة وخطورتها .



@ketab_n @4_readers

# الفصل الحادي والعشرون

نزل بطرس من العربة ، ومر أمام المتطوعين العاكفين على العمل ، وصعد الأكمة التي يستطيع المرء أن يشاهد منها ساحة المعركة ، على ما قال الطبيب •

كانت الساعة هي الحادية عشرة صباحا • وكانت الشمس ، من وراء ظهره ، والى يساره قليلا ، تضيء ، عبر الهواء النقي والرقيق ، المشهد العريض الشامل الذي انكشف أمامه على شكل مدرج •

كانت طريق « سمولنسك » الكبرى تقطع هذا المدرج من يساره ، وتتلوى صاعدة عبر قرية ٍ كنيستها بيضاء ، على خمسمائة خطوة أمام الأكمة ، وفي مستوى أدنى منها • ( كانت القرية « بورودينو » ) • كانت هـذه الطريق تمر تحت القرية ، فوق جسر ، وترتفع ، بنزلات وطلعات ، شيئا فشيئا نحو « فالويفو » التي كانت تشاهد من نحو ستة فراسخ ( وفيها كان يعسكر نابليون ) • وفيما وراء « فالويفو » ، تختفي الطريق في غابة تشكل بقعة صفراء في الافق • وفي هذه الغابة من السندر والصنوبر ، على يمين اتجاه الطريق ، كان صليب دير « كولوتسكي » وقبة الجرس فيه يلتمعان في الشمس •

وفي ذلك المكان القصي الازرق ، على يمين الغابة والطريق وعلى يسارهما ، كانت يظهر في مواضع شتى دخان نيران المعسكرات وكتل



@ketab_n @4_readers

غير متميزة من الجند ، جندنا وجند العدو ، والى اليمين ، على طول «الكولوتشا» والمسكوفا ، كانت الارض وعرة تقطّعها الوهاد • وبين الوهاد كانت تبدو ، على البعد ، قريتا « بيزيبوفو » و « زاكاينو » • والى اليسار ، كانت الارض اكثر استواء ، وكانت تشاهد فيها حقول القمح وأنقاض مدخّنة لقرية محروقة هي « سيمينوفسكوي » •

كل ما رآه بطرس على اليمين وعلى الشمال كان مبهما أشد ابهام لا يتوافق تماما مع الصورة التي تصورها من قبل • فحيثما تطلع رأى أراضي محروثة ومراعي وغابات وجندا ونيران المعسكرات وقرى وهضابا وسواقي،ولم ير ساحة القتال التي كان يُقدّر أن يراها،وبالرغم من الجهود التي بذلها فانه لم يتوصل الى اكتشاف الموقع ، في هذا المنظر الحي ، بل انه لم يتوصل الى تمييز قطعاتتنا من قطعات العدو •

قال في نفسه « يجب أن أسأل مختصا » ، واقترب من ضابط كان ينظر باستغراب الى شخصه الضخم الذي يعوزه الطابع العسكري ، وقال له :

ـ أتسمح بأن أسألك عن اسم تلك القرية التي هي قبالتنا ؟

فأجابه الضابط وهو يلتفت الى زميله :

ـ بورْدينو ، ما اسمها ؟

فصحح له زميله :

ـ بورودينو •

ودنا الضابط من بطرس وكأنما سرّه أن يجد مناسبة الثرثرة •

سأله بطرس :

ـ أهي قطعاتنا ، تلك التي نراها هناك ؟



@ketab_n @4_readers

قال الضابط :

ــ نعم ، وأبعد من ذلك قليلا ، هناك ، الفرنسيون . ها هم أولاء ، انني أراهم .

فسأله بطرس :

ــ أيــن ؟

ــ يمكن رؤيتهم بالعين المجردة . انظر !

وأشار الضابط الى الدخان الذي كان يتصاعد الى اليسار ، وراء النهر ، واكتسى وجهه ذلك الطابع القاسي الرصين الذي رآه بطرس على وجوه جميع الذين لقيهم .

ــ آه ! هؤلاء هم الفرنسيون ! وهناك ؟ ...

وأشار بطرس الى اليسار ، الى أكمة كانت القطعات قريبة منها .

ــ هذه قطعاتنا .

ــ آه ! قطعاتنا ! هناك ؟ ...

وأشار الى أكمة أخرى ، أبعد ، تتوجها شجرة ضخمة قرب قرية في منخفض من الارض ، وبجنبها كان يتصاعد دخان نيران المعسكرات ويبدو شيء أسود .

قال الضابط :

ــ و « هو » أيضا هناك . ( كان ذاك معقل « شيفاردينو » ) بالامس كان لنا واليوم أصبح « له » .

ــ لكن أين موقعنا ؟

قال الضابط وعلى وجهه ابتسامة الرضى :



@ketab_n @4_readers

ـ الموقع ؟ استطيع أن أشرح لك ذلك بوضوح ، لانني أنا بنيت جميع تحصيناتنا . انظر ، أنت ترى أن مركزنا يقع في « بورودينو » ، هناك . ( وأشار الى القرية ذات الكنيسة البيضاء ، أمامهم مباشرة. ) وهناك ، حيث تنخفض في المنخفض الحشيش المحصود ، هناك الجسر .

هذا هو مركزنا . أما جناحنا الايمن فهو هناك ( وأشار الى نقطة في أقصى اليمين ، بعيدة في الوادي ) ، من هناك يسيل الموسكوفا وقد بنينا عليه ثلاثة معاقل سنيعة جـدا . وأما جناحنا الايسر ... ( وهنا توقف الضابط ) . الواقع أن من الصعب شرح ذلك... بالامس كان جناحنا الايسر هناك ، في ( شيفاردينو » حيث ترى شجرة السنديان؛ والآن سحبنا جناحنا الايسر الى الوراء ، فأصبح هناك ، حيث ترى القرية والدخان ، وهي قرية « سيمينوفسكوي » ، ثم هناك ( وأشار الى أكمة « رايفسكي »[1] ) لكن من المشكوك فيه أن تدور المعركة هنا ،ولئن مرّ قطعاته من هنا ، انها لخدعة . ولاشك « أنه » سيلتف حولنا من على يمين الموسكوفا . لكن ، مهما يكن من أمر فسوف يغيب الكثيرون عن التفقد غدا !

اقترب منه ضابط صف مسن أثناء حديثه وانتظره بصمت حتى ينهي حديثه ؛ لكنه لما بلغ هذا الموضع من كلامه قاطعه وقد استاء ، على ما يظهر ، من ملاحظته الاخيرة ، وقال بقسوة :

ـ لابد من احضار القفف .

وبدا الاضطراب على الضابط ، وكأنه أدرك أن غياب الكثيرين

(١) أكمة رايفسكي : أكمة محصنة في وسط الموقع الروسي ، دافع عنها الفيلق السابع الذي يقوده الجنرال رايفسكي .



@ketab_n @4_readers

عن تفقد الغد قد يمر بالبال ، ولكن لا يليق بنا الكلام عليه . فقال مستعجلا :

ــ صحيح ، أرسلْ السرية الثالثة مرة أخرى .

وسأل بطرس :

ــ وأنت ، من أنت ؟ لعلك طبيب ؟

فأجاب بطرس :

ــ كلا ، وانما أنا هنا هكذا ...

وانحدر بطرس مارا ثانية أمام المتطوعين .

قال الضابط وهو يسد أنفه ويحث خطاه ليسبق رجاله الذين يعملون :

ــ آه ! الملاعين !

وهتفت فجأة أصوات شتى :

ــ ها هم أولاء ! ... انهم يحملونها ، لقد وصلوا ... ها هي ذي ! .. سيصلون ..

وهُرع الى الطريق الضابط والجنود المتطوعون .

كان الموكب الديني من « بورودينو » يصعد الهضبة . ويتقدمه المشاة ، وهم يسيرون بنظام ، على الطريق المغبرّة ، حاسري الرؤوس ، خافضي السلاح . وخلف المشاة علت التراتيل الكنسية .

ركض الجنود والمتطوعون ، حاسري الرؤوس ، وتجاوزوا بطرس لملاقاة القادمين .

ــ انهم يحملون أمنا ! حاميتنا ! ... عذراء ايبيريا ! ...



@ketab_n @4_readers

فصحح أحدهم :

ـ عذراء « سمولنسك » .

وانطلق المتطوعون الذين كانوا في القرية والذين كانوا يعملون في مرابض البطارية ، وقد ألقوا بمعاولهم ، الى ملاقاة الموكب الديني. وفي أثر كتيبة المشاة التي كانت تسير على الطريق المغبرة ، تقدم الكهنة بحللهم الكهنوتية ، وبينهم شيخ قصير يضع على رأسه كمة ، ومن حوله الشمامسة والمرتلون . ومن خلفهم ، حمل الجنود والضباط أيقونة كبيرة مسودة الوجه وموشاة بزينتها . كانت هذه هي الايقونة التي جيء بها من « سمولنسك » والتي ظلت ، منذ ذلك الحين ، تتبع الجيش في تحركاته[1]. وخلفها ، وأمامها وحواليها ، راح جمهور من العسكريين الحاسري الرؤوس يسير أو يركض أو ينحني خاشعا .

توقفت الايقونة في قمة الهضبة ، وتناوب على حملها الحاملون في قطع من النسيج الكتاني ، وأشعل خدم القداس مباخرهم ، وبدأت الصلاة . كانت أشعة الشمس الحارة تسقط عمودية ، وراحت نسمة خفيفة تتلاعب بشعور الرؤوس الحاسرة وبالاشرطة التي تزين الايقونة، وتصاعدت التراتيل في الفضاء برفق . وأحاط بالايقونة جمهور من الضباط والجنود والمتطوعين حاسري الرؤوس . وخلف الكاهن والشماس ، وقف الضباط الكبار في مكان ترك خاليا . وخلف الكاهن بالضبط وقف جنرال أصلع ، في عنقه وسام القديس جاورجيوس ، كان ينتظر بصبر نهاية القداس ، دون أن يرسم اشارة الصليب ( كان ألمانيا من غير شك ) ، ولعله رأى من الضروري حضور القداس لانه

(1) هذه الايقونة هي ايقونة سمولنسك التي كانت تصحب الجيش الروسي في تراجعه .



@ketab_n @4_readers

سيذكي وطنية الشعب الروسي • ووقف جنرال آخر وقفة عسكرية وراح يرسم اشارة الصليب بحركة آلية سريعة وهو يلقي النظر من حوله • وفي هذا الحشد من الشخصيات ، اكتشف ، « بطرس » الذي اختلط بجمهور الفلاحين ، كثيرا من معارفه ؛ لكنه لم يكن ينظر اليهم : كان انتباهه منصبا على ما في وجوه جمهور الجنود والمتطوعين من جدّ وصرامة وهم يتطلعون الى الايقونة بلهفة واحدة • وما ان رتّل المرتلون المتعبون ( كان هذا هو فرضهم العشرين ) بكسل والية ترتيلهم : « خلصي ، يا أم الله ، خدامك ، من البلاء » ، واستأنف الكاهن والشماس دعاءهما : « لاننا نلجأ جميعا الى شفاعتك كما نلجأ الى جدار لا يتزعزع » ، حتى عكست جميع الوجوه مرة أخرى نفس الشعور بجلال الساعة ، وهو الشعور الذي لاحظه عند منحدر « موجايسك » ، ولاحظه ، خطفا ، على كثير من الوجوه التي شاهدها ، في الصباح • كانت الرؤوس تنحني فيلعب النسيم بشعرها وتسمع زفراتها كما تسمع ضربات الاصابع على الصدور وهي ترسم اشارة الصليب •

وفجأة تراجع الجمهور الذي يحيط بالايقونة ودفع ببطرس دفعا قويا • وتبين من العجلة التي اصطف بها الناس في طريق القادم أنه شخصية عظيمة الشأن تدنو من الايقونة •

كان القادم « كوتوزوف » ، وكان عائدا من تفقده للموقع • جاء ليحضر القداس ، وهو في طريق عودته الى « تاتارينوفو » • لقد عرفه بطرس ، على الفور ، من شخصه المتميز •

تقدم « كوتوزوف » ضخم الجثة ، في سترة طويلة ، محدودب



@ketab_n @4_readers

الظفر ، أشيب الشعر ، حاسر الرأس ، بينه البيضاء الميتة ، في وجهه المترهل ، تقدم بمشيته الغائصة ، المتهادية ، ووقف خلف الكاهن ، ورسم اشارة الصليب بحركة ثابتة ، فلامس الارض بيده وحنى رأسه الابيض وهو يطلق زفرة عميقة • وخلفه جاء « بينيجسن » وحاشيته • وبالرغم من حضور القائد العام الذي استأثر بانتباه كبار الضباط ، الا أن الجنود والمتطوعين ظلوا يصلون دون أن ينظروا اليه •

فلما انتهى القداس ، اقترب « كوتوزوف » من الايقونة ، وجثا بمشقة ، وانحنى حتى لامس الارض ، وظل كذلك زمنا دون أن يستطيع النهوض بسبب ضعفه وثقله • كان رأسه الابيض يرتجف من الجهد • وأخيرا أفلح في النهوض ، وقرب شفتيه من الايقونة ، على نحو ساذج ، طفولي ، وقبلها ، ثم انحنى مرة أخرى ولمس الارض بيده • وحذا الجنرالات حذوه ، ثم الضباط ، ثم الجنود والمتطوعون وهم يتزاحمون ويلهثون ويتدافعون ، وقد علا التأثر وجوههم •



@ketab_n @4_readers

# الفصل الثاني والعشرون

كان بطرس ينظر حوله وأمواج الجمهور تتقاذفه بينها •

وهتف به صوت :

ــ كونت ، « بطرس كيريلوفتش » ، أأنت هنا ؟

والتفت بطرس فاذا « بوريس دروبتسكوي » يقبل عليه باسما ، وهو ينفض الغبار عن ركبتيه ( اللتين لعله وسخها وهو يجثو أمام الايقونة ) • كان يرتدي ثيابا أنيقة عليها مسحة حربية ، لائقة بميدان المعركة • وكان يلبس سترة طويلة ويتقلد سوطا ، مثل « كوتوزوف » •

في هذه الاثناء ، كان « كوتوزوف » قد عاد الى القرية ، وجلس في ظل أقرب بيت ، على مقعد حمله أحد القوزاق وهو يركض ، وبادر آخر فغطاه بسجادة • وأحاطت بالقائد العام حاشية لامعة كثيرة العدد •

استأنفت الايقونة مسيرتها يصحبها الجمهور • ووقف بطرس على نحو ثلاثين خطوة من « كوتوزوف » يتحدث مع « بوريس » •

وأنبأه برغبته في أن يشهد المعركة ويزور الموقع •

قال بوريس :

ــ دونك ما ينبغي أن تفعله : سأرحب بك وسأقوم بواجبات الضيافة في المعسكر • أفضل مكان تشاهد منه كل شيء هو أن تكون



@ketab_n @4_readers

حيث يكون الكونت « بينيجسن » • أنا ملحق به • وسأكلمه في ذلك • وإذا شئت أن تجوب الموقع فتعال معنا : لاننا ماضون الآن الى الجناح الايسر • وعند عودتنا ، أسعدني بقبول ضيافتي لهذه الليلة • سنقضي السهرة معا • أنت تعرف « ديمتري سيرجيفتش » ، أليس كذلك ؟ انظر، ها هو ذا مسكنه •

وأشار الى البيت الثالث في غوركي •

قال بطرس :

ـ كنت أود رؤية الجناح الايمن ، يبدو أنه منيع جدا • كنت أود أيضا الطواف بالموقع كله بدءا من الموسكوفا •

ـ الواقع أنك تستطيع القيام بذلك فيما بعد ، أما الشيء الاساسي فهو الجناح الايسر •••

ـ نعم ، نعم • وأين فوج الامير « بولكونسكي » • ألا تستطيع أن تدلني عليه ؟

ـ فوج « آندره نيكولايفيتش » ؟ سنمر أمامه وسآخذك اليه •

وسأله بطرس :

ـ والجناح الايسر ؟

قال « بوريس » وهو يخفض صوته كمن يبوح بسر :

ـ الحق ان الجناح الايسر ـ **وهذا بيننا** ـ في وضع لا تحمد عقباه .

وليس هذا ما أراده الكونت « بينيجسن » • وانما ارتأى تحصين تلك الاكمة هناك ، على نحو آخر ••• لكن ( وهز كتفيه ) صاحب الرفعة لم يوافق ، أو أنهم عبؤوه وأثاروه • ذلك أن •••



@ketab_n @4_readers

ولم يتم « بوريس » كلامه لان « كايساروف »[1] وهو أحد مساعدي « كوتوزوف » العسكريين اقترب من بطرس في تلك اللحظة .

واستأنف بوريس مخاطبا « كايساروف » وعلى وجهه ابتسامة طليقة :

ـ آه ! « بابيسي سيرغيتش » ، حاولت أن أشرح الموقف للكونت. انه لمن المدهش كيف أن صاحب الرفعة استطاع أن يتنبأ بنوايا الفرنسيين .

وسأله « كايساروف » :

ـ أتتحدث عن الجناح الايسر ؟

ـ نعم ، نعم ، بالضبط . ان جناحنا الايسر قوي جدا ، جدا .

مع أن« كوتوزوف » طرد من الاركان العامة كل الذين لا حاجة اليهم ، فان « بوريس » استطاع أن يحتفظ بمركزه في مقر القيادة العامة ، والتحق بالكونت « بينيجسن » . وكان هذا ينظر الى الامير الشاب « دروبتسكوي » ، كما نظر اليه جميع الذين ألحق بهم ، على أنه رجل لا يقدر بثمن .

كانت القيادة العليا منقسمة الى فريقين متميزين كل التميز : فريق « كوتوزوف » وفريق « بينيجسن » رئيس الاركان . كان « بوريس » من الفريق الثاني . وكان أقدر الناس على أن يبدي لكوتوزوف ضربا من الاحترام المداهن وأن يلمح مع ذلك الى أن الشيخ ليس في مستوى

---

(۱) بابيسي كايساروف : ( ۱۷۸۳ ـ ۱۸٤٤ ) جنرال ، مساعد كوتوزوف العسكري وقائد الخيالة الروسية بين ۱۸۱۳ ـ ۱۸۱٤ .



@ketab_n @4_readers

القيادة ، وأن « بينيجسن » هو الذي يدير كل شيء • لقد أزفت الآن ساعة المعركة الحاسمة ، الساعة التي ستؤدي الى أحد شيئين : فاما أن تقضي على « كوتوزوف » وتعاد السلطة الى « بينيجسن » ، واما أن ينتصر « كوتوزوف » فينسب الفضل كله الى « بينيجسن » • على كل حال ، ان نهار غد سيفسح المجال واسعا لتوزيع المكافآت وسيقدم رجالا جددا • وذلك هو الذي أبقى « بوريس » طوال النهار ، في حالة من الاضطراب الشديد •

وبعد « كايساروف » ، اقترب من بطرس أشخاص آخرون يعرفهم ، حتى انه لقي مشقة في الرد على جميع الأسئلة التي انهمرت من كل صوب عن موسكو ، وفي سماع القصص التي أخذوا يروونها • وكانت الوجوه جميعا تنطق بالانتعاش والقلق • وخيل الى « بطرس » أن مبعث هذه الحمية ، لدى البعض ، انما هو مسائل ذات منفعة شخصية ، على أن هناك ذكرى ظلت ماثلة في ذهنه ، ذكرى حمية أخرى قرأها على وجوه أخرى ، وكانت تعبر عن مسألة أخرى ، عامة لا شخصية ، مسألة الحياة والموت • لا حظ « كوتوزوف » شخص بطرس والجماعة التي تحيط به ، فقال :

ـ قل له أن يأتي الي •

نقل المساعد العسكري رغبة صاحب الرفعة فاتجه بطرس الى المقعد• لكن جنديا من المتطوعين سبقه • كان الجندي « دولوخوف » •

سأل بطرس :

ـ كيف جاء هذا الى هنا ؟



@ketab_n @4_readers

فرد عليه أحدهم :

ـ هذا شاطر ، يستطيع أن يدس أنفه حيث شاء ! أتعلم أنه جرد من رتبته مرة أخرى . وهو الآن يريد أن يرد الاعتبار الى نفسه في نظر الناس . لقد تقدم بمشاريع وانسل في الليل الى الخطوط العدوة... لكنه فتى باسل !

حسر بطرس عن رأسه وانحنى باحترام أمام « كوتوزوف » . وكان « دولوخوف » يقول :

ـ قدرت أني ان خاطبت سموكم ، فكل ما أتعرض له هو أن تطردوني أو أن تقولوا لي انكم تعرفون ذلك من قبل ...

ـ حسنا ، حسنا ...

ـ أما ان كنت محقا فلعلي أؤدي خدمة للوطن الذي أرجو أن أموت من أجله .

ـ حسنا ... حسنا ...

ـ واذا كنتم سموكم ، بحاجة الى رجل لا يتوانى عن بذل نفسه ، فأرجو أن تفكروا في ... فلربما كنت نافعا لسموكم .

فكرر « كوتوزوف » وهو يحط على بطرس عينيه الضاحكتين :

ـ حسنا ... حسنا ...

في هذه الاثناء انسل « بوريس » ، ببراعة رجل الحاشية ، الى جنب بطرس فغدا أقرب منه الى القائد الاكبر ، وقال له بصوت هامس ، وبلهجة طبيعية ، وكأنه يتابع حديثا :

ـ لقد ارتدى المتطوعون قمصانا بيضاء نظيفة استعدادا للموت . ما أعظمها بطولة ، أيها الكونت .



@ketab_n @4_readers

وإنما قال ذلك لكي يسمعه صاحب الرفعة • كان يعلم أن هذه الكلمات ستسترعي انتباه كوتوزوف • وبالفعل فان صاحب الرفعة التفت اليه وسأله :

ـ ماذا قلت عن المتطوعين ؟

ـ قلت : انهم لبسوا قمصانهم البيضاء ، استعدادا ليوم غد ، للموت •

فقال « كوتوزوف » :

ـ آه !••• يا لهم من قوم رائعين ، لا مثيل لهم !

ثم هز رأسه وأغمض عينيه وردد وهو يتنهد :

ـ يا لهم من قوم لا مثيل لهم •

وقال لبطرس •

ـ أتريد أن تتنشق رائحة البارود ؟ انها لرائحة ذكية • لي الشرف أن أكون أحد المعجبين بالسيدة زوجتك • كيف صحتها ؟ معسكري بين يديك • ونظر « كوتوزوف » حوله شاردا ، كما يقع غالبا للشيوخ ، وكأنه نسي ما أراد أن يقوله أو يفعله •

ثم تذكر ، من غير شك ، ما كان يبحث عنه فاستدعى باشارة منه « آندره سيرغيتش كايساروف »[1] شقيق مساعده العسكري :

ـ أتعرف أبيات « مارين »[2] تلك التي نظمها في « غيراكوف »[3]:

---

(١) اندره كايساروف : ( ١٧٨٢ ـ ١٨١٣ ) شقيق بايسي كايساروف الذي مر ذكره آنفا . اديب درس في المانيا وفي انكلترا . عين استاذا في جامعة ديربت سنة ١٨١١ ورئيسا لمطبعة الجيش سنة ١٨١٢ .

(٢) سيرج مارين : ( ١٧٧٥ ـ ١٨١٣ ) مساعد الاسكندر الاول العسكري ، شاعر هجاء كان يسخر من النزعة العسكرية والوطنية المفرطة .

(٣) غابر بيل غيراكوف ( ١٧٧٥ ـ ١٨٣٣ ) من اصل يوناني ، مدرس التاريخ في « هيئة الطلاب العسكريين » ومؤلف كراريس متطرفة الوطنية من مثل « الابطال الروس في اربعة قرون ( ١٨٠١ ) ، وعظمة النفس لدى بعض الروس (١٨٠٢ ) .



@ketab_n @4_readers

« ستصير أستاذا في هيئة الطلاب العسكريين » ... هات ، القها عليّ ، وأصر عليه وكان بادي الاستعداد لان يسري عن نفسه . فأنشدها « كايساروف » . كان كوتوزوف يساير الايقاع ، وهو يهز رأسه ويبتسم .

وبينما كان بطرس يترك « كوتوزوف » لحق به « دولوخوف » ، وأمسك بذراعه ، وقال له بصوت عال ، وبلهجة واثقة ، مهيبة ، غير متحرج من حضور الآخرين :

ـ أنا سعيد بلقائك هنا ، أيها الكونت . ففي عشية اليوم الذي لا يعلم الا الله من الذي ستقدر له فيه الحياة ، منا الاثنين ، يسعدني أن أعرب لك عن أسفي لسوء التفاهم الذي كان بيننا ، وأود لو تنزع ما في نفسك من ضغينة عليّ . أرجو أن تصفح عني .

نظر اليه بطرس مبتسما ، دون أن يعرف ماذا يقول له . وضمه « دولوخوف » بين ذراعيه ، والدموع في عينيه ، وعانقه .

قال « بوريس » بضع كلمات لجنراله ، فاقترح الكونت « بينيجسن » على بطرس أن يرافقه في تفقده لخط القتال ، وقال له :

ـ سيكون ذلك شائقا لك .

فأجاب « بطرس » :

ـ نعم ، كثيرا .

وبعد نصف ساعة ، عاد « كوتوزوف » الى « تاتارينوفو » ؛ وذهب « بينيجسن » وحاشيته التي انضم اليها بطرس ، نحو خطوط القتال .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الثالث والعشرون

بعد أن خرج « بينيجسن » من غوركي ، انجـدر على الطريق الرئيسية الى الجسر الذي أشار اليه الضابط ، حين كان بطرس فوق الاكمة ، باعتباره مركز الموقع ، والذي نضد بجنبه الحشيش المحصود الارج . وبعد أن قطعوا الجسر مروا بقرية « بورودينو » ، واستداروا الى اليسار وتجاوزوا جشدا ضخما من الجند والمدافع ، وبلغوا ربوة كان المتطوعون يحفرون فيها خنادق . كان هذا المعقل هو المعقل الذي لا اسم له الآن والذي سيسمى فيما بعد « بطارية الاكمة » أو معقل رايفسكي .

لم يعر بطرس هذا المعقل كبير اهتمام ، ولم يكن يعلم أنه سيصبح عنده نقطـة مشهودة تستحق الذكر قبل غيرهـا في ساحـة قتال « بورودينو » . ثم توجهوا من خلال وهدة الى « سيمينوفسكوي » حيث كان الجنود يحملون أواخر جسور البيوت والمخازن . ثم وصلوا ، وهم ينزلون ويصعدون خلال حقول الشيلم الذي كان كأنما كسره وحصده البرد ، على طريق شقتها المدفعية حديثا ، في أثلام حقل محروث ، الى التحصينات التي كان الجنود يحفرونها .

وقف « بينيجسن » قرب التحصينات ، ونظر قبالته ، الى معقل « شيفاردينو » ( وكان في أيدينا حتى الامس ) الذي كان يرى فيه



@ketab_n @4_readers

بعض الفرسان • وكان الضباط يقولون : لا بد أن يكون نابليون أو « مورا » بينهم • وراح الجميع يتشوفون بلهفة الى هذه الجماعة الصغيرة من الفرسان • وفعل بطرس مثلهم ، محاولا أن يكشف : مَنْ مِنْ أولئك الرجال الذين لا يكادون يتميزون يمكن أن يكون نابليون• وأخيرا بلغ الفرسان أدنى الاكمة وتواروا •

التفت « بينيجسن » الى جنرال كان يقترب وشرح له بالتفصيل موقع قطعاتنا • وكان بطرس يصغي الى ما يقول ، باذلا جهده لتفهم خطة المعركة المقبلة ، ولكنه كان يحس بمرارة أن ملكاته الذهنية كانت غير كافية لذلك • فلم يكن يفهم شيئا مما يقال • صمت « بينيجسن » وحين رأى بطرس يصغي اليه ، سأله فجأة :

ـ أقدر أن هذا لا يهمك !

فأجابه بطرس جوابا يعوزه الصدق :

ـ آه ! على العكس ، انه يهمني كثيرا •

ومن التحصينات ساروا الى اليسار ، في طريق متعرج خلال غابة كثيفة من أشجار السندر الفتية • وفي وسط الغابة طلع على الطريق أرنب أسمر اللون ، قوائمه بيضاء ، روّعه وطء هذا العدد من الخيول ففقد رشده وأخذ يثب على الطريق ، مسترعيا الانتباه العام ، ومثيرا الضحك ؛ ولم يندفع جانبا ويتوارى في الحرجة الا حين انتهرته أصوات عديدة • وبعد أن قطعوا فرسخا في الغابة ، أفضوا الى فسحة يحتلها فيلق « توتشكوف[1] » الذي عُهد اليه بالدفاع عن الجناح الايسر •

هنا ، في أقصى الجناح الايسر، تكلم « بينيجسن » طويلا وبحرارة واتخذ تدبيرا بدا لبطرس مهما من الوجهة العسكرية • ففي مقابل

(1) الجنرال نيكولا توتشكوف ( ١٧٦١ ـ ١٨١٢ ) كان يقود الفيلق الثالث وقد قتل في بورودينو ، فاقامت أرملته ديرا فيها وصارت هي رئيسة لهذا الدير .



@ketab_n @4_readers

قطعات « توتشكوف » كانت ترتفع ربوة غير محصنة بالجند . ولقد انتقد « بينيجسن » هذا الخطأ بصوت عال ، قائلا : ان من الجنون ترك هذه الأكمة التي تتحكم بالمنطقة دون حماية ، وان توضع القطعات عند سفح الأكمة . وأعرب بعض الجنرالات عن الرأي ذاته . وقال أحدهم خاصة ، في شيء من الاندفاع العسكري ، انما يُرسلون هنا الى المسالخ . وأمر « بينيجسن» بتغيير موقع القطعات وباحتلال الأكمة.

ان هذا التدبير المتخذ في الجناح الايسر زاد من شكوك بطرس في قدرته على فهم فن الحرب. فحين استمع الى « بينيجسن » والجنرالات الذين استنكروا وجود القطعات عند سفح الاكمة ، فهم عنهم كل الفهم وشاركهم رأيهم ؛ لكنه لم يستطع أن يفهم ، بسبب ذلك بالذات، كيف ارتكب الذي وضع هذه القوات في السفح مثل هذا الخطأ الفاحش الصارخ .

كان يجهل أن هذه القوات لم توضع هنا للدفاع عن الموقع ، كما ظن « بينيجسن » ، بل انها أُخفيت لتنصب شركا للعدو ، أي لتظل مستورة عن الاعين ولتُباغت العدو وتنقض عليه في سيره . لم يكن « بينيجسن » يعلم ذلك أيضـا ، وقد نقلها لاعتبارات خاصة ، دون الرجوع الى القائد العام .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الرابع والعشرون

أثناء هذه الأمسية الصافية ، في الخامس والعشرين من آب ، كان الأمير آندره يستريح ، متكئا على مرفقه ، في مخزن مخرب من قرية « كنيازكوفو » ، في طرف الموقع المعين لفوجه • كان يتأمل من فرجة في الجدار ، صفا من أشجار السندر عمرها ثلاثون عاما ، أغصانها منخفضة مقطوعة تحاذي السياج ، وحقلا تناثرت فيه حزم من الشوفان، وحرجة تصاعد منها دخان مطابخ الجنود •

مع أن الحياة كانت تبدو للامير آندره ضيقة أشد الضيق ، لا غناء فيها ، وعبئا ثقيلا ، الا أنه أحس ، عشية المعركة ، أنه متأثر ، مهتاج ، كما كان قبل سبع سنوات في « أوسترليتس » •

لقد تلقى الاوامر بشأن معركة الغد ونقلها ، ولم يبق عليه ما يفعله• لكن أشد الافكار بساطة ووضوحا وأشدها من ثم اثارة للقلق ، لم تدع له وقتا للراحة • كان يعلم أن هذه المعركة ستكون أنظع المعارك التي خاضها ، ولاول مرة تمثل له بحدة امكان الموت ، وكأنه اليقين ، بسيطا ، عاتيا ، دون علاقة بالحياة اليومية ، ودون النظر الى آثاره الممكنة في الآخرين ، وانما بالنسبة اليه فقط ، بالنسبة الى روحه • ومن أعالي هذه الرؤية استضاء فجأة كل ما عذبه وشغل لبّه حتى الآن بنور أبيض ، بارد ، لاظلال فيه ، ولا آفاق له ، ولا حواشي واضحة • بدت



@ketab_n @4_readers

نه حياته كلها مثل صورة يلقيها مصباح سحري، صورة تأملها طويلا على ضوء نور اصطناعي. أما الآن فهو يرى هذه اللوحات الملونة تلوينا فجا، يراها فجأة دون أن تعترضه عدسة بلورية ، على ضوء النهار الساطع . وقال في نفسه وهو يستعرض في خياله واحدة فواحدة الصور الرئيسية لمصباح حياته السحري ، ناظرا اليها هذه المرة على ضوء النهار الأبيض البارد ، على ضوء فكرة الموت الصافية :

ــ نعم ، نعم ، هاهي ذي تلك الرؤى الكاذبة التي هزتني وأثارتني وآلمتني ، هاهي ذي تلك الصور التي رُسمت رسما فجا والتي بدت لي شيئا جميلا محفوفا بالاسرار . فالمجد ، والمصلحة العامة ، وحب المرأة ، والوطن ذاته ، كم بدت لي هذه الصور عظيمة ، مليئة بالمعاني العميقة ! مع أن ذلك كله شديد البساطة ، شديد الشحوب ، شديد الفظاظة ، على ضوء الصباح الابيض البارد الذي أحس أنه يشرق عليّ .» واستوقفت انتباهه خاصة هموم حياته الثلاثة الكبرى ، حبه تلك المرأة وموت أبيه والغزو الفرنسي الذي استولى على نصف روسيا . « الحب! ... تلك الصبية التي بدت لي كأنما تحتوي على قوى خفية . لكم أحببتها ! كنت أحلم أحلاما شعرية بالحب والسعادة معها . ــ ورفع صوته عاليا بغضب . ــ « يا للفتى الصغير ! ماذا ! كنت أؤمن بحب مثالي كفيل بالمحافظة على وفائها لي خلال سنة كاملة من غيابي . كان عليها أن يضنيها الفراق ، كما تروي حكاية الحمامة الرقيقة ، ووجدتُ أن ذلك كله أبسط مما قدرت ... كل ذلك بسيط بساطة بشعة ، كل ذلك كريه ! » .

وكان أبي يبني أيضا ركنا في « ليسييه ــ خوري » ويعتقد أن هذا الركن له ، بأرضه وهوائه وفلاحيه ، لكن نابليون يجيء ويكنسه كعود



@ketab_n @4_readers

من القش في طريقه ، دون أن يعلم حتى بوجوده ، وتنهار « ليسيبيه ـ خوري » وتنهار حياته بأسرها • وتزعم ماري أن هذا امتحان مرسل من السماء • ماجدوى هذا الامتحان بعد أن قضى واذا كان لن يعود ؟ لن يعود أبدا ! ولقد قضى ! لمن اذن ذلك الامتحان ؟ الوطن ، ضياع موسكو ! لسوف أُقتل غدا ، ولربما قتلني أحد رجالنا ، لا الفرنسيون ، كهذا الجندي الذي أفرغ بندقيته بالامس قرب أذني ،ثم يأتي الفرنسيون نيحملوني من رأسي وقدمي ويرموا بي في حفرة كي لا أتتن على مرأى منهم ، ثم تقوم ظروف حياة جديدة سيراها الآخرون طبيعية ، ولن أعرف هؤلاء ، ولن أكون على قيد الحياة •

ونظر الى صف أشجار السندر بأوراقها الساكنة الخضراء والصفراء ، وبقشرتها البيضاء التي تلمع في الشمس • « أن أموت ، أن أُقتل غدا ، ألاّ أكون ••• أن يكون كل هذا وألاّ أكون • » • تمثّل بشدة غيابه عن هذه الحياة • واذا بهذه الاشجار التي تتراقص عليها الاضواء والظلال ، واذا بتلك السحب المنفوشة البيضاء ، واذا بدخان المعسكرات ، اذا بذلك كله يتحول ويبدو له شيئا رهيبا ، مهددا • وخرج من المخزن وأخذ يتمشى •

وارتفعت أصوات وراء المخزن فصرخ الامير آندره :

ـ من هذا ؟

دخل المخزن على استحياء « تيموخين » النقيب ذو الانف الاحمر الذي كان قائدا لسرية « دولوخوف » والذي عيّن الآن ، بسبب نقص الضباط ، قائد كتيبة • وكان يتبعه ضابط الخدمة والضابط المحاسب •

نهض الامير آندره مستعجلا ، وأصغى الى تقرير الضابطين ، وأنهى



@ketab_n @4_readers

اليهما تعليماته الأخيرة ، وأوشك أن يصرفهما عندما بلغ مسمعيه ، من الخارج ، صوت مألوف يتزأزىء ، صوت امرىء تعثر في سيره :

ــ يا للشيطان !

ألقى الامير « آندره » نظرة الى الخارج فرأى بطرس مقبلا عليه وقد تعثر بخشبة وكاد يسقط . وكان الامير « آندره » يكره على العموم أن يرى ناسا من عالمه ، وعلى الاخص بطرس الذي يذكره بالساعات المؤلمة التي قضاها في موسكو ، أثناء اقامته الاخيرة . قال :

ــ عجبا ! أية مصادفة جاءت بك ؟ وكيف أتوقع ذلك !

كان في عينيه ، وهو يتكلم ، شيء أبعد من الجفاء ، شيء من العداء الذي لاحظه بطرس . لقد وصل بطرس يحدوه الاندفاع ، لكنه شعر وهو ينظر الى ماينطق به وجه الامير آندره ، بالضيق والحرج . فقال:

ــ جئت .. هكذا .. أنت تعلم .. جئت .. هذا يهمني .. أريد أن أرى المعركة .

وكان بطرس قد كرر مرات هذه الكلمة التي لامعنى لها : « هذا يهمني » .

وسأله الأمير آندره ساخرا :

ــ نعم ، نعم ، والأخوة الماسونيون ، ماذا يقولون عن الحرب .

ثم سأله جادا :

ــ حسنا ! وما الذي يجري في موسكو ؟ وأين أهلي ؟ هل وصلوا الى موسكو ، أخيرا ؟

ــ نعم . أنبأتني بذلك « جوليا دروبتسكوي » . ذهبت لأراهم لكنني لم أجدهم . كانوا قد سافروا الى أملاككم في الضاحية .



@ketab_n @4_readers

# الفصل الخامس والعشرون

أراد الضباط أن ينسحبوا ، لكن الأمير آندره استبقاهم ودعاهم الى تناول الشاي ، وكأنه كان يحرص ألا ينفرد بصديقه ، وحملت المقاعد وقدم الشاي . كان الضباط ينظرون بشيء من الدهشة الى شخص بطرس الضخم البدين ، ويصغون اليه وهو يتحدث عن موسكو وعن مواقع قطعاتنا التي أتيح له أن يطوف بها . وأخلد آندره الى الصمت ، وكان وجهه جافيا الى الحد الذي جعل بطرس يخاطب قائد اللواء الطيب « تيموخين » أكثر مما يخاطب « بولكونسكي » .

وقاطعه الامير آندره :

ـ واذن فقد فهمت جيدا ترتيب القطعات ؟

فأجاب بطرس :

ـ نعم ، أي بما أنني لست عسكريا فلا أستطيع القول أنني فهمته فهما كاملا ، لكني ، على كل حال ، ادركت الخطوط الرئيسية .

قال الأمير آندره :

ـ اعلم أنك أكثر تقدما من كل أحد غيرك .

قال بطرس وهو ينظر اليه من خلال نظارتيه ، وقد أخذته الحيرة :

ـ آه !



@ketab_n @4_readers

ـ وأضاف :

ـ وما رأيك بتعيين « كوتوزوف » ؟

قال الامير آندره :

ـ كنت مسرورا جدا بهذا التعيين ، هذا كل ما أعرفه .

ـ وقل لي : ما رأيك بـ « باركلي دي تولي» ؟ فالناس في موسكو يحكون الكثير عنه . ما رأيك أنت به ؟

قال الامير آندره وهو يشير الى الضباط :

ـ اسأل هؤلاء السادة .

نظر بطرس الى « تيموخين » وهو يبتسم تلك الابتسامة المتنازلة المستفهمة التي يبتسمها الناس جميعا عفويا حين يخاطبونه .

قال « تيموخين » بشيء من الخجل وهو دائم النظر الى عقيده :

ـ يا صاحب السعادة ، انما رأينا النور عندما تولى القيادة صاحب الرفعـة .

فسأله بطرس :

ـ وكيف ذلك ؟

ـ لنأخذ مثلا الخشب والعلف . لقد كان محظورا علينا ، أثناء تراجعنا بدءا من « سوينسياني » ، أن نمد أيدينا الى عود من الحطب أو قبضة من الحشيش أو الى أي شيء آخر . ومع ذلك فقد كنا نرحل وكان « هو » الذي يستفيد منها . ـ وأضاف مخاطبا أميره : أليس كذلك يا صاحب السعادة ؟ نعم ، كان ذلك ممنوعا ، وحوكم في فوجنا، ضابطان بسبب هذه الاشياء ، لكن ، عندما وصل صاحب الرفعة ، غدا كل شيء بسيطا . رأينا النور ..



@ketab_n @4_readers

ـ ولم هذا المنـع ؟.
ألقى « تيموخين » حوله نظرات مرتبكة وهو لا يعلم كيف يجيب عن مثل هذا السؤال • وطرح بطرس السؤال نفسه على الامير آندره •

قال الامير آندره بلهجة خبيثة ساخرة :

ـ ذلك لكي لا نخرب البلد الذي نتركه للعدو • وهو شيء مسوغ تماما : فنحن لا نستطيع أن ندع القطعات تنهب البلد وتتعود السلب • أما في سمولنسك فكان محقا أيضا حين فكر أن الفرنسيين قد يلتفون حولنا وأن قواهم كانت متفوقة على قوانا •

وصاح فجأة بصوت حاد كأنما انطلقت بالرغم منه :

ـ لكنه لم يستطع أن يفهم أننا حاربنا هناك لأول مرة في سبيل الارض الروسية ، وأن الجيش كانت تلهبه روح لم أر مثلها قط ، واننا صددنا الفرنسيين يومين متواليين ، وأن هذا النجاح ضاعف قوانا عشر مرات • لقد أمر بالانسحاب ، وذهبت أدراج الرياح جهودنا وخسائرنا • لم يكن يفكر في أن يخون ، وكان يجهد في أن يفعل كل شيء لينال الافضل ، وكان يزن كل شيء ، لكنه من أجل هذا بالذات لم يكن صالحا لشيء ، وهو الآن غير صالح لشيء ، لأنه يزن كل شيء بعناية فائقة ودقة مفرطة ، كما يجدر بكل ألماني • كيف أقول لك •• افترض أن لأبيك خادما ألمانيا ، خادما ممتازا يلبي حاجاته خيرا منك ويؤدي واجبه بملء حريته ، لكن ما ان يشرف أبوك على الموت حتى تطرد الخادم ، وتعنى بأبيك بيديك اللتين تنقصهما المهارة والبراعة ، وتنفعه أكثر مما ينفعه الرجل الحاذق اذا كان غريبا • كذلك كان الامر مع « باركلي » • فما دامت روسيا سليمة استطاع الاجنبي أن يخدمها وأن



@ketab_n @4_readers

يكون وزيرا ممتازا ، لكن ما ان تصبح في خطر حتى تحتاج الى رجل من عرقها ، من دمها . لقد زعم الناس عندكم ، في ناديكم ، أنه خائن ! وستكون النتيجة الوحيدة لذلك أنهم سيخجلون من هذا الافتراء وسينصبون منه بطلا أو عبقريا ، وهو أمر أشد ظلما من الافتراء . انه ألماني شريف مفرط الدقة .

قال بطرس :

ـ يقال مع ذلك : انه رجل حرب ماهر .

قال الامير آندره ساخرا :

ـ لست أفهم ما تعنيه تلك الكلمة .

قال بطرس :

ـ رجل الحرب الماهر هو الذي يتنبأ بكل الاحتمالات ، ويسبر نوايا العدو .

قال الامير آندره وكأنه يتحدث في قضية حسمت منذ زمن بعيد :

ـ لكن ذلك غير ممكن .

نظر اليه بطرس بدهشة وقال :

ـ على أنه يقال : ان الحرب شبيهة بلعبة الشطرنج .

قال الامير آندره :

ـ نعم ، ولكن مع هذا الفارق الصغير وهو أنك في لعبة الشطرنج تستطيع أن تفكر ما طاب لك التفكير ، وأن عامل الزمن غير موجود ، ومع هذا الفرق أيضا أن خيال الشطرنج أقوى دائما من البيدق وأن بيدقين أقوى دائما من بيدق واحد ، على حين أن اللواء في الحرب قد



@ketab_n @4_readers

يكون أحيانا أقوى من فرقة وقد يكون أحيانا أضعف من سرية . ولا يستطيع أحد أن يعرف قوى الجيوش النسبية . صدقني ، لو كانت الاشياء منوطة بأوامر الاركان لكنت هناك ولكنت أصدرت الاوامر ، وبدلا من ذلك تراني أعتز بالخدمة هنا مع هؤلاء السادة ، وأقدر أن يوم غد انما يتوقف علينا لا عليهم ... لم يتوقف النجاح قط ولن يتوقف أبدا على الموقع ، ولا على التسلح ، ولا حتى على العدو ، انه لا يتوقف على الموقع ، خاصة .

ـ وعلى أي شيء يتوقف اذن ؟

ـ على الشعور الذي في نفسي،وفي نفسه ـ وأشار الى تيموخين ـ وفي نفس كل جندي .

وألقى نظرة خاطفة على تيموخين الذي كان ينظر الى رئيسه نظرة خائفة ، حيرى . كان الامير آندره قبل قليل صامتا ، متحفظا ، أما الآن فبدا منفعلا . كان واضحا أنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من التعبير عن الافكار التي كانت تأتيه فجأة :

ـ انما يربح المعركة من صمم بحزم على ربحها ; لم خسرناها في « اوسترليتس » ؟ كانت خسائرنا مساوية لخسائر الفرنسيين ، لكننا عجلنا وقلنا لأنفسنا ، قبل الاوان : اننا سنخسرها ، فخسرناها . واذا كنا قلنا ذلك لأنفسنا فلأننا لم يكن لنا شيء نقاتل من أجله ، كنا نرغب فقط في مغادرة ساحة القتال بأسرع ما يمكن . « لقد خسرنا المعركة ، هيا ! فلنهرب ! » وهربنا . ولو صبرنا الى المساء ولم نقل لأنفسنا ما قلناه ، فالله أعلم كيف كانت ستدور الامور . لكننا لن نقول ذلك غدا . ذكرت موقعنا وأن الجناح الأيسر ضعيف والجناح الايمن



@ketab_n @4_readers

ممطوط ، كل ذلك هراء ، ولا وزن لشيء من ذلك كله • ما الذي ينتظرنا غدا ؟ ان مئات المصادفات المختلفة ستقرر غدا من الذي سينهزم أولا ، نحن أم هم ، وان هذا سيقتل ، ثم ذاك • لكن الذي يجري في هذه اللحظة ما هو الا أُلهية • فالذين زرت معهم الموقع لا يسهلون سير العمليات ، بل انهم يعرقلونها • انهم منهمكون بمصالحهم الشخصية الصغيرة فقط •

قال بطرس بلهجة الملامة :

ــ في مثل هذه اللحظة ؟

فردد الامير آندره :

ــ « في مثل هذه اللحظة » ؛ هذه اللحظة ، عندهم ، هي اللحظة التي يستطيعون أن ينسفوا فيها مركز أحد خصومهم وأن ينالوا وساما أو وشاحا آخر • واليك ، برأيي ، الوضع غدا : هناك جيشان يلتقيان للقتال ، جيش روسي من مائة ألف رجل ، وجيش فرنسي من مائة ألف رجل ، المهم أن هذين الجيشين سيقتتلان وسوف ينتصر الجيش الذي يقاتل أشرس قتال ويراعي نفسه أدنى مراعاة • أتريد أن أخبرك : اننا سنربح معركة الغد ، مهما يحدث ، ومهما ترتكب فوقُ من حماقات• سنربح المعركة غدا ، مهما يحدث •

قال تيموخين :

ــ هذه هي الحقيقة ، يا صاحب السعادة ، هذه هي الحقيقة الخالصة • ولمَ يراعي المرء نفسه الآن ؟ أتصدقون أن جنود لوائي رفضوا تناولِ الفودكا ، وقالوا : ليس هذا أوان الفودكا •

ساد الصمت ••



@ketab_n @4_readers

ونهض الضباط • فصحبهم الامير آندره الى خارج المخزن وزود ضابط الخدمة بآخر تعليماته • فلما انصرفوا ، دنا منه بطرس ، ولم يكد يستأنف الحديث حتى تناهى اليهما وقع حوافر جياد ثلاثة على الطريق ، غير بعيد عن المخزن ، فالتفت آندره الى تلك الجهة واذا « ولزوجين » و « كلوزويتز » يرافقهما قوزاقي • مرّا على مقربة وهما يتحدثان[1] حتى أن بطرس وآندره سمعا الجمل التالية ، قال أحدهم :

ـ يجب أن تتسع رقعة الحرب • لا أستطيع أن أولي هذا الرأي من الاهمية أكثر مما يستحق •

قال الصوت الآخر :

ـ طبعا ، وبما أن هدف الحرب إضعاف العدو فنحن لا نستطيع أن نحسب حسابا لخسائر الافراد •

فأيّده الصوت الآخر :

ـ طبعــا ••

وبعد أن مروا ردد الامير آندره وهو ينخر بغضب :

ـ « يجب أن تتسع رقعة الحرب » • ان أبي وابني وأختي ظلوا في « ليسبيه ـ خوري » • وهما لا يكترثان لذلك • هذا هو بالذات ما كنت أقوله لك : ان هؤلاء السادة الالمان لن يربحوا المعركة غدا ، بل انهم سيفسدون كل مافي مقدورهم أن يفسدوه ، لأنه ليس في رأسهم الالماني سوى المحاكمات التي لا تســاوي شيئا ، وليس في قلبهم ما يلزم ليوم غد ، ليس في قلبهم ما في قلب « تيموخين » • لقد تركوا « له » أوروبا بأسرها وجاؤوا يلقون علينا دروسا •

---

(1) انهما يتحدثان بالالمانية .



@ketab_n @4_readers

وختم كلامه بصوت حـاد :

ـ ما أروعهم معلمين !

قال بطرس :

ـ وهكذا ، فأنت تعتقد أننا سنربح معركة الغد ؟.

فرد عليه الامير آندره بشرود :

ـ نعم ، نعم . هناك شيء واحد ، لو كان الامر بيدي لما أسرتُ الاسرى . ما الاسرى ؟ انهم الخيالة . والخيالة الفرنسيون دمروا بيتي وأرادوا تدمير موسكو ، أهانوني وما زالوا يهينونني . هم أعدائي ، وهم مجرمون ، برأيي . وهو رأي « تيموخين » والجيش بأسره . يجب أن يلقوا عقابهم . هم أعدائي ، ولا يمكن أن يكونوا أصدقائي ، بالرغم من محادثات « تلسيت » .

قال بطرس ، وهو ينظر اليه بعينين ملتمعتين :

ـ نعم ، نعم ، أنا موافق ، تماما !

وبدت له المشكلة التي عذبته منذ منحدر « موجايسك » وطوال النهار ، واضحة وضوحا كاملا ، الآن ، محلولة حلا تاما ،

فهم الآن معنى هذه الحرب وأدرك شأنها ، كما فهم معنى المعركة المقبلة وأدرك شأنها . لقد استضاء كل ما رآه أثناء النهار ، كل تلك الوجوه العابسة الرصينة التي شاهدها في طريقه ، بنور جديد ، في عينيه . أدرك تلك الحرارة الكامنة ، كما يقال في الفيزياء ، حرارة الوطنية الكامنة في هؤلاء الرجال الذين رآهم ، والتي أوضحت له لمَ كان هؤلاء الرجال يستعدون للموت رابطي الجأش ، غير مبالين بشيء .



@ketab_n @4_readers

تابع الامير آندره كلامه قائلا :

ـ ان الامتناع عن أسر الاسرى كفيل بتغيير الحرب وجعلها أقل قسوة • نحن نلعب لعبة الحرب ، وتلك هي المصيبة ، اننا نتظاهر بالكرم•وهذا الكرم وتلك الحساسية الزائفة يشبهان كرم امرأة لا تقوى على رؤيــة العجل وهو يذبح وحساسيتها ، ولا تطيق مرأى الدم بسبب رقة قلبها ، لكنها تأكل بشهية لحم هذا العجل المعد بالمرق • يحدثوننا عن قوانين الحرب ، عن روح الفروسية واحترام المفاوضين وواجب العفو عن البائسين ، وغير ذلك • هراء كل ذلك • رأيت ، في سنة ١٨٠٥ ، روح الفروسية واحترام المفاوضين ! لقد خُدعنا وخَدعنا• انهم ينهبون بيوت الآخرين ، ويضعون في التداول أوراقا نقدية زائفة ، وأسوأ من ذلك كله انهم يقتلون أولادي وأبي ، ثم يأتي من يحدثني عن قوانين الحرب والكرم ازاء العدو ! يجب ألا نأسر الاسرى بل يجب أن نقتلهم ونمشي الى الموت ! ومن توصل الى هذا الحد مثلي ، ماراً بنفس الآلام ••

توقف الامير آندره فجأة بفعل تشنج مباغت شد على حنجرته ، وكان يريد ان يقول : انه لا يبالي الآن احتلت موسكو أم لم تحتل كما احتلت « سمولنسك » من قبل • خطا بضع خطوات بصمت ، وكانت عيناه تلتمعان ببريق محموم وشفته ترتجف عندما ا ستأنف كلامه :

ـ ولولا هذا الكرم الزائف في الحرب لما مشينا الا اذا لزم أن نمضي الى موت محقق ، كما هي الحال اليوم • لن يكون آنذاك حرب بحجة أن « بول ايفانوفتش » أهان « ميشيل ايفانوفتش » • واذا ما نشبت حرب كحرب اليوم ، فانها ستكون حربا حقيقية • وحينذاك



@ketab_n @4_readers

لن تكون أهمية القطعـــات كأهميتها اليوم ، ولن يتـــاح لهؤلاء « الويستفاليين » و « الهسيين » الذين يسوقهم نابليون أن يتبعوه الى روسيا ، ولن يكون علينا أن نذهب ونقاتل في النمسا وبروسيا دون أن نعرف لماذا • ليست الحرب تأنقا وظرفا ، لكنها أحقر مافي الحيـــاة ، ينبغي أن ندرك ذلك ، وألاّ نجعل منها لعبة • يجب أن نقبل هـــذه الضرورة الرهيبة برصانة وجد • كل شيء يكمن هاهنا : نبذ الكذب ؛ والحرب هي الحرب وليست لعبة • والاّ فهي التسلية المفضلة لدى العاطلين والتافهين ••• ان فئة العسكريين تُعتبر الفئة المبجلة فوق غيرها من الفئات • فما الحرب ؟ وماذا يلزم المرء لينجح في مهنة السلاح ؟ وما أخلاق الفئة العسكرية ؟ إن هدف الحرب هو القتل ؛ ووسائل الحرب هي التجسس ، والخيانة والتشجيع على الخيانة ، ودمار الاهلين بالنهب أو السرقة لتموين الجيش ، والغش والكذب اللذان يسميان خدعتين من خدع الحرب • وأخلاق الفئة العسكرية هي الغاء الحرية ، أي الانضباط والفراغ والجهل والوحشية والتهتك والسكر • ومع ذلك فانها فئة أعلى من غيرها ، والجميع يكرمونها • كل الملوك ، ماعدا امبراطور الصين ، يرتدون الزي العسكري ، ومن قتل أكبر عدد من الناس نال أعلى المكافآت ••• الناس يتقابلون ، كما ستكون الحال غدا ، ليقتل بعضهم بعضا ، فيقتل ويشوه عشرات آلاف الناس • ثم تقام صلوات الشكر لقتل هذا العدد من الناس ( وهو عدد يُضخَّم أيضا ) ، ويُعْلَن النصر ، وهو نصر يزداد فضلا ورفعة كلما ازداد عدد القتلى فيه •

ثم هتف الامير آندره بصوت نحيف صارخ :

ـ كيف يستطيع الله أن ينظر اليهم من عليائه وأن يصغي اليهم !



@ketab_n @4_readers

آه ! يا عزيزي ، الحياة ، منذ بعض الوقت ، عبء علي . وأرى أنني أدركت الآن أكثر مما ينبغي من الاشياء . ينبغي للانسان ألا يذوق شجرة الخير والشر ...

وأضاف :

ـ لكن ذلك لن يدوم طويلا .

وقال فجأة :

ـ لكنك تنام وأنت واقف ، وقد حان الوقت لانام أنا أيضا . فعُد الى غوركي .

قال بطرس وهو ينظر اليه بعينين مروّعتين مليئتين بالود :

ـ أوه ، كلا !

وكرر الامير آندره :

ـ امض ، امض ، على المرء أن ينام جيدا ، عشية المعركة .

واقترب بشدة من بطرس وأمسكه بين ذراعيه وعانقه وهو يصرخ:

ـ الوداع ، انصرف ، هل نلتقي بعد الان ...

وانثنى بشدة ورجع الى المخزن .

كان الظلام مخيما ولم يستطع بطرس أن يتبين وجه صديقه إن كان فظا أم رقيقا .

ظل بطرس في مكانه بضع لحظات صامتا ، وتساءل ان كان ينبغي له أن يتبعه أو أن ينصرف . ثم قرر : « كلا ، انه ليس بحاجة اليّ ! وأنا أعلم أن هذا هو لقاؤنا الاخير » .

وصعّد زفرة عميقة وعاد الى « غوركي » .



@ketab_n @4_readers

ما ان رجع الامير آندره الى المخزن حتى استلقى على سجادة ، لكنه لم يستطع النوم .

أغمض عينيه فتتالت الصور عليه . ووقف بفرح وقفة طويلة عند واحدة منها . رأى بقوة سهرة في بطرسبرج . كانت « ناتاشا » تروي له ، وقد بدا على وجهها التأثر والحيوية ، كيف أنها ضلت طريقها في غابة كبيرة كانت تبحث عن الفطور فيها . وكانت تصف له من غير نظام ، وحشة الغابة ، واحساساتها ، وحديثها مع أحد مربي النحل وقد صادفته في طريقها ، متوقفة عن الكلام في كل لحظة لتقول : « كلا ، لا أستطيع ، لا أحسن الرواية ، لا ، لن تفهمني » ، مع أن الامير آندره طمأنها قائلا : انه كان يفهمها ، والواقع أنه كان يفهم كل ما كانت تريد أن تقوله . كانت ناتاشا غير راضية عن قصتها وكانت تحس أنها عاجزة عن نقل ذلك الانفعال الشعري الذي أحست به في ذلك اليوم والذي تمنت لو تعبر عنه . كانت تقول ، وهي متضرجة الوجه ، منفعلة : « كان رائعا ذلك الشيخ ، وكانت العتمة مطبقة على الغابة ... وكان فيها الكثير ... كلا ، اني لا أحسن الرواية » . ابتسم الامير آندره الآن ابتسامته السعيدة آنذاك حين نظر اليها في عينيها . وقال في نفسه: « كنت أفهمها ، لم أكن افهمها فحسب ، بل كنت أحب فيها حبا عاتيا سعيدا هذه الروح القوية ، ذلك الصدق ، هذه الروح المنفتحة ، هذه الروح التي كانت تبدو حبيسة جسدها ... » وفجأة تذكر كيف انتهى حبه لها . « لم يكن ذلك الرجل بحاجة الى شيء من هذا كله ، لم يكن يرى ولم يكن يفهم شيئا منه ... لم يكن يرى فيها غير فتاة جميلة « غضة » ، أبى أن يربط مصيره بمصيرها . أما أنا ؟ ... وما يزال حيا ، سعيدا » .

وثب الامير آندره على قدميه ، وكأنما لذعته النار ، وراح يتمشى أمام مخزن الحبوب .



@ketab_n @4_readers

# الفصل السادس والعشرون

في الخامس والعشرين من آب ، عشية معركة « بورودينو » ، وصل الى معسكر نابليون في « فالويفو » السيد « دي بوسيه »[1] محافظ قصر امبراطور فرنسا ، والعقيد « فابييه » ، الاول من باريس ، والثاني من مدريد .

وبعد أن ارتدى السيد « دي بوسيه » بزة البلاط حمّل أحد الخدم أمامه سفطا أحضره للامبراطور ودخل المقصورة الاولى من خيمة نابليون حيث عمد الى فك السفط وهو يتحدث مع المساعدين العسكريين .

وقف « فابييه »[2] عند مدخل الخيمة يحادث بعض الجنرالات الذين يعرفهم .

لم يكن الامبراطور نابليون قد خرج بعد من حجرة نومه حيث كان ينهي زينته . كان يمد ، وهد ينتفض ويترنم سرورا ، ظهره العريض حينا ، وصدره السمين الكثير الشعير حينا آخر ، للفرشاة التي كان يدلك بها أحد الخدام جسده . وراح خادم آخر يرش جسد الامبراطور المدلوك بماء الكولونيا من زجاجة سدها بأصبعه ، ووجهه يقول : انه

(١) . محافظ قصر نابليون .

(٢) العقيد شارل نيكولا فابييه ( ١٧٨٢ ـ ١٨٥٥ ) . اصبح جنرالا فيما بعد وتميز في حرب الاستقلال اليونانية .



@ketab_n @4_readers

وحده قادر على معرفة الكمية التي يجب أن يسكبها والموضع الذي يجب أن تسكب فيه • وكان شعر نابليون القصير مبللا ومشعثا على جبينه • لكن وجهه كان يعكس الهناء والراحة رغم صفرته وانتفاخه • وكان يقول لخادمه الذي يدلكه وهو يكوّر ظهره : « هيا ، شدّ يدك ، استمر » • وقرب الباب وقف مساعد عسكري دخل على الامبراطور وأعلمه بعدد الاسرى في معركة الامس • حتى اذا انتهى من مهمته انتظر الاذن بالانصراف • فحدجه نابليون بنظره وهو يكشّر ، وقال مرددا كلمات المساعد العسكري :

ـ **لا اسرى ، انهم يقتلون انفسهم • لا باس ، فالجيش الروسي هو الذي يخسرهم •**

وقال لخادمه ، وهو يكور ظهره ويعرض كتفيه السمينتين :

ـ **هيا ، شد يدك •**

وقال للمساعد العسكري وهو يصرفه بايماءة من رأسه :

ـ **حسنا ! ادخل السيد « دي بوسيه » و « فابييه » •**

ـ نعم ، يا صاحب الجلالة •

وتوارى المساعد العسكري •

ألبسه الخادمان برشاقة وخفة بزة الحرس الزرقاء ، ومضى الى غرفة الاستقبال بخطى ثابتة سريعة •

كان « بوسيه » في هذه اللحظة يضع بسرعة على كرسيين هدية الامبراطورة التي حملها معه ، قبالة الباب الذي سيدخل منه الامبراطور • لكن الامبراطور الذي ارتدى ثيابه على عجل دخل على حين غرة قبل أن ينتهي « دي بوسيه » من اعداد مفاجأته •



@ketab_n @4_readers

لاحظ نابليون على الفور ما كان يفعله ، وقدر أن « بوسيه » لم يتم اعداد مفاجأته ، ولم يشأ أن يحرمه هذه المتعة ، فتظاهر بأنه لم يره ، وأشار الى «فابييه» بالاقتراب. وأصغى، وهو مقطب الحاجبين ودون ان ينبس بكلمة،الى ما كان يقوله عن بسالة جنده واخلاص هؤلاء الجند الذين قاتلوا في « سالامانك » ، في الطرف الآخر من أوروبا ، والذين لم يكن لهم من هم سوى أن يكونوا جديرين بأمبراطورهم ، ولم يكونوا يخشون الا شيئا واحدا هو ألا يبلغوا رضاه . وكانت نتيجة المعركة فاجعة . أبدى نابليون بعض الملاحظات الساخرة أثناء تقرير « فابييه » ، وكأنه يريد أن يلمح الى أنه لم يكن يتوقع أن تجري الاشياء في غيابه على نحو آخر . فقال :

ـ ينبغي أن أتدارك ذلك في موسكو . الى اللقاء ، قريبا .

واستدعى باشارة « بوسيه » الذي استطاع ، في أثناء ذلك ، أن يعد المفاجأة ، وذلك بأن وضع على كرسيين شيئا مغطى بستار .

حياه « دي بوسيه » تحية عميقة على الطريقة الفرنسية ، وهي طريقة لا يحسنها الا خدم « آل بوربون » المحنكون ، واقترب منه مادا له مغلفا . استقبله نابليون ببشاشة وشد أذنه شدا خفيفا . وقال مستبدلا بلهجته القاسية لهجة لطيفة أشد اللطف :

ـ لقد أسرعت ، وأنا سعيد بذلك . حسنا ! ماذا يقول الناس في باريس .

أجاب السيد « دي بوسيه » الجواب اللائق :

**ـ ان باريس كلها ، يا مولاي ، تاسف لغيابكم .**



@ketab_n @4_readers

ومع أن نابليون كان يعلم أن « بوسيه » سيجيب بهذا الجواب أو بجواب شبيه به ، ومع أنه كان يعلم ، في لحظات صفائه الذهني ، أن هذا غير صحيح ، الا أنه سر بما قاله « بوسيه » • وكرمه مرة أخرى بقرصه أذنه • وقال له :

ــ يشق علي أن أجشمك عناء هذا الطريق الطويل •

قال « بوسيه » :

ــ مولاي ! ما كنت اتوقع الا ان اراك على ابواب موسكو •

ابتسم نابليون ورفع رأسه ساهما وألقى نظرة الى يمينه • فاقترب منه المساعد العسكري بخطى منسابة ومعه مسعطة مذهبة ناوله اياها ، فأخذها نابليون •

قال الامبراطور وهو يدني من أنفه المسعطة المفتوحة :

ــ نعم ، ان حظك لحسن ، أنت المولع بالسفر • فسوف ترى موسكو في غضون ثلاثة أيام • ولا ريب أنك لم تكن تتوقع رؤيـة العاصمة الآسيوية • وهكذا ستكون رحلتك لطيفة •

انحنى « بوسيه » شاكرا هذه الالتفاتة الى ولعه بالاسفار وهو ولع لا علم له به حتى الآن •

قال نابليون وهو يرى أن جميع عيون الحاشية شاخصة الى الشيء المغطى بستار :

ــ آه ! ما هذا ؟

وبلباقة رجل الحاشية المجرب ، تراجع « بوسيه » خطوتين الى الوراء ، من غـير أن يدير ظهره للامبراطور ، وفي الوقت نفسه رفع الستار وهو يقول :



@ketab_n @4_readers

ـ هدية لجلالتكم من قبل الامبراطورة •

كانت الهدية صورة رسمها « جيرار »[1] بالالوان الزاهية للصبي الصغير المولود من نابليون ومن ابنة امبراطور النمسا ، والذي يسميه الجميع ، من غير سبب معلوم ، ملك روما •

كان ذلك الصبي الجميل بشعره الجعد ، وبنظرته التي تذكر بنظرة الطفل يسوع في عذراء « سيكستين » مرسوما وهو يلعب بكرة القرن • وكانت الكرة تمثل الكرة الارضية ، وقضيب الكرة يمثل صولجان الملك •

ومع أن ما أراد الفنان أن يعبر عنه بالضبط حين مثل ملك روما يثقب الكرة الارضية بعصا دقيقة ، لم يكن واضحا كل الوضوح ، فان الرمز بدا واضحا في عين نابوليون وأعجبه كثيرا ، كما بدا واضحا في أعين الذين رأوا اللوحة في باريس وكما أعجبهم جميعا •

قال وهو يشير الى الصورة بحركة رشيقة من يده :

ـ **ملك روما ، رائع !**

وبتلك الموهبة الخاصة بالايطاليين الذين يستطيعون أن يغيروا تعابير وجوههم متى شاؤوا ، اقترب نابليون من الصورة واصطنع مظهر الحنان والتفكر • كان يحس أن ما يقوله أو يفعله سيغدو ملكا للتاريخ • وخيل اليه أن أفضل ما يفعله في هذه اللحظة هو أن يظهر حنانه الابوي في أبسط أشكاله ، وهو حنان يتعارض وتلك العظمة التي بفضلها

---

(١) فرانسوا جيرار ( ١٧٧٠ ـ ١٨٣٧ ) رسام ومصور شخصيات شهير ، صانع لوحة « معركة اوسترليتس » ( ١٨١٠ ) التي اكسبته لقب بارون .



@ketab_n @4_readers

استطاع ابنه أن يتلاعب بالكرة الارضية على عصاه الدقيقة • تغشت عيناه بغشاوة ، وخطا خطوة ، وبحث بنظره عن كرسي وراءه ( فطارت الكرسي نحوه ) وجلس مقابل الصورة • وأشار بيده فاذا بالجميع ينسحبون على أطراف أصابعهم تاركين الرجل العظيم لنفسه ولعواطفه •

ظل لحظة هكذا ، ثم مر بيده آليا على خشونة بريقها • ونهض واستدعى « بوسيه » وضابط الخدمة • وأمر بوضع الصورة أمام الخيمة كي لا يحرم الحرس القديم أن يسعدوا برؤية ملك روما ابن امبراطورهم المعبود ووارثه •

ولم يخب ظنه ، ففي أثناء الغداء الذي كرم « بوسيه » به ، دوت الهتافات الحماسية التي أطلقها ، أمام الخيمة ، ضباط الحرس القديم وجنوده بعد أن تراكضوا لرؤية الصورة :

**ـ عاش الامبراطور ! عاش ملك روما ! عاش الامبراطور !**

وبعد الغداء أملى نابليون ، بحضور « بوسيه » ، أمره اليومي للجيش •

وبعد أن قرأ البيان الذي كتب دفعة واحدة دون أي شطب قال :

**ـ انه قصير وقوي !**

وهذا نص البيان : « أيها الجنود ! ها هي ذي المعركة التي طالما تمنيتموها • النصر منذ الآن منوط بكم ، وهو ضروري لنا ، انه يهبنا الرخاء والمراكز الشتوية المريحة والعودة السريعة الى الوطن ! تصرفوا كما تصرفتم في « اوستر ليتس » و « فريدلانـد » و « فيتبسك » و « سمولنسك » ، ولتذكر الاجيال الآتية سلوككم في هذا اليوم •



@ketab_n @4_readers

وليقل الناس عنكم : لقد كانوا في المعركـة الكبرى ، عند جدران موسكو » •

وكرر نابليون :

ـ **جدران « موسكفا » !**

ودعا السيد « دي بوسيه » الذي يحب السفر ، الى أن يرافقه في نزهته ، وخرج من خيمته نحو الخيل المسرجة •

قال « بوسيه » ردا على دعوته ، وكان ينعس ، ولم يكن يحسن ركوب الخيل بل كان يخافه :

ـ **لقد غمرتموني ، يا صاحب الجلالة ، بعطفكم •**

لكن نابليون أومأ برأسه الى الرحّالة فاضطر « بوسيه » الى اللحاق به • وعندما برز نابليون تضاعفت هتافات جنود الحرس أمام صورة ابنه • فقطب حاجبيه وقال وهو يشير الى الصورة بحركة مليئة بالجلالة والرشاقة :

ـ ارفعوها • فما يزال أصغر من أن يرى ساحة القتال •

أغمض « بوسيه » عينيه ، وحنى رأسه وأطلق زفرة عميقة ، مظهرا بذلك أنه يقدر كلمات الامبراطور حق قدرها ويفهمها أحسن فهم •



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل السابع والعشرون

يقول مؤرخو نابليون : انه قضى نهار الخامس والعشرين من آب على جواده ، يتفقد الارض ، ويناقش الخطط التي يعرضها عليه مارشالاته ، ويصدر بنفسه الاوامر الى جنرالاته .

كان خط الروس الاول ، على طول الكولوتشا ، مقطوعا ، وقد سحب الى الوراء جزء من هذا الخط ، أي الجناح الايسر ، على أثر احتلال الفرنسيين لمعقل « شيفاردينو » في الرابع والعشرين . ولم يكن هذا الجزء من الخط محصنا ولا محميا بالنهر ، وأمامه وحده كانت الارض مكشوفة ، مستوية . وكان واضحا لكل انسان ، عسكريا كان أم لا ، أن هذا الجزء من الخط هو الذي سيهاجمه الفرنسيون . لم يكن ذلك بحاجة الى كثير من التفكير ، على ما يبدو ، ولم يكن بحاجة الى مثل تلك العناية والروحات والجيئات من الامبراطور ومارشالاته ، ولا الى تلك الموهبة الرفيعة الخاصة التي تسمى العبقرية والتي يحب الناس أن ينسبوها الى نابليون ؛ لكن المؤرخين الذين رووا الحادث ، فيما بعد ، والناس الذين كانوا يحيطون به آنذاك ، ونابليون نفسه ، كانوا يفكرون على نحو آخر .

كان نابليون يطوف بالارض ، ويتفحص ما حولها بنظره العميق التأمل ، ويهز رأسه موافقا أو متحرزا ، ولا يطلع الجنرالات المحيطين



@ketab_n @4_readers

يحيطون به على الاعتبارات العميقة التي تحكم قراراته ، ولا يبلغهم الا النتائج النهائية على شكل أوامر • فعندما اقترح « دافو » الذي كان يسمى أمير « ديكموهل » ، الالتفاف حول الجناح الايسر الروسي ، قال له نابليون : انه يجب أن يفعل هذا ، دون أن يبين لماذا • وبالمقابل ، لما اقترح الجنرال « كومبان » ( الذي كان عليه مهاجمة التحصينات الروسية ) تمرير فرقته من الغابة ، وافق نابليون ، مع أن دوق « دلشنجن » المزعوم ، أي المارشال « ناي »[1] أجاز لنفسه أن يلفت انتباهه الى أن التحرك عبر الغابة محفوف بالمخاطر وقد يشتت الفرقة •

بعد أن فحص نابليون الارض قبالة معقل « شيفاردينو » ، فكر بصمت لحظة طويلة وعين النقاط التي يجب أن تنصب فيها ليوم غد ، بطاريتان مخصصتان لضرب التحصينات الروسية ، والنقاط التي يجب أن تربض فيها بطاريات الميدان •

بعد أن أصدر هذه الاوامر وغيرها ، رجع الى مقره العام وأملى ترتيب المعركة •

ان هذا الترتيب الذي يتحدث عنه المؤرخون الفرنسيون بحماسة ، ويتحدث عنه المؤرخون الآخرون باحترام عميق ، قد صيغ على النحو التالي :

---

(١) المارشال ميشيل ناي ( ١٧٦٩ ــ ١٨١٥ ) « باسل البواسل » . منح لقب دوق بعد ان هزم النمساويين قرب قرية دلشنجن . ومنح لقب امير الموسكوفا بعد معركة بورودينو. منحه لويس الثامن عشر لقب امير فرنسا . ثم انحاز الى نابليون اثناء الايام المائة وعدم عند عودة الملكية الثانية .



@ketab_n @4_readers

« في مطلع الفجر تبـدأ بطاريتان جديدتان تقامان في الليل على هضبة الامير « ديكموهل » باطلاق نارهما على البطاريتين العدوتين المقابلتين » •

« وفي اللحظة نفسها يبدأ الجنرال « بيرنيتي » ، آمر مدفعية الوحدة الاولى ، باطلاق النار وسحق البطارية العدوة بالقذائف ، من ثلاثين مدفعا في فرقة « كومبان » ومن كل المدافع في فرقتي « ديسيكس » و « فريان » التي تتقدم الى الامـام • ويكون مجموع ما لديه ضد البطارية العدوة :

٢٤ قطعة من الحرس
٣٠ من فرقة « كومبان »
٨ من فرقتي « ديسيكس » و « فريان »
المجموع ٦٢ قطعة •

« يتمركز الجنرال « فوشيه » قائد مدفعية الوحدة الثالثة بكل مدافع الوحدتين الثالثة والثامنة ، وعددها ستة عشر ، حول المدفعية التي تدك المعقل الايسر ، ويكون المجموع أربعـين مدفعا ضد هذه البطارية •

« يكون الجنرال « سوربييه » مستعدا ، عند أول أمر ، للانفصال عن الحرس بكل المدافع ليتقدم الى هذا المعقل أو ذاك •

« يتقدم الامير « بونياتوسكي »[1] ، أثناء القصف المدفعي ، الى

(١) بونياتوسكي : الامير جوزيف بانياتوسكي ( ١٧٦٢ ـ ١٨١٣ ) ابن أخ آخر ملوك بولونيا، جنرال لامع كان يقود فرقة من الخيالة البولونيين في الجيش الاعظم . غرق في نهر الايلب أثناء انسحاب ليبزيغ .


@ketab_n @4_readers

القرية عبر الغابة ويلتف حول الموقع المعادي • ويسير الجنرال «كومبان» بحذاء الغابة للاستيلاء على أول معقل •

بعد أن ينشب القتال على هذا النحو ، تعطى الاوامر تبعا لتدابير العدو •

« يبدأ القصف على الجناح الايسر منذ أن يسمع قصف الجناح الايمن •

« ويبدأ رمي القناصة الشديد من فرقة « موران » وفرق نائب الملك حالما يرون أن هجوم اليمين بـدأ • يستولي نائب الملك على القرية[١] ، وينفذ الى المرتفع عن طريق جسورها الثلاثة ، في الوقت الذي يمضي فيه الجنرالان « موران » و « جيرار »[٢] بامرة نائب الملك الى احتلال معقل العدو والى تشكيل خط الجيش •

« ينفذ ذلك كله بنظام ومنهج مع مراعاة الاحتفاظ دائما بقدر كبير من الاحتياطي » •

« المعسكر ، على ميلين وراء « موجابيسك » ، ٦ أيلول ١٨١٢ » •

يحتوي هذا الترتيب الذي صيغ على نحو غامض ، مشوش ، اذا جاز لنا أن ننظر الى أوامر نابليون بدون ذلك الرعب المقدس أمـام عبقريته ، على أربعة تدابير • ولم ينفذ أي من هذه التدابير ، ولا يمكن تنفيذ أي منها •

انه ينص أولا على « **ان البطاريات المقامة في النقاط التي اختارها**

---

(١) بورودينو .

(٢) ايتيين جيراد ( ١٧٧٣ - ١٨٥٢ ) جنرال فرقة سنة ١٨١٢ ، كان يقود مؤخرة فيلق دافو أثناء الانسحاب . اصبح مارشالا فيما بعد .



@ketab_n @4_readers

نابليون ، وكذلك قطع « برنيتي » و « فوشيه » التي ستنضم اليها ، أي ما مجموعه مائة وقطعتان ، ستفتح النار وستمطر التحصينات والمعاقل الروسية بالقذائف » • ولا يمكن لذلك أن يتم لان القذائف لا تستطيع أن تصل الى التحصينات الروسية من النقاط التي عيّنها نابليون ، أي ان هذه القطع أطلقت نارها هدرا حتى عمد أقرب القادة الى تقديمها ، خلافا لاوامر نابليون •

وينص التدبير الثاني على أن « بونياتوسكي » يلتف على الجناح الايسر للروس ، وهو يتجه الى القرية عبر الغابة » • ولم ينفذ هذا التدبير ولا يمكن أن يُنفّذ لان « بونياتوسكي » عندما اتجه الى القرية عبر الغابة لقي « توتشكوف » يسد عليه الطريق ، ولم يلتف ، ولم يستطع أن يلتف ، على الموقع الروسي •

التدبير الثالث : « يسير الجنرال « كومبان » بحذاء الغابة للاستيلاء على اول موقع دفاعي روسي » • ولم تستول فرقة « كومبان » على هذا الموقع الدفاعي لكنها رُدّت على أعقابها ، لانه اضطر عند خروجه من الغابة الى اعادة تشكيل قواته تحت وابل من النيران ، وهو امر لم يدر بخلد نابليون •

النقطة الرابعة : « يحتل نائب الملك قرية « بورودينو » وينفذ من جسورها الثلاثة الى المرتفع في نفس الوقت الذي تبلغه فرقتا « موران » و « فريان » ( اللذين لم يذكر الترتيب متى واين يتحركان ) وتزحفان تحت قيادته للاستيلاء على المعقل وتشكيل خط الجيش » •

والذي يمكن أن نفهمه ــ لا من هذا النص الغامض ، بل من المحاولات التي حاولها نائب الملك لتنفيذ الاوامر الصادرة اليه ــ أنه



@ketab_n @4_readers

كان عليه أن يزحف على المعقل من اليسار بعد عبور « بورودينو ، بينما كان ينبغي لفرقتي « موران » و « فريان » أن تهاجما هجوما جبهيا .

ولم يُنفَّذ شيء من ذلك ، كما لم تنفذ بقية نقاط الترتيب القتالي ، ولا يمكن تنفيذ شيء منه.فبعد ان اجتاز نائب الملك « بورودينو » صُد الى الكولوتشا ولم يستطع ان يتقدم بعد ذلك ، بينما لم تحتل فرقتا « موران » و « فريان » المعقل وانما دُحرتا ، ولم يتم الاستيلاء عليه الا في نهاية المعركة على أيدي الخيالة ( وهو شيء لا يُصدَّق ، ومن المؤكد أن نابليون لم يتوقعه ) . وهكذا فان تعليمات هذا التدبير لم تُنفَّذ ولم يكن ممكنا تنفيذها . ولقد ذكر في هذا الترتيب أن المعركة ما ان تنشب ، حتى تصدر الاوامر تبعا لتحركات العدو ، وذلك يعني أن نابليون سيتخذ أثناء المعركة كل التدابير الضرورية ، ولم يحدث شيء من هذا ولم يكن ذلك ممكنا ، لان نابليون كان بعيدا عن المعركة ( كما ثبت ذلك فيما بعد ) الى الحد الذي لا يتيح له الاطلاع على سير العمليات والذي لا يمكن فيه تنفيذ أي من أوامره الصادرة أثناء المعركة.



@ketab_n @4_readers

# الفصل الثامن والعشرون

يقول كثير من المؤرخين : ان الفرنسيين لم يربحوا معركة « بورودينو » لان نابليون أصيب بزكام ، وأنه لو لم يُصَب بزكام لكانت تدابيره اثناء المعركة وقبلها أحفل بالعبقرية ، ولانهارت روسيا ولتغيير وجه العالم . وبالنسبة الى المؤرخين الذين يعتقدون أن روسيا تكوّنت بمشيئة رجل واحد ، هو بطرس الاكبر ، وأن فرنسا تحوّلت من جمهورية الى امبراطورية وأن الجيوش الفرنسية سارت الى روسيا بمشيئة رجل واحد ، هو نابليون ، تغدو المحاكمة التي تقول : ان روسيا ظلّت قوية لان نابليون أصيب بزكام قوي ، محاكمة منطقية لا سبيل الى الطعن عليها .

واذا كان يتوقف على مشيئة نابليون أن أخوض أو لا يخوض معركة بورودينو ، واذا كان يتوقف على مشيئته أن يتخذ هذا التدبير أو ذاك ، فمن البديهي أن زكاما قويا يؤثر في مظاهر مشيئته قد يكون سببا في خلاص روسيا ، وبالتالي فان الخادم الذي نسي أن يقدم الى نابليون ، في ٢٤ آب ، حذاءه الواقي كان منقذ روسيا . هذه النتيجة لا مراء فيها ، في هذا النمط من المحاكمة ، كما أنه لا مراء في النتيجة التي توصّل اليها فولتير مازحا ( دون أن يعلم هو نفسه ممن كان يسخر ) حين قال :

ان سبب مذبحة « سان بريتليمي » عسر هضم أصاب شارل التاسع . ولكن بالنسبة الى الذين لا يُسلّمون أن تكون روسيا قد تكونت



@ketab_n @4_readers

بمشيئة رجل واحد ، هو بطرس الاول ، وأن تكون فرنسا قد تكونت وأن تكون الحرب قد شُنّت بمشيئة رجل واحد ، هو نابليون ، بالنسبة الى هؤلاء لاتبدو تلك المحاكمة عارية من الصحة والمنطق فحسب ، بل انها تبدو أيضا منافية للطبيعة البشرية • وردا على السؤال الذي يطمح الى معرفة سبب الاحداث التاريخية ، هناك جواب آخر يعرض لنا : وهو أن سير الاحداث في هذا العالم مقرر سلفا من فوق ، وأنه منوط بتضافر جميع ارادات البشر الذي يشاركون في تلك الاحداث وأن تأثير نابليون في سير هذا الاحداث ليس سوى تأثير خارجي ظاهري •

ومهما يبد غريبا لاول وهلة زعمنا أن مذبحة « سان برتيليمي » التي أمر بها شار التاسع لم تكن من فعل مشيئته ، وانما كان يعتقدفقط أنه أمر بها ، وأن مذبحة « بورودينو » التي قتل فيها ثمانون الف رجل لم تكن من فعل مشيئة نابليون ( مع أنه هو الذي أصدر الاوامر لشن المعركة وسيرها ) ، وانما كان يعتقد فقط أنه أمر بها ، مهما تبد هذه الفرضية غريبة ، فان الكرامة الانسانية التي تُقرأن كل واحد منا لا يقلّ — ان لم يزد — عن نابليون الكبير ، تجبرنا على قبول هذا الحل للمشكلة ، والابحاث التاريخية تؤيد ذلك تأييدا واسعا •

ان نابليون ، في معركة « بورودينو » ، لم يطلق النار على أحد ولم يقتل أحدا • وكان كل ذلك من صنع جنوده • وبالتالي ، فليس هو الذي قتل •

ان جنود الجيش الفرنسي قتلوا جنودا روسا في « بورودينو » ، لا بمقتضى أوامر نابليون ، ولكن بملء ارادتهم • ان الجيش بأسره ، أي



@ketab_n @4_readers

أن الفرنسيين والايطاليين والالمان والبولونيين الذين أضر بهم الجــوع والعري والكلال ، كانوا يحسون ، ازاء الجيش الذي كان يسدّ طريق موسكو ، ان « **النبيذ قد صفّي وانه يجب أن يشرب** » . ولو ان نابليون منعهم الآن من قتال الروس لقتلوه وانطلقوا الى المعركة لانهم لا يستطيعون ان يفعلوا غير ذلك .

وعندما قرىء عليهم أمر نابليون الذي مناهم ، عوضا عن جراحهم وموتهم بعزاء هوان الاجيال الآتية ستتحدث عنهم قائلة : انهم كانوا في المعركة عند جدران موسكو ، هتفوا : **عاش الامبراطور !** كما هتفوا **عاش الامبراطور !** لدى رؤيــة صورة الصبي الذي يثقب الكــرة الارضــية بعصاه الصغيرة ، وكما كانوا سيهتفون : عاش الامبراطور ! لاية حماقة ستقال لهم . لم يبق عليهم ما يفعلونه الا أن يهتفوا : عاش الامبراطور ! وأن يذهبوا للقتال ليجدوا في موسكو الغــذاء وراحــة المنتصرين . وبالتالي فانهم لم يقتلوا أمثالهم بمقتضى أوامر نابليون .

وليس نابليون هو الذي كان يقود المعركة ، اذ لم تُنفّذ أية نقطة من ترتيبه القتالي ، ولم يكن يعلم ، أثناء المعركة ، ما كان يجري أمامه . وبالتالي ، فكون هؤلاء الناس قد اقتتلوا لم تحدده مشيئة نابليون ، وانما جرى خارجا عنه ، بارادة مئات آلاف الرجال الذين شاركوا في المعركة . وان كان نابليون يعتقد أن كل شيء جرى بمشيئته . ولذلك فان معرفة ما اذا كان مصابا بالزكام أو لم يكن مسألة لاتنطوي على قدر من الأهمية ، بالنسبة الى التاريخ ، أكبر من زكام أي جندي عادي .

في السادس والعشرين من آب ، كان زكام نابليون من قلة الشأن بحيث أن المؤرخين الذين زعموا أن الترتيب القتالي والاوامر الصادرة



@ketab_n @4_readers

أثناء المعركة كانت ، على أثر هذا الزكام ، أدنى من سابقاتها يخطئون كل الخطأ .

ان الترتيب القتالي الذي ذكرنا نصه آنفا لم يكن أدنى في شيء من الترتيبات السابقة ، بل انه كان أفضل من جميع الترتيبات السابقة التي بفضلها تحقق النصر في المعارك . والاوامر التي يزعم أنها أعطيت أثناء المعركة لم تكن أدنى من غيرها في شيء ، بل كانت بالضبط على ما كانت عليه من قبل . وانما بدت هذه الترتيبات والاوامر أدنى من سابقاتها لان معركة « بورودينو » كانت أول معركة لا ينتصر فيها نابليون . ان أكثر الترتيبات والاوامر كمالا وأعمقها نضجا وتفكيرا تبدو رديئة ، وترى كل خبير عسكري ينتقدها انتقاد العالم البصير ، اذا لم تفض الى النصر ، وأردأ الترتيبات والاوامر تبدو ممتازة ، ويكرس لها كتاب رصينون مجلدات كاملة للاشادة بمحاسنها ، اذا اتاحت الظفر بالمعركة .

ان الترتيب الذي صاغه « ويروذر » في « اوسترليتس » كان نموذجا لهذا النوع ، ومع ذلك فقد كان هدفا للطعن بسبب كماله ودقة تفاصيله .

لقد قام نابليون بدوره في « بورودينو » دور ممثل السلطة ، على النحو الذي قام به في سائر المعارك بل على نحو أفضل . فلم يفعل ما يسيء الى سير المعركة ، ووقف الى جانب الآراء المعقولة ؛ لم يعقد الاشياء ولم يناقض ذاته ، ولم يخف ، ولم يهرب من ساحة القتال ، لكنه ، بما اوتي من حصافة عظيمة ومن تجربة واسعة في الحرب قام بدوره الظاهر كقائد بهدوء وجدارة .



@ketab_n @4_readers

# الفصل التاسع والعشرون

قال نابليون بعد عودته من تفقد ثان متأن للخطوط :

ــ صففت القطع على رقعة الشطرنج ، واللعبة تبدأ غدا .

وبعد أن تناول شراب « البنش » واستدعى « بوسيه » تحادثا عن باريس ، وعن بعض التغييرات التي ينوي اجراءها في **بيت الامبراطورة** ، وأدهش المحافظ بتذكره لاصغر الاشياء في القصر .

أبدى اهتماما بمسائل تافهة ، ومازح « بوسـيه » حول شغفه بالاسفار وحدثه بطلاقة عن جراح شهير ، واثق بنفسه ، خبير بمهنته ، يشمر عن كميه ويلبس مئزره في الوقت الذي يوضع فيه المريض على مائدة العمليات . « القضية كلها بين يدي ، وفي رأسي ، واضحة جلية . فاذا ما شرعت في العمل قمت به خيرا من أي انسان . وفي هذه الاثناء استطيع أن أمزح ، وكلما مزحت ازددت هدوءا ، ووجب عليكم أن تزدادوا ! ثقة وهدوءا واعجابا بعبقريتي . »

عندما انتهى نابليون من قدحه الثاني . ذهب ليستريح قبل القضية الخطيرة التي كانت في اعتقاده ، تنتظره غدا .

لقد أهمته هذه القضية الى الحد الذي لم ينم معه ، بالرغم من زكامه الذي تفاقم بسبب رطوبة المساء ، وفي الساعة الثالثة صباحا عاد، وهو يتمخط بشدة ، الى الحجرة الكبرى في خيمته . وسأل ان كان



@ketab_n @4_readers

الروس قد ذهبوا • فأجابوه أن نيران العدو ماتزال في المواضع نفسها فأومأ برأسه ايماءة الاستحسان •

دخل الخيمة المساعد العسكري المناوب ، فسأله نابليون :

**ـ ما رأيك ، يا « راب »(١) ، اتعتقد أننا سنحسن العمل هذا اليوم ؟**

فأجاب « راب » :

**ـ بلا شك ، يا مولاي •**

نظر اليه نابليون ، وتابع « راب » كلامه :

**ـ اتذكر ، يا مولاي ، ما شرفتني بقوله في سمولنسك : صُفي النبيذ ويجب ان يُشرب •**

قطب نابليون حاجبيه ، وظل صامتا زمنا طويلا ، وقال فجأة :

**هذا الجيش المسكين ، لقد تناقص منذ « سمولنسك » • ان الحظ عاهرة حقيقية ، يا « راب » • قلت ذلك دائما وبدأت أعانيه •**

وأضاف بلهجة مستفهمة :

**ـ لكن الحرس ، يا « راب » ، الحرس سليم ؟**

أجاب « راب » :

**ـ نعم ، يا مولاي •**

أخذ نابليون حبة ، ووضعها في فمه وتطلع الى ساعته •

---

(١) جان راب ( ١٧٧٢ ـ ١٨٢١ ) جنرال مساعد عسكري لنابليون منح لقب كونت في سنة ١٨٠٩ ، وجرح في بورودينو .



@ketab_n @4_readers

لم يكن يحس بالنعاس ، وكان الصباح بعيدا ؛ ولم يبق هناك تدابير يتخذها ويقتل بها وقته ، ذلك أن جميع الاوامر بلغت وهي في سبيلها الى التنفيذ .

وسأل « راب » بلهجة صارمة :

**ـ هل وزع البسكويت والرز على افواج الحرس ؟**

**ـ نعم ، يا مولاي ؟**

**ـ والرز ؟**

أجاب « راب » بأنه نقل أوامر الامبراطور بصدد الرز ، لكن نابليون هز رأسه مستاء ، وكأنما كان يشك في أن يكون أمره قد نفذ . وحمل اليه خادم شيئا من « البنش » . فأمر بقدح آخر لراب واحتسى قدحه بصمت وبجرعات صغيرة .

ـ قال وهو يرتشف قدحه :

ـ فقدت حاستي الشم والذوق . أعياني هذا الزكام . الناس يتحدثون عن الطب . ماذاك الطب الذي لايستطيع أن يشفي زكاما ؟ أعطاني « كورفيزار » هذه الحبوب ، لكنها لاتفعل شيئا . ما الذي يستطيعون أن يشفوه ؟ لا يمكن ان نشفى . **فجسدنا آلة للحياة . وهو منظم لهذه الغاية ، هذه طبيعته ؛ دع الحياة حرة فيه ، ولتدافع عن ذاتها بذاتها ؛ سيكون عملها افضل مما لو شللناها ونحن نربكها بالادوية . ان جسدنا مثل ساعة كاملة تعمل لبعض الوقت ؛ وليس للساعاتي القدرة على فتحها ، وهو لا يستطيع أن يعالجها الا تلمسا وعيناه معصوبتان . جسدنا آلة للحياة ، هذا كل ما في الامر .**



@ketab_n @4_readers

وكأنما طاب له السير في طريق التعريفات التي يحبها ، فاذا به يخرج بهذا التعريف الجديد وهو يسأل « راب » : أتدري ، يا « راب » مافن الحرب ؟ انه الفن في أن تكون أقوى من عدوك في لحظة ما . هذا كل مافي الامر .

ثم قال :

**ـ سنواجه « كوتوزوف » غدا ! وسنرى ! انت تذكر انه كان يقود الجيش في « برونو » ولم يعتل صهوة جواده مرة واحدة ، طوال ثلاثة اسابيع لكي يتفقد المواقع الدفاعية . سنرى !**

ونظر الى ساعته مرة ثانية . كانت الساعة هي الرابعة . لم يَغشه النعاس ، وشرب قدحه ، ولم يجد ما يفعله . فنهض ، وخطا خطوات ، وارتدى سترته الرسمية ، وخرج من الخيمة . كان الليل مظلما ، رطبا ؛ وأخذ الضباب الذي لا يكاد يرى ، ينتشر . وكانت نيران معسكر الحرس تشتعل ببطء على مقربة منه ، وعلى البعد كانت تلتمع ، خلال الدخان ، نيران أخرى على طول الخطوط الروسية . كان كل شيء هادئا ، وكان يُسمع بجلاء ضجيج أصم آت من وطء القطعات الفرنسية السائرة لاحتلال مواقعها .

خطا نابليون خطوات ، ونظر الى النيران ، وأصاخ السمع الى وقع الخطوات ، فلما مر بأحد رماة الحرس الذي كان يقوم بالحراسة أمام خيمته والذي تجمد كأنه عمود أسود لدى ظهور الامبراطور ، وقف أمامه وسأله بتلك الخشونة العسكرية والمتوددة التي كان يصطنعها دائما وهو يخاطب الجنود :

ـ كم سنة أمضيت في الخدمة ؟



@ketab_n @4_readers

فأجاب الحارس :

ـ **آه انا واحد من القدماء ...**

ـ هل وُزع عليكم الرز في الفوج .

ـ نعم ، يا مولاي .

فأومأ اليه نابليون برأسه ومضى .

في الخامسة والنصف ، اتجه نابليون على حصانه الى قرية « شيفاردينو » .

كان الفجر يبزغ ، وكانت السماء قد صفت ، ولم يبق في المشرق سوى سحابة واحدة . واوشكت نيران المعسكرات المهجورة على الهمود في ضوء الصباح الخافت .

دوت ، في الجهة اليمنى ، طلقة مدفع قوية ووحيدة ، انتشرت وتلاشت في الصمت المطبق . وانقضت لحظات . ودوت طلقة ثانية ، ثم ثالثة هزتا الفضاء ، وانطلقت رابعة وخامسة ، قريبتين وجليلتين ، في مكان ما ، على اليمين .

لم تنته الانفجارات الاولى حتى تلتها انفجارات أخرى ، الى أن اختلطت بعضها ببعض وتمازجت .

وصل نابليون ومعه حاشيته الى معقل « شيفاردينو » وترجل . لقد نشب القتال .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الثلاثون

عندما عاد بطرس الى غوركي بعد أن ترك الامير آندره ، أمر سائسه أن يُجهّز الخيل وأن يوقظه في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، ثم نام من فوره في الركن الصغير الذي تركه له « بوريس » .

عندما استيقظ في اليوم التالي ، لم يكن في الخص أحد . كان زجاج النوافذ الصغير يهتز . وكان السائس يهزه ، وهو يشده من كتفه دون أن ينظر اليه ، ويكرر بلا كلل ، وكأنما يئس من ايقاظه :

ـ يا صاحب السعادة ، يا صاحب السعادة ، يا صاحب السعادة ..

قال بطرس وهو يستيقظ :

ـ ماذا ؟ هل بدأت ؟ هل حان الوقت ؟

قال السائس وهو جندي سابق :

ـ أنت تسمع قصف المدفعية ، يا صاحب السعادة . لقد انصرف كل هؤلاء السادة ، ومر صاحب الرفعة نفسه منذ زمن طويل .

لبس بطرس ثيابه على عجل وخرج الى درج المدخل . كانت الصبيحة مشرقة ، بهيجة ، يرطبّها الندى . وعمدت الشمس الى سحابة كانت تغطيها ، فمزقتها وغمرت بأشعتهاالتي مايزال نصفها محجوبا سقوف الجهة الاخرى من الشارع ، وغبار الطريق المغطى بالندى ، وجدران البيوت ، وفتحات السياج ، وخيله التي كانت تقف قرب



@ketab_n @4_readers

الكوخ الخشبي . كان دوي المدافع أوضح في الخارج . ومر مساعد عسكري يتبعه قوزاقي خببا في الشارع ، وهتف به :

ـ حان الوقت ، يا كونت ، حان الوقت !

امر بطرس أن يتبعه حصانه ، ودلف الى الشارع باتجاه الاكمة الذي تأمّل منها ، بالامس ، ساحة المعركة . رأى هناك جمهورا من العسكريين ، وسمع ضباط الاركان يتكلمون بالفرنسية ، وشاهد رأس « كوتوزوف » الاشيب مغطى بقلنسوة بيضاء عليها شريط أحمر ، وقد غرق قذاله بين كتفيه . وكان ينظر بالمنظار المقرب أمامه ، باتجاه الطريق الرئيسية .

بعد أن صعد بطرس الدرجات التي تفضي الى الاكمة نظر فتملكه الاعجاب بجمال المنظر الذي بدا لعينيه . كان المنظر نفس المنظر الشامل الذي أعجب به بالامس ، لكنه كان مغطى بالجند وبدخان الانفجارات، وكانت الاشعة المائلة المنبعثة من الشمس الساطعة التي راحت تشرق خلفه والى اليسار منه قليلا ، تنشر في هواء الصباح النقي ، ضوءا باهرا ، مذهبا ، ورديا ، تخدده ظلال سوداء طويلة . وكانت الغابات البعيدة التي ينتهي بها المنظر الشامل تبدو وكأنها منقوشة في حجر كريم أخضر ضارب الى الصفرة ، وتلقي على الافق خط ذراها المتعرج الذي تقطعه وراء « فالويفو » طريق سملنسك الكبرى المغطاة بالجند . ومن دونها كانت تتلألأ حقول مذهبة وحرجات . واينما تطلّع المرء ، الى اليمين ، والى الشمال ، وأمامه ، رأى الجند . كان كل ذلك مليئا بالحركة وبالجلال وبكل طارىء جديد ؛ لكن أعظم ما أذهل بطرس كان ساحة القتال ذاتها ، من « بورودينو » الى المسيل فوق الكولوتشا،



@ketab_n @4_readers

وفي « بورودينو » من كلا الجانبين ولاسيما الى الشمال ، حيث يصب « فوينا » في الكولوتشا ، بين ضفتين سبخيتين ، كانت تمتد ضبابة من ذلك الضباب الذي يذوب وينتشر ويتقزّح لدى ظهور الشمس الساطعة، مسبغا ألوانا وحواشي سحرية على كل ما يشف عنه • وكان دخان الانفجارات يمتزج بهذه الضبابة ، وفي هذه الضبابة وهذا الدخان كان ضوء الصبح يبرق على الماء حينا ، وعلى الندى حينا آخر ، وأحيانا على حراب الجند الذين يزدحمون على الضفتين وفي « بورودينو » • وخلال هذه الغشاوة كانت تشاهد الكنيسة البيضاء ، وسطوح « بورودينو » هنا ، وكتل « متراصة » من الجنود هناك ، وصناديق خضراء ومدافع في امكنة أخرى • وكان كل ذلك يتحرك أو يبدو كأنه يتحرك ، لان الضبابة والدخان كانا يلفّان هذا الفضاء لفا • ففي الأغوار قرب « بورودينو » ، وفي الاعالي ولا سيما الى اليسار ، وعلى طول خط القتال ، وعلى الغابات والحقول ، وفي المنخفضات والمرتفعات ، كانت لاتني تتولد تلقائيا أمواج من دخان المدافع ، منفردة حينا ، ومتجمّعة حينا آخر ، متباعدة تارة ، ومتقاربة تارة اخرى ، امواج تنتفخ ، وتضخم وتدوّم ، وتتمازج وترتفع فوق كل هذا الفضاء •

ان هذه الادخنة والانفجارات التي ترافقها كانت تكوّن ـ وهو أمر غريب ـ العنصر الاساسي في جمال المشهد •

« بوف ! » ويبدو فجأة دخان مستدير متماسك يبرق فيه اللون الخبازي والرمادي والابيض ، وبعد ثانية « بوم ! » ، وهو الصوت الذي آذن به الدخان •

« بوف ـ بوف ! » دخانان يصعدان ، ويتدافعان ، ويمتزجان ،



@ketab_n @4_readers

و « بوم ـ بوم » صوتان يأتيان ليؤكدا ما رأته العيون .

التفت بطرس الى الدخان الاول الذي كان مستديـرا متماسكا كالكرة ، فرأى مكانها حلقات تمتد جانبيا ، و « بوف » ... ( ثم بعد فترة ) ، « بوف ـ بوف » ، وثلاث أخر ، وأربع أخر ، وكل واحـدة تجاوبها ، مع الفترات الزمنية نفسها ، أصوات جميلة ، رنانة ، قوية : بوم ... بوم ـ بوم ـ بوم . كانت الادخنة كأنما تتراكض تارة ، وتظل ساكنة تارة أخرى لتتراكض أمامها الحقول والغابات والحراب اللامعة . والى اليسار ، على طول الحقول والادغال ، كانت لاتني تتولد هـذه الادخنة الضخمة تتبعها أصداؤها الجليلة ، وعلى مسافة أقرب ، في الأغوار والغابات ، كانت تنبعث أدخنة البنادق الصغيرة التي لا تجـد الوقت لتستدير والتي لها مع ذلك أصداؤها الخفيفة . ترا ـ تا ـ تا ـ كذلك كانت تفرقع البنادق فرقعة متصلة لكنها غير منتظمـة وهزيلـة بالقياس الى طلقات المدافع .

اشتهى بطرس أن يكون في وسط هذه الأدخنة ، وهذه الحـراب المتلألئة ، وهذه الحركة ، وهذه الاصـوات . وألقـى نظـرة على « كوتوزوف » وحاشيته ليقيس مشاعره بمشاعر الآخرين . كانـوا جميعا مثله يتأملون ساحة القتال أمامهم ، وبدا له أنهم يحملون الشعور نفسه . فعلى جميع الوجوه كانت تشع الآن هذه الحرارة الكامنـة ، حرارة الشعور التي لاحظها بالامس وفهمها فهما كاملا بعد حديثه مـع الامير آندره .

قال « كوتوزوف » لجنرال كان يقف بجنبه ، دون أن يرفع عينيه عن ساحـة القتال :



@ketab_n @4_readers

ـ امضِ ، يا عزيزي ، امضِ ، في رعاية الله !

مرّ الجنرال أمام بطرس ، بعد تلقي الامر ، لينزل الأكمة • وقال ببرودة وجفاء ردا على سؤال ضابط من الاركان سأله الى أين يذهب :

ـ الى معبر النهر !

قال بطرس في نفسه وهو يتبعه : « وأنا أيضا ، وأنا أيضا »

امتطى الجنرال الجواد الذي قاده قوزاقي • واقترب بطرس من سائسه وسأله عن أهدأ جياده ، فامتطى صهوته ، وتشبث بعرفه ، وشد بكعبيه على بطنه ، وأحسّ أنه فقد نظارتيه وأنه عاجز عن أن يرخي عرف الجواد وأن يرفع ساقيه عن خاصرتيه ، فجرى في اثر الجنرال ، مثيرا الابتسامات بين ضباط الاركان الذين كانوا ينظرون اليه من أعلى الأكمة •



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الحادي والثلاثون

بعد أن نزل الجنرال الذي تبعه « بطرس » السفح ، استدار فجأة الى اليسار وغاب عن نظر بطرس ، فاذا ببطرس يُسابق عدوا الى صفوف الفرسان الذين كانوا يسيرون أمامه ، ويحاول أن يتخلّص يمينا أو شمالا أو الى الامام لكنه كان يلقى الجند أينما توجه ، بوجوههم التي تنطق بهم متماثل وقد شغلهم شاغل لايرى ، لكنه عظيم الشأن حقا . وكانوا جميعا ينظرون باستياء وتساؤل الى هذا الرجل الضخم ذي القبعة البيضاء الذي ، لايعلم الا الله ، لمَ جاء يطؤهم بحصانه .

وصرخ أحدهم :

ـ ماذا جاء يفعل في وسط الفوج ؟

ودفع جندي آخر بعقب البندقية حصان بطرس فانحرف الحصان جانبا ، وحمل بطرس حَملا الى الامام حيث كانت الطريق خالية ، وهو متشبث بقربوس السرج ، لايكاد يكبح جماح جواده .

كان أمامه جسر ، وقرب الجسر جنود آخرون يطلقون النار ، فاتجه بطرس اليه . لقد وصل ، وهو لايعلم ، الى جسر الكولوتشا الواقع بين « غوركي » و « بورودينو » والذي هاجمه الفرنسيون في المرحلة الاولى من المعركة ( بعد أن احتلوا « بورودينو » ) . رأى بطرس أن أمامه جسرا ، وأن على جانبي الجسر وفي المرج بين انضاد الحشيش



@ketab_n @4_readers

المحصود التي شاهدها بالامس ، جنودا يفعلون شيئا في الدخان ؛ لكن بالرغم من التراشق المستمر في هذا الموضع ، فانه لم يَدرْ بخلده أن هاهنا ساحة القتال بالذات • لم يكن يسمع الرصاص الصافر من كل جانب حوله ، ولا القذائف المارة فوق رأسه ، ولم يكن يرى العدو على الضفة الاخرى ، وظل زمنا قبل أن يرى القتلى والجرحى يتساقطون من حوله • كان يطوف بنظره من حوله والابتسامة لاتفارق شفتيه •

وصرخ أحد الجنود :

ــ ماذا يفعل أمام الخطوط ، هذا الرجل ؟

وصاح به الجنود :

ــ خذ يسارك ، يمينك •••

وأخذ بطرس يساره واذا به يلقى مساعدا عسكريا للجنرال « رايفسكي » كن يعرفه • حدجه المساعد العسكري بنظرة غضبى ، وأوشك أن يُعنّفه لولا أن عرفه ، فأومأ اليه برأسه وقال له ، وهو يتابع طريقه عدوا :

كيف جئت الى هنا ؟

واذ أحس بطرس انه ثقيل الظل ، عديم الفائدة ، واذ خشي أن يضايق أحدا مرة أخرى ، تبع المساعد العسكري وسأله :

ــ ماالذي يجري هنا ؟ أأستطيع أن أرافقك ؟

فردّ عليه المساعد العسكري :

ــ سآتي على الفور ، على الفور •

ومضى على جواده بأقصى سرعة الى عقيد ضخم واقف وسط المرج،



@ketab_n @4_readers

ونقل اليه الامر ، وعاد بعد ذلك الى بطرس ، وسأله وهو يتبسم :

ـ ماذا جئت تفعل هنا ، يا كونت ؟ أما زلت محبا للاستطلاع ؟

أجاب بطرس :

ـ نعم ، نعم •

لكن المساعد العسكري ثنى عنان جواده وهم بالانصراف ، وقال:

ـ الحالة حسنة هنا ، والحمد لله ، أما في الجناح الايسر ، عند « باغراتيون » فقد حمي وطيس القتال •

قال بطرس :

حقا ؟ وأين ذلك ؟

فقال المساعد العسكري :

ـ تعال معي الى الأكمة ، فالرؤية حسنة من عندنا • وما يزال الامر محمولا ، في البطارية عندنا • ماذا ، هل تأتي ؟

قال بطرس وهو يفتش بعينيه عن سائسه : ،

ـ نعم ، سأتبعك • وحينئذ لاحظ بطرس لاول مرة الجرحى الذين كانوا يجرون أنفسهم أو الذين كانو يُحملون على النقالات • وفي المرج الاخضر الذي اجتازه بالامس ، بين أنضاد العشب الذكي الرائحة ، اضطجع جندي تدحرجت عَمرته على الارض، ساكنا لاحراك به ، وقد التوى رأسه على نحو غريب • وهم بطرس بالسؤال :

ـ وهذا ، لمَ لم يرفعوه من هنا ؟

لكنه عندما رأى الصرامة على وجه المساعد العسكري الذي كان ينظر الى الجهة نفسها ، لاذ بالصمت •



@ketab_n @4_readers

لم يجد « بطرس » خادمه ، فاتجه بصحبة المساعد العسكري الى أكمة « رايفسكي » . وكان جواده يجد عنتا في اللحاق بالمساعد العسكري ويهزه هزا منتظما .

سأله المساعد العسكري :

ــ اعتقد أنك لم تتعود ركوب الخيل ، ياكونت ؟

فرد بطرس وهو حائر :

ــ بلى ، لكنني لا أعلم لمَ يطفر الجواد طفرا .

قال المساعد العسكري :

ــ ايه ! ... لكنه جريح في ساقه اليمنى ، فوق الركبة . انها رصاصة ، ولا شك ، اهنئك ، أيها الكونت ، **فهذا عماد النار** .

وبعد أن تجاوزا خلال الدخان الفيلق السادس ، خلف المدفعية المتقدمة التي كان قصفها يصم الآذان ، بلغا غابة صغيرة ، صامتة ، تنبعث منها رائحة الخريف . فنزلا عن جواديهما ليصعدا السفح مشيا . وسأل المساعد العسكري وهو يقترب من الاكمة :

ــ هل الجنرال هنا ؟

فأجابه أحدهم وهو يشير الى اليمين :

ــ كان هنا منذ برهة ، ثم ذهب .

وألقى المساعد العسكري نظرة على بطرس وكأنما كان يتساءل عما ينبغي أن يفعله به . قال بطرس :

ــ لاتبال . سأصعد الاكمة ، أأستطيع ذلك ؟

ــ نعم ، ويمكن أن يُرى كل شيء منها بدون كبير خطر . وسأعود اليك .



@ketab_n @4_readers

اتجه بطرس نحو البطارية وتابع المساعد العسكري طريقه • ولم يُتح لهما اللقاء بعد ذلك ، الا ان بطرس علم في وقت متأخر ، أن هذا المساعد العسكري فقد ذراعه في هذا اليوم •

كانت الاكمة التي علاها بطرس هي النقطة الشهيرة التي سقط حولها عشرات آلاف الرجال والتي كان الفرنسيون يعتبرونها مفتاح الموقع • ( وقد عُرفت الاكمة فيما بعد ، لدى الروس ، باسم بطارية التل أو بطارية « رايفسكي » ، ولدى الفرنسيين ، **باسم المعقل الاكبر ، والمعقل المشؤوم ، ومعقل المركز** ) •

كان المعقل عبارة عن تل حُفرت حوله خنادق من الجهات الثلاث• ومن المرابض التي تحف بها هذه الخنادق كانت عشرة مدافع تطلق نيرانها من كوى السترة الامامية •

وعلى نسقها ، كانت مدافع أخرى لاتكف عن الرمي ، من جانبي الاكمة • ووراءها قليلا تمركزت قطعات المشاة • عندما تسلق بطرس الاكمة ، لم يكن يتوهم البتة أن المرابض التي تحف بها خنادق صغيرة هي أهم نقطة في المعركة • ــ

بل لقد بدا له ( وبسبب وجوده هناك بالذات ) أنها كانت من المواقع التي لاشأن لها •

عندما بلغ بطرس أعلى الاكمة ، جلس على حافة الخندق الذي يحيط بالبطارية ونظر الى ما كان يجري حوله ، وعلى وجهه ابتسامة لاشعورية ، سعيدة • وكان ينهض ، بين الوقت والآخر ، ويتجول في



@ketab_n @4_readers

البطارية ، دون أن تفارقه البسمة ، جاهدا ألا يضايق الجنود الذين كانوا يمرون قدامه وهم يركضون ومعهم الاكياس وحشوات المدافع • لم تكن المدافع تكف عن الرمي الواحد تلو الآخر مصحوبة بدوي يصم الاذان • ومخلفة دخانا يلف كل ما يحيط بها •

وفي مقابل القلق الذي كان يبدو لدى المشاة من قطعات التغطية ، كان يحس المرء هنا ، في البطارية ، حيث كان عدد ضئيل من الرجال العاكفين على عملهم منفصلين ، منعزلين عن الآخرين بالخنادق ، كان يحس لدى الجميع بحيوية متشابهة ، اجماعية ، وكأنها حيوية الاسرة الواحدة •

في بادىء الامر ، أحدث ظهور بطرس البعيد عن الطابع العسكري بقبعته البيضاء ، مفاجأة غير سارة لدى هؤلاء الرجال • وكان الجنود يحدجونه بنظرة مدهوشة بل ومروعة • وقد اقترب منه آمر البطارية ، وهو رجل طويل ، مجدور ، طويل الساقين ، بحجة التحقق من عمل المدفع الجانبي ، ونظر اليه مستغربا •

وخاطبه بقسوة ضابط آخر ، وهو فتى مدور الوجه ، وكأنه طفل حقيقي ، متخرج حديثا من هيئة الطلاب العسكريين وكان يقود مع ذلك بكثير من الاندفاع المدفعين اللذين عُهد بهما اليه :

ــ أتسمح بالتنحي جانبا ، ياسيدي ، لايجوز البقاء هنا •

وكان جنود المدفعية يهزون رؤوسهم مستنكرين ، وهم ينظرون الى بطرس • لكنهم عندما تأكدوا من أن هذا الرجل ذا القبعة البيضاء لايسيء في شيء ، ولكنه يجلس بهدوء على الاكمة أو يتجول في المربض ، وعلى شفتيه ابتسامة خجلى ، متنحيا بأدب عن طريق الجند ، رابط



@ketab_n @4_readers

الجأش تحت وابل النار كما لو كان في الشارع ، راح شعورهم بالاستهجان المعادي ازاءه يخلي مكانه شيئا فشيئا لضرب من العطف القلبي اللاهي الذي يشعر به الجنود نحو الحيوانات التي تتبعهم : كالكلاب والديكة والماعز وغيرها . وما لبثوا أن رحبوا به ضمنا في أسرتهم وتبنّوه ، وأطلقوا عليه لقب « سيدنا » ، وراحوا يتفكهون به فيما بينهم تفكها رقيقا .

جاءت قذيفة فحفرت الارض على خطوتين من بطرس ، فنظر حوله مبتسما وهو ينفض التراب الذي أصاب ثيابه .

قال له جندي ربعة" أحمر الوجه ، تكشف ابتسامته عن أسنان صلبة ، بيضاء :

ـ كيف لم تخف ، يا سيدي ؟

فسأله بطرس :

ـ وأنت ، هل خفت ؟

أجابه الآخر :

ـ وكيف لا ! فالقذيفة لاترحم . واذا ما سقطت ألقت بأمعائك في الهواء .

وختم ضاحكا :

ـ لايمكن للمرء الا ان يخاف .

وقف بعض الجنود قرب بطرس ، ووجوههم تنطق بالود والمرح، وكأنما لم يكونوا ينتظرون أن يتكلم كما يتكلم الناس ، فابتهجوا بهذا الاكتشاف :



@ketab_n @4_readers

ـ انما نحن جنود ، أما السيد مثلك فمن المدهش ألاّ يخاف . هذا سيد حقا !

صاح الضابط الفتى بجنود المدفعية المتجمعين حول بطرس :

ـ الى مدافعكم !

لقد كانت هذه هي المرة الاولى او الثانية التي يؤدي فيها هذا الضابط الصغير مهماته ، ولذلك كان يكلم مرؤوسيه وقائده بلهجة جدّ دقيقة وجدّ رسمية .

كانت نار المدافع والبنادق المستمرة تشتد في جميع أرجاء ساحة القتال ، ولاسيما الى اليسار ، حيث تحصينات « باغراتيون » ، أما في الموضع الذي فيه بطرس ، فكان الدخان يحول دون رؤية أي شيء.. ثم ان هذه الحلقة العائلية الصغيرة ( المنعزلة عن الجميع ) التي كان يشكلها رجال البطارية استأثرت بانتباهه . ان تلك الحماسة الاولى التي امتلأت بفرح لاشعوري والتي أثارها فيه مشهد المعركة وضوضاؤها، تلاها الآن شعور آخر ، ولاسيما منذ أن رأى ذلك الجندي الراقد وحيدا في المرج . كان يراقب ، وهو جالس على الاكمة ، الوجوه التي تحيط به .

وفي نحو الساعة العاشرة حمل من البطارية مايقرب من عشرين رجلا ؛ ودمر مدفعان ، وازداد تساقط القذائف . وكانت الرصاصات الطائشة تئز وتصفر أكثر فأكثر . لكن رجال البطارية لم يكن يبدو عليهم أنهم يلاحظون ذلك ، فمن كل صوب كانت تعلو أحاديثهم المرحة وفكاهاتهم .

صرخ جندي حين رأى قنبلة تقترب وهي تَصفر :



@ketab_n @4_readers

ـ ها هي ذي !

وأضاف آخر وقد انفجر ضاحكا حين رآها تمر من فوقهم وتسقط في صفوف قطعات التغطية :

ـ لاتمري من هنا ! اذهبي الى المشاة !

قال ثالث ، وهو يضحك ، لمتطوع انحنى عند مرور القذيفة :

ـ أراك تنحني ، أهي من معارفك ؟

واجتمع عدد من الجنــود حول السترة الامامية ليروا ما يجري أمامهم • قال بعضهم وهو يشير الى شيء من فوق السترة الامامية :

ـ لقد أرجعوا خطوطهم ، أترى  لقد تقهقروا •

صاح بهم ضابط صف عجوز :

ـ عليكم أنفسكم ، ولا تتدخلوا فيما لايعنيكم • اذا تراجعوا فلأن لهم عملا في الخلف •

وأمسك بأحد الجنود من كتفه ولطمه بركبته • فعلا الضحك • وصرخ صوت :

ـ هاتوا المدفع الخامس !

وصاح الذين كانوا يعيدون المدفع الى موضعه بمرح :

ـ هو ! هيس ، شدوا مجتمعين ، مثل ساحبي المراكب •

قال المزّاح ذو الوجه الاحمر وهو يُري أسنانه :

ـ آي ، كادت تذهب بقبعة سيدنا •

وأضاف بلهجة الاستنكار مخاطبا القذيفة التي ذهبت بعجلة المدفع وساق أحد الجنود :



@ketab_n @4_readers

ـ هيه ! يالكِ من مجنونة !

وتفكه آخر بالمتطوعين الذين كانوا يصعدون البطارية وهم ينحنون لحمل الجريح :

ـ ايه ، أيها الثعالب . لعل الحساء غير لذيذ ؟

وصاح بعضهم بالمتطوعين الذين ترددوا أمام الجندي ذي الساق المقطوعة :

ـ آه ، من هؤلاء الغربان ، لقد بدا عليهم التقزز .

وقال آخرون وهم يقلدونهم :

ـ وكيف ، ولماذا ، يا شباب ! أيشمئزون من ذلك !

لاحظ بطرس أن حيوية الجنود كانت تتصاعد بعد كل قذيفة تسقط ، وبعد كل خسارة تقع ...

وكما تنبعث البروق من السحب العاصفة ، متزايدة عددا وشدة ، كذلك كان اللهب الخفي ينتشر على وجوه هؤلاء الرجال جميعا . ( وكأنه رد يعدّل ما كان يجري ) .

لم يكن بطرس ينظر الى ساحة القتال أمامه ولم يكن يعنى بما يجري فيها : لقد ألهاه عن كل شيء آخر تأمل هذه الشعلة التي كانت تتسع شيئا فشيئا والتي أحس أنها أخذت تتقد في نفسه أيضا .

في الساعة السادسة تراجع المشاة المتمركزون أمام البطارية ، في الادغال وعلى طول الكامنكا . لقد شوهدوا ، من البطارية ، وهم يرتدّون راكضين ، حاملين جرحاهم على البنادق . وتسلق الأكمة جنرال مع حاشيته ، وبعد أن تبادل والعقيد بضع كلمات ، ألقى على



@ketab_n @4_readers

بطرس نظرة خاطفة وانحدر بعد أن أصدر أوامره الى قطعات التغطية المحتشدة خلف البطارية بالانبطاح ليكونوا أقل تعرضا النار • وبعد ذلك دو ى قرع الطبول في صفوف المشاة على يمين البطارية ، وسمعت أوامر ، وشوهد المشاة يتحركون الى الامام •

كان بطرس ينظر من فوق السترة الامامية • واسترعى انتباهه ، بخاصة ، وجه أحد الضباط • كان الضابط فتيا ، شاحب الوجه ، يمشي القهقرى ، خافضا سيفه ، ويجيل فيما حوله الطرف مروعا •

توارى رتل المشاة في الدخان ، وتناهى الى الاسماع صراخ ممتد وتراشق متلاحق • وفي غضون لحظات ، شوهدت جماعة من الجرحى والنقالات تعود • وأخذت القذائف تنهمر على البطارية • وكان بعض الرجال صرعى هنا دون أن يرفعهم أحد • ومن حول المدافع ، كان السدنة يستعجلون ويضاعفون من نشاطهم ، وقد غفلوا عن بطرس • وصرخ به الجنود بشيء من الغضب ، مرة أو مرتين ، لكي يحيد عن الطريق• وراح آمر البطارية يتنقل ، بخطى واسعة حثيثة ، وهو مقطّب الحاجبين من مدفع الى آخر • وكان الضابط الفتى الذي ازداد لونه حيوية ، يقود جنوده بحمية أشد، والجنود ينقلون القذائف، ويعودون، ويعبّئون المدافع وينجزون عملهم بجسارة متوترة • كانوا يَطفرون طفرا وهم يمشون وكأنما يمشون على نوابض •

كانت السحابة العاصفة فوق رؤوسهم ، وعلى جميع الوجوه التمع ذلك اللهب المضيء الذي كان بطرس يلاحظ اتساعه • كان يقف بجنب القائد • هرع الضابط الفتى ، ويده على عمرته ، الى رئيسه وسأله :

— لي الشرف أن أخبرك ، سيدي العقيد ، أنه لم يبق لدينا سوى ثماني قذائف • فهل ينبغي الاستمرار في الرمي ؟



@ketab_n @4_readers

صرخ العقيد الذي كان ينظر من فوق السترة الامامية ، دون أن يجيبه .

ـ ارموا بالقطع الحديدية :

وفجأة حدث شيء ، ذلك أن الضابط الفتى أطلق صرخة وارتمى على الارض منهارا كأنه عصفور أصيب في طيرانه . فغدا كل شيء غريبا ، ملتبسا ، معتما ، في عيني بطرس .

وأخذت القذائف تصفر ، واحدة بعد الاخرى ، وتخرّق السترة الامامية والسدنة والمدافع . وغدا بطرس لايسمع شيئا غيرها ، بعد أن كان حتى هذا الحين لايسمع شيئا منها . وعلى يمين البطارية كان الجنود يركضون هاتفين : « هورا ! » ، وكأنهم يتراجعون الى الوراء بدلا من أن يتقدموا .

وضربت قنبلة حافة السترة الامامية التي كان يقف بجنبها بطرس، ومرت كتلة سوداء أمام عينيه وفي الوقت نفسه سُمع صوت سقوط . وفرّ المتطوعون الذين كانوا يدخلون البطارية .

صرخ العقيد :

ـ ارموا بكل ماعندكم من قطع حديدية !

بادر اليه ضابط صف وأنبأه في همس مُروّع ( كما ينبىء رئيس الخدم معلمه ، أثناء الوليمة أنه لم يبق شيء من الخمر المطلوب ) ، أن الذخيرة نفدت .

صاح الضابط وهو يلتفت الى بطرس ، وقد احمر وجهه وتغطى بالعرق ، والتمعت عيناه تحت حاجبيه المقطّبين :



@ketab_n @4_readers

ــ وماذا يفعل هؤلاء الأشقياء اذن !

وصرخ بأحد السدنة وهو يلف بطرس بنظرة حانقة :

ــ أسرع الى الاحتياطي ، واحمل الصناديق •

قال « بطرس » :

ــ وأنا ذاهب أيضا الى هناك •

وابتعد العقيد بخطى واسعة دون أن يجيبه • ثم صرخ :

ــ لاترموا ••• انتظروا •

اصطدم بطرس بالمدفعي الذي تلقى أمرا بحمل الذخيرة ، وقال له وهو ينزل السفح مسرعا :

ــ ايه ! ليس مكانك هنا ، ياسيدي •

لحق به بطرس جريا وهو يدور حول المكان الذي سقط فيه الضابط الفتــى •

مرت قذيفة وثانية وثالثة من فوق رأسه ، ساقطة امامه أو خلفه أو على جانبيه • وهبط بطرس السفح مسرعا وسأل نفسه فجأة بينما هو يصل الى الصناديق الخضراء : « الى أين أذهب » • وقف مترددا وهو لايعلم ان كان عليه أن يتقــدم أو يعود أدراجه • وفجأة القته صدمة هائلة الى الوراء ، أرضا • وبهره لهب خاطف للبصر ، وفي اللحظة نفسها دوى في أذنيه وأصمه هزيم رعد ، وقرقعة وصفير •

كان بطرس قاعدا ويداه مستندتان الى الارض ، عندما ثاب الى رشده ، ولم يجــد من أثر للصندوق الذي كان بجنبه ، وانما وجد ألواحا خضراء متفحمة وبعض الخرق مبعثرة هنا وهناك على العشب الاشقر ، وحصانا يجر حطام عربة مر أمامه عَدْوا ، على حين ارتمى حصان آخر على الارض كما ارتمى بطرس نفسه ، وهو يطلق أنينا حادا ، طويلا •



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الثاني والثلاثون

وثب بطرس على قدميه ، وقد استولى عليه الذعر ، وركض الى البطارية وكأنها الملاذ الوحيد من الاهوال التي تكتنفه .

وبينما هو يدلف الى الخندق ، وجد أن البطارية كفت عن الرمي وأن فيها رجالا يفعلون شيئا ما . ولم يجد الوقت الكافي ليتبين من هم هؤلاء الرجال . رأى العقيد ممددا على حاجز السترة الامامية كأنما يفحص شيئا تحته ، وشاهد جنديا لمحه من قبل ، يتخبط بين رجال أمسكوا بذراعيه : وهو يصرخ : « النجدة ، يا رفاقي » . ورأى أيضا شيئا غريبا .

لم يتسن له أن يدرك أن العقيد قتيل وأن الجندي الذي استنجد برفاقه أسير ، وأن تحت عينيه جنديا آخر طعن بحربة في ظهره . ولم يكد يدخل الخندق حتى انقض عليه رجل نحيل ، في بزة زرقاء ، أصفر الوجه مبلل بالعرق ، وسيفه في يده ، وهو يصرخ . ولكي يتفادى بطرس الصدمة ، لأنهما التقيا بغتة ، مد يديه غريزيا وأمسك بإحداهما كتف الرجل ( الضابط الفرنسي ) وبالأخرى عنقه . فأرخى الضابط سيفه وقبضه من ياقته .

نظر كلاهما ، بضع لحظات ، بعينين مروعتين ، الى وجـه الآخر



@ketab_n @4_readers

الغريب ، وتساءل كل منهما عما فعله وعما ينبغي أن يفعله ، وقال كل في نفسه : « أأنا الأسير أم هو ؟ » • لكن الظاهر أن الضابط الفرنسي كان أميل الى الاعتقاد أنه هو الأسير ، لان يد بطرس القوية التي حركها الخوف الغريزي كانت تشد على حنجرته شدا متزايدا • وأراد الفرنسي أن يقول شيئا عندما مرت من فوقهم قذيفة وهي تصفر صفيرا منذرا بالويل فأحس بطرس أن رأس الفرنسي طار لفرط السرعة التي حناه بها •

حنى بطرس رأسه أيضا وأرخى قبضته • ودون أن يسأل كل منهما نفسه : أينا الأسير ، فر الفرنسي هاربا الى البطارية ، بينما انحدر بطرس السفح مسرعا ، متعثرا بالقتلى والجرحى الذين خيل اليه أنهم يتشبثون برجليه • لكنه لم يكد يصل الى أدنى السفح حتى برزت كتل متراصة من الجنود الروس ، مقبلين عليه ، وهم يسقطــون ويتعثرون ويصرخون ويندفعون فرحين جياشين الى البطارية •

( كان هذا هو الهجوم الذي ادعى « ايرمولوف » الفضل فيه ، قائلا : ان بسالته وحظه وحدهما جعلا هذه المأثرة ممكنة ، وهو الهجوم الذي زعم أنه رمى بملء يديه فيه على الاكمة اوسمة القديس جورج التي كانت تملأ جيوبه ) •

فر الفرنسيون الذين احتلوا الأكمة • فطاردهم جندنا بعيدا وهم يصرخون : « هورا ! » حتى لقد تعسر إيقافهم •

اقتيد من البطارية أسرى بينهم جنرال فرنسي جريح أحاط بــه ضباطنا • وكانت طائفة من الجرحى الروس والفرنسيين ، ممن يعرفهم أو يجهلهم بطرس ، يجرون أنفسهم جرا ، أو يحملون على نقالات ،



@ketab_n @4_readers

وقد شوههم الألم . عاد بطرس فصعد الأكمة حيث قضى نحو ساعة ، فلم يجد أحدا من هذه الأسرة الصغيرة التي احتضنته . كان هناك كثير من القتلى لم يعرفهم . وعرف بعضا منهم . وكان الضابط الفتى جالسا أبدا ، منطويا على نفسه ، عند حافة السترة الامامية ، في بركة من الدم ، والجندي ذو الوجه الأحمر يتحرك حركة تشنجية ، من غير أن ينقله أحد .

نزل بطرس مرة ثانية وهو يركض .

قال في نفسه وهو يتبع على غير هدى ، حاملي النقالات العائدين من ساحة القتال : « سيكفون الآن عن القتال ، وسيروعون من هول ما فعلوا » .

لكن الشمس المغشاة بالدخان كانت ما تزال عالية في السماء ، وكان هناك شيء يغلي في الدخان ، صوب « سيمينوفسكي » ، الى الامام والى اليسار خاصة ، ذلك أن قرقعة الانفجارات والتراشق والقصف المدفعي لم تضعف وإنما بلغت غايتها من الشدة ، وكأنها رجل يصرخ ، وهو يلفظ آخر أنفاسه ، بكل ما لديه من قوى .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الثالث والثلاثون

دارت معركة « بورودينو » الرئيسية على رقعة قدرها فرسخان ، بين « بورودينو » وتحصينات « باغراتيون » • ( وفيما عدا ذلك ، فقد قام خيالة « اوفاروف » بمناوشة في منتصف النهار ، من جهة ، ومن جهة ثانية وقع اشتباك خلف « اوتيتزا » ، بين « بونياتوسكي » و « توتشكوف » ؛ لكن الاشتباكين لم يكونا سوى عمليتين منعزلتين وضعيفتين بالنظر الى ما كان يجري في الوسط ) • أما الاشتباك الرئيسي في المعركة ، والذي نشب على أبسط الوجوه وأقلها تعقيدا ، فقد دار بين « بورودينو » والتحصينات ، قرب الغابة ، على أرض مكشوفة ، مرئية من الجانبين •

بدأ القتال من كلا الجانبين بقصف مدفعي اشتركت فيه بضع مئات من المدافع •

وعندما غطى الدخان الارض بأسرها ، زحفت فرقتا « ديسيكس » و « كومبان » الى التحصينات ، تحت ستار الدخان ، من اليمين ( من الجانب الفرنسي ) ، وتقدمت ، من اليسار ، قطعات الملك نحو « بورودينو » •

كانت التحصينات تبعد فرسخا عن معقل « شيفاردينو » حيث نابليون ، وعن « بورودينو » أكثر من فرسخين ، على خط مستقيم ،



@ketab_n @4_readers

ولذلك لم يكن بوسع نابليون أن يرى ما يدور فيها ، ولا سيما أن الدخان المختلط بالضباب غطى الارض . ولم تُر قطعات فرقة « ديسيكس » الزاحفة الى التحصينات الا منذ دخولها الوادي الذي كان يفصلها عن التحصينات . وما إن انحدرت اليه حتى تكاثف دخان القصف والتراشق على التحصينات وغمر سفح الوادي المقابل . وخلال الدخان ، كان يمكن أن يُرى شيء أسود فقط ، لا ريب أنه الرجال ، وبريق الحراب ، من حين الى آخر . ولم يكن بالمُستطاع تمييز ما اذا كان الرجال يتحركون أم يظلون ساكنين ، وما اذا كانوا فرنسيين أم روسا .

كانت الشمس قد أشرقت وكانت أشعتها تنصب مائلة في وجه نابليون الذي أخذ يتشوف الى التحصينات ، ويده على حاجبه مستظلا بها من الشمس . وكان الدخان يمتد الى أمام التحصينات حتى يخيل الى المرء أنه هو الذي يتحرك تارة ، وأن القطعات هي التي تتحرك تارة أخرى . وبين الحين والحين كانت تُسمع ، خلال الطلقات النارية ، صرخات ، لكن المرء ما كان يستطيع أن يتبين ما يفعله هؤلاء الرجال هناك .

كان نابليون على الرابية ينظر في منظار مقرّب ، وفي تلك الدائرة الصغيرة كان يرى دخانا وجنودا ، روسا حينا وفرنسيين حينا آخر ، لكنه لم يكن يستطيع أن يحدد ، بالعين المجردة ، ما رآه .

نزل من الأكمة وتجول طويلا . وكان يقف ، بين الوقت والآخر ، ويصيخ السمع الى الانفجارات ويتفحص بنظره ساحة المعركة .



@ketab_n @4_readers

لم يكن من الممكن تبين ما كان يجري هناك ، لا من النقطة التي كان فيها ، في أدنى الأكمة ، ولا من أعلى الأكمة حيث كان عدد من جنرالاته ، بل ولا من التحصينات التي كان يحتلها الفرنسيون والروس معا أو تباعا ، بين القتلى والجرحى والأحياء والمذعورين والمذهولين . لقد تعاقب على المكان ، خلال عدة ساعات ، ووسط تراشق وقصف لا ينتهيان ، الروس والفرنسيون ، المشاة حينا ، والخيالة حينا آخر ؛ كانوا يظهرون ويسقطون ويطلقون النار ، ويتصادمون دون أن يدروا ما يفعلونه بعضهم ببعض ، ويصرخون ويرتدون الى الوراء .

كان يصل الى نابليون ، من ساحة القتال ، وبدون انقطاع ، المساعدون العسكريون الذين أرسلهم في مهمة ، والضباط المرافقون لمارشالاته ومعهم تقارير عن سير المعركة ؛ لكن جميع هذه التقارير كانت خاطئة ، لأن من المستحيل ، في غمرة القتال ، أن يصف المرء ما يجري في لحظة معينة ، ولأن المساعدين العسكريين ما كانوا يبلغون ساحة القتال الحقيقية ، وانما كانوا يرددون ما عرفوه سماعا ، وأيضا لأن الموقف كان يتغير أثناء الفرسخين أو الثلاثة التي يقطعها المساعد العسكري ليصل الى نابليون ، ويغدو النبأ الذي يحمله غير صحيح . وهكذا نقل مساعد نائب الملك نبأ مفاده أن « بورودينو » احتلت ، وأن جسر الكولوتشا في أيدي الفرنسيين . وسأل المساعد نابليون عما اذا كان ينبغي للقطعات أن تعبر النهر . فأصدر نابليون أمره بأن تلزم القطعات الضفة الاخرى وأن تنتظر ؛ ولكن في اللحظة التي كان يصدر فيها هذا الامر ، بل قبل أن يبتعد المساعد العسكري عن « بورودينو » استرد الروس الجسر وأحرقوه ، في نفس الاشتباك الذي وجد بطرس نفسه مسوقا اليه ، عند بداية المعركة .



@ketab_n @4_readers

وجاء ضابط آخر يجري من التحصينات ، شاحب الوجه ، مروّعا ، وأنبأ نابليون بأن الهجوم قد صُدّ ، وأن « كومبان » جريح ، وأن « دافو » قتيل ، في حين أن التحصينات قد احتلتها قطعات أخرى في اللحظة نفسها التي قيل فيها للمساعد العسكري إن الفرنسيين صُدّوا ، وفي حين أن « دافو » كان حيا وأنه رُضّ رضا خفيفا . وانطلاقا من هذه التقارير الخاطئة بالضرورة ، كان نابليون يتخذ تدابير اتخذت من قبل ، أو تدابير لا يمكن تطبيقها فلم تطبق .

وكان المارشالات والجنرالات الذين هم أقرب الى ساحة القتال ، والذين لم يشاركوا في القتال مثل نابليون ، لا يدخلون منطقة القتال الا لماما ، ويتخذون تدابيرهم دون استشارة نابليون ، ويُصدرون أوامرهم فيما يتصل باتجاه الرمي وبحركات الخيالة والمشاة . لكن أوامرهم ، شأنها شأن أوامر نابليون ، لم تكن تنفذ الا بمقدار ضئيل . وفي معظم الاحيان ، كان يجري عكس المطلوب . فالجنود الذي أُمروا بالتقدم كانوا يهربون اذا وقعوا تحت شظايا العدو ، والذين أمروا بالبقاء في أماكنهم كانوا يولون الفرار فجأة في بعض الاحيان اذا برز الروس أمامهم على حين غرة ، وكانوا ، أحيانا أخرى ، يحملون على العدو ، وينطلق الخيالة لمطاردة فلول الروس دون أن يتلقوا أمرا بذلك. وهكذا عبر وادي « سيمينوفسكوي » فوجان من الخيالة ، وما كادوا يصعدون السفح الآخر حتى لووا أعنة خيلهم ، وعادوا أدراجهم بأقصى سرعة . وكان المشاة يفعلون مثل ذلك فيغامرون بالذهاب الى حيث لم يتلقوا أمرا بالذهاب . وحين كان يجب البتّ بالمكان الذي ينبغي أن تتقدم اليه المدافع ، وبالزمان الذي يجب أن تتقدم فيه ، وبأمر المشاة



@ketab_n @4_readers

بالرمي أو بإرسال الخيالة لتطأ المشاة الروس ، كل هذه التدابير كان يتخذها الضباط الأدنون دون الرجوع الى « ناي » أو « دافو » أو « مورا » أو ، من باب أولى ، الى نابليون • ولم يكن هؤلاء الضباط يخشون أن يُسألوا فيما بعد عن أمر لم ينفذوه أو عن مبادرة قاموا بها ، لأن الخطر في المعركة يتهدد أثمن ما في الانسان ، يتهدد حياته ، وقد يظن خلاصها في الفرار تارة ، وفي الإقدام تارة أخرى ؛ وهؤلاء الناس الذين كانوا في قلب المعركة كانوا يتصرفون تبعا لدوافع اللحظة • والواقع أن كل هذه الحركات ، حركات التقدم والتراجع لم تكن تحسن وضع القطعات أو تبدله • لأن هجماتهم لم تكن تسبب شرا كبيرا ، بينما كان الشر ، الموت والجراح ، يأتي من الرصاص والقذائف التي كانت تتطاير في كل مكان يتحرك حوله الناس • وما ان يغدو هؤلاء الرجال خارج مدى القذائف والرصاص ، حتى يعمد القادة في المؤخرة الى اعادة تشكيلهم ، واعادة الانضباط ، وارسالهم من جديد ، بفضل ذلك الانضباط ، الى منطقة النار حيث يفقدون ( بتأثير الخوف من الموت ) معنى الانضباط مرة أخرى ويتصرفون على هوى مزاج الجماهير المتقلب •



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الرابع والثلاثون

إن قادة نابليون : « دافو » و « ناي » و « مورا » الذين كانوا على مقربة من منطقة النار والذين كانوا يدخلونها بين الحين والحين ، زجّوا فيها بكتل ضخمة من القطعات المنظمة • ولكن ، على عكس ما جرى دائما في جميع المعارك السابقة ، فإن النبأ المنتظر عن هزيمة العدو لم يكن ليصل ، وكانت هذه الكتل الحسنة الانضباط تعود من « هناك » جماعات مشتتة ، مروعة • فيعيدون تشكيلها ، لكن عدد الرجال كان في تناقص مستمر • وفي منتصف النهار أرسل « مورا » مساعدا عسكريا في طلب التعزيزات •

كان نابليون جالسا عند سفح الأكمة يشرب « البنش » عندما وصل مساعد « مورا » ليؤكد أن الروس سيهزمون لو أرسل جلالته فرقة أخرى •

قال نابليون بدهشة وقسوة وكأنه لم يفهم ما قيل له ، وهو ينظر الى هذا الفتى الجميل بشعره الجعد على نمط شعر سيده « مورا » :

ـ تعزيزات ؟

وفكر نابليون : تعزيزات ! كيف يطلبون التعزيزات وفي حوزتهم نصف الجيش لمهاجمة جناح ضعيف لم يحصّنه الروس •



@ketab_n @4_readers

وأجاب نابليون بقسوة :

ـ قل لملك « نابولي » أن الظهر لم يأت بعد وأنني لا أرى الوضع بوضوح في رقعة الشطرنج . امض ...

تنهد الفتى ذو الشعر الجعد تنهدا عميقا ، ويده ملصقة بقبعته ، وانثنى راجعا يعدو الى حيث يُقتل الرجال .

نهض نابليون ودعا « كولنكور » و « بيرتييه » ، وتبادل وإياهما أحاديث لا صلة لها بالمعركة .

وفي أثناء الحديث الذي أخذ يشوق نابليون ، رأى « بيرتييه » جنرالا يجري نحو الأكمة ومعه حاشيته . كان الجنرال « بيليار » . نزل عن جواده الذي غطاه الزبد ، واقترب بخطى حثيثة من الامبراطور ، وأخذ يدلل له بجرأة وبصوت مرتفع ، على ضرورة إرسال التعزيزات . وأقسم بشرفه أن الروس سيهزمون لو زج الامبراطور بفرقة أخرى .

هزّ نابليون كتفيه واستأنف سيره . وتكلم « بيليار » بصوت قوي حار الى جنرالات الحاشية الذين أحاطوا به .

قال نابليون وهو يعود الى الجنرال :

ـ أنت شديد الاندفاع ، يا « بيليار » . ومن السهل أن يخطىء المرء في حومة القتال . اذهب وتثبّت ثم عد الى لقائي .

لم يكد « بيليار » يغيب عن البصر حتى وصل رسول آخر خببا من نقطة أخرى في ساحة القتال . قال نابليون بلهجة مَن أثارته العوائق التي لا نهاية لها :



@ketab_n @4_readers

– **وانت ، ما وراءك ؟**

وبدأ المساعد العسكري يقول :

– **مولاي ، ان الامير ...**

فقاطعه نابليون بحركة غاضبة :

– يطلب تعزيزات ؟

فحنى المساعد العسكري رأسه موافقا وقدم تقريره ، لكن الامبراطور أعرض عنه ، وخطا خطوتين ، ووقف ، وعاد أدراجه ، واستدعى « بيرتييه » ، وقال وهو يباعد بين يديه : لا بد من إرسال التعزيزات .

ثم سأل « بيرتييه » : **« ذلك الفرخ الذي جعلت منه نسرا »** ، كما سيقول عنه فيما بعد ، :

– ومن الذي سنرسله الى هناك ؟ ما رأيك ؟

قال « بيرتييه » الذي كان يحفظ عن ظهر قلب أسماء الفرق والألوية والأفواج :

– مولاي ، لنرسل فرقة « كلاباريد »[1] .

فوافق نابليون برأسه .

جرى المساعد العسكري نحو فرقة « كلاباريد » . وفي غضون لحظات أخذ الحرس الفتي المتمركز وراء الأكمة يسير . وكان نابليون ينظر اليه ، فقال فجأة :

---

**(١) ميشيل كلاباريد ( ١٧٧٠ – ١٨٤٢ ) جنرال وكونت في عهد الامبراطورية ، كان يقود الحرس الفتي سنة ١٨١٢ ، وغدا امير فرنسا سنة ١٨١٥ .**



@ketab_n @4_readers

ـ لا ، لا أستطيع أن أرسل « كلاباريد » . أرسل فرقة « فريان ».

نفذ الامر بدقة ، مع أن ارسال فرقة « فريان » بدلا من فرقة « كلاباريد » لاينطوي على ميزة خاصة ، بل ان ايقاف « كلاباريد » واستبدال « فريان » به انطوى على مساوىء وأدى الى ضياع واضح للوقت . لم يكن نابليون يرى أنه يلعب ، تجاه جنده ، دور الطبيب الذي تفاقم أدويته من المرض ، وهو دور كان يحسن تمييزه ونقدهلدى الآخرين .

توارت فرقة « فريان » في دخان المعركة ، على غرار الفرق الاخرى. ومن مختلف الجهات ، كان المساعدون العسكريون يصلون عدوا ، ويقولون شيئا واحدا كأنما اتفقوا عليه . كانوا جميعا يطلبون التعزيزات ويقولون ان الروس لا يتزحزون وانهم يصبون **نار جهنم** على الجيش الفرنسي الذي كان يذوب من وهجها .

ظل نابليون جالسا في مقعده يفكر .

اقترب من الامبراطور السيد « دوبوسيه » ، هاوي الاسفار الذي لم يتناول شيئا منذ الصباح ، وجوز لنفسه أن يعرض على جلالته بكل احترام تناول الغداء . وقال :

ـ أرجو أن أستطيع منذ الآن تهنئة جلالتك بالنصر .

هز نابليون رأسه نافيا ، دون أن يقول شيئا . وقد قدر السيد «دي بوسيه » أن النفي يتعلق بالنصر لا بالغداء ، فجوز لنفسه أن يلفت النظر بلهجة مرحة وملأى بالاحترام ، الى أنه مامن شيء في الدنيايستطيع أن يحول بيننا وبين الغداء عندما يكون الغداء ممكنا .



@ketab_n @4_readers

قال نابليون فجأة وهو متجهم الوجه :

ـ **اذهب انت ...**

وأدار له ظهره . فتهلل وجه « دي بوسيه » بابتسامة ساذجة من الاسف والندم والحماسة ، وانسل ليلحق بالجنرالات الاخرين .

كان نابليون يحس بهذا الاحساس المؤلم ، احساس المقامر المحظوظ دائما الذي يثق بحظه فيتهور ويلقي بما معه على المائدة ، احساس من كان يربح دائما فيحس ، على حين غرة ، بعد أن يحسب لتقلبات الحظ حسابها ، انه كلما أمعن في الحساب تأكدت خسارته .

كانت القطعات هي نفسها ، والجنرالات هم أنفسهم ، والتجهيزات وامر المعركة **والاعلان « القصير والقوي »** كلها هي نفسها ، وهو نفسه لم يتغير أيضا ، كان يعلم ذلك ، ويعلم انه ازداد خبرة ومهارة ، وكان العدو نفس العدو في « اوسترليتس » و « فريدلاند » ، لكن ذراعه العاتيه التي تهوي بالضربة الرهيبة ترتد عاجزة وكأنما ارتدت بسحر ساحر .

وكانت الخطة هي نفسها التي تتوجت دائما بالنجاح : تركيز البطاريات في نقطة واحدة ، الهجوم بالاحتياطي لخرق الخطوط ، والانقضاض بالخيالة ، **بالرجال الحديديين ،** كل هذه الوسائل استخدمت ولم يحرز نابليون النصر ، بل ان الانباء كانت تتوارد عليه من كل صوب معلنة عن قتل القادة أو جرحهم ، وعن الحاجة الماسة الى التعزيزات ، وعن تعذر دحر الروس ، وعن تفكك القطعات .

كان يكفي من قبل أمران أو ثلاثة ، وجملتان أو ثلاث ، حتى يهرع



@ketab_n @4_readers

المارشالات والمساعدون العسكريون مهنئين ومتهللين ومعلنين عن غنائمهم من فيالق الاسرى ، ومن « **حزم الاعلام والنسور العدوة** » ، ومن المدافع والمتاع ، وكان يكفي « مورا » اذن نابليون حتى يطلق فرسانه ويستولوا على القوافل . كذلك كان الامر في « لودي » و « آركول » و « ايينا » ، و « اوسترليتس » ، و « واغرام » الخ ...
لكن شيئا رهيبا وقع لجنوده الآن .

وبالرغم من نبأ الاستيلاء على التحصينات ، فقد كان نابليون يرى أن ما كان يجري الآن مختلف كل الاختلاف عما كان يجري في معاركه السابقة . وكان جميع من حوله ، وهم رجال خبروا الحروب بالقتال ، يرون رأيه . كانت الوجوه كلها حزينة ، وكانت العيون تتحاشى أن تتلاقى . « بوسيه » وحده كان قمينا ألا يدرك أهمية ما يجري . أما نابليون فكان يعلم جيدا ، بحكم خبرته الطويلة بالحرب ، ما معنى المعركة التي لا ينتصر فيها المهاجم بعد ثماني ساعات من القتال ، وبعد أن يبذل جهوده كافة . كان يعلم أنها معركة خاسرة وأن أدنى المفاجآت يمكنها ــ في هذا التوازن القلق الى أعلى حدود القلق ــ أن تودي به وبجيشه .

وعندما كان يتذكر هذه الحملة الغريبة على روسيا التي لم ينتصر أثناءها في معركة ، ولم يغنم فيها خلال شهرين ، علما أو مدفعا أو وحدة من الجند ، وعندما كان ينظر الى من حوله وقد اصطبغت وجوههم بحزن خفي ، ويسمعهم يروون الاحاديث عن صمود الروس ، عند ذاك كان يستولي عليه احساس مقلق شبيه بالذي نشعر به في الحلم ، وتمر بذهنه ضروب المفاجآت المشؤومة التي قد تؤدي الى ضياعه . فقد ينقض الروس على جناحه الايسر ، وقد يخرقون مركز خطوطه ،



@ketab_n @4_readers

وقد تقتله هو نفسه قذيفة طائشة • كان كل ذلك ممكنا • كان لا يرتقب في معاركه السابقة ، سوى المفاجآت السعيدة أما الآن فان طائفة من المفاجآت المشؤومة تطوف بباله ، وهو ينتظرها جميعا • كان ذلك شبيها بما يجري في الحلم ، عندما يرى المرء شريرا يهاجمه فيرفع يده ليضربه الضربة الرهيبة القاضية لكنه يحس بيده واهنة رخوة كالخرقة ، ويحس برهبة الموت المحتم تشد خناقه •

ان نبأ مهاجمة الروس لجناحه الايسر ضيّق صدره وملأه بمثل تلك الرهبة • فظل جالسا بصمت على كرسي الميدان عند سفح الاكمة ، وقد أطرق رأسه وأسند مرفقيه الى ركبتيه • اقترب منه « بيرتييه » واقترح عليه الطواف بالخطوط ليتبين الوضع بنفسه •

قال نابليون :

ـ كيف ؟ ماذا تقول ؟ نعم ، مُر لي بحصان •

اعتلى صهوة الجواد واتجه الى « سيمينوفسكوي » •

في دخان البارود الذي أخذ ينكشف شيئا فشيئا على طول الطريق التي قطعها نابليون ، كانت جثث الخيول والرجال ترقد واحدة واحدة أو مكدسة بعضها فوق بعض ، في برك من الدم • لم ير نابليون قط ولم ير مساعدوه مثل هذا الهول ، ومثل هذا العدد من الجثث في مثل تلك الرقعة الصغيرة • كان هدير المدافع الذي لم ينقطع منذ نحو عشر ساعات يصم الآذان ويسبغ على هذا المشهد ضربا من المهابة الخاصة • ( كما ترافق الموسيقا اللوحات الحية ) • صعد نابليون الى أعلى « سيمينوفسكي » وشاهد ، خلال الدخان ، صفوفا من الرجال ببزات لم يألف ألوانها • كان هؤلاء هم الروس •



@ketab_n @4_readers

كان الروس يقفون في صفوف متراصة خلف « سيمينوفسكوي » والاكمة ، وكانت مدافعهم تدوي بلا كلل ، فتملأ خطهم كله بدخانها • لم يكن هناك معركة ، وانما كان هناك مجزرة مستمرة ، قتل لايمكن أن يعود بشيء لا على الروس ولا على الفرنسيين • أوقف نابليون حصانه وعاد الى أحلام اليقظة التي أخرجه «بيرتييه» منها، لم يكن بوسعه ايقاف ما كان يجري أمامه وحوله وما يظن أنه من صنعه وأنه منوط به ، ولأول مرة ، بدت له المعركة ، على اثر هذا الفشل ، عديمة الجدوى ، فظيعة •

جوّز لنفسه جنرال لحق به فاقترح عليه أن يزج بالحرس القديم• تبادل « ناي » و «بيرتييه» نظرة وافترت شفاههما عن بسمة ازدراء لهذا العرض الارعن •

أطرق نابليون ووجم ، ثم قال :

**لن أهلك حرسي على ثمانمائة ميل من فرنسا •**

وثنى عنان جواده ورجع الى « شيفاردينو »



@ketab_n @4_readers

# الفصل الخامس والثلاثون

كان « كوتوزوف » جالسا على المقعد المغطى بسجادة ، في الموضع نفسه الذي رآه فيه بطرس عند الصباح ، مطرقا رأسه الاشيب ،متهالكا بكل ثقل جسمه . لم يكن يصدر أمرا وكان يكتفي بالموافقة أو عـدم الموافقة على ما يعرض عليه .

كان يجيب على مختلف الاقتراحات : « نعم ، نعم ، افعلوا ذلك » ويقول لهذا أو ذاك من خلصائه : « نعم ، نعم ، اذهب ، يا عزيزي ، وانظر في الامر » ، أو يقول : « لا ، لا فائدة من هذا ، الأَوْلى أن ننتظر » . كان يصغي الى التقارير التي تقدم اليه ، ويصور الاوامـر عندما يطلب اليه مرؤوسوه ذلك ، لكنه كان يبدو ، وهو يصغي ، معنيا لا بمعنى الكلمات التي تقال له ، بل بشيء آخر ، في تعبير الوجوه ، وفي اللهجة التي تقال بها تلك التقارير . كان يعلم ، بحكم خبرته الطويلة بالحرب ، ويدرك بحكمته ، حكمة الشيخ ، أن رجلا واحدا لا يمكن أن يقود مئات آلاف الرجال الذين يصارعون الموت ، كان يعلم أن ما يقرر مصير المعارك ليست أوامر القائد العام ، ولا الموقع الذي تحتله القطعات، ولا عدد المدافع والقتلى ، وانما هي تلك القوة الخفية التي تسمى روح الجيش ، وكان يراقب تلك القوة ويقودها جهد المستطاع .

كان وجهه يشف عن انتباه هادىء مركّز ، انتباه يجد مشقة فـي التغلب على عناء هذا الجسم الشائخ الضعيف .



@ketab_n @4_readers

في الساعة الحادية عشر صباحا جاء مَنْ ينبئه بأن التحصينات التي احتلها الفرنسيون قد استعيدت ، وبأن الامير باغراتيون جريح • فأطلق « كوتوزوف » صيحة تعجب وهز رأسه • وقال لاحد مساعديه العسكريين :

ــ اذهب الى الامير « بطرس ايفانوفيتش ، وانظر بالتفصيل الى ما جرى له •

ثم التفت نحو امير « ورتمبرج »[1] الذي كان يقف وراءه ، وقال له

ــ هل تتفضل سموّك ، بتولي قيادة الجيش الثاني ؟

بعد ذهاب الامير بقليل ، وقبل ان يصل الى «سيمينوفسكوي »، رجع مساعده العسكري ليقول لصاحب الرفعة : انه يطلب تعزيزات •

قطّب « كوتوزوف » حاجبيه وأرسل الى « دوكتوروف » يأمره بتولي قيادة الجيش الثاني ، أما الامير الذي لم يكن بوسعه أن يستغني عنه ــ على حد قوله ــ في مثل هذه اللحظات الخطيرة ، فقد رجاه بالعودة الى جانبه • وعندما انبىء بأن « مورا » وقع في الاسر وراح رجال الاركان يهنئونه ، تبسم وقال :

ــ مهلا ، ياسادة • لقد ربحنا المعركة وليس في أسر « مورا » ما هو خارق للعادة • لكن من الافضل أن ننتظر كي نبتهج •

ومع ذلك فقد أرسل مساعدا عسكريا يبشر القطعات بهذا النبأ •

عندما وصل « تشربينين » من الجناح الايسر ليعلن أن الفرنسيين

(1) امير ورتمبرج : اوجين دي ورتمبرج ( ١٧٨٨ ــ ١٨٥٧ ) ابن اخ الامبراطورة ماريا وابن عم الاسكندر الاول . دخل في خدمة روسيا منذ صباه واصبح فيها جنرالا .



@ketab_n @4_readers

استولوا على تحصينات سيمينوفسكوي ، قدّر « كوتوزوف » من وجهه ومن الشائعات التي كانت تأتي من ساحة القتال أن الامور لاتسير سيرا حسنا ، فنهض كأنما يريد أن يحرك ساقيه ، وأخذ الضابط بيده ، وانتحى به جانبا . ثم قال لايرمولوف :

ــ اذهب ، يا عزيزي ، وانظر ان كان في مقدورنا ان نفعل شيئا .

كان « كوتوزوف » في « غوركي » ، في قلب الموقع الروسي . وقد صد الهجوم الذي شنه نابليون على جناحنا الايسر عدة مرات . وفي الوسط لم يتجاوز الفرنسيون « بورودينو » . أما في الجناح الايسر فان خيّالة « اوفاروف » هزموا الفرنسيين .

في نحو الثالثة ، توقفت الهجمات الفرنسية . وكان «كوتوزوف» يقرأ على وجوه الذين يصلون من ساحة القتال والذين يحيطون به معاني التوتر الذي بلغ أقصى غايته . كان راضيا عن هذا النهار الذي فاق نجاحه ما كان يؤمل . لكن القوى الجسدية كانت تتخلى عن هذا الشيخ . فلقد انحنى رأسه على صدره مرات ونام . وقُدّم له الغداء.

وبينما هو يأكل ، وصل «ولزوجين» مساعد الامبراطور العسكري، وهو الذي قال أثناء مروره أمام الامير آندره « يجب أن تتسع رقعة الحرب » ، والذي كان يكرهه « باغراتيون » كثيرا . كان آتيا من قبل « باركلي » ليشرح الوضع في الجناح الايسر . ذلك أن « باركلي دي تولي » الفطن الحذر قرر ، أمام سيل الجرحى وفوضى المؤخرة ، وبعد أن وزن ظروف المعركة ، أن المعركة خاسرة فبعث بصديقه المفضل ليحمل النبأ الى القائد العام .



@ketab_n @4_readers

حدجه « كوتوزوف » بعين خوصاء ، وهو يمضغ بمشقة لقمة من دجاج مشوي .

اقترب « ولزوجين » من « كوتوزوف » ، وهو يحرك رجليه بتراخ، وعلى شفتيه ابتسامة فيها الكثير من التعالي ، ولمس مقدمة خوذته لمسا خفيفا .

كان « ولزوجين » يتكلف ازاء القائد العام ضربا من التهاون غايته أن يظهر أنه ، وهو العسكري العظيم الشأن ، يترك للروس أن يتخذوا من هذا الشيخ الذي لا نفع فيه معبودا لهم ، لكنه هو يعرف حقيقته . قال في نفسه وهو يلقي نظرة صارمة على الصحون الموضوعة أمام « كوتوزوف » : السيد العجوز ( هكذا كان يسميه الالمان فيما بينهم ) يُرفّه نفسه . ثم جعل يشرح له الوضع في الجناح الايسر كما رآه « باركلي » وكما رآه وفهمه هو نفسه :

ـ كل نقاط موقعنا في يد العدو، ونحن لانستطيع أن نصدهم بسبب نقصان الجند ، الجنود يهربون ومن المتعذر ايقافهم .

توقّف « كوتوزوف » عن المضغ ، وحدّق في « ولزوجين » بعينين مدهوشتين ، وكأنه لم يفهم ما قيل له . فقال « ولزوجين » وهو يبتسم ، لدى رؤية انفعال « السيد العجوز » :

لم أر من حقي أن اخفي عن سموكم مارأيت ... لقد تشتّتت صفوف الجند تماما ...

صرخ « كوتوزوف » وقد قطّب حاجبيه ونهض بقوة ومشى نحو « ولزوجين » وهو يحرك يديه المرتجفتين مهددا ، ويكاد يختنق :



@ketab_n @4_readers

ـ أنت رأيت ذلـك ؟ أنت رأيت ذلـك ؟ ... كيف ... كيف تجرؤ ! ... كيف تجرؤ ، ياسيـدي ، أن تقـول هـذا لي أنـا . انـك لا تعلم شيئـا . قـل للجنرال « باركلـي » عـن لساني : ان معلوماته خاطئة ، وانني أنا ، القائد العام ، أعرف أكثر مما يعرف ، عن سـير المعركـة .

أراد « ولزوجين » أن يرد عليه ، لكن « كوتوزوف » لم يتح لـه ذلك ، وقال له بجفـاء :

ـ لقد صُدّ العدو على الجناح الايسر ، وهزم على الجناح الايمن . واذا كنت لم تر ، يا سيدي ، فينبغي ألا تسمح لنفسك أن تتكلم بمـا تجهله . تفضل وعد الى الجنرال « باركلي » وأعلمه برغبتي الصريحة في مهاجمة العـدو غدا .

صمت الجميع ولم يسمع سوى ذلك النفس اللاهث ينبغث مـن الجنرال العجوز . وأردف قائلا وهو يرسم اشارة الصليب :

ـ لقد صُدّ العدو في كل المواقع ، والشكر لله ولجيشنا الباسل . لقد غُلب العدو ، وغدا سنطرده من أرض روسيا المقدّسة .

وفجأة اغرورقت عيناه بالدموع ، وزفر زفرة . فهز « ولزوجين » كتفيه ، ولوى شفتيه ، ومضى بصمت دهشا من اعتداد السيد العجوز بنفسـه[1] .

قال « كوتوزوف » وهو يشير الى جنرال جميل ، جسيم ، اسود الشعر ، كان يصعد الاكمة في هذه اللحظة :

---

(١) وردت هذه الجملة بالالمانية في النص الروسي .



@ketab_n @4_readers

ـ انظر ، ها هوذا بطلي..

كان القادم هو الجنرال « رايفسكي » الذي قضى النهار كله في النقطة الرئيسية من ساحة القتال في « بورودينو » .

أعلن « رايفسكي » أن القطعات ثابتة في مواقعها وأن الفرنسيين لا يجرؤون على مهاجمتها .

وبعد أن أصغى اليه « كوتوزوف » ، قال بالفرنسية :

**ـ انت لا ترى كالآخرين اذن اننا مضطرون الى الانسحاب ؟**

قال « رايفسكي » :

**ـ على العكس ، يا صاحب السمو ، اذا ترجح النصر فالرابح أبدا ، هو اشد الفريقين عنادا .**

صاح « كوتوزوف » بمساعده العسكري :

ـ « كايساروف » ! اجلس ، واكتب الامر اليومي للغد . وانت ـ وأشار الى مساعد آخر ـ امضِ ودُر على الخطوط وأعلن أننا سنهاجم غدا .

بينما كان الحديث يجري بينه وبين « رايفسكي » ، وبينما كان الامر اليومي يحرر ، رجع « ولزوجين » من قبل « باركلي » وأنبأه أن الجنرال « باركلي دي تولي » يريد تأييدا خطيا لامر الفيلد مارشال .

ودون أن ينظر اليه « كوتوزوف » أمر بتحرير ذلك الامر الذي طلبه القائد العام القديم ليكون في مأمن من المسؤولية .

وبفضل هذا الرابط الخفي الذي لاسبيل الى تحديده ، والذي



@ketab_n @4_readers

يحافظ على الحالة النفسية ذاتها في الجيش بأسره ، تلك الحالة التي تسمى معنويات الجيش والتي هي عصب الحرب الرئيسي ، فان كلمات « كوتوزوف » وأمره اليومي الذي يعلن فيه الهجوم في اليوم التالي ، انتشرت رأسا من أول الجيش الى آخره •

ان ما نقل الى أخر حلقة من هذه السلسلة كان بعيدا عن أن يكون كلماته نفسها ، وعبارات الامر اليومي ذاتها • بل انه لم يكن فيما تنوقل بالتدريج ، من أول الجيش الى آخره ، ما يشبه أقوال « كوتوزوف » في شيء ، لكن معنى أقواله شاع في كل مكان • لان ما قاله لاينجم عن اعتبارات معقدة ، وانما عن الشعور الذي يحرك روح القائد العام وروح كل روسي •

عندما علم هؤلاء الرجال المنهوكون ، المخلخلون أننا سنهاجم العدو غدا ، وعندما تلقوا من القيادة العليا تأييدا لما يريدون الايمان به ، اشتد ازرهم وعادت اليهم شجاعتهم •



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

## الفصل السادس والثلاثون

كان فوج الامير « آندره » جزءاً من الاحتياطي الذي ظل حتى الساعة الثانية بدون عمل ، خلف « سيمينوفسكوي » ، تحت نار عنيفة من المدفعية . وفي نحو الساعة الثانية ، تقدم الفوج الذي فقد أكثر من مائتي رجل ، عبر حقل من الشوفان وطئته الارجل ، الى المكان الذي يفصل « سيمينوفسكي » عن بطارية الاكمة ، وهو المكان الذي قتل فيه هذا اليوم آلاف الرجال والذي وجهت اليه في نحو الساعة الثانية نار متقاربة من مئات المدافع العدوة .

هنا أيضا فقد الفوج ثلث عدده ، دون أن يترك موقعه ، ودون أن يطلق طلقة واحدة .وأمام الفوج ولا سيما على يمينه ، كانت المدافع ترعد ، وسط دخان لايريد ان ينقشع ؛ ومن منطقة الدخان الخفية تلك كانت تصل القذائف دون توقف وهي تنش نشيشا قصيرا ، والقنابل وهي تصفر صفيرا ممدودا . وأحيانا ، كانت القذائف تتجاوز هدفها ، طيلة ربع ساعة ، وكأنها تهادنه ، لكنها أحيانا أخرى ، كانت تحصد ، في ظرف دقيقة واحدة ، عددا كبيرا من الرجال في الفوج ، فلا يكف الباقون عن رفع القتلى والجرحى ونقلهم .

لدى كل انفجار جديد ، كانت فرص الحياة تتضاءل بالنسبة الى الذين لم يقتلوا بعد . كان الفوج منتشرا في ارتال من الكتائب ، بين الكتيبة والاخرى ثلاثمائة قدم ، ولكن بالرغم من ذلك كانت تسيطر



@ketab_n @4_readers

على هؤلاء الرجال جميعا حالة نفسية واحدة ، كانوا جميعا واجمين ، متجهمين، لايتبادلون الاحاديث الا في النادر ،وكانت هذه الاحاديث تقف كلما سقطت قذيفة وارتفع الصراخ: النقالات ! وكان الجنود يظلون في معظم الوقت، جالسين على الارض ،بناء على أوامر قادتهم ٠كان هذا يرفع عمرته ويقلب كفتها ثم يردها بعناية ؛ وذاك ينظف حربته بالطين الذي جبله في باطن كفه ؛ وثالث يسوي حزام جواده ويعيد ربطه ؛ ورابع يصلح ويحل اللفائف التي تقوم مقام الجوارب برفق ، ثم يلفها وينتعل حذاءه ٠ وعندما كان الرجال يجرحون او يقتلون ، وعندما كان يبدو صف النقالات ، وعندما كان رجالنا يتراجعون ، وعندما كانت كتل العدو المتراصة تبدو خلال الدخان ، فان احدا لم يكن يوليها انتباها ٠ أما عندما كانت تتقدم مدفعيتنا أو يتقدم فرساننا ، وعندما كان مشاتنا يشرعون في الزحف ، عند ذاك كانت ترتفع من كل صوب صيحات الاستحسان ٠ لكن اكثر ماكان يسترعي الانتباه انما كان الحوادث العرضية التي لا صلة لها بالمعركة ٠ فكأن انتباه جميع هؤلاء الرجال المنهوكين معنويا كان يتركز على تلك الحوادث التافهة من الحياة اليومية ٠ مرت بطارية أمام جبهة الفوج فعلقت بالمجر رجل حصان يحمل صندوقا ، عند ذاك صاح الجميع بصوت واحد : ايه ! اياك والحصان !٠٠ ارجع الصندوق الى وضعه ! والا سقط !٠٠ ماذا ! ألا يرون !٠٠

وفي مرة ثانية استرعى الانتباه العام كلب كستنائي صغير ، مبروم الذيل ، لا يعلم أحد من أين جاء يركض مرعوبا أمام الخطوط ، فلما سقطت قنبلة فجأة نبح وضم ذيله واندفع جانبا ٠ فانفجر الفوج كله



@ketab_n @4_readers

ضاحكا وأطلق صيحات الفرح • لكن تسليات من هذا النوع لم تكن تدوم سوى لحظة ، بينما مضى أكثر من ثماني ساعات والرجال ما يزالون هنا جياعا ، لا يفعلون شيئا ، في ظل الرعب المستمر من الموت ، ووجوههم الشاحبة المتجهمة تزداد شحوبا وتجهما •

كان الامير آندره يروح ويجيء من ثلم الى آخر في المرج المجاور لحقل الشوفان ، متجهما ، شاحبا مثل رجاله ، مطرق الرأس ويداه وراء ظهره • لم يكن لديه ما يفعله ، لم يكن لديه امر يلقيه • كان كل شيء يسير من تلقاء ذاته • كان الموتى يُجرّون الى المؤخرة ، والجرحى ينقلون والصفوف تتشكل من جديد • واذا انصرف بعض الجنود لم يلبثوا أن يعودوا مسرعين • كان الامير آندره ، في البدء ، يمر بين الصفوف مقدرا أن من واجبه اثارة شجاعة رجاله وضرب المثل أمامهم ، لكنه اقتنع بأن ليس لديه ما يعلّمهم اياه • كانت كل قواه الروحية وقوى كل جندي من جنوده تتجه لاشعوريا الى شيء واحد هو عدم الوقوف طويلا عند هول الموقف • كان يتمشى في المرج جارا قدميه ، واطئا العشب وفاحصا الغبار الذي يغطي حذاءه • فتارة يمشي بخطى واسعة محاولا أن يضع قدميه فوق الآثار التي خلفها الحصادون ، وتارة اخرى ، يعد خطواته ويحسب كم مرة عليه أن ينتقل من ثلم الى آخر حتى يقطع فرسخا ، وقد يقتلع نبات الارطماسية من الاثلام ويدعكها بين يديه ويشم رائحتها القوية المرّة • لم يبق شيء مما أتعب فيه فكره بالامس • لم يكن يفكر في شيء • كان يصيخ السمع بأذن كليلة الى تلك الاصوات المتشابهة فيميز صفير القذائف وهي تصل ، من ارعادها وهي تنطلق ، ويرمي بنظره هذه الوجوه التي يعرفها جيدا ، وجوه



@ketab_n @4_readers

رجال الكتيبة الاولى ، وينتظر • كان يقول في نفسه وهو يصغي الى الصفير الآتي من منطقة الدخان : « وهذه قذيفة •• لنا أيضا » • واحد اثنان ! ايضا ! اصابت ••• ! ويقف ويلقي نظرة على الصفوف • « لا ، لقد مرت • وهذه لنا » • ثم يستأنف سيره ، جاهدا في أن يوسع خطاه ليصل الى الثلم في ست عشرة خطوة •

ثم اذا بــه يحس صفيرا وصدمة ! فعلى خمس خطوات منه حرثت قذيفة الارض ودخلت فيها • وسرت في ظهره رعشة بالرغم منه • نظر الى الصفوف مرة أخرى • لا ريب أن كثيرين قد أصيبوا ، اذ شاهد في الكتيبة الثانية تجمعا وغوغاء • صرخ بالضابط المرافق :

ـ مُرْ بتفريقهم •

دنا الضابط ، بعد أن نفذ الامر ، من الامير آندره • ومن الجهة الاخرى أقبل قائد الكتيبة على حصانه •

أطلق جندي صيحة مرعوبة :

ـ حــذار !•

وكما يصفر عصفور صغير وهو يحط على الارض ، سقطت قنبلة برفق ، على خطوتين من الامير آندره ، قرب حصان قائد الكتيبــة ، فانتفض الحصان ، دون أن يسأل نفسه ان كان من اللائق أو غير اللائق اظهار خوفه ، وشب ، وكاد يرمي بالنقيب ، وجرى على وجهه • فانتقل رعب الحصان الى الرجال •

صاح صوت الضابط المرافق الذي التصق بالارض :

ـ انبطحوا أرضا !



@ketab_n @4_readers

ظل الامير آندره واقفا ، مترددا • كانت القنبلة المدخنة تـدور كالخذروف بينه وبين الضابط المرافق الذي لزم الارض ، على الحد بين المرج والحقل ، قرب أغصان ملتفة من الارطماسية •

فكر الامير آندره وهو يتأمل بنظرة جديدة كل الجدة ، مفعمة بالرغبة ، العشب والارطماسية وخيط الدخان المتصاعد من الكتلـة السوداء المحومة ، « أهو الموت حقا ؟ لا أستطيع أن أموت ، ولا أريد أن أموت • أحب الحياة ، أحب هذا العشب ، هذه الارض ، هـذا الهواء ••• » كان يفكر في ذلك وكان يشعر أنهم ينظرون اليه • قال للضابط المرافق :

ـ عيب عليك ، يا سيادة الضابط ! أي •••

ولم يتم كلامه • ففي نفس اللحظة ، تردد صوت انفجار واهتزاز شظايا ، وكأنها زجاج محطم ، وانتشرت رائحة الدخان الخانقة ، ومال الامير آندره على جنبه بحركة عنيفة ، وهوى الى الأمام وهو يرفـع ذراعه في الهواء •

هُرع بعض الضباط اليه • كانت تنتشر على العشب ، من جنبه الايمن ، بقعة عريضة من الدم •

وقف المتطوعون الذين استدعوا ومعهم نقالاتهم خلف الضباط • كان الامير آندره مضطجعا على بطنه ، ووجهه في العشب ، وهو يتنفس محشرجا بكثير من الالم •

ـ هيا ، ماذا تنتظرون ، اقتربوا !



@ketab_n @4_readers

اقترب الفلاحون وحملوه من كتفيه وساقيه ، لكنه أنَّ متوجعا فأعادوه الى الارض بعد أن تبادلوا النظر فيما بينهم .

فصاح بهم صوت :

ـ هيا احملوه ، سيّان عنده !

وحملوه من جديد ، ووضعوه على النقالة .

قالت أصوات من الضباط :

ـ آه ، يا الهي ! يا الهي ! أممكن هـذا ؟... البطن ! هذه هي النهاية ! آه ! يا الهي !

وقال الضابط المرافق :

ـ لقد لامست أذني .

حمل الفلاحون النقالة على أكتافهم واتجهوا مسرعين الى مركز الاسعاف ، على طريق شقوه بجيئاتهم وروحاتهم .

صاح ضابط وهو يوقف الفلاحين من أكتافهم لانهم كانوا يمشون مشية غير متسقة ويهزون النقالة :

ـ سيروا بالخطوة ... ايه !... أيها الافظاظ !

قال الفلاح الذي في المقدمة :

ـ اتبع خطاي ، يا فيدور ! ايه ! فيدور ، فيدور !

قال الذي في المؤخرة بفرح وهو يتبع خطاه :

ـ لا بأس ، لقد فعلت .



@ketab_n @4_readers

قال « تيموخين » بصوت مرتجف وهو يهرع الى النقالة ويلقي عليها نظرة :

ـ أهذا أنت ، يا صاحب السعادة ؟ هيه ! يا أمير !

ففتح الامير آندره عينيه ، ونظر من فوق حافة النقالة التي كان رأسه غارقا فيها الى الذي كان يتكلم ، ثم عاد وأغمض جفنيه •

نقل الفلاحون الامير آندره الى الغابة التي وقفت فيها عربات النقل والتي أقيم فيها مركز الاسعاف • كان قوام المركز ثلاث خيام مفتوحة ، منصوبة على أطراف غابة السندر • أما العربات والخيل فكانت بين الاشجار • وكانت الخيل تأكل الشوفان من مخاليها ، وعصافير الدوري تحوم حولها لتلتقط ما تناثر من الحب ، والغربان التي اشتمت رائحة الدم تنتقل من شجرة الى أخرى وهي تنعق ، وقد نفد صبرها • وعلى أكثر من هكتارين ، حول الخيام ، انتشر الرجال الملطخون بالدم ، ببزاتهم المتباينة الالوان ، مستلقين وجالسين وواقفين • وحول الجرحى تجمع الجنود حاملو النقالات مقطبين ، واجمين ، وكان الضباط المكلفون بحفظ النظام يحاولون عبثا ابعادهم • فقد أصر هؤلاء الجنود على البقاء هنا ، متكئين على نقالاتهم ، محدقين فيما يجري أمامهم ، وكأنهم يسعون الى التقاط المعنى الذي يشق على الفهم في هذا المشهد • ومن الخيام ، كانت تترامى صرخات عنيفة غاضبة تارة ، وأنات شاكية تارة اخرى•وبين الوقت والآخر ، كان يخرج منها ممرضون ويجرون بحثا عن الماء ، ويشيرون الى الجرحى الذين يجب أن يحملوا الى الداخل • وكان الجرحى الذين ينتظرون دورهم عند مدخل الخيام ، يحشرجون ويئنون ويبكون ويصرخون ويكيلون الشتائم ويطلبون الفودكا • وكان بعضهم



@ketab_n @4_readers

يهذي • ولقد نقل الامير آندره ، بصفته قائدا للفوج ، من فوق الجرحى الذين لم يضمدوا بعد ، الى قرب احدى الخيم ، وتوقف حاملوه بانتظار الاوامر • وفتح الامير آندره عينيه وظل زمنا طويلا وهو لا يعلم ما يجري حوله • وعاد الى ذاكرته المرج ، ونباتات الارطماسية ، والحقل ، والكتلة السوداء المحومة ، واندفاعته المشبوبة الى حب الحياة • وعلى خطوتين منه ، وقف ضابط صف بهي الطلعة ، مديد القامة ، أسود الشعر ، معصوب الرأس ، يتكىء على غضن ويتكلم بصـوت عال استرعى انتباه الجميع • كان جريحا بالرصاص في رأسه وساقه • ومن حوله تجمع الجرحى وحاملو النقالات ليصغوا بلهفة الى حديثه •

كان يصرخ وهو يبعث من عينيه السوداوين المتوقدتين ببريق :

ـ عندما أدركناهم ألقوا بكل شيء ، حتى أننا التقطنا مليكهم • ولو وصل الاحتياطي في اللحظة المناسبة ، لما بقي منهم شيء • أكيد ما أقوله لكم ، يا أصحاب •••

نظر الامير آندره الى المتحدث ، كما نظر اليه كل من حوله ، بعينين ملتمعتين ، وأحس بالعزاء • ثم قال في نفسه : « لكن ما الذي يهمني الآن مما حدث هناك ومما يحدث هنا ؟ لماذا يشق علي أن أغادر الحياة ؟ في هذه الحياة شيء لم أفهمه من قبل ولست أفهمه الآن •



@ketab_n @4_readers

# الفصل السابع والثلاثون

خرج من الخيمة طبيب ، ووزرته ملطخة بالدم ، وكذلك يداه الصغيرتان ، وقد أمسك في احداهما بسيجار بين الابهام والخنصر • ( لكي لا يوسخه ) • ورفع رأسه ونظر حوله ، لكن من فوق الجرحى • ولعله كان يريد أن يخلد الى الراحة لحظة من الزمن • بعد أن دار يمينا ويسارا تنهد ، وخفض بصره ، وقال لممرض أشار له الى الامير آندره :

ــ على الفور •

وأمر أن ينقل الى الخيمة •

علت الغمغمة بين جمهور الجرحى ، وقال أحدهم :

ــ ربما كانت الاماكن في العالم الآخر أيضا محجوزة « للسادة » •

حمل الامير آندره ووضع على طاولة شغرت لتوها ، وكان الممرض ينظفها • ولم يستطع الامير آندره أن يتبين بالتفصيل ما الذي كان في الخيمة • فالأنات الشاكية المتصاعدة من كل صوب ، والالم الشديد الذي كان يحسه في جنبه وبطنه وظهره ، كل ذلك كان يصرفه عما حوله • لقد ذاب كل شيء في احساس واحد ، احساسه بالجسد البشري العاري الدامي الذي كان كأنما يملأ الخيمة المنخفضة ، كما كان يملأ هذا الجسد نفسه المستنقع الموحل على طريق « سمولنسك » ، قبل



@ketab_n @4_readers

أسابيع ، في ذلك اليوم القائظ من أيام آب • نعم ، كان الجسد نفسه ، لحم المدفع ذاك ، هو الذي استفظع رؤيته آنذاك ، وكأنما كانت تلك الرؤية تؤذن بما يجري اليوم •

كان في الخيمة ثلاث طاولات ، اثنتان منها مشغولتان ، وعلى الثالثة مدد الامير آندره • وقد ترك وحده بعض الوقت ، فاستطاع أن يرى ما يجري على تينك الطاولتين • على أقربهما جلس تتري ، قوزاقي ، ولا ريب ، اذا نظرنا الى بزته الملقاة جانبا • كان أربعة جنود يثبتونه ، بينما راح الطبيب يشق له ظهره الاسمر ، الواضح العضلات • وهو ينخر كالخنزير شاكيا : أوه ، أوه ، أوه !•••

وفجأة رفع وجهه الاسمر ذا الوجنتين البارزتين ، والانف الافطس ، وكشف عن أسنانه البيضاء ، وأطلق صرخة حادة مرتعدة • وعلى الطاولة الاخرى التي ازدحم حولها كثير من الناس ، مدد على ظهره رجل طويل ، قوي ، وقد ألقى برأسه الى الوراء ( بدا للأمير آندره أنه يعرف هذا الشعر الجعد ولونه وشكل الرأس معرفة غريبة ) • وكان عـدد من المرضين ينحنون بثقلهم على صدر هذا الرجل ويثبتونه • كانت ساقه الطويلة ، البيضاء ، الربلة ، لا تني تنتفض انتفاضا سريعا تشنجيا ، وكان هو ينتحب انتحابا متشنجا ويكاد يختنق • وأكب طبيبان أحدهما شاحب مرتعش ، على ساقه الاخرى المضرجة بالدم ، وفعلا بها شيئا ، من غير أن ينبسا بحرف •

وبعد أن فرغ الطبيب ذو النظارتين من التتري الذي غطي بمعطفه ، دنا من الامير آندره وهو يمسح يديه •



@ketab_n @4_readers

ألقى نظرة سريعة على وجهه ، والتفت على عجل الى الممرضين ، وصاح بغضب :

ــ انزعوا ثيابه ! ماذا تنتظرون ؟

عادت الى ذاكرة الامير آندره طفولته الاولى ، البعيدة ، عندماعمد الممرض الذي شمر عن ساعديه الى فك ازرار ثيابه ونزعها بسرعة • انحنى الطبيب على الجرح ، وجسه ، وتنهد تنهدا عميقا • ثم اشار الى احدهم • ومالبث الالم المبرح ان افقد الامير آندره وعيه • فلما صحا ، كانت شظايا عظم الفخذ قد انتزعت ، ومزق اللحم قد قطعت ، والجرح قد ضمد • وكان وجهه يرش • وما ان فتح عينيه حتى انحنى الطبيب فوقه وقبله في شفتيه بصمت وابتعد مسرعا •

كان الامير آندره يشعر ، بعد الآلام التي قاساها ، باحساس من الراحة لم يشعر به منذ زمن طويل • ان افضل لحظات حياته ، ولاسيما طفولته الاولى ، عندماكانت مربيته تنزع عنه ثيابه ، وتضجعه في السرير، وتغني له أغنيات تهدهده بها، وعندما كان يشعر، ورأسه غارق في الوسادة بالسعادة لمجرد احساسه بانه يحيا ، ان هذه اللحظات مثلت امام خياله لاعلى انها الماضي ، بل على انها الواقع •

كان الاطباء يبالغون في العناية بذلك الجريح الذي بدت حواشي راسه غير بعيدة عن الامير آندره ، فيجلسونه ويهدئونه وهو يئن بصبوت تقطعه الزفرات ، وقد روعته الآلام وتغلبت عليه :

ــ أرونيها ••• اوه ! اوه ! اوه !



@ketab_n @4_readers

كان الامير آندره ، عند سماعه ذلك الانين ، يشتهي ان يبكي • آلأنه يموت بلا مجد ، أو لانه يأسف على فراق الحياة ، او بتأثير ذكريات الطفولة التي مضى عهدها ، أو لانه يتألم وان غيره يتألمون ، وان هذا الرجل يتوجع امامه على نحو مثير للشفقة ، ألهذا كله اشتهى الامير آندره ان يذرف دموعا ، دموع الطفل العذبة القريبة من دموع الفرح ؟

ولما أروا الجريح ساقه المبتورة في حذائه المليء بالدم المتجمد ، انتحب كما تنتحب المرأة : « اوه » ! « اوه » ! فتنحى الطبيب الذي كان يكب على المريض ويخفي وجهه • قال الامير آندره في نفسه :

ـ ياالهي ! ماهذا ؟ ولم هو هنا ؟

ذلك انه عرف في ذلك البائس ، المنهوك ، الذي كان ينتحب والذي بترت ساقه قبل حين ، « اناتول كوراجين » • أُسند اناتول من ابطيه وقُدِّمت له كأس ماء فلم يفلح في ان يطبق شفتيه المرتجفتين، المتورمتين على حافتها ، كان ينتحب بشدة ، كمن لا رجاء له • قال الامير آندره في نفسه ، وهو لم يدرك بوضوح بعد مايراه امام عينيه : « نعم ، انه هو بعينه ، نعم ، هناك شيء يربط هذا الرجل بي ربطا وثيقا مؤلما ؟ » ثم تساءل دون ان يجد الجواب : « ما ذلك الرابط الذي يربط هذا الرجل بطفولتي ، بحياتي ؟ » • واذا بذكرى جديدة ، لم تخطر بباله من قبل ، ذكرى من عالم الطفولة النقي المفعم بالحب تهجم عليه • تذكر « ناتاشا » كما رآها اول مرة في الحفل الراقص عام ١٨١٠ ، بعنقها النحيف ، وذراعيها الدقيقتين ، ووجهها الخائف ، السعيد ، المستعد للحماسة ، فاستيقظ حبه وحنانه كأشد مايكونان حياة وقوة • تذكر الآن ذلك



@ketab_n @4_readers

الرابط بينه وبين هذا الرجل الذي يرميه بنظرة كابية ، من خلال الدموع التي تغشي عينيه المنتفختين • تذكر كل شيء فامتلأ قلبه السعيد برحمة وحب بالغين لهذا الرجل •

لم يستطع الامير آندره ان يتمالك نفسه فذرف دموع العطف والحب ، على الناس وعلى نفسه ، وعلى غيه وغيهم •

« الشفقة ، حب اخواننا ، حب الذين يحبوننا والذين يكرهوننا ، حب اعدائنا ، ذلك الحب الذي بشر به الله على الارض والذي علمتني اياه الاميرة ماريا فلم افهمه ، هذا هو الذي يدعوني الى الاسف على الحياة ، هذا مابقي لي ان قدر لي ان احيا • ليت شعري ! لقد فات الاوان الآن » •



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الثامن والثلاثون

ان المنظر المرعب لساحة القتال المغطاة بجثث القتلى وبالجرحى ، اضافة الى الثقل الذي كان يحس به نابليون في راسه ، والى نبأ قتل عشرين من جنرالاته الذين يعرفهم أو جرحهم، والى شعوره بعجز يده التي كانت قوية من قبل ، كل ذلك ترك في نفسه اثرا لم يكن يتوقعه ، وهو الذي من عادته ان يحب منظر القتلى والجرحى لان ذلك امتحان لقوة نفسه ( على حد تفكيره ) . اما في هذا اليوم ، فان منظر ساحة المعركة الرهيب تغلب على قوة روحه تلك التي كان يرى فيها مزيته وعظمته . فمضى مسرعا وعاد الى تل « شيفاردينو » ، مصفرا، منتفخا، ثقيلا ،كابي العينين ، احمر الانف ، مبحوح الصوت ، وظل جالسا على كرسيه ، مصغيا بالرغم منه ، ودون ان يرفع عينيه ، الى اصوات الانفجارات. كان ينتظر بقلق مؤلم نهاية هذه المعركة التي كان يعتقد انه يشارك فيها لكنه لايستطيع ايقافها . وطغى على ذلك السراب الخداع ، سراب الحياة التي عاش من أجله زمنا طويلا ، شعور شخصي ، انساني ، لم يستمر الا لحظة قصيرة . فعانى بنفسه كل ما رآه في ساحة القتال من موت ومن آلام . وذكره ثقل راسه وضيق صدره بانه يمكن ان يتألم ويموت هو ايضا . في هذه اللحظة لم يكن يريد لنفسه لا موسكو ، ولا النصر ، ولا المجد. ( ما المجد الذي مايزال يحتاج اليه ؟ ) كل ماكان يتوق اليه الآن هو



@ketab_n @4_readers

الراحة والهدوء والحرية • لكنه عندما توقف على مرتفع « سيمينو فسكوي » ، اقترح عليه قائد المدفعية ان يضع فيه بعض البطاريات لدعم النار الموجهة الى القطعات الروسية المتمركزة امام « كنيازكوفو » ، فوافق على ذلك وامر ان يقدم اليه تقرير بالنتائج الحاصلة •

وجاء احد المساعدين العسكريين لينبئه ان مائتي مدفع سددت الى الروس ، بناء على اوامر الامبراطور ، لكن الروس مازالوا صامدين

قـال :

ـ ان نارنا تحصد صفوفا كاملة منهم ، ومع ذلك فهم صامدون •

قال نابليون بصوت اجش :

**ـ انهم بحاجة الى المزيد !••**

ولم يسمع المساعد العسكري جيدا ، فقال مستفهما :

**ـ مولاي !**

قال نابليون بنفس الصوت الاجش ، وهو يقطب حاجبيه :

ـ انهم بحاجة الى المزيد ، زدهم منها •

ما اراده نابليون كان يتم ، حتى بدون امره ، ولم يكن يتخذ التدابير الا لاعتقاده انهم ينتظرون ان يتخذها • ومرة اخرى ، انتقل الى عالمه الاصطناعي ، الى سراب العظمة ، ومرة اخرى ، كان يقوم مذعنا بذلك الدور الكالح ، الوحشي ، المؤلم ( كالحصان الذي يدير ناعورة ويعتقد انه يفعل شيئا لنفسه ) ، هذا الدور اللاانساني الذي كُتب عليه أن يلعبه •

لم تكن هذه هي الساعة الوحيدة ، ولم يكن هذا هو اليوم الوحيد اللذين يظلم فيهما ذهن ذلك الرجل ووجدانه ، ذلك الرجل الذي يتحمل



@ketab_n @4_readers

تبعة مايجري اكثر من اي انسان آخر ؛ لم يتوصل نابليون حتى اواخر ايامه الى ادراك الخير والجمال والحق ، ولا ادراك مدى اهمية اعماله التي كانت منافية للخير والحق أشد منافاة ، بعيدة عن الشعور الانساني أشد بعد ، الى الحد الذي كان عاجزا معه عن ذلك الادراك . لم يكن بوسعه ان يتنكر لافعاله التي مجدها نصف العالم ، فكان عليه ، من ثم ان يعدل عن الحق والخير وعن كل شعور انساني .

لم يكن هذا هو اليوم الوحيد الذي يطوف فيه بساحة القتال المفروشة بالرجال القتلى او المشوهين ( بمشيئته كما كان يعتقد ) ، فيحسب ، وهو ينظر الى هؤلاء الرجال ، نسبة الروس الى الفرنسيين، ويغتر فيجد المسوغ للابتهاج حين يتبيّن ان النسبة كانت خمسة روس الى فرنسي واحد . ولم يكن هذا هو اليوم الوحيد الذي يكتب فيه الى باريس : « **ان ساحة القتال كانت رائعة** » لان خمسين الف جثة تغطيها ، بل انه كتب في جزيرة القديسة هيلانة ايضا ، في هدوء الوحدة، حيث كان ينوي ، كما قال ، ان يكرس اوقات فراغه لرواية الامور العظام التي صنعها ، كتب يقول :

**كان ينبغي للحرب الروسية ان تكون اكثر حروب العصور الحديثة شعبية : كانت حرب العقل السليم والمصالح الحقيقية ، حرب راحة الجميع وامنهم ؛ كانت حربا سلمية محضة ومحافظة خالصة .**

**كانت بالنسبة الى القضية الكبرى ، نهاية المخاطر وبداية الامن . وكانت ستنجلي عن آفاق جديدة واعمال جديدة مليئة برفاه الجميع وازدهارهم . لقد غدا النظام الاوروبي قائما ، ولم يبق سوى تنظيمه .**

**ولو اني وجدت الرضى عن هذه النقاط الكبرى ، ووجدت الهدوء عاما ، شاملا ، اذن لكان لي مؤتمري وحلفي المقدس ، فهذه افكار سرقت**



@ketab_n @4_readers

مني ، ولتناولنا بالبحث ، في اجتماع الملوك الكبار ذاك ، مصالح اسرتنا ولقدمنا للشعوب حسابا دقيقا .

وبهذا الشكل كانت اوروبا ستغدو بعد حين شعبا واحدا ، وكان كل واحد سيجد نفسه ابدا،اينما سافر،في الوطن المشترك.كنت ساطلب ان تكون الانهار مفتوحة للملاحة بالنسبة الى الجميع ، وان تكون البحار مشتركة ، وان تحول الجيوش الدائمة الكبيرة الى مجرد حرس للملوك .

كنت ساعلن، بعد عودتي الى فرنسا، في قلب الوطن العظيم، القوي، الرائع ، الهادىء ، المجيد ، عن حدوده الثابتة ، وعن ان كل حرب مقبلة ستكون حربا دفاعية ، خالصة ، وان كل توسع جديد معاد للقومية .كنت سأربط مصير ولدي بالامبراطورية ؛ وعند ذاك ستنتهي دكتاتوريتي وسيبدأ حكمه الدستوري ...

كانت باريس ستكون عاصمة الدنيا ، وكان الفرنسيون سيكونون محط انظار الامم ! ...

وكانت اوقات فراغي وأيام شيخوختي ستكرس ، بعد ذلك ، لزيارة معالم الامبراطورية ، بصحبة الامبراطورة واثناء تدرب ابني على شؤون الملك ، زيارة مستأنية ، كزوجين ريفيين ، وعلى جيادي الخاصة مستقبلا الشكاوى ، مصححا الاخطاء ، ناشرا في كل مكان روائع الفن والحسنات »

لقد كان يريد ان يقنع نفسه ، وهو الذي سخرته العناية الالهيـة لان يقوم بدور كالح ، دور جلاد الامم ، بأن هدف اعماله كان لخير الامم ، وانه كان يستطيع أن يتحكم بمصير ملايين البشر ، وان يبني سعادتهم بالقـوة !

وكتب في مكان آخر بصدد حملة روسيا :

« من ٤٠٠٠٠٠ رجل عبروا « الفستول » ، كان النصف نمساويا وبروسيا وسكسونيا وبولونيا وبافاريا وورتمبرجيا وميلكنبورجيا واسبانيا وايطاليا ونابوليا . اما الجيش الامبراطوري بالمعنى الصحيح ، فكان ثلثه



@ketab_n @4_readers

**مؤلفا من الهولنديين والبلجيكيين وسكان ضفتي الرين ، والسويسريين وسكان الفرقة الثانية والثلاثين العسكرية ، (( بريم )) وهامبورغ الخ ؛ وكان عدده لايكاد يصل الى ١٤٠٠٠٠ رجل يتكلمون الفرنسية . لقد كلفت الحملة الروسية فرنسا الحالية اقل من خمسين الف رجل ؛ وفقد الجيش الروسي في انسحابه من (( فيلنا )) الى موسكو ، في مختلف المعارك ، اربعة اضعاف ما خسره الجيش الفرنسي ؛ وقضى حريق موسكو على حياة مائة الف روسي ماتوا من البرد والبؤس في الغابات ؛ واخيرا اصيب الجيش الروسي اثناء سيره من موسكو الى الاودر بتقلبات الطقس ؛ ولم يتجاوز عدده ، لدى وصوله الى (( فيلنا )) ، خمسين الف رجل ، ولدى وصوله الى (( كاليش )) ثمانية عشر الف رجل )) .**

كان نابليون يتصور ان الحرب نشبت بينه وبين روسيا بمشيئته، ولم تستفدح نفسه هول فعلته بعد انتهائها . ولقد تحمل بجرأة تبعة الحادث كاملة ، ورأى فكره المظلم تسويغا لذلك في ان بين مئات الآلاف القتلى كان عدد الفرنسيين اقل من عدد الهيسيين والبافاريين .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل التاسع والثلاثون

كان عشرات آلاف الرجال يرقدون قتلى ، في اوضاع وبزات شتى، على الحقول والمروج التي يملكها آل «دافيدوف» وفلاحو التاج ،والتي ظل سكان قرى « بورودينـــو » و « غوركـــي » و « شيفاردينـــو » و «سيمينو فسكوي» يستثمرونها ويرعون مواشيهم فيها ، قرونا طوالا . وفي مراكز الاسعاف ، على مساحة هكتار ، كان العشب والتراب مشبعين بالدم . وكانت جماعات من الجنود الجرحى او الاصحاء ، من مختلف الوحدات ، يسيرون الى الوراء مروعين ، بعضهم الى « موجايسك » وبعضهم الآخر الى « فالويفو » . وكانت جماعات اخرى انهكها التعب والجوع تمضي الى الامام بقيادة رؤسائها . وبقيت فئة اخرى في مكانها تطلق النار .

على امتداد ساحة القتال التي كانت جد جميلة وجد بهيجه قبل حين ببريق الحراب وبالادخنة في شمس الصباح ، هبطت الآن غلالة من الرطوبة والدخان وسطعت رائحة غريبة ، حادة ، من البارود والدم . وتراكمت السحب ، واخذ المطر الدقيق يهطل على الموتى وعلى الجرحى، على الرجال المرعوبين والمنهوكين الذين اخذ الشك يساور نفوسهم ، وكأنما كان المطر يقول : « كفى ، كفى ، أيها الرجال . كفّوا .. تمالكوا انفسكم ... ماذا تفعلون ؟ » .



@ketab_n @4_readers

بدأ الجنود الذين هدهم التعب واعوزهم الغذاء والراحة في كلا الجيشين يشكّون في وجوب الاستمرار على استئصال بعضهم لبعض، وكان التردد يقرأ على جميع الوجوه ، وبرز في كل نفس السؤال التالي: « لماذا ولمن ينبغي ان اقتل او اقتل ؟ اقتلوا من تشاؤون ، افعلوا ماتشاؤن ، اما انا فلست اشتهي ذلك بعد الآن ! » لقد نضجت هذه الفكرة ، حوالي المساء ، في نفس كل جندي . كان يمكن لهؤلاءالرجال في كل لحظة، ان يتملكهم الهول مما يفعلون، وان يتركوا كل شيء مولين الادبار الى حيث تقودهم ارجلهم .

ومع ان هؤلاء الرجال احسوا ، عند نهاية المعركة ، بفظاعةماكانوا يفعلون ، ومع انهم فرحوا بالتوقف ، الا ان قوة خفية ، لا سبيل الى فهمها ، ظلت تحكمهم ، وظل المدفعيون الذين تغطوا بالعرق والبارود والدم والذين نقص عددهم الى الثلث ، يحملون ، وهم يتعثرون ويلهثون من التعب ، الذخائر ويحشونها ، ويسددونها ، ويشعلون الفتيل ، وظلت القذائف تطير بنفس سرعتها ووحشيتها من كلا الجانبين وتمزق الاجساد البشرية ، وهكذا كان يتم ذلك الشيء الرهيب الذي لايتم بمشيئة البشر، ولكن بمشيئة الذي يحكم البشر والعوالم .

ولو ان احدا لاحظ مافي مؤخرة الجيش الروسي من اضطراب لقال : انه كان يكفي الفرنسيين ان يبذلوا شيئا يسيرا من الجهد ايضا حتى ينهار الجيش الروسي ؛ ولو ان احدا شاهد مؤخرة الجيش الفرنسي لقال : انه كان يكفي الروس ان يبذلوا شيئا يسيرا من الجهد ايضا حتى يقضى على الجيش الفرنسي . لكن لا الفرنسيون ولا الروس بذلواذلك الجهد . وانتهت نار القتال الى الانطفاء شيئا فشيئا .



@ketab_n @4_readers

لم يبذل الروس ذلك الجهد لانهم لم يكونوا هم الذين هاجموا الفرنسيين . لقد اقتصروا ، في بداية المعركة ، على السيطرة على طريق موسكو بسدها ، وظلوا يسيطرون عليها في نهاية المعركة كما كانوا في بدايتها . ولكن حتى لو كان هدف الروس صد الفرنسيين لعجزوا عن بذل ذلك الجهد الاخير ، لان جميع قطعاتهم كانت مفككة ، ولم تنجُ قطعة من التعرض لاذى المعركــة ، ففقد الروس ، وهم في مواقعهم ، نصف جيشهم .

اما الفرنسيون الذين شد من ازرهم ذكرى خمس عشرة سنــة من الانتصارات ، وايمانهم بأن نابليون لايقهر، وشعورهم بأنهم اصبحوا يتحكمون بجزء من ساحة القتال ، وبأنهم لم يفقدوا بعد سوى ربــع جيشهم ، وبأن وراءهم عشرين ألفا من رجال الحرس لم يصابوا بأذى ، فقد كان مــن السهل عليهم ان يبذلوا ذلك الجهد . كان مــن واجب الفرنسيين الذين هاجموا الجيش الروسي بغية طرده من مواقعه ، ان يبذلوا ذلك الجهد ، ذلك ان الروس ماداموا يسدون طريق موسكو ، كما كان الامر قبــل المعركة ، فلــن يبلغ الفرنسيون هدفهم وستذهب جهودهم وخسائرهم سدى . لكن الفرنسيين لم يبذلوا ذلك الجهد . ويرى بعض المؤرخين ان نابليون لو امر بزج حرسه القديم الذي لم يصب بأذى لربح المعركة . لكن الكلام على ماكان سيقع لو ان نابليون امــر بزج حرسه القديم يشبه الحديث عما كان سيقع لو ان الربيع جــاء في في الخريف . لا يمكن لذلك ان يكون . واذا كان نابليون لم يأمــر بزج حرسه ، فليس مرد ذلك الى انه لم يكن يريده ، بل لان ذلك كان مستحيلا . وكان جنرالات الجيش الفرنسي وضباطه وجنوده يعلمون



@ketab_n @4_readers

جميعا بأن ذلك غير ممكن ، لان معنويات الجيش المتداعية لم تكن تسمح بذلك .

لم يحس نابليون وحده بهذا الشعور ـ الشبيه بما نحسه في الحلم ـ وهو ان يده الرهيبة ترتد فاقدة قوتها : فجنرالات الجيش الفرنسي وجنوده ، مقاتلين كانوا ام لا ، احسوا ، بعد تجاربهم الطويلة في المعارك السابقة ، ( حيث كان العدو يلوذ بالفرار بعد جهود اقل بعشر مرات ) ، برهبة متماثلة امام هذا العدو الذي فقد نصف جيشه وظل مرهوب الجانب في نهاية المعركة كما كان في بدايتها . لقد نفدت القوة المعنوية للجيش الفرنسي المهاجم . فالنصر الذي أحرزه الروس في « بورودينو » لم يكن من هذه الانتصارات التي تقاس بالارض المحتلة وبتلك الخرق التي تعلق بالعصي وتسمى اعلاما ، بل انه كان نصرا معنويا اقنع العدو بتفوق عدوه واقنعه بعجزه هو . كان الغازي الفرنسي يتوجس الهلاك ، كالوحش الهائج الذي اصيب اصابة قاتلة أثناء فراره ؛ لكنه لم يكن يستطيع ان يتوقف ، كما لم يكن يستطيع الجيش الروسي الذي هو اضعف مرتين ان يستسلم . كان الجيش الفرنسي يستطيع ان يسير ، بفعل السرعة المكتسبة ، حتى موسكو ، لكنه كان لابد ان يهلك هناك ، ولو لم يقم الجيش الروسي بأي جهد ، بعد ان ينزف دمه من الجرح المميت الذي اصيب به في « بورودنيو » .

لقد كانت النتيجة المباشرة لمعركة « بورودنيو » فرار نابليون الذي لا سبب له من موسكو ، وانسحابه على طريق سمولنسك القديمة ، وفقدان جيش من خمسمائة الف رجل ، ونهاية فرنسا النابوليونية التي امتدت عليها ، لاول مرة في « بورودينو » يد خصم يتمتع بقوة معنوية متفوقة .



@ketab_n @4_readers

# الجـــزء الثّالث



@ketab_n
@4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الأول

ان اتصال الحركة المطلق يستعصي فهمه على الفكر البشري . وليس يفهم الانسان قوانين اية حركة الا اذا فحص وحدات معينة منها . لكن من هذا التقسيم الاعتباطي للحركة المتصلة الى وحدات غير متصلة انما تنبع ، على وجه التحديد ، معظم الاخطاء البشرية .

نحن نعرف سفسطة القدماء التي تذهب الى ان « اخيل » لن يدرك ابدا السلحفاة التي تسبقه ، مع ان سرعته تساوي عشرة اضعاف سرعتها : ذلك ان « أخيل » عندما يقطع المسافة التي تفصله عن السلحفاة ، تكون هذه قد قطعت عشر تلك المسافة ، وعندما ما يقطع « آخيل » ذلك العشر تكون هي قد قطعت عشره ، وهكذا دواليك ، الى مالا نهاية . ان هذه المشكلة بدت غير قابلة للحل لدى القدماء . واستحالة هذه المشكلة ( « آخيل » لن يدرك السلحفاة ابدا ) لم تنجم الا عن التقسيم الاعتباطي للحركة الى وحدات غير متصلة ، على حين ان حركة « آخيل » وحركة السلحفاة متصلتان .

وعندما نقتطع من الحركة وحدات ممعنة في الصغر فانما نقترب من حل المشكلة فقط دون ان نصل الى ذلك الحل . ولن نصل الى حل المشكلة الا اذا قبلنا بقيمة متناهية في الصغر وبنموها التصاعدي حتى العشر ، وحسبنا مجموع هذه المتتالية الهندسية . ان فرع الرياضيات



@ketab_n @4_readers

الحديث حين يكتشف فن حساب الكميات المتناهية الصغر ، يعطي اليوم أجوبة عن المسائل التي كانت تبدو متعذرة الحل ، حتى في مشكلات الحركة ، وهي مشكلات اكثر تعقيدا •

ان هذا النوع الحديث من الرياضيات الذي لم يعرفه القدماء ، حين يُدخل ، في دراسة مشكلات الحركة ، القيم المتناهية الصغر ، أي التي تسمح باعادة شرط الحركة الاساسي « الاتصال المطلق » يصحح بهذه الاعادة ذلك الخطأ المحتوم الذي لا يستطيع الفكر البشري ان يفلت منه عندما يفحص وحدات من الحركة معزولة بدلا من الحركة المتصلة •

والامر كذلك في البحث عن قوانين حركة التاريخ •

ان حركة البشرية ، وهي محصلة مالا يحصى من الارادات الفردية، حركة متصلة • ومعرفة قوانين هذه الحركة هي غرض التاريخ • لكن الفكر البشري يقبل بوحدات اعتباطية غير متصلة ، بغية ادراك قوانين الحركة المتصلة لمجموع الارادات الفردية • ان منهج التاريخ الاول يقوم على الاقتطاع الاعتباطي لزمرة من الحوادث المتصلة ، وعلى النظر اليها بمعزل عن الزمر الاخرى ، في حين انه لاتوجد ولا يمكن ان توجد بداية لحادث وان الحادث ينبع دائما وبدون انقطاع من حادث آخر • والمنهج الثاني يقوم على النظر الى افعال رجل واحد ، كالملك أو قائد الجيش ، على انها مجموع ارادات البشر ، في حين ان هذا المجموع لايتجلى البتة في فعالية شخصية تاريخية واحدة •

ان العلم التاريخي ، في تطوره ، يتناول بالدراسة ، وحدات ممعنة في الصغر ، ويسعى جاهدا ، بهذه الوسيلة ، الى ان يتقرب من الحقيقة•



@ketab_n @4_readers

لكن مهما تكن الوحدات التي يقبل بها ، بالغة الصغر ، فنحن نحس ان القبول بوحدات متفصلة بعضها عن بعض ، والقبول « ببداية » للظاهرة، والقبول بأن ارادات جميع البشر تتجلى في افعال شخصية تاريخية وحيدة، نحس ان ذلك كله خطأ في ذاته .

ان كل استنتاج تاريخي بدون أي جهد من النقد يذهب هباء ولا يترك أثرا وراءه ، لمجرد ان النقد يختار وحدة غير متصلة ، كبيرة ام صغيرة ، موضوعا لبحثه ، وهذا من حقه دائما لان الوحدة التاريخية المختارة اعتباطية دائما .

نحن لا نستطيع ان نأمل في ادراك قوانين التاريخ الا اذا اتخذنا من الوحدة المتناهية الصغر غرضا لملاحظتنا ـ أي من تفاضلية التاريخ أي طموحات البشر المشتركة ـ واذا تعلمنا فـن تكاملها ( أي حساب مجموع هذه الوحدات المتناهية الصغر ) .

ترينا السنوات الخمس عشرة الاولى من القرن التاسع عشر مشهد حركة عجيبة لملايين الرجال . ذلك أن هؤلاء الرجال يتركون مشاغلهم المعتادة، ويمضون من طرف الى طرف آخر في اوروبا، وينهبون، ويقتتلون، وينتصرون ، وييأسون ، ويتغير مجرى الحياة كله لمدى سنوات ،وتتجلى فيه حركة شديدة تتصاعد اولا ثم تضعف . فما سبب هذه الحركة أو ما القوانين التي تنظمها ؟ هذا هو السؤال الـذي يطرحـه الفكـر البشري .

يجيب المؤرخون عن هذا السؤال بعرض التصرفات والافعال التي قام بها بضع عشرات من الاشخاص في احد مباني مدينة باريس ويطلقون



@ketab_n @4_readers

على هذه التصرفات والافعال اسم الثورة ؛ ثم يسردون السيرة الكاملة لنابليون ولبعض الشخصيات ، من انصاره او خصومه ، ويتحدثـون عن التأثير الذي مارسته بعض هذه الشخصيات في الاخرى ويقولون : من هنا جاءت هذه الحركة وهذه هي قوانينها .

لكن الفكر البشري لا يأبى فقط الايمان بهذا التفسير ، لكنه يعلن بجلاء ان طريقة التفسير هذه غير صحيحة لانه يجعل من اضعف الظواهر سببا لا قواها . ان الارادات البشرية بمجموعها هي التـي خلقت الثورة ونابليون ، وهذا المجموع وحده هو الذي رضخ للثورة ونابليون وابا دهما .

يقول التاريخ : « لا فتوحات بلا فاتحين ، لا انقلابات في الدولة بلا رجال عظام » . ويجيب الفكر البشري : « الواقع انه ما من مرة ظهر فيها الفاتحون الا كان هناك حرب ، لكن ذلك لا يدل على ان الفاتحين هم سبب الحروب ، ولا على ان من الممكن العثور على قوانين الحرب في فعالية فرد واحد . اني كلما نظرت الى ساعتي ورأيت العقرب على الرقم « ١٠ » سمعت اجراس الكنيسة المجاورة تقرع ، لكن ليس لي الحق في ان استنتج ان وضع العقرب هو سبب حركة الاجراس لكون هذه الاجراس تقرع كلما اشار العقرب الى الساعة العاشرة .

وكلما رأيت قاطرة تسير سمعت صافرة ، ورأيت الصمام يفتح والعجلات تدور ، لكن ليس لي الحـق في ان استنتج مـن ذلك ان الصافرة وحركة العجلات هما سبب سير القاطرة .



@ketab_n @4_readers

يقول الفلاحون : ان ريحا باردة تهب في آخر الربيع لأن براعم السنديان تتفتح ، والواقع أن الريح الباردة تهب في كل ربيع عندما تتفتح براعم السنديان . ولكن مع أنني أجهل سبب هذه الريح الباردة التي تهب آنذاك ، فاني لا أستطيع أن استنتج من ذلك ، مع الفلاحين ، أن سبب هذه الريح هو تفتح براعم السنديان ، لهذه العلة الوجيهة وهي أن قوة الريح لاتتأثر بالبراعم . انني أرى توافق الشروط الذي نلاحظه في كل ظاهرة من ظاهرات الحياة ، وأرى أنني ، بالرغم من اهتمامي بمراقبة عقرب الساعة وصمام القاطرة وعجلاتها ، وبراعم السنديان ، لن أعرف سبب قرع الاجراس وحركة القاطرة والريح الربيعية . ولمعرفة ذلك ، ينبغي لي أن أعدّل كليا نقطة ملاحظتي وأن أدرس قوانين حركة البخار والجرس والريح . وعلى التاريخ أن يفعل مثل ذلك . ولقد قامت محاولات بهذا الاتجاه .

لكي ندرس قوانين التاريخ ينبغي أن نغير كليا غرض البحث ، وأن ندع الملوك والوزراء والقادة وشأنهم ، وأن ندرس العناصر المتجانسة ، المتناهية الصغر التي تحكم الجماهير . لايستطيع أحد أن يتنبأ الي أي حد سيتاح للانسان ، بهذه السبيل ، فهم قوانين التاريخ ؛ لكن من الجلي أن هذه السبيل هي وحدها التي تسمح بامكان فهم القوانين التاريخية ؛ وأن الفكر البشري لم يبذل ، في هذا المجال ، جزءا من مليون من الجهود التي بذلها المؤرخون الذين وقفوا أنفسهم على وصف أعمال الملوك وقادة الحرب والوزراء ، وعلى عرض اعتباراتهم حول هذه الاعمال .

* * *



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

## الفصل الثاني

ان قوى اثني عشر شعبا من شعوب أوروبا تجتاح روسيا • فينسحب الجيش الروسي والاهلون ، متحاشين الاصطدام ، الى سمولنسك ومن سمولنسك الى « بورودينو » • ويزحف الجيش الفرنسي على موسكو ، هدف تحركه ، في اندفاعة تزداد عنفا • وتشتد قوة هذا الاندفاع عند الاقتراب من الهدف كما يتسارع الجسم الساقط كلما اقترب من الارض • وراء هذا الجيش ، آلاف الفراسخ من بلد جائع معاد ، وأمامه بضع عشرات من الفراسخ تفصله عن هدفه • هذا ما أحسه كل جندي من جنود نابليون ، والغزو يمضي الى الامام بقوة الاندفاعة وحدها •

أما في الجيش الروسي فيزداد الغيظ من العدو تأججا كلما تقهقر : فأثناء الانسحاب يكظم الغيظ وينمو • ويقع الصدام في « بورودينو »، فلا يتفكك أي من الجيشين ، لكن الجيش الروسي يتراجع بعد الصدام مباشرة ، بالضرورة التي تنكفىء فيها كرة صدمتها كرة أخرى أقوى دفعا ، وبالضرورة ذاتها تمضي كرة الغزو بعد انطلاقها ( وان فقدت كل قوتها في الصدام ) الى بعض المسافة •

وينسحب الروس الى مائة وعشرين فرسخا وراء موسكو • ويبلغ الفرنسيون موسكو ويلبثون فيها • ولاتقع معركة أثناء خمسة أسابيع،



@ketab_n @4_readers

ولا يحرك الفرنسيون ساكنا . انهم يظلون خمسة أسابيع في موسكو دون أن يفعلوا شيئا ، كالوحش الذي جُرح جرحا مميتا فأخذ يلعق جراحه ودمه ينضب ، ثم يفرون فجأة ، من دون سبب جديد، وينطلقون على طريق « كالوغا »[1] ، ويمعنون في الفرار ( بعد انتصارهم في معركة « مالو ايارو سلافتز » ) دون أ نيدخلوا في معركــة جادة ، نحـــو سمولنسك ، والى ماوراء سمولنسك ، والى ماوراء « فيلنا » ، والى ماوراء « بيريزينا » ، وهكذا دواليك .

في مساء السادس والعشرين من آب ، كان « كوتوزوف » والجيش الروسي برمته مقتنعين بأنهم ربحوا معركة « بورودنيو » ، وهو ما كتب به « كوتوزوف » الى الامبراطور . وقد أمر « كوتوزوف » بالاستعداد لمعركة جديدة بغية الاجهاز على العدو ، لا لأنه يريد أن يخدع أحــدا أيّا كان ، لكن لانه كان يعلم أن العدو قد غـُلب ، كما يعلم ذلك كل واحد من المحاربين .

ولكن في هذا المساء نفسه وفي اليوم التالي ، جاءت الانباء تترى لتـُعلن عن خسائر لاتصدق ، عن فقدان نصف الجيش ، فغدت المعركة الجديدة مستحيلة من الوجهة المادية .

كان مستحيلا خوض معركة جديدة مالم تجمع المعلومات الكافية ، ومالم يـُرفع الجرحى ، وتـُستكمل الذخائر ، ويحصى القتلى ويـُعيـَّن قادة جدد مكان الذين قـُتلوا ، وما لم ينم الرجال ويأكلوا . وفي الوقت

---

(۱) طريق كالوغا كانت تؤدي الى جنوبي موسكو ، وعليها ، أي على ۱۳۰ كم من موسكو ، وقعت معركة « مارو ـ اياروسلافتز » الدامية التي اجبرت الجيش الفرنسي على الانسحاب الى طريق سمولنسك .



@ketab_n @4_readers

نفسه ، كان الجيش الفرنسي يزحف من ذاته ، فور انتهاء المعركة ، في صباح اليوم التالي ، على الجيش الروسي ( بتلك القوة الدافعة التي كأنما تتزايد الآن بعكس مربع المسافة ) • كان « كوتوزوف » يريد أن يهاجم في اليوم التالي وكان الجيش بأسره يريد ذلك • لكن الرغبة وحدها لا تكفي للهجوم ، وكان لابد من إمكان العمل ، وهو إمكان لم يكن موجودا • كان مستحيلا ألاّ يتراجع الروس مرحلة أولى ، ثم مرحلة ثانية ، ثم ثالثة ، واخيرا ، عندما بلغ الجيش موسكو ، أرغمته قوة الاشياء ، بالرغم من احتدام الحماسة بين صفوفه ، على أن يتراجع الى ما وراءها • وتراجع الجيش مرحلة أيضا ، وسلم موسكو للعدو •

هناك أسئلة تطرح نفسها على الذين من دأبهم الاعتقاد بأن خطط الحروب والمعارك يضعها قادة الجيوش على النحو الذي يفعله كل منا لو أكب على خارطة في مكتبه وفحص التدابير التي يتخذها في هذه الموقعة او تلك : لمَ لمْ يتصرف « كوتوزوف » أثناء انسحابه بهذا الشكل أو ذاك ؟ لمَ لم يتخذ موقعه أمام « فيلي »[1] ؟ لمَ لمْ يتراجع في الحال على طريق « كالوغا » بعد أن ترك موسكو ، الخ ••• ؟ ان الذين تعودوا التفكير على هذا النمط ينسون أو يجهلون الشروط التي لامفر منها والتي يجري ضمنها نشاط كل قائد عام • فلا جامع بين هذا النشاط والنشاط الذي نتصوره عندما ندرس ، ونحن قابعون في مكتبنا، حملة على الخارطة ، بعدد معروف من الجند في المعسكرين ، وأرض معروفة ، ولحظة محددة تتخذها منطلقا لاعتباراتنا • ان قائدا عاما لايجد نفسه أبدا في شروط « بداية » الحدث ، وهي الشروط التي

---

(١) فيلي قرية صغيرة غربي موسكو على طريق سمولنسك .



@ketab_n @4_readers

نكون فيها نحن دائما عند فحص الحدث . وانما هو يجد نفسه دائما وسط سلسلة متحركة من الاحداث ، الى الحد الذي لايجد نفسه قادرا فيه ، في أية لحظة ، على قياس مدى أهميـة الحدث الذي يتم . ان الحدث يتشكل ، على نحو غير محسوس ، دقيقة فدقيقة ، وفي كل لحظة من لحظات تشكله المتصل ، المطّرد ، يجد القائد العام نفسه في معترك جملة معقدة من الدسائس والمشاغل والعبوديات والقوى والمشروعات والنصائح والتهديدات والخدع ، وهو مرغم باستمرار على الاجابة عن عدد لايحصى من الاسئلة المتناقضة في الغالب .

يقـول لنـا المنظّرون العسكريون بكل ما أوتوا من جـدّ أن « كوتوزوف » كان عليه أن يقود جنده على طريق « كالوغا » ، قبـل « فيلي » بكثير ، وأن مشروعا بهذا المعنى قُدّم اليه . لكن قائدا عاما مثله يجد بين يديه دائمـا ، ولا سيّما في اللحظات الحرجة ، عشرات المشروعات معا لامشروعا واحدا . وكل واحد من هـذه المشروعات المرتكزة على الاستراتيجية والتكتيك يناقض المشروعـات الاخرى . وكأنْ ليس على القائد العام إلا أن يختار أحد هذه المشروعات . لكن هذا نفسه لايستطيع أن يفعله . فالاحداث والزمن لاتنتظر . ولنفرض أنه عُرض عليه في الثامن والعشرين أن يمضي على طريق « كالوغا » ، وأن مساعدا عسكريا يصل في اللحظة ذاتها ، من قِبل « ميلورادوفيتش » ليسأله ان كان يجب عليه أن يخوض معركـة ضـد الفرنسيين أو أن يتراجع . وعلى « كوتوزوف » أن يصدر أمره من فوره ، في اللحظة نفسها . والامر بالتراجع يعدل بنا عن طريق « كالوغا » . ويأتي بعد المساعد العسكري الضابط المعتمد ليسأل عن الجهة التي ينبغي تسيير



@ketab_n @4_readers

الارزاق اليها ، ثم المسؤول عن مراكز الاسعاف الذي يريد أن يعلم الى أين ينبغي أن يؤخذ الجرحى ؛ في حين يحمل رسول من بطرسبورج رسالة من الامبراطور يرفض فيها إمكان مغادرة موسكو ، وأن خصم القائد العام الذي يسعى الى ايذائه ( هؤلاء الناس موجودون دائما بكثرة ) يقترح مشروعا جديدا معارضا على طول الخط خطة الانسحاب على طريق « كالوغا » ؛ وفي حين أن قوى القائد العام تتطلب النوم والراحة ؛ وأن جنرالا طيب القلب يأتي ليشكو من ترقية غير قانونية منحها غيره ؛ وأن الاهلين يلتمسون الحماية ؛ وأن ضابطا أُرسل للاستطلاع يعود ويقدم تقريرا مناقضا كل المناقضة لما قاله الضابط الذي سبقه ؛ وأن كشافا وأسيرا وجنرالا تفقد المواقع ، وصفوا ، كل على طريقته ، موقع الجيش العدو • ان الذين يميلون الى تجاهل أو نسيان الشروط التي يدور ضمنها بالضرورة نشاط القائدالعام يصورون لنا ، مثلا ، موقع الجيش أمام « فيلي » مفترضين أن القائد العام كان يستطيع ، في اليوم الاول من ايلول، أن يحل بملء الحرية مسألة التخلي عن موسكو أو الدفاع عنها ، في حين أن هذه المسألة لم يكن بالامكان طرحها لأن الجيش الروسي كان على خمسة فراسخ من موسكو • فمتى حلّت هذه المسألة اذن ؟ لقد حلت في « دريسا » وفي «سمولنسك»، وبشكل ملموس ، في الرابع والعشرين في « شيفاردينو » ، وفي السادس والعشرين في « بورودينو » ، وفي كل يوم وفي كل ساعة وفي كل دقيقة من الانسحاب من « بورودنيو » الى « فيلي » •

* * *



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الثالث

توقفت القطعات الروسية في « فيلي » بعد تراجعها من «بورودنيو»، وكان « ايرمولوف » قد ذهب يتفقد الموقع فعاد ليقابل المارشال وليقول لـه .

ـ من المستحيل القتال في هذا الموقع .

فنظر اليه « كوتوزوف » نظرة تنم على الدهشة ، وطلب اليه أن يكرر ما قاله ، ثم مد اليه يده وقال :

ـ أعطني يدك .

وأضاف بعد أن أدار يده بحيث جس نبضه :

ـ أنت مريض ، ياعزيزي . فكّر فيما تقول .

على هضبة « بوكلونايا »[1] ، على ستة فراسخ من حاجز « دوروجو ميلوفو »[1] ، نزل « كوتوزوف » من عربته وجلس على مقعد في جانب

---

(١) هضبة بوكلونايا احدى هضاب « الدوري » ومنهـا ينكشف منظر جميل لموسكو ، وقد سميت كذلك لان المسافرين والحجاج كانوا يحيون المدينة المقدسة التي يطلون عليها تحيات عميقة ( بوكلوني ) .

(١) حاجز دوروجو ميلوفو : عند مدخل موسكو من طريق سمولنسك . وكان لكل مخرج من مخارج المدينة حاجزها ( زاستافا ) مع مركز للشرطة .



@ketab_n @4_readers

الطريق . فأحاط به جمهور غفير من الجنرالات . وانضم اليهم الكونت « روستوبتشين » الذي قدم من موسكو . كان هـذا الجمع اللامع الذي كوّن عدة جماعات يناقش محاسن الموقـع ومساوئه ، وحالـة القطعات ، والخطط المقترحة ، والوضع في موسكو ، ومسائل ذات طابع عسكري على العموم . كانوا جميعـا يحسّون أنهم في مجلس استشاري حربي ، وان لم يُدعوا اليه ، وان لم يُطلق عليه هذا الاسم. واذا نقل أو تقصى أحدهم خبرا شخصيا فانما يفعل ذلك بصوت خافت ولا يلبث أن يعود من فوره ، الى المسائل ذات الطابع العام : لا مزح ، لا ضحك ، وحتى لا بسمة بين هؤلاء الرجال . كان الجميع يبذلون وسعهم على نحو ملحوظ ليكونوا على مستوى الوضع . وكانت كل جماعة تحاول ، وهي تتحدث ، أن تبقى على مقربة من القائد العـام ( الذي كان مقعده مركز هذه الجماعات ) ، وأن يسمعها القائد العام . وكان القائد العام يصغي ويطلب أحيانا أن يعاد عليه ما كان يقال حوله، لكنه لم يكن يشارك في الاحاديث ولم يكن يبدي رأيا . وكان ، في معظم الاحيان ، يلوي رأسه خائب الظن ، بعد أن يُصيخ السمع الى ما يقال في احدى هذه الجماعات ، وكأنهم لم يكونوا يتحدثون البتة عما كان يرغب فيمعرفته . كان بعضهم يناقش مسألة الموقع المختار منتقدين القدرات الذهنية للذين اختاروه أكثر من انتقادهم للموقع ذاته ؛ وكان آخرون يؤكدون أن الخطأ وقع قبل ذلك ، وأنـه كان ينبغي خوض معركة أول من أمس ؛ وكان غيرهم يتحدث عن معركة « سالامنك»[1]

---

(1) معركة سالامنك هي التي سحق فيها الجنرال الانجليزي ولنجتون فيلق مارمون في ٢٢ تموز ١٨١٤ ، وكان يقال في انكلترا : « انـه اباد ...... فرنسيا في اربعين دقيقة » .



@ketab_n @4_readers

التي رواها الفرنسي « كروسار » ، وهو قادم جديد يلبس بزة اسبانية. ( كان هذا الفرنسي يحلل مع أمير الماني يخدم في الجيش الروسي ، حصار « سراغوس »[١] تحسبا لدفاع مشابه في موسكو . ) وفي جماعة رابعة ، كان الكونت « روستو بتشين » يعلن استعداده للموت هو ومتطوعو موسكو عند جدران العاصمة ، لكنه لم يتمالك نفسه من الأسف لانه لم يطلع على حقيقة الامر ، والا ّ لجرت الامور على نحو آخر ... وكانت جماعة خامسة تتحدث عن الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه القطعات، مظهرة عمق مفاهيمها الاستراتيجية ، وسادسة كانت أحاديثها ضربا من المُحال. وكان وجه « كوتوزوف » ينطق بهم ٍّ وحزن متزايدين . ففي هذه الاحاديث جميعا لم يكن يرى سوى شيء واحد : ان الدفاع عن موسكو « مستحيل ماديا » ، بكل مافي هذه الكلمة من معنى ، أي بحيث لو أن قائدا عاما مجنونا أصدر أمره بخوض المعركة لوقعت الفوضى ، ولما دارت المعركة مع ذلك ؛ ما كانت المعركة لتدور لأن كبار القادة لم يكونوا يرون أن الموقع يتعذر الدفاع عنه فحسب ، بل انهم لم يكونوا يناقشون في أحاديثهم الا ماسيجري بعد التخلي المؤكد عن هذا الموقع . فكيف يمكن للقادة أن يقودوا جندهم الى ساحة قتال يعتبرون الدفاع عنها متعذرا ؟ وكان الضباط الأدنَون ، وحتى الجنود ( الذين يحاكمون الامور أيضا ) يعترفون بذلك أيضا ، ولا يستطيعون ، من ثَمَّ ، أن يذهبوا الى القتال وهم على يقين بالهزيمة . واذا كان « بيينجسن » يُصر على الدفاع عن هذا الموقع ،

(٢) قاومت عاصمة الآراغون الفرنسيين مقاومة شرسة استمرت من ١٥ حزيران ١٨٠٨ الى ١٩ شباط ١٩٠٩ وقتل فيها نصف السكان .



@ketab_n @4_readers

واذا كان آخرون يناقشون ذلك أيضا ، فان المسألة لم تكن لها أهمية في ذاتها ولم تكن سوى ذريعة للمناقشات والدسائس . وكان « كوتوزوف » يعلم ذلك .

كان « بينيجسن » الذي اختار الموقع يبالغ في اظهار وطنيته الروسية ( وهو مالم يكن « كوتوزوف » يسمعه دون تأفف ) ويُصر على الدفاع عن موسكو . وكان « كوتوزوف » يرى لعبته الماكرة بوضوح كما يرى النهار : فاذا فشل الدفاع ألقى التبعة على « كوتوزوف » الذي قاد جنده دون قتال الى هضاب « الدوري » ، واذا انتصر الروس عزا الفضل الى نفسه ؛ أما اذا رفُض المشروع فانه يغسل يديه من جريمة التخلي عن موسكو . لكن هذه الدسائس لم تكن تشغل بال الشيخ . كان مستغرقا في مسألة واحدة رهيبة لم يسمع أحدا يجيب عنها . كانت كل المشكلة تتلخص الآن فيما يلي : « أمن الممكن أن أكون أنا قد تركت نابليون يبلغ موسكو ، ومتى كان ذلك ؟ متى تقرر ذلك ؟ أكان البارحة عندما أرسلت الى« بلاتوف » أمرا بالانسحاب ، أم أول البارحة مساء عندما نعست وقلت لبينيجسن أن يفعل ما هو ضروري ؟ أو كان قبل ذلك ؟ ... متى تقرر اذن ذلك الامر الرهيب ؟ يجب أن ينسحب الجيش ويجب أن يصدر الامر بذلك » .

كان اصدار هذا الامر الرهيب يعادل ، في نظره ، الاستقالة من منصبه . وهو لم يكن يحب السلطة فحسب ، ولم يكن قد تعودها فحسب ( ان التكريم الذي لقيه الامير « بروزوروفسكي[1] » ، وكان

(١) الفيلد مارشال العجوز الكسندر بروزوروفسكي ( ١٧٣٢ - ١٨٠٩ ) تقاعد في عهد بول الاول ، وقاد الجيش الروسي لفترة قصيرة في روسيا وفي مولدافيا في سنة ١٨٠٩ ) .



@ketab_n @4_readers

ملحقا به في تركيا ، أثار طموحه ) ، بل كان مقتنعا بأنه هو الذي كُتب عليه أن يُنقذ موسكو ، وأنه من أجل ذلك انما انتُخب قائدا عاما بأرادة الشعب وخلافا لارادة الامبراطور • كان مقتنعا بأنه هو وحده القادر على البقاء على رأس الجيش ، في هذه الظروف العصيبة ، وأنه هو وحـده القادر على التصدي بدون خوف لخصم لا يُقهر مثـل نابليون ؛ لقد تملكه الهول من فكرة الأمر الذي ينبغي أن يصدره • لكن ، كان لابد من اتخاذ قرار يضع حدا لهذه المحادثات من حوله ، التي بدأت تتخذ طابعا مسرفا من الجسارة والصراحة • فاستدعى أعلى الجنرالات رتبة ، وقال وهو ينهض عن مقعده :

ــ سواء أكان رأسي حسنا أم سيئا فعليه أن يُعوِّل علـى ذاتـه وحدها •

ومضى الى « فيلي » حيث توقفت عرباته •

* * *



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الرابع

انعقد المجلس الحربي في الساعة الثانيـــة في البيت الفسيح الذي يسكنه الفلاح « اندريه سافوستيانوف » . وقد تجمع رجال هـــذه العائلة الكبيرة العدد ونساؤها وأطفالها في الغرفة الصغيرة ، في الجانب الآخر من البهو . ولم يبق في الغرفة الواسعة سوى حفيدة اندره ، الطفلة « مالاشا »[1] البالغة من العمر ست سنوات التي أعطاها صاحب الرفعة قطعـــة من السكر وهو يتناول الشاي ولاطفها ، فجلست فوق الموقد . كانت « مالاشا » تنظر من فوق الموقد باستحياء وفرح الى وجوه الجنرالات وبزاتهم وأوسمتهم وهم يدخلون واحدا وراء الآخر ويجلسون على مقاعد عريضة في « الركن الجميل »[1] تحت الايقونات. وكان الجَدّ ــ كما سمت « مالاشا » كوتوزوف في نفسها ــ جالسا على حدة ، في الركن المظلم خلف الموقد . كان غارقا في مقعد قابل للطيّ، لايني يتنهد وهو يسوّي ياقة معطفه التي كانت كأنما تضغط عنقه ، مــع ان المعطف محلول الازرار . وكان الذين يصلون يدنون واحدا وراء الآخر من المارشال ، فيصافح بعضهم ، ويومىء الى آخرين برأسه.

---

(1) مالاشا تصغير مالانيا .

(1) الركن الجميل ( كراسني اوغول ) زاوية الغرفة المزينة بالايقونات ، الى يمين المدخــل .



@ketab_n @4_readers

ولما أراد مساعده العسكري « كايساروف » أن يزيح الستائر عن النافذة التي كانت قبالة « كوتوزوف » ، أشار هذا اشارة تنمّ على ضيق الصدر ، ففهم « كايساروف » أن صاحب الرفعة لايحب أن يرى أحد وجهه .

حول طاولة الصنوبر الخشنة المغطاة بالخرائط والمخططات والأقلام، والورق ، جلس عدد كبير من الاشخاص حتى ان الخدم حملوا مقعدا آخر . وعلى هذا المقعد جلس أواخر القادمين : « كايساروف » و « ايرمولوف » و « تول » . وتحت الايقونات بالضبط ، في مركز الصدارة ، جلس « باركلي دي تولي » ، وفي عنقه وسام القديس جورج ، ووجهه شاحب معتلّ ، وجبينه عال ممتد بسبب صلعته . منذ يومين وهو يشكو الحمّى ، وقد أصابته القشعريرة في هذه اللحظة بالذات ، وأحس أنه مهدود القوى . وبجنبه جلس « اوفاروف » الذي كان يحدثه بصوت خافت ( ككل الناس ) وهو يشير بيديه اشارات عنيفة . أما « دوكتوروف » القصير ، المدوّر ، فكان يصيخ السمع بانتباه ، وهو مرفوع الحاجبين ، مكتوف اليدين . وفي الجانب الآخر بدا الكونت « اوسترمان ـ تولستوي » غارقا في أفكاره ، وقد أسند الى يده رأسه ذا التقاسيم الجريئة والعينين البراقتين . وراح « رايفسكي » . يشعّث بحركة آلية ضَجرة شعره الأسود على صدغيه وهو ينظر الى كوتوزوف تارة ، والى باب الدخول تارة أخرى . واستضاء وجه « كونومنتزين »[1] الجميل ، الرصين ، بابتسامة رقيقة ،

(1) بطرس كونو منتزين ( ١٧٦٦ ـ ١٨٢٢ ) جنرال فرقة ( لواء ) في سنة ١٨١٢ ، وزير للحرب من ( ١٨١٥ ـ ١٨١٩ ) ، منح لقب كونت في سنة ١٨١٥ .



@ketab_n @4_readers

ماكرة ، لقد التقت نظرته نظـرة « مالاشا » ، وغمزها بعينه غمزات أضحكتها •

كان الجميع ينتظرون « بينيجسن » الذي كان يفرغ من غـداء شهي ، بحجة اعادة النظر في الموقع • ظلّوا ينتظرونه من الساعة الرابعة الى السادسة ، وأثناء هذا الوقت لم يفتتحوا النقاش لكنهم تحدثوا عن أشياء أخرى بصوت خافت •

لم يترك « كوتوزوف » ركنه ويدنو من الطاولة الا بعد دخول « بينيجسن » ، لكنه دنا من الطاولة على نحو لا يسمح للشموع التي وُضعت عليها أن تُضيء وجهه •

افتتح « بينيجسن » الجلسة بالسؤال التالي : « هـل ينبغي أن نتخلى بدون قتال عن عاصمة روسيا القديمة المقدسة أم ينبغي الدفاع عنها ؟ » أعقب السؤال صمت شامل طويل ، وتجهمّت الوجوه جميعا ، وسُمع في الصمت تنهـد « كوتوزوف » وتنحنحه • كانت العيون شاخصة اليه ، وكانت « مالاشا » أيضا تنظر الى الجَد • كانت أقرب اليه من الآخرين ورأت وجهه يتشنج : وكأنما يُجهش بالبكاء • لكن ذلك لم يدم طويلا •

قال فجأة وهو يردد بصوت مُفعم بالغضب كلمات « بينيجسن » متشددا على النبرة الزائفة التي انبعثت منها :

ـ عاصمة روسيا القديمة المقدسة ! اسمح لي أن أقول لك ، يا صاحب السعادة ، أنه لا معنى لهذا السؤال بالنسبة الى روسي •



@ketab_n @4_readers

( وانحنى الى الامام بكل ثقل جسمه • ) • لايمكن طرح مثل هـذا السؤال وليس له من معنى • ان السؤال الذي طلبت الى هؤلاء السادة أن يجتمعوا من أجله سؤال عسكري • وهو التالي : « ان خلاص روسيا في جيشها • فهل الافضل أن نعرّض الجيش وموسكو للضياع بقبولنا المعركة ، أم أن نُسلم موسكو دون قتال ؟ » هذه هي المسألة التي أود أن أعرف رأيكم فيها • ( وألقى بجسمه على مسند الاريكة • ) •

ودارت المناقشات • كان « بينيجسن » يعتقد أنه لم يخسر دعواه بعد • فاقترح ، وهو متشبع بالوطنية الروسية وبحب موسكو ، وبعد أن قبل برأي « باركلي » والآخرين في استحالة خوض معركة دفاعية في « فيلي » ، أن تُمرر القطعات أثنـاء الليل من الجناح الايمن الى الجناح الايسرلتهاجمفي اليوم التالي جناح الفرنسيين الايمن• وانقسمت الآراء ، ونوقشت حسنات هذا الرأي وسيئاته • وانحاز « ايرمولوف» و « دوكتوروف » و « رايفسكي » الى رأي « بينيجسن » •

وسواء أكان الشعور بأن التضحية ضرورية قبل التخلي عن العاصمة هو الذي يحدو هؤلاء الجنرالات أم الاعتبارات الشخصية ، فقد بدوا وكأنهم لا يدركون أن هذا المجلس الحربي الذي يعقدونه لايمكن أن يغيّر مجرى الاشياء المحتوم ، وأن موسكو قد جرى التخلي عنها • وفهـم الجنرلات الآخرون ذلك ، فضربوا صفحا عن مسألة موسكو وتحدثوا عن الاتجاه الذي يجب أن يسير فيه الجيش أثناء انسحابه • أما « مالاشا » التيلم ترفع بصرها عما يجري أمامها ففهمت معنى هـذا المجلس الحربي فهما مختلفا • خُيل اليها أن هناك نزاعا شخصيا بين



@ketab_n @4_readers

« الجَـدّ » والسيد « ذي السترة الفضفاضة » كمـا كانت تسمي « بينيجسن » • رأت أنهما يغضبان وهما يتكلمان ، فانحازت في أعماق قلبها ، الى الجد • وفي غمرة النقاش ، لاحظت النظرة الخاطفة الماكرة التي حدج بها « كوتوزوف » « بينيجسن » ، وتبينت بفرح عظيم أن الجدّ قال للسيد ذي السترة الفضفاضة شيئا أثار اضطرابه : اذا احمرّ « بينيجسن » فجأة وخطـا بغضب بضع خطوات في الغرفة • كانت الكلمات التي أثرت فيه هذا التأثير هي التي عبّر بها « كوتوزوف » بصوت هادىء ، متزن عن رأيه في محاسن اقتراح بينيجسن ومساوئها، وهو : تمرير القطعات في الليل من الجناح الايمن الى الجناح الايسر لمهاجمة جناح الفرنسيين الايسر • قال « كوتوزوف » :

ـ لا أستطيع ، أيها السادة ، أن أوافق على خطة الكونت • ان تحرك القطعات على مقربة من العدو وخيم العواقب دائما ، والتاريخ العسكري يؤكد ذلك • وهكذا ••• ( وبدا عليه أنه يفكر ، باحثا عن مثل يستشهد به ، وملقيا على « بينيجسن » نظرة واضحة ساذجة ) • لنأخذ مثلا معركة « فريدلاند »[1] وحدها ، وأقدر أن الكونت يتذكر جيدا • انها لم تنجح تماما لهذا السبب الوحيد وهو أن قطعاتنا تجمعت على مقربة من العدو •••

خيم صمت دام دقيقة لكنه بدا طويلا جدا •

واستؤنفت المناقشات تتخللها فترات من الصمت في الغالب ، لان الحاضرين أحسوا أن لم يبق لديهم ما يقولونه •

---

(١). معركة فريدلاند هي المعركة التي خسرها الجنرال بينيجسن في حزيران ١٨٠٧ ، وكان آنذاك قائدا عاما للجيش الروسي •



@ketab_n @4_readers

وفي احدى هذه الفترات ، تنهد « كوتوزوف » تنهدا عميقا وكأنه يريد الكلام • فاتجهت الانظار جميعا اليه • قال :

ـ حسنا ، أيها السادة ! أرى أنني أنا الذي سيدفع الثمن •

ثم نهض ببطء واقترب من الطاولة :

ـ أيها السادة ، لقد استمعت الى آرائكم • ان بعضا منكم لا يوافقني على رأيي ، ولكني ( وتوقف قليلا ) بموجب السلطة التي خولني اياها مليكي والوطن ، آمر بالانسحاب •

بعد ذلك تفرق الجنرالات بمثل الرزانة المهيبة الصامتة التي نجدها بعد الفراغ من الدفن •

قال بعضهم شيئا للقائد العام بصوت خافت ، وبلهجة تختلف كل الاختلاف عن لهجتهم أثناء الجلسة •

نزلت « مالاشا » التي كان ينتظرها أهلها للعشاء برفق ، وهي تحط قدميها الصغيرتين العاريتين على نتوءات الموقد ، واندست بين أرجل الجنرالات ، وانسلت من الباب •

بعد أن استأذن « كوتوزوف » الجنرالات لبث جالسا زمنا طويلا ، متكئا بمرفقه على الطاولة ، وهو يفكر بالمسألة الرهيبة نفسها : « متى ، متى تَقرَّر التخلي عن موسكو ؟ متى وقع ذلك الشيء الذي حسم المسألة ومن المسؤول ؟ » •

قال لمساعده العسكري « شنيدر » الذي جاء يبحث عنه في ساعة متأخرة من الليل :



@ketab_n @4_readers

ـ ذلك ، ذلك مالم أكن أتوقعه ، لم أكن أتوقع ذلك ! وما كان ليخطر بالي !

قال شنيدر :

ـ أنت بحاجة الى الراحة ، يا صاحب السمو .

صرخ « كوتوزوف » دون أن يرد عليه ، وهو يضرب الطاولة بجمع يده العريضة :

ـ كلا ! سيذوقون الأمرّين ، كالترك ، سيذوقون الأمرّين على شرط أن ...

* * *



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الخامس

في الوقت نفسه ، وفي حادث أعظم خطرا من انسحاب الجيش دون قتال ، هو التخلي عن موسكو واحراقها ، كان روستوبتشين الذي يبدو المدبر لهذا الحادث ، يتصرف تصرفا مناقضا لكوتوزوف .

كان هذا الحادث ، التخلي عن موسكو واحراقها ، حادثا لا سبيل الى تفاديه ، شأنه شأن انسحاب القطعات بدون قتال الى ماوراء العاصمة، بعد معركة « بورودينو » .

كان بامكان كل روسي أ نيتنبأ بما حدث ، لا بالاستنتاج المنطقي بل بهذا الاحساس الذي يحيا في كل منا كما كان يحيا في آبائنا .

فبدءا من سمولنسك ، وفي جميع مدن الارض الروسية وقراها جرى عين ما جرى في موسكو ، بدون تدخل الكونت «روستوبتشين» واعلاناته . كان الشعب ينتظر العدو بغير اكتراث ، لايثور ، ولايتململ، ولا يؤذي أحدا ، لكنه كان ينتظر مصيره بهدوء ، شاعرا بقدرته على أن يجد ما يجب فعله في أصعب اللحظات . وما ان يقترب العدو حتى ينصرف أغنى عناصر السكان تاركين أرزاقهم ؛ أما أفقرهم فيمكثون ويحرقون ويدمرون كل ما يبقى .



@ketab_n @4_readers

لقد كان يسكن النفس الروسية وما يزال يسكنها ايمان راسخ بأنه قد تم مايجب أن يتم وبأن الامور ستكون على هذا المنوال دائما • وهذا الايمان ، مع الاحساس المسبق بأن موسكو ستسقط في يد الاعداء ، كان يحرك المجتمع الموسكوفي في سنة ١٨١٢ • فالذين ارتحلوا منذ تموز أو في أوائل آب أظهروا بفعلهم هذا أنهم كانوا يتوقعون سقوطها • والذين كانوا يرتحلون وهم يحملون كل ما يستطيعون حمله، تاركين بيوتهم ونصف أرزاقهم ، كانوا يفعلون ذلك بتلك الوطنية « الكامنة » التي لا تعبر عن نفسها بالجمل الطنانة ، ولا بالتضحية بالاولاد من أجل خلاص الوطن ، ولا بالافعال الاخرى المناقضة للطبيعة، وانما هي وطنية تتجلى أشيئا فشيئا ، ببساطة ، على نحو عضوي ، وتحدث ، من ثم ، أنجع النتائج •

كان يقال لهم : « من العار أن تهربوا أمام الخطر ؛ الجبناء وحدهم يهربون من موسكو » • وكان « روستو بتشين » يسعى ، في اعلاناته ، الى أن يقنعهم بأن من الشائن مغادرة موسكو • كانوا يحسون بالخزي في أن يوصفوا بالجبن ، وأن يرحلوا ، ومع ذلك فانهم كانوا يرحلون ، وهم يشعرون بوجوب الرحيل • لم كانوا يرحلون ؟ لا يمكن الافتراض بأن « روستو بتشين » أدخل الخوف الى نفوسهم بوصفه للفظائع التي كان يرتكبها نابليون في البلدان المحتلة • كانوا يرحلون ، وكان أوائل الراحلين هم الاغنياء والمثقفين الذين يعلمون جيدا أن «فيينا»و«برلين» بقيتا سالمتين ، وأن السكان كانوا يقضون فيهما ، أثناء احتلال نابليون لهما ، وقتا ممتعا بصحبة هؤلاء الفرنسيين الساحرين الذين افتتن بهم الروس آنذاك ولاسيما النساء الروسيات •



@ketab_n @4_readers

كانوا يرحلون لان مسألة ما اذا كانوا سيعيشون عيشة راضية أو منغصة في ظل الادارة الفرنسية مسألة لم يكن بالامكان طرحها . لم يكن بامكانهم أن يعيشوا في ظل الادارة الفرنسية : كان ذلك هو البلاء الاعظم . لقد بادروا بالرحيل قبل معركة « بورودينو » وأسرعوا فيه بعد المعركة ، متصامين عن النداءات التي تدعو الى الدفاع عن المدينة ، وبالرغم من اعلان الحكومة عن انتوائها رفع ايقونة « ايبيريا » والسير الى القتال ، وبالرغم من المناطيد التي ستبيد الفرنسيين ، وبالرغم من السخافات التي كان يقولها « روستو بتشين » في اعلاناته . كانوا يعلمون أن عبء القتال يقع على الجيش ، وأنه لا يمكن الذهاب الى « التلال الثلاثة »[1] ليجابهوا نابليون بالآنسات والخدم ، عندما يكون الجيش عاجزا عن القتال ، وأن عليهم أن يرحلوا ، مهما يشق عليهم أن يتركوا ممتلكاتهم نهبا للدمار . كانوا يرحلون من غير أن يفكروا في العظمة الكامنة وراء تخلي السكان عن هذه المدينة الرحبة الغنية التي ستغدو طعما للنيران ( عندما تهجر مثل هذه المدينة العظيمة المبنية من الخشب فلا بد من أن تحترق بالضرورة ) ؛ كانوا يرحلون كل بمفرده ، ولانهم رحلوا تم ذلك الحدث المليء بالعظمة الذي سيظل أعرق أمجاد الشعب الروسي . فتلك السيدة النبيلة التي غادرت موسكو منذ شهر حزيران ، ومعها زنوجها ومهرجوها ، ، الى أراضيها في مقاطعة « ساراتوف » ، شاعرة شعورا مبهما بأنها لا تستطيع أن تحني رأسها أمام نابليون ، ومتخوفة من أن يثنيها عن عزمها أمر « روستو بتشين » ، انما كانت تشارك ببساطة وعفوية في ذلك العمل العظيم الذي أنقذ

(١) ثلاث هضاب غربي موسكو .



@ketab_n @4_readers

روسيا . أما الكونت «روستو بتشين» الذي كان يعيب الذين يرتحلون حينا ، ويأمر باخلاء الدوائر حينا آخر ، ويوزع الاسلحة غير الفعالة على عصابات من السكارى في بعض الاحيان ، ويرفع الايقونات تارة ، ويمنع المطران « اوغسطين » من اخراج الايقونات وذخائر القديسين تارة أخرى ، ويصادر جميع العربات الخاصة في موسكو طورا ، أو يأمر بنقل المنطاد الذي صنعه « ليبيك » على مائة وست وثلاثين عربة طورا آخر ، ويلمح بأنه سيحرق موسكو حينا ، أو يروي أنه أحرق منزله حينا آخر ، ويلوم الفرنسيين رسميا في اعلان موجه اليهم على أنهم خربوا ميتمه ، ويفتخر باحراق موسكو تارة ، أو ينفي ذلك عن نفسه تارة أخرى ، ويأمر الشعب بمطاردة الجواسيس وبأن يقتادوهم اليه مرة ، أو يلوم الشعب على ذلك مرة أخرى ، ويطرد ذات يوم من موسكو جميع الفرنسيين ، ويترك فيها السيدة « اوبير ــ شالميه » مركز الجالية الفرنسية يوما آخر ، ويأمر في أحد الايام بالقبض على مدير البريد ، الشيخ الجليل « كليو تشاريف »[1] ، بدون سبب خاص ، ثم ينفيه ، ويجمع الشعب ليذهب الى قتال الفرنسيين في « التلال الثلاثة » ، فيسلمهم رجلا يقتلونه وينسل هو من الباب الخلفي ؛ أو يقول انه لن يعيش بعد نكبة موسكو ، أو يكتب في مذكراته أشعارا فرنسية عن دوره في المعركة ــ أما هذا الرجل فلم يكن يفهم مغزى الحدث الذي كان يتم لكنه كان يريد أن يفعل شيئا ، أن يدهش الآخرين ، أن يقوم بعمل بطولة وطنية ؛ كان كالصبي ، يلهو بذلك الحدث الجبار الذي هو التخلي عن موسكو واحراقها ، ويحاول أن يسرع أو يوقف جريان هذا التيار الشعبي العاتي الذي كان يجترفه معه .

---

(1) فيدور كليوتشاريف ( ١٧٥١ ــ ١٨٢٢ ) احد قادة الماسونية الروسية . اوقفه روستو بتشين بتهمة اعتناق الافكار المارتينية بعد ان دافع عن احد مرؤوسيه فيرستشاجين الذي سيرد ذكره .



@ketab_n @4_readers

# الفصل السادس

ألفت « هيلين » نفسها ، بعد عودتها مع الحاشية الملكية من « فيلنا » الى بطرسبرج ، في وضع حرج .

كانت تنعم في بطرسبرج برعاية خصها بها نبيل كبير يشغل منصبا من أعلى المناصب في المملكة . كما ارتبطت ، في « فيلنا » بأمير أجنبي شاب . ولدى عودتها الى بطرسبرج ، تمسك كل منهما ، وكانا في بطرسبرج ، بحقه ، فعرضت لها في حياتها مشكلة جديدة : أن تحافظ على صداقتها الحميمة مع الاثنين دون أن تجرح أيا منهما .

ان ما قد يبدو صعبا بل ومتعذرا على امرأة أخرى لم يحتج الى لحظة تفكير من الكونتيسة « بيزوخوف » التي استحقت شهرتها بأنها أذكى النساء . فلو أنها حاولت اخفاء سلوكها ، ولو أنها اصطنعت الحيلة لتتخلص من الحرج ، لافسدت بذلك كل شيء ، ولكان ذلك اقرارا منها بأنها مذنبة ، لكن هيلين ، على العكس من ذلك ، أعلنت حقها فيما فعلت ( وكانت تعتقد ذلك بصدق ) وألقت الذنب على الآخرين .

وفي أول مرة أنحى عليها الشاب الغريب باللوم ، ردت الى الوراء رأسها الجميل بأنفة والتفتت اليه نصف التفاتة وقالت له بحزم :



@ketab_n @4_readers

**ـ ها هي ذي انانية الرجال وقسوتهم ! ما كنت اتوقع شيئا آخر . ان المراة تضحي بنفسها من اجلكم ، وتتالم ، ثم تلقى هذا الجزاء . باي حق تحاسبني ، يا سيدي ، على صداقاتي وموداتي ؟ لقد كان هذا الرجل اكثر من اب بالنسبة لي .**

وأراد هذا الشخص أن يضيف كلمة فقاطعته هيلين قائلة :

**ـ حسنا ! نعم ، لعله يحمل لي عواطف اخرى غير عواطف الاب ، لكن ذلك ليس سببا في ان اغلق بابي دونه . لست رجلا لانكر الجميل .**

**وختمت كلامها وهي تضع يدها على نحرها الجميل المضطرب ، وترفع عينيها الى السماء :**

**ـ اعلم ، يا سيدي ، انني لا اطلع على مكنون عواطفي الا ربي وضميري .**

**ـ ولكن ، اصغي الي ، بالله عليك .**

**ـ تزوجني ، ولسوف اكون امتك .**

**ـ لكن هذا مستحيل .**

**ـ أنت لا تكلف نفسك النزول الي ، انت ...**

وانفجرت هيلين باكية .

بادر الامير الشاب الى تهدئتها . لكن « هيلين » كانت تقول خلال دموعها ( وكأنها لم تكن تعلم ما تفعل ) أن لا شيء يمكن أن يحول بينها وبين الزواج ، وان هناك أمثلة تحتذي بها ( كانت الامثلة قليلة آنذاك ، لكنها استشهدت بنابليون وببعض الشخصيات الرفيعة الشأن ) ، وأنها لم تكن قط زوجة لزوجها ، وأنها كانت ضحية .



@ketab_n @4_readers

قال الامير الشاب وقد بدأ يستسلم :

ـ والقوانين والدين ...

فقالت :

ـ القوانين والدين ... ما جدواها ان لم تنفع في مثل هذه الحالات!

دهشت هذه الشخصية الكبيرة لان مثل هذه المحاكمة البسيطة لم تخطر ببالها ، فاستشارت الآباء الصالحين في جمعية يسوع وكانت تربطها بهم علاقات وثيقة .

بعد بضعة أيام ، قدم لهيلين ، في احدى هذه الحفلات الساحرة التي كانت تقيمها في مغنى « كاميني اوستروف »[1] ، رجل طاعن في السن ، ذو شعر أبيض كالثلج ، وعينين سوداوين براقتين ، هو السيد « دي جوبير » الفاتن ، **اليسوعي ذو الجبة القصيرة**[2] ، الذي تحدث طويلا معها ، على ضوء أنوار الزينة وعلى أصوات الموسيقى ، عن حب الله ، وعن المسيح ، وعن قلب العذراء المقدسة وعن ألوان العزاء التي توفرها ، في هذه الحياة وفي الحياة الآتية ، العقيدة الحقيقية الوحيدة ، الدين الكاثوليكي . تأثرت هيلين وفاضت الدموع غير مرة من عينيها كما فاضت من عيني السيد « دي جوبير » ، وارتجف صوتاهما غير مرة . وجاء راقص يدعو « هيلين » فقطع حديثها مع **مرشدها المقبل** ، لكن السيد « دي جوبير » عاد وحده في مساء اليوم التالي ، وثابر منذ ذلك الحين على زيارتها .

---

(١) جزيرة في مصب النيفا ، مكان للاصطياف والتنزه .

(٢) كان اليسوعيون الذين وجدوا حماية لهم في روسيا منذ عهد بول الاول ، يقومون بالدعاية الكاثوليكية في الاوساط الراقية من المجتمع .



@ketab_n @4_readers

في ذات يوم ، أخذ الكونتيسة الى كنيسة كاثوليكية حيث ركعت أمام المذبح الذي قادها اليه • ووضع ذلك الفرنسي الفاتن ، الطاعن في السن يديه على رأسها ، فأحست ، كما روت فيما بعد ، بشيء كالنفحة الندية تتغلغل الى روحها • وفسر لها ذلك بأنه « النعمة الإلهية » •

ثم جيئت براهب **ذي جبة طويلة** سمع اعترافها وحلها من خطاياها . وفي اليوم التالي ، حملت اليها علبة فيها القربان المقدس والخمر المقدسة وتركت عندها لتحتفظ بها لنفسها • وفي غضون أيام علمت « هيلين » باغتباط أنها أصبحت تتبع الكنيسة الكاثوليكية ، وأن البابا سيخبر بذلك عما قريب وسيرسل اليها رسالة •

كل ما كان يجري في هذه الفترة حولها ومعها ، كل هذه الرعاية التي كانت غرضا لها من جانب مثل هؤلاء الرجال الاذكياء والتي تجلت في أشكال لطيفة ، مرهفة ، وذلك النقاء ، كنقاء الحمامة الذي ألفت نفسها فيه الآن ( ارتدت طوال هذه الفترة أثوابا بيضاء مزينة بأشرطة بيضاء ) ، كل ذلك أدخل السرور الى نفسها ؛ لكنها بالرغم من هذا السرور لم تنس هدفها الذي وضعته نصب عينيها لحظة واحدة • لقد أدركت ، كما يحدث دائما في ميدان الاحتيال حيث يخدع الغبي من هو أذكى منه ، أن كل هذه الكلمات وكل تلك الرعاية تهدف جوهريا ، بعد تحويلها الى الكاثوليكية ، الى ابتزاز المال منها لمصلحة المؤسسات اليسوعية ( وهو ما لمح اليه أمامها ) ، فأصرت قبل أن تفي بوعدها على أن يصار الى القيام بالعمليات اللازمة لتخليصها من زوجها • وفي اعتقادها أن وظيفة الدين لم تكن سوى مراعاة بعض اللياقات اذ يستجيب للرغبات



@ketab_n @4_readers

الانسانية • ولذلك سألت مرشدها بالحاح في أحد أحاديثهما أن يقول لها الى أي حد كان زواجها رباطا لها •

كانا جالسين في قاعة الاستقبال ، قرب النافذة ، في الغسق • ومن النافذة ، كان أريج الزهور يدخل الغرفة • وكانت « هيلين » ترتدي فستانا ابيض شفافا على صدرها وكتفيها ، أما الراهب فكان ممتلىء الجسم ، عظيم الذقن ، حليقا ، ذافم دقيق ، لطيف الشكل ، ويدين بيضاوين تلاقتا بتواضع على ركبتيه ، وكان يجلس قريبا منها ، وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة ، ملقيا على وجهها بين الحين والآخر نظرة تنم على التعجب الوادع بجمالها ، وهو يعرض لها وجهة نظره في المسألة التي تعنيهما • كانت هيلين تنظر الى شعره الجعد ، وخديه الممتلئين الحليقين ببريقهما الاخضر ، مبتسمة بقلق ، وهي تتوقع في كل لحظة ان ترى الحديث يسير في وجهة أخرى • لكن الراهب انساق وراء مهارته في فنه وان بدا مفتونا بجمال محدثته •

كانت محاكمة مرشدها على النحو التالي • لقد اقسمت ، وأنت تجهلين المعنى الحقيقي لما تفعلينه ، يمين الامانة الزوجية لشاب ارتكب من جهته منكرا ، ودنس المقدسات وهو يعقد زواجا لا يؤمن بطابعه الديني • فلم يتوفر في هذا الزواج المعنى المزدوج الذي ينبغي أن يتوفر فيه ، لكن يمينك تربطك به مع ذلك • وقد حنثت بها • فماذا ارتكبت بذلك ؟ هل ارتكبت خطيئة عرضية أم خطيئة مميتة ؟ خطيئة عرضية ، لانك تصرفت بدون نية سيئة • فاذا عقدت الآن زواجا آخر ، بقصد انجاب الاولاد ، فان خطيئتك يمكن أن تغتفر • لكن المسألة تنطوي أيضا على وجهين اثنين • الاول •••



@ketab_n @4_readers

قالت « هيلين » فجأة ، وقد أضجرها ذلك الحديث ، وعلى وجهها ابتسامتها الفاتنة :

ـ لكني أرى اني عندما اعتنق الدين الحقيقي فأنا في حل من الالتزامات التي فرضها علي الدين الخاطىء .

ذهل مرشدها لهذه البساطة التي طرحت بها تلك المسألة التي بدت عويصة ، وتعجب من سرعة التقدم التي لم يكن يتوقعها من تلميذته ، لكنه لم يستطع أن يتخلى عن ذلك البناء من الحجج الذي بني بكثير من الجهد . فقال وهو يبتسم :

ـ لنتفاهم ، ياكونتيسة .

وجعل يدحض حجج ابنته الروحية .

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل السابع

فهمت « هيلين » أن القضية شديدة البساطة والسهولة من وجهة نظر الكنيسة ، وأن مرشديها لايصّعبونها الا لانهم يخشون موقف السلطة الزمنية منها .

ومن ثم ، قررت انه ينبغي تهيئة الرأي العام . فأيقظت غيرة النبيل العجوز وقالت له ما قالته للعاشق الآخر ، أي انها عرضت المسألة بحيث أظهرت أن الوسيلة الوحيدة لاستحقاقها هي الزواج بها . ودهشت هذه الشخصية الكبيرة العجوز أول الامر ، كما دهشت الشخصية الاولى ، الشابة ، لهذا العرض الذي تعرضه امرأة في عصمة زوجها ؛ لكن ثقة « هيلين » الراسخة حين ذهبت الى أن هذا الامر سهل وطبيعي كزواج الفتاة ذاته ، فعلت فعلها به أيضا . ولو انها أبدت أدنى امارات التردد والخجل او الرياء لخسرت اللعبة ؛ لكنها لم تبد شيئا من الرياء او الخجل ، بل انها كانت تروي ببساطة وسذاجة بريئة لاصدقائها الحميمين ( أي بطرسبرح برمّتها ) أن الامير والنبيل العظيم طلبا يدها ، وأنها تحبهما الاثنين ولا تريد ان تؤلم أيا منهما .

وفي الوقت نفسه ، شاع في بطرسبرج أن هيلين لا تريد الطلاق ( فمثل هذه الشائعة جديرة أن تثير عددا كبيرا من الاشخاص يناهضون



@ketab_n @4_readers

هذا القصد غير المشروع ) وانما شاع بكل بساطة أن هيلين البائسة ، الفاتنة تتساءل حيرى : أي الشخصين ينبغي أن تتزوج • لم تكن المسألة معرفة الحد الذي يكون فيه هذا الزواج ممكنا ، وانما معرفة أي الفريقين أكثر اغراء، وكيف يقف البلاط من القضية• نعم، كان هناك بعض الاشخاص المتخلفين الذين لا يستطيعون أن يرتفعوا الى مستوى هذه القضية والذين يرون في هذا المشروع تدنيسا لقدسية الزواج ؛ لكنهم كانوا قلة وكانوا يخلدون الى الصمت ، في حين أن الاكثرين كانوا معنيين بنصيب « هيلين » وبالاختيار الذي ستختاره • أما ان كان خيرا أم شرا أن تتزوج المرأة في حياة زوجها ، فذلك مالم يتطرق اليه أحد ، لان من البديهي أن هذه المسألة حسمت من قبل في أذهان اناس أذكى منك ومني ( كما كان يقال ) ، ومن يشكك بصحة هذا الحل يعرض نفسه للظهور بمظهر الغبي او بمظهر من يجهل آداب السلوك •

ماعدا « ماريا دميتريفنا آكروسيموف » التي جاءت في هذا الصيف الى بطرسبرج لترى أحد ابنائها ، فقد جوّزت لنفسها أن تعبرّ بكل وضوح عن رأيها المناقض للرأي العام • ذلك أنها التقت « هيلين » في حفلة راقصة ، فأوقفتها في منتصف القاعة وقالت لها بصوتها الخشن ، وسط الصمت الشامل :

ـ ها ان النساء يتزوجن الآن وأزواجهن أحياء• لعلك تعتقدين أنك ابتكرت شيئا جديدا ؟ سبقتك النساء الى ذلك ، يا عزيزتي ، وابتكرنه منذ زمن طويل • ففي كلّ ••• يفعلن مثل ما فعلت • قالت هذا ، وشمرت عن كميّها العريضين بحركة مهددة ألِفتْها واجتازت القاعة وهي تلقي حولها نظرات قاسية •



@ketab_n @4_readers

مع أن الناس كانو يخافون « ماريا دميتريفنا » ، الا أنهم كانوا يعتبرونها غريبة الاطوار ، لذلك لم يحفظوا من كلماتها الا تلك الكلمة الفاحشة التي تناقلتها الالسن ، على اعتبار أنها ملحة هذه القصة .

كان الامير « فاسيلي » الذي صار منذ حين ينسى ، في الأعمّ الاغلب ، ما يقوله ، ويكرّر الشيء نفسه مائة مرة ، يقول لابنته كلما لقيها :

ـ « هيلين » ، **عندي كلمة يجب أن أقولها لك** ، ـ ثم ينتحي بها ناحية وهو يمسك بذراعها ـ **بلغني أن هناك بعض المشاريع المتعلقة ب ... كما تعلمين . حسنا ! انت تعرفين ، يا ولدي العزيز ، ان قلبي ، قلب الاب يبتهج أن يراك ... لقد تألمتِ كثيرا ... لكن ، يا ولدي العزيز ... لا تستشيري الا قلبك . هذا كل ما أقوله لك .**

ثم يشد بوجنته على وجنة ابنته ، مخفيا الانفعال نفسه ، ويبتعد . أما « بيليبين » الذي لم يفقد شيئا من شهرته كأذكى الرجال والذي كان صديقا نزيها لهيلين ، صديقا من الذين تصطنعهم النساء اللامعات، صديقا لا يمكنه أبدا أن ينتقل الى دور العاشق ، فقد أبدى لها ذات يوم ، في **جماعة من الاصدقاء** ، وجهة نظره في هذه القضية .

قالت « هيلين » :

ـ اسمع ، يابيليبين ، ( كانت هيلين تسمي أصدقاءها من نمط « بيليبين » بأسمائهم ) ـ ولامست كمّ ثوبه بيدها البيضاء المثقلة بالخواتم ـ **قل لي كما تقول لاختك ، ماذا يجب ان افعل ؟ ايهما ؟**

قطب « بيليبين » جبينه ، وراح يفكر والبسمة على شفتيه ، وقال



@ketab_n @4_readers

ـ لن تأخذيني على حين غرة ، كما تعلمين . لقد فكرت وأعدت التفكير في قضيتك . لو تزوجت الامير ( اي الشاب ) ـ وعدّ على اصابعه ـ لاضعتِ الى الابد فرصة الزواج من الآخر ، ثم انك تسخطين البلاط عليك ( فهناك ، كما تعلمين ، نوع من القرابة ) . اما لو تزوجت الكونت العجوز لاسعدته في ايامه الاخيرة ، ثم انك كارملة لهذا الرجل العظيم ... ان الامير لن يعقد بعد ذلك زواجا غير متكافىء حين يتزوجكِ .

وبسط « بيليبين » جبينه .

قالت هيلين وقد تهللت ولامست بيدها كمّ « بيليبين » مرة أخرى:

ـ هذا هو الصديق الحقيقي ! لكن المشكلة أنني أحبهما كليهما ، ولا أريد أن أحمل الغمّ اليهما . انني أبذل حياتي من أجل سعادتهما كليهما .

هزّ « بيليبين » كتفيه ملمّحا بذلك الى انه نفسه عاجز عن التخفيف من ذلك الغمّ . وفكر في نفسه :

ـ انها امرأة عاهرة ! هذا ما يُسمّى طرح المشكلة بصراحة . انها تود لو تتزوج الثلاثة معا )) .

وسألها وهو يعلم أن رسوخ شهرته يُخوّله القاء مثل هـذا السؤال الساذج دون أن يخشى فقدان هيبته :

ـ لكنْ قولي لي ، كيف سينظر زوجك الى الامر ؟ هل يوافق ؟

قالت « هيلين » التي كانت تعتقد ـ الله أعلم لماذا ـ أن بطرس يحبها أيضا :

ـ آه ! انه يحبني كثيرا ، ويفعل كل شيء من أجلي .



@ketab_n @4_readers

قطب « بيليبين » جبهته ليقول كلمة أعدها :

ـ ومتى الطلاق ؟

فضحكت « هيلين » .

كانت الاميرة « كوراجين » ، والدة « هيلين » في عداد الذين سمحوا لانفسهم أن يضعوا شرعية الزواج المنوي موضع الشك . لقد كانت تحسد ابنتها دائما أشد الحسد والآن بعد أن غدا موضوع الحسد أشد الحاحا عليها فانها لم تطق تلك الفكرة . وذهبت تستشير كاهنا روسيا لتعلم الى أي حد يمكن الطلاق ولتعلم اذا كان يحق للمرأة أن تعقد زواجا جديدا في حياة زوجها ، قال لها الكاهن : ان ذلك غير ممكن ، وكان فرحها عظيما عندما دلّها على نصّ في الانجيل ينفي بصراحة ( في اعتقاده ) امكان مثل هذا الزواج .

قصدت الاميرة ذات صباح بيت ابنتها ، مبكّرة لكي تلقاها وحدها، وقد تسلحت بهذه الحجج الدامغة ، في نظرها .

بعد أن أصغت « هيلين » الى اعتراضات أمها ابتسمت ابتسامة رقيقة ساخرة .

قالت الاميرة الأم :

ـ لكنه جاء في الانجيل صراحة : « من تزوج امرأة مطلقة ... »

قالت « هيلين » وهي تنتقل من الروسية الى الفرنسية لانه بدا لها أن في الروسية غموضا في قضيتها :

**ـ آه ! لا تتفوهي بحماقات ، يا امي ! انك لا تفقهين شيئا . ان عليّ، في وضعي ، واجبات .**

ـ لكن ، يا صديقتي ...



@ketab_n @4_readers

**ـ آه ، كيف لا تعرفين ، يا امي ، انلقداسة البابا الحق في منح الاعفاءات ...**

في تلك اللحظة ، دخلت وصيفة « هيلين » لتنبئها أن سموه في القاعة الكبرى وهو يود أن يراها .

**ـ لا ، قولي له انني لا اريد ان اراه ، وانني غاضبة عليه لانه لم يف بكلامه .**

قال شاب أشقر ، طويل الوجه والانف ، وهو يدخل :

**ـ لكل ذنب غفرانه ، يا كونتيسة .**

نهضت الاميرة الام باحترام وانحنت . فلم يعرها الشاب التفاتا . وأومأت برأسها الى ابنتها واتجهت الى الباب .

وقالت في نفسها وهي تصعد الى عربتها :

« لا ، الحق معها ، ــ لقد ذهبت حججها أدراج الرياح لدى ظهور سموه ــ الحق معها ، لكن كيف جرى أننا لم نعرف ذلك في شبابنا الذي انقضى الى غير رجعة ؟ مع أنه كان بسيطا جدا . »

في أوائل آب اتضحت بدقة قضية « هيلين » فكتبت الى زوجها ( الذي يحبها كثيرا ، كما كانت تعتقد ) رسالة تعلن فيها نيتها الزواج من ن.ن. واعتناقها الدين الحقيقي الوحيد ، وترجوه أن يقوم بالاجراءات اللازمة للطلاق والتي سيدله عليها حامل الرسالة .

« وعلى هذا، أرجو الله ياصديقي، أن يرعاك بعنايته العظيمة المقدسة. صديقتك هيلين » .

حملت هذه الرسالة الى منزل بطرس ، بينما كان هو في ساحة القتال ، في بورودينو .



@ketab_n @4_readers

# الفصل الثامن

غادر بطرس بطارية « رايفسكي » للمرة الثانية ، عند نهاية معركة « بورودينو » ، وتبع جمهور الجند في واد نحو « كنيازكوفو » ، ووصل الى مركز اسعاف ، فلما رأى الدم وسمع الصراخ والأنين استأنف طريقه على عجل واختلط بسيل الجند مرة أخرى •

كان الشيء الوحيد الذي يرغب فيه الآن من كل قلبه هو أن يترك بأقصى سرعة هذه الانطباعات الرهيبة التي عاش في ظلها هذا النهار ، وأن يعود الى شروط حياته العادية ، وأن ينام بهدوء في غرفته وعلى فراشه • كان يُحس أنه لن يكون في مقدوره تَبيُّن مافي نفسه وفَهْم ما رآه وما انتابه الا في تلك الشروط العادية • لكن هذه الشروط العادية لم تكن موجودة في أي مكان •

لم يُغير من الامر شيئا توقّفُ القذائف والرصاص عن الصفير هنا ، فعلى الطريق الذي كان يسير فيه ، وحيثما تطلع ، كانت الاشياء شبيهة بساحة المعركة : نفس الوجوه المتوجعة ، المنهوكة أو السادرة على نحو مستغرب ، نفس معاطف الجنود ، نفس ضوضاء الانفجارات التي كانت تملأ النفس خوفا وان بعدت ، وانضاف الى ذلك نقص الهواء، والغبار •



@ketab_n @4_readers

جلس بطرس على حافة الطريق ، بعد أن قطع حوالي ثلاثة فراسخ على طريق « موجايسك » الكبرى •

هبط الغسق على الارض وصمت دوي المدافع • فتمدد بطرس متكئا على يده ولبث زمنا طويلا هكذا ينظر الى الاطياف التي تمر أمامه في العتمة • وكان يُخيَّل اليه أبدا أن قذيفة سقطت عليه وهي تصفر صفيرا مرعبا ، فينتفض ويهب جالسا • لم يكن يعلم مقدار الزمن الذي مكث فيه هنا • وفي منتصف الليل أقبل ثلاثة جنود يجمعون بعض الاغصان ونزلوا بجنبه وأشعلوا النار •

وضع الجنود قدرا على النار وهم يختلسون النظر الى بطرس ، وفتّوا فيه بسكويتا وأضافوا اليه دهنا • فاختلطت برائحة الدخان رائحة لذيذة من طعام دسم • ونهض بطرس بجهد وتنهد • كان الجنود الثلاثة يأكلون دون أن ينتبهوا اليه ويتحدثون فيما بينهم •

وسأله أحد الجنود فجأة :

ــ وأنتَ ، من أين أنت ؟

لا ريب أنه كان يقصد من هذا السؤال ما كان يفكر فيه بطرس بالذات ، أي : اذا شئت أن تأكل أطعمناك ، لكن قل لنا انْ كنت رجلا فاضلا •

قال بطرس ، وقد أحسّ بضرورة الحطّ من مركزه الاجتماعي جهدَ المستطاع ليكون أقرب الى هؤلاء الجنود وليفهموه فهما أعظم :

ــ أنا ؟ ••• أنا ؟ ••• أنا في الحقيقة ضابط من المتطوعين ، لكن قطعتي ليست هنا ، جئت الى المعركة وأضعت رجالي •



@ketab_n @4_readers

قال أحد الجنود :

ـ أرأيتَ الى هذا !

هزّ جندي آخر رأسه ، وقال الاول وهو يناول بطرس ملعقة خشبية بعد أن لعقها :

ـ حسنا ! كلْ من هذا الطبيخ اذا شئت .

دنا بطرس من النار وطفق يأكل من طبيخ القدر الذي بدا له أشهى ما تناوله من مأكولات . وبينما كان منحنيا على القدر بنهم ، يغترف منها ملاعق ملأى ويلتهمها واحدة تلو الاخرى ، أضاءت النار وجهه ، فنظر اليه الجنود بصمت .

وسأله أحدهم مرة أخرى :

ـ حسنا ، قل لنا الآن الى أين تريد أن تذهب ؟

ـ الى موجا يسك .

ـ واذن فأنت سيّد ؟

ـ نعم .

ـ وما اسمك ؟

ـ بطرس « كيريلوفيتش » .

ـ هيّا ، يا بطرس كيريلوفيتش ، تعال معنا وسنوصلك .

اتجه بطرس والجنود الى « موجا يسك » في الظلام الحالك .

كانت الديكةُ تصيح عندما بلغوا المدينة وصعدوا السفح الذي يؤدي اليها . كان بطرس يتبع الجنود ، ناسيا كل النسيان أن نزله في



@ketab_n @4_readers

أدنى السفح وأنه قد تجاوزه . ما كان ليذكر ذلك ( لفرط اضطرابه ) لولا أن اصطدم ، في منتصف السفح ، بسائسه الذي كان عائدا الى النزل بعد أن ذهب يبحث عنه في المدينة . عرفه خادمه في الظلمة من قبعته البيضاء ، وقال له :

ـ ياصاحب السعادة ، لقد يئسنا من العثور عليك . لـم أنت راجل ؟ وأين تذهب ؟ تعال ، أرجوك .

قال بطرس :

ـ آه ! نعم !

وقف الجنود ، وقال أحدهم :

ـ هل وجدت جماعتك ؟

وقال الآخران :

ـ الوداع ، يا بطرس « كيريلوفتش » على ما اعتقد ؟ الوداع ، يا بطرس « كيريلوفتش » !

قال بطرس وهو يتجه مع سائسه الى النزل :

ـ الوداع .

قال في نفسه وهو يمد يده الى جيبه : « يجب أن أعطيهم شيئا » . وهتف به صوت داخلي : « كلا ، لايجب أن تعطيهم » .

لـم يجد بطرس في النزل مكانا : كانت جميع الغرف مشغولة . فمضى الى الفناء واستلقى في عربته متدثرا بمعطفه حتى رأسه .

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل التاسع

لم يكد بطرس يضع رأسه على الوسادة حتى أحس أنه ينام ؛ واذا به يسمع هدير المدافع ، والأنّات والصرخات ، وانفجار القذائف ، ويشم رائحة الدم والبارود ، بوضوح شديد كوضوح الواقع ، فاستبد به احساس بالهول وخوف من الموت ، وفتح عينيه مرعوبا ورفع رأسه من تحت المعطف . كان كل شيء هادئا في الفناء ، الا جنديا وصيفا يحدّث البواب عند البوابة ويخبط في الوحل . وفوق رأسه ، في ظل الطنف الاردوازي ، صفقت حمامات بأجنحتها ، جافلة من الحركة التي أتى بها وهو ينهض . كان الفناء بأسره مشبعا بتلك الرائحة القوية ، الهادئة ، رائحة الفنادق التي انعشته في تلك اللحظة ، رائحة العلف والزبل والقطران . وفي الفرجة بين الطنفين الاسودين ، كان يشاهد السماء الصافية المنجمة .

قال بطرس في نفسه وهو يغطي رأسه ثانية :

ـ الحمد لله ، لقد انتهى ذلك كله . اوه ! ما أبشع الخوف ، وكيف استسلمت له استسلاما مخزيا ! أما « هم » .. فظلوا طوال الوقت ، الى النهاية ، صامدين ، هادئين ... و « هم » تعني الجنود ، جنود البطارية ، والجنود الذين أطعموه ، والجنود الذين كانوا يصلّون أمام



@ketab_n @4_readers

الأيقونة . « هم » تعني هؤلاء الرجال الغرباء الذين كان يجهلهم حتى الآن والذين راحوا يتميّزون في ذهنه ويباينون غيرهم من الرجال .

حدّث بطرس نفسه وهو ينام: « ليتني أكون جنديا ، مجرد جندي! ليتني أتغلغل بكل كياني الى هذه الحياة المشتركة ، وأتشبع بما يجعلهم على ما هم عليه ! لكن كيف انعتق من كل ما لا خير فيه ، من هذا العبء التسيطاني للكائن الخارجي ؟ جاء وقت كنت استطيع أن أكو نفيه كما أشتهي . كنت استطيع أن أهرب من منزل والدي كما كنت أريد .كنت أستطيع أيضا ، بعد مبارزتي مع « دولوخوف » ، أن ألحق بفوج من الافواج لاكون جنديا فيه . » وطافت بمخيلته الصور ، الغداء في النادي الذي تحدّى فيه « دولوخوف » ، ولي نعمته في « تورجوك » . وها هوذا يتمثل اجتماعا رسميا في المحفل . كانت تلك الجلسة في النادي الانكليزي . وكان يجلس الى رأس الطاولة شخص أنيس اليه ، قريب منه ، عزيز عليه . انه هو بالذات ! ذلك المحسن . قال بطرس في نفسه: لكنه ميت ! نعم ، هو ميت ، لم أكن أعلم أنه كان حيا . كم أسفت على موته وما أعظم سعادتي أن يكون حيا » ! على أحد جانبي الطاولة جلس آناتول ، دولوخوف ، نيزفيتسكي ، دينيسوف ، وآخرون مثلهم ( كانت الفئة التي ينتسب اليها هؤلاء الناس متميزة في الحلم بوضوح، في نفس بطرس كتميز الفئة التي سماها « هم » ) ، كانوا يصرخون بقوة ويغنون ، وكان صوت المحسن الذي يتكلم بلا كلل يطغى على أصواتهم ، وكان رنين كلماته مثقلا بالمعاني ، متصلا ، كمثل دويّ ساحة القتال ، لكنه رنين عذب ومعزّ . لم يكن بطرس



@ketab_n @4_readers

يفهم ما يقوله المحسن ، لكنه كان يعلم ( كان نمط افكاره متميزا في الحلم ايضا ) انه يتحدث عن الخير ، وعن امكان أن يكونوا « هم » على ما كانوا عليه ،و« هم » يحيطون بالمحسن من كل جانب ، بوجوههم البسيطة ،الطيبة ،الصامدة • لكنهم بالرغم من طيبتهم ،لم يكونوا ينظرون الى بطرس ، لم يكونوا يعرفونه • وأراد بطرس أن يجتذب انتباههم اليه وأن يقول شيئا فنهض ، وفي الوقت نفسه أحس بالبرد يصيب رجليه اللتين تكشفتا •

استشعر الخجل وردّ المعطف الذي انزلق عن رجليه • وبينما كان يسوي المعطف ، فتح عينيه لحظة ورأى الاطناف ذاتها ، والاعمدة ذاتها ، والفناء ذاته ، لكن ذلك كله كان مائلا الآن الى الزرقة ، صافيا منقطا بالندى أو بالجمد الابيض •

قال في نفسه : « ها قد بزغ الفجر ، لكن هناك شيئا آخر يشغلني • ينبغي أن أصغي حتى النهاية وأن أفهم كلمات المحسن • » وتغطى بمعطفه مرة أخرى ، الا أنه لم يبق محفل ولا محسن • لم تبق سوى افكار صيغت صياغة واضحة بالكلمات ، افكار عبّر عنها شخص ما أو جاءت اليه نفسه •

عندما تذكر بطرس افكاره فيما بعد ، كان على يقين من أن أحدا غيره قالها له ، مع أن انطباعات النهار هي التي أوحت بها • خيّل اليه أنه لم يكن قادرا قط على أن يملك مثل هذه الافكار ، في حالة اليقظة ، وأن يُعبّر عنها مثل هذا التعبير •

كان الصوت يقول : « الحرب هي أصعب خضوع يخضعه ارادة



@ketab_n @4_readers

الانسان للقوانين الالهية . البساطة هي الخضوع لله ، ولا يمكن الافلات منه . و « هم » بسطاء . هم لا يفكرون وانما يعملون . الكلام من فضة والسكوت من ذهب . لا يستطيع المرء أن يملك شيئا مادام يخاف الموت . ومن لم يخف الموت يملك كل شيء . لا يعرف الانسان حدوده بدون الالم ، لايعرف نفسه بدون الالم . أصعب الامور ( كما ظل بطرس يفكر أو يسمع في الحلم ) أن يجمع المرء في نفسه معنى الاشياء جميعا . وتساءل بطرس : أن يجمع كل شيء ؟ لا ، لايمكن جمع الافكار ، بل التوفيق بين هذه الافكار ، هو ما يلزمنا . نعم يجب التوفيق بينها ، يجب التوفيق بينها ! » . وكرر « بطرس » هذه الكلمة بحماسة داخلية ، وهو يشعر أن هذه الكلمات ، هذه الكلمات وحدها تعبّر عما أراد أن يقوله وتحل المشكلة التي كانت تؤرّقه .

ــ نعم ، يجب التوفيق ، حان وقت التوفيق .

وردد صوت :

ــ يجب ربط الخيول ، حان وقت الربط ، يا صاحب السعادة ! ياصاحب السعادة ، يجب ربط الخيول ، حان وقت الربط(1) ...

كان الصوت صوت خادمه الذي كان يوقظه . كانت الشمس تصب أشعتها في وجه بطرس . ألقى نظرة الى الفناء الوسخ الذي كان الجنود يسقون في وسطه ، قرب البئر ، خيولهم الضامرة ، بينما أخذت العربات تخرج من البوابة . فأشاح بوجهه مشمئزا ، وأغمض عينيه ، وتهالك

(1) تلاعب لفظي بين فعلين متجانسين جناسا ناقصا في الروسية ربط او وفق بين الافكار وربط الخيل او قرنها .



@ketab_n @4_readers

على مقعد عربته • « كلاّ ، لا أريد ذلك ، لا أريد أن أرى وأفهم ذلك • أريد أن أفهم ما كان يتجلى لي في أثناء نومي • لو استمر الحلم ثانية واحدة أيضا لفهمت كل شيء • لكن ما الذي ينبغي أن أفعله ؟ التوفيق، فكيف أوفق بين الاشياء جميعا ؟ » وأحس بطرس برعب أن معنى ما رآه وما فكّر فيه في الحلم قد انهار •

أخبره السائس والحوذي والبواب أن ضابطا أنبأهم بتقدم الفرنسيين نحو « موجايسك » وأن الروس يتراجعون • نهض بطرس وأمر سائسه بربط الخيول وباللحاق به ، ومضى ماشيا عبر المدينة •

كانت القطعات تنصرف وتترك وراءها نحو عشرة آلاف جريح ، يراهم الناظر في الافنية وفي نوافذ المنازل ، ويراهم متجمعين في الشوارع حول العربات التي ستنقلهم وقد علا صوت صراخهم وتجديفهم وضربهم • أما بطرس فانه قدم عربته التي لحقت به لجنرال جريح يعرفه ، ومضى معه الى موسكو • وفي الطريق علم بموت شقيق زوجته وبموت الامير آنـدره •

* * *



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل العاشر

في الثلاثين من الشهر ، بلغ بطرس موسكو . وعند الحاجز تقريبا ، لقي مساعدا عسكريا للكونت « روستوبتشين » . قال له المساعد :

ــ بحثنا عنك في كل مكان . ان الكونت بحاجة ماسة الى أن يراك . وهو يرجوك أن تقابله رأسا لامر عظيم الاهمية .

استقل بطرس عربة واتجه الى الحاكم ، دون أن يمر ببيته .

كان الكونت « روستوبتشين » قد عاد في ذلك الصباح بعينه من مغناه في « سوكولنيكي »[1] ، في الضواحي . وكانت غرفة الانتظار وغرفة الاستقبال غاصتين بالموظفين الذين استدعوا أو الذين جاؤوا يسألون الاوامر . وقد أجرى « فاسيلتشيكوف »[2] و « بلاتوف » مقابلة مع الكونت أوضحا له فيها أن من المتعذر الدفاع عن موسكو وأن العاصمة سوف تسلّم . ومع أن هذه الانباء أخفيت عن السكان ، الا أن موظفي الادارات ورؤساءها كانوا يعلمون أن موسكو ستسقط في أيدي الاعداء ، كما كان الكونت « روستوبتشين » نفسه يعلم ذلك ؛

(١) سوكولنيكي : غابة عظيمة في الشمال الشرقي من موسكو ، مكان اصطياف .

(٢) هيلاريون فاسيلتشيكوف ( ١٧٧٧ ــ ١٨٤٧ ) جنرال ، قائد فرقة الخيالة التي كانت تشكل مؤخرة الجيش الروسي مثل قوزاق الجنرال بلاتوف .



@ketab_n @4_readers

ولذلك جاؤوا ، دفعا للمسؤولية ، كي يقابلوا الحاكم ويسألوه عما يجب أن يفعلوه بالمصالح الموكلة اليهم •

في اللحظة التي كن بطرس يدخل فيها غرفة الاستقبال ، خرج منها رسول موفد من الجيش •

أشار الرسول بيده اشارة قانطة ردا على الاسئلة التي كانت تطرح عليه، وعبر غرفة الاستقبال • نقّل بطرس عينيه المتعبتين ، بينما كان ينتظر ، في مختلف الموظفين الموجودين في القاعة ، الشباب والشيوخ منهم ، العسكريين والمدنيين ، الكبار أو الصغار • كان الاستياء والقلق باديين عليهم • أقترب بطرس من جماعة لمح بين أفرادها شخصا يعرفه • وبعد أن حيوه ، استأنفوا حديثهم •

ـ ان طرده ثم استدعاءه ليس شرا • ففي مثل هذا الوضع لايستطيع المرء أن يضمن شيئا •

قال آخر وهو يريهم ورقة مطبوعة امسكها بيده :

ـ لكن ، هاكم ما يكتب •

قال الاول :

ـ هذا شيء آخر ، لابد من هذا للشعب •

سأل بطرس :

ـ ما هـذا ؟

ـ انظر ، هذا اعلان جديد •

أخذها بطرس وراح يقرؤها •



@ketab_n @4_readers

« ان الامير صاحب الرفعة ، بغية الالتحاق بالقطعات التي تسير الى لقائه بأسرع ما يمكن ، اجتاز « موجايسك » وتمركز في موقع منيع لا يستطيع العدو أن يهاجمه فيه على غرة . وقد أرسل اليه من هنا ثمانية وأربعون مدفعا مع ذخائرها ، ويقول صاحب الرفعة انه سيدافع عن موسكو حتى آخر قطرة من الدم وأنه مستعد للقتال في الشوارع اذا دعت الضرورة الى ذلك . لاتبالوا ، أيها الاصدقاء ، اذا كانت الادارات مغلقة ، اذ ينبغي أن توضع شؤون الدولة في مأمن من الخطر . أما نحن فسوف نحاسب هذا الآثم حسابا عسيرا . واذا حان الوقت احتجت الى فتيان أشداء من المدينة والريف معا . سأوجه نداء قبل يوم أو يومين ، أما في هذه اللحظة فلا جدوى من ذلك ،والصمت أجدر بي . من المستحسن أن يحمل المرء فأسا ، ولا بأس من أن يملك حربة ، وافضل من ذلكأن يكون لديه شوكة ، فليس الفرنسي بأثقل من حزمة الشيلم . سآمر غدا ، بعد الغداء ، برفع أيقونة « ايبيريا » ليطاف بها في موكب ديني من أجل جرحى المستشفى . وهنالك نبارك الماء فيكون شفاؤهم أسرع ؛ أما أنا فصحتي حسنة الآن : أصبت بوجع في عيني ، لكني أصبحت الآن افتح عيني الاثنتين وأحدّق بهما » .

اعترض بطرس قائلا :

ـ لكن العسكريين قالوا لي : ان من المتعذر اطلاقا القتال في المدينة وأن الموقع ...

قال الموظف الاول :

ـ هذا بعينه ما كنا نتحدث عنه .



@ketab_n @4_readers

فسأله بطرس :

ــ ما معنى قوله : «أصبت بوجع في عيني ، لكني أصبحت افتحهما»

فأجاب المساعد العسكري وهو يبتسم :

ــ طلعت للكونت شعيرة في عينه • وقد انزعج كثيرا عندما قلت له ان الشعب جاء يسأل عن صحته •

وأضاف فجأة مخاطبا بطرس وهو يبتسم :

ــ قل لي ، يا كونت ، أصحيح ما بلغنا من أن لك متاعبك العائلية ، وأن الكونتيسة زوجتك ستكون •••

قال بطرس غير مكترث :

ــ لا علم لي بشيء • ماذا قيل لك ؟

ــ اوه ، انت تعلم أن الناس يتقوّلون كثيرا ، ولن أكرر ما قيل لي •

ــ وماذا قيل لك ؟

أجاب المساعد العسكري والابتسامة ماتزال على شفتيه :

ــ انهم يروون أن الكونتيسة زوجتك تستعد للسفر الى الخارج • لا شك أنها أقاويل •••

قال بطرس وهو يلقي حوله نظرة ساهمة :

ــ ممكــن •

وسأله بطرس وهو يشير الى شيخ قصير يرتدي سترة زرقاء ، شديدة النظافة ، شيخ نضر اللون ، طويل اللحية ، ابيض الحاجبين كالثلج :



@ketab_n @4_readers

ـ من هـذا ؟

ـ هذا ؟ هذا تاجر ، أعني صاحب حانة ، « فيريستشاغين » . لعلك سمعت عن قصة الاعلان .

قال بطرس وهو يتمعن في وجهه الرصين الهادىء باحثا فيه عـن معاني الخيانة :

ـ آه ، أهو « فير يستشاغين » اذن ؟

قال المساعد العسكري :

ـ ليس هذا . هذا أبو الذي كتب الاعلان . ابنه في السجن وأظن أن عقابه سيكون شديدا .

اقترب من المتحدثين شيخ قصير على صدره وسام ، وموظف اخر ، ألماني ، في عنقه وسام .

كان المساعد العسكري يروي :

ـ انها ، كما ترى ، قصة مشوشة . فمنذ شهرين ظهر الاعلان ، وأخطر الكونت فأمر بالتحقيق . وقام « غافريلو ايفانيتش » بالتحريات فوجد أن هذا الاعلان مر بثلاث وستين يدا . كان يسأل الواحد : ممن أخذته ؟ من فلان ، فيذهب اليه ويسأل : وانت ممن اخذته ؟ الخ ... حتى وصل الى « فيريستشاغين » ، وهو تاجر صغير نصف متعلم ، كما تعلم . فسأله : ممن أخذته ؟ لاحظ أننا كنا نعلم ممن أخذه ، لا يمكن أن يكون قد أخذه الا من مدير البريد . ولابد من الاعتقاد بالتواطؤ

(١) فيريستشاغين : ابن تاجر ، مستخدم صغير في بريد موسكو ترجم واذاع مقالة عن « جريدة هامبورغ » تمجد نابليون .



@ketab_n

@4_readers

بينهما . قال : لم آخذه من أحد ، وأنا حررته بنفسي . وعبثا هدّدوه وألحوا في السؤال فلم يتراجع عن موقفه : أنا ألّفته . وأخبر الكونت بذلك فأمر باستقدامه وسأله : ممن أخذت هذا الاعلان ؟

فأجابه : كتبته بنفسي . قال المساعد العسكري وعلى وجهه ابتسامة الاعتزاز والفرح : الواقع ، أن الكونت ، وأنت تعرفه ، استشاط غضبا ، تصوره أمام مثل هذه الوقاحة والكذب والعناد ...

قال بطرس :

ــ آه ، فهمت ! كان الكونت يريد منه أن يبلغ عن « كليوتشاريف »

قال المساعد العسكري مرغوبا .

ــ لا،ليس الامر كذلك .كان لكليو تشاريف على كل حال ،أخطاؤه الخليقة باللوم والتي نفي من أجلها . لكن الواقع أن الكونت كان ساخطا . قال له وهو يتناول عن الطاولة جريدة هامبورغ : « كيف أمكنك أن تؤلف مثل هذا الاعلان . هاهوذا الاعلان في الجريدة . انت لم تؤلّفه ، أنت ترجمته ، ترجمته ترجمة سيئة ، لانك لا تعرف الفرنسية أيها الغبي . ما رأيك في ذلك ؟ فقال له : أنا لم أقرأ جريدة ، بل حررته بنفسي ــ اذن ، اذا كان الامر كذلك ... فأنت خائن ، وسأحيلك الى القضاء ، وسوف تشنق . قل : من أين أخذته ؟ ــ لم أقرأ جريدة ، وحررته بنفسي . بقيت الامور عند هذا الحد . واستدعى الكونت آباه، الا أن الابن أصرّ على أقواله . وأحيل الى القضاء وحكم بالاشغال الشاقة ، فيما أظن . والآن جاء الاب يستعطفهم من أجله . لكنه رجل سافل ! فهو كما تعلم ابن تاجر ، تافه ، فاسق ، لا أدري أين تلقى دروسه، يتصور أنه فوق الناس . أما أبوه فهو يملك حانة قرب جسر بطرس ، وفي حانته ايقونة تمثل الاله الاب ممسكا باحدى يديه صولجانا وباليد الاخرى الكرة الارضية ، حسنا ! لقد حمل هذه الايقونة الى بيته بضعة أيام ، أتدري ماذا فعل بها ؟ وجد رساما من أوباش الناس ...



@ketab_n @4_readers

# الفصل الحادي عشر

في وسط هذه القصـــة الجديدة ، دُعي بطرس الى الدخول على الحاكم .

دخل بطرس مكتب الكونت « روستوبتشين » . كان « روستو بتشين » مقطبَ الحاجبين ، يفرك بيده جبهته وعينيه عندما دخل بطرس . وكان معه رجل قصير يحدثه ، فلما ظهر بطرس صَمت وخرج .

ما إن توارى ذلك الرجل حتى قال « روستوبتشين » :

آه ! مرحبا بالمحارب الشهير . لقد سمعنا عن مآثرك ! لكني أريد أن أحدثك في موضوع آخر . انت ، يا عزيزي ، ــ بيننا ــ ماسوني ؟ وتابع كلامه بلهجة قاسية كأن في الانتساب الى الماسونية شرا وكأنه قرر أن يغفر له هذا الشرّ . وظل بطرس صامتا .

ــ يا عزيزي ، انــا حسن الاطلاع بهــذا الصدد ، لكنني اعلم أن الماسونيين ليسوا سواء ، وآمل ألا تكون من هؤلاء الذين يريدون ضياع روسيا بحجة انقاذ الجنس البشري .

رد بطرس :

ــ نعم ، أنا ماسوني

ــ حسنا ! أظنك يا عزيزي ، لاتجهل أن السيدين « سبيرانسكي»



@ketab_n @4_readers

و « ماغنيفسكي » قد أُبعد الى حيث يستحقان كما أُبعد السيد « كليوتشاريف » وآخرون ممن تذرعوا ببناء هيكل سليمان لتدمير هيكل الوطن . ولا يفوتك أن هناك أسبابا موجبة لذلك ، وأنني لم أكن لأنفي مدير البريد من هنا لو لم يكن رجلا خطيرا . وقد علمت أنك ارسلت اليه عربة ليغادر المدينة بل وانك قبلت أن تضع بعض الاوراق في عهدتك . اني أحبك ولا أريد أن يصيبك مكروه ، وبما أنك في نصف سني فاني أنصحك كما ينصح الاب ابنه أن تقطع جميع علاقاتك بهذا النوع من الناس وأن تسافر أنت نفسك من هنا بأسرع ما يمكن.

سأله بطرس :

ـ لكن ، في أي شيء أذْنب « كليوتشاريف » ؟

فصرخ « روستوبتشين » :

ـ من حقي معرفة ذلك وليس لك أن تسأل عنه .

قال بطرس دون أن ينظر اليه :

ـ اذا كنت تتهمه بتوزيع نداءات نابليون فهذا غير ثابت عليه ، و « فيريستشاغين » ...

فصرخ « روستوبتشين» بصوت أقوى وهو يقطب حاجبيه ويقاطعه:

ـ **وصلنا الى لب المشكلة** . « فيريستشاغين » خائن باع نفسه ، وسيلقى العقاب الذي يستحقه . ـ كان يتكلم وهو هائج من الغضب كما يهيج المرء عندما يتذكر اهانة شخصية ـ لكني لم أستدعك لأناقش شؤوني معك ، وانما لأسوق اليك النصيحة ، أو الأمر اذا شئت . أرجوك أن تقطع كلا علاقاتك بأناس مثل « كليوتشاريف » وأن ترحل



@ketab_n @4_readers

من هنا ، أما حماقاتهم فسأحملهم جميعا على العدول عنها . ـ وحين رأى نفسه كأنما يصرخ في وجه « بيزوخوف » وهو غير مذنب بعدُ ، اضاف وهو يمسك ذراعه بحركة ودّية ـ **نحن على ابواب كارثة عامة ، وليس لدي الوقت لملاطفة كل من لهم صلة بي** ، فقد تمر لحظات لا اعرف اين أنا ! **حسنا ! ماذا تفعل ، انت شخصيا ، يا عزيزي ؟**

أجاب بطرس دون أن يرفع عينيه ودون أن يغير مافي وجهه من أمارات التفكير .

ـ **اني لا افعل شيئا .**

قطب الكونت حاجبيه وقال :

ـ **اسمع نصيحة الصديق ، يا عزيزي . ارحل بأسرع ما يمكن . هذا كل ما عندي . والسلام لمن اهتدى !** وداعا يا عزيزي .

وبينما بطرس يصل الى الباب صرخ به :

ـ آه ! نعم ، اصحيح أن الكونتيسة وقعت بين براثن **آباء جمعية يسوع ؟**

لم يجب بطرس بشيء ، وخرج من عند « روستوبتشين » كالح الوجه ، هائجا ، على نحو لم يُر بمثله قط .

عندما عاد الى البيت كان الظلام مخيما . وجاء اليه سبعة أو ثمانية أشخاص في السهرة : أمين سر اللجنة وعقيد كتيبته ووكيله وكبير الخدم وبعض ذوي المصالح . كانوا جميعا بحاجة اليه لانجاز بعض الاعمال التي ينبغي أن يبتّ فيها . ولم يكن بطرس يفقه شيئا منها ، ولا يهتم بهـا وبغيرها من المسائل ، ولا يجيب الا ليتخلص من هؤلاء الناس . وأخيرا ، عندما بقي وحده ، فضّ رسالة امرأته وقرأها .



@ketab_n @4_readers

« هـُم » ، جنود البطارية ، الأمير آندره قـُتل ... الشيخ ...!
البساطة هي الخضوع لله ، يجب أن نتألم ... معنى الاشياء جميعا ... يجب أن نوفق بينها ... زوجتي تتزوج ... يجب أن ننسى ونفهم ... » واقترب من سريره ، وارتمى عليه دون أن يخلع ثيابه ، ونام من فوره .

عندما استيقظ في صباح اليوم التالي، أبلغه رئيس الخدم أن شرطيا أرسله الكونت «روستوبتشين» جاء يسأل ان كان الكونت «بيزوخوف» قد سافر أم هو ينوي السفر .

كان ينتظره في قاعة الاستقبال نحو عشرة أشخاص لأعمال لهم . لبس بطرس ثيابه على عجل ، وبدلا من أن يذهب لمقابلتهم ، سلك سلـّم الخدم وخرج من بوابة الفناء .

منذ ذلك الحين وحتى نهاية خراب موسكو لم يـَر بطرس أحد ممن يحيطون به ، بالرغم من البحث والاستقصاء، ولم يعلم أحد ما الذي حلّ بـه .

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل الثاني عشر

ظل آل « روستوف » في المدينة حتى أول ايلول ، أي حتى عشية دخول العدو الى موسكو .

بعد انضمام « بيتيا » الى فوج قوزاق « أوبولنسكي » وسفره الى « بيلاتسيركوف » حيث كان فوجه يتشكل ، استولى الخوف على الكونتيسة . فكون ولديها في الحرب، وأنهما هجرا كنف جناحها، وأن أحدهما أو كليهما قد يُقتل اليوم أو غدا كما قُتل الاولاد الثلاثة لاحدى صديقاتها ، هذه الفكرة خطرت في بالها لاول مرة بوضوح فظ . حاولت أن تُعيد « نيقولا » الى البيت ، وأرادت أن تذهب هي نفسها وتلحق ببيتيا ، أو أن تعيّنه في مكان ما في بطرسبرج ، فتبيّن أن ذلك كله مستحيل . لم يكن « بيتيا » يستطيع العودة الا مع فوجه أو بواسطة انتقاله الى فوج آخر مقاتل . أما « نيقولا » فكان في مكان ما في الجيش ، ومنذ رسالته الاخيرة التي وصف فيها لقاءه مع الاميرة « ماريا » وصفا مفصلا ، انقطعت أخباره عن أهله . لم تكن الكونتيسة لتنام الليل من جرّاء ذلك ، فاذا أغفت رأت في الحلم ولديْها قتيلين . وأخيرا ، وبعد مراجعات ومشاورات ، عثر الكونت على وسيلة لتهدئتها . ذلك أنه نقل « بيتيا » من فوج « اوبولنسكي » الى فوج « بيزوخوف » الذي كان يتشكّل قرب موسكو . ومع أن « بيتيا »



@ketab_n @4_readers

ظلّ في الخدمة ، الا أن هذا النقل منح الكونتيسة العزاء بأن يكون أحدُ ولديها في ظل جناحها ، والأمل بأن تضع ابنها في موضع لايسمح له بتركها ، وأن تعيّنه في مراكز لا يتعرض فيها لمخاطر القتال • كان يبدو لها « وكانت تُقرّ بذلك » ان ابنها البكر « نيقـولا » ، أحب أولادها اليها ، مادام وحده في خطر ؛ لكنْ ، عندما اصبح ابنها المدلل الاصغر ، هذا العفريت « بيتيا » ، الذي كان مهملا لدروسه ، وكان يحطم كل شيء في البيت ويضايق الناس جميعا ، « بيتيا » هذا ذو الأنف الاخنس ، والعينين السوداوين البشوشتين ، واللون النضر المتورد مع ظلال من الزغب على وجنتيه ، عندما أصبح هناك ، بين أولئك الرجال العتاة القساة ، الذين يقتتلون لسبب لايعلمه الا الله ، والذين يجدون الفرح في هذا الاقتتال ، عند ذاك خُيل الى الام انها تحبه اكثر من غيره ، اكثر من غيره بكثير • كانت كلما اقتربت اللحظة المرتقبة التي سيعود فيها « بيتيا » اشتد قلقها • كانت تحدث نفسها أنها لن تحظى بمثل هـذه السعادة أبدا • ولم يكن وجود « صونيا » وحدها هو الذي يثيرها ، بل ووجود « ناتاشا » التي تعبدها ، وحتى وجود زوجها ذاته • كانت تقول في نفسها : « مالي ولهم ، لست بحاجة الا الى « بيتيا ! » •

في أواخر أيام آب ، تلقى آل « روستوف » رسالة ثانية من «نيقولا» كتبها من مقاطعة « فورونيج » حيث أرسل بمهمة شراء خيل بدلا من المفقود • لم تدخل هذه الرسالة الطمأنينة الى قلب الكونتيسة • فحين علمت أن أحد ولديها بعيد عن الخطر تزايد قلقها على « بيتيا » •

مع أن معظم معـارف آل « روستوف » غادروا موسكو منـذ



@ketab_n @4_readers

العشرين من آب ، ومع أن الجميع دعوا الكونتيسة الى الرحيل بأسرع ما يمكن ، فانها كانت تأبى أن تسمع كلاما على الرحيل قبل عودة كنزها ، « بيتيا » المعبود . ووصل « بيتيا » في الثامن والعشرين من آب . لكن الحنان المفرط المشبوب الذي لقيته به أمه لم يعجب هذا الضابط ذا الستة عشر عاما . ومع أنها كتمت عنه نيتها في الاحتفاظ به تحت جناحها ، الا أنه استشف مقاصدها وخشي بغريزته أن يسترخي وتفتر همته قرب أمه ( هكذا كان يفكر بينه وبين نفسه ) ، فعاملها ببرودة وتحاشاها ولزم أخته « ناتاشا » دون غيرها أثناء اقامته في موسكو ، وكان يشعر دائما ازاء « ناتاشا » بحنان أخوي خاص قريب من العشق .

لم يكن قد أعد شيء للرحيل في الثامن والعشرين من آب ، من جراء لامبالاة الكونت المعتادة ، ولم تصل العربات الصالحة لنقل المتاع من ممتلكاتهم في « ريازان » وفي ضواحي موسكو الا في الثلاثين .

ومن الثامن والعشرين الى الواحد والثلاثين عاشت موسكو في حركة محمومة . ففي كل يوم كان يؤتى بآلاف الجرحى من معركة « بورودينو » ، عن طريق حاجز « دوروغو ميلوفو » ، وكانوا يوزعون في موسكو ، بينما كان يخرج من الحواجز الاخرى آلاف العربات المحملة بالناس وبالارزاق . وبالرغم من اعلانات « روستو بتشين » أو بمعزل عنها ، أو بسبب هذه الاعلانات ، تناقلت الالسن أشد الانباء تناقضا وغرابة . كان بعضها يقول : ان الرحيل أصبح ممنوعا ، وبعضها على العكس ، يروي أن الايقونات رفعت من الكنائس وأن الناس يرحلون بالقوة ؛



@ketab_n @4_readers

كان هذا يزعم أن معركة جديدة دارت رحاها بعد معركة « بورودينو » هزم فيها الفرنسيون ، وذاك ، على نقيضه ، يزعم أن الجيش الروسي بأسره أبيد ، هذا يتحدث عن متطوعي موسكو الذين سيمضون الى التلال الثلاثة وعلى رأسهم رجال الدين ، وذاك يهمس أن «اغسطين»[1] منع من الذهاب ، وأن خونة أوقفوا ، وأن الفلاحين يثورون وينهبون أرزاق الذين رحلــوا ، الخ ، الخ • لكن الناس كانوا يقولون ذلك بألسنتهم فقط ، والحقيقة أن الذين كانوا يرحلون مثلهم مثل الذين كانوا يبقون ( مع أن مجلس « فيلي » العسكري الذي قرر التخلي عن المدينة لم يكن قد عقد بعد ) أحسوا ، وان لم يعبروا عن ذلك ، أن موسكو ، لا محالة ، ستسلم للعدو وأن من واجبهم الارتحال بأسرع وقت ممكن وتخليص أرزاقهم • لقد شعروا أن كل شيء سينهار فجأة وسيتغير ، الا أنه لم يتغير شيء حتى الاول من أيلول • كانت موسكو ، شبيهة بمجرم يساق الى العذاب ويعلم أنه سيموت بين لحظة وأخرى لكنه مايزال ينظر حوله ويصلح من وضع قبعته ، تتابع حياتها المألوفة مع علمها باقتراب ساعة الكارثة التي ستتقوض فيها كل أعراف الحياة ، وهي أعراف تعودوا أن يخضعوا لها •

اضطر آل « روستوف » ، خلال الايام الثلاثة التي سبقت سقوط موسكو ، أن يواجهوا شتى الهموم المنزلية • وكان رب الاسرة الكونت « ايليا اندريتيش » دائم التطواف في موسكو ، يتلقف الاخبار ، ويصدر في البيت أوامر مبهمة وسريعة بصدد الرحيل •

---

(١) اغسطين مطران موسكو .



@ketab_n @4_readers

كانت الكونتيسة تشرف على نقل المتاع ، غير راضية عن شيء ، وتفتش عن « بيتيا » الذي كان يهرب منها دائما ، وتغار من « ناتاشا » التي كان يقضي معها كل وقته • وكانت « صونيا » وحدهاتعنى بالجانب العملي : حزم الامتعة • لكنها كانت في الآونة الاخيرة مخلدة الى الحزن والصمت • ذلك أن رسالة « نيقولا » التي يتحدث فيها عن الاميرة ماريا فسحت المجـال لخواطر مفعمة بالفرح من جانب الكونتيسة ، وبحضور « صونيا » ، وكانت الكونتيسة ترى في لقاء الاميرة « ماريا » و « نيقولا » تدبيرا من العناية الالهية • قالت :

ـ لم ابتهج قط عندمـا خطب « بولكونسكي » ناتاشا ، لكني تمنيت دائما أن يتزوج « نيقولا » الاميرة ، واني لاحدس أن هـذا الزواج سيتم • سيكون ذلك عظيما !

كانت « صونيا » تحس أن ذلك صحيح ، وأن الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها آل « روستوف » اصلاح وضعهم المادي هي تزويج « نيقولا » من فتاة غنية وأن الاميرة ماريا هي الفتاة المطلوبة • لكنها كانت تشعر بكثير من المرارة من جراء ذلك • وبالرغم من حزنها بل لعلها بسبب هذا الحزن نفسه ، قد أخذت على عاتقها أعباء النقل والحزم واستغرقت في الشغل أياما كاملة • وكان الكونت والكونتيسة يتوجهان اليها بأوامرهما • أما « بيتيا » و « ناتاشا » فلم يتركا مساعدة أهلهما فحسب ، بل انهما كانا يزعجان الجميع ويضايقانهم • وكان البيت يعج طوال النهار بصدى جريهما وصراخهما وقهقهاتهما • واذا كانا يضحكان ويلهوان ، فلم يكن مرد ذلك الى سبب معين ، بل لان روحهما كانت



@ketab_n @4_readers

خفيفة ، فرحة ، وكان كل مايقع لهما باعثا على الفرح والضحك • كان « بيتيا » فرحا لانه ذهب من البيت صبيا ، وعاد اليه ( على حد قول الجميع ) رجلا شديد القوى ، بهي الطلعة ؛ كان فرحا لانه كان في بيته ، ولانه بعد « بيلا تسيركوف » التي لم يكن يتاح له فيها خوض معركة قريبة ، ألفى نفسه في موسكو حيث سينشب القتال في هـذه الايام بالذات ، ولان ناتاشا ، بخاصة ، كانت مبتهجة وكان « بيتيا » يتخلق بأخلاقها • أما « ناتاشا » فكانت مبتهجة لانها ظلت زمنا طويلا حزينة ، ولانه ما من شيء يذكرها الآن بسبب حزنها ، ولان صحتها حسنة • كانت مبتهجة أيضا لانها وجدت من يعجب بها ( اعجاب الآخرين عندها هو الزيت الذي لا غنى عنه لحسن دوران الآلة ) ، وكان « بيتيا » يعجب بها • لكنهما كانا مبتهجين ، على وجه الخصوص ، لان الحرب كانت على أبواب موسكو ، ولان القتال سينشب عند مداخلها ، ولان السلاح كان يوزع ، ولان الناس يلوذون بالفرار ، ويمضون الى مكان قصي ، وخلاصة القول انهما كانا مبتهجين لان شيئا غير مألوف سيجري ، وهو ما يفتن اللب دائما ، ولا سيما عندما يكون المرء شابا •

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل الثالث عشر

في سبت الواحد والثلاثين من آب ، بدا كل شيء منقلبا رأسا على عقب في منزل آل « روستوف » . كانت جميع الابواب مفتوحة ، والاثاث مرفوعا أو منقولا ، والمرايا واللوحات مفكوكة . كانت الصناديق تزحم الغرف التي تناثر في أرجائها القش وورق الصر والحبال. وكان الفلاحون والخدم يحملون الامتعة ويروحون ويجيئون بخطى ثقيلة على أرض الغرف . وفي الفناء ازدحمت عربات الفلاحين التي حمل بعضها ورتب ما فيها ، وربط ، وبقي بعضها الآخر فارغا .

من كل جانب تجاوبت ضوضاء الخطى وأصوات هذا الجمع الغفير من الخدم والفلاحين الذين جاؤوا مع عرباتهم وراحوا يتصايحون في الفناء وفي البيت . كان الكونت قد خرج منذ الصباح ، واستلقت الكونتيسة في مخدعها الجديد وعلى جبينها كمادات بالخل بسبب الصداع الذي أصابها لفرط الحركة والضجيج . وغاب « بيتيا » عن البيت . ( كان يزور صديقا ينوي معه الانتقال من فرق المتطوعين الى الجيش المقاتل ) . وكانت « صونيا » تشرف ، في صالة الرقص ، على حزم الاواني البلورية والخزفية ، و « ناتاشا » جالسة على الارض ، في غرفتها المقلوبة ، وسط ركام من الاثواب والاشرطة والاوشحة ، وعيناها



@ketab_n @4_readers

شاخصتان الى الارض ، وبين يديها ثوب قديم من ثياب الرقص ( بطل زيه الآن ) ذاك الذي ارتدته في أول حفلة راقصة لها في بطرسبرج .

أحست « ناتاشا » بالخجل لانها لا تعمل شيئا في البيت بينما انهمك الجميع في العمل ، وحاولت مرارا أن تباشر عملا لكنها لم تجد من نفسها ميلا اليه ، وهي لا تستطيع ولا تحسن شيئا الا اذا أقبلت عليه بكل قلبها ، دون تحفظ . بقيت لحظة قرب صونيا بينما كانت الاواني الخزفية تحزم ، وأرادت أن تساعدها ، لكنها لم تلبث أن أقلعت عن ذلك ومضت الى غرفتها لترتب متاعها الخاص . استمتعت أول الامر بتوزيع أثوابها وأشرطتها على الوصيفات ، لكنها لما عمدت الى حزم ما تبقى من ثيابها ، بدا لها ذلك مملا ، متعبا .

ــ « دونياشا » ، سوف تحزمين ذلك كلــه ، يا عزيزتي ؟ نعم ؟ أليس كذلك .

وعندما وعــدت « دونياشا » بأن تقوم بذلك كلــه ، جلست « ناتاشا » على الارض ، وتناولت فستان الرقص العتيق وأخذت تفكر في غير ما ينبغي أن يشغلها في هذه اللحظة . وأيقظتها من أحلام يقظتها أصوات الخادمات اللائي كن يتحدثن في غرفتهن المجاورة لغرفتها . نهضت وألقت بنظرة من النافذة فرأت قافلة لا نهاية لها من الجرحى تقف في الشارع .

وكان الخدم والقيمة والمربية العجوز والطهاة والحوذيون ومساعدو الطباخين عند البوابة ينظرون الى الجرحى .



@ketab_n @4_readers

ألقت « ناتاشا » منديلا أبيض على شعرها وخرجت الى الشارع ، وهي تمسك المنديل من طرفيه بيديها •

فارقت الجمع المحتشد عند البوابة القيمة القديمة ، العجوز « مافراكوز مينيشنا »[1] ، ودنت من عربة مغطاة بغطاء جلدي ، وبدأت الحديث مع ضابط شاب شاحب الوجه كان ممددا • وخطت « ناتاشا » خطوات ووقفت على استحياء وهي ما تزال تمسك بالمنديل ، وأصغت الى ما كانت تقوله القيمة • كانت « مافراكوز مينيشنا » تقول :

ــ اذن ، ليس لك أحد في موسكو ؟ ستكون أكثر هدوءا في أحد المنازل هنا • هذا المنزل مثلا • ان أهله على أهبة السفر •

قال الضابط بصوت ضعيف :

ــ لا أعلم ان كانوا يسمحون • ها هو ذا الرئيس ••• اسأليه •

وأشار باصبعه الى نقيب ضخم يعود بحذاء صف العربات •

ألقت ناتاشا نظرة مذعورة على وجه الضابط الجريح ومضت على الفور الى لقاء النقيب • وسألته :

ــ أيمكن للجرحى أن يأووا الى بيتنا ؟

رفع النقيب يده الى حافة عمرته مبتسما ، وقال وهو يغض عينيه :

ــ فيم ترغبين ، يا آنسة ؟

كررت « ناتاشا » سؤالها بهدوء ، وكان وجهها وكل مظهرها ينمان على جد بالغ ، مع أنها ظلت تمسك المنديل بيديها ، حتى ان النقيب كف

(١) مافراكوزمينيشنا : ابنة كوزما .



@ketab_n @4_readers

عن ابتسامه ، وأجابها بالموافقة بعد أن فكر وكأنه تساءل الى أي حد كان الشيء ممكنا • قال :

ـ أوه ! نعم ، لم لا ، يمكنهم ذلك •

فحنت « ناتاشا » رأسها انحناءة خفيفة ورجعت بخطى حثيثة الى « مافراكوز مينيشنا » التي كانت مائلة على الضابط تحدثه بعطف مشفق ، وهمست في أذنها :

ـ يمكنهم ذلك ، قال : انه يمكنهم ذلك !

استدارت عربة الضابط لتدلف الى فناء آل روستوف ، ودخلت عشرات العربات المحملة بالجرحى الى أفنية بيوت شارع بوفارسكايا ، بناء على دعوة الاهلين • وكأنما فتن « ناتاشا » هذا الاحتكاك بأناس جدد ، خارج شروط الحياة اليومية ، فحاولت جاهدة مع « مافراكوز مينيشنا » أن تدخل الى فناء البيت أكبر عدد ممكن من الجرحى •

قالت « مافراكوز مينيشنا » :

ـ يجب على أي حال ، اعلام أبيك •

ـ لا أهمية لذلك ، لا أهمية ذلك ! نستطيع أن نمضي يومنا في الصالون • يمكننا أن نعطيهم جناحنا كله •

ـ مهلا ، يا آنسة ، أنت تتسرعين الى أفكارك ! يجب أن تطلبي الاذن حتى لو أردت وضعهم في الاجنحة وفي غرف الخدمة وفي غرفة المربية •

ـ حسنا ! سأطلب الاذن •



@ketab_n @4_readers

ركضت « ناتاشا » ، الى الداخل ، واجتازت ، على أطراف أصابعها ، باب المخدع المشقوق الذي تفوح منه رائحة الخل وقطرات من سائل « هوفمان » .

ـ أأنت نائمة ، يا أمي ؟

قالت الكونتيسة وهي تستيقظ بعد أن أغفت قبل هنيهة :

ـ آه ! كيف يستطيع المرء أن ينام !

قالت ناتاشا وهي تجثو أمام أمها وتلصق وجهها بوجه أمها :

ـ يا أمي ، يا أمي الحبيبة اللطيفة ، الغلطة غلطتي ، اغفري لي ، لن أعود الى مثلها . لقد أيقظتك . « مافراكوز مينيشنا » هي التي أرسلتني . لقد أدخلنا جرحى وضباطا ، أتسمحين ؟

ثم قالت بسرعة دون أن تلتقط أنفاسها :

ـ انهم لا يعلمون أين يذهبون ، كنت أعلم أنك ستسمحين ...

قالت الكونتيسة :

ـ أي ضباط ؟ بمن جئتم ؟ لست أفقه شيئا .

أخذت « ناتاشا » تضحك وابتسمت الكونتيسة أيضا ابتسامة خفيفة .

نهضت « ناتاشا » وقبلت أمها واتجهت الى الباب :

ـ كنت أعلم أنك ستسمحين ... هذا ما سأعلنه .

وفي صالة الرقص لقيت أباها داخلا وهو يحمل أخبارا سيئة . قال بغيظ عفوي :

ـ لقد تأخرنا أكثر مما ينبغي ! وأغلق النادي ورحلت الشرطة .

قالت له ناتاشا :



@ketab_n @4_readers

ـ أيسوءك أني أدخلت الجرحى الى بيتنا ؟

أجاب الكونت وهو شارد اللب :

ـ طبعا لا . لكن الموضوع غير هـذا . أطلب اليكم ألا تهتموا بسفاسف الامور ، وعلينا أن نعكف جميعا على العمل وأن نذهب غدا ، أن نذهب غدا ...

وأصدر أمره هذا الى رئيس الخدم والى الخدم . وعلى المائدة أخبرهم بيتيا الذي عاد للغداء ، أخبارا التقطها من المدينة .

روى أن الشعب كان يتسلح اليوم في الكريملين ، وأن الامر قد صدر ، بالرغم من أن « روستو بتشين » قال في اعلانه : انه سيصدر نداء الى الشعب قبل يوم أو يومين ، للتوجه الى التلال الثلاثة وأن معركة كبرى ستنشب هناك .

كانت الكونتيسة تنظر بذعر خجل الى وجه ابنها المبتهج ، المهتاج وهو يتكلم . كانت تعلم أنها لو قالت له كلمة واحدة تطلب فيها ألا يذهب الى هذه المعركة ( أدركت انه مبتهج لانه يأمل أن يقاتل ) لتحدث عن الواجب والرجال والشرف والوطن ، ولتفوه بأشياء منافية للعقل ، لا يقولها سوى الذكور ، مشبعة بالعناد ، مما لا تجد ردا عليهـا ، ولأفسدت كل شيء . لذلك لم تقل له شيئا ، على أمل أن تتدبر الامر وتسافر قبل المعركة ، وأن تصطحبه بصفته مدافعا وحاميا ، لكنها بعـد الغداء استدعت الكونت وتوسلت اليه بالدموع أن يرحل بها في أسرع ما يمكن ، في الليل ان أمكن الامر . لقد تسلحت بما في الحب من مكر غريزي أنثوي وقالت انها ـ وهي التي أظهرت حتى الآن رباطة جأش فائقة ـ ستموت خوفا أن لم تسافر في هذه الليلة بالذات . لم تكن تتصنع الخوف ، بل انها كانت في الحقيقة خائفة من كل شيء .



@ketab_n @4_readers

# الفصل الرابع عشر

زادت السيدة « شوس » التي كانت في زيارة ابنتها من مخـاوف الكونتيسة عندما حدثتها عما رأته في شارع « مياسنيتسكايا » ، أمـام أحد مستودعات المشروب • لم تستطع المرورأثناء عودتهابسبب الجمهور الثمل الهائج من حواليه • فاستقلت عربة واضطرت ان تدور حـول الطريق وتسلك أحد الازقة ؛ وقـد روى لها الحوذي أن الشـعب كان يبزل براميل المستودع ، وأنه تلقى أمرا بذلك •

بعد الغداء ، أكبّ كل مَنْ في منزل آل « روستوف » على العمل السريع المليء بالحماسة للانتهاء من الحزم وللاستعداد للسفر • ولـم يكف الكونت العجوز ، بعد أن باشر الامور بنفسه على حين غرة ، من التنقل بين الفناء والمنزل ، وهو يزجر بغير حق ولا تمييز ، خدمه الذين كان يريد منهم أن يضاعفوا من سرعتهم • وكان « بيتيا » يصدز أوامره في الفناء • وحارت « صونيا » فيما تفعل أمام أوامر الكونت المتضارية • وكان الخدم يتراكضون عبر الغرف والفناء وهم يصرخون ويتخاصمون ويضجون • وأقبلت « ناتاشا » أيضا على العمل فجأة بشغف ، كعادتها عندما تقبل على أي شيء • لقد استقبل تدخلها للمشاركة في الحزم بحذر في مبتدأ الامر • فلم يكن ينتظر أحد منها سوى الشيطنة ولـم يشأ أحد ان يصغي اليها • لكنها أصرّت بعناد على أن يستجاب طلبها وغضبت ، وبكت لان الناس لا يصغون اليها ، وانتهت بالحصول على



@ketab_n
@4_readers

الثقة المطلوبة • وأول مأثرة لها كلفتها مجهودات عظيمة وفرضت سلطانها ، كان حزم السجاد • وكان الكونت يملك سجادا ثمينا مما يعلق على الجدران ، وسجادا فارسيا • وعندما شرعت « ناتاشا » في العمل ، كان في صالة الرقص صندوقان مفتوحان : الاول معبأ حتى حافته بالخزفيات ، والآخر بالسجاد • وبقي الكثير من الخزف على الطاولات ، ومازال الخدم يأتون به من المدخرات • كان لابد من تعبئة صندوق ثالث ، وذهب الخدم لحمل هذا الصندوق ، فقالت «ناتاشا» :

ــ انتظري ، يا « صونيا » • سنضع كل شيء في هذين الصندوقين•

قال الخازن :

ــ مستحيل ، يا آنسة • لقد جربنا ذلك من قبل •

ــ بلى ، انتظر قليلا •

وأخرجت « ناتاشا » من الصندوق الاطباق والصحون الملفوفة بالورق • وقالت :

ــ لنضع الاطباق هنا ، في السجاد •

قال الخازن :

ــ سيكون شيئا حسنا اذا توصلنا الى وضع السجاد في ثلاثة صناديق •

ــ انتظر ، أرجوك •

وراحت تنتقي الاشياء انتقاء سريعا ، ماهرا • فتقول عن خزف « كبيف » : هذا ، لا غناء فيه • وتقول بصدد خزفيات « ساكس » : هذا نعم ، ضعوه بين السجاد •



@ketab_n @4_readers

قالت « صونيا » بلهجة الملامة :

ـ دعي عنك هذا ، يا « ناتاشا » : سنفعل ذلك بأنفسنا .

وقال رئيس الخدم :

ـ ايه ! يا آنسة !

لكن « ناتاشا » لم تتراجع ، وأفرغت الصندوق وبدأت التعبئة بسرعة ، مقررة أنه لا يجب حمل السجاد الزهيد الثمن والاواني التي لانفع فيها . وبعد أن أفرغت جميع الصناديق من كل ما فيها بدأت التعبئة من جديد . فنحت جانبا مالا يستحق عناء الحمل ووضعت في الصندوقين نفائس الاشياء . لكن غطاء صندوق السجاد أبى أن ينغلق وكان من الممكن رفع شيء ما من داخله ، الا أن « ناتاشا » كابرت وأصرت على رأيها . فكانت تحزم المتاع ، وتغير مكانه ، وتحشوه ، وتطلب الى الخازن والى « بيتيا » الذي جرته الى العمل : أن يشدا بثقلهما على الغطاء وتبذل هي نفسها جهدا يائسا .

قالت لها « صونيا » :

ـ مهلا ، يا « ناتاشا » . أرى أنك على حق . لكن : على كل حال ، ارفعي القطعة التي على الوجه .

فصرخت « ناتاشا » وهي ترد باحدى يديها شعرها المحلول من على وجهها المبلل بالعرق ، وتضغط باليد الثانية السجاد :

ـ لا أريد . لكن شد أنت ، يا « بيتيا » ، شد ، شد ، يا فاسيلي!

واستوى سطح الصندوق وانغلق غطاؤه . فصفقت « ناتاشا » بيديها ، وأطلقت صرخات الفرح : وانبجست الدموع من عينيها . لكن



@ketab_n @4_readers

ذلك لم يدم سوى لحظة • اذ ما لبثت أن أكبت على عمل آخر ، وأخذ الجميع يثقون بها ثقة تامة ، ولم يغضب الكونت عندما قيل له ان ابنته خالفت أوامره ، وكان الخدم يأتون اليها ليسألوها ان كان يجب ربط العربات وان كانت حمولتها كافية • كان العمل يتقدم بفضل تعليمات « ناتاشا » أي اهمال الاشياء التافهة وحزم الاشياء النفيسة حزما محكما •

وبالرغم من حمية الجميع الا أنهم لم يستطيعوا ان ينتهوا من حزم جميع المتاع حتى ساعة متأخرة من الليل • فنامت الكونتيسة وذهب الكونت لينام بعد أن أجّل السفر الى صباح اليوم التالي •

ونامت « ناتاشا » و « صونيا » بثيابهما في المخدع •

في هذه الليلة ، جيء بجريح آخر الى شارع «بوفارسكايا» وأدخلته « مافراكوزمينيشنا » التي كانت أمام البوابة الى منزل آل« روستوف »• كان هذا الجريح ، برأيها ، شخصية عظيمة الشأن • فقد كان محمولا على عربة خفيفة مرفوعة الواقية ، مسدلة الغطاء • وكان يجلس قرب الحوذي ، على المقعد ، خادم حسن الهيئة ، ويتبعه طبيب وجنديان في عربة •

قالت العجوز مخاطبة الخادم العجوز :

ـ ادخلوا الى بيتنا ، أرجوكم ، ادخلوا • ان السادة سيرحلون والبيت خال •

أجاب الخادم وهو يتنهد :

ـ عجبا ! ماكنا نأمل أن نأتي به حيا ! ان لنا نحن بيتا في موسكو ، لكنه بعيد ، وليس فيه أحد •



@ketab_n @4_readers

قالت « مافرا كوزمينيشنا » :

ـ أهلا بكم في بيتنا ، فلدى أسيادنا كل ما يلزمكم .

وأضافت :

ـ واذن ، فحالته سيئة جدا .

أشار الخادم بيده اشارة تدل على اليأس وقال :

ـ فقدنا الرجاء في أن نعود به حيا ! يجب ان أسأل الطبيب .

نزل من مقعده واقترب من العربة . قال الطبيب :

ـ لا بأس .

عاد الخادم الى العربة وألقى عليها نظرة ، وهز رأسه ، وأمر الحوذي أن ينعطف الى الفناء ووقف قرب « مافرا كوزمينيشنا » .

قالت هذه :

ـ يا يسوع !

وعرضت عليه ان ينقل الجريح ، وأكدت القول :

ـ لن يقول السادة شيئا ...

ولما كان ينبغي تحاشي صعود الدرج نقل الجريح الى الجناح ووضع في الغرفة التي كانت تقيم فيها السيدة « شوس » . كان الجريح الامير آندرة بولكونسكي .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الخامس عشر

أشرق آخر يوم من أيام موسكو . كان الجو صحوا ، والطقس خريفيا بهيجا ، وكان اليوم يوم أحد كبقية الاحاد ، قرعت فيه أجراس جميع الكنائس للصلاة . لم يكن أحد قد فهم بعد ــ على ما يبدو ــ ما كان ينتظر موسكو .

غير أن دلالتين من حالة السكان النفسية دلتا على الوضع الذي كانت فيه موسكو : موقف الشعب ، أي الفقراء ، وأسعار السلع . لقد ذهب العمال والخدم والفلاحون منذ الصباح الباكر الى التلال الثلاثة في جمهور غفير اختلط به الموظفون وتلامذة الاديرة والنبلاء . وبقوا هناك زمنا ، فلما رأوا أن « روستوبتشين » لم يأت ، أدركوا أن موسكو ستسلم فانتشروا في أرجاء المدينة ، في دكاكين الخمور وفي الحانات . وكانت الاسعار في هذا اليوم تدل على الوضع أيضا ، ذلك أن اسعار الاسلحة والذهب والعربات ما فتئت ترتفع ، بينما أخذت أسعار الاوراق النقدية والبضاعة تنخفض باستمرار حتى ان بضاعة ثمينة كالقماش بيعت بعد الظهر ، بنصف ثمنها ، في حين بلغ سعر حصان الفلاحين خمسمائة روبل ، أما الاثاث والمرايا والبرونز فكانت تعطى بلا ثمن .

لم يترك تفكك شروط الحياة القديمة أثرا محسوسا في بيت آل روستوف ، هذا البيت العتيق والجدير بالاحترام . ففيما يتعلق بالخدم، لم يتوار أثناء الليل سوى ثلاثة من جمهرتهم الغفيرة ، لكن لم يسرق



@ketab_n @4_readers

شيء ، وفيما يتعلق بقيمة الاشياء ، تبين أن الثلاثين عربة التي أتت من الريف تمثل ثروة عظيمة أثارت حسد الكثيرين لآل روستوف فعرضوا عليهم بها مبالغ خيالية • ولم تقتصر العروض على عربات النقل المحملة ، بل لقد توافد الى الفناء في المساء وفي صبيحة الاول من ايلول، الوصفاء والخدم الذين ارسلهم ضباط جرحى ، وجر الجرحى أنفسهم جرا سواء منهم الموجودون عند آل « روستوف » أم في البيوت المجاورة. وكانوا جميعا يتوسلون الى خدم آل « روستوف » ليسعوا لهم في الحصول على عربات كي يتنسى لهم مغادرة موسكو •وكان رئيس الخدم الذي تقدم اليه هذه الطلبات يرفض رفضا قاطعا ، وان رثى لحالة الجرحى ، قائلا : انه لا يجرؤ على مفاتحة الكونت بذلك • ومهما كان الجرحى الذين قدر لهم أن يبقوا جديرين بالشفقة ، فقد كان من الواضح أنه لو أعطيت عربة واحدة لما كان هناك مسوغ لعدم اعطاء الثانية ، ولو أعطيناهم جميعا لكان لابد من اعطاء عربات السادة أيضا • ثلاثون عربة لم تكن كافية لانقاذ جميع الجرحى ، واذا عم البلاء وجب على المرء أن يفكر بنفسه وبذويه • هكذا كان يفكر رئيس الخدم نيابة عن سيده •

عندما استيقظ الكونت « ايليا اندريتش » في صباح الاول من أيلول خرج بهدوء من غرفة النوم لكي لا يوقظ الكونتيسة التي نامت قيل هنيهة ، وسار الى درج المدخل في مبذل حريري بنفسجي • كانت العربات محزومة تنتظر في الفناء • وكان رئيس الخدم عند البوابة يكلم وصيفا مسنا وضابطا شابا شاحبا ، يده معصوبة بضماد معلقة بعنقه • وعندما رأى رئيس الخدم الكونت أشار اشارة متعالية ،صارمة تأمرهما بالابتعاد •



@ketab_n @4_readers

سأله الكونت وهو يفرك رأسه الاصلع وينظر بسذاجة الى الضابط وانوصيف اللذين حياهما بايماءة من رأسه ( كان الكونت يحب الوجوه الجديدة ) :

ـ هل جهز كل شيء ، يا « فاسيليتش » ؟

ـ يمكن أن نربط الخيل فورا ، يا صاحب السعادة .

ـ حسنا ! ستستيقظ الكونتيسة بعد قليل وسوف نمضي .

ثم سأل الضابط :

ـ وأنتما ، ما الذي تبغيانه ؟ انتما في بيتي .

دنا الضابط واحمر وجهه فجأة :

ـ أرجوك يا كونت ، اسمح لي ... بحق السماء ... أن أركب في مكان ما من عرباتك . ليس معي شيء .. ولا يضيرني أن أسافر على احدى العربات .. ولم يتم كلامه حتى تقدم الوصيف بمثل ذلك لرجاء لسيده .

قال الكونت بعجلة :

ـ آه ! نعم ، نعم ، نعم . سيسعدني ذلك جدا ، سيسعدني ذلك جدا . يا فاسيليتش ، افعل ما يلزم لذلك ، افرغ عربة أو اثنتين ... افعل ما يلزم ...

وفي اللحظة ذاتها نطق وجه الضابط بآيات العرفان بالجميل فأيد بذلك ما أمر به الكونت . ونظر الكونت حواليه نظرة عجلى : فاذا بالجرحى والوصفاء في الفناء ، عند البوابة ، في نوافذ الجناح . كانوا جميعا ينظرون اليه ويقتربون من درج المدخل .



@ketab_n @4_readers

قال رئيس الخدم :

ــ هلا تفضلتم بالمجيء الى الرواق ، يا صاحب السعادة • مـاذا نصنع باللوحات ؟

تبعه الكونت الى البيت وهو يكرر أمره بعدم رفض نقل الجرحى الذين طلبوا أن ينقلوا ، وأضاف بصوت خافت ، خفي ، وكأنه يخشى أن يسمعـه أحد :

ــ لم لا ، يمكننا ان نفرغ بعض الامتعة •

استيقظت الكونتيسة في الساعة التاسعة ، وجاءت اليها « ماترينا تيموفيفنا » ، وصيفتها التي تقوم عندها مقام قائد شرطة ، لتعلن لهـا أن « ماريا كارلوفنا » مغتاظة وأنه لايجوز أن تترك ثياب البنات الصيفية• الحت الكونتيسة بالسؤال لتعلم سبب انزعاج السيدة «شوس»،فعلمت أن صندوقها انزل عن احدى العربات وأن العربات الاخرى تفك وتفرغ ليحل محلها الجرحى الذين أمر الكونت بنقلهم نخوة منه • استدعـت الكونتيسة زوجها وقالت له :

ــ ماذا أسمع ، يا صاحبي ، لقد أنزلت الامتعة مرة اخرى ؟

ــ تعلمين ، يا عزيزتي ، كنت اريد أن أقول لك ••• يا عزيزتـي الكونتيسة ••• جاء الي ضابط يطلب عربات للجرحى • كل هذا المتاع يمكن أن نجد بديلا عنه ، أما هؤلاء ، تصوري ماذا يعني عندهم البقاء هنا ! ••• الحق انهم في بيتنا ، ونحن دعوناهم الى الدخول ، وبينهم ضباط ••• أتدرين ، اعتقد حقا ، يا عزيزتي ، على كل حال ، ياعزيزتي يجب أن ننقلهم ••• لم العجلة ؟



@ketab_n @4_readers

قال الكونت ذلك بوجل كعادته عندما يتحدث عن القضايا المالية •
وقد اعتادت الكونتيسة هذه اللهجة التي تنذر بمشروع يتلف فيه ثروة أولاده ، من مثل اقامة رواق ، أو بيت زجاجي ، أو مسرح أو جوقة ، وكانت ترى فرضا عليها أن تتصدى لما يقوله بهذه اللهجة الوجلة •
اصطنعت مظهر الاذعان الباكي وقالت لزوجها :

ــ اسمع ، يا كونت ، لقد بالغت كثيرا في الماضي حتى ان البيت لا يدر درهما ، وتريد الان أن تضيع كل ما نملك ، كلما يملكه اولادنا• قلت أنت أن في البيت ما يعادل مائة الف روبل • لا اوافقك على ذلك ، ياصاحبي ، اطلاقا • أما الجرحى فالدولة هي التي تعنى بهم ، وهي تعلم ما عليها تجاههم • انظرالى آل « ليبوكين » قبالتنا ، لقد نقلوا كل شيء منذ أول أمس • هكذا يفعل الناس • نحن وحدنا أغبياء • اذا لم ترحمني فارحم الاولاد على الاقل •

حرّك الكونت يديه وخرج دون أن ينبس بكلمة •

سألته « ناتاشا » وقد لحقت به الى غرفة امها :

ــ أبي ، ماذا جرى ؟

فأجابها الكونت بحدة :

ــ لاشيء ! الامر لايعنيك !

قالت « ناتاشا »

ــ بلى ، سمعت كل شيء • لماذا تمانع امي ؟

فصاح الكونت :

أيعنيك هذا ؟

ابتعدت « ناتاشا » الى النافذة وراحت تفكر • ثم قالت وهي تلقي نظـرة الى الخارج :

ــ هاهوذا « بيرج » يصل ، يا أبي •



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل السادس عشر

كان « بيرج » صهر آل « روستوف » ، وقد أصبح عقيدا ونال وسامي القديس فلاديمير والقديسة آن وكان مايزال يقوم بمهام منصبه الهادئة ، الممتعة ، منصب مساعد رئيس المكتب الاول من أركان الفيلق الثاني .

وصل في الاول من ايلول الى موسكو قادما من الجيش . لم يكن لديه ما يفعله في موسكو ، لكنه لاحظ ان الجميع في الجيش كانوا يطلبون الذهاب اليها لاعمال لهم فيها ، فرأى من واجبه أن يطلب هو أيضا الاذن بالذهاب لاعمال عائلية .

وصل « بيرج » الى بيت حميه في عربته الانيقة التي يجرها جوادان كميتان فارهان ، والتي كانت تشبه في كل شيء عربة امير يعرفه . نظر بامعان الى العربات الواقفة في الفناء وأخرج منديلا أبيض وهو يصعد درج المدخل وعقده عقدة .

اندفع « بيرج من البهو الى الصالة حثيث الخطا ، فارغ الصبر : فعانق الكونت ، وقبّل يد « ناتاشا » و « صونيا » واستعلم على خجل عن صحة الكونتيسة .

قال الكونت :

ـ دعك من الصحة ! هات ، اخبرنا ، ماذا يفعل الجيش ؟ هل ينوي التراجع أم القتال ؟



@ketab_n @4_readers

قال بيرج :

ـ الله وحده ، يا أبي ، يمكنه ان يقرر مصير الوطن • ان الجيش يستعر بالروح البطولية وفي هذه اللحظة يجتمع القادة في مجلس عسكري • لسنا نعلم ماذا سيجري • لكني أؤكد عموما ، يا ابي ، ان هذه الروح البطولية في الجيش الروسي : هذه البسالة الجديرة حقا بالعصور القديمة التي أبداها في معركة السادس والعشرين ، يعجز اللفظ عن وصفها • أؤكد لك ، يا أبي ،( وضرب صدره كما ضرب صدره جنرال رآه « بيرج » يفعل ذلك وهو يروي قصتهأمامه ، وانكان « بيرج » قد تأخر قليلا لانه كان يجب أن يضرب صدره عند قوله : الجيش الروسي ) أؤكد لك بصراحة أننا ، نحن القادة ، لم نكن فقط في غنى عن تحميس الجنود أو عمل من هذا القبيل ، بل اننا لم نكد نكبح جماح هؤلاء ••• الا باعظم الجهد ••• نعم ، انها مآثر بطولية جديرة بالعصور القديمة • ولقد عرّض الجنرال « باركلي دي تولي » حياته للخطر على رأس رجاله • أما فيلقنا فوضع على سفح الهضبة • بمكنك أن ترى ذلك من هنا ! وهنا روى « بيرج » كل ما حفظه من قصص سمعها في هذهالآونة الاخيرة • ولم ترفع « ناتاشا » عينيها عنه كأنما كانت تبحث في وجهه عن جواب لسؤال خامرها ، مما بلبل « بيرج » •

قال « بيرج » وهو يلقي نظرة على « ناتاشا » ويجيب بابتسامة على نظرتها العنيدة ، وكأنه يريد أن يكسب رضاها واستحسانها :

ـ لايمكن أن تتخيل بطولة كالتي برهن عليها الجنود الروس ، ولا يمكن أن نجد الكلام الكافي للاشادة بها ! « ليست روسيا في



@ketab_n @4_readers

موسكو ، ان روسيا في قلوب أبنائها ! » أليس ذلك صحيحا ياابي .

في هذه اللحظة : خرجت الكونتيسة من مخدعها بادية التعب والانزعاج فوثب بيير نحوها ، وقبّل يدها ، وسألها عن صحتها ، ووقف جنبها وهو يهز رأسه ليدلل على احتفائه بما تقول .

ـ نعم ، يا امي ، ان روسيا تعيش ، في الحقيقة ، أياما كالحة ، عصيبة لكن لمَ كل هذا القلق ؟ مايزال في الوقت مهلة للرحيل ...

قالت الكونتيسة مخاطبة زوجها :

ـ لست أدري ماذا يفعل رجالنا . لقد قيل لي قبل هنيهة انهم لم يجهزوا شيئا بعد . ينبغي أن يهتم احدكم بذلك . في مثل هذه الاوقات انما يأسف المرء على « ميتنكا » . لن نفرغ من ذلك أبدا !

أراد الكونت أن يقول شيئا ، لكنه آثر أن يمسك عن الكلام . ونهض عن كرسيه واتجه الى الباب .

أخرج « بيير » منديله ، في هذه الاثناء ، كأنه يريد أن يمتخط ، فلما رأى العقدة شخص اليها ، وأخلد الى التفكير ، وهز رأسه هزة حزينة ذات معنى ، وقال :

ـ لي رجاء عظيم اليك ، يا أبي .

قال الكونت وهو يقف :

ـ وما هـو ؟

قال « بيير » ضاحكا :

ـ مررت قبل حين أمام بيت « يوسوبوف »[1] . فبادر الوكيل

(1) قصر قديم لامراء آل يوسوبوف وهي عائلة عظيمة الثراء .



@ketab_n @4_readers

الذي أعرفه الى لقائي وسألني ان لم أكن أريد شراء شيء ما • فدخلت كما تعلم ، فضولا مني ، ووجدت خزانة صغيرة بمرآتها • وأنت تعلم شغف « فيرا » بمثلها ، وتعلم كم تخاصمنا بهذا الشأن • ( عندما تطرق « بيرج » الى هذا الموضوع عاد بالرغم منه الى لهجته الفرحة وهو يتذكر ما في حياته من نظام • ) انها تحفة نادرة ! ولها جرارات وقفل انكليزي خفي ، أتعلم أن « فيرا » اشتهت ان تملك مثلها منذ زمن بعيد؟ ولذلك أحببت أن أفاجئها بها • وقد رأيت في الفناء ، فلاحين كثيرين ، أعطني واحدا منهم ، أرجوك ، وسأدفع له أجرته وافية و •••

عبس الكونت وتنحنح وقال :

ـ اسأل الكونتيسة ، فلست أنا الآمر هنا •

قال بيرج :

ـ ان كان الامر صعبا ، فلا حاجة اليها ، أرجوك •انما اشتهيتها لفيرا فقط •

فصاح الكونت العجوز :

ـ آه ! تبا لكم جميعا ، تبا لكم ، تبا لكم ••• ان المرء ليفقد صوابه ! وخرج من الغرفة •

انهمرت الدموع من عيني الكونتيسة ، فقال لها « بيرج » :

ـ نعم ، نعم ، يا أمي ••• الأوقات عصيبة !

خرجت « ناتاشا » في الوقت الذي خرج فيه أبوها ، وتبعته أولا وقد بدا عليها التفكير العميق ، ثم نزلت الدرج راكضة •



@ketab_n @4_readers

كان « بيتيا » على درج المدخل ، يوزع الاسلحة على الرجال الذين كانوا يغادرون موسكو . وكانت العربات المحملة ماتزال في الفناء،وقد أفرغت عربتان كان يتسلق إحداهما ضابط يسنده وصيفه .

سأل « بيتيا » ناتاشا :

ـ أتعرفين ما الداعي ؟ ( فهمت « ناتاشا » أنه كان يريد الكلام على سبب النقاش بين أبويها ، فلم تجب ) .

قال « بيتيا » :

ـ ذلك لأن أبي أراد أن يعطي الجرحى جميع العربات . « فاسيليتش » قال ذلك لي . وعندي أن ...

صرخت « ناتاشا » وهي تدير نحو أخيها وجهها الغاضب :

ـ وعندي ، عندي أن ذلك هو نهاية الخسة والقبح و ... لا أدري ماذا أقول . أأصبحنا ألمانا تافهين ؟ ...

واعتصرت حنجرتها زفرات تشنجية ، ولما خشيت أن تضعف أو تبدد شحنة غضبها عادت أدراجها واندفعت بشدة على الدرج .

كان « بيرج » يجلس بجنب الكونتيسة ويفيض في عزائه المليء بالاحترام البنوي . وكان الكونت يذرع المكان ذهابا وايابا ممسكا غليونه بيده ، عندما اقتحمت « ناتاشا » الغرفة كالعاصفة واقتربت من أمها بخطى حثيثة وصرخت وقد شوه الغضب وجهها :

ـ ان هذا ليثير الاشمئزاز ! ان هذا لبشع ! لايمكن أن تكوني قد أمرت بذلك .



@ketab_n @4_readers

نظر اليها « بيرج » والكونتيسة بحيرة وخوف . ووقف الكونت قرب النافذة يُصيخ السمع .

واستأنفت « ناتاشا » صراخها :

ـ هذا غير ممكن ، يا أمي ، انظري الى مايجري في الفناء ! لقد بقوا ! ...

ـ ما بكِ ؟ من هم هؤلاء ؟ ماذا تريدين ؟

ـ الجرحى ، قصدت الجرحى ! هذا غير ممكن ، يا أمي ، ولا اسمَ له لفظاعته .... لا ، يا أمي العزيزة ، سامحيني ، أرجوك ، يا أمي العزيزة ... ما حاجتنا يا أمي الى ما نحمله من متاع ، انظري فقط الى الفناء ... أماه ! هذا غير ممكن ! ...

تطلعت الكونتيسة الى ابنتها وشاهدت وجهها الذي يقطر خجلا عن أمها ، ورأت انفعالها فأدركت لمَ كان زوجها يعرض عنها ، وألقت نظرة حولها وهي لاتعلم ماتفعل ، وقالت دون أن تستسلم تماما :

ـ آه ! افعلوا ما تشاؤون ! أتراني أضايق أحدا ؟ ...

ـ يا أمي ، يا أمي الحبيبة ، سامحيني .

لكن الكونتيسة صدت ابنتها ودنت من الكونت ، وقالت له وهي تخفض بصرها كالمذنبة :

ـ افعل ، يا عزيزي ، مايلزم ... فأنا لا أفقه شيئا من ذلك .

قال الكونت وهو يذرف دموع السعادة :

ـ البيض ... البيض يُلقن الدجاجة درسا ...



@ketab_n @4_readers

وضم بين ذراعيه امرأته لتي سرّها أن تخفي وجهها المرتبك في صدر زوجها .

سألت ناتاشا :

ــ أمي ، أبي ! أيمكن أن أصدر التعليمات بنفسي ؟ أأستطيع ؟.. سنحمل معنا ، على أي حال ، ما لاغنى عنه ...

أشار الكونت اشارة الموافقة ، فسارعت « ناتاشا » كسابق عهدها عندما كانت تلعب ، من صالة الرقص الى الردهة ونزلت الدرج الذي يُفضي الى الفناء .

أحاط بها الخدم ولم يصدقوا الأمر الغريب الذي حملته اليهم حتى جاء الكونت بنفسه وأكد ، باسم مرأته ، انه ينبغي وضع جميع العربات تحت تصرف الجرحى ، ونقل الصناديق الى المستودع ، فلما فهم الخدم الأمر أقبلوا على هــذا العمل الجديد بحميّة وفرح ، ولم يجدوا فيه غرابة ، بل خُيّل اليهم أن الامور لايمكن أن تكون على نحو آخر ، كما أنهم قبل ربع ساعة لم يستغربوا تركهم للجرحى ونقلهم للمتاع ، بل انهم كانوا يعتقدون أن الأمور لايمكن أن تكون بخلاف ذلك .

أقبل جميع من في البيت على هذا العمل الجديد وهو إحلال الجرحى في العربات بحمية ونشاط ، وكأنهم يريدون تدارك الوقت الضائع . وخــرج الجرحى من غرفهم يجرون أنفسهم جــرا ، فرحين ، شاحبي الوجوه ، وأحاطوا بالعربات . ثم انتشر نبأ وجود العربات في البيوت المجاورة فتوافد الجرحى منها الى فناء منزل آل « روستوف » . وطلب كثير منهم ألا تُفرغ العربات من حمولتها وأن يُسمح لهــم بالركوب فوقها . ولكن ما إن بدأ إفراغ العربات حتى تعذر ايقافه ، اذ كان افراغها كلها أم نصفها سواء . وتغطى الفناء بالصناديق الملأى بالاواني وبالبرونز وباللوحات وبالمرايا التي حُزمــت حزما محكما في الليلــة



@ketab_n @4_readers

السابقة ، وكان الجميع يبحثون عن الوسيلة التي ينزلون بها هذا الشيء أو ذاك للحصول على مزيد من العربات الفارغة .

قال مدير الاعمال :

يمكننا أن ننقل أيضا أربعة آخرين ، وأنا أتنازل لهم عن عربتي ، والا فكيف نفعل ؟

قالت الكونتيسة :

ــ أعطهم عربة متاعي . ستركب « دونياشا » معي .

وأعطيت هذه العربة أيضا وأتي بالجرحى من بيتين بعيدين . وكان السادة والخدم مبتهجين مندفعين . وكانت « ناتاشا » هائجة وسعيدة على نحو لم تحسه منذ زمن بعيد .

قال الخدم وهم يضعون صندوقا على مرقاة العربة الضيقة :

ــ أين نضع هذا الصندوق ؟ يجب أن نحتفظ بعربة على الاقل .

سألت « ناتاشا » :

ــ ماذا في داخله ؟

ــ كتب الكونت .

ــ دعوها . سيهتم بها « فاسيليتش » . لسنا بحاجة اليها .

كانت عربة الركاب غاصة بالركاب الذين راحوا يتساءلون أين يمكن أن يجلس « بطرس إيليتش » .

صاحت ناتاشا :

سيجلس على المقعد . أليس كذلك يا « بيتيا » ؟

نشطت « صونيا » أيضا نشاطا متصلا . لكن موضوع اهتمامها كان على نقيض موضوع اهتمام « ناتاشا » . كانت ترتب ما سيبقى من المتاع ، وتسجله على قوائم ، بناء على طلب الكونتيسة ، وتسعى جهدها لحمل أكبر قدر ممكن من الأشياء .



@ketab_n @4_readers

# الفصل السابع عشر

في نحو الساعة الثانية ، كانت مركبات آل « روستوف » الأربع مجهزة ، محملة ، تقف أمام درج المدخل ، بينما راحت عربات الجرحى تخرج واحدة تلو الاخرى من الفناء •

استرعت عربة الأمير آندره ، أثنــاء مرورها أمام درج المدخل ، انتباه « صونيا » التي كانت تعمــل هي والخادمات على اعداد مقعد الكونتيسة في المركبة الواسعة ، العالية ، الأنيقة ، الواقفة أمام البيت •

سألت « صونيا » وهي تُخرج رأسها من باب المركبة :

ــ لمن هذه العربة ؟

أجابت الوصيفة :

ــ ألم تعلمي بعد ، يا آنسة ؟ هذا أمير جريح قضى الليل عندنا وهو راحل معنا •

ــ لكن من هو ؟ ما اسمه ؟

أجابت الوصيفة وهي تتنهد :

ــ انه الخطيب القديم نفسه ، الأمير آندره « بولكونسكي » ، وهو مشرف على الموت •

قفزت « صونيا الى الأرض وجــرت الى الكونتيســة • كانت الكونتيسة قد لبست ثياب السفر وأخذت تروح وتجيء بقبعتها وشالها ،



@ketab_n @4_readers

متعبة ، تنتظر أفراد الأسرة لكي يجلسوا لحظة والابواب مغلقة ،ويصلوا قبل الرحيل . ولم تكن « ناتاشا » هنا .

قالت « صونيا » :

ـ يا أمي ، الأمير آندره هنا ، وهو جريح ومشرف على الموت ومرتحل معنا . فتحت الكونتيسة عينين مذعورتين وأمسكت بذراعها وألقت نظرة خلفها وقالت :

ـ و « ناتاشا » ؟

لم يكن لهذا النبأ ، عند صونيا والكونتيسة ، في مبتدأ الأمر ، سوى معنى واحد . كانتا تعرفان « ناتاشا » وكان الخوف الذي تستشعرانه حين تفكران بردود أفعالها يخنق فيهما كلّ رأفة بهذا الرجل الذي تحبانه كلتاهما حبا جما .

قالت صونيا :

ـ « ناتاشا » لم تعلم بعد ، لكنه ذاهب معنا .

ـ قلت : انه موشك على الموت .

فأومأت صونيا برأسها موافقة .

فضمتها الكونتيسة بين ذراعيها وأخذت تبكي .

« طُرق الربّ لاتدرك » هذا ما خطر ببالها وهي تشعر أن كل ما كان يحدث بدأت تتجلى فيه الآن يد الله القادرة على كل شيء ، الخافية حتى هذه اللحظة عن عيون البشر .

سألت « ناتاشا » وهي تبادر مسرعة ، ووجهها يفيض حياة :



@ketab_n @4_readers

ـ هيا ، يا أمي ، كل شيء جاهز . ما بكِ ؟ ...

قالت الكونتيسة :

ـ لاشيء . وبما أن كل شيء جاهز ، فلنمض .

وانحنت على حقيبتها اليدوية لتخفي وجهها المنقلب . وضمت « صونيا » « ناتاشا » بين ذراعيها وعانقتها .

ألقت عليها « ناتاشا » نظرة مستفهمة :

ـ ما بك ؟ ماذا جرى ؟

ـ لا شيء ... كلا ...

واستفهمت « ناتاشا » القوية الحدس :

ـ لا شك أن هناك خبرا سيئا لي ؟ ... ما هو ؟ ...

تنهدت صونيا ولم تجب . ودخل الى الصالة الكونت و « بيتيا »، والسيدة « شوس » و « فاسيليتس » وجلسوا جميعا بصمت، والنوافذ مغلقة ، دون أن ينظر بعضهم الى بعض ، لبضع لحظات .

نهض الكونت أولا وتنهد تنهدا قويا ورسم إشارة الصليب أمام الأيقونة ، ثم ضم « مافرا كوزمينيتشنا » و « فاسيليتش » اللذين سيبقيان في موسكو ، وبينما كانا يمسكان بيده ويقبلان كتفه ، ربّت برفق ظهريهما وهو يغمغم بكلمات مبهمة ، ملاطفة يشد بها عزيمتهما . وانسحبت الكونتيسة الى المصلّى ووجدتها « صونيا » راكعة فيه أمام الايقونات القليلة الباقية هنا وهناك على الجدران . ( نقلت الايقونات الثمينة المتصلة بتقاليد العائلة ) .



@ketab_n @4_readers

وعند درج المدخل وفي الفناء كان الخدم المسافرون مسلحين بالخناجر والسيوف التي وزعها عليهم « بيتيا » ، وقد أدخلوا أطراف بناطيلهم في جزماتهم وشدوا أحزمتهم وزنانيرهم ، وراحوا يودعون الذين سيمكثون •

وكما هي الحال دائما عند السفر ، فان كثيرا من الأشياء تُنسيت أو حُزمت حزما سيئا ، وقد انتظر الحارسان المسلحان وقتا طويلا عند بابي مركبة الكونتيسة ليساعداها على الصعود اليها ، في حين كانت الخادمات يجرين وهن يحملن الوسائد والأسفاط من البيت الى مركبة الكونتيسة والى المركبة الكبرى والى العربة الصغرى •

قالت الكونتيسة :

ـ ما أكثر الاشياء التي تُنسى ! أتعلمين أنني لا أستطيع أن أجلس هكذا • فبادرت « دونياشا » ، الى العربة الفخمة ، وقد شدت على أسنانها دون أن تجيب وارتسمت على وجهها أمارات الملامة ، لتصلح الوسائد •

قال الكونت وهو يهز رأسه :

ـ آه لهؤلاء الخدم !

كان الحوذيُّ العجوز « يفيم » ، وهو الوحيد الذي تثق فيه الكونتيسة ، جالسا على مقعده العالي ، لا يلتفت الى ما يجري خلف ظهره • كان يعلم بحكم تجربته التي مرّ عليها ثلاثون عاما أنهم لن يقولوا له : « هيا ، انطلق ! » الا بعد مدة طويلة ، وعندما يقولون له ذلك سيوقفونه مرتين ليأتوا بأشياء نسوها ، وسوف يوقفونه مرة أخرى



@ketab_n @4_readers

أيضا بعد ذلك ، وسوف تطل الكونتيسة برأسها ، في هذه الاثناء ، من باب المركبة لتوصيه أن يسير برفق في المنحدرات . كان يعلم هـذا ، ولذلك كان ينتظر ما يجري وهو أصبر من جياده . ( ولاسيما الذي على الشمال ، الجواد الكميت « سوكول » الذي كان يضرب الأرض بحافره ويلوك لجامه . ) وأخيرا استقر الجميع في أماكنهم ورُفعت المراقي وصُفقت الابواب ، ثم أخرجت الكونتيسة رأسها من نافذة العربة وجهرت ببعض العبارات المقدسة . فحسر « ايفيم » عن رأسه ببطء ورسم اشارة الصليب . وحذا حذوه السائس وجميع الخدم .

قال « يفيم » وهو يعيد قبعته الى رأسه :

ـ لننطلق ! هُوه !

مشّى السائس الخيول ، وشد الجـواد الايمن طوقه ، فصرّت النوابض واهتز صندوق المركبـة ، وقفز الخادم الى مقعده والعربة سائرة . ووثبت العربة الفخمة وهي تمر من الفناء الى بلاط الشارع غير المستوي ، ووثبت المركبات الاخرى ايضا ، ودلفت المركبة الى الشارع. وعندما مرت المركبات الثلاث أمام الكنيسة المواجهة رسم كل من فيها اشارة الصليب . وكان الخدم المتبقون في موسكو يسيرون على جانبي العربات مشيعين .

قلما أحست « ناتاشا » بالفرح كما أحست به الآن ، وهي جالسة في المركبة الفخمة قرب أمها تنظر الى جدران موسكو المتحسرة المهجورة إذ تتوالى أمامها . وكانت تُخرج رأسها بين الحين والحين من النافذة وتتطلع خلفها وأمامها الى تلك القافلة الطويلة من الجرحى التي تسبقهم .

وفي مقدمتها تقريبا شاهدت غطاء عربة الامير آندره . ولم تكن



@ketab_n @4_readers

تعلم من فيها ، لكنها كانت كلما نظرت الى القافلة بحثت بعينيها عن هذه العربة التي كانت على رأس العربات الاخرى .

في « كودرينو » ، وافت قوافل أخرى كثيرة من العربات شبيهة بقافلة آل « روستوف » ، آتية من شارع « نيكيتسلي » و « بريسنيا » وشارع « بودنوفنسكوي » ، واضطرت العربات والمركبات أن تسير على صفين في شارع « سادوفايا » .

وعندما انعطفت العربات حول برج « سوكاريف »[1] ، هتفت « ناتاشا » التي كانت تلقي نظرة عجلى ، مستطلعة على المارة المشاة وفي العربات ، هتفت فجأة بدهشة فرحة :

ــ يا الهي ! أمي ، صونيا ، انظرا ، انه بعينه !

ــ مَنْ ؟ من هذا ؟

قالت « ناتاشا » وهي تنحني من النافذة وتنظر الى رجل طويل ضخم بلباس حوذي ، رجل تدل مشيته ومظهره على أنه نبيل متنكر ، كان يمر تحت قوس برج « سوكاريف » ، وبجنبه شيخ قصير ، أجرد ، مصفر ، يرتدي معطفا صوفيا غليظا .

ــ انظرا ، اقسم لكما أن هذا هو « بيزوخوف » !

وكررت « ناتاشا » :

---

(۱) كودرينو ساحة في الحي الشمالي من موسكو. اما نيكيتسايا وبريسينا وبودنوفنسكوي فهي احياء غربية في موسكو تنطلق منها العربات الى شارع سادوفايا ( الحدائق ) ملتفة حول المدينة وسائرة في دائرة ثانية بعد دائرة الشوارع . ها هنا كان يقوم برج سوكاريف الذي بني سنة ۱۷۰٤ وتهدم اليوم .



@ketab_n @4_readers

ـ أقسم لكما أنه « بيزوخوف » وهو يرتدي قفطانا ومعه شيخ قصير وجهه كوجه الصبي ، أقسم لكما على ذلك ، انظرا ، انظرا •

ـ لكنه ليس بطرس • كيف تقولين مثل هذه الحماقات !

صرخت « ناتاشا » :

ـ أمي ، أقطع رقبتي إن لم يكن هو بعينه ، أؤكد لك ذلك •

وصاحت بالحوذي : قف ، قف • لكن الحوذي لم يكن يستطيع الوقوف لأن العربات والمركبات كانت تفد من شارع «ميستشنسكايا» وكان السائقون يصيحون بسائقي عربات آل « روستوف » أن يسرعوا كي لا يقف السير •

الواقع أن جميع أفراد آل «روستوف» شاهدوا بطرس أو شخصا يشبهه شبها غريبا ، وان كان الآن أبعد من ذي قبل ، بلباس حوذي ، يمر في الشارع ، خافض الرأس ، صارم الوجه ، وبجنبه شيخ قصير ، أجرد بهيئة خادم • لاحظ هذا الشيخ القصير رأسها الذي أطل من نافذة المركبة ، فلامس بتأدب مرفق بطرس وقال له شيئا وهو يشير الى المركبة • لم يفهم بطرس في أول الامر ما قاله له لفرط ما كان مستغرقا في أفكاره • ولما فهم أخيرا ، نظر الى الجهة المشار اليها وعرف « ناتاشا » ، فاتجه بقوة الى العربة ، مدفوعا بحركته الاولى ، لكنه لم يكد يخطو نحو عشر خطوات حتى توقف ، ولعله تذكر شيئا أوقفه •

كان وجه « ناتاشا » المطل من نافذة المركبة يشع بعطف هازىء •

فصاحت وهي تمد يدها :

ـ تعال ، يا بطرس كيريلتش ! لقد عرفناك ! هذا مدهش ! وماذا تفعل هنا ؟ لم أنت هكذا ؟



@ketab_n @4_readers

أمسك بطرس باليد الممدودة وقبلها قبلة خرقاء وهو يمشي ( ظلت العربة تسير ) .

سألته الكونتيسة بصوت ينم على الدهشة والاشفاق :

ـ ماذا أصابك ، يا كونت ؟

قال بطرس وهو يلتفت الى « ناتاشا » التي كانت نظرتها المشرقة الفرحة تغمره بسحرها . ( أحس ذلك دون أن يتطلع اليها ) :

ـ لا تسألوني « لم » ولا « كيف » .

ـ وماذا تفعل أم أنك تنوي البقاء في موسكو ؟

لزم بطرس الصمت . ثم قال بلهجة مستفهمة :

ـ في موسكو ؟ نعم ، في موسكو . الوداع .

قالت « ناتاشا » :

ـ آه ! لكم أتمنى أن أكون رجلا ، اذن لبقيت معك . آه !

ما أروع ذلك! اسمحي لي ، يا أمي ، أن أبقى .

رماها بطرس بنظرة ساهمة وأراد أن يقول شيئا ، لكن الكونتيسة قاطعته :

ـ قيل لنا : انك كنت في المعركة ؟

أجاب بطرس :

ـ نعم ، كنت فيها . وستدور غدا معركة أخرى ...

فقاطعته « ناتاشا » :



@ketab_n @4_readers

ــ ماذا أصابك ، يا كونت ؟ أنت غريب ...

قال بطرس :

ــ آه ! لا تسألوني ، لا تسألوني ، فأنا نفسي لا أعرف شيئا . وغدا ... لكن لا ! وداعا ، وداعا ، يا لها من لحظات رهيبة !

ثم ترك العربة تمر وصعد الى الرصيف .

وظلت « ناتاشا » فترة تطل برأسها من النافذة وهي تبتسم له ابتسامة فرحة ، متوددة ، فيها شيء من الهزء .

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل الثامن عشر

كان بطرس ، منذ أن اختفى قبل يومين من منزله ، يسكن في شقة خالية للمرحوم « بازديف » • وقد جرت الامور على النحو التالي :

عندما استيقظ في صباح اليوم التالي لعودته الى موسكو ومقابلته الكونت « روستوبتشين » ، ظل زمنا طويلا دون أن يفهم أين موضعه وما المراد منه • ولما قيل له ان بين المنتظرين في الصالة الفرنسي الذي حمل اليه رسالة الكونتيسة « هيلين فاسيلييفنا »، اجتاحه فجأة احساس من الرعب والتخاذل أمام تعقيدات الحياة التي كان ميالا اليها • وقال في نفسه : ان كل شيء قد انتهى الآن ، واختلطت الاشياء بعضها ببعض وأخذت تنهار ، ولم يبق هناك عادل أو مذنب ، وأنه لن يبقى شيء في المستقبل وأن هذا الوضع لا مخرج له • كان يجلس على الأريكة جلسة العجز تارة ، وهو يبتسم ابتسامة مقتسرة ويغمغم بشيء ما ، وكان ، تارة أخرى ، ينهض ويدنو من الباب وينظر الى الصالة من ثقب القفل ، ثم لا يلبث أن يعود بحركة قانطة ليتناول كتابا • وجاء رئيس الخدم مرة أخرى ليخبره أن الفرنسي الذي حمل رسالة الكونتيسة يصر على رؤيته ، ولو الى لحظة ، وأن رسولا من قبل أرملة « بازديف » يرجوه أن يتعهد كتبها ، لأنها هي ذاهبة الى الريف •

أجابه بطرس :



@ketab_n @4_readers

ـ آه ! نعم ! في الحال ، انتظر ... أولا ، لا ، قل لهم اني سآتي على الفور .

لكن ما ان خرج رئيس الخدم حتى أخذ قبعته من على الطاولة وغادر مكتبه من الباب الداخلي . كان الممر خاليا ، فسار فيه حتى الدرج ، ونزل ، مكشرا يحك جبهته ، الى سطح الدرج . كان البواب واقفا عند الباب الرئيسي . وكان سطح الدرج متصلا بدرج آخر يفضي الى باب الخدم . فمضى فيه بطرس ونزل الى الفناء دون أن يراه أحد . لكنه ما ان صار في الشارع واجتاز بوابة الفناء حتى شاهده البواب والحوذيون الذين كانوا ينتظرون قرب عرباتهم وحسروا عن رؤوسهم . ولما أحس بطرس أن الانظار شاخصة اليه فعل ما تفعله النعامة عندما تدفن رأسها في شجيرات الارض لكي لا ترى ؛ فخفض رأسه وحث خطاه ودلف الى الشارع .

من بين جميع الاعمال التي عرضت هذا الصباح لبطرس بدا أن تصنيف كتب « جوزيف اليكسيفيتش » وأوراقه هو أجداها وأجدرها بعنايتـــه .

استقل أول عربة مرت وأمر حوذيها أن يوصله الى « مستنقعات البطريرك »[1] حيث منزل الأرملة « بازديف » .

كان يحس ، وهو لا يني يتلفت من كل الجهات الى صف العربات الذي كان يغادر موسكو ويبذل جهده ليثبت جسمه الثقيـــل حتى لا يسقط من هذه العربة العتيقة المتهادية ، كان يحس ذلك الاحساس

(۱) مستنقعات البطريرك حي بعيد شرقي موسكو .



@ketab_n @4_readers

الفرح الذي يخالج الصبي الهارب من مدرسته ، وكان يبادل الحوذي أطراف الأحاديث •

روى له الحوذي أن الاسلحة يجري توزيعهـا في الكرملين وأن جماهير الشعب ستتوجه غدا الى « التلال الثلاثة » حيث ستنشب معركة كبرى •

عندما وصل بطرس الى « مستنقعات البطريرك » وجـد منزل « بازديف » الذي لم يأته منذ زمن طويل • ودنا من الباب الصغير وقرعه فظهر « جيراسيم » ذاك الشيخ القصير ، الأجرد ، المصفر الذي رآه قبل خمس سنوات ، في «تورجوك» مع «جوزيف اليكسيفيتش» •

سأل بطرس :

ـ هل في البيت أحد ؟

ـ نظرا للظروف الراهنة ، سافرت « صوفيا دانيلوفنا » مع الاولاد الى أملاكهم في « تورجوك » ، يا صاحب السعادة •

قال بطرس :

ـ سأدخل مع ذلك ، لا بد من تصنيف الكتب •

قال الخادم العجوز :

ـ تفضل وادخل ، أرجوك ، ان شقيق الفقيـد ، رحمه الله ، « ماكار الكسيفيتش » باق ، لكنه ، كما تعلم ، متعب قليلا •

كان بطرس يعلم أن « ماكار الكسيفيتش » شقيق الفقيد نصف مجنون ، مدمن خمر •



@ketab_n @4_readers

قال بطرس :

ـ نعم ، نعم ، أعلم ذلك . لندخل ، لندخل ...

دخل البيت . كان في الردهة شيخ طويل ، أصلع ، محمر الأنف ، يرتدي مبذلا ، وقدماه في خفين من المطاط . وعندما رأى بطرس غمغم شيئا وهو مغتاظ وانصرف الى الممر .

قال « جيراسيم » :

ـ كان رجلا فذ الذكاء ، أما الآن فقد ضعف ذكاؤه ، كما ترى . أتريد أن تدخل المكتب ؟

أومأ بطرس برأسه موافقا .

وتابع « جيراسيم » كلامه :

ـ ما يزال المكتب كما هو ، منذ أن ختم بالشمع . وقد أمرت « صونيا دانيلوفنا » أن تسلم الكتب الى من ترسله .

دخل بطرس الى ذلك المكتب المحزون الذي لم يكن يدخل اليه في حياة صاحبه المحسن الا وهو يرتجف . لم يمسه أحد منذ موت « جوزيف اليكسيفيتش » ، وكان كل شيء مغطى بالغبار وأشد حزنا مما تصور .

فتح « جيراسيم » مصراعا وخرج على أطراف قدميه . طاف بطرس بالمكتب ودنا من الخزانة التي كانت فيها المخطوطات وتناول منها مخطوطة كانت قديما واحدة من أثمن مقدسات المحفل . كانت تضم الصكوك الايكوسية[1] الاصلية التي علق عليها وشرحها المحسن .

---

(1) كانت الماسونية الروسية تابعة للماسونية الايكوسية .



@ketab_n @4_readers

جلس بطرس أمام المكتب المغبر ووضع المخطوطات أمامه وفتحها وأغلقها ، ثم دفعها بيده عنه واستغرق في أفكاره ورأسه بين يديه •

جاء « جيراسيم » عدة مرات ونظر من طرف خفي الى المكتب فرآه جالسا أبدا في الوضع نفسه • ومضت ساعتان ، وجوّز « جيراسيم » لنفسه أن يحدث شيئا من الضوضاء على الباب ليسترعي انتباه بطرس ، فلم يسمعه بطرس •

ــ هل ينبغي أن أصرف العربة •

قال بطرس وهو يثوب الى نفسه وينهض مستعجلا :

ــ آه ، نعم !

وأضاف وهو يمسك « جيراسيم » بزر معطفه ، وينظر الى الشيخ القصير من فوق الى تحت بعينين ملتمعتين ، مبللتين ، متوثبتين :

ــ اصغ ، أتدري أنه ستنشب معركة في الغد ؟•••

أجاب « جيراسيم » :

ــ هذا ما يقال •

ــ أطلب اليك ألا تقول لأحد من أنا ، وافعل ما آمرك به •••

قال « جيراسيم » :

ــ أنا رهن أوامرك • أؤقدم لك الطعام ؟

قال بطرس وهو يحمر فجأة :

ــ كلا ، انما يلزمني شيء آخر • أنا بحاجة الى ثياب فلاح والى مسدس •



@ketab_n @4_readers

قال « جيراسيم » بعد لحظة تفكير :

ـ أنا رهن أوامرك •

قضى بطرس سائر النهار في مكتب المحسن وحيدا ، يتمشى بعصبية في طول الغرفة وعرضها • وقد سمعه « جيراسيم » وهو يمشي ويكلم نفسه ، وفي الليل نام بطرس في الغرفة على سرير أعدّ له •

قبل « جيراسيم » ، وهو الخادم الذي رأى كثيرا من الغرائب في حياته ، قبل من دون دهشة ، بحلول بطرس في البيت ، وبدا مسرورا أن يكون لديه من يخدمه • وفي المساء ، وفر لبطرس ثوبا وقبعة ، من غير أن يتساءل عن الغاية من ذلك كله ، ووعد أن يوفر له في اليوم التالي المسدس المطلوب • وخلال الليل ، جاء « ماكار اليكسيفيتش » مرتين الى الباب يجر خفيه ويقف وهو ينظر الى بطرس كمن يطلب ودّه • لكن ما ان يلتفت بطرس اليه حتى يلف نفسه بمبذله وينثني مسرعا وقد بدا عليه الحياء والغضب • وانما لقي بطرس آل « روستوف » عندما كان ذاهبا ، وهو يرتدي قفطان الحوذي الذي اشتراه ونظفه له « جيراسيم » ، ليبتاع مسدسا من برج « سوكاريف » •

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل التاسع عشر

في ليلة الاول من أيلول ، أصدر « كوتوزوف » أمره الى القطعات الروسية بالانسحاب عبر موسكو على طريق « ريازان » .

تحركت القطعات الاولى في الليـل . سارت دون أن تستعجل وتقدمت ببطء وهدوء ؛ لكنها رأت أمامها في الفجر ، وهي تقترب من جسر « دوروغو ميلوفو »[1] ، أفواجا أخرى لا نهاية لها من القطعات تتدافع على الجسر ، وتزدحم على الضفة الاخرى ، وتسد الشوارع والطرقات ، ومن خلفها قطعات أخرى تلزها . فاستولى على النـاس اضطراب وقلق عاتيان ، واندفع الجميـع الى الجسر ، وعلى الجسر والمعابر والقوارب . وأمر « كوتوزوف » أن تمر عربته من ضواحي الجانب الآخر من الموسكوفا .

في الساعة العاشرة من صباح الثاني من أيلول ، لم يبق في ضاحية « دوروغو ميلوفو » سوى المؤخرة . كان الجيش قد عبر الموسكوفا وتجاوز موسكو .

وفي الوقت نفسه ، في الساعة العاشرة من صباح الثاني من أيلول ، كان نابليون مع قطعاته على هضبة « بولكونايا » يتأمل المشهد الذي انكشف أمامه . كان الطقس منذ السادس والعشرين من آب حتى

(١) جسر دوروغو ميلوفو على الموسكوفا عند المدخل الغربي للعاصمة .



@ketab_n @4_readers

أول أيلول ، منذ معركة « بورودينو » حتى دخول العدو الى موسكو ، خلال جميع أيام هذا الاسبوع المملوء بالقلق ، هذا الاسبوع المشهود ، طقسا خريفيا ، فريدا ، مدهشا عندما تغدو الشمس المنخفضة أشد اتقادا منها في الربيع ، ويلتمع كل شيء في الهواء المخلخل النقي الى الحد الذي تتأذى فيه العيون ، ويتمدد الصدر ويستنشق بملء الرئتين عطر الخريف ، وتصبح الليالي أكثر دفئا ، وتهوي من السماء ، في هذه الليالي الحالكة الدافئة ، النجوم الذهبية التي تبعث الخوف والفرح •

كذلك كان الطقس في الثاني من أيلول ، في الساعة العاشرة صباحا • كان بريق الصباح فاتنا ، عجيبا ، وكانت موسكو من هضبة«بوكلونايا»، تنبسط بعيدا على مدى واسع ، بنهرها وحدائقها وكنائسها ، فتبدو كأنما تحيا حياة خاصة بها ، وكانت قبابها تتلألأ تحت أشعة الشمس كما تتلألأ النجوم •

لدى مرأى هذه المدينة الغريبة بهندستها التي خالفت بها المعروف الشائع ، شعر نابليون بذلك الفضول المشوب بالحسد والقلق الذي يشعر به الرجال عند مرأى أشكال الحياة الغريبة التي يجهلونها • فلا شك أن هذه المدينة كانت تحيا حياتها الخاصة بكل ما في تلك الحياة من قوى • وكما يميز المرء الجسد الحي من الجسد الميت ، من مسافة عظيمة ، بعلامات فارقة لا سبيل الى معرفة كنهها ، كذلك رأى نابليون من هضبة « بوكلونايا » الحياة تنبض في هذه المدينة وأحس بما يشبه نفحة هذا الجسد العظيم الجميل •

قال نابليون :



@ketab_n @4_readers

**- هــذه المدينة الآسيويــة بكنائسها التي لا تحصى ، موســكو المقدسة ، هــا هي ذي اخيرا ، هــذه المدينة الذائعة الصيت !** لقــد آن الآوان •

وترجّل وأمر أن يُنشر مخطّط موسكو أمامه ودعا مترجمه «ليلورم ديدفيل » . وفكرّ في نفســه **« ان مدينة يحتلها العدو تشبه فتاة ضيعت شرفها »** ( كما قــال لتوتشكوف في سمولنسك ) . ومن هــذه الزاوية كان يتأمل الجمال الشرقي الممتد أمامه الذي يراه لاول مرة • فحتى بالنسبة اليه ، كان تحقيق ذلك الحلم الذي راوده طويلا والذي ظنه مستعصيا على التحقيق يبدو غريبا • لقد كان ينظر ، في ضوء الصباح الصافي ، الى المدينة طورا ، والى المخطط طورا آخر ، محققا في التفاصيل ، وكان يقينه من امتلاكها يسلؤه بالانفعال والرعب •

قال في نفسه : « لكن أكان يمكن أن تكون الامور بخلاف ذلك ؟ ها هي ذي تلك العاصمة ، عند قدمي ، تنتظر مصيرها • أين الاسكندر الآن وماذا يقول ؟ ياللمدينة الغربية ، الجميلة ، الجليلة ! وياللحظــة الغريبة ، الجليلة ! وتساءل وهو يفكر بجنوده : « بأي منظار ينظرون الي • ها هي ذي ، مكافأة هؤلاء الناس القليلي الايمان » ، وألقى نظرة الى ما حوله والى القطعات وهي تدنو وتصطف : « كلمة واحدة مني ، اشارة واحدة من يدي ، فاذا بها أثر بعدعين ، عاصمة القياصرة القديمة هذه . **لكن رحمتي سرعان ما تهبط على المغلوبين** ، يجب ان ادلل على الشهامة والعظمة الحقيقية ••• ودار بخلده : « كلا ، لا أصدق أنني في موسكو • ومع ذلك فها هي ذي عند قدمي بقبابها المذهبة وصلبانها التي تتلألأ وترتعش في الشمس • لكني لن أصيبها بسوء • وعلى هذه



@ketab_n @4_readers

الاوابد القديمة الشاهدةعلى الهمجية والاستبداد سأنقش تلك الكلمات العظيمة ، كلمات العدل والرحمة ... وهذا الذي سيقع موقعا مؤلما من نفس الاسكندر ، فأنا أعرفه . ( كان يبدو لنابليون أن جوهر ما كان يجري صراع بينه وبين الاسكندر ) . من أعلى الكريملين ، نعم ، وهذا هو الكريملين بعينه ، سأسن لهم القوانين العادلة ، سأريهم ما الحضارة الحقة ، سأجبر الاجيال الآتية من نبلاء روسيا على أن يذكروا بحب اسم قاهرهم . سأقول لوفدهم : انني لم اكن أريد الحرب وانني لا أريدها ، وانني لم أحارب سوى سياسة البلاط الغادرة ، وانني أحب الاسكندر وأحترمه وانني سأقبل في موسكو بعروض الصلح الجديرة بي وبشعوبي . لست أريد أن استغل أحوال الحرب لاذل ملكا خليقا بالاحترام . وسأقول لهم : « أيها النبلاء ! لست أريد الحرب ، وانما أريد الصلح ورخاء رعاياي جميعا . » على كل حال ، اني أعلم أن حضورهم سيلهمني ما أقوله وانني سأكلمهم كما أتكلم دائما : بوضوح وفخامة وعظمة . لكن أيمكن أن أكون حقا في موسكو ؟ نعم ، ها هي ذي !.

قال وهو يلتفت الى حاشيته :

- **ائتوني بنبلاء(1) موسكو .**

وسرعان ما انطلق جنرال معه حاشية متألقة للبحث عن النبلاء .

مرت ساعتان تناول نابليون خلالهما غداءه وعاد الى مكانه نفسه على الهضبة ، بانتظار الوفد . وقد اتخذ الخطاب الذي سيوجهه الى

---

(1) يستخدم نابليون لقب **Boyards** ليدل على النبلاء او الاشراف او الاعيان مع أن بطرس الاكبر قد الغى هذا اللقب قبل قرن .



@ketab_n @4_readers

النبلاء شكلا محددا في خياله . وكان يفيض بالكرامة والعظمة كما يفهمهما نابليون .

ولقد أخذ هو نفسه بلهجة الشهامة هذه التي نوى أن يصطنعها في موسكو . وراح يحدد في خياله ايام **الاجتماع في قصر القياصرة** حيث سيتلاقى كبار النبلاء الروس وكبار أصحاب المراتب الفرنسيين . وعيّن بذهنه الحاكم الذي يستطيع أن يستميل اليه الاهلين . وقرر ، بعد أن علم أن في موسكو عددا كبيرا من المؤسسات الخيرية ، أن يغمر هذه المؤسسات بأفضاله . وكان يعتقد أنه مثلما وجب عليه أن يذهب الى الجامع ، في افريقيا ، ببرنسه ، فكذلك ينبغي ان يكون ، في موسكو ، محسنا كالقياصرة . ولكي يكسب قلوب الروس قرر ، وهو العاجز ، مثل كل فرنسي ، عن ان ينساق وراء عواطفه دون ان **يتذكر امه الغالية ، الحنونة ، امه المسكينة** ، قرر أن يكتب على جميع المؤسسات بحروف كبيرة : « **مؤسسة مقدمة الى امي الغالية** » ، ثم قال في نفسه : لا ، يكفي ان يكتب : « **دار امي** ». لكن، أمن الممكن أن أكون في موسكو ؟ نعم ، وها هي ذي أمامي . لكن ، لمَ تأخر وفد المدينة الى هذا الحد » ؟

في هذه الاثناء ، كان الجنرالات والمارشالات ، في الصفوف الاخيرة من حاشية الامبراطور ، يعقدون مجلسا سريا يتشاورون فيه بصوت خافت ، وقد ألمّ بهم الاضطراب . ذلك أن الذين ذهبوا لاحضار الوفد عادوا ليخبروا أن موسكو فارغة ، وان جميع سكانها غادروها سيرا على الاقدام أو في العربات . كانت وجوههم شاحبة ، منفعلة . لم يروعوا لان موسكو هجرها أهلها ( وان بدا الحدث جللا ) ، انما روعهم وجوب ابلاغ النبأ الى الامبراطور ، فلا يعرف أحد كيف يخبر جلالته ، من



@ketab_n @4_readers

غير أن يدفعه الى ذلك الموقف الرهيب الذي يسميه الفرنسيون «**مضحكا**»، بأنه انتظر النبلاء طويلا بلا جدوى ، وبأنه ليس في موسكو سوى عصابات من السكارى ، ولا أحد غيرهم . كان بعض مَن في المجلس يقول : انه يجب جمعُ وفد ما مهما كلف الامر ، والبعض الآخر يقاوم هذه الفكرة ويذهب الى انه ينبغي اعدادُ الامبراطور بحذر ومهارة واطلاعه على الحقيقة .

كان رجال الحاشية هؤلاء يقولون :

ـ لابد ، مع ذلك ، من اطلاعه على النبأ . لكن ، أيها السادة ، ...

كان الموقف شاقا ، وزاد من مشقته أن الامبراطور الذي استغرق في مشاريعه الشهمة كان يروح ويجيء متصبرا أمام المخطط المنشور ، مستشرفا بين الحين والحين طريق موسكو وهو يبتسم بفرح واعتزاز .

ثم يقولون :

ـ لكن هذا مستحيل ...

ويهزون أكتافهم دون أن يستطيع أحد التفوه بتلك الكلمة الرهيبة التي اضمروها ، كلمة « **مضحك** » ...

الا أن الامبراطور ، بعد أن أتعبه هذا الانتظار الفارغ ، استروح بحاسة الممثل فيه أن تلك اللحظة السامية ان طالت فوق حدها فقدت جلالها ، فأشار بيده . ودوى صوت مدفع منفرد معطيا اشارة المسير فنحركت القطعات التي كانت تحدق بموسكو نحو حواجز « تفير » و « كالوغا » و « دوروغو ميلوفو » ، متسارعة ، متسابقة فيما بينها ، جريا وخببا ، وقد غطتها سحب من الغبار وملأت الفضاء بضوضاء هتافها .



@ketab_n @4_readers

سار نابليون مع جنوده ، مدفوعا بحركتهم ، حتى حاجز« دوروغو ميلوفو » ، وهنا توقف وترجل وتمشى طويلا أمام سـور « مجمـع الغرفة »[1] في انتظار الوفد .

(١) سور خارجي لموسكو يشكل الدائرة الثالثة ، وهو مبني من الطوب ، بنته في منتصف القرن الثامن عشر وزارة المالية التي كانت تسمى آنذاك « مجمع الغرفة » على الطريقة الالمانية .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل العشرون

على أن موسكو كانت خالية . مايزال فيها بعض السكان ، جزء من خمسين من سكانها القدماء ، لكنها كانت خالية. كانت خالية كالخلية التي تموت اذا حرمت ملكتها .

ليس في الخلية التي بلا ملكة حياة ، لكنها تبدو للنظرة السطحية حافلة بالحياة .

ففي أشعة شمس الجنوب الدافئة ، يحوم النحل حول هذه الخلية بمرح كما يحوم حول الخلايا الحية ، انها تفوح ، من بعيد ، برائحة العسل ، كما تفوح بها الخلايا الحية ، والنحل يخرج منها ويدخلها كما يخرج من الخلايا الحية ويدخلها . لكن يكفي أن نلاحظها بامعان لندرك أن الحياة غائبة عنها . فالنحل لا يحوم حولها كما يحوم حول الخلايا الحية ، والرائحة هناك غير الرائحة هنا ، ودوي النحل الذي يصك سمع مربيه هناك غير دويه هنا . وعندما يقرع مربي النحل جانب خلية مريضة لا تجاوبه سوى طنطنات منعزلة ترن في أرجاء الخلية الفارغة، بدلا من الجواب الفوري الاجماعي لدوي عشرات الآلاف من النحل الذي يشرع حماته ، ويضرب بأجنحته على عجل ، محدثا هذا الحفيف الهوائي ، حفيف الحياة . أما المدخل فلا يحس المرء عنده بتلك الرائحة الكحولية العطرة رائحة العسل والسم ، ولا ينبعث منه دفء الخلية الملأى ، وانما تمتترج برائحة العسل رائحة الفراغ والعفن فيه ، ولا



@ketab_n @4_readers

تحميه الحارسات التي تشرع حماتها وتستعد للتضحية بنفسها في سبيل الدفاع عن خليتها ، ولا تسمع فيه هذه الضوضاء المنتظمة العذبة ، ولا نبض العمل الشبيه بالغليان، وانما تسمع فيه الضوضاء المتنافرة،ضوضاء الفوضى التي لا نظام فيها .وترى النحل النهّاب الاسود بأجسامه المتطاولة يدخل ويخرج منه،وهو مطلي بالعسل،لكنه لا يلسع وانما يهرب من الخطر . وقديما لم تكن ترى سوى العاملات يدخلن مثقلات بغنيمتهن ليخرجن فارغات منها ، اما الآن فهن يطرن بحملهن . ويفتح المربي أسفل الخلية ، ويفحص الجزء الادنى منها ، فلايجد ما كان يجده قديما من عناقيد النحل الحي المتدلي الى اسفل الخلية ، وقد تشبث بعضه ببعض ، وراح يفرز الشمع ، في دوي لا ينقطع ، وانما يجد نحلا غلب عليه النعاس والهزال ، يشرد تائها في قاع الخلية وعلى جدرانها . وبدلا من الارض المطلية بالعكبر اللزج ، والمكنوسة بضربات الاجنحة ، يتغطى القاع بفتات الشمع ، والفضلات ، والنحل المشرف على الموت الذي لا يكاد يحرك ارجله ، وجثث النحل التي لم ترفع بعد .

ويفتح مربي النحل الغطاء ويفحص جسم الخلية ، فلا يرى صفوف النحل المتراصة التي تسد جميع نخاريب الشهد وتدفىء البيض ، وانما يرى بنيان الاقراص الماهر المعقد ، ولكن بدون ذلك المظهر العذراوي الذي كان له من قبل . كل شيء فيها همل ، مدنس . والنهابات من النحل الاسود يحو من مسرعات ، خلسة بين العاملات التي أصابها الجفاف والخور والكلال أو العجز ، والتي تحوم ببطء لا تعترض سبيل غيرها ولا ترغب في شيء وقد فقدت الشعور بالحياة . وراحت الزنابير والنعرات ، والطنانات والفراشات تصطدم بجدران الخلية أثناء طيرانها



@ketab_n @4_readers

المضطرب ، فيعلو هنا وهناك ، بين أقراص الشهد والبيض الميت والعسل، طنين غاضب من حين الى آخر • وفي ركن من الخلية نحلتان ساقتهما عادتهما القديمة في تنظيف العش الى جرّ جثة نحلة عاملة وطنانة بعناية ومشقة الى خارج الخلية من غير أن تعلما لمَ تفعلان ذلك • وفي ركن آخر نحلتان هرمتان تقتتلان برخاوة ، أو تنظفان جسديهما ، أو تطعم احداهما الاخرى دون أن تعلما ان كان ما تفعلانه وديا أو عدائيا • وفي ركن ثالث جماعة من النحل تراكب بعضه فوق بعض يهاجم ضحية ، ويضربها ويخنقها • فتسقط النحلة الضحية متهالكة أو ميتة ببطء وخفة كريشة من زغب فوق كومة الجثث • فاذا قلب المربي قرصي الوسط ليرى العش رأى بضع مئات من النحل الكئيب ، المخدر ، الشبيه بالميت، بدلا من آلاف النحل القابع ظهرا الى ظهر في دائرة مرصوصة ، سوداء ، ساهرا على سر النقف • ذاك النحل ميت تقريبا دون أن يعلم انه ميت ، مقيم يحرس الكنز الذي لم يبق له وجود ، تفوح منه رائحة العفن والموت ، الا بعضا منه يتحرك وينهض ويطير بتوان ويحط على يد العدو خائر القوى ليموت وهو يلسعه ؛ أما النحل الميت فيسقط بهدوء الى القاع كحراشف السمك • عند ذاك يعيد المربي غطاء الخلية ويؤشر عليها بالحوار ، ويختار الوقت المناسب ليحطمها ويحرقها •

هكذا كانت موسكو خالية في حين كان نابليون يتمشى طولا وعرضا، وهو متعب ، قلق ، متجهم ، عند السور ، ينتظر مراعاة اللياقة ، على الاقل ، اللياقة الخارجية التي لا غنى عنها في رأيه : ارسال الوفد •

لم يكن ، في مختلف ارجاء المدينة ، سوى اناس يتحركون بلا هدف ، ويخضعون لعادات قديمة دون أن يدركوا ما يفعلون •



@ketab_n @4_readers

وعندما أُبلغ نابليون ، بكل احتراس ، أن موسكو خالية ، حدج المبلّغ بنظرة حانقـة ، ثم انثنى واستأنف تمشيه بصمت . وقال :

ــ لتتقدم عربتي .

وصعد الى جانب المساعد العسكري المناوب ودخل الضاحية .

كان يقول في نفسه :

**« موسكو مقفرة ! يا للحدث الذي لا يصدق ! »** .

لم يدخـل المدينة لكنه توقف في نزل في ضاحيـة « دوروغو ميلو فو » . **لقد اخفقت المفاجاة .**

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل الحادي والعشرون

اجتازت القطعات الروسية موسكو من الساعة الثانية صباحا الى الساعة الثانية بعد الظهر ، جارة في اثرها الذين تخلفوا من السكان والجرحى .

حدث اكبر زحام أثناء مسيرة الجيش على جسر بطرس وجسر الموسكوفا وجسر اياوزا[1] .

وبينما كانت القطعات تتجمع على جسري موسكوفا وبطرس ، بعد أن انقسمت شطرين حول الكريملين ، كان عدد جم من الجنود يستغلون التوقف والزحمه ويعودون أدراجهم ، منسلين خلسة وفي صمت ، بحذاء كنيسة الدائم الغبطة فاسيلي[2] ومن باب بوروفيتسكي، صاعدين نحو الساحة الحمراء[3] حيث كانوا يستروحون بحاستهم الخفية أن السلب هنا أسهل منه في أي مكان آخر . كان حشد شبيه بالحشود في ايام الرخصة يجتاح « غوستيني دفور » من كل منافذها .

---

(١) الجسران الاولان يقعان في جنوبي الكريملين ، على الموسكوفا والثالث على نهر اياوزا الذي يصب في الموسكوفا شرقي الكريملين .

(٢) كنيسة الدائم الغبطة فاسيلي كنيسة ذات ثماني قباب مبرقشة ، بنيت في سنة ١٥٦٠ فوق الساحة الحمراء تمجيدا لذكرى فتح قازان .

(٣) «نحو الساحة الحمراء» : ترجمة غير دقيقة لان ( كراسنايا بلوتشاد ) كانت تعني في الروسية الساحة الجميلة ، لكن كلمة ( كراسني ) اخذت فيما بعد معنى « احمر » وفي هذه الساحة كانت توجد أروقة أو معارض التجار ( غوستيني دفور ) .

لكن لم تكن تتردد فيها أصوات البائعين الخلابة الملأى بمعسول اللطف ولم يكن فيها الحمالون ولا جمهور النساء المبرقش ، وانما كانت تغص بيزات الجنود ومعاطفهم وهم يدخلون صامتين ، بدون سلاح ، صفر الايدي الى المعارض ويخرجون منها مثقلين . وكان التجار والمستخدمون ( كانوا قلة ) يتجولون كالتائهين بين الجنود ، يفتحون دكاكينهم ويغلقونها ويحملون مع مساعديهم ما أمكنهم حمله من البضاعة الى جهة ما . ودقت الطبول في الساحة قرب « غوستيني دفور » دقة التجمع . فلم يستجب أحد من الجنود لها ، وانما دفعتهم هذه الدقة الى الامعان في هربهم . ثم اختلط بالجنود في الدكاكين والممرات أفراد حليقو الرؤوس يلبسون سترا رمادية[1] . وفي زاوية « ايلينكا » وقف ضابطان يتحدثان فيما بينهما ، أحدهما يمتطي حصانا هزيلا رماديا غامقا ، ويضع وشاحا فوق بزته ، والاخر راجل يلبس معطفا طويلا . خف اليهما ضابط ثالث :

— أصدر الجنرال أمره بطرد الناس رأسا ، مهما كلف الثمن . هذا شيء فظيع ! هرب نصف الرجال .

وصاح بثلاتة من جنود المشاة انسلوا امامه الى المعارض ، بدون سلاح ، وقد رفعوا اطراف معاطفهم الطويلة :

— الى أين تذهب ؟ ... الى أين تذهبون ؟ ... قفوا ، أيها الاوباش !

أجاب الضابط الآخر .

— لا سبيل الى ايقافهم ، بل يجب أن نعجل في الذهاب قبل أن يترك الآخرون صفوفهم ويتفرقوا ، هذا كل ما نستطيعه !

---

(١) اي المجرمون الذين اخلي سبيلهم من السجون .



@ketab_n @4_readers

ـ وكيف نتقدم ؟ لقد توقف الجند هناك ، وتكوموا على الجسر لا يتحركون • ربما لزمنا اقامة شريط لمنع الآخرين من الفرار •

فصرخ الضابط الاعلى :

ـ لكن اذهب الى هناك ! اطردهم جميعا •

ترجّل الضابط الذي يضع وشاحا واستدعى طبالا ودخل معه تحت الاقواس • فهرب بعض الجنود • واقترب من الضابط تاجر على وجنتيه قرب الانف بثور حمراء ، وعلى وجهه الممتلىء أمارات الحساب والتقتير التي لا يغيرها مرور الايام ، وهو يهز ذراعه بتبجح وسرعة ، وقال :

ـ يا صاحب النبل ، احمنا ، أرجوك • لا حساب بيننا ، يسرنا أن نخدمك !••• هيا ، سآتيك بقطعة جوخ تصلح لرجل نبيل مثلك ، بل سأقدم قطعتين ، بكل سرور ! لاننا لا ننسى الجميل ، أما هذا ، ما هذا، هذا نهب حقيقي ! تفضل بمرافقتي • لا بد من وضع حرس ، لنتمكن من اغلاق متاجرنا على الاقل •••

وأحاط بالضابط بعض التجار قال أحدهم ، وهو رجل هزيل قاسي الوجه :

ـ ايه ! ماجدوى النقاش ! اذا قطع الرأس لم يؤسف على الشعر •

وأشار بيده إشارة قوية وهو يلتفت الى الضابط ، وقال :

ـ ليأخذ كل واحد ما طاب له !

قال التاجر الاول محتدا :

ـ أنت تتكلم كما يحلو لك ، يا إيفان سيدوريتش • تفضل ، يا صاحب النبل ، أرجوك •



@ketab_n @4_readers

فصرخ التاجر الهزيل :

ـ ماجدوى الكلام ! ان لدي هاهنا في ثلاثة متاجر من البضاعة مايعادل مائة الف روبل • كيف يمكن المحافظة عليها عندما يرحل الجيش؟ آه لهؤلاء الناس ! لا راد لمشيئة الله •

كرر البائع الاول وهو ينحني :

ـ تفضل ، يا صاحب النبل ، أرجوك •

تردد الضابط ونطق وجهه بهذا التردد • وصرخ فجأة :

ـ على كل حال ، مالي ولهذا ؟

وابتعد وهو يغذ خطاه تحت اقواس الاروقة • ومن حانوت مفتوح وافت أصوات الضربات والتجديف في الوقت الذي اقترب منه الضابط وبرز منه رجل ذو سترة رمادية ورأس حليق قد أُلقي الى الخارج •

طوى ذلك الرجل ظهره وانسل بين التجار والضابط•وانقض الضابط على الجنود الذين كانوا في الحانوت • ولكن ، في تلك اللحظة ، ارتفعت جلبة رهيبة أطلقها جمهور غفير على جسر الموسكوفا ، فهرع الضابط الى الساحة • وسأل زميله :

ـ ماذا يجري ؟ ماذا يجري ؟

لكن زميله كان يعدو صوب الصياح ، بحذاء كنيسة الدائم الغبطة « فاسيلي » ، فركب جواده ولحق به • ولما بلغ الجسر رأى مدفعين نزعا من مقطورتهما ، ومشاة يسيرون ، وعربات مقلوبة ، ووجوها ذاهلة ، وجنودا يضحكون • وقرب المدفعين وقفت عربة يجرها حصانان • ووراءها ، بجنب العجلات ، ربط أربعة كلاب سلوقية يلز بعضها بعضا •



@ketab_n @4_readers

وكانت العربة مثقلة بالامتعة ، ومن فوقها ، بجنب كرسي طفل قوائمه في الهواء ، جلست امرأة تطلق صرخات حادة تمزق القلب • وروى رفاق الضابط له أن الباعث على صراخ الجمهور وزعاق المرأة كان امراأصدره الجنرال « ايرمولوف » الذي رأى الجنود يقبلون على نهب الحوانيت ورأى المدنيين يسدون الجسر، فأمر بنزع المقطورة وهدد بفتح النار على الجسر ليكون ذلك عبرة لمن اعتبر • عند ذاك راحت الجماهير تخلي الجسر وهي تقلب العربات وتتدافع ويدهك بعضها بعضا وتطلق صرخات موجعة حتى استأنفت القطعات سيرها •

* * *



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الثاني والعشرون

على أن موسكو كانت مقفرة . لم يكن في الشوارع أحد تقريبا . وكانت بوابات الافنية والحوانيت مغلقة . وكانت تتردد هنا وهناك ، حول الحانات ، صرخات منفردة أو أغنيات السكارى . لم تكن تمرّ عربة واحدة في الشوارع ، وقلما كان ترنّ خطى عابر سبيل ماش . وكان شارع « بوفارسكايا » خاليا ، يخيم عليه الصمت الشامل . وكان فناء آل « روستوف » الرحب مغطى ببقايا العلف ، وبالروث ، وليس فيه من أحد . وكان في البيت المهجور بما فيه من خيرات شخصان في الصالة الكبرى وهما البواب « اينياس » والخادم الصغير « ميشكا » حفيد « فاسيليتش » ، وقد بقي في موسكو مع جده . وكان الخادم الصغير قد رفع غطاء البيانو القيثاري وأخذ ينقر باصبعه ، بينما وقف البواب أمام المرآة ، ويداه على خصريه ، وعلى شفتيه ابتسامة فرحة .

قال الصبي وقد أخذ ينقر بكلتا يديه الملامس :

ـ عمّ « اينياس » ! قل لي ان كان عزفي مسليا ؟

أجاب « اينياس » وهو يتأمل في المرآة ابتسامته التي راح يفترّ عنها فمه :

ـ أترى أنت ذلك ؟

قال صوت « مافرا كوزمينيشنا » من ورائهما وقد دخلت بدون ضجة :



@ketab_n @4_readers

ـ ألا تخجلان ؟ انظر الى هـذا الوجه الضخم الذي كشف عن أسنانه جميعا ! أنتما لا تصلحان الا لهذا ! كل شيء في فوضى هناك ، وقد أعيا التعب « فاسيليتش » • انتظراني قليلا !

أصلح « اينياس » زناره ، وكف عن الابتسام وخفض عينيه مذعنا وخرج •

قال الصبي :

ـ يا عمة ، سأعزف برفق •

فصاحت به « مافرا كوزمينيشنا » وهي ترفع عليه يدا مهددة :

ـ سأذيقك مرارة « الرفق » ! يا عفريت ! اذهب وأشعل السماور لجدك •

نفضت « مافرا كوزمينيشنا » الغبار عن المعزف واغلقته وتركت الصالة وهي تتنهد تنهدا عميقا واغلقت الباب بالمفتاح •

خرجت الى الفناء وتساءلت : أين تذهب الآن : أتذهب الى تناول الشاي مع فاسيليتش» في الجناح أم ترتب في المستودع مالم يُرتب بعد•

دوّت في الشارع الصامت خطى حثيثة وقفت عند الباب الصغير ؛ وصرّ المزلاج من جراء ضغط يد تحاول فتحه •

اقتربت « مافراكوزمينيشنا » من الباب :

ـ من تريد ؟

ـ الكونت ، الكونت « ايليا اندرييتش روستوف » •



@ketab_n @4_readers

ـ ومن أنت ؟

فأجاب صوت عذب ، صوت نبيل روسي :

ـ أنا ضابط ، وأنا بحاجة اليه •

فتحت « مافرا كوزمينيشنا » الباب • ودخل الفنــاء ضابط شاب في نحو الثامنة عشـرة ، تذكّــر تقاطيع وجهــه المدور بتقاطيع آل « روستوف » •

قالت « مافرا كوزمينيشنا » بلطف :

ـ لقد ارتحلوا ، ارتحلوا مساء أمس •

صـفّق الضابط بلسانه ، وهو واقف على الباب ، وكأنه لايدري أيدخل أم لا • وقال :

ـ آه ! يا للخيبة ! كان ينبغي أن آتي البارحة ••• آه ! ان ذلك مؤسف !

تفرّست « مافرا كوزمينيشنا » ، أثناء ذلك ، بامعان وود ، في وجــه الشاب ، في قسمات ذلك الوجه الشبيهة بما عهدته في أســرة « روستوف » وتفحصت معطفه وجزمته التي بلي كعبها •

سألته :

ـ ولم كنت تريد أن ترى الكونت ؟

قال الضابط باغتياظ وهو يضع يده على أكرة الباب كأنه يهم بالانصراف

ـ الواقع ••• أنه لاحيلة لي في الامر •

ثم توقف مترددا ، وقال فجأة :



@ketab_n @4_readers

ـ اعلمي أنني من أقرباء الكونت ، وكان دائما عظيم الاحسان إلي ، وها أنت ذي ترين ( ونظر بابتسامة ساخرة الى معطفه وجزمته ) رثاثة ثيابي ، وليس معي فلس ، وكنت أريد أن أسأل الكونت ...

ولم تتح له « مافرا كوزمينيشنا » أن يتمّ جملته ، فقالت :

ـ ليتك تنتظر لحظة قصيرة ، ياسيدي . لحظة قصيرة .

وما إن أرخى الضابط أكـرة الباب حتى انطلقت بخطى العجوز الحثيثة واتجهت نحو الفناء الخلفي حيث الجناح الذي تسكنه .

بينما كانت « مافرا كوزمينيشنا » تطير الى غرفتها ، أخذ الضابط يتنزه في الفناء خافض الرأس ، محدّقا في جزمته البالية ، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة ويفكر : « ما أشد أسفي لاني لم أجد عمي . لكن ياالها من عجوز شهمة ! أين ذهبت ؟ وكيف أستطيع أن أعرف الطريق التي يجب أن أسلكها لألحق على جناح السرعة،بفوجي الذي لا بد أن يكون قد اقترب الآن من حاجز « روغوجسكي ؟ » وما لبثت أن ظهرت ، في زاوية من الفناء ، « مافرا كوز مينيشنا » ، وعلى وجهها أمارات الخوف والعزم ، وفي يدها منديل معقود ، ذو مربعات . وعلى خطوات من الضابط حلّت المنديل وأخرجت ورقة نقدية بيضاء بخمسة وعشرين روبلا وناولته اياها على عجل قائلة :

ـ لو كان سعادته هنا لفعل ، بدون شك ، ما يليق فعله للقريب ، لكن ربما ، هاك ... في هذا الوقت ...

وهنا اضطربت « مافرا كوزمينيشنا » ، فتناول الضابط الورقة من غير تعفّف ومن غير تعجّل ، وشكرها .



@ketab_n @4_readers

وأتمت كلامها كأنها تريد أن تعتذر :

ـ لو كان الكونت هنا .. ليحمك الله ، يا سيدي ، ليحفظك الله .

قالت ذلك وهي تنحني وتشيّعه الى الباب . فابتسم الضابط كأنما يهزأ من نفسه وهز رأسه واندفع جاريا في الشوارع المقفرة ليدرك فوجه قرب جسر « اياوزا » .

ظلت « مافرا كوزمينيشنا » زمنا طويلا أمام الباب المغلق ، مبلّلة العينين ، تهز رأسها متفكّرة ، وقد أحست بفيض مفاجىء من الشفقة والحنان الأمومي إزاء هذا الضابط الصغير المجهول .

* * *



@ketab_n

@4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الثالث والعشرون

في منزل لم يكتمل بعد ، في شارع « فارفاركا »[1] ، ارتفعت الصيحات وأغنيات السكارى من حانة كانت تشغل الدور الاسفل فيه. كان نحو عشرة عمال يجلسون على مقاعد حول الطاولات ، في غرفة صغيرة قذرة . كانوا جميعا سكارى ، يتصببون عرقا ، عكري العيون، يغنون بكل ما أوتوا من قوة وهم يفتحون أفواههم العريضة . كانوا يغنون كما يحلو لهم ، بدون تمييز ، وبمشقة وجهد ، لا لأنهم كانوا يشتهون الغناء ، بل لمجرد التدليل على أنهم سكارى ، مبتهجون . كان يقف بجنبهم فتى طويل ، أشقر ، يرتدي سترة زرقاء ، جدّ نظيفة . وكان وجهه ذو الأنف المستقيم الدقيق حريّا بأن يكون جميلا لولا شفتاه الرقيقتان ، المزمومتان ، الدائمتا الحركة ، ولولا عيناه العكرتان، الجامدتان ، العابستان . كانوا جلوسا وكان واقفا يشرف عليهم من فوق ، وكأنما تصوّر أنه يلعب دورا فأخذ يحرك فوق رؤوسهم ، ذراعه البيضاء التي شمّر كمها حتى المرفق ، بحركة مهيبة مكسّره ، محاولا جهده أن يباعد بين أصابعه الوسخة . وكان كمّ سترته لا يفتأ يسقط فيشمره بأناة بيده اليسرى ، وكأنّ من الاهمية بمكان أن تكون هذه الذراع البيضاء ، القوية عارية . وفي خلال الاغنية ، علا ضجيج شجار وضربات في المدخل وعند درج المدخل . فأشار الفتى الطويل بيده وصرخ بلهجة حاسمة :

---

(1) شارع في وسط المدينة في « كيتايغورود » .



@ketab_n @4_readers

ـ تمَّ الأمر ! ووقع الشجار ، يا شباب .

وخرج الى مدخل الدرج دون أن يكفَّ عن تشمير كمه .

تبعه العمال . وكان هؤلاء العمال الجالسون في الحانة قد حملوا الى الحانة في هذا الصباح ، بقيادة الفتى الطويل ، جلودا من المصنع بادلوا بها خمرا .

فلما سمع الحدادون في دكاكين حدادتهم الضوضاء التي أحدثوها ، ظنوا أن الحانة تتعرض للنهب وأرادوا أن يدخلوهـا بالقوة ، فوقع الشجار عند درج المدخل .

كان صاحب الحانة ، على بابه مشتبكا مع أحد الحدادين ، وفي اللحظة التي ظهر فيها العمال أفلت هذا الحداد من يدي صاحب الحانة وسقط بوجهه على البلاط .

وجهد حداد آخر في أن يعبر الباب دافعا صاحب الحانة بصدره .

وعمد الفتى المشمر عن كمه الى حداد أراد أن يصل الى الباب فلطمه في وجهه ، قبل أن يصل ، وصرخ بأعلى صوته :

ـ أيها الشباب ! انهم يضربون رفاقنا !

في هذه اللحظة ، نهض الحداد الاول ، ومر بأصابعه على وجهه المدمّى ، وصرخ بصوت شاك :

ـ النجدة ! أمسكوا بالقاتل !... قتلوا رجلا ! أيهـا الرفاق !..

وصرخت امرأة كانت تخرج من البوابة المجاورة :

ـ اوه ! يا أصحابي ، انهم يقتلون رجلا ، لقد قتلوا الرجل !



@ketab_n @4_readers

وتجمع حشد من الناس حول الحداد المدمّى .

ارتفع صوت يخاطب صاحب الحانة :

ـ ألم تشبع من نهب الناس وابتزاز آخر قميص لهم ؟ وتريد الآن قتلهم ، أيها اللص !

كان الفتى الطويل ، واقفا على الدرج ، ينقّل عينيه العكرتين في صاحب الحانة تارة ، وفي الحدادين تارة أخرى ، وكأنما كان يتساءل : مَن يُقاتل منهما .

وصاح فجأة بصاحب الحانة :

ـ سفّاح ! أوثقوه ، يا رفاق !

صرخ صاحب الحانة وهو يهز الذين ارتموا عليه ، وينتزع قبعته ويَخبط بها الارض :

ـ أتوثقونني ، أنا !

وكأنما كان لتلك الحركة معنى خفيّ منذر بالويل ، فوقف العمال حوله مترددين .

ثم استأنف الخمار صراخه وهو يلتقط قبعته من الارض :

ـ أنا أعرف القانون ، أيها الفتيان ، على رؤوس أصابعي، وسأذهب الى آمر شرطة الحي . أتظن أنني لن أذهب ؟ لايحق لأحد اليوم أن يقوم بأعمال النهب .

وصرخ صاحب الحانة والفتى الطويل على التوالي :

ـ هيا الى هناك ! .. هيا الى هناك ! ...



@ketab_n @4_readers

ومضى الاثنان في الشارع • وسار الحداد المدمّى في إثرهما • وتبعهم العمال والمتفرجون وهم يتكلمون ويصرخون •

في زاوية « الماروسيكا »[1] ، مقابل بيت كبير مغلق المصاريع تزينه لافتة « صانع أحذية » ، كان يقف حوالي عشرين عاملا من صانعي الاحذية بان عليهم الهزال والضنى ولبسوا أردية فضفاضةوقفطانات رثة•

قال عامل هزيل ذو لحية متفرقة الشعر وحاجبين مقطّبين :

ـ ليُعطنا حسابنا بحسب الأصول ! لقد امتصّ دمنا وهو الآن يظن نفسه بريء الذمة• ما طلّنا وتلاعب بنا أسبوعا كاملا ، وها هو ذا ، في آخر لحظة يلوذ بالفرار •

وعند مرأى الجماعة والرجل المدمّى صمت العامل ، وبادر صانعو الاحذية فانضموا بفضول الى الجمهور السائر •

ـ الى أين يذهب هؤلاء الناس ؟

ـ معروف الى أين ، الى السلطات •

ـ أصحيح أن جماعتنا لم يَغلبوا ؟

ـ وأنت ماذا تظن ؟ اصغ قليلا الى ما يقوله الناس •

تتالت الأسئلة والاجوبة • وانتهز صاحب الحانة هيجان الجمهور فتخلّف وعاد الى حانته •

ظل الفتى الطويل يلوّح بذراعه العارية ، ويُفيض في كلامه ، دون أن يفطن الى اختفاء غريمه ، مُسترعيا بذلك الانتباه العام • ومن حوله

---

(1) شارع من « كيتاي غورود » مؤد الى الشمال الشرقي .



@ketab_n @4_readers

خاصة ازدحم الناس آملين أن يحصلوا على جواب عن الاسئلة التي كانت تشغل بال الجميع .

كان الفتى الطويل يقول ، وعلى شفتيه ابتسامة لا تكاد تلمح :

ـ ما عليه الا أن يضرب المثل بنفسه ، وأن يريهم ما القانون ، من أجل ذلك أقيمت السلطات ! أليس كذلك ، أيها الافاضل !

ـ يتصور أن ليس هناك سلطات ؟ أيمكننا الاستغناء عن السلطات؟ هاهم أولاء هواة النهب قد بدؤوا يعيثون فسادا .

انبعثت من الجمهور أصوات تقول :

ـ ما هذا الكلام الذي لامعنى له ! كيف يمكن أن تترك موسكو هكذا ! موسكو ! لقد مازحوكَ فصدّقت المزحة . لا ينقصنا الجند . فكيف يتركونه يدخل هكذا ! هناك سلطات تتولى ذلك . الأحرى بك أن تسمع ما يرويه هؤلاء الناس . ( وأشار الى الفتى الطويل ) .

أمام جدار « كيتاي غورود »[1] أحاطت جماعة أخرى ، قليلة العدد ، برجل يرتدي مَعطفا من الصوف الغليظ ويمسك ورقة بيده .

قال بعض من في الجمهور الذي اتجه من فوره نحو المنادي :

ـ انه يقرأ بلاغا ، بلاغا .

كان الرجل ذو المعطف الصوفي الغليظ يقرأ اعلان الواحد والثلاثين من آب . وعندما أحاط به الجمهور بدا عليه الاضطراب ، لكنه استأنف

---

(١) كيتاي غورود : الحي التجاري الذي تفصله الساحة الحمراء عن الكريملين . وكان تحيط به ايضا الاسوار التي تهدمت اليوم .



@ketab_n @4_readers

قراءته مع ارتعاش خفيف في صوته ، بناء على طلب الفتى الطويل الذي اندفع الى جنبه :

« سأذهب غدا ، في ساعة مبكرة ، لأرى الامير صاحب الرفعة ، ( كرّر الفتى الطويل مع ابتسامة مهيبة على الشفتين ، وهو يقطب حاجبيه : صاحب الرفعة ! ) للتفاهم معه وللعمل ومساعدة قطعاتنا على ابادة الأثيمين ؛ سنبذل وسعنا نحن أيضا للقضاء عليهم ... ( وهنا وقف المنادي لأن الشاب الطويل صرخ كالمنتصر : أترون ؟ سيذيقهم سوء العقاب ... ) ، لابادة هؤلاء الواغلين والالقاء بهم بعيدا ؛ سأعود في ساعة الغداء وسنبدأ العمل ، سنمضي فيه ، سنتمّه وسنذيق الأثيمين سوء العقاب . » .

قرأ المنادي الكلمات الاخيرة وسط الصمت التام . أطرق الفتى الطويل رأسه بأسى . وكان واضحا أن أحدا لم يفهم النهاية . أما قوله : « سأعود في ساعة الغداء » فقد شقّت ، من غير شك ، على المنادي وعلى المستمعين . كان الفهم الشعبي ينتظر كلاما بليغا ، في حين أن ما جاء في الاعلان كان مفرط البساطة والسهولة ، يستطيع كل من المستمعين أن يقول مثله ، ومن ثَمَّ فلا يمكن أن يُقال في اعلان صادر عن السلطات العليـــا .

أخلد الجميع الى الصمت الكئيب . وكان الفتى الطويل يحرك شفتيه ويترنح .

ارتفعت من الصفوف الخلفية فجأة أصوات تقول :

— ينبغي أن نذهب ونسأله ! ... ها هو ذا بعينه ! ... أتريد أن تسأله ! ... ولمَ لا ؟ ... سيدلنا ...



@ketab_n @4_readers

واتجهت أنظار الجمهور الى عربة قائد الشرطة التي وصلت الى الساحة يرافقها فارسان على جواديهما •

كان قائد الشرطة قد ذهب هذا الصباح ، بناء على أمر الكونت ، ليحرق بعض القوارب ، وربح بهذه المناسبة ، مبلغا كبيرا كان معه ؛ فلما رأى الجمهور يسير نحوه أمر الحوذي بالوقوف • وصاح على وجل بالناس الذين كانوا يقتربون من العربة واحدا واحدا :

ـ من أنتم ؟ من أنتم ؟ أسألكم من أنتم ؟

لكنه لم يتلق جوابا • قال الموظف ذو المعطف الصوفي الغليظ :

ـ يا صاحب النبل ، كانوا يريدون••• وفقا لاعلان سعادة الكونت، كانوا يريدون أن يقوموا بواجب الخدمة باذلين حياتهم لا أن يتمردوا كما قال سعادة الكونت •••

أعلن قائد الشرطة :

ـ الكونت لم يسافر ، وستصلكم التعليمات •

وقال للحوذي :

ـ سِرْ !

توقف الجمهور ، وتكتّل حول الذين سمعوا كلمات ممثل السلطة، ناظرا الى العربة وهي تبتعد •

في هذه اللحظة التفت قائد الشرطة الى حوذيّه مرعوبا ، وقال له شيئا ، فزادت الجياد من جريها •

ارتفع صوت الفتى الطويل :



@ketab_n @4_readers

ـ هذه خدعة ، أيها الفتيان ! خُذْنا الى القائد الاعلى بذاته !

لا تَدَعوه يذهب ، أيها الرفاق ! ليشرحْ لنا الامور بدقة !

وصرخت أصوات : قِفْ ! ، وانطلق الجمهور في إثر عربته .

اتجه الجمهور وهو يتبع قائد الشرطة الى « اللوبيانكا » بضوضاء صاخبة ارتفعت فيها أصوات متزايدة تقول :

ـ وإذنْ فالأثريــاء والتجار ولّوا هاربين ، ومِنْ أجــل ذلك سيُقضى علينا ! أنحن كلاب ؟

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل الرابع والعشرون

في مســـاء الاول من أيلول ، عاد الكونت « روستوبتشين » الى موسكو ، بعد مقابلته لكوتوزوف ، ذليلا مهانا ، لانه لم يُدعَ الى حضور المجلس الحربي ، ولان « كوتوزوف » لم يأبهْ لعرضه المشاركة في الدفاع عن العاصمة ، ولأنه فوجىء بوجهـــة النظر الجديدة التي اكتشفها في المعسكر والتي تذهب الى أن مسألة هدوء العاصمة وروحها الوطنية لم تكن مسألة ثانوية فحسب ، بل انها كانت عديمة الجدوى ، جديرة بالاهمال ٠وبعد أن تعشى ، استلقى على الاريكة بثيابه ، وفي الساعة الواحدة صباحا ، أيقظه رسول يحمل رسالة من « كوتوزوف » يطلب فيها اليه أن يرسل رجال الشرطة لمواكبة القطعات التي كانت تنسحب على طريق « ريازان » الى ماوراء موسكو ، عبر العاصمة ٠ لم يكن النبأ جديدا على « روستو بتشين » ٠ فقد كان يعلم أن موسكو ستُهْجـر ، لاعنـد مقابلته « كوتوزوف » ، أمس ، على هضبـة « بوكلونايا » ، ولكن منذ معركة « بورودينو » ، عندما كان جميع الجنرالات الآتين الى موسكو يُجمعون على أن من المتعذر خوض معركة جديدة ، وعندما كانت تُرحّل ، باذنه كل ليلة ، أموال الدولة ، بعد أن ارتحل نصف السكان ؛ ومع ذلك فان هذا النبأ الذي جاءه على شكل بطاقة مجردة تحمل أمر « كوتوزوف » ، ويتلقاها في الليل ، أثناء اغفاءته الاولى ، قد أدهشه وغاظه ٠



@ketab_n @4_readers

فيما بعد ، عندما شرح الكونت « روستو بتشين » نشاطه في هذه الفترة ، كرر مرات في مذكراته انه كان يسعى الى هدفين مهمين : **ان يحافظ على الهدوء في موسكو وأن يُرحّل السكان** . اذا قبلنا بهذا الهدف المزدوج غدا كل عمل من أعمال « روستو بتشين » لاغبار عليه. لكنْ لمَ لم تُجلَ عن موسكو كنوز الكنائس والاسلحة والخرطوش والبارود والاحتياطي من القمح ؟ لماذا خُدع ونُكب آلاف السكان حين أُكّد لهم أن موسكو لن تُخلى ؟ يقول الكونت « روستوبتشين » شارحا : انه فعل ذلك ليحافظ على الهدوء في العاصمة . لكن لمَ رُحّلت أكداس لا شأن لها من أوراق الدوائر ، ورُحّل منطاد « ليبيك » وأشياء أخرى ؟ يُعلّل الكونت « روستو بتشين » ذلك بأنه يريد أن يترك المدينة خالية . يكفي أن نقبل بأن هناك ما يهدد الأمن العام حتى يغدو كلُّ عمل مسوّغا .

كلّ فظاعات الارهاب لم يُملها الا الحرص على الأمن العام .

على أي أساس اذن كانت تقوم مخاوف الكونت « روستو بتشين » بشأن الامن العام في موسكو ، سنة ١٨١٢ ؟ ما الداعي الى الاعتقاد بأن السكان كانوا يميلون الى الثورة في المدينة ؟ كان السكان ينصرفون، وكانت القطعات المتراجعة تملأ موسكو . فلمَ يثور الشعب ، بعد ذلك؟

لم يكن هناك ما يشبه الثورة ، عند دخول العدو ، لا في موسكو ولا في أي مكان من روسيا . لقد بقي في موسكو ، في الاول والثاني من أيلول ، أكثر من عشرة آلاف شخص ، واذا استثنينا التجمع الذي وقع في فناء دار الحاكم ــ وهو تجمع أثاره هو نفسه ــ فانه لم يقع شيء . ومن البديهي أن امكان وقوع الاضطرابات الشعبية كان سيكون



@ketab_n @4_readers

أقلّ لو أن « روستو بتشين » ، بعد معركة «بورودينو» ، عندما أصبح الجلاء عن موسكو محققا أو على الاقل محتملا ، بدلا من أن يبثّ الذعر في الشعب بما ينشر من بلاغات وبما يوزع من سلا ح، اتخذ تدابير لإجلاء كنوز الكنائس والبارود والذخيرة والمال ، ولو أنه أعلن صراحة للسكان أن المدينة ستُهجر .

لم تكن لروستوبتشين ، هذا الرجل المُحتدم ، الدموي الذي تقلّب في مناصب الدولة العالية ، أدنى فكرة عن هذا الشعب الذي يظن أنه يحكمه ، وان كان يضطرم بالمشاعر الوطنية . فمنذ دخول العدو الى سمولنسك انتحل في خياله دور مرشد الشعور القومي ، مرشد قلب روسيا . كان يُخيّل اليه أنه لا يقود باعلاناته وبلاغلاته التي يكتبها بلغة عامية يحتقرها الشعب في الوسط الشعبي ولا يفهمها ان جاءت من فوق ، لايقود مظاهر حياتهم الخارجية فحسب بل وعواطفهم أيضا . ولقد أعجب هذا الدور ، دورُ مرشد الشعور الشعبي « روستو بتشين » أيّما اعجاب ، وتعوّده أيما تعوّد حتى أن ضرورة التخلي عنه ، ضرورة النخلي عن موسكو دون أن يأتي بعمل باهر ، قد داهمته من حيث لا يحتسب ، فشعر أن الأرض تغيب من تحت قدميه وحار فيما يفعل . ومع علمه بحقيقة مايجري فانه أبى بكل جوارحه حتى آخر لحظة ، الاعتقاد بأن موسكو ستُخلى، ولم يفعل شيئا بهذا الشأن. وكان الأهلون يرتحلون خلافا لارادته. واذا كانت الادارات قد رُحّلت فان ذلك تم بناء على طلب الموظفين الذين قَبِل برأيهم على كُره منه . أمّا هو فلم يكن يهتم الا بالدور الذي عيّنه لنفسه . وكما يقع غالبا للناس الذين أوتوا خيالا متوقدا ، فانه كان يعلم منذ زمن طويل أن



@ketab_n @4_readers

موسكو ستهجر ، لكنه لم يكن يعلم ذلك الا بالمحاكمة العقلية ، وكان يرفض تصديق ذلك والانتقال بخياله الى هذا الوضع الجديد .

لم يتجه نشاطه المضطرم القوي ( أما الى أي حد كان هذا النشاط :افعا وهل أثر في الشعب فتلك مسألة أخرى ) الا الى أن يوقظ في الشعب الشعور الذي يستشعره هو نفسه : الحقد الوطني على الفرنسيين والثقة بالذات .

لكن عندما أخذ الحدث أبعاده التاريخية الحقيقية ، وعندما بدا أن المجاهرة الكلامية بالحقد على الفرنسيين غير كافية ، وعندما أصبح متعذرا اظهار هذا الحقد في معركة ، وعندما غدت الثقة بالذات عديمة الاثر فيما يتصل بمسألة موسكو اذا نظر اليها منعزلة عن غيرها ، وعندما ترك السكان بأسرهم أرزاقهم ، كالرجل الواحد ، وانساحوا الى خارج موسكو ، مدللين بذلك الفعل السلبي على كل قوة الشعور القومي ، عند ذلك تبين فجأة أن الدور الذي اختاره « روستوبتشين » مخالف للعقل والمنطق . وأحس بنفسه وحيدا ، ضعيفا ، مثيرا للسخرية ،محروما من أي سند يسنده .

حين أوقظ من نومه ليتلقى بطاقة « كوتوزوف » الجافة ، الآمرة ، اغتاظ ، وزاد من غيظه شعوره بأنه مذنب . فكل ما عهد به اليه ، كل أملاك الدولة التي كان يجب عليه اجلاؤها ، كل ذلك بقي في موسكو ، وغدا مستحيلا اجلاؤه كله .

أخذ يفكر : « اذا كنا قد وصلنا الى هذا الحد ، فعلى من يقع الذنب ؟ من المؤكد أنه لا يقع علي . فأنا أعددت كل شيء ، وامسكت موسكو بقبضتي ! ثم ها نحن أولا نصل الى هذا الحد ! يا للحقراء ،



@ketab_n @4_readers

الخونة ! » • قال هذا دون أن يحدد في فكره مَن" الحقراء والخونة ، وان كان يحس بالحاجة الى كره هؤلاء الخونة المجهولين الذين جروه الى هذا الوضع الخاطىء المثير للسخرية •

ظل الكونت « روستوبتشين » طوال الليل يصدر الاوامر التي كانت تطلب اليه من جميع أرجاء موسكو • ولم تره بطانته قط في مثل هذا الكلوح والهياج •

كانت الاسئلة تنهال عليه طوال الليل ، دون انقطاع : يا صاحب السعادة ، جاؤوا يسألون عن أوامرك ، من قبل ادارة الاملاك العامة ، من قبل المجمع الكنسي ، من قبل مجلس الشيوخ[1] ، من قبل الجامعة ، من قبل الميتم ، أرسل النائب الاسقفي رسولا •• انهم يسألون ••• ما أوامرك بصدد رجال المطافىء ؟ مدير السجن •• مدير مصح المجانين •

كان يجيب عن هذه الاسئلة جميعا بأجوبة مقتضبة ، ساخطة ، تظهر أن أوامره غدت بلا جدوى ، وأن عمله الذي أعده بعناية فائقة قد خرّبه أحد المخربين ، وأن هذا المخرب يتحمل كامل المسؤولية عما سيقع •

أجاب عن سؤال دائرة الاملاك العامة :

ـ قل لهذا الغبي أن يبقى ليحرس اوراقه البالية •

وقال بصدد رجال المطافىء :

ـ لمَ هذه الاسئلة الغبية ؟ ان لهم خيولهم ، فليذهبوا بها الى « فلاديمير »[2] • لن نترك هذه الخيول للفرنسيين ، على كل حال •

---

(١) كان هناك هيئتان في مجلس الشيوخ تجتمعان في موسكو في الكريملين بوصفهما محكمة التمييز العليا .

(٢) فلاديمير مدينة من مدن المقاطعات على ٢٠٠ كم شرقي موسكو ، عاصمة روسيا الكبرى في القرنين الثالث عشر والرابع عشر .



@ketab_n @4_readers

ـ يا صاحب السعادة ، مدير مصح المجانين هنا ، ماذا نقول له ؟

ـ ماذا تقولون له ؟ ان يرحلوا ، هذا كل شيء ••• وليطلقوا المجانين في المدينة • عندما يقود المجانين الجيوش في بلادنا فان الله ذاته يأمر بالافراج عن مجانين المصحات •

وردا على سؤال بصدد المساجين المقيدين بالحديد ، صرخ الكونت بمدير السجن وقد هاج هائجه :

ـ هل ينبغي أن أقدم لك كتيبتين لحراستهم ، كتيبتين لا نملكهما ؟ أخل سبيلهم ، هذا كل شيء !

ـ يا صاحب السعادة ، ا ن بينهم مساجين سياسيين : «ميشكوف» و « فيريستشاجين » •••

فصرخ الكونت :

ـ « فيريستشاجين » ! ألم يشنق بعد ؟



@ketab_n @4_readers

# الفصل الخامس والعشرون

حوالي الساعة التاسعة صباحا ، في حين كانت القطعات تجتاز موسكو ، كف الناس عن سؤال الكونت أوامره • فكل الذين بمقدورهم أن يذهبوا كانوا يذهبون بوسائلهم الخاصة ، أما الذين مكثوا فكانوا يقررون بأنفسهم ما ينبغي أن يفعلوه •

أمر الكونت بأن تعد له عربة ليذهب الى « سوكولنيكي » وكان ينتظر في مكتبه ، مكفهرا ، واجما ، ويداه مضمومتان على ركبتيه •

يعتقد كل حاكم اداري ، في زمن الامن ، أن بقاء الاهلين الذين أوكل أمرهم اليه رهين بجهوده وحدها ، وهو يجد في يقينه بأنه لاغنى عنه خير ثواب على أتعابه وجهوده • ومادام محيط التاريخ هادئا ، فمن المفهوم أن يعتقد الحاكم الاداري ـ الربان الذي يتكىء بعصاه من زورقه المتداعي ، على مركب الدولة ، أن هذا المركب الذي يتكىء عليه انما يتقدم بجهوده وحده • لكن يكفي أن تهب العاصفة ، وأن يثور البحر الذي يجرف المركب ، حتى يغدو ذلك الوهم متعذرا • اذ تتابع السفينة سيرها مهيبة ، مستقلة ، وتعجز عصا الربان عن أن تطولها ، ويسقط الربان من مركز القائد ، وهو مصدر قوته ، الى مركز الرجل الواهن ، المستضعف الذي لا غناء فيه •

كان « روستوبتشين » يحس بذلك ، وهذا ما كان يثير غضبه •



@ketab_n @4_readers

دخل قائد الشرطة ، هذا الذي استوقفه الجمهور ، والمساعد العسكري الذي جاء يعلن أن العربة جاهزة ، معا مكتب الكونت • كان كلاهما شاحبا وقد أعلن قائد الشرطة ، بعد أن أوضح أن مهمته قضيت ، ان جمهورا غفيرا تجمع في الفناء وهو يريد مقابلة الكونت •

نهض « روستوبتشين » دون أن ينبس بكلمة ، ومضى بخطوات حثيثة الى صالة فخمة مضاءة واقترب من باب الشرفة ، وأمسك بمقبضه ثم أرخاه وذهب الى نافذة أخرى يمكن رؤية الجمهور منها • كان الفتى الطويل يقف في الصفوف الاولى ، وكان بوجهه القاسي ، يتحدث وهو يلوّح بيديه • وكان الحدّاد المدمى الى جنبه ، مكفهر الوجه • ومن النوافذ المغلقة ، ترامى اليه دوي الاصوات •

سأل « روستوبتشين » مساعده العسكري وهو يترك النافذة :

ـ هل العربة جاهزة ؟

فرد المساعد العسكري :

ـ نعم ، يا صاحب السعادة •

ثم عاد « روستوبتشين » الى باب الشرفة وسأل قائد الشرطة :

ـ لكن ماذا يريدون ؟

ـ يقولون ، يا صاحب السعادة ، انهم تجمعوا ليزحفوا على الفرنسيين حسب أوامركم ، وهم يصيحون بأنهم كانوا ضحية الخيانة • لكن الجمهور هائج ، ولم أنج منه الا بشق النفس ، يا صاحب السعادة • واذا سمحت لي ، يا صاحب السعادة ، أن أقترح عليك •••

فصرخ « روستوبتشين » بغضب :



@ketab_n @4_readers

ـ تفضل بالانصراف ، أعرف بدونك ما الذي ينبغي أن أفعله .

كان يقف عند باب الشرفة شاخصا الى الجمهور ، يفكر : « هـذا هو ما فعلوه بروسيا ! هذا هو ما فعلوه بي ! وأحس بغضب عات يثور فيه على ذاك الذي يمكن أن تلقى عليه تبعة ما جرى . وكما يحدث غالبا للاشخاص النزقين ، فان الغضب تملكه ، لكنه كان يبحث عن غرض لغضبه . قال في نفسه وهو ينظر الى الجمهور :

« **هؤلاء هم الرعاع ، حثالة الشعب** » وقال في نفسه وهو ينظر الى الفتى الذي كان يلوّح بيديه : « **هذه هي الدهماء التي اثاروها بحماقاتهم ، انها بحاجة الى ضحية** » .

واذا كان ذلك قد مرّ بباله ، فذلك لانه هو نفسه كان بحاجة الى ضحية ، الى هذا الغرض لغضبه . وكرّر :

ـ هل العربة جاهزة ؟

فأجاب المساعد العسكري :

ـ نعم ، يا صاحب السعادة.ما هي أوامرك بشأن «فيريستشاجين»؟ انه ينتظر عند الدرج .

فهتف « روستوبتشين » وكأنما صدمته ذكرى مفاجئة :

ـ آه !

وفتح الباب بقوة ، وخرج بخطوات ثابتة الى الشرفة . فصمتت الاصوات دفعة واحدة، وحسرت الرؤوس واتجهت الانظار الى الكونت قال بسرعة وبصوت مرتفع :



@ketab_n @4_readers

ـ مرحبا ، يا أولادي • شكرا على مجيئكم • سأنزل اليكم بعد قليل • لكننا ينبغي أن نسوي حساب المجرم ، قبل ذلك • يجب ان نعاقب الاثيم المسؤول عن ضياع موسكو • انتظروني ! وعاد الكونت الى الداخل بالسرعة التي خرج بها ، وهو يصفق الباب •

سرت في الجمهور همهمة الرضى • وكانوا يقولون وكأنما يلوم بعضهم بعضا على ما أصابهم من ضعف الايمان : « واذن فهو يريد تصفية حساب الآثمين جميعا ! وأنت لقد قلت انه فرنسي ••• سيذيقهم سوء العذاب ! »

في مدى بضع دقائق ، خرج ضابط من الباب الكبير مستعجلاوأمر الفرسان بالاستعداد • تقدّم الجمهور بلهفة من الشرفة الىدرج المدخل• وخرج « روستوبتشين » بخطوات سريعة ، نزقة ، وألقى نظرة عجلى حوله كأنه يبحث عن أحد الاشخاص ، وسأل :

ـ أيـن هـو ؟

وفي اللحظة نفسها لمح في زاوية البيت شابا بين جنديين ، طويل العنق ، دقيقه ، حلق نصف رأسه وبدأ الشعر ينمو عليه من جديد • وكان يرتدي معطفا مبطنا بفرو الثعلب ومغطى بجوخ أزرق،رثا،ولا شك أنه كان أنيقا من قبل ، أما سرواله فكانت وسخة ، مصنوعة من القنب ، مما يلبسه السجناء ، وقد أدخل طرفيها في فتحتي الجزمة الدقيقة ، البالية القذرة ، وكانت السلاسل الثقيلة التي تعرقل ساقيه الدقيقتين تجعل مشيتـه كالمترددة •

قال « روستوبتشين » وهو يحوّل بصره بسرعة عن الشاب ذي الفروة ، ويشير الى آخر درجة من الدرج :



@ketab_n @4_readers

ـ آه ! خذوه الى هناك !

صعد الشاب الى الدرجة المشار اليها ، في قعقعة السلاسل ، وهو يدخل اصبعه في ياقة الفروة التي كانت تضغطه ، وأدار عنقه الطويل مرتين ، وشبك ، وهو يتنهد ، يديه النحيلتين اللتين لم تتعودا العمل على صدره في حركة تدل على الاذعان والتسليم •

دام الصمت بضع ثوان ، في حين كان الشاب يقف على الدرجة ، ولم يقطعه سوى زفرات وهزّات ووطء أقدام في الصفوف الخلفية التي كانت تتدافع •

كان « روستوبتشين » يمسح وجهه بيده ويقطب حاجبيه ، وهو ينتظر وقوف الشاب على الدرجة المطلوبة •

قال بصوت معدني رنان :

ـ يا أولادي ! هذا الرجل هو « فيريستشاجين » ، السافل الذي كان سببا في ضياع موسكو •

ظل الرجل ذو الفروة في وضعه المذعن المسلم ، يداه مشبوكتان على صدره وقد تقوّس ظهره قليلا ، وأطرق وجهه الفتي ، المهزول ، الذي بدت عليه دلائل القنوط ، والذي شوّهته تلك الجمجمة الحليقة• وما ان بدأ الكونت كلامه حتى رفع رأسه ببطء وصعّد فيه نظره كأنه يريد أن يقول له شيئا أو كأنه يريد أن تلتقي نظراتهما ، على الاقل • لكن « روستوبتشين » لم ينظر اليه • وعلى طول عنق الشاب الدقيق ، خلف الاذن ، ازرق عرق وبدا ناتئا كالحبل ، واحمرّ وجهه فجأة •

كانت الانظار شاخصة اليه • نظر الى الجمهور ، وابتسم ابتسامة



@ketab_n @4_readers

حزينة ، وجلة كأنما تشجع بما قرأه على وجوه الناس من تعبير ، ثـم عاد فخفض رأسه ووقف منتصبا على الدرجة •

قال « روستوبتشين » بصوت مستو ، قاس ، وهو يحط بصره على الشاب الذي استمر في وقفته المذعنة :

ـ لقد خان قيصره ووطنه والتحق ببونابرت ، وهو الروسي الوحيد الذي دنّس شرف الاسم الروسي، وبسبب خطيئته انماضاعت موسكو•

وكأنما أخرجه وضع الرجل عن طوره ، فصرخ،وهو يرفع يده ويخاطب الجمهور •

ـ عاقبوه بأنفسكم ، فأنا أسلمكم اياه !

صمت الجمهور واكتفى بأن أخـذ يرص صفوفه رصا أوثق • وقد غدا شيئا لا يطاق أن يقفوا متراصين بعضهم بجنب بعض ، يتنفسون هـذا الهواء الخانق الفاسد ، عاجزين عن الحركة ، ينتظرون شيئا مجهولا ، مستعصيا على الفهم ، رهيبا • كان الذين في الصفوف الاولى، يرون ويسمعون كل ما يجري ، مذعوري النظرات ، جاحظي الاعين ، فاغري الافواه ، صامدين بكل قواهم لدفع الذين كانوا في الخلف •

صرخ « روستوبتشين » :

ـ اضربوه !••• الموت للخائن وليتخلص الاسم الروسي من العار الذي لحقه ! اضربوه بسيوفكم ! اني آمر بذلك !

تأوه الجمهور وتقدم ، وهو يسمع نبرة الغضب التي رافقت كلمات « روستوبتشين » دون الكلمات ذاتها ، لكنه عاد فتوقف •



@ketab_n @4_readers

نطق « فيريستشاغين » ، في الصمت الذي خيم لحظة ، بصوت وجل ومسرحي :

ـ كونت ! الله وحده يحكم بيننا •••

ورفع رأسه وانتفخ ، مرة أخرى ، العرق الضخم على عنقه الدقيق ، واحمر وجهه ثم شحب • ولم يتم ما كان ينوي أن يقوله •

صرخ « روستوبتشين » وقد غدا وجهه فجأة شاحبا كوجه « فيريستشاغين » :

ـ اضربوه بسيوفكم ! اني آمر بذلك !

استل الضابط سيفه وأمر جنوده :

ـ استلوا سيوفكم !

أثارت الجمهور موجة أقوى امتدت الى الصفوف الاولى ، وحملت أوائلها ، وهي تترنح ، حتى درجات المدخل • وألقى الفتى الطويل نفسه الى جنب « فيريستشاغين » ، وقد تحجر وجهه ورفع يده •

قال الضابط لجنوده همسا :

ـ اضربوه بسيوفكم !

عمد واحد منهم شوه وجهه الغضب الى ضربه بصفحة السيف على رأسه •

هتف « فيريستشاجين » بكلمة واحدة وبصوت ذاهل : « آه » ، وهو يلقي نظرة مذعورة كأنه لم يفهم لم يفعلون ذلك به • وسرت في الجمهور أنة الذهول والخوف نفسها •



@ketab_n @4_readers

وتأوه أحدهم بحزن : « أوه ! يا ربي ! »

ولكن بعد آهة الذهول تلك ، أطلق « فيريستشاجين » أنة الالم ، فكانت هذه الصرخة مدعاة الى هلاكه . ذلك أن عاطفة الشفقة التي توترت الى أقصى حد والتي كانت ترد الجمهور عنه ، انهارت فجأة كما ينهار السد . لقد بدأت الجريمة ولا بد من المضي فيها الى نهايتها . وغرقت أنة اللوم في هدير الجمهور المتوعد المليء بالغضب . وكما تبتلع الموجة السابعة والاخيرة باخرة ، فكذلك انطلقت هذه الموجة الاخيرة العاتية من الصفوف الاخيرة وجرت الى الصفوف الامامية وغمرتها وابتلعت كل شيء . أراد الجندي الذي ضربه الضربة الاولى أن يعيد ضربه أيضا . لكن « فيريستشاجين » أطلق صرخة رعب وألقى بنفسه على الجمهور ويداه على وجهه . فأنشب الفتى الطويل الذي اصطدم به يديه في عنقه الدقيق وتدحرج معه ، وهو يصرخ صراخا وحشيا ، حتى اقدام الجمهور الذي كان يحاصرهما وهو يزعق .

كان بعضهم يضرب « فيريستشاجين » ويهشمه، بينما راح الآخرون يضربون الفتى الطويل . وكان صراخ الذين خنقهم الزحام والذين يحاولون انقاذ الفتى الطويل لا يني يفاقم من الهياج العام . ولم يخلص الجنود العامل المدمى الذي كاد يموت من الضرب الا بشق النفس . وبالرغم من السرعة المحمومة التي لجأ اليها الجمهور لانهاء العمل الذي شرع به ، فان الذين كانوا يضربون « فيريستشاجين » ويخنقونه ويهشمونه ظلوا زمنا طويلا دون أن يفلحوا في قتله ؛ كان الناس يحثونهم من كل صوب ، لكنهم كانوا كالكتلة المتراصة ، يترنحون ويتهادون ، فلا يستطيعون القضاء عليه ولا يستطيعون ارخاءه .



@ketab_n @4_readers

« حسبه ضربة بلطة ! ... ليسحق ... الخائن ، يهوذا !... انه ما يزال حيا ... من الصعب أن يموت ... لقد استحق الوغد هذا العقاب ... أما يزال حيا ؟ »

لم يتنح الجمهور عن الجثة المدماة الراقدة على الارض الا بعد أن كفت الضحية عن التخبط وحلت الحشرجة الطويلة المنتظمة محل صرخاته . كان كل واحد يقترب ويلقي نظرة عجلى على ما قد تم ، ثم ينسحب وقد تملكه الهول والاستنكار والدهشة .

كان الناس في الجمهور يرددون :«أوه ! يا الهي ، الناس كالحيوانات المفترسة ، فكيف يمكن أن يظل حيا ! كان فتى يافعا ... لا شك أن أسرته من التجار ، هذه هي حال الناس !... يقال ان الجاني غير هذا ... كيف لا يكون هذا ... أوه ! يا الهي !... والآخر الذي ضُرب ، يبدو أنه نصف ميت ... ايه ! الناس ... من لا يخاف الخطيئة ... »

هذا ما كان يقوله الناس أنفسهم وهم يتأملون بشفقة متوجعة نطقت بها وجوههم الجثة بوجهها المزرق الملطخ بالدم والغبار ، والعنق الطويل ، الدقيق ، المهشم .

رأى شرطي شديد الغيرة أن وجود جثة في فناء صاحب السعادة أمر غير مقبول فأمر الجنود بجرها الى الشارع . أمسك جنديان بساقيه المحطمتين وجرا الجسد الى الخارج . كان الرأس الميت الحليق ، الملطخ بالدم والغبار ، العالق بعنقه الطويل ، يثب ويخبط الارض. وكان الجمهور يعرض عن الجثة .



@ketab_n @4_readers

في اللحظة التي سقط فيها « فيريستشاجين » ، حين كان الجمهور يزدحم وهـو يزمجر زمجـرة وحشية ، ويضطرب فوقـه ، شحب « روستوبتشين » فجأة ، وبدلا من أن يذهب الى الدرج الخلفي حيث كانت تنتظره عربته ، سار حثيث الخطوات ، مطرق الرأس ،دونأن يعلم الى أين يذهب ولماذا يذهب ، في الممر الذي يفضي الى غرف الدور الارضي • كان وجه الكونت شاحبا ولم يستطع أن يدفع الارتجاف عن فكه الاسفل •

قال صوت مرتجف خائف خلفه :

ـ من هنا ، يا صاحب السعادة ••• أين تذهب ؟••• من هنا ، اذا سمحت •

كان الكونت « روستوبتشين » عاجزا عن الجواب ، فعاد أدراجه منصاعا ، وسار في الوجهة التي عينها له صاحب الصوت • كانت عربته تقف أمام درج الخدم ، وكان هدير الجمهور البعيد ما يزال يسمع أيضا • صعد « روستوبتشين » على عجـل الى عربته وأمر حوذيه بالذهاب الى بيته الريفي في « سوكولنيكي » • حتى اذا بلغ شارع « ميازنيتسكايا » وغابت عنه صرخات الجمهور ، عضه الندم • لقد تذكر باستياء الاضطراب والخوف اللذين بدرا منه أمام مرؤوسيه •

فقـال في نفسه بالفرنسية : **« الرعـاع رهيبون ، بشعون ، انهم كالذئاب التي لا يمكن تهدئتها الا باللحم »** • وعادت الى ذاكرته فجأة كلمات « فيريستشاجين » فسرى في ظهره احساس مؤذ من البرد • لكن هذا الاحساس كان خاطفا فابتسم ابتسامة مزدرية لذاته • وفكر في نفسـه : **« كانت لدي واجبات اخرى ، وكان لابد من تهدئة الشعب •**



@ketab_n @4_readers

**ان كثيرا مـــن الضحايا هلكت في سبيل المصلحة العامـــة »** ، وفكر في الواجبات الملقاة على عاتقه ازاء أسرته وعاصمته ( الموكلة اليه ) وازاء نفسه ، لا من حيث هو « فيدور فاسيليفتش روستوبتشين » ، ( كان يعتقد أن فيدور فاسيليفتش كان يضحي بنفسه في سبيل المصلحـــة العامة ) ، بل من حيث هو حاكم عام ، ممثل للسلطة ومندوب للقيصر . **« لو لم أكن الا « فيدور فاسيليفتش » لتغير خط سلوكي ، لكن عليّ أن أنقذ حياة الحاكم وكرامته »** .

كان « روستوبتشين » يتهادى مسترخيا على نوابض العربة المرنة وقد انقطعت ضوضاء الجمهور المرعبة عن سمعه ، فهدأ جسديا ، وفي الوقت نفسه الذي وجد فيه أسباب الهدوء الجسدي ، قدم له فكره أسباب الهدوء النفسي ، كما هي الحال دائما . والفكرة التي أدخلت الطمأنينة الى نفسه لم تكن جديدة . فمنذ أن كان الكون ، ومنذ أن اقتتل الناس لم يرتكب انسان جرما بحق أخيه الانسان الا وجد الهدوء في تلك الفكرة . والفكرة هي **فكرة المصلحة العامة** ، سعادة الآخرين .

ان هذه المصلحة تظل مجهولة أبدا عند الانسان الذي لا يضله هواه ، أما الانسان الذي يرتكب جريمة فهو يعلم حق العلم دائما كنه هذه المصلحة وقوامها . وكان « روستوبتشين » يعلم ذلك الآن .

حين كان « روستوبتشين » يفكر في ذلك ، لم يمتنع عن لومه نفسه فحسب ، بل انه كان يجد دواعي الرضى عن ذاته لانه عرف كيف ينتفع من الوضع في الوقت المناسب :

معاقبة مجرم مع تهدئة الجمهور .



@ketab_n @4_readers

كان « روستوبتشين » يفكر : « لقد حوكم « فيريستشاجين » وحكم عليه بالموت ( مع أن مجلس الشيوخ لم يحكم عليه بغير الاشغال الشاقة ) . كان خائنا ، ولم يكن بوسعي أن أدعه بدون عقاب ، ثم اني ضربت بحجر واحد عصفورين . سلمت ضحية للجمهور من أجل تهدئته وعاقبت مجرما . »

وعندما وصل الى بيته الريفي واستغرقته التدابير التي عليه أن يتخذها ، استعاد هدوءه نهائيا .

بعد نصف ساعة ، كان يجتاز سهل « سوكولنيكي » خببا ، بخيل سراع ، لا يفكر بما جرى ولا يخطر بباله سوى المستقبل . كان يقصد الآن جسر « اياوزا » حيث « كوتوزوف » ، كما قيل له . وكان يعد في خياله انتقادات سامة ومفعمة بالغضب سيوجهها الى « كوتوزوف » لانه خدعه . سيشعر هذا الثعلب العجوز المداهن أن مسؤولية جميع المصائب التي نجمت عن ترك العاصمة ، عن ضياع روسيا ( كما كان يعتقد ) تقع على رأسه العتيق الخرف . كان « روستوبتشين » يتقلب بغضب في عربته وهو ينعم الفكر فيما سيقوله ، ويلقي حواليه نظرات تتلظى سخطا .

كان سهل « سوكولنيكي » مقفرا ، الا في الطرف الآخر حيث شاهد ، قرب مأوى العجزة ومصح المجانين ، جماعات بثياب بيضاء ، وبعض الافراد المشابهين الذين كانوا يمشون منفردين خلال الحقول وهم يصرخون ويلوحون بأيديهم .

ركض أحدهم وسد الطريق في وجه عربة الكونت «روستوبتشين» . فنظر الكونت نفسه وحوذيه وجنود الحراسة الى هؤلاء المجانين الذين



@ketab_n @4_readers

أخلي سبيلهم ، ولا سيما الى ذلك المجنـون الذي ركض نحوهم ، بشعور يختلط فيه الرعب والفضول • كان هذا المجنون يركض بكل قوته مترنحا على ساقيه الطويلتين الهزيلتين ، في مبذله الفضفاض ، دون أن يرفع بصره عن « روستوبتشين » ، وهو يصرخ بصوته الاجش مشيرا اليه بالوقوف • كان وجهه المكفهر المهيب الذي تناثرت فيه خصل من شعر اللحية نحيلا أصفر • وكانت عيناه السوداوان كالسبج تتنقلان على الارض ، قلقتين ، وبياضهما كلون الزعفران •

كان يصرخ بصوت ثاقب ، ثم أخذ يزعق ، وهو يلهث ، بنبرات وحركات آمرة :

ــ قف ! قف ! قلت لك : قف !

ووصل الى حذاء العربة وأخذ يركض بجنبها ويصيح بصوت يعلو شيئا فشيئا :

ــ ثلاث مرات قتلوني ، وثلاث مرات قمت من بين الاموات • لقد رجموني وصلبوني ••• وسأبعث حيا ••• سأبعث حيا ، سأبعث حيا • لقد مزقوا جسدي • ستنهار مملكة الرب ••• سأهدمها ثلاث مرات وسأقيمها ثلاث مرات • امتقع وجه الكونت « روستوبتشين » فجأة كما امتقع عندما انهال الجمهور على « فيريستشاجين » • وأشاح بوجهه وأمر حوذيه صارخا بصوت مرتجف :

ــ أسرع ••• أسرع !

جرت العربة بأقصى سرعتها ، لكن الكونت « روستوبتشين » ظل زمنا طويلا يسمع وراءه الزعاق الذي ينأى ويرى أمام عينيه الوجـه



@ketab_n @4_readers

المدمى ، الذاهل ، الخائف ، وجه الخائن المرتدي فروة الثعلب •

كان « روستوبتشين » يحس الآن أن هذه الذكرى ، وان كانت غضة ، غدت منقوشة في أعماق قلبه ، حتى الدم • كان يحس أن الاثر الدامي لهذه الذكرى لن يمحي أبدا ، بل لقد كان يحس أن هذه الذكرى ستغدو أشد حيوية وفظاظة كلما تقدمت به السن ، الى آخر أيامه • كان يخيل اليه أنه يسمع صوت ألفاظه ذاتها : « اضربوه بالسيف ، أنتم مسؤولون عنه برؤوسكم ! » ــ « لم قلت هذه الكلمات ! قلتها بالرغم مني ••• كان بوسعي ألا أقولها ( كذلك كان يفكر ) : اذن لما وقع شيء » • رأى وجه الجندي الذي ضربه الضربة الاولى مروعا ثم رآه يتلظى غضبا ، ورأى نظرة اللوم الصامتة ، الوجلة التي رماه بها الفتى ذو فروة الثعلب • وفكر في نفسه : « لكنني لم أقدم على ذلك من أجل نفسي • كان لا بد من أن أتصرف على هذا النحو• الدهماء ، الخائن••• المصلحة العامة •

كانت القطعات تزدحم عند جسر « اياوزا » • وكان الحر شديدا • كان كوتوزوف ، متجهما ، مغتما ، جالسا على مقعد قرب الجسر يخط على الرمال بطرف سوطه عندما وصلت عربة في قرقعة صاخبة • دنا منه رجل في بزة الجنرال ، يضع على رأسه قبعة ذات ريش ، زائغ النظرة عن خوف أو عن غضب ، وحدثه بالفرنسية • كان هذا هو الكونت « روستوبتشين » • قال لكوتوزوف : انه يجيء الى هنا لانه لم يبق ما يسمى عاصمة أو موسكو وأنه لم يبق سوى الجيش • وقال :

ــ لو لم تقل لي سموك أن موسكو لن تخلى بدون قتال لاختلف الامر ولما وقع شيء من ذلك كله •



@ketab_n @4_readers

نظر اليه « كوتوزوف » وكأنه لم يفهم معنى كلماته فحاول جاهدا أن يقرأ على وجه الرجل شيئا خاصا مكتوبا عليه في هذه اللحظة. فاضطرب « روستوبتشين » وصمت . وهز كوتوزوف رأسه هزا خفيفا ، وقال بهدوء دون أن يحول عنه نظرته السابرة :

ـ لا ، لن أسلم موسكو بدون قتال .

أكان « كوتوزوف » يفكر في شيء آخر وهو يقول هذه الكلمات ، أم إنه كان يقول ذلك عمدا وهو يعلم أنها عارية من المعنى ؟ لم يجب الكونت « روستوبتشين » بشيء وابتعد مسرعا . ثم جرى أمر غريب ، ذلك أن الحاكم العام لموسكو ، الكونت المتكبر « روستوبتشين » اقترب من الجسر وهو يحمل بيده سوطا ، وراح يفرق العربات التي تكدست عليه وهو يصرخ صراخا عاليا .

* * *



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل السادس والعشرون

في الساعة الرابعة بعد الظهر ، دخلت قطعات « مورا » موسكو ، وعلى رأسها مفرزة من الفرسان الورتمبرجيين ، وخلف هذه المفرزة جاء ملك نابولي بشخصه يمتطي جوادا وتحيط به حاشية كبيرة .

توقف « مورا » عند وسط الاربات لينتظر تقرير المقدمة عن حالة حصن المدينة ، « الكريملين » .

تجمع حول « مورا » نفر من الاهلين الباقين في موسكو . كانوا جميعا يتأملون بحيرة وجلة هذا القائد الغريب ذا الشعر الطويل ، المزدان بالريش والذهب . وكانوا يقولون بصوت خافت :

ـ أهذا قيصرهم ؟ لابأس به .

اقترب من الجماعة مترجم فقال كل واحد لجاره :

ـ ارفع قبعتك ... قبعتك .

خاطب المترجم بوابا عجوزا وسأله ان كان الكريملين بعيدا : فأصغى البواب وهو حائر ، الى لهجته البولونية ، ولما لم يجد لغته روسية خالصة أصغى دون أن يفهم ما يقال وتوارى خلف الآخرين .

اقترب « مورا » من المترجم وأمره أن يسأل : أين الجيش الروسي. وفهم أحد الروس السؤال فأجابت المترجم عدة أصوات فجأة ثم أقبل



@ketab_n @4_readers

على « مورا » ضابط من المقدمة ليعلن له أن أبواب الحصن مسدودة وأن هناك كمينا ، من غير شك •

قال « مورا » وهو يخاطب أحد ضباط حاشيته :

ـ حسنا •

وأمر أن تتقدم أربعة مدافع خفيفة لضرب الابواب •

انفصلت المدافع عن الرتل الذي كان يتبع « مورا » ومضت خببا بحذاء « الآربات » • وعندما وصلت الى أسفل « فوزدفيجنكا » توقفت واصطفت ووضعها بعض الضباط الفرنسيين في مواضع ملائمة وفحصوا الكريملين بالمنظار المقرب •

كانت الاجراس في « الكريملين » تقرع لصلاة الغروب ، وكان صوتها مدعاة لاضطراب الفرنسيين اذ ظنوه دعوة الى حمل السلاح • ركض بعض جنود المشاة نحو باب« كوتافيا »• كانت الالواح والجسور الخشبية تحصّن الباب كالمتراس • انطلقت طلقتا بندقية عندما هجم الضابط وجنوده • صرخ الجنرال الذي كان يقف قرب المدافع آمرا الضابط الذي عاد الى الوراء وهو يركض مع جنوده•

وانطلقت من الباب ثلاث طلقات أخرى •

أصابت احداها جنديا فرنسيا في ساقه وارتفعت من خلف المتراس صرخات غريبة • فارتسمت على وجه الجنرال ووجوه الضباط والجنود، في الوقت نفسه ، وكأنهم ينفذون ايعازا ، أمارات العناء والانقباض التي تلوح على وجوه الذين يستعدون للقتال والالم بدلا من أمارات البهجة

---

(١) باب كوتافيا : حصن امامي امام باب الثالوث وهو مدخل الى الكريملين من الجهة الغربية .



@ketab_n @4_readers

والطمأنينة . لم يكن هذا المكان ، بالنسبة اليهم ، من المارشال الى آخر جندي ، « فوزفيجنكا » ولا « موكوفايا » ولا أبواب « كوتافيا » أو « ترينيته » ، وانما كان ميدانا لمعركة جديدة ، معركةدامية بلا شك ، تهيأ لها الجميع . صمتت الصيحات خلف الباب ، وقدمت المدافع ونفخ المدفعيون على الفتيل وأمر الضابط : نار ! فانطلقت قذيفتان من قذائف الشظايا الواحدة تلو الأخرى وهما تصفران . وتفرقت شظايا الحديد على أحجار الباب والجسور والالواح ، وارتفعت فوق المكان سحابتان من الدخان .

بعد لحظات من خمود دويّ القذيفتين على طول سور الكريملين ، علت ضجة غريبة فوق رأس الفرنسيين . ذلك أن سربا هائلا من غربان الزرع طارت من الجدران وهي تنعب وتصفق بآلاف الاجنحة ، وتحوم في الفضاء . وفي الوقت نفسه ، دوّتْ صرخة بشرية منعزلة عند الباب، وبدا ، من خلال الدخان ، شبح انسان عاري الرأس ، يرتدي قفطانا ، وبيده بندقية كان يسددها على الفرنسيين . ردد ضابط المدفعية : نار ! فانطلقت طلقة بندقية وقذيفتا مدفع معا . وغطى الدخان الباب ثانية .

لم تبق خلف المتراس حركة ، واقترب المشاة الفرنسيون منــه مع ضباطهم . كان ، عند الباب ، ثلاثة جرحى وأربعة قتلى . وفر رجلان يلبسان قفطانين نحو « زنامنكا » ، بحذاء الجدران .

قال الضابط وهو يشير الى الجسور والجثث .

ــ ارفعوا هذا من وجهي .

بعد أن أجهز الفرنسيون على الجرحى رموا الجثثمن فوق السور.

من كان هؤلاء ؟ لم يكن يعلم ذلك أحد . «ارفعوا هذا من وجهي» هذا كل ما قيل بشأنهم ، ورموا ثم نقلوا تفاديا للنتانة . « تيير » وحده



@ketab_n @4_readers

خصهم بهذه الاسطر البليغة : **« اغار هؤلاء الاشقياء على القلعة المقدسة، واستولوا على البنادق من مخزن السلاح واخذوا يطلقون النار على الفرنسيين . فضرب بعضهم بالسيف وطهر الكريملين منهم »** .

أخبر «مورا » أن الطريق غدت حرة . فعبر الفرنسيون الباب وعسكروا في ساحة مجلس الشيوخ . ألقى الجنود بالكراسي من نوافذ مجلس الشيوخ وأوقدوا بها نارا .

عبرت الكريملين مفارز أخرى واتخذت مواقع لها في « ماروسيكا » و « لوبيانكا » و « بوكروفكا » ، وعسكر آخرون في « فوزفيجنكا » و « زنامنكا » و « نيكولسكايا » و « تفيرسكانا ».لم يكن الفرنسيون يقيمون ، حيث لا يجدون الاهلين ، في أحياء سكنية ، بل في معسكرات واقعة في قلب المدينة .

دخل الفرنسيون موسكو بنظام مع أنهم كانوا في ثياب رثة ، وقد عضهم الجوع وأعياهم التعب وفقدوا تلثي عددهم . كان جيشا بلغ به الجهد غايته لكنه كان جيشا مقاتلا ، مرهوب الجانب . على أن هذا الجيش ظل جيشا حتى اللحظة التي تفرق فيها الجنود في المنازل . فما ان بدأ هؤلاء الرجال ينتشرون في تلك المنازل الغنية الخالية حتى اختفى الجيش الى الابد ، وغدا أفراده لا هم بالمدنيين ولا هم بالجنود وانما غدوا شيئا وسطا يدعى عادة: النهّابين.وعندما غادر هؤلاء الرجال أنفسهم موسكو ، بعد خمسة أسابيع ، لم يكونوا جيشا . وانما كانوا عصابة من النهابين يحمل كل واحد منهم ، على ظهره أو على عربته ، طائفة من الاشياء لتي يظنها ثمينة أو مفيدة . كان هدف كل واحد من هؤلاء الرجال المحافظة على غنيمته وحدها ، لا القتال والفتوحات ، كما



@ketab_n @4_readers

كان من قبل . فكما أن القرد الذي يدس يده في عنق الجرة لتناول كمية من الجوز يأبى أن يفتح قبضته حتى لايسقط الجوز منها ، فيورده طمعه موارد الهلاك ، كذلك كان الفرنسيون ، عند خروجهم من موسكو ، يردون مورد الهلاك لانهم كانوا يجرون معهم أسلابهم ولا يستطيعون التخلي عنها كما لايستطيع القرد التخلي عن قبضة الجوز . بعد عشر دقائق من دخول كل من هذه المفارز لحي من أحياء موسكو لم يكن يبقى شيء اسمه جنود وضباط . ففي نوافذ المنازل ، كان الرجال يُرون بمعاطفهم ولفافاتهم وهم يتجولون في الغرف ضاحكين ؛ بينما راح آخرون يستولون على المؤن في الاقبية ؛ وراح غيرهم يفتحون ويحطمون أبواب العنابر والاسطبلات في الافنية ؛ أما في المطابخ فقد اشعلوا النار وشمروا عن سواعدهم وجعلوا يعجنون ويطهون ويطبخون، وهم يضحكون ويداعبون الاطفال والنساء ويملؤون قلوبهم ، في الوقت نفسه ، خوفا . كان هؤلاء الناس كثيرين في كل مكان ؛ على أنه لم يبق هنالك جيش .

في ذلك اليوم أصدرت القيادة الاوامر الواحد تلو الآخر لتمنع القطعات صراحة من الانتشار في المدينة ، ومن النهب ، ومن استخدام العنف مع الاهلين ، وحددت المساء نفسه موعدا للتفقد العام ؛ لكن بالرغم من جميع التدابير المتخذة جعل الرجال الذي كانوا بالامس يكونون الجيش ، ينتشرون في هذه المدينة الغنية ، المقفرة التي حفلت بوسائل الراحة وبالمؤن والثروات .

كان الجيش يرتع في هذه المدينة الغنية كما يرتع القطيع الجائع عندما يقع على المرعى الخصب بعد أن ظل زمنا في الحقول الجرداء .



@ketab_n @4_readers

كان سكان موسكو غائبين عنها وكان الجنود ، كالماء على الرمال ، يتسربون اليها وينتشرون فيها من كل صوب حول الكرملين الذي دخلوه اولا انتشارا لاسبيل الى دفعه • وكان الخيالة اذا دخلوا بيتا ثريا مهجورا بكل خيراته ووجدوا فيه اسطبلات تتسع لاكثر من خيولهم ، لايتوانون عن احتلال منزل مجاور بدالهم اجمل • وكان الكثيرون يشغلون عدة بيوت ويعلمونها بكتابة اسمائهم عليها بالحكك ويجادلون أفرادا من الوحدات الاخرى بسببها ، وقد يصل الجدال بينهم الى التشاجر بالايدي • ولا يكاد يستقر المقام بالجنود حتى يهرعوا الى الخارج ليزوروا المدينة فاذا علموا أن كل شيء مهجور اندفعوا الى الاماكن التي يمكنهم نهب الاشياء الثمينة منها • وكان القادة يحاولون ايقاف الرجال لكنهم كانوا ينجرفون بالرغم منهم • ففي معرض العربات[1] كانت الحوانيت ملأى بالعربات وقد ازدحم الجنرالات حولها ينتقون منها العربات الكبيرة والصغيرة • وكان السكان الذين بقوا يدعون الضباط الى بيوتهم آملين ان يحتموا بهم من النهب • وكانت الثروات وفيرة لانهاية لها • فمن حول الاحياء التي كان يحتلها الفرنسيون أمكنة أخرى لم تكتشف ، ولم تحتل ، كانت الثروات فيها اوفر ، بحسب اعتقادهم • ولذلك كانت موسكو تمتصهم شيئا فشيئا الى أعماقها • وكما أن الماء ، اذا صب على الارض اليابسة ، اختفى وأخفى معه الارض اليابسة ، كذلك ما ان دخل الجيش الجائع هذه المدينة الثرية ، الفارغة ، حتى اختفى هو وثراء المدينة ، ولم يبق فيها سوى الوحل والحرائق والنهب •

كان الفرنسيون يعزون حريق موسكو الى وطنية روستوبتشين المستعرة ويعزوه الروس الى همجية الفرنسيين • ولكن لا شيء في الواقع يسمح أو كان يمكن أن يسمح بأن تعزى مسؤولية الحريق الى شخص

---

(١) معرض العربات : شارع قديم كانت تباع فيه العربات .



@ketab_n @4_readers

أو عدد من الاشخاص • لقد احترقت موسكو لانها وضعت في شروط لا يمكن الا أن تحترق معها أية مدينة مبنية من الخشب ، بغض النظر عن وجود مائة وثلاثين مضخة للحريق غير صالحة ، أو غيابها • كان لابد لموسكو ، اذ هجرها أهلها ، من أن تحترق كما لابد من أن تشتعل كومة من نشارةالخشب يسقط عليها الشرار خلال عدة أيام • ان مدينة خشبية تشهد في كل يوم من أيام الصيف حريقا ، بالرغم من وجود الاهلين والشرطة ، لايمكن أن تنجو من الحريق عندماتكون خالية من أهليها ، وعندما يحتلها جند يدخنون الغليون ويطعمون النار التي يشعلونها في ساحة مجلس الشيوخ كراسي ذلك المجلس ، ويطهون مرتين في اليوم • يكفي ، في زمن السلم ، أن تتخذ القطعات مواقعها في قرى تلك المنطقة ليزداد في الحال عدد الحرائق فيها • فالى اي حد ستزداد اذن فرص الحريق في مدينة مبنية من الخشب ، مهجورة ، يعسكر فيها جيش أجنبي ؟

ان وطنية « روستوبشين » الشرسة وهمجية الفرنسيين لا دخل لهما في ذلك • لقد احترقت موسكو بسبب الغلايين والمطابخ ونيران المعسكرات واهمال الجنود الاعداء ، سكان البيوت دون أن يكونوا مالكين لها • وحتى لو كان هناك مشعلون للحريق ( وهو أمر مشكوك فيه اذ ليس لاحد من داع يدعوه الى اشعال النار ، ثم ان الحريق على كل حال أمر عسير يحمل أخطارا ) ، فلا يمكننا ان نلقي عليهم التبعة ، لان الحريق كان سيقع بدونهم •

ومهما رضي الفرنسيون عن اتهامهم لشراسة « روستوبتشين » ، والروس عن اتهامهم لهذا الاثيم بونابرت ، أو عن وضعهم مشعلا بطوليا



@ketab_n        @4_readers

بين يدي الشعب ، فيما بعد ، فمن المستحيل ألا نرى أن مثل هذه الاسباب المباشرة للحريق ما كان يمكن ان توجد ، ذلك أنه كان لابد لموسكو من أن تحترق كما أنه لابد من ان تحترق كل قرية هجرها أصحابها وكل مصنع أو بيت هجرهما أصحابهما . انما أحرق موسكو أهلوها ، هذا صحيح ، أهلوها الذين ارتحلوا لا الذين بقوا . ان موسكو التي احتلها العدو لم تبق سليمة مثل برلين أو فيينا أو مثل مدن اخرى ، وما ذلك الا لان سكانها لم يأتوا ليقدموا مفاتيحها للفرنسيين مع الخبز والملح ، وانما ارتحلوا عنها .



@ketab_n @4_readers

# الفصل السابع والعشرون

ان تسرّب الفرنسيين الذين انتشروا على شكل نجمة خلال موسكو أثناء الثاني من أيلول لم يبلغ الحي الذي غدا يسكنه بطرس الا في المســاء •

ألقى بطرس نفسه ، بعد يومين من العزلة التي اكتنفتها ظروف شاذة ، في حالة قريبة من الجنون • واستبدت بكيانه كله فكرة مستحوذة لم يكن يعلم متى جاءته وكيف جاءته ، لكنها استولت عليه استيلاء حال بينه وبين تذكر الماضي وفهم الحاضر ، وكان كل ما يراه ويسمعه يجري وكأنــه في حلــم •

لم ينصرف من بيته الا ليفلت من تعقيدات الحياة ومن متطلباتها التي ألفى نفسه عالقا بها ، والتي كان عاجزا عن حلها ، في حالته آنذاك • وقصد الى منزل « جوزيف اليكسيفتش » بحجــة انتقاء كتب الفقيد وأوراقه وتصنيفها ، والحقيقة أنه كان يسعى الى الراحة من اضطراب الحياة وأن ذكرى « جوزيف اليكسيفتش » كانت مرتبطة ، في نفسه ، بعالم من الافكار الخالدة ، الوادعة ، الجليلة ، التي تناقض كل المناقضة تلك البلبلة المثيرة للقلق التي أحس أنه سيق اليها سوقا • كان يلتمس ملجأ هادئا فوجده حقا في مكتب « جوزيف اليكسيفتش » • وعندما جلس ، في صمت الموت المخيم على المكتب ، متكئا بمرفقه على المكتب



@ketab_n @4_readers

المغشى بالغبار ، طافت بخياله ذكريات الايام الاخيرة الواحــدة تلو الاخرى ، هادئة ومثقلة بالمعاني ، ولاسيما ذكريات معركة « بورودينو » وشعوره العاتي بالعدم وبالزيف ، عدمه وزيفه هو ، بالقياس الى حقيقة اولئك الرجال الذين ثبتوا في ذهنه باسم « هم » ، والى بساطتهـم وقوتهم • وعندما جاء « جيراسيم » ينتشله من افكاره ، خطر ببالــه أن يشارك في الدفاع الشعبي عن موسكو الذي كان الاهلون يعتزمونه ( في اعتقاده ) ، ولهذه الغاية طلب على الفور من « جيراسيم » أن يؤمن له الثياب والمسدس وأطلعه على نيته في اخفاء اسمه وفي البقاء فيمنزل « جوزيف الكسيفتش » • ثم فكر مرة أخرى أثناء يومه الاول من العزلة والعطالة ( حاول مرارا وبدون جدوى أن يركز انتباهه على المخطوطات الماسونية ) تفكيرا مشوشا في الدلالة الخفية لاسمه في ارتباطه باســم «بونابرت» ؛ لكن هذه الفكرة التي مفادها أنه هو الروسي «بيزوهوف» قد قدر له أن يضع حدا لسلطان « الوحش » ، لم تكن تخطر له الا على شكل حلم من أحلام اليقظة التي تمر بالخيال دون داع ودون أن تترك فيــه أثرا •

وعندما صادف آل « روستوف » بعد أن اشترى الثوب ( اشتراه بقصد الاسهام في الدفاع الشعبي عن موسكو ) ، وعندما قالــت له ناتاشا : « أتبقى ؟ آه ! ما أحسن هذا ! » دار في خلده بمثل لمح البرق أنه قد يكون من الحسن حقا ، حتى لو كانت موسكو محتلة ، أن يبقى فيها وان يتم ماقدّر عليه أن يتمه •

في اليوم التالي ذهب الى حاجز « التلال الثلاثة » وليس له الامقصد واحد وهو ألا يكترث بسلامته وألا يسقط في عيونهم « هم » • لكنه



@ketab_n @4_readers

أحس فجأة ، عندما عاد الى البيت واثقا من أن موسكو لن يدافع عنها ، بأن ما بدا لهحتى الآن احتمالا ممكنا غدا ضرورة لا مناص منها . ان عليه أن يخفي اسمه وأن يمكث في موسكو وأن يلتقي نابليون وأن يقتله ، فاما أن يهلك هو نفسه واما أ نيضع حدا لمصيبة اوروبا بأسرها وهي مصيبة مردّها ، في رأيه ، الى نابليون وحده .

كان بطرس يعرف جميع تفاصيل محاولة الاعتداء على حياة نابليون التي اقترفها طالب ألماني[1] في ( فيينا ) سنة ١٨٠٩ ، وكان يعلم أن هذا الطالب أعدم رميا بالرصاص . وكان هذا الخطر الذي يُعرّض نفسه له لكي يؤدي مهمته يزيد من حماسته .

كان هناك عاطفتن متعادلتا القوة تشدان بطرس الى مشروعه شدا لا سبيل الى مقاومته . كانت الاولى الحاجة الى التضحية والآلام ، الحاجة التي أوحت بها الكارثة العامة ؛ هذه العاطفة هي التي ساقته ، في الخامس والعشرين ، الى « موجايسك » ، ورمت به في غمار المعركة ودفعته الى هجران بيته الآن ، عازفا عن الترف وخفض العيش اللذين تعودّهما ، لينام بثيابه على مقعد جاف وليقاسم « جيراسيم طعامه ؛ وكانت العاطفة الاخرى احساسا غامضا ، روسيا على وجه الخصوص ، احساسا بالاحتقار لكل ماهو متواضع عليه،مصطنع،يومي، لكل ما يعتبره معظم الناس الخير الاعظم في هذا العالم . لقد عرف بطرس لاول مرةهذا الاحساس الغريب المثيرفي قصر «سلوبودوسكوي» عندما أحس فجأة أن الثروة والجاه والحياة ، أن كل ما يسهر البشر

(١) اطلق الطالب فريديريك ستاب في فيينا النار على نابليون في ١٢ تشرين ، في عرض الشارع ، لكنه اخطاه . واعدم الطالب بعد خمسة ايام .



@ketab_n @4_readers

على تنظيمه والمحافظة عليه ، أن ذلك كله لاقيمة له الا بالمتعة التي نستشعرها عندما نستطيع أن نتخلى عنه كله .

كان احساسه نفس احساس المتطوع الذي يبذل آخر فلوسه على الشراب ، نفس احساس الثمل الذي يحطم الزجاج من غير علّة ظاهرة مع علمه بأن ذلك سيكلفه كل ما يملك من مال ، وهو ذلك الاحساس الذي يدفع الانسان الى ارتكاب اعمال مجنونة ( في نظر العامي ) ، وكأنه يريد أن يختبر قدرته وقوته في اثبات وجود محكمة عليا ، مستقلة عن المواضعات البشرية ، تحكم على الحياة .

منذ اليوم الذي أحس فيه بطرس للمرة الاولى في قصر « سلوبودوسكوي » بهذا الاحساس فانه لم يفتأ يخضع لتأثيره ، لكن لم يتسن له اشباعه كاملا الا في هذه الفترة فقط . وفوق ذلك ، فان ما فعله في هذا السبيل من قبل دعّم عزمه وجعل تراجعه مستحيلا . ولو أنه ترك موسكو كما تركها الاخرون لما فقد فراره ، وشراؤه الثياب والمسدس ، واعلامه آل « روستوف » أنه باق في موسكو ، كل معنى فحسب بل لكان ذلك كله جديرا بالاحتقار والسخرية ( وهو أمر كان بطرس شديد التأثر به ) .

كانت حالة بطرس الجسدية تتفق ، كما يجري دائما ، وحالته النفسية . فالغذاء الثقيل الذي لم يألفه ، والفودكا التي كان يشربها في هذه الايام ، والحرمان من الخمر والسيجار ، وتعذر تغيير ثيابه الداخلية ، والليلتان اللتان قضاهما على مقعد مفرط القصر دون فراش ، كل ذلك أبقاه في حالة عصبية قريبة من الجنون .



@ketab_n @4_readers

في الساعة الثانية بعد الظهر ، كان الفرنسيون قد دخلوا موسكو . وكان بطرس يعلم ذلك ، لكنه بدلا من أن يعمل كان يفكر في مشروعه فقط ، مستعرضا في ذهنه أدنى التفاصيل . ولم يكن يتصور ، في أحلام يقظته هذه ، تصورا واضحا كيف سيطلق النار ولم يكن يتصور موت نابليون ، لكنه كان يتمثل بحدة فائقة واستمتاع حزين موته هو وشجاعته البطولية .

وفكّر : « نعم ، أنا وحدي يجب أن أتم ذلك ، من أجل الجميع ، أو أموت ! نعم ، سأذهب ... ثم فجأة ... المسدس أم الخنجر ؟ لا أهمية لذلك سأقول له ( كان بطرس يفكر بالكلمات التي سيقولها وهو يقتل نابليون ) :

يد العناية الالهية هي التي تعاقبك لايدي ... هيا ، خذوني ، اقتلوني . فكّر في هذا وهو مطرق الرأس . وعلى وجهه أمارات الحزن والعزم .

وبينما كان بطرس واقفا في وسط الغرفة ، يفكر على هذا النحو ، انفتح باب المكتب وظهر على العتبة « ماكار اليكسيفتش » الذي كان خجلا حتى الآن والذي تغير تغيرا كاملا . كا نمبذله فضفاضا ووجهه محمرا ، مشوه القسمات ، وكان بادي السكر . اضطرب لحظة لدى رؤية بطرس ، لكنه سرعان ما تشجع عندما لاحظ أن بطرس كان مضطربا أيضا ، فسار الى وسط الغرفة وهو يترنح على ساقيه المهزولتين . وقال بصوت أجش مليء بالثقة .

ـ لقد خافوا . أقول لك : انني لن استسلم ، أقول ... أليس كذلك ، يا سيدي ؟



@ketab_n @4_readers

وظهرت عليه أمارات التفكّر ، لكنه لمح فجأة المسدس على المكتب فتناوله في حركة عنيفة ، مباغتة وفر به الى الممر •

أوقفه « جيراسيم » والبواب اللذان لحقا به الى الردهة وحاولا انتزاع المسدس منه • نظر بطرس الذي انضم اليهما في الممر نظرة شفقة ممتزجة بالاشمئزاز الى هذا الشيخ نصف المجنون • وكان « ماكار اليكستش » مكشرا تحت وطأة الجهد ، يشد على المسدس ويصرخ بصوت أجش ، وقد خيل اليه أنه يعيش لحظة مؤثرة :

ــ الى السلاح ! الى الصدام ! انت مخطىء ، لن تظفر به !

كان « جيراسيم » يقول له وهو يحاول دفعه برفق الى الباب •

ــ كفى ، أرجوك ، كفى • كن لطيفا ، أرجوك ، وأرخ المسدس • هيا أرجوك ، ياسيدي •••

وكان « ماكار اليكستش » يصرخ :

ــ من أنت ؟ بونابارت ! •••

ــ ليس هذا حسنا ،ياسيدي • تفضل وادخل الى المنزل واسترح ، يا سيدي • هات المسدس من فضلك •

وتابع « ماكار اليكسيفتش » صراخه وهو يشهر المسدس ويدعو الى الصدام :

ــ الى الوراء، أيها العبد الحقير ! لا تلمسني ! أرأيت ؟ الى الصدام!

همس « جيراسيم » للبواب :

ــ اقبض عليه •



@ketab_n @4_readers

أخذ « ماكار اليكسيفتش » من ذراعه وجر الى الباب جرا •

فامتلأت الردهة بضوضاء مقاومة السكيروصرخاته اللاهثة الجشاء •

وفجأة علا صوت جديد ، صوت امرأة ثاقب ، على درج المدخل واندفعت الطاهية الى الممر • وصرخت :

ـ ها هم اولاء ! يا الهي ! ••• اقسم لك أنهم هم بأنفسهم • انهم اربعة ، على خيولهم ! •••

أرخى « جيراسيم » والبواب « ماكار اليكسيفتش » ، وفي الممر الذي خيم عليه الصمت الآن سمعت بوضوح قرعات على باب المدخل قرعتها أيد عديدة •



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل الثامن والعشرون

كان بطرس الذي قرر في نفسه ألا يكشف عن طبقته وعن معرفته اللغة الفرنسية حتى تنفيذ مشروعه ، يقف بجنب باب الممر المشقوق ، مستعدا للتواري فور دخول الفرنسيين . لكن الفرنسيين دخلوا ولم يتحرك بطرس عن الباب : أوقفه في مكانه فضول لا يقهر .

كانا اثنين . أحدهما ضابط طويل جميل ، قوي البنية ، والآخر جندي أو وصيف قصير ، هزيل الجسم ، ملوح الوجه ، غائر الوجنتين ، بليد القسمات . دخل أولا الضابط الذي كان يعرج ويستند الى عصا . ووقف بعد خطوات ، وكأنما أعجب المنزل ذوقه ، والتفت الى الجنود الذين ظلوا عند الباب وأمرهم بصوت قوي ألف القاء الاوامر أن يأتوا بالجياد . ثم ملّس شاربه بحركة تنم على الغطرسة رافعا مرفقه الى فوق وملامسا بيده عمرته . وقال مبتهجا وهو يبتسم وينقل عينيه حوله

**ـ مرحبا ، يا جماعة !**

فلم يجبه أحد .

وسأل الضابط « جيراسيم » :

**أانت البرجوازي ؟**

فنظر اليه « جيراسيم » مرعوبا ، مستفهما .



@ketab_n @4_readers

قال الضابط وهو ينظر الى الرجل القصير من فوق الى تحت بابتسامة رحيمة تفيض طيبا :

ـ **ماوى ، ماوى ، سكن** . الفرنسيون اناس وديعون .

وأضاف وهو يربت كتف « جيراسيم » الخائف الساكت :

ـ **يا للشيطان ! مالك ! لا تغضب ، يا صاحبي .**

ثم استأنف كلامه اذ ألقى نظرة حوله وصادف عيني بطرس .

ـ آه ، أنت ! قل لي ، ألا يتكلم أحد الفرنسية في هذا المكان ؟

فتنحى بطرس عن الباب .

قال « جيراسيم » الذي شوّه ألفاظه ليجعلها مفهومة :

ـ السيد ليس هنا ... لا أفهم .. أنا لك ....

فتح الضابط ذراعيه امام وجه « جيراسيم » وهو يبتسم ليقول له أنه لم يكن يفهمه أيضا ، واتجه وهو يعرج الى الباب الذي كان يقف بجنبه بطرس . وأراد بطرس أن يتنحى ليفلت منه ، ولكن في هذه اللحظة بالذات رأى « ماكار اليكسيفتش » يطل من باب المطبخ المفتوح والمسدس في يده ، وينظر الى الفرنسي بمكر المجنون ويسدد .

صرخ السكير وهو يضغط على الزناد :

ـ الى الصدام !

التفت الفرنسي الى الصرخة وفي الوقت نفسه ارتمى بطرس على السكير . وبينما كان يمسك بالمسدس ويرفعه وقعت اصبع « ماكار اليكسيفتش » على الزناد وانطلقت الطلقة فأصمّت الناس وملأت الغرفة بالدخان . فامتقع الفرنسي واندفع نحو الباب .



@ketab_n @4_readers

نسي بطرس ما عزم عليه من اخفاء معرفته للغة الفرنسية ، فانتزع المسدس من يدي « ماكار اليكسيفتش » ورمى به وركض الى الضابط وسأله بالفرنسية :

**ـ عسى الا تكون جرحت ؟**

أجاب الفرنسي وهو يجس نفسه :

**ـ اظن أن لا .**

وأضاف وهو يشير الى الجص المكشوط عن الجدار :

**ـ لكنني نجوت بأعجوبة هذه المرة .**

وسأل بطرس وهو ينظر اليه بقسوة :

**ـ من هذا الرجل ؟**

قال بطرس بسرعة وقد نسي دوره تماما :

**ـ آه ! انا شديد الاسى حقا لما وقع . هذا مجنون ، شقي لم يكن يعرف ما يفعل .**

اقترب الضابط من « ماكار اليكسيفتش » وأمسك به من ياقته .

كان « ماكار اليكسيفتش » يترنح وقد استند ظهره الى الجدار ، وتدلى فكه كمن ينام .

قال الفرنسي وهو يرخيه :

ـ أيها الوغد ، ستدفع لي ثمن ما فعلت .

وأضاف وعلى وجهه أمارات التجهّم والابهة ، وهو يحرك يده حركة قوية وجميلة :



@ketab_n @4_readers

**ـ نحن ، الفرنسيين ، رحماء بعد النصر ، لكننا لا نغفر للخونة خيانتهم .**

ظل بطرس يناشده بالفرنسية ألا يضمر الضغينة لهـذا الرجـل السكران ، المجنون . وأصغى اليه الفرنسي دون أن يترك تجهمه ، وفجأة ابتسم ونظر اليه بضع لحظات دون أن يقول شيئا . واصطبـغ وجهه بمسحة رقيقة ، مأساوية ، ومد اليه يده قائلا :

**ـ لقد انقذت حياتي ! هل انت فرنسي ؟**

هذا الاستنتاج لا يتطرق اليه الشك ، عند الفرنسي . فالفرنسي وحده هو الذي يستطيع أن يقوم بعمل نبيل ، وانقاذ حياته هو ، السيد **« رامبال » قائد السرية الخفيفة الثالثة عشرة** ، كان ، بلا نزاع ، أنبل الاعمال جميعا .

لكن مهما يكن أكيدا هذا الاستنتاج واليقين الـذي استخلصه الضابط منه ، فقد رأى بطرس نفسه مضطرا الى تخييب أمله . فقال بحـدة :

**ـ انا روسـي .**

قال الفرنسي وهو يبتسم ويحرك اصبعه أمام أنفه :

ـ تا ، تا ، تا ، **قل هذا لغيري** . **ستروي علي القصة كلها بعد حين . يسرني أن القى مواطنا . حسنا ! ماذا نفعل بهذا الرجل ؟**

قال هذا وهو يخاطب بطرس كما يخاطب الاخ . وكانت أسارير الضابط ولهجته تقول : حتى لو لم يكن بطرس فرنسيا ، فانه لايستطيع أن يرفض هذا اللقب الذي مُنِحَه ، وهو أرفع لقب في العالم . وردا على سؤاله الاخـير أوضح بطرس مرة أخرى مـن هـو « مـاكـار اليكسيتش » ، وكيف أن هذا السكير ، المجنون نشل المسدس المحشو ،



@ketab_n @4_readers

قبل وصوله بالضبط ، دون أن يستطيعوا استرداده منه ، ورجا الضابط ألاّ يعاقبه .

نفخ الفرنسي صدره وأشار بيده اشارة فخمة وقال بسرعة وبلهجة قويـــة :

**ـ لقد انقذت حياتي . انت فرنسي . سالتني العفو عنه ؟ وأنا امنحك ذلك العفو . خذوا هذا الرجل .**

ثم أمسك بذراع بطرس الذي رُفّع الى فرنسي بما بذله من عناية لانقاذ حياته ، ودخل معه داخل المنزل .

دخل الجنود الذين كانوا في الفناء غرفـة الانتظار حين سمعـوا الطلقة النارية وسألوا عما جرى وأعلنوا استعدادهم لمعاقبة المجرم ، لكن الضابط أوقفهم بقسوة قائلا :

**ـ سوف تدعون اذا دعت الحاجة اليكم .**

خرج الجنود . واقترب الوصيف الذي تسنّى له أن يطوف بالمطبخ في هذه الأثناء ، وقال :

**ـ سيدي النقيب ، ان لديهم في المطبخ حساء وفخذ خروف . فهل آتيك بذلك ؟**

قال النقيب :

ـ نعم ، مع الخمر .



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

# الفصل التاسع والعشرون

عندما دخل الضابط وبطرس داخل المنزل ، رأى بطرس من واجبه أن يؤكد للضابط أنه ليس فرنسيا ، وكان ينوي أن ينسحب ، لكن الضابط لم يوافق • كان بالغ الأدب واللطف والدماثة ، صادق العرفان بجميل منقذه ، حتى ان بطرس لم يجرؤ على الرفض وجلس معه في الصالة الكبرى ، وهي الغرفة الاولى التي دخلاها • وبعد أن أكد بطرس أنه ليس فرنسيا لم يملك النقيب الذي لم يكن يستطيع أن يفهم، كما يبدو ، كيف يرفض امرؤ" هذا اللقب المغري ، الا أن يهز كتفيه ويقول : انـه اذا حرص كل هذا الحرص على اعتبار نفسه روسيا ، فليكن ، لكنه سيظل بالرغم من ذلك معترفا الى الابد بجميله لانه أنقذ حياتـه •

ولو أن هذا الرجل أوتي القدرة على فهم مشاعر الآخرين ، لو أنه استشف" ما كان يختلج في نفس بطرس ، لكان من المحتمل أن يتركه ؛ لكن انغلاق نفسه عن كل ما لايتصل بها ، ومرحه حملا بطرس على الاذعـان •

قال الضابط وهو يلقي نظرة على ثياب بطرس الوسخة والفاخرة ، وعلى الخاتم في اصبعه :

**ـ سواء أكنت فرنسيا ام اميرا روسيا متخفيا فانـا مدين لـك**



@ketab_n @4_readers

بحياتي ، وأنا أعرض عليك صداقتي . ان الفرنسي لاينسى أبدا الاهانة ولاينسى الفضل . اني أعرض عليك صداقتي . ولا أقول لك غير هذا.

كان في نبرة صوت هذا الضابط ، وفي تعبير وجهه ، وفي حركاته كثير من طيبة القلب والنبل ( بالمعنى الفرنسي لهذه الكلمة ) حتى ان بطرس شد على اليد الممدودة وهو يرد على الابتسامة بمثلها . وقدم الضابط نفسه وهو يفترّ عن ابتسامة لا تتقاوم من الرضى عن الذات، ابتسامة غضنت شفتيه تحت شاربيه :

**- النقيب « رامبال » من السرية الخفيفة الثالثة عشرة ، الحائز على وسام في معركة السابع[1] . فهل تتكرم وتقول لي مع من أتشرف بهذا الحديث الممتع بدلا من ان اظل مسجّى في عربة الاسعاف ورصاصة هذا المجنون في جسدي .**

أجاب بطرس بأنه لايستطيع أن يذكر اسمه ، وتحدث وهو يحمر خجلا عن الاسباب التي تمنعه من ذلك ، مفتشا في الوقت نفسه عن اسم مستعار له . لكن الفرنسي أسرع وقاطعه قائلا :

**- من فضلك ، اني افهم دواعيك ، انت ضابط ... ولعلك ضابط كبير ، حملت السلاح في وجهنا . ليس هذا من شاني . انا مدين لك بحياتي ، وكفى . انا رهن إشارتك .**

وأضاف بشيء من الاستفهام :

**- انت نبيل ؟**

فحنى بطرس رأسه .

---

(1) اي في معركة بورودينو التي وقعت في ٧ ايلول .



@ketab_n @4_readers

**ـ اسم المعمودية ان سمحت ؟ لا اطلب اكثر من ذلك ، قلت ان اسمك هو بطرس .... رائع . هذا كل ما اود معرفته .**

وعندما جيء بفخذ الخروف وعجّة البيض وبالسماور والفودكا والنبيذ الروسي من صندوق روسي حمله الفرنسيون معهم ، دعا الضابط بطرس لمشاركته طعامه ، وما لبث أن شرع يأكل بنهم وسرعة كما يأكل الرجل الصحيح الجسم الذي أصابه الجوع ، ماضغا بأسنانه القوية ، صافقا أبـدا بشفتيه ومكررا : ممتاز ، لذيذ ! واحمرّ وجهه وغطاه العرق . وشاركه بطرس ، وكان جائعا ، طعامه بسرور . وحمل الوصيف « موريل » قدرا فيها ماء ساخن ووضع فيها زجاجة النبيذ الاحمر ، ثم جـاء بزجاجة نبيذ « كفاس » أخذها من المطبـخ ليذوقها . وكان الفرنسيون يعرفون هذا الشراب ويسمونه « **شراب ليمون الخنزير** » وقد أخذ « موريل » يثني على هذا الشراب الذي وجده في المطبخ . لكن النقيب الذي تزود بالنبيذ أثناء مروره بموسكو ترك تلك الزجاجة لوصيفه وأقبل على زجاجة « بوردو » . لفها حتى عنقها بمنشفة وملأ كأسه وكأس بطرس . فلما هدأ جوعه وحرّكته الخمر ازداد حيوية وتكلم بدون توقف أثناء الطعام .

**ـ نعم ، يا سيدي العزيز بطرس ، لقد غمرتني بمعروفك لانك انقذتني ... من هذا المسعور ... يكفيني مافي جسدي من الرصاص ، كما ترى . هذه واحدة ( واشار الى جنبه ) في « واغرام » واثنتان في « سمولنسك » ( واشار الى ندبة في خده ) . وهذه الساق التي تابى ان تمشي ، كما ترى ، اصيبت في معركة اليوم السابع في الموسكوفا . يا الهي ، ما كان اجملها من معركة ! ليتك رايت ذلك ، كان طوفانا من النار . لقد كلفتنا هذه المعركة جهودا مضنية ؛ وتستطيعون ان تفخروا**



@ketab_n @4_readers

**بذلك ، صدّقني . اقسم لك بشرفي أنني مستعد للعودة الى مثل تلك المعركة ، بالرغم من السعال الذي اصابني . وانا ارثي لمن لم يشهدوها .**

قال بطرس :

ـ قد كنت هناك .

واستأنف الفرنسي كلامه :

**ـ حقا ! حسنا ! هذا افضل . انتم اعداء اباة على كل حال . كان المعقل ، والله ، صامدا ، وعزَ المرام . ولقد حملتمونا بإبائكم على دفع الثمن باهظا . لقد وصلت الى المعقل ثلاث مرات ، كما تراني . ثلاث مرات بلغنا المدافع وثلاث مرات رددنا على اعقابنا خاسرين . اوه ! كان ذلك جميلا ، يا سيد بطرس . كان رماتكم رائعين ، والله . رايتهم يرصّون صفوفهم ست مرات ويمشون وكأنهم في عرض عسكري . ما اروع اولئك الرجال ! وعندما رآهم ملكنا ، ملك نابولي ، وهو خبير برمي القنابل ، هتف :**

مرحى !

وقال بعد لحظة صمت :

**ـ آه ! آه ! انت جندي مثلنا ! هذا احسن ، احسن ، يا سيد بطرس . جبّارون في المعارك ... غزِلون ... ( وغمز بعينيه وهو يبتسم ) ، مع الحسان ، كذلك هم الفرنسيون ، يا سيد بطرس ، اليس كذلك ؟**

بلغ النقيب حـداً من المرح الساذج والطيب والامتلاء بالذات والرضى عن الذات أوشك معه بطرس أن يرد على غمزته بغمزة مماثلة



@ketab_n @4_readers

وهو ينظر اليه ببهجة . ولعل كلمة « غزَل » ذكّرت النقيب بالوضع في موسكو ، فقال :

**ـ قل لي ، بهذه المناسبة ، أصحيح ان جميع النساء هجرن موسكو ، ما أسخف هذه الفكرة ! من أي شيء يخفن ؟**

قال بطرس :

**ـ ألا تهجر النساء الفرنسيات باريس لو ان الروس دخلوها ؟**

انطلق الفرنسي في قهقهة فرحة وهو يربت كتف بطرس وقال :

**ـ آه ! آه آه ! زدتَها الآن . باريس ... لكن باريس ... باريس ...**

فأتم بطرس :

**ـ باريس عاصمة الدنيا ...**

نظر اليه النقيب . وكان من عادته أن يتوقف ، وهو في أواسط حديثه ، وأن يُحدّق في محدّثه بعينين باشتين ، أنيستين :

**ـ حسنا ! لو لم تقل لي انك روسي لراهنت على انك باريسي . ان فيك شيئا لا يُدرك كنهه من ...**

فلما انتهى من ثنائه هذا نظر اليه بصمت مرة أخرى .

قال بطرس :

**ـ لقد زرت باريس ، وقضيت فيها سنين .**



@ketab_n @4_readers

**ـ اوه ! هذا واضح اشد الوضوح . باريس ! ... ان انسانا لايعرف باريس لهو انسان متوحش . ان المرء ليحس بالباريسي على بعد ميلين . باريس هي « تالما »(١) هي « دوشينوا »(٢) ، هي « بوتييه »(٣) ، هي السوربون ، هي الشوارع العريضة ....**

ثم تبيّن أن خاتمة كلامه أضعف مما سبق فبادر وأضاف :

**ـ ليس هناك سوى باريس واحدة في العالم . لقد ذهبت الى باريس وبقيت روسيا . حسنا ! ان تقديري لك مع ذلك باق على حاله .**

وجد بطرس على الرغم منه متعة في الحديث مع هذا الرجل المرح الطيب ، بعد أن لعبت الخمر برأسه وبعد تلك الايام التي قضاها وحيدا مع أفكاره الكالحة .

**ـ لنعد الى نسائكم ، الشائع انهن جميلات . فاية فكرة منكرة دفعتهن الى أن يذهبن ليدفنّ انفسهن في السهوب عندما يكون الجيش الفرنسي في موسكو . واية فرصة فاتت هؤلاء النسوة . ان فلاحيكم شيء آخر . اما انتم المتمدنون فينبغي ان تعرفونا معرفة افضل . لقد استولينا على « فيينا » و « برلين » و « مدريد » و « نابولي » و «روما » و « فرسوفيا » ، وجميع عواصم العالم ... الناس فيها يخشوننا لكنهم يحبوننا . ومن الممتع ان يتعرفوا بنا . ثم ان الامبراطور ...** لكن بطرس قاطعه عندما بدأ الضابط كلامه على الامبراطور ، فكرّر وقد بدا الكمد والضيق على قسمات وجهه :

---

(١) تالما : فرانسوا تالما ( ١٧٦٣ ـ ١٨٢٦ ) ممثل تراجيدي كبير كان نابليون يقدره ويراه افضل ممثل تراجيدي .

(٢) لادوشينوا : الآنسة كاترين لادوشينوا ( ١٧٧٧ ـ ١٨٣٥ ) ممثلة تراجيدية فرنسية منافسة الآنسة جورج .

(٣) شارل بوتييه : ( ١٧٧٥ ـ ١٨٣٨ ) ممثل شهير في باريس .



@ketab_n @4_readers

**ـ الامبراطور ، هل الامبراطور ...**

**ـ الامبراطور ؟ انه الكرم والرحمة والعدل والنظام والعبقرية ، هذا هو الامبراطور ! انا « رامبال » اقول لك ذلك . فكما تراني الآن ، كنت عدوا له منذ ثماني سنوات . كان والدي كونتا مهاجرا ... لكنه غلبني ، هذا الرجل . لقد هزني . لم استطع أن أصمد لمشهد العظمة والمجد اللذين أسبغهما على فرنسا . عندما فهمت ما يريد ، عندما رايت انه كان يضع لنا محفة من الغار ، قلت في نفسي : هكذا يكون الملك ،وأسلمت له نفسي . تأمل ! أوه ! نعم ، يا عزيزي ، انه اعظم رجل في العصور الماضية والآتية .**

سأله بطرس مترددا وكالمذنب :

**ـ هل هو في موسكو ؟**

نظر الفرنسي الى وجه بطرس المذنب وتبسم ، ثم قال :

**ـ لا ، سيدخل المدينة غدا .**

وتابع قصته .

قطعت حديثهما صرخات عند الباب دخل على أثرها « موريل » ليعلن للنقيب أن فرسانا ورتمبرجيين وصلوا وأرادوا أن يربطوا خيولهم في الفناء الذي ربط فيه الفرنسيون خيولهم . وجاءت الصعوبة من أن الفرسان لم يكونوا يفهمون ما يقال لهم .

استدعى النقيب رقيبهم وسأله بلهجة قاسية عن فوجه وعن رئيسه، وبأي حق سمح لنفسه أن يحتل مسكنا مشغولا من قبل . وردا على السؤالين الاولين ، ذكر له الرقيب فوجه ورئيسه ؛ أما السؤال الاخير



@ketab_n @4_readers

الذي لم يفهمه ، فقد أجاب عنه وهو يخلط بالالمانية كلمات فرنسية مشوهة بأنه محاسب التجهيزات وأن قائده أمره أن يحتل جميع البيوت واحدا بعد الآخر . كان بطرس الذي يعرف الالمانية يترجم للنقيب ما يقول الفارس وينقل لهذا ما يقوله النقيب . وعندما فهم الالماني أذعن وسحب رجاله . وخرج النقيب الى درج المدخل وألقى أوامره بصوت قوي .

عندما عاد ، كان « بطرس » جالسا في موضعه نفسه ، ورأسه بين يديه . كان وجهه ينطق بالالم . لقد كان يتألم حقا في هذه اللحظة .

فعندما خرج النقيب وظل وحده ، عاد فجأة الى رشده وتبيّن حقيقة الوضع الذي هو فيه. لم يكن يؤرّقه في هذه اللحظة أن موسكو احتلّت ، وأن هؤلاء المنتصرين السعداء أصبحوا سادة لها وأنه في حمايتهم ، وان شقّ عليه ذلك وآلمه أشد الالم . بل ان ما كان يؤرّقه هو الشعور بضعفه . ان بضعة أقداح من النبيذ ، وحديثه مع هذا الضابط الطيب ، ان ذلك دمّر فيه تلك الحالة النفسية الكالحة ، حالة الانكماش على الذات التي عاش فيها هذه الايام الاخيرة والتي لابد منها لتنفيذ مشروعه . كان المسدس والخنجر والثياب جاهزة . ونابليون سيدخل غدا . وكان بطرس يجد من المفيد والنبيل أن يقتل الأثيم ؛ لكنه كان يحس أنه لن يتقدم على هذا الآن . لماذا ؟ كان يجهل لماذا ، لكنه كان يحس إحساسا مسبقا بأنه لن يحقق هدفه . كان يصارع شعوره بالضعف ، لكنه كان يحس إحساسا غامضا بأنه لن يستطيع التغلب عليه ، وبأن أفكاره الكالحة ، أفكار الانتقام والقتل والتضحية بالذات قد تطايرت لدى الاحتكاك بأول قادم .



@ketab_n @4_readers

رجع النقيب الى الغرفة وهو يعرج عرجا خفيفا ويصفر •

بدت ثرثرة الفرنسي التي سلّت « بطرس » في بادىء الامر بغيضة الآن • وبدا النغم الذي يصفره ، ومشيته وحركاته وطريقته في فتل شاربيه ، بدا له ذلك كله الآن مهينا •

وفكر بطرس :

ـ سوف انصرف ، ولن أزيد كلمة على ما قلت • هكذا كان يفكر ومع ذلك فانه لم يكن يتحرك • كان يُسمّره في موضعه إحساس غريب بالضعف : وأراد أن ينهض ويمضي فلم يستطع •

بدا النقيب ، على العكس ، مرحا جدا • طاف بالغرفة مرتين • والتمعت عيناه وارتعش شاربه ارتعاشا خفيفا وكأن شيئا مسلّيا دفعه الى الابتسام بينه وبين نفسه • وقال فجأة :

**ـ فاتن" عقيد هؤلاء الورتمبرجيين ! انه الماني ؛ لكنه فتى طيب كاشد ما يكون الطيب • لكنه الماني •**

وجلس في مواجهة بطرس :

**ـ بالمناسبة ، انت تعرف الالمانية اذن ؟**

نظر اليه بطرس بصمت •

**ـ كيف تسمي الملجا بالالمانية ؟**

فردّد بطرس :

**ـ ملجا ؟ ملجا بالالمانية : « انتركونفت » •**

قال النقيب بحيوية كمن لم يصدق :



@ketab_n @4_readers

**ـ كيف تقول ؟**

فردّد بطرس :

**ـ « انتركونفت » .**

قال النقيب الذي تأمل بطرس بضع لحظات بعينين ضاحكتين : أونتركوف .

**ـ واردف : الالمان حيوانات مزهوّة . أليس كذلك ، يا سيد بطرس ؟**

وصاح بمرح :

**ـ حسنا ! لابد من زجاجة اخرى من نبيذ بوردو المسكوفي ، اليس كذلك ؟ سيسخن لنا « موريل » زجاجة اخرى ، « موريل » !**

حمل « موريل » شموعا وزجاجة نبيذ . نظر النقيب الى بطرس على ضوئها ودهش دهشة واضحة لوجه محدثه الذي تغيّر . فدنا منه يحدوه الود المؤاسي بصدق وانحنى عليه ، وسأله وهو يلمس ذراعه :

**ـ ماذا ! اانت حزين ؟ هل اسات اليك ؟ لا ، قل لي الحق ، هل لك ماخذ علي ؟ لعل ذلك بسبب الوضع ؟**

لم يجب بطرس ، لكنه نظر بلطف الى الفرنسي في عينيه . كان شديد التأثر لهذه البادرة من الود .

هتف الفرنسي وهو يضرب صدره :

**ـ اقسم بشرفي انني اضمر لك الصداقة ، بغض النظر عمّا انـا مدين لك به . هل استطيع أن افعل شيئا لك ؟ انا بين يديك ، الى الابد. اقول لك هذا ويدي على قلبي .**



@ketab_n @4_readers

قال بطرس :

ـ شكرا .

فحدّق فيه النقيب على نحو ما حدّق فيه عندما علم كيف تُسمى كلمة « ملجأ » في الألمانية ، وفجأة استنار وجهه ، وهتف بمرح وهو يملأ كأسين :

**ـ آه ! في هذه الحالة ، دعني اشرب نخب صداقتنا .**

تناول بطرس كأسه وأفرغه وأفرغ النقيب كأسه ، وشدّ مرة أخرى على يد بطرس ، واتّكأ بمرفقيه على الطاولة في وضع ينم على الاستغراق في التفكير والكآبة . وبدأ كلامه قائلا :

**ـ نعم ، يا صديقي العزيز ، ها هي ذي تقلبات الدهر ، فمن قال انني ساصبح جنديا ونقيبا للفرسان في خدمة بونابارت ، كما كنا نسميه قديما ؟ ومع ذلك فأنت تراني في موسكو معه .**

وتابع بصوته الحزين ، المتّزن الذي يتهيّأ لرواية قصة طويلة :

ـ ينبغي أن أقول لك ، يا عزيزي ، أن اسمنا من أعرق الاسماء في فرنسا .

وروى لبطرس بصراحة الفرنسيين الساذجة السهلة تاريخ أجداده وطفولته ويفاعته وشبابه ومشكلات القرابة والثروة والعائلة المتصلة به . وكانت « أمي المسكينة » تلعب بالطبع دورا هاما في هذه الحكاية .

ثم قال وقد زاد حيوية :

**ـ لكن هذا كله ليس سوى الاخراج المسرحي للحياة اما جوهرها فهو الحب . الحب ! اليس كذلك ، يا سيد بطرس ؟ اتريد كأسا اخرى ؟**



@ketab_n @4_readers

فشرب بطرس وصبّ لنفسه كأسا ثالثة .

ـ أوه ! النساء ، النساء !

ونظر النقيب الى بطرس بعينين أشِرتيْن وأخذ يتحدث عن الحب وعن مغامراته الغرامية . كانت مغامراته جمّة العدد ، وكان من السهل تصديقه لما بدا من عُجْب على وجهه الجميل ، ومن حماسة في كلامه على النساء . ومع أن لجميع مغامرات « رامبال » الغرامية هذا الجانب الماجن الذي يقوم عليه ، عند الفرنسيين ، سحر الحب وشاعريته ، الا أن النقيب كان يروي قصصه وهو قانع أصدق قناعة أنه الوحيد الذي ذاق لذات الحب بأسرها ، وكان يصف النساء وصفا أخّاذا حمل بطرس على الاصغاء بفضول .

كان واضحا أن الحب الذي يحبه الفرنسي ليس ذلك الحب المنحط والبدائي الذي أحس به بطرس قديما إزاء امرأته ، ولا هو ذلك الحب الرومانسي الذي يحمله لناتاشا والذي يذكيه في نفسه ( كان « رامبال» يحتقر ايضا هذين النوعين من الحب : **الاول حب سائقي العجلات ، والثاني حب الاغرار ) ؛** الحب الذي كان يعبده الفرنسي يقوم قبل كل شيء على هذا التصنّع في العلاقات بالنساء وعلى تلك التركيبات الغريبة التي تمنح العاطفة فتنتها الاساسية .

هكذا ، روى النقيب قصة حبه المؤثرة لمركيزة فاتنة عمرها خمسة وثلاثون عاما ، وحبه في الوقت نفسه لطفلة رائعة بريئة ، عمرها سبعة عشر عاما ، هي ابنة الكونتيسة الفاتنة . ومع أن النزاع بين كرم الام وكرم ابنتها ، وهو نزاع انتهى بتضحية الام التي وهبت ابنتها عشيقها ليكون زوجا لها ، مجرد ذكرى بعيدة ، لكنها ذكرى ما فتئت تهز



@ketab_n @4_readers

النقيب. ثم روى فصلا لعب فيه الزوج دور العاشق ولعب هو ( العاشق) دور الزوج ، وروى فصولا مضحكة عن **ذكرياته في المانيا حيث يسمى الملجأ : « انتركنفت » ، وحيث الازواج ياكلون الكرنب ، وحيث الفتيات مفرطات الشقرة .**

وأخيرا روى آخر مغامرة له في بولونيا ، وهي ماتزال غضــة في ذاكرته ، بكثير من الاشارات العنيفة وقد انتعش وجهه ، ومدارها أنه أنقذ حياة بولوني ( في قصص النقيب تردُ دائما الحوادث التي يُنقذ فيها حياة أحد الناس ) ، وأنّ هذا البولوني عهد اليه بامرأته الفاتنة ( الباريسية القلب ) بينما تطوع هو في الجيش الفرنسي . كان النقيب سعيدا ، وأرادت البولونية الفاتنة أن تهرب معه ؛ لكن النقيب ردّ المرأة الى زوجها ، في اندفاعة من اندفاعات الكرم ، قائلا له : **« لقد انقذت حياتك وهأنذا انقذ شرفك ! »** . وكرر النقيب هذه الكلمات ، وفرك عينيه وهز رأسه كأنه يريد أن يطرد التحنّن الذي استولى عليه من جراء هذه الذكرى المؤثرة .

وكما يقع دائما اذا تقدم الليل ولعبت الخمر برأس شاربها ، كان بطرس يتابع كل ما يقوله النقيب ، وهو يُصغي الى قصصه ، ويفهم كل شيء ، وكان في الوقت نفسه يتابع موكبا من ذكرياته الشخصية التي كانت تَفدُ على خياله فجأة ودون أن يعرف السبب . عاد الى ذاكرته بغتة ، بينما كان يصغي الى قصص الحب هذه ، حبّه لناتاشا ، وعند استعراضه الصور في خياله على غير عمد ، كان يقارن في ذهنه بينها وبين حكايات « زامبال » . وأثناء قصة الصراع بين الواجب والحب رأى أمام عينيه بأدقّ التفاصيل لقــاءه مع موضوع حبــه عند برج



@ketab_n @4_readers

« سوكاريف » • لم يترك فيه هذا اللقاء آنذاك أثرا كبير ؛ ولم يفكر فيه من بعد ذلك ولو مرة واحدة • أما الآن فقد بدا له أن في ذلك اللقاء شيئا عظيم الدلالة والشاعرية •

« تعال الى هنا ، يا بطرس كيريليتس » ، فقد عرفتك » • كان يسمع هذه الكلمات التي قالتها له ، ويرى أمامه عينيها وبسمتها وقبعة السفر على رأسها وخصلة شعرها المتطايرة ••• كان في ذلك كله مايثير رقته وحنانه •

بعد أن أنهى النقيب قصة البولونية الفاتنة سأل بطرس ان كان قد أحس بعاطفة التضحية بالذات في سبيل الحب ، والغيرة من الزوج الشرعـي •

رفع بطرس رأسه وشعر بالحاجة الى التعبير عن الافكار التـي كانت تشغله ، بعد أن شجعه سؤال الضابط على ذلك ، فأوضح أنـه يفهم حب الرجل للمرأة فهما آخر • وقال : انه لم يحب طوال حياته سوى امرأة واحدة ولم يزل يحبها وأن هذه المرأة لا يمكن أن تكون له•

قال النقيب :

ـ عجبا !

ثم أوضح بطرس أنه كان يحب هذه المرأة منذ صغرها ، لكنه لم يكن يحق له أن يفكر فيها لانها كانت صغيرة السن ولانه كان هـو ولدا غير شرعي لا اسم له • وعندما جاءه الاسم والثروة فيما بعدلم يكن يجرؤ أيضا على التفكير فيها لانه كان يحبها حبا مفرطا ويضعها فوق الناس جميعا ومن ثم فوق نفسه • ولما وصل بطرس الى هـذا الموضع من قصته سأل النقيب ان كان يفهم ذلك •



@ketab_n @4_readers

فرد عليه النقيب باشارة تعني أنه يدعوه الى متابعة قصته ، حتى وان لم يكن يفهمها .

وغمغم :

ـ **الحب الافلاطوني ، السحب ...**

أكان النبيذ الذي شربه ، أو الحاجة الى البوح ، أو تصوره أن هذا الرجل لا يعرف ولن يعرف أحدا من أشخاص قصته ، أو كانت هذه الدوافع مجتمعة هي التي حلت عقدة لسان بطرس .لقد روى قصته برمتها وهو يبدل من الجيم زايا ، ذابل العينين ، شاخصا الى نقطة في المكان البعيد : قصة زواجه وحب « ناتاشا » لافضل صديق له ، وخيانتها ، وصلاته الطفيفة بها . ثم دفعته أسئلة « رامبال » الى أن يذكر ما كان أخفاه في بادىء الامر ، أي موقعه الاجتماعي ، حتى انه كشف له عن اسمه .

أشد ما أدهش النقيب في قصة بطرس هو أن بطرس كان غنيا ، وأنه كان يملك قصرين في موسكو ، وأنه تخلى عن كل شيء ولم يرتحل لكنه مكث في المدينة مخفيا اسمه ومقامه .

وفي موهن من الليل ، خرجا معا الى الشارع . كانت الليلة معتدلة، مضيئة . الى يسار المنزل أخذ يحمر ضياء أول حريق اشعل في موسكو، في « بتروفكا » . والى اليمين كان الهلال في كبد السماء ، وقد برز في مواجهته هذا المذنب المضيء[1] الذي يقترن في نفس بطرس بحبه . وأمام البوابة وقف « جيراسيم » والطاهية وفرنسيان . كانوا يضحكون

(١) خطأ مقصود من الكاتب لان المذنب ظهر في سنة ١٨١١ لا في سنة ١٨١٢ .



@ketab_n @4_readers

ويتكلمون كل اثنين بلغتهما التي لا يفهمها الآخران . كانوا يتأملـون ضياء الحريق الذي ارتفع فوق المدينة .

لم يكن في هذا الحريق الصغير البعيد في تلك المدينة الهائلة ما يخيف.

كان بطرس يشعر ، وهو ينظر الى قبة السماء المنجمة والى القمـر والى المذنب والى ضياء الحريق ، بالرقة المشوبة بالفرح . وفكّر : « ما أبدع هذا ، لا مطمح بعده لمستزيد ! » . وفجأة تذكّر مشروعه فأصابه الدوار وأحس بالالم واضطر ان يستند الى جـدار الفناء كي لا يقـع .

ابتعد بطرس عن البوابة، دون أن يستأذن صديقه الجديد ،بخطوات قلقة ، واستلقى على الاريكة ونام من فوره .

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل الثلاثون

كان السكان الهاربون والجيش المنسحب يتأملون ، من طرق مختلفة وبعواطف شتى ، أول حريق شب في الثاني من أيلول .

توقفت قافلة آل روستوف هذه الليلة في « ميتيستشي » على عشرين فرسخا من موسكو . لقد سافروا في الاول من ايلول ، متأخرين ،وكانت الطريق مزدحمة بالعربات والجند ، كما اضطروا ان يرسلوا من يأتي بكثير من الاشياء المنسية في موسكو ، فقرروا أن يقضوا الليل على خمسة فراسخ من موسكو . وفي اليوم التالي ، استيقظوا متأخرين وتوقفوا مرات في الطريق حتى انهم لم يستطيعوا أن يتجاوزوا « ميتستشي »[1] الكبرى . وفي الساعة العاشرة ، توزع آل روستوف والجرحى الذين يسيرون معهم ، في افنية الضيعة الكبيرة وأكواخها الخشبية . أما خدم آل « روستوف » والسائقون والمرافقون للجرحى فبعد أن قدّموا الطعام لاسيادهم تعشوا وأطعموا خيولهم وخرجوا الى درج المدخل .

كان في المنزل المجاور مساعد « رايفسكي » العسكري الجريح الذي كسر زنده ، وقد انتزع منه الالم المبرّح أنينا متواصلا منذرا بالويل في عتمة ليل الخريف . قضى هذا المساعد العسكري ليلته الاولى

(١) ميتستشي الكبرى والصغرى قريتان في الشمال الشرقي من موسكو .



@ketab_n @4_readers

في الفناء الذي كان فيه آل « روستوف » ، وقالت الكونتيسة انها لم تستطع أن تغمض عينها بسبب هذا الانين ، فباتت ليلتها الثانية ، في « ميتستشي » ، في منزل اشد تواضعا لكنه أشد بعدا عن الجريح •

شاهد أحد الخدم في ظلمات الليل ، من خلف صندوق عربة كانت تقف خلف درج المدخل ، ضياء حريق جديد لم يتسع بعد • وكان قد شوهد ضياء حريق آخر من قبل عرف الجميع أنه في « ميتيستشي » الصغرى التي أحرقها جنود « مامونوف » القوزاق •

قال أحد تابعي الجرحى :

ـ انظروا ، أيها الاصحاب ، هذا حريق آخر •

اتجهت الانظار الى هذا الضياء •

ـ لكن يقال ان جنود « مامونوف » أشعلوا النار في «ميتيستشي» الصغرى ـ أجل ! لا ، ليست هذه « ميتيستشي » ، بل أبعد منها • ـ انظر ، يبدو أن ذلك في موسكو • ونزل خادمان عن درج المدخل وذهبا الى خلف العربة وقعدا على المرقاة ـ النار على يسارها ! كلا ، ان « ميتيستشي » هناك ، أما النار فهي في جهة أخرى • وانضم آخرون الى الذين كانوا يتحدثون • وقال أحدهم : ها هو ذا اللهب يشتد ، يا سادة ، انه في موسكو ، وهذا الحريق اما أن يكون في شارع « سوستشيفسكايا » ، أو في شارع « روجوسكايا »[1] •

لم يرد أحد على هذه الملاحظة • ونظر الجميع بصمت ، أثناء فترة طويلة من الزمن ، الى امتداد لهب هذا الحريق الجديد البعيد •

(١) حيان شرقيان في العاصمة .



@ketab_n @4_readers

اقترب خادم الكونت العجوز ، « دانيلو تيرنتيش » ، من الجماعة ودعا « ميشكا » قائلا :

ــ إلام تنظر ، أيها الصبي الوقح ؟ لو أن الكونت نادى لما وجد من يرد عليه ؛ ادخل ورتب الثياب .

قال « ميشكا » :

ــ لم أذهب الا لآتي بالماء .

قال أحد الخدم :

ــ وأنت ، ما رأيك ، يا « دانيلو تيرنتيش » ، ألا يبدو لك أن هذا الضياء في موسكو ؟

لم يجب « دانيلو يترنتيش » وخيم الصمت مرة أخرى . كان الضياء يخفق وتتسع رقعته .

قال صوت :

ــ ليرحمنا الله !... في مثل هذه الريح وهذا الجفاف ...

ــ انظر كيف يسير الحريق . أوه ! يا الهي ! حتى اننا نرى الغربان. يا الهي ، ارحمنا نحن الخطاة !

ــ ستطفأ النار ، من غير شك .

فرد « دانيلو يترنتيش » الذي صمت حتى هذه اللحظة . وكان صوته هادئا ، بطيئا :

ــ ومن ذا الذي سيطفئها ؟ هذه موسكو بعينها ، يا أبنائي ، أمنا ذات الجدران البيـ ...



@ketab_n @4_readers

وتهدج صوته وانتحب كما ينتحب الشيوخ . وكأن الحاضرين ما كانوا ينتظرون غير ذلك ليدركوا ماذا يعني بالنسبة اليهم هذا الضياء الذي يرونه . فامتزجت بنحيب خـادم الكونت العجـوز الزفرات والصلوات .

* * *



@ketab_n
@4_readers

# الفصل الحادي والثلاثون

عاد خادم الكونت الى المنزل وأنبأ الكونت أن موسكو كانت تحترق • فلبس الكونت مبذله على عجل وخرج ليرى • وتبعته « صونيا » التي لم تخلع ثيابها والسيدة « شوس » • أما « ناتاشا » والكونتيسة فبقيتا وحيدتين في الغرفة • ( لم يكن « بيتيا » مع أسرته : ذلك أنه التحق بفوجه الذاهب الى « ترويتسا »[1] ) •

أخذت الكونتيسة تبكي حين علمت بحريق موسكو • وكانت « ناتاشا » جالسة على مقعد تحت الايقونات ( في نفس المكان الذي جلست فيه حين وصولها ) ، شاحبة الوجه ، شاخصة العينين ، لا تلتفت الى ما يقوله أبوها • كانت تصيخ السمع الى أنين المساعد العسكري المتصل الذي يسمع من مسافة ثلاثة بيوت •

قالت « صونيا » وهي تعود من الفناء مرتعدة خائفة :

ــ آه ! هذا فظيع ! أحسب أن موسكو برمتها ستحترق • الضياء رهيب !

وأردفت مخاطبة ناتاشا وكأنها تريد أن تسري عنها :

---

(١) اشهر دير في روسيا الشمالية ، يقع على ٦٠ كم شمالي موسكو ، وقد أسسه القديس سيرج في سنة ١٣٣٥ . وتسمى الضيعة التي حول الدير زاجورسك .



@ketab_n @4_readers

ـ انظري من النافذة ، يا « ناتاشا » •

لكن « ناتاشا » نظرت اليها وكأنها لم تفهم ما كانت تطلبه اليها ، وشخصت مرة أخرى الى المدفأة • لقد كانت في هذه الحالة من الخور منذ الصباح ، منذ أن رأت « صونيا » أن من الضروري اخبار «ناتاشا» بجرح الامير آندره وبوجوده في القافلة ، مقدمة على ذلك دون سبب واضح ، ومثيرة بفعلتها دهشة الكونتيسة وسخطها • واستشاطت الكونتيسة غضبا من صونيا ، وقلما وقع لها ذلك ، فسألتها « صونيا » الصفح وهي تبكي ، وأرادت الآن أن تكفّر عن غلطتها فأخذت تحوط ابنة عمها برعايتها • قالت لها :

ـ انظري ، يا « ناتاشا » الى النار المشتعلة ، هذا رهيب !

سألتها « ناتاشا » :

ـ ما الذي يشتعل ؟ آه ، نعم ! موسكو •

وكأنما لم تشأ أن تجرح صونيا برفضها ، فلوت رأسها نحو النافذة ونظرت على نحو كان من الواضح أنها لن ترى شيئا معه ، ثم عادت الى وضعها السابق •

ـ ألم تري شيئا ؟

قالت بصوت يتوسل اليها أن تتركها وشأنها :

ـ بلى ، رأيت حقا •

فهمت الكونتيسة وصونيا أ نموسكو ، وحريق موسكو ، وكل ما قد يقع ليس له أية أهمية عند « ناتاشا » •



@ketab_n @4_readers

عاد الكونت الى خلف الحاجز واضطجع • دنت الكونتيسة من « ناتاشا » ولمست رأسها بظاهر يدها كما تفعل عندما تكون مريضة ، ولامست جبهتها بشفتيها كأنها تريد أن تعلم ان كانت محمومة وعانقتها قائلة لها :

ــ هل بردت ؟ أنت ترتعشين • يجب أن تنامي •

قالت « ناتاشا » :

ــ أنام ؟ نعم ، طيب ، سأنام • سأنام في الحال •

عندما علمت « ناتاشا » ، في الصباح ، أن الامير آندره مصاب بجرح خطير وأنه يسافر معهم ، ألحت ، اول الامر ، في السؤال لتعرف طبيعة جرحه ومدى الخطر فيه ، وان كانت رؤيته ممكنة ، وعندما قيل لها انه لا يمكن رؤيته وأن حياته في مأمن من الخطر بالرغم من خطر الجرح ، لم تصدق ، على ما يبدو ، ما قيل لها ، وقنعت أنها ، مهما سألت فسوف تجد الاجوبة نفسها ، فكفت عن السؤال والكلام • قبعت ، أثناء الرحلة ، في زاوية من العربة ساكنة ، بلا حراك ، شاخصة بعينيها اللتين تعرفهما الكونتيسة جيدا وتخشى ما تعبران عنه من معان، وهي الآن جالسة على المقعد في الوضع نفسه • كانت تفكر بشيء ما ، تتخذ قرارا في ذهنها ، أو لعلها اتخذته • كانت الكونتيسة تعلم ذلك ، لكنها كانت تجهل ماذا يمكن أن يكون ، وهذا ما كان يخيفها ويؤرقها :

ــ « ناتاشا » ، يا حبيبتي ، اخلعي ملابسك وتعالي نامي في سريري • ( الكونتيسة وحدها كانت تنام على سرير : أما السيدة « شوس » والفتاتان فكن ينمن على الارض فوق القش ) •



@ketab_n @4_readers

قالت « ناتاشا » بحدة :

ــ كلا ، يا أمي ، سأنام هنا ، على الارض •

ودنت من النافذة وفتحتها ، فوافت منها أنات المساعد العسكري وهي اشد وضوحا • ومدت رأسها في هواء الليل الرطب فلمحت أمها عنقها الدقيق ينتفض من النحيب ويلطم اطار النافذة • كانت « ناتاشا » تعلم أن هذا الذي يتوجع ليس الامير آندره ، وتعلم أن الامير آندره ينام في نفس البيت الذي هم فيه ، في غرفة أخرى ، في الجانب الآخر من البهو ؛ لكن هذه الانات الفظيعة المتصلة كانت تدفعها الى النحيب •

بادلت الكونتيسة « صونيا » النظر وقالت لناتاشا وهي تمس كتفها مسا رفيقا : :

ــ نامي ، ياحبيبتي ، نامي ، ياصغيرتي ، هيا ، آن لك أن تنامي •••

قالت « ناتاشا » وهي تخلع ملابسها على عجل وتنزع الاشرطة من تنانيرها :

ــ آه ! نعم ••• سأنام في الحال ، في الحال •

وبعد أن خلعت فستانها ولبست قميص نومها ، جلست وثنت ساقيها على الفراش الذي فرش لها على الارض ، وردت الى الامام شعرها الناعم القصير وأخذت تجدله • لقد حلت أصابعها الطويلة الدقيقة ضفيرتها بخفة ومهارة وعلى نحو آلي ثم ضفرتها من جديد • كان رأسها يميل ، لكن عينيها اللتين اتسعتا ، وكانما اتسعتا بفعل الحمى، كانتا شخصتين أمامها • فلما فرغت من زينتها الليلية استلقت بهدوء على الشرشف المفروش على القش ، بجانب الباب •



@ketab_n @4_readers

قالت « صونيا » :

ـ « ناتاشا » ، نامي وسط الشرشف .

قالت « ناتاشا » :

ـ لا ، أفضل أن أبقى هنا .

وأردفت قائلة بحدة :

ـ هلا نمتن .

ودفنت وجهها في الوسادة .

خلعت الكونتيسة والسيدة « شوس » و « صونيا » ثيابهن على عجل واضطجعن . وظل سراج الليل وحده مضاء . ولكن في الخارج ، كان حريق « ميتستتشي » الصغرى يضيء على مدى فرسخين ، وكانت الصرخات الليلية توافي من الحانة الواقعة في الجهة الاخرى من الشارع والتي نهبها جنود « مامونوف » ، وظلت تصك الاسماع أنات المساعد العسكري المتصلة .

أصاخت « ناتاشا » الى الضوضاء التي كانت توافيها من الداخل ومن الخارج ، دون أن تأتي بحركة . سمعت أمها اولا وهي تصلي وتتنهد ، ثم سمعت قرقعة السرير تحت ثقلها ، وشخير السيدة « شوس » الصافر الذي تعرفه حق المعرفة ، ونفس « صونيا » الهادىء . ونادت الكونتيسة « ناتاشا » . فلم ترد « ناتاشا » عليها .

فهمست « صونيا » .

ـ أظن أنها تنام ، ياأمي .



@ketab_n @4_readers

ثم نادتها الكونتيسة مرة أخرى ، بعد لحظة صمت • فلم يجبها أحد هذه المرة •

بعد برهة، سمعت « ناتاشا » تنفس أمها المنتظم• لم تأت « ناتاشا » بحركة ، مع أن قدمها الصغير خارج الغطاء تجلدت على الارض الباردة •

وصر في أحد الشقوق صرصور كأنه يريد أن يحتفل بانتصاره على الناس جميعا ، وصاح ديك في مكان بعيد ، وأجابه ديك أخر في مكان قريب • وسكتت الصرخات ، في الحانة ، وترددت أنات المساعد العسكري وحدها • جلست « ناتاشا » وهمست •

ــ صونيا ؟ أتنامين ؟ أمي ؟

لم يجبها أحــد • فنهضت ببطء وحذر ورسمت اشــارة الصليب ووضعت باحتراس قدمها الصغيرة الغضة على البلاط الوسخ • وصرّت الالواح الخشبية • خطت بخفة بضع خطوات كالهرة الصغيرة وأمسكت بمزلاج الباب البارد •

خيّل اليها أن شيئا ثقيلا يقرع بضرباته المنتظمة جدران الغرفة •

كان قلبها الخائر يدق حتى ليكاد يتمزّق من الخوف والهلع والحب•

فتحت الباب واجتازت العتبة ووضعت قدمها على الارض المتجلدة الرطبة • فأنعشها البرد الذي أصابها • عثرت قدمها العارية برجل نائم فتخطته وفتحت باب الغرفة التي كان ينام فيها الامير آندره • كانت الغرفة مظلمة • وفي زاوية منها ، في الصدر ، قرب سرير يستلقي عليه شكل انساني ، كانت تشتعل شمعة من الشحم يسيل شمعها على مقعد ليكوّن ما يشبه الفطر •



@ketab_n @4_readers

منذ الصباح ، منذ أن علمت « ناتاشا » بجرح الامير الامير آندره وبوجوده بينهم ، وطدت العزم على أن تراه . لم تكن تدري لمَ وطدّت العزم ، لكنها كانت تعلم أن هذه المقابلة ستكون مؤلمة ، وكانت قانعة أشد قناعة انها ، من أجل ذلك ، ضرورية .

عاشت طوال النهار على أمل رؤيته في الليل . لكن عندما أزفت الآن اللحظة المنتظرة استولى عليها الرعب بسبب تصورها لما ستراه . الى أي حدّ شوّه ؟ ماذا بقي منه ؟ أهو مثل ذلك المساعد العسكري الذي لايكف عن الانين ؟ نعم ، كان كذلك . كان في خيالها تجسيدا لهذا الانين الفظيع . وعندما شاهدت في الزاوية كتلة غير واضحة المعالم، وظنت ركبتيه اللتين ترفعان الغطاء كتفين ، تمثلت جسدا شنيعا ووقفت مرعوبة . لكن قوة لاتقهر كانت تشدها الى الامام . وخطت باحتراس خطوة ، ثم خطت خطوة أخرى ، فألفت نفسها وسط غرفة صغيرة مزحومة . لقد نام شخص تحت الايقونات ( هو تيموخين ) واستلقى آخران على الارض ( هما الطبيب والخادم ) .

نهض الخادم وهمس شيئا . وراح « تيموخين » الذي أرّقه وجع ساقه وحال بينه وبين النوم ، يُحدّق في هذا الشبح الغريب ، شبح فتاة في قميص ابيض وقبعة نوم . لكن الكلمات المذعورة التي قالها الخادم وهو بين النوم واليقظة : « ماذا تريدين ؟ ماذا جئت تفعلين ، هنا ؟ » دفعتها الى أن تستعجل للاقتراب من ذاك الذي يستلقي في الزاوية . لابد أن ترى ذلك الجسد ، مهما يكن شبهه بالجسد الانساني قليلا . مرت أمام الخادم فسقط فطر الشحم ورأت بوضوح الامير آندره مستلقيا ، ويداه على الغطاء ، كما عهدته من قبل .



@ketab_n @4_readers

كان كسابق عهده ؛ لكن وجهه المحموم، وعينيه اللامعتين المحدّقتين فيها بحماسة ، ولا سيما عنقه الغض ، الطفولي الذي برز من ياقة قميصه كل ذلك أسبغ عليه مظهرا خاصا ، بريئا ، فتيا ، لم تعهده من قبل .
اقتربت منه وجثت على ركبتيها بحركة سريعة ، مرنة ، فتيّة .

فابتسم ومد لها يده .

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل الثاني والثلاثون

مضت سبعة أيام على الامير آندره منذ أن استعاد وعيه في مركز اسعاف في ساحة معركة « بورودينو » . وخلال هذه المدة كلها لم يكد يستفيق من غيبوبته . فحالة الحمى والالتهاب الذي أصاب أمعاءه كانا كفيلين بالقضاء عليه ، برأي الطبيب الذي كن يرافق الجريح . لكنه ، في اليوم السابع ، أكل بشهية قطعة خبز وشرب شايا ، وشاهد الطبيب انخفاض الحمى . وفي الصباح ، استفاق الامير آندره من غيبوبته . لقد تُرك ، في الليلة الاولى بعد الرحيل عن موسكو ، وكان الجو بديعا ، تُرك في العربة . لكن الجريح نفسه طلب في « ميتيستشي » أن يُنقل الى البيت وأن يُقدم له الشاي . ولقد برّح به ألم النقل وأفقده وعيه مرة أخرى . وعندما أُضجع على سرير الميدان ظل زمنا طويلا ممددا بلا حراك ، مغمض العينين . ثم فتح عينيه وتمتم : « والشاي ؟ » . أذهل الطبيب هذا التذكر للتفاصيل الدقيقة ، فجسّ نبضه واذا بـه يصاب بالدهشة والامتعاض لانه وجده أحسن حالا . أصيب بالامتعاض لانه كان قانعا بتجربته أن الامير آندره لا يمكن ان يعيش وانه ان لم يمت الآن فسوف يموت بعد ذلك بزمن ، مقاسيا آلاما أشد تبريحا . وفي الوقت الذي نقل فيه الامير آندره ، نُقل نقيب آخر من فوجه ، هو « تيموخين » ، الضابط ذو الانف الاحمر الذي جُرح في ساقه في معركة « بورودينو » . وكان يرافقه الطبيب وخادم الامير وحوذيه ووصيفان .



@ketab_n @4_readers

قُدم الشاي للامــير آندره فشربه بنهم ، وعينــاه المحمومتان شاخصتان قدّامه في الباب ، وكأنه يجهد في فهم شيء ما أو تذكره ، وقــال :

ـ كفى شايا .

ثم سأل :

ـ هل « تيموخين » هنا ؟

فجرّ « تيموخين » نفسه على المقعد :

ـ أنا هنا ، ياصاحب السعادة .

ـ وكيف حال جرحك ؟

ـ جرحي ؟ لا بأس . وجرحك ؟

عاد الامير آندره الى التفكّر وكأنه يفتش في ذاكرته ، وقال :

ـ ألا يمكن الحصول على الكتاب ؟

ـ أي كتاب ؟

ـ الانجيل ! ليس معي انجيل .

وعده الطبيب أن يُحضر له الانجيل وسأله عما يحسّه من آلام . فأجاب الامير آندره ، على مضض ، عن أسئلة الطبيب بما يناسبها ، ثم قال ! انه بحاجة الى مسند تحته ، وأنه يتضايق بدون مسند ويتألم كثيرا . ورفع الطبيب والخادم المعطف الذي كان يغطيه وكشّرا من رائحة اللحم النتن ، وفحصا الجرح المخيف . أظهر الطبيب انزعاجه من شيء ما ، فعدّل الضماد وأدار الجريح على نحو أحس معه بالوجع



@ketab_n @4_readers

وفقد وعيه وأخذ يهذي . وكان يردّد الشيء نفسه باستمرار ، وهو أن يُؤتى بهذا الكتاب ، على جناح السرعة ، وأن يوضع بجنبه .

كان يقول بصوت مثير للشفقة :

ــ ماذا يكلفكم ذلك ! هذا الكتاب ليس عندي ، فأتوني به ، أرجوكم ، ضعوه هنا لحظة .

خرج الطبيب الىالبهو ليغسل يديه . وقال للخادم الذي كان يصب الماء على يديه :

ــ آه ! لا ضمير لكم ، في الحقيقة . يكفي أن أدير ظهري لحظة . لقد بلغت أوجاعه حدا بعيدا ويُدهشني أنه يتحملها .

قال الخادم :

ــ أظن أننا فعلنا كل ما ينبغي فعله ، يارب ، يا يسوع .

أدرك الامير آندره ، لاول مرة ، حقيقة الامر ، أدرك ماوقع له ؛ تذكر أنه جريح وأنه طلب أن يُنقل الى الكوخ الخشبي في اللحظة التي توقفت فيها العربة في « ميتيستشي » . ثم تشوشت أفكاره من جرّاء الالم. وعاد الى وعيه ثانية في الكوخ حين شرب الشاي ؛ وعندما استعاد في ذاكرته كل ماوقع له ، عاش ثانية ، وبقدر أكبر من الحدة والقوة ، تلك اللحظة التي رأى فيها ، في مركز الاسعاف ، آلام ذلك الرجل الذي كان يكرهه ، فاجتاحته آنذاك أفكار جديدة تبشّر بالسعادة . هذه الافكار ، مع أنها مشوشة مبهمة غزت روحه ثانية . تذكر أنه يملك .الآن سعادة جديدة ، وأن هذه السعادة مرتبطة بالانجيل . ومن أجل ذلك طلب انجيلا . ولكن الوضع السيء الذي وضُع فيه جرحه



@ketab_n @4_readers

عندما أداره الطبيب شوش أفكاره مرة أخرى ، وعاد للمرة الثالثة الى الحيــاة في صمت الليــل المطبق • كان الجميع ينامون حوله • صرّ صرصور في الجانب الآخر من البهو ، وصرخ في الشارع رجل ورفع صوته مغنيــا ، وخشخشت على الطاولة والايقونات والجدران بنات وردان ، وأخذت ذبابة كبيرة تصطدم بوسادة رأسه وتطنّ حول شمعة الشحم الموضوعة الى جنبه والتي سالت لتكوّن فطرا كبيرا •

لم تكن نفسه في حالة طبيعية • فالعادة أن الرجل السليم المعافى يفكر في عدد لايحصى من الاشياء ويحس بها ويتذكرها في آن واحد ، لكنه يملك القدرة والقوة ، حين يختار زمرة من الافكار والتصورات، أن يركز انتباهه عليها • الرجل السليم يستطيع أن ينتزع نفسه من أعماق التأملات ليقول كلمة لطيفة لزائر دخل ثم يعود بعد ذلك الى أفكاره • لكن نفس الامير آندره لم تكن في حالة طبيعية ، بهذا الصدد • كانت جميع ملكاته الذهنية أشد نشاطا وصفاء من ذي قبل • لكنها كانت تعمل بمعزل عن ارادته • كانت تجتاحه أشد الصور والافكار اختلافا ، في آن معا • فقد يشرع فكره في العمل بقوة وصفاء وعمق كان عاجزا عنها اذْ هو سليم معافى ، واذا بفكره يتحطم وهو في عنفوان نشاطه ، واذا بصورة غير متوقعة تحل محل الفكرة التي كان يتعذر عليه أن يعود اليهــا •

كان يفكر وهو مضطجع في الغرفة التي خيم عليها الصمت ، وخالط ظلمتها النور ، وقد حدّق أمامه بعينيه اللتين وسّعتهما الحمى : « نعم، ان سعادة جديدة تجلت لي ، سعادة لايجوز التصرف بهــا ، سعادة مستقلة عن القوى المادية والمؤثرات الخارجية ، سعادة الروح وحدها ،



@ketab_n @4_readers

سعادة الحب ! كل انسان يستطيع أن يفهمها ، لكن الله وحده هو الذي أعلنها وأمر بها . لكن لم سنّ الله هذا القانون ؟ لم الابن ؟ ... وفجأة، انقطع خيط أفكاره وسمع الامير آندره (وهو لا يعلم ان كان ذلك في هذيانه أم في الحقيقة ) صوتا عذبا ، هامسا : « إي– بيتي – بيتي – بيتي » ، ثم : « إي – تي – تي » ، وأيضا : « إي بيتي – بيتي – بيتي » وأيضا « إي – تي – تي » . وفي الوقت نفسه ، وعلى صوت هذه الموسيقى الهامسة ، أحس الامير آندره أن بناء هوائيا يرتفع فوق وجهه، في وسطه بالذات ، مصنوعا من الابر الدقيقة ومن شظايا الخشب . أحس ( وان شق ذلك عليه ) أنه ينبغي عليه المحافظة على توازنه بعناية لكي لاينهار البناء ؛ لكنه كان ينهار مع ذلك ثم لايلبث أن يرتفع مرة أخرى ، ببطء ، على ايقاع الموسيقى الهامسة . كان يقول في نفسه : « انه يمتد ! انه يطول ويمتد أبدا » . وفي الوقت الذي كان يصغي فيه الى هذا الهمس ، والذي كان يحس فيه بامتداد هذا البناء من الابر وتطاوله ، كان يلمح لمحا خاطفا الهالة الحمراء حول الشمعة ، ويسمع خشخشة بنت وردان وطنين الذبابة التي كانت تتخبط على الوسادة وعلى وجهه . وكلما لامست الذبابة وجهه أحس بلذع الحرق، ودهش في الوقت نفسه لان الذبابة لم تدمر البناء وهي تصدم الموضع نفسه الذي قام فيه ذلك البناء ، فوق وجهه . وفضلا عن ذلك ، كان هناك شيء خطير . كان ذلك شيئا أبيض بجنب الباب ، كان تمثالا لابي الهول ينضغط هو أيضا عليه .

وفكر الامير آندره : « لعله قميصي الملقى على الطاولة ، وهاتان ساقاي هنا ، وذاك هو الباب هناك ، لكن لمَ يمتد كل شيء ويطول ؟



@ketab_n    @4_readers

ولمَ هذا الهمس « بيتي — بيتي — ، إي — تي ، تي ، إي بيتي — بيتي — بيتي ... ؟ » .

ثم قال متألما وكأنه يسأل أحد الناس :

— كفى ، كفى ، أرجوك . وفجأة عاد الى تفكيره واحساسه بوضوح وقوة خارقين :

وفكر مرة أخرى تفكيرا ينمّ على صفاء ذهني تام : « نعم ، الحب، لكنه ليس ذلك الحب الذي له علته ومسوّغه وهدفه ، وانما هو ذلك الحب الذي شعرت به لاول مرة عندما رأيت عدوي ، وأنا مشرف على الموت ، فأحببته مع ذلك . شعرت بعاطفة الحب الذي هو جوهر النفس والذي لاحاجة به الى موضوع له . وأنا أحس ، الآن أيضا ، بهذه العاطفة السعيدة . أن يحب المرء قريبه ، أن يحب أعداءه ، أن يحب كل شيء ، ذلك يعني أنه يحب الله في جميع تجلّياته . يمكننا أن نحب كائنا عزيزا حبا بشريا ؛ لكن العدو وحده هو الذي نستطيع أن نحبه حبا إلهيا . لذلك أحسست بفرح عظيم عندما شعرت أنني أحب هذا الرجل . ماذا جرى له ؟ هل هو حي ؟ ... عندما نحب حبا بشريا يمكننا أن نتحول من الحب الى البغض ؛ أما الحب الالهي فلا يناله التحول . لاشيء يمكن أن يدمره ، حتى ولا الموت . انه جوهر النفس. ومع ذلك ، فما أكثر الناس الذين كرهتهم في حياتي .. ولم أحب أحدا منهم جميعا ولم أكره أحدا منهم جميعا كما أحببتها وكرهتها » . وتمثل « ناتاشا » بشدة ، لا كما كان يتمثلها قديما بسحرها الأخّاذ وحده ؛ بل انه تمثل روحها . وأدرك عواطفها وألمها وخجلها وندمها . ولاول مرة أدرك الآن فظاظة رفضه ، رأى فظاظة فسخه الخطبة . « ليتني



@ketab_n @4_readers

أستطيع أن أراها مرة واحدة فقط ، مرة واحدة أقول لها فيها وأنا أنظر في عينيها ••• » •

بيتي ـ بيتي ـ بيتي ، بيتـ ي ـ بيتي بوم ! اصطدمت الذبابة ••• وفجأة تحول انتباهه الى عالم آخر من الواقع والهذيان ، عالم يجري فيه شيء فريد • في هذا العالم أيضا ، مازال البناء يرتفع دون أن ينهار ، مازال هناك شيء يمتد ويتطاول ، مازالت الشمعة تحترق في هالة حمراء، ما زال القميص ـ أبو الهول عند الباب ؛ لكن هناك فوق ذلك كله قرقعة ونفحة هواء باردة وشبحا جديدا ، ابيض ، لابي الهول ، يظهر أمام الباب • وكان أبو الهول هذا شاحب الوجه وله عينا « ناتاشا » الملتمعتان اللتان كان يفكر فيهما قبل حين •

فكر الامير آندره وهو يحاول أن يطرد هذا الوجه من خياله : « اوه ! ماأشد ايلام هذا الهذيان الذي لاينتهي ! » • لكن هذا الوجه ظل أمامه قويا كقوة الحقيقة ، وأخذ يدنو • أراد الامير آندره أن يعود الى هذا العالم من الفكر الخالص ، لكنه لم يستطع ، وكان الهذيان يشده الى أرضه• واستمر الصوت العذب الهامس في وشوشته الموقّعة، وكان على صدره شيء يخنقه ويمتد ويتطاول ، وظل الوجه الغريب أمامه • استجمع الامير آندره كل قواه ليتمالك نفسه ؛ تحرك قليلا وفجأة امتلأت أذناه بالطنين ، وتشوش بصره ، وغاب عن وعيه كما ينزلق المرء من مكان عمودي • وعندما ثاب الى نفسه ، كانت«ناتاشا»، ناتاشا الحية التي أراد أن يحبها قبل غيرها من البشر ذلك الحب الجديد، النقي ، الالهي الذي تجلى له ، كانت جاثية على ركبتيها أمامه • وأدرك أنها « ناتاشا » الحية ، « ناتاشا » الحقيقية ، فلم يشعر بالدهشة وانما



@ketab_n @4_readers

شعر بالفرح العذب . كانت « ناتاشا » راكعة ، تنظر اليه مرعوبة ، لكنها كانت مشدودة اليه ( لم تكن تستطيع أن تتحرك ) ، تحبس زفراتها . كان وجهها شاحبا ، جامدا ، الا جزءه الاسفل الذي كان يرتعش .

تنفس الامير آندره الصعداء وتبسم ومد لها يده ، وقال :

ــ هذا أنت ؟ ... ما أسعدني !

دنت منه « ناتاشا » على ركبتيها ، بحركة سريعة محترسة ، وتناولت يده برفق ، وانحنت بوجهها عليها وقبلتها وهي لاتكاد تلامسها بشفتيها.

وهمست وهي ترفع رأسها وتنظر اليه :

ــ اصفح عني ! اصفح عني !

قال الامير آندره :

ــ أُحبك

ــ اصفحْ ...

سألها الامير آندره :

ــ عمّ أصفح ؟

وهمست ناتاشا همسا متقطعا لايكاد يُسمع :

ــ اصفح عما ... فعلتُ

وغطت يده بالقبل وهي لا تكاد تلامسها بشفتيها .

قال الامير آندره :



@ketab_n @4_readers

ـ أحبك أكثر مما أحببتك من قبل .

ورفع وجهها بيده ليرى عينيها .

كانت عيناها المغرورقتان بدموع الفرح تنظران اليه بخَفَر وحنو وفرح وحب . كان وجه « ناتاشا » النحيل ، الشاحب ، ذو الشفتين المنفوختين ، بعيدا عن أن يكون جميلا ، كان مخيفا . لكن الامير آندره لم يكن يرى هذا الوجه ، كان يرى هاتين العينين المشعّتين الجميلتين . ثم ارتفع اللغط وراءهما .

ذلك أن الخادم الذي استيقظ تماما ، ايقظ بدوره الطبيب . وكان تيموخين الذي حال وجع ساقه بينه وبين النوم يرى منذ زمن بعيد كل ما يجري ، متكوّرا على مقعده ، وقد أمعن في تغطية جسده المتعري بالغطاء .

قال الطبيب وهو ينهض من مضجعه :

ـ ماهذا ؟ تفضلي بالانصراف ، يا آنسة .

وفي اللحظة نفسها جاءت خادمة أرسلتها الكونتيسة تقرع الباب .

وكما يخرج المسرنم من نومه ، كذلك خرجت « ناتاشا » من الغرفة ودخلت الغرفة الاخرى ، وارتمت على مضجعها وهي تنتحب .

منذ هذا اليوم ، وطوال بقية رحلة آل « روستوف » ، عند كل الوقفات والمراحل ، لم تترك « ناتاشا » الجريح . واضطر الطبيب الى الاعتراف بأنه لم يكن يتوقع أن يجد لدى فتاة مثل هذا الثبات ومثل تلك المهارة في العناية بالجريح .

ومهما تكن رهيبة تلك الفكرة التي بدت للكونتيسة وهي أن الامير



@ketab_n @4_readers

آندره قد يموت أثناء السفر بين ذراعي ابنتها ( وهو شيء جد محتمل على حد قول الطبيب فانها لم تستطع أن تحول بين ناتاشا وبينه • ومع أن تقارب الامير آندره و « ناتاشا » يوحي بعودة علاقاتهما كخطيبين في حال شفائه ، الا أن أحدا لم يتطرق الى هذا الموضوع ، وكان الامير آندره وناتاشا أقل الناس اكتراثا له ، ذلك أن مسألة الحياة أو الموت المعلقة ، لافوق « بولكونسكي » وحده وانما فوق روسيا بأسرها ، كانت تطغى على همومهما الاخرى •

* * *



@ketab_n @4_readers

# الفصل الثالث والثلاثون

استيقظ بطرس في الثالث من ايلول • كان يحس بصداع في رأسه وكانت ثيابه التي لم يخلعها عندما نام تضايقه ، وكان شعوره الغامض بأنه أتى في الليلة الفائتة أمرا شائنا يؤوده، كان ذلك الامر الشائن حديثه مع النقيب « رامبال » •

أشارت الساعة الى العاشرة • لكن الجو بدا في الخارج شديد العتمة • فنهض بطرس وفرك عينيه ، وعندما رأى المسدس ذا القبضة المحفورة الذي أعاده « جيراسيم » الى الطاولة ، تذكر الموضع الذي كان فيه وتذكر ما كان عليه أن يقوم به في هذا اليوم بالذات • وفكّر : « لعلي تأخرت ؟ لا ، لا لن يدخل موسكو قبل الظهر » • وأبى بطرس على نفسه بعد ذلك أن يفكر فيما كان عليه أن يفعله ، لكنه كان يستعجل ليعمل بأسرع مايمكن •

بعد أن أصلح هندامه أخذ المسدس وتهيأ للانصراف • لكنه تساءل حينئذ لاول مرة ، كيف سيحمل مسدسه في الشارع ، وهو لن يحمله بيده • لقد كان من الصعب أن يخفي مثل هذا المسدس الكبير حتى تحت قفطانه الفضفاض • ولم يكن يستطيع أن يضعه في حزامه ولا تحت ذراعه دون أن يفطن اليه الآخرون • وفضلا عن ذلك ، فان المسدس كان فارغا ولم يتسن له أن يعيد حشوه • وقال في نفسه : « لا أهمية لذلك ، فالخنجر معي » هذا مع أنه حدّث نفسه غير مرة وهو يفكر



@ketab_n @4_readers

بتنفيذ مشروعه أن الخطأ الرئيسي الذي ارتكبه طالب سنة ١٨٠٩ هو أنه أراد أن يقتل نابليون بخنجر • وأخذ على عجل الخنجر المثلم ،الكابي الحد ، في غمده الاخضر ، وكان قد اشتراه من برج « سوكاريف » مع المسدس ، وأخفاه تحت صدرته ، وكأنما لم تكن غايته أن يحقق هدفه بل أن يظهر لنفسه أنه لا يتخلى عنه وأنه يفعل كل شيء من أجله •

خرج بطرس من الممر الى الشارع ، بعد أن شد حزام قفطانه ، وكبس قبعته فوق عينيه ، وهو يجهد في ألا يحدث صوتا •

كان الحريق الذي نظر اليه مساء البارحة بكثير من عدم الاكتراث قد اتسع اتساعا كبيرا أثناء الليل • كانت موسكو تحترق الآن من جميع جهاتها • وبلغت النار معرض العربات ، والحي الواقع وراء الموسكوفا، و « غوستيني دفور » وشارع « بوفارسكايا » ، والقوارب في الموسكوفا ، وسوق الاخشاب قرب جسر « دوروغو ميلوفو » •

كانت طريق بطرس تمر من أزقة ، ومن شارع « بوفار سكايا » الى « الآربات » وتفضي الى كنيسة القديس نيكولا حيث حدد في خياله ، منذ زمن بعيد ، الموضع الذي سينجز فيه عمله • كانت البوابات والمصاريع في معظم البيوت مغلقة ، والشوارع والازقة مقفرة ، والهواء يفوح برائحة الحريق والدخان • وبين الحين والاخر كان المرء يلتقي روسا وجوههم قلقة ووجلة ، وفرنسيين يمشون مشية عسكرية في وسط الشارع • كانوا جميعا ينظرون الى بطرس بدهشة • كان يجتذب انتباه الروس لانهم لم يكونوا يفلحون في تحديد الطبقة الاجتماعية التي يمكن أن ينتمي اليها هذا الرجل ، فضلا عن طول قامته وبدانته ، وما ينطق به وجهه وشخصه كله من تجهم وانكماش وهم • أما



@ketab_n @4_readers

الفرنسيون فكانوا يتطلعون اليه بدهشة لانه لم يكن يعيرهم اتباهه ، خلافا لجميع الروس الذين كانوا ينظرون اليهم بفضول متخوف . وعند بوابة أحد المنازل أوقفه ثلاثة فرنسيين كانوا يكلمون روسا دون أن يوفقوا في افهامهم ، ليسألوه ان كان يعرف الفرنسية .

أومأ بطرس برأسه نافيا وتابع طريقه . وفي زقاق آخر ، صاح به حارس كان يقوم بالحراسة امام صندوق اخضر ، ولم يفهم بطرس أنه يجب عليه المرور من الجانب الاخر للشارع الا بعد الانذار الثاني وبعد أن رفع الحارس بندقيته مهددا . لم يكن يسمع أو يرى شيئا حوله . وكان يحمل في نفسه ، وهو مستعجل فزع ، مشروعه وكأنه شيء رهيب وغريب يخاف ــ متعلما من تجربة الليلة السابقة ــ أن يضيع منه . لكن بطرس لم يتح له أن يحتفظ بحالته النفسية سليمة حتى الموضع الذي كان يتجه اليه . وفوق ذلك ، فلو أن شيئا لم يستوقفه في الطريق لما أمكن لمشروعه أن يتحقق ، لهذا السبب الوجيه وهو أن نابليون مر من ضاحية « دورو غوميلوفو » ، عبر الآربات الى الكريملين ، منذ اكثر من أربع ساعات ، وأنه يقيم الان في مكتب القياصرة ، وهو في أشد حالاته النفسية اكفهرارا ، ويصدر أوامر مفصلة ، دقيقة ، عن التدابير المباشرة التي يجب أن تتخذ لاطفاء الحريق ، والحيلولة دون النهب ، وتهدئة السكان . لكن بطرس لم يكن يعلم ذلك ، كان يتعذب ، وهو مستغرق فيما سيتم استغراقا كاملا ، كما يتعذب الذين يصرون على تحقيق المحال ، لا بسبب صعوباته بل بسبب التعارض بين المشروع وطبيعته هو ، كان يرتجف خوفا من أن يضعف في اللحظة الحاسمة وان يفقد من ثم ، تقديره لنفسه .



@ketab_n @4_readers

ومع أنه لم ير أو يسمع شيئا حوله ، فانه كان يتجه بغريزته ، دون أن يخطىء في اختيار الازقة التي ستفضي به الى شارع «بوفار سكايا» • كان الدخان يتكاثف كلما اقترب بطرس من هذا الشارع، وحرارة الحريق تشتد • وبين الحين والحين ، كانت ألسنة اللهب تنبعث من سطوح المنازل ، وقد غدت الشوارع أحفل بالناس ، وغدا الناس اشد قلقا واضطرابا • ومع أن بطرس أحس أن شيئا مخالفا للمألوف يجري حوله ، لكنه لم يتبين أنه كان يقترب من الحريق • وبينما كان يسير في طريق يمر عبر أرض خلاء مجاورة من جهة لشارع « بوفارسكايا » ، ومن جهة أخرى لحدائق قصر الامير «غروزنسكي »[1] ، سمع فجأة على مقربة منه ، نحيب امرأة يمزق القلب • فوقف ورفع رأسه وكأنه يفيق من حلم •

الى جانب الطريق ، على العشب اليابس ، تكدست أشياء منزلية : تحف وسماور وايقونات وصناديق • وقرب الصناديق ، جلست ، على الارض ، امرأة هزيلة متقدمة في السن ، طويلة الاسنان الامامية ، مرتدية معطفا طويلا أسود وواضعة على رأسها قبعة • كانت هذه المرأة تتمايل وهي تنوح وتذرف دموعا ساخنة ، وتردد شيئا • وبجنبها طفلتان في العاشرة والثانية من عمرهما ، تلبسان فسطانين وسخين قصيرين ومعطفين صغيرين ، كانتا تنظران الى امهما بحيرة بادية على وجهيهما الشاحبين الخائفين • بينما راح يبكي بين ذراعي المربية العجوز طفل اصغر منهما ، في نحو السابعة من عمره ، يلبس بلوزة وقبعة ضخمة أكبر من رأسه •

---

(١) امراء آل غروزنسكي ابناء آخر ملك لجيورجيا •



@ketab_n @4_readers

وجلست خادمة قذرة حافية القدمين على صندوق ، وقد حلّت شعرها الاشقر المائل الى الصفرة وأخذت تنزع منه شعرات شقراء ترفعها الى انفها • أما الزوج فكان رجلا قصير القامة ، محدودب الظهر، في بزة موظف ، له سالفان مقوسان ، وصدغان أملسان كشفت عنهما قبعته المستقيمة على رأسه ، وكان يحرّك الصناديق التي وضعت بعضها فوق بعض ، وهو جامد الوجه ، ويسحب من تحتها ثيابا •

ألقت المرأة بنفسها عند قدمي بطرس حين شاهدته ، وقالت خلال نحيبها :

ـ خلّصونا أيها الاخيار ، أيها المسيحيون الارثوذكسيون ، ساعدنا أيها السيد الكريم ! ••• ليمد الينا أحدكم يد المساعدة • ابنتي الصغيرة ! •• ابنتي ! •• تركنا ابنتي الصغيرة ! • لقد احترقت ! اوه ! اوه ! اوه ! أمن اجل ذلك دلّلتك •• اوه ! اوه ! اوه !

قال لها زوجها بتؤدة ، ولا ريب أنه كان يريد أن يبرىء نفسه أمام انسان آخر لا غير :

ـ اهدئي ، يا « ماريا نيكولايفنا »

وأردف :

ـ لابد أن اختك أخذتها ، والا فأين يمكن أن تكون !

صاحت المرأة بحقد وقد كفّت فجأة عن البكاء :

ـ أيها الوحش ، الاثيم ! أنت عديم القلب ، عديم الرأفة بابنتك • لو كان أبوها غيرك لانقذها من النار •

وقالت لبطرس بسرعة وهي تنتحب :

ـ هذا وحش ، وليس رجلا ولا أبا • وأنت رجل نبيل القلب •



@ketab_n @4_readers

كانت النار بجانبنا وامتدت الى بيتنا ••• صرخت الخادمة : النار ! فهرعنا لنجمع حاجاتنا واندفعنا الى الخارج وعلى ظهورنا ما جمعناه ••• انظر الى ماستطعنا حمله ••• الايقونة وجهاز العرس ، أما ما سوى ذلك فقد ضاع • تطلعت فلم أجد « كاتيا » اوه ! اوه ! اوه ! يا الهي •• واستأنفت نحيبها :

ـ ابنتي الصغيرة الغالية ، لقد احترقت ، احترقت !

سألها بطرس :

ـ وأين بقيت ، أين ؟

أدركت المرأة من انتعاش وجهه أنه قادر على مساعدتها • فصرخت وهي تضمّ ركبتيه بذراعيها :

ـ ياسيدي الكريم ! أيها المحسن الي ، طمئن قلبي على الاقل •••

وصاحت بالخادمة وهي تفغر فمها الغاضب وتمعن في الكشف عن أسنانها الطويلة :

ـ « أنيسكا » ، اذهبي ، يا خبيثة ، ودلّيه على الطريق •

قال بطرس باندفاع وبصوت لاهث :

خذيني الى البيت ، خذيني ، أنا ••• أنا ••• أنا سأفعل ذلك •

خرجت الخادمة القذرة من خلف الصندوق وسارت ، وهي تُصلح ضفيرتها وتتنهد ، بقدميها العريضتين العاريتين على الطريق أمام بطرس• وكأنما عاد بطرس الى الحياة فجأة بعد إغماء عميق ، فرفع رأسه ، وتوقّد بريق الحياة في عينيه ، وتبع الخادمة بخطوات حثيثة ثم سبقها ودلف الى



@ketab_n @4_readers

شارع « بوفارسكايا » • كان الشارع كله مغطى بسحابة من الدخان الاسود • وكانت تنبعث منه في بعض المواضع ألسنة اللهب ، وقد أخذ جمهور غفير يزدحم أمام اللهب • وفي وسط الشارع ، كان جنرال فرنسي يقول شيئا للذين يحيطون به • فلما أوشك أن يقترب بطرس والخادمة من الموضع الذي يقف فيه الجنرال الفرنسي ، أوقفه الجنود الفرنسيون • وصاح به صوت :

ـ المرور ممنوع •

فصرخت الخادمة :

ـ تعال من هنا ، سنمر من الزقاق ومن فناء آل « نيكولين » •

عاد بطرس أدراجه وتبعها وهو يوسع خطاه بين الحين والآخر كي لا يتخلف عنها • عبرت الخادمة الشارع راكضة ، وعرّجت الى اليسار في زقاق ، وبعد ثلاثة بيوت ، انعطفت الى اليمين من بوابة ، وقالت :

ـ سنصل عما قريب • واجتازت الفناء جارية ، وفتحت بويب حباك ، ووقفت وأرت بطرس جناحا من الخشب يلتهب بلهب خالص ويُشيع حرارة قوية ، وقد انهار جانب منه وأخذ الجانب الآخر يشتعل، ولهب النار ينبعث من فتحات النوافذ ومن السقف •

عندما اجتاز بطرس الباب الصغير آذته الحرارة فوقف بالرغم منه، وسألها :

ـ أي البيوت بيتكم ، أيها ؟

فزعقت الخادمة ، وهي تشير الى الجناح الذي يحترق ، شاعرة بالحاجة الى اظهار عواطفها أيضا :



@ketab_n @4_readers

ـ أوه ! هاهو ذا ، هاهنا كان مسكننا . احترقت ، يا كنزنا ، « كاتيا » ، يا آنستي الصغيرة ! .

أراد بطرس أن يدنو من الجناح ، لكن الحرارة كانت من الشدة بحيث أنه اضطر الى أن يدور حوله فألفى نفسه قرب منزل كبير يحترق جانب من سقفه فقط ، ومن حوله تحشّد جمهور من الفرنسيين . لم يدرك بطرس أول الامر ما كان يفعله هؤلاء الفرنسيون الذين كانوا يجرون شيئا ، لكنه لما رأى أحدهم يضرب فلاحا بصفيحة سيفه وهو يحاول أن ينتزع منه فروة من جلد الثعلب ، أدرك ، على نحو غامض ، أنهم كانوا مشغولين بالنهب ، بيد أنه لم يجد الوقت الكافي ليقف عند هذه الفكرة .

ان قرقعة الجدران والسقوف التي كانت تنهار وتقصّفها ، وصفير النار وزفيرها ، وصرخات الجمهور المهتاجة ، ومنظر سحب الدخان التي كانت تتراكم سوداء صفيقة حينا ، وتثب حينا آخر وهي أرق وقد رقّشها الشرار ، ومنظر اللهب وهو يلعق الجدران أحمر كثيفا هاهنا وكأنه الحزم ، وشبيهاها هناك بالحراشف المذهبة ، والاحساس بالحرارة، والدخان والاضطراب ، كل ذلك ترك في بطرس ذلك الاثر المعتاد المهيّج الذي يتركه الحريق . وقد بلغ من قوة هذا الاثر أنه لما رأى الحريق أحس فجأة بالخلاص من الافكار التي كانت تؤوده ، أحس أنه شاب ، بهيج ، حاذق وثابت العزم . دار حول الجناح من جهة المنزل راكضا وأراد أ ن يندفع الى الجزء الذي مازال صامدا عندما سمع أصواتا تصرخ فوق رأسه ، ثم سمع بعد ذلك مباشرة ، قرقعة وضجة معدنية من شيء ثقيل يسقط بجنبه .



@ketab_n @4_readers

التفت بطرس فرأى في نوافذ البيت فرنسيين قد رموا درج صوان مملوءا بأشياء معدنية ٠ واقترب من الدرج جنود فرنسيون آخرون ظلوا على الارض ٠ صرخ أحدهم وهو يلمح بطرس ٠

ـ ما الذي يريده هذا ؟

قال بطرس :

ـ أبحث عن طفل في هذا البيت ٠ ألم تروا فيه طفلا ؟

قالت الاصوات :

ـ بم يَهذر هذا ؟ امض في سبيلك ٠

وتقدم أحد الجنود مهددا ، وكأنه خشي أن يتجرأ بطرس فينازعهم مافي الدرج من فضيّات وبرونز ٠

صرخ أحد الفرنسيين من فوق :

ـ طفل ؟ سمعت شيئا يصيح في الحديقة ٠ لعله صبي هذا المسكين٠ يجب ان يكون المرء انسانيا ، فهمتم ٠٠٠

سأله بطرس :

ـ اين هو ؟ اين هو ؟

صاح الفرنسي به وهو يشير الى الحديقة خلف البيت :

ـ من هنا ! من هنا ! انتظر ، سانزل ٠

والواقع أن الفرنسي ،وهو فتى أسود العينين ، في وجنته شامة ، لايلبس سوى القميص ، قفز من نافذة الطابق الارضي بعد لحظة وربت كتف بطرس وركض معه الى الحديقة ، وصرخ برفاقه :



@ketab_n @4_readers

**ـ اسرعوا أنتم ، أخذت الحرارة تشتد .**

وسحب بطرس بذراعه ونفذ الى خلف البيت على درب رملي وأراه شيئـــا مدورا . كان الشيء طفلة بنت ثلاث سنوات في ثوب وردي مستلقية تحت مقعد .

قال الفرنسي :

**ـ هذا هو طفلك . آه طفلة ، هذا احسن ! الى اللقاء يجب ان يكون المرء انسانيا . نحن جميعا فانون .**

وجرى الفرنسي ذو الشامة ليلحق برفاقه .

ركض بطرس الى الصغيرة ، وهو يختنق من الفرح ، وأراد أن يأخذها بين ذراعيه . لكن الطفلة المعتلة ، المصابة بداء الخنازير ، الكريهة المنظر ، الشبيهة بأمها ، أخذت تصرخ لما رأت الغريب وولت هاربة . على أن بطرس أمسك بها ورفعها بين ذراعيه ، فزعقت بصوت مفعـم بالغضب الوحشي وحاولت بيديها الصغيرتين أن تفلت منه وعضـت يديه بفمها الخانب . فاستولى على بطرس احساس مـن الاستبشاع والتقزز كالذي يشعر به لدى ملامسة حيوان صغير . لكنه تحامـل على نفسه لكي لا يرخي الطفلة وركض بها الى البيت الكبير . بيد أن الرجوع على الطريق ذاته لم يكن ممكنا . ولم تكن « آنيسكا » هنا . فاندفع خلال الحديقة ليفتش عن مخرج اخر ، وقد انتابه شعور مـن الرأفة والاشمئزاز ، وهو يضم الى صدره بكل حنان الطفلة المبللة التي كانت تبكي بكاء شديدا .



@ketab_n @4_readers

# الفصل الرابع والثلاثون

عندما رجع بطرس بحمله الى حديقة « غروزنسكي » عند زاوية شارع بوفارسكايا ، مارا بالأفنية والازقة ، لم يتعرف في أول الامر الموضع الذي انطلق منه للبحث عن الطفلة ، لفرط ما غص بالناس والاشياء التي سحبت من البيوت . ففضلا عن العائلات الروسية التي جاءت بأرزاقها لتكون في مأمن من الحريق ، كان هناك بعض الجنود الفرنسيين بألبسة شتى .

لم يلتفت بطرس اليهم . كان مستعجلا للعثور على عائلة الموظف لكي يرد الطفلة الى أمها ويعود لانقاذ غيرها . وخيل اليه أن أعمالا ملحة كثيرة تنتظره . كان يشعر في هذه اللحظة بعد أن حمي من جراء اللهب والركض ، شعورا أقوى بذلك الاحساس من الفتوة والاندفاع والعزم ، وهو الاحساس الذي استولى عليه عندما هرع الى نجدة الطفلة . وقد هدأت الطفلة واستقرت على ذراعه متشبثة بقفطانه بيديها الصغيرتين ، ناظرة حولها كالحيوان الوحشي الصغير . وكان بطرس يلقي عليها نظرة عجلى بين الحين والآخر وهو يبتسم ابتسامة خفيفة . كان يخيل اليه أنه يرى شيئا مؤثرا وبريئا في هذا الوجه المروّع السقيم .

لم يبق الموظف ولا زوجته في المكان نفسه . كان بطرس يسير بخطوات حثيثة وسط الجمهور وهو يتصفح الوجوه التي يصادفها . لاحظ بالرغم



@ketab_n
@4_readers

منه عائلة جيورجية أو أرمنية تتألف من شيخ بهي الطلعـة ، شرقي السمات ، يلبس معطفا جديدا من الفرو مغطى بالجوخ وينتعل حذاء جديدا ، ومن عجوز لها السمات الشرقية ذاتها ومن امرأة شابة • وبدت هذه المرأة لبطرس في منتهى الجمال الشرقي، بحاجبيها الفاحمين المقوسين وبوجهها الجميل ، المائل الى الطول ، ذي اللون الوردي الفاتح الى أبعد الحدود ، العاري من أي تعبير • ان هذه المرأة بمعطف الساتان الفاخر الذي تلبسه وبوشاحها البنفسجي اللامع الذي تغطي به رأسها كانت تذكر ، وسط هذه الاشياء المبعثرة ، وبين هذا الجمهور المحتشد في الساحة ، بنبتة دقيقة انتزعت من بيتها الزجاجي وألقي بها على الثلج• كانت جالسة على بعض الحزم ، خلف العجوز قليلا ، تنظر الى الارض بعينيها اللوزيتين السوداوين الثابتتين اللتين تظللهما أهداب طويلة • وكأنما كانت تعلم بجمالها فخافت عليه • لقد راع وجهها بطرس فالتفت غير مرة بالرغم من عجلته وهو يمر بحذاء السياج • وعندما وصل الى آخر السياج ولم يجد الذين يبحث عنهم وقف وهو ينقل البصر حوله •

أثار انتباه الناس شخص بطرس بهذا الطفل على ذراعيه ، وتجمع حوله عدد من الروس ، رجالا ونساء •

وسألوه :

ـ هل فقدت أحدا، أيها الرجل الكريم ؟ ـ أنت نبيل، أليس كذلك؟ لمن هذا الطفل ؟

أجاب بطرس أن الطفل لامرأة ترتدي معطفا أسود طويلا كانت جالسة في هذا المكان مع أولادها وسأل ان كان يعلم أحد أين ذهبت •



@ketab_n @4_readers

قال شماس عجوز مخاطبا امرأة مجدورة :

ـ لا بد أنهم آل « انفيروف » .

وأردف بصوت شعائري جهير :

ـ ارحمنا ، يا رب ، ارحمنا ...

قالت المرأة :

ـ كيف ، آل « انفيروف » ؟ آل « انفيروف » رحلوا منذ الصباح. لابد أنها « ماريا نيكولايفنا » أو آل « ايفانوف » .

وتدخل أحد الخدم قائلا :

ـ لقد قال : امرأة ، و « ماريا نيكولايفنا » سيدة .

قال بطرس :

ـ لا بد أنكم تعرفونها ، انها امرأة هزيلة ، أسنانها طويلة .

قالت المرأة :

ـ انها « ماريا نيكولايفنا » بذاتها . لقد ذهبوا الى الحديقة عندما انقض هؤلاء الذئاب علينا .

وأشارت الى الجنود الفرنسيين .

أضاف الشماس مرة أخرى :

ـ أوه ! يا رب ، ارحمنا .

وأردفت المرأة :

ـ اذهب الى هناك ، انهم هناك . انها هي بعينها . لم تشأ أن تكف عن العويل والبكاء . انها هي بعينها . من هنا .

لكن بطرس لم يكن يصغي الى المرأة. لقد كان يحدق، منذ لحظات،



@ketab_n @4_readers

فبما يجري على خطوات منه دون أن يرفع بصره عنه • كان ينظر الى العائلة وجنديين فرنسيين اقتربا منها • كان أحد الجنديين رجلا قصيرا ، حركا ، يرتدي معطفا أزرق تزنر عليه بقطعة حبل ، على رأسه قبعة ، ورجلاه حافيتان • أما الجندي الآخـر الذي استرعى انتباه بطرس على نحو خاص ، فكان شخصا طويلا ، أشقر ، هزيلا ، محدودبا ، بطيء الحركة ، غبي المظهر ، يرتدي معطفـا من نسيج صوفي غليظ ، وبنطالا أزرق وينتعل جزمة عالية ، بالية • اقترب الفرنسي القصير ، الحافي ، ذو المعطف الازرق ، من الأرمن ، وقال شيئا ثم ما لبث أن أمسك برجلي الشيخ الذي بادر من فوره الى نزع حذائه • ووقف الجندي ذو المعطف أمام الحسناء الأرمنية ، ساكنا ، لا يفوه بكلمة ، ينظر اليها ويداه في جيبيه •

قال بطرس للمرأة على عجل وبلهجة آمرة وهو يمد اليها الطفلة :

ـ خذي الطفلة ، خذيها •

ورفع صوته بما يشبه الصراخ وهو يضع الطفلة المعولة على الارض:

ـ أعيديها اليهم ، أعيديها !

واستدار نحو الفرنسيين والعائلة الأرمنية • كان الشيخ حافيا • لقد انتزع الفرنسي منه الفردة الثانية وأخذ يضربها بالاخرى • كان الشيخ يقول شيئا وهو يبكي • لكن بطرس لم يرَ ذلـك الا خطفا ؛ كان كل انتباهه منصبا على الفرنسي الآخر ذو المعطف الذي كان يدنو ، في هذه اللحظة ، من المرأة الشابة ، وهو يتهادى ، ثم يخرج يديه مـن جيبيه ويمسك بعنق الفتاة •

ظلت الحسناء الأرمنية جامدة ، لا تحرك ساكنا ، مسبلة أهدابها الطويلة ، وكأنها لا ترى ولا تحس ما كان يفعله الجندي •



@ketab_n @4_readers

بينما كان بطرس يقطع الخطوات التي تفصله عن الفرنسيين ، كان انهاب الطويل ، ذو المعطف ، قد انتزع من عنق الأرمنية العقد الذي تقلدته ، وقد أخذت المرأة الشابة تصرخ بصوت ثاقب ويداها على عنقها .

زمجر بطرس بصوت مليء بنار الحقد وهو يقبض على الجندي المحدودب من كتفيه ويدفعه : دع هذه المرأة . فسقط الجندي ثم نهض وولى فارا . لكن رفيقه رمى الجزمة واستل سيفه وأقبل على بطرس مهددا ، وصرخ به :

ـ اسمع ، اياك والحماقات !

كان بطرس في عنفوان الهياج الذي أخرجه عن طوره وضاعف قواه الى عشرة أمثالها . فانقض على الفرنسي الحافي القدمين ، وقبل أن يتسنى له أن يستل سيفه ، صرعه أرضا وانهال عليه ضربا بجمع كفه . انبعثت من الجمهور صرخات الاستحسان ، وفي الوقت نفسه ، أطلت من زاوية الشارع دورية من الرماحين الفرنسيين الفرسان . اقترب الرماحون خببا من بطرس والفرنسي وأحاطوا بهما . لم يعلم بطرس شيئا مما حدث بعد ذلك . تذكر أنه ضَرب وضُرب وأحسَّ في آخر الامر أن يديه موثقتان ، وأن جماعة من الجنود الفرنسيين أحاطوا به وأخذوا يفتشونه .

كانت أولى الكلمات التي وعاها بطرس :

ـ ان معه خنجرا ، أيها الملازم .

قال الضابط :

ـ آه ! سلاح !



@ketab_n @4_readers

والتفت الى الجندي الحافي القدمين الذي أُلقي القبض عليه مع بطرس وقال :

ــ لا بأس ، ستروي ذلك كله للمجلس الحربي .

ثم التفت الى بطرس وقال :

ــ أتتكلم الفرنسية ، أنت ؟

نقّل بطرس حوله عينيه المحتقنتين بالدم ولم يجب . ولا ريب أن وجهه كان مُرعبا ، لان الضابط قال شيئا بصوت خافت فانفصل عن الفصيلة أربعة من الرماحة ليحيطوا ببطرس .

وردد الضابط الذي وقف على مسافة من بطرس :

ــ أتتكلم الفرنسية ؟ أحضروا المترجم .

فخرج من الصفوف رجل بلباس مدني روسي . وعرف بطرس على الفور من لهجته ولباسه أنه فرنسي في مخزن من مخازن موسكو .

قال المترجم بعد أن تفحص بطرس :

ــ لا يبدو عليه أنه رجل من الشعب .

قال الضابط :

ــ أوه ! أوه ! يبدو لي أنه أحد مشعلي الحرائق .

وأردف :

ــ سله من هو .

فسأله المترجم :

ــ من أنت ؟ يجب أن تجيب عن أسئلة السلطات .



@ketab_n @4_readers

قال بطرس فجأة بالفرنسية :

ــ لن أقول لكم من أنا • أنا أسيركم ، فخذوني •

قال الضابط وهو يقطب حاجبيه :

ــ آه ! آه ! لنسر •

احتشد الجمهور حول الرماحين • كان المرأة المجدورة ومعها الطفلة قرب بطرس ؛ فلما تحركت الدورية تقدمت وقالت :

ــ الى أين يقتادونك ، أيها المسكين ؟ والصغيرة ؛ ماذا أفعل بها ان لم تكن لهم !

سأل الضابط •

ــ ماذا تريد ، هذه المرأة ؟

كان بطرس كالثمل • وازداد هياجه لدى رؤية الطفلة التي أنقذها ، فقـــال :

ــ ماذا تقول ؟ انها تحمل الي ابنتي التي أنقذتها من الحريق قبل برهة • الوداع !

وتقدم بخطوات ثابتة، مهيبة ، دون أن يعلم كيف أمكن أن تفلت منه هذه الكذبة التي لا جدوى منها •

كانت هذه الدورية الفرنسية احدى الدوريات التي أرسلت الى شوارع موسكو ، بنــاء على أمر « دوروسنيل » ، لقطع دابر النهب ولمطاردة مشعلي الحرائق الذين كانوا ، بحسب الرأي العام الشائع بين الفرنسيين في هذا اليوم ، سببا للنكبات المادية • وقد أوقفت هــذه الدورية ، أثناء طوافها بعدد من الشوارع ، خمسة مشبوهين من الروس



@ketab_n @4_readers

وهم حانوتي وطالبان في معهد ديني وفلاح وخادم ، كما أوقفت عددا من النهابين . لكن بطرس كان يبدو ، بين هؤلاء المشبوهين ، أشدهم اثارة للشبهة . وعندما اقتادهم الفرنسيون لقضاء ليلتهم في بيت كبير عند سور « زوبوفو » حيث أقيم مركز للشرطة ، وضع بطرس على حدة تحت الحراسة المشددة .

* * *



@ketab_n @4_readers

# خلاصة الفصول



@ketab_n @4_readers

# الكتاب الثالث

## الجــزء الاول

**الفصل الاول** : تأملات المؤلف في أسباب الاحداث التاريخية على العموم وفي حركة الشعوب الغربية من الغرب الى الشرق سنة ١٨١٢ . حول الحتمية في التاريخ ..... ٩

**الفصل الثاني** : نابليون يغادر درسدن، وصوله الى الجيش في بولونيا . الامر بعبور النييمين وغزو روسيا . حماسة القطعات لنابليون . فوج من الفرسان البولونيين يعبر النهر سباحة ...... ١٦

**الفصل الثالث** : اقامة الامبراطور الاسكندر ، امبراطور روسيا في ، فيلنا . غياب الخطةالعامة وعدم استعداد روسيا للحرب . ولائم وحفلات راقصة يقيمها على شرف الاسكندر المساعدون العسكريون من الجنرالات . هيلين بيزوخوف وبوريس دروبتسكوي في الحفلة الراقصة . نبأ دخول القطعات الفرنسية الى روسيا . رسالة الاسكندر الاول الى نابليون ..... ٢٢

**الفصل الرابع** : الاسكندر الاول يدعو بالاشيف ويحمله رسالة الى نابليون . بالاشيف في المخافر الفرنسية الامامية . اللقاء بينه وبين مورا وحديثهما ...... ٢٨



@ketab_n @4_readers

**الفصل الخامس** : المارشال دافو يستقبل بالاشيف الذي يقضي اربعة ايام في المعسكر الفرنسي ؛ وصوله الى فيلنا التي يحتلها الفرنسيون ..... ٣٥

**الفصل السادس** : نابليون يستقبل بالاشيف . حديثه مع امبراطور الفرنسيين . انفجار غضب نابليون ..... ٣٩

**الفصل السابع** : نابليون يدعو بالاشيف الى الغداء . احتفاء نابليون به . الحديث اثناء الغداء . الاجوبة الموفقة التي رد بها بالاشيف على اسئلة نابليون عن موسكو . سفر بالاشيف .... ٥١

**الفصل الثامن** : الامير آندره يذهب الى بطرسبرج بحثا عن اناتول كوراجين ، ثم يلتحق بالجيش في تركيا حيث يعين في اركان كوتوزوف . وفي سنة ١٨١٢ عند اعلان الحرب ينقل بولكونسكي الى جيش الغرب ، زيارته ليسييه خوري ... خلافه مع أبيه بشأن اخته والآنسة بوربين . سفر الامير آندره الى الجيش ....

**الفصل التاسع** : وصول بولكونسكي الى معسكر دريسا. اركان المقر العام للامبراطور . الافرقة والتيارات في الجيش . الفريق الالماني ، بفويل واتباعه ، منظرو الحرب ، فريق الروس ، باغراتيون ، ايرمولوف ، فريق البلاط ، اركاتشيف وآخرون ، فريق الدوق الاكبر دروميانتزيف ، انصار الصلح ، انصار باركلي دي تولي ، فريق بينيغسن ، فريق رجال الدولة ، شيشكوف وآخرون ، يوجهون رسالة الى الاسكندر الاول يقترحون عليه فيها ترك الجيش ، افرقة اخرى ...... ٦٧

**الفصل العاشر** : تفقد الاسكندر الاول وبينجسن وبولوتشي وبفويل لمعسكر دريسا ..... ٧٨



@ketab_n @4_readers

**الفصل الحادي عشر** : بولوكشي يحدث الاسكندر الاول وينتقد معسكر دريسا . المجلس الحربي بفويل يعرض خطته ، مناقشات . خواطر الامير آندره عن العلم العسكري والعبقرية العسكرية . عزمه على الخدمة في الصفوف لا في الاركان .... ٨٤

**الفصل الثاني عشر** : نيقولا روستوف يتلقى رسالة من اهله يرجونه فيها ان يتقدم باستقالته . رسالة نيقولا الى صونيا. انه يحلم بحياة وادعة في الريف . الحرب التي بدات تحول بينه وبين تقديم الاستقالة . حياة فرسان فوج بافلوغراد أثناء المعارك في بولونيا . نيقولا روستوف وايلين . مأثرة رايفسكي . خواطر روستوف بصدد هذه المأثرة ..... ٩٢

**الفصل الثالث عشر** : مشهد في النزل ، الضباط يغازلون ماريا هنريخوفنا ، زوجة الطبيب ؛ تناول الشاي ؛ لعبة الورق .... ٩٩

**الفصل الرابع عشر** : انتقال كوكبة نيقولا روستوف الى اوستروفنيا . حالة روستوف النفسية قبل المعركة . بداية معركة اوستروفينا .... ١٠٤

الفصل الخامس عشر : الاشتباك بين الرماحين الروس والفرسان الفرنسيين نيقولا روستوف يهاجم الفرنسيين. بكوكبته ويأسر ضابطا فرنسيا . الشعور الغامض الذي احس به بعد اسر الضابط وخواطره عن مأثرته وعن البطولة .... ١٠٩

**الفصل السادس عشر** : حياة آل روستوف في موسكو . مرض ناتاشا النفسي بعد فسخ خطبتها من الامير آندره . اغتمام الكونت والكونتيسة لمرض ابنتهما . الاظباء والرعاية التي اغدقت عليها .... ١١٤



@ketab_n @4_readers

**الفصل السابع عشر** : نفسية ناتاشا . تباعدها عن أهلها وتقربها من بطرس . اعترافها وتناولها ... ١١٩

**الفصل الثامن عشر** : نداء الامبراطور وبيانه عن الحرب يصلان الى موسكو . ناتاشا وامها في كنيسة خاصة لآل رازوموفسكي ، ردود فعل ناتاشا أثناء الصلاة . الصلاة لاجل خلاص روسيا التي غزاها العدو ...... ١٢٤

**الفصل التاسع عشر** : بطرس يعيش على عاطفته لناتاشا . حساباته التنبئية بناء على رؤيا يوحنا اللاهوتي ؛ انه يظن نفسه مدعوا الى القيام بعمل عظيم . يرسل الى آل روستوف رسالة من نيقولا .

**الفصل العشرون** : بطرس يتعشى عند آل روستوف . التقاؤه ناتاشا وحديثهما . قراءة البيان عن الحرب . بيتيا يطلب من اهله ان يتطوع . بطرس يصمم ، بعد أن وعى شعوره نحو ناتاشا ، الا يعود الى منزل آل روستوف .... ١٣٧

**الفصل الواحد والعشرون** : دموع بيتيا على أثر رفض أهله . وصول الاسكندر الاول الى موسكو . بيتيا يصمم على أن يطلب من القيصر السماح له بالتطوع في الجيش . بيتيا بين الجماهير في الكريملين . ردود فعل الجمهور . حماسة بيتيا . بيتيا يعلق في الزحام . عشاء الاسكندر الاول في الكريملين . حادثة البسكويت ١٤٩

**الفصل الثاني والعشرون** : اجتماع النبلاء والتجار في قصر سلو بودسكوي قراءة البيان وحديث النبلاء . خطبة بطرس . الهجوم عليه بسبب كلامه المفرط التحرر ...... ١٥٧

**الفصل الثالث والعشرون** : وصول روستوبتشين ، ثم القيصر . وطنية النبلاء والتجار ..... ١٦٧



@ketab_n @4_readers

# الجـزء الثـاني

**الفصل الاول** : تأملات المؤلف في الاحداث التاريخيةودور الشخصيات التاريخية . دور الاسكندر ونابوليونفي احداث ١٨١٢ ولمحة موجزة عن الحرب منذ البداية وحتى التخلـي عن سمولنسك .... ١٧٣

**الفصل الثاني** : ليسييه خوري، الامير الشيخ بعد شجاره مع ابنه ، يبعد الفرنسية . رسالة جوليا دروبتزكوي الى الاميرة ماريا . رسالة من الامير آندره عـن مجرى الحـرب واقتراب العدو . ضعف ذاكرة الامير الشيخ . الحديث بين الامير الشيخ وديسال عن الحرب . الشيخ بولكونسكييسيء تقدير الخطر الذي يمثله الاقتراب من مسرح العمليات .... ١٨٣

**الفصل الثالث** : الامير الشيخ في مكتبه يقرأ « ملاحظاته ». ارسال الباتيتش الى سمولنسك . الامير يبحث عن موضع لسريره . حديثهمع تيخون بصدد رسالة الامير آندره. الامير الشيخ يتذكر شبابه .... ١٩١

**الفصل الرابع** : سفر الباتيتش الى سمولنسك . نزوله عند التاجر فيرابونتوف . حركة القطعات الروسية خـلال المدينة . الباتيتش عند الحاكم . قصف سمولنسك . جرح ضاهية فيرابونتوف . لقاء الباتيتش والامير آندره الذي كتب الى أبيه رسالة يدعوه فيها الى الرحيل بلا ابطاء الىموسكو. تنديد بيرج ، بصفته قائدا للاركان ، بالامير آندره . ١٩٥



@ketab_n @4_readers

**الفصل الخامس** : الامير آندره في الميدان مع فوجه . حالة الامير آندره النفسية . زيارته ليسيبيه خوري المقفرة . حديثه مع الباتيتش ؛ الامير آندره يظن ، من جراء سوء الفهم ، أن اباه واخته وابنه قد سافروا الى موسكو بينما هم في بوغاتشوروفو. استحمام الجنود في المستنقع. خواطر بولكونسكي بصدد الجنود ( لحم المدفع ) . رسالة من باغراتيون الى راكتشيف تحمل تهما موجهة الى باركلي دي تولي وزير الحرب والقائد العام ...... ٢١٣

**الفصل السادس** : بطرسبرج . المنتديات السياسية : منتدى آنا بافلوفنا شيرر ؛ موقف المنتدبين من الحرب . في منتدى آنا بافلدفنا شيرر ؛ موقف المنتدبين من الحرب ، في منزل آنا بافلوفنا ، أحاديث عن تعيين قائد عام جديد . رأي مناهض لكوتوزوف يبديه الامير فاسيلي . تعيين كوتوزوف قائدا عاما للجيوش الروسية ولجميع الاراضي التي تحتلها . محاورة في منزل آنا بافلوفنا بصدد هذا التعيين . رجوع الامير فاسيلي عن رايه بشأن كوتوزوف ودفاعه عنه بحرارة .... ٢٢٣

**الفصل السابع** : تحرك الفرنسيين من سمولنسك الى موسكو . لافروشكا في أيدي الفرنسيين . حديث نابليون مع لافروشكا . نابليون يأمر باخلاء سبيله .... ٢٣١

**الفصل الثامن** : ليسيبيه خوريه . الامير الشيخ يصاب بنوبة قلبية . رحيل الاميرة ماريا الى بوغا تشوروفو مصطحبة معها اباها المريض . مرض الشيخ بولكونسكي . تحنن الشيخ وحبه لابنته. حالة الاميرة ماريا النفسية. حديثها مع ابيها. موت الامير الشيخ ...... ٢٣٧



@ketab_n @4_readers

**الفصل التاسع** : فلاحو بوغوتشاروفو . القيم الاميري درون . الفلاحون يأبون أن يعطوا العربات لسفر الاميرة ماريا .... ٢٥١

**الفصل العاشر** : حزن الاميرة ماريا بعد موت ابيها . الآنسة بوريين تحمل اليها نداء من الجنرال الفرنسي رامو يدعو فيه السكان الى البقاء في اماكنهم ، وتنصحها بعدم الرحيل . الشعور بالعزة الوطنية لدى الاميرة ماريا . انها تعزم على السفر دون ابطاء . حديثها مع القيم درون ... ٢٥٩

**الفصل الحادي عشر** : درون يعقد اجتماعا لفلاحي بوغاتشوروفو . الاميرة ماريا تخطب في الجمهور . الفلاحون يرفضون أن يتركوا ماريا ترحل من بوغاتشوروفو .... ٢٦٧

**الفصل الثاني عشر** : افكار الاميرة ماريا بصدد والدها ومرضه وموته ..... ٢٧٣

**الفصل الثالث عشر** : نيقولا روستوف وايلين ولافروشكا يصلون الى بوغاتشورفو بحثا عن المؤن . الباتيتش يخبر روستوف بعصيان الفلاحين الذين لايريدون أن يتركوا الاميرة تسافر . اللقاء بين روستوف والاميرة ماريا ..... ٢٧٧

**الفصل الرابع عشر** : غضب نيقولا على الفلاحين المتمردين. الارتباك والاختلافات في جمهور الفلاحين على اثر وصول الفرسان . روستوف يقمع التمرد . استعدادات الاميرةماريا للرحيل . الانطباع الذي تركه كل من نيقولا والاميرة ماريا في الآخر ..... ٢٨٥



@ketab_n @4_readers

**الفصل الخامس عشر** : كوتوزوف يستدعي الامير آندره الى المقر العام. وصول بولكونسكي الى تساريفو زايمستشي . استعراض كوتوزوف للقطعات . استقبال ودي للامير آندره من جانب القائد العام . دينيسوف يعرض على كوتوزوف خطة الانصار الحربية . شخصية كوتوزوف .... ٢٩٣

**الفصل السادس عشر** : حديث ودي خاص بين كوتوزوف والاميرة آندره عن الحرب. كوتوزوف يعرض على بولكونسكي ان يبقى قربه . الامير آندره يرفض . الامير آندره يشعر بالاطمئنان على سير العمليات بعد حديثه مع كوتوزوف .... ٣٠٣

**الفصل السابع عشر** : موسكو قبل الاحتلال الفرنسي . اعلانات روستوبتشين . سهرة راقية في منزل جوليا دروبتزكوي. الجزاء المفروض على الذين يتكلمون الفرنسية. وصول بطرس الى سهرة جوليا ..... ٣٠٩

**الفصل الثامن عشر** : بطرس في منزله . عزمه على الذهاب الى الجيش . وصول الاميرة وكلامها على خطر البقاء في موسكو . سفر بطرس الى قرية فورونتزوفو لرؤية منطاد ليبيك . بطرس يشهد اثناء عودته عقاب طاه فرنسي . بطرس يلتحق بالجيش في موجايسك ....... ٣١٧

**الفصل التاسع عشر** : تأملات المؤلف في معارك شيفاردينو وبورودينو . اسباب معركة « بورودينو » . خطة الوضع المفترض والفعلي للقطعات الروسية والفرنسية أثناء المعركة ..... ٣٢٥

**الفصل العشرون** : بطرس يذهب من موجايسك الى الجيش ويلاقي قافلة جرحى . التقاؤه لطبيب يعرفه . المتطوعون ..... ٣٣٣



@ketab_n @4_readers

**الفصل الواحد والعشرون** : بطرس يفحص وضع القطعات قرب بورودينو . تطواف ديني . كوتوزوف يحضر القداس مع حاشيته ........ ٣٣٩

**الفصل الثاني والعشرون** : بطرس يلاقي بوريس دروبتسكوي وكايساروف وشخصيات أخرى من معارفه في حاشية بينيجسن . تدابير بينيجسن. بطرس يشك في قدرته دولوخوف لدى القائد العام . براعة بوريس في علاقاته مع رؤسائه . حديث بين كوتوزوف وبطرس . دولوخوف يصالح بطرس قبل المعركة ...... ٣٤٧

**الفصل الثالث والعشرون** : بطرس يطوف الخطوط ضمن حاشية بينيجسن . تدابير بينيجسن . بطرس يشك في قدرته على فهم الامور العسكرية .... ٣٥٥

**الفصل الرابع والعشرون** : آندره بولكونسكي عشية معركة بورودينو . حالته النفسية وافكاره . وصول ضباط فوجه ثم وصول بطرس . ٣٥٩

**الفصل الخامس والعشرون** : حديث بين بطرس والامير آندره والضباط عن وضعنا وعن القائد العام وعن الحرب وعن معركة الغد . عصبية الامير آندره وانفعاله . تأملاته في الحرب . افكاره بصدد ناتاشا .... ٣٦٣

**الفصل السادس والعشرون** : نابليون عشية معركة بورودينو . زينة امبراطور فرنسا الصباحية . استقباله محافظ قصره بوسيه . صورة ابن نابليون . الامر اليومي الذي وجهه نابليون الى الجيش .... ٣٧٥



@ketab_n @4_readers

**الفصل السابع والعشرون** : نابليون يتفقد ساحة القتال . ترتيب نابليون القتالي . تأملات المؤلف في استحالة تنفيذ هذا الترتيب .... ٣٨٣

**الفصل الثامن والعشرون** : تأملات المؤلف في دور الشخصيات التاريخية في الاحداث ، وفي الدور الاعمى لنابليون في معركة بورودينو ...... ٣٨٩

**الفصل التاسع والعشرون** : حديث نابليون وبوسيه عن باريس . ارق نابليون . حديثه مع راب . نزهة ليلية امام الخيمة . نشوب المعركة ...... ٣٩٣

**الفصل الثلاثون** : بدايات المعركة . بطرس على الاكمة . منظر ساحة القتال . نار المدفعية ...... ٣٩٩

**الفصل الواحد والثلاثون** : بطرس في الخط الاول . الجرحى بطارية رايفسكي . تأملات بطرس عند البطارية . المعركة تشتد . القتلى . هجوم الفرنسيين ...... ٤٠٥

**الفصل الثاني والثلاثون** : الفرنسيون يهاجمون بطارية رايفسكي بطرس يصارع ضابطا فرنسيا . هجوم الروس المضاد وانتزاعهم البطارية من الفرنسيين . رعب بطرس لدى رؤية القتلى والجرحى .... ٤١٩

**الفصل الثالث والثلاثون** : نابليون اثناء المعركة . دوره من حيث هو قائد للعمليات ...... ٤٢٣

**الفصل الرابع والثلاثون** : المارشالات يطلبون التعزيزات من نابليون . بسالة القطعات الروسية . شكوك نابليون وحيرته فيما يتصل بالنصر . طوافه بساحة القتال .... ٤٢٩



@ketab_n @4_readers

**الفصل الخامس والثلاثون** : كوتوزوف بصفته قائدا في معركة بورودينو . توتر كوتوزوف الفكري وتعبه . ثقته بالنصر . مشادة بينه وبين ولزوجين . الامر بالهجوم لليوم التالي .... ٤٣٧

**الفصل السادس والثلاثون** : فوج الامير آندره الاحتياطي تحت وابل عنيف من نيران الفرنسيين . الامير آندره جريح مركز الاسعاف ... ٤٤٥

**الفصل السابع والثلاثون** : الامير آندره في خيمة مركز الاسعاف . على الطاولة المجاورة اناتول كوراجين الذي بترت ساقه . مشاعر الامير آندره التي رقت .... ٤٥٣

**الفصل الثامن والثلاثون** : رد فعل نابليون لدى رؤية ساحة القتال في بورودينو . نابليون من حيث هو رجل اعمى اخلاقيا .... ٤٥٩

**الفصل التاسع والثلاثون** : تأملات المؤلف في نتائج معركة بورودينو وفي دلالتها ..... ٤٦٥

## الجزء الثالث

**الفصل الاول** : تأملات المؤلف في قوى التاريخ الفاعلة ٤٧١

**الفصل الثاني** : تأملات المؤلف في حركات الجيوش الروسية والفرنسية سنة ١٨١٢ وعملياتها ، وفي خضوع القائد العام للاحداث الجارية ..... ٤٧٧

**الفصل الثالث** : كوتوزوف مع الجنرالات على هضبة بوكلونايا . حديث عن خطة العمليات . كوتوزوف قانع بالاستحالة المادية للدفاع عن موسكو .... ٤٨٣



@ketab_n @4_readers

الفصل الرابع : مجلس حربي في فيلي . جنرالات الجيش الروسي . مشادة بين بينيجسن وكوتوزوف . مداولات . كوتوزوف يصدر أمرا بالانسحاب ....... ٤٨٩

الفصل الخامس : افكار المؤلف عن ترك السكان لموسكو وعن حريقها .... ٤٩٧

الفصل السادس : هيلين بيزوخوف في بطرسبرج . علاقتها الحميمة مع نبيل كبير وأمير اجنبي ، ورغبتها في أن تحافظ على علاقتها بالاثنين . تحول هيلين الى الكاثوليكية .... ٥٠١

الفصل السابع : الموقف المحرج لهيلين الراغبة في ان تتزوج ثانية في حياة زوجها . انها تعد الرأي العام لذلك .موقف أبيها وامها من هذا الزواج . رسالة من هيلين لبطرس تطلب فيها الطلاق .... ٥٠٧

الفصل الثامن : بطرس يعود الى موجاييسك بعد معركة بورودينو . اللقاء بينه وبين الجنود ...... ٥١٣

الفصل التاسع : بطرس يقضي الليل في نزل موجاييسك . افكاره عنهم « هم » اي الجنود ورغبته في أن يكون مجرد جندي . حلم بطرس ( « يجب التوفيق » ) ...... ٥١٧

الفصل العاشر : عودة بطرس الى موسكو . بطرس في غرفة الانتظار لدى الكونت روستوبتشين . قضية فيريستشاغين ٥٢٣

الفصل الحادي عشر : حديث بطرس مع الكونت روستوبتشين عن الماسونية وقضيتي كليوتشاريف وفيريستشاغين. حالة بطرس النفسية.اختفاؤه من منزله.. ٥٢٩



@ketab_n @4_readers

**الفصل الثاني عشر** : آل روستوف . موسكو قبل احتلال الفرنسيين لها . استعدادات السفر في منزل آل روستوف . ٥٣٣

**الفصل الثالث عشر** : ناتاشا اثناء استعدادات السفر . قافلة الجرحى . ناتاشا تنال اذنا في حمل الجرحى الى البيت ..... ٥٣٩

**الفصل الرابع عشر** : آل روستوف يحزمون امتعتهم . نشاط ناتاشا . عربة الامير آندره تقف في منزل آل روستوف ...... ٥٤٥

**الفصل الخامس عشر** : آخر يوم من ايام موسكو قبل التخلي عنها للفرنسيين . الجرحى يطلبون الى الكونت ايليا اندريتش ان يركبوا في العربات . استفسار بهذا الصدد بين الكونت والكونتيسة ....... ٥٥١

**الفصل السادس عشر** : بيرج يأتي لرؤية آل روستوف . فورة ناتاشا على امها بصدد العربات من اجل الجرحى . يستبدل الجرحى بالامتعة .... ٥٥٧

**الفصل السابع عشر** : رحيل آل روستوف . عربة الامير آندره جزء من القافلة . يصادفون بطرس بلباس حوذي .... ٥٦٥

**الفصل الثامن عشر** : بطرس يحس ، بعد عودته من موجايسك ، بشعور من البلبلة ومن فقدان الامل . يختفي من منزله . يقيم في شقة ارملة الماسوني بازديف .... ٥٧٥

**الفصل التاسع عشر** : تخلي القطعات الروسية عن موسكو . نابليون يتأمل موسكو من على هضبة بوكلونايا وينتظر عبثا وصول وفد من الاعيان الروس ٥٨١



@ketab_n @4_readers

الفصل العشرون : موسكو مقفرة.تشبيهها بخلية مهجورة ٥٨٩

**الفصل الواحد والعشرون :** حركة القطعات الروسية خلال موسكو المهجورة . نهب الحوانيت . التزاحم على جسر الموسكوفا ٥٩٣

**الفصل الثاني والعشرون :** في منزل آل روستوف المقفر ، تعطي مافرا كوزمينيشتا خمسة وعشرين روبلا لاحد الضباط ٥٩٩

**الفصل الثالث والعشرون :** موسكو قبل دخول العدو . مشادة في الشوارع . عمال يبتهجون . شجار بين الحدادين واصحاب الحانة . الجمهور في الشارع . قراءة اعلان لروستوبتشين . مشادة مع قائد الشرطة ٦٠٥

**الفصل الرابع والعشرون :** تأملات المؤلف في نشاط روستوبتشين في موسكو . روستوبتشين الذي استاء من كوتوزوف ومن المجرى الذي سارت فيه الاحداث ، يصدر اوامره الاخيرة ٦١٣

**الفصل الخامس والعشرون :** الجمهور أمام منزل روستوبتشين . روستوبتشين يأمر باحضار فيريستشاجين ويسلمه الى الجمهور.رحيل روستوبتشين الى سوكولنيكي. خواطره وحالته النفسية . حديثه مع كوتوزوف عن ترك موسكو ٦١٩

**الفصل السادس والعشرون :** دخول القطعات الفرنسية الى موسكو . قصة الدفاع عن الكريملين على يد قبضة من الروس . الجيش الفرنسي يقيم في المدينة . النهب والسلب. حريق موسكو واسبابه ٦٣٥



@ketab_n @4_readers

**الفصل السابع والعشرون** : حالة بطرس النفسية أثناء اقامته في منزل يازديف . خطته لقتل نابليون . السكير ماكار اليكسيفتش ٦٤٣

**الفصل الثامن والعشرون** : النقيب رامبال في منزل بازديف. ماكار اليكسيفتش ، وهو نصف مجنون ، يطلق النار عليه . بطرس ينقذه . حديث بطرس مع الفرنسي ٦٥١

**الفصل التاسع والعشرون** : بطرس يتعشى مع رامبال . رامبال يقص قصة مغامراته الغرامية . بوح بطرس بأسراره ٦٥٧

**الفصل الثلاثون** : توقف قافلة آل روستوف في ميستيشي اضواء حريق موسكو .... ٦٧٣

**الفصل الواحد والثلاثون** : تفسيرات آل روستوف لحريق موسكو . حالة ناتاشا النفسية منذ أن علمت بجرح الامير آندره وبوجوده في القافلة . تقابل ناتاشا والامير آندره .... ٦٧٧

**الفصل الثاني والثلاثون** : الامير آندره . حالته منذ ان جرح . أزمته النفسية . لقاؤه ناتاشا . ناتاشا تعنى بالامير آندره ....... ٦٨٥

**الفصل الثالث والثلاثون** : بطرس يطوف في شوارع موسكو . وينقذ طفلا من منزل يحترق .... ٦٩٥

**الفصل الرابع والثلاثون** : بطرس يبحث عن ام الطفلة التي انقذها . جنود فرنسيون يسلبون عائلة ارمنية . بطرس يتصدى للدفاع عن الارمنية الحسناء . توقفه دورية فرنسية .... ٧٠٥



@ketab_n @4_readers

@ketab_n @4_readers

## ليون تولستوي
# الاعمال الادبية الكاملة

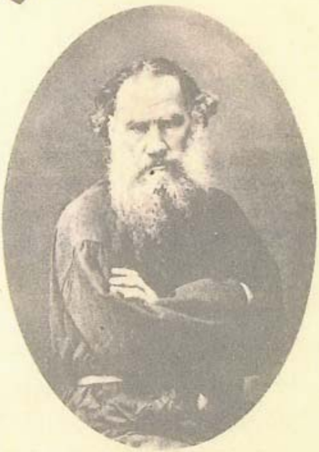

هـذا هو المجلد السادس مـن مؤلفات تولستوي الادبية الكاملة ، والثالث من رواية «الحرب والسلم» وقـد نقلها عـن طبعة Rencontres في لوزان ( سويسرا ) الاستاذ صياح الجهيم باسلوب مشرق يجمع بـين الدقة العلمية ومتانة العبارة العربية.


مطبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق – ١٩٨١

سعر النسخة

٢٧ ل.س.ل